



الدكتور شكري الفحام

الفردق برقى

دار الفكر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com



بين يدي الكتاب

نعمت بصحبة الفرزدق عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢ ، توفرت فيهما على دراسة هذا الشاعر العظيم ، وأعددت رسالتي التي تقدمت بها الى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم صرفتني شواغل جمة قطعت ما بيني وبينها ، حتى سنّي لي الله أن أعود بعد خمسة عشر عاماً لأنقض عن الرسالة غبار النسيان ، وأنا أعلم أن كتباً من مصادر التراث كثيرة قد ظهرت ، وأن دراسات شتى أدبية وجمالية ونفسية ناقدة قد صدرت ، فأغنت حركة النقد الأدبي وطوّرتها مضموناً وطرائق ، وكان يمكن أن أستمد منها في تنمية البحث وتنقيح فصوله . ولكنني آثرت أن أنشر الرسالة كما هي ، لم أغير منها شيئاً . لعلي حرصت أن تظل الرسالة على صورتها الأولى ، شاهد تلك الفترة الحلوة من حياة الدراسة الجامعية المحببة .

يطيب لي في ختام كلمتي أن أذكر بالشكر ، أطيب الشكر وأصدقاه ، الأخ الصديق الأستاذ أحمد راتب النفاخ الذي بذل من وقته وجهده ليشاركني في متاعب قراءة الملازم وتصحيح الطباعة .

وأرجو للرسالة ، وهي جهد المقل ، أن تكون نافعة مفيدة . والله من وراء القصد .

دمشق في : } ٢٠ ربيع الثاني ١٢٩٧ هـ
٨ نيسان ١٩٧٧ م

شاكر الفحام

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة

(١)

احتل الفرزدق في الشعر العربي مكانة عالية ، فكان أحد الثلاثة الذين عدّهم النقاد القدماء فحول الشعر الأموي ، وصدر به ابن سلام الطبقة الأولى من طبقات الشعراء الاسلاميين ، وأطال بذكره اللغويون والنحاة وأصحاب الأخبار ، وكان له في البصرة وعند أهل مسجدها الجامع شأن أي شأن ، حتى قال شيخ من أهل المسجد : « ما كنت أريد أن أجلس الى قوم الا وفيهم من يحدث عن الحسن ، وينشد للفرزدق » (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠) . ولما قدر للأمة العربية أن تهب بعد طول رقاد ، لتلحق بركب الحضارة الذي سبقها أشواطاً ، لم تغفل حركة البعث تراث الأمة العظيم وثقافتها ، فراحت تستحييها ، لتقيم النهضة على ارث من الماضي يعصمها ان تضل طريقها . وكان الأدب ، والشعر خاصة ، في مقدمة ما عنيت باحيائه ، ففيه تتمثل روح الامة وحياتها العاطفية والفنية . وتقدم الأدباء والنقاد يشاركون في تشييد البنيان الجديد ، وبدأت حركة جادة ، جهدت وجاهدت لتنهض بالأدب والنقد ، فيسايرا الآمال التي تعتلج في صدور الامة ويبلغها الآماد التي تتطلع اليها . وقامت حركة ناقدة دارسة ، ارتدت الى الأدب العربي تريد أن تتيين خصائصه وألوان جماله ، لتقومه . وكانت حركة متوثبة نشيطة لم ترض بالموروث من الأحكام ، ولا بالقراءة العابرة المتعجلة ، بل راحت تعكف على تراث الأديب ، في تأنٍّ وصبر وجلد ،

مستهدية في دراستها مقاييس في النقد جديدة ، فاذا هي تدرس البيئة والعصر ، وتتغلغل في نفس الأديب ، تسبر أغواره ، وتكشف عن مكنونات نفسه ، لتكون أقدر على تبين فن الأديب ، وموهبته في التعبير الجميل الذي رزق به الخلود . وكانت دراسات خصبة ، متنوعة أفنانا ، كشفت عن أصالة الأدب العربي ، وأثارت دفائن كنوزه ، وردت اليه جماله ونضارته ، فصدق فيها قولهم : « ان الحاضر يؤثر في الماضي تأثير الماضي فيه » ، وتمضي الحركة في طريقها نشيطة ، خصبة ، تجلّي الغامض ، وتثير المظلم ، في هذا التراث العزيز المتشعب ، يزيدنا النجاح اندفاعا ، والصعوبة مضاء ، مسهدة لتأريخ الأدب العربي في مختلف عصوره ، وشتى بقاعه ، تأريخا فنيا ، يعثه حيا بيّن القسّمات والملامح .

— ولم يحظ الفرزدق ، رأس الشعراء الاسلاميين ، وأغزرهم شعرا ، بنصيبه الذي يستحقه في هذه الدراسات الناقدة ، فلم يعرض له كاتب بدراسة جادة شاملة تصور حياته ، وتكشف عن أسرار فنه التي جعلته أحد فحول الشعر ، فرأيت أن أقوم بهذا الدرس مستهديا ديوان الشاعر ، واخباره لأحبي صورته وأقوّم فنه ، وضاعف من رغبتني في دراسته شيئان :

أولهما : ولوعي بالشاعر الذي استهواني بقوة شعره ، وجمال صياغته ومقدرته الفذة في التعبير ، كأنما سخر الكلام له ، يتصرف فيه على هواه .

والثاني : ايماني ان ظهور شعراء كبار ، مبدعين في عصرنا . رهمن بتوفرهم على الشعر الاول الجاهلي والاسلامي ، لأنه شعر الفطرة الاولى ، يمثل صدق الحياة ، وتدفق يناييعها ، قبل ان تطمسها حياة الحضارة . وقد بلغ الذروة في جمال الصياغة ، وعبر عن أدقّ ماخالج

النفوس ، وماتراعى للعيون : استلهمه الشعراء العباسيون فأثروا بالشعر المعجب ، أدوا به عواطفهم وأفكارهم وتجاربهم ، وعبروا عن حياة عصرهم ، دون ان يحسوا عجزاً ، أو يقصر بهم عن غاياتهم ضعف . ولا بد من العودة اليه نستلهمه ان اردنا لشعرائنا أصالة في الاحساس ، ومقدرة في التعبير والصياغة ، لأنهم بعودتهم اليه ، يعودون الى نبع الحياة الأصيل ، بصفائه وتدفعه ، فاذا أوتوا الموهبة الخالقة ، استطاعوا ان يرتقوا الى آفاق الابداع ، ويسموا بشعرهم الى الغايات التي تتطلع الامة اليها . إن نهضة الشعر في أوربا تدين لاتصال شعرائها بنبع الشعر اليوناني القديم ، والتوفر على آثاره التي ألهمتهم روائعهم الخالدة . ولن يقوى شعراؤنا على التحليق في سماء الشعر ، وخلق روائعه الا اذا استمدوا من شعر الفطرة في ينابيعه الأصيلة ما يحيي في نفوسهم روح الشعر المبدع ، ويفتح عيونهم وقلوبهم على أسرار الجمال ، وينمي فيهم ملكة تذوق الكلم ، وإيقاع موسيقاها ، وظلالها حين تتلاقى صياغة جميلة توحى بالجو الذي كان يصوره الشاعر ، وتغني موهبة التعبير لديهم ، فاذا هم أقدر على الافضاء بما ينبض به القلب ، أو يلحح الذهن . وليست هذه العودة سجنا للفنان يعوقه عن التحليق والابداع ، ولكنها معينه الذي يأخذ بيده ، فلا يدعه يضل ، معتسفاً أرض الشعر ، بغير دليل .

وقد بذلت في الدراسة ما وسعني ، لأدلّ على ملامح الفرزدق ، وأبين مواطن القوة والجمال في شعره ، مؤملاً ان أكون وفقت في كشف الطريق لدراسات لاحقة ، تتناول هذا الشاعر الفذ ، الذي صور في ديوانه نفسه ، فأفاض في الحديث عنها ، لا يكاد يخفي منها شيئاً ، وصور عصره بطولاته ، وحروبها ، وفتنه ، ورجاله ، فأحياها بكل ما اضطرب فيه ، وكان خير من عبر عنه بين شعراء عصره ، بل كان خير شاعر عبر عن أحاسيسه وعواطفه التي ابتعثها في نفسه أحداث عصره ، وشخص أهله .

(٢)

واقترضتني الدراسة أن أقسم رسالتي بايين اثنتين : بابا تناولت فيه بيئة الشاعر ، ووصف حياته ، وبابا ووقفته على دراسة شعره ونقده .
وقد توزع الباب الاول في الرسالة فصلان :

الفصل الاول : درست فيه البصرة وباديتها حيث أوطن الشاعر وعاش حياته ، فصورت حياتها السياسية وبنائها الديني والاجتماعي ، ووصفت حياتها الثقافية الدينية والفكرية والأدبية ، منذ اختطها العرب حتى نهاية القرن الاول الهجري . ولم أفض في الصفة ، لأنني لست بسبيل تأريخ حياة البصرة ، واكتفيت بالسرذ والاشارة الموجزة التي تضيء جوانب من حياة الشاعر ، وتعين على فهمه ، ذلك بأن هذا العصر لم يعرف شاعرا اشتدت صلته بعصره ، وقويت علائقه برجاله وأحداثه كالفرزدق ، فكانت هذه التوطئة خير ممهذ لفهم الشاعر ، وتبين آثار هذه الحياة بمختلف جوانبها السياسية والدينية والثقافية ، في شعره .

والفصل الثاني : في وصف حياة الشاعر ، وهي حياة طويلة خصبة لم تمض هينة يسيرة ، بل عرضت فيها للشاعر شدائد كابدها ، وهموم عاناها ، ولكنه ظل فيها الشاعر المتعالي المزهو ، وريث المجد والمفاخر ، وقد قدمت بين يدي قصة حياته لمحة عن تاريخ قبيلته تميم ، ومقام أسرته فيها . ولم يكن لي بد من ذلك ، وكيف أغفل عنه ، وما عرف تاريخ الأدب شاعرا كالفرزدق تعلق بقبيلته تعلقه ، أو فخر بها فخره . وقد جهدت ما وسعني الجهد أن أستمد من أخباره وأشعاره ما يسعفني في إعادة الصورة ، وبعث الحياة فيها . ولا أزعجني اني وفقت التوفيق كله ، فما زال في الصورة

ظلال لا تشف عما تحتها ، لم أبح لنفسي أن أثيرها تصورا ، وتوهما ، لان الخيال خداع ، يهجم بصاحبه على الخطأ ، ويورده السراب ، فاكتفيت بما انتهت اليه ، حتى يظهر من الحقائق ما يعين على اتمام النقص ، وأول ذلك طبعة محققة لديواني الفرزدق وجرير اللذين اشتبكت حياتهما ، فقد مرت بي طائفة من الاشارات في ديوان جرير خاصة ، لم أقطع بالمراد منها ، وكان فيها معين على فهم أشياء في حياة الفرزدق ، وايضاح أشعار له •

أما الباب الثاني فتوزعته فصول خمسة :

الفصل الاول : وعنت فيه بتوثيق شعر الفرزدق ، فدرست رواياته وبينت عمل الرواة فيه ، وأشارت الى النقص في نشر الديوان ، والنقائص • ودلت على أبرز المخطوطات ووصفتها ، وأرشدت الى الطريقة المثلى ، في ظني ، لنشر جديد علمي ، يضم اليه المتناثر من شعر الفرزدق في الكتب المختلفة ، وهو كثير •

وخصصت الفصل الثاني بدرس الهجاء والفخر ، لأنهما رأس أغراض الشاعر التي طرقها ، دار عليهما أكثر شعره ، ومنهما استمد شهرته ، وبهما طبعت شخصيته في عصره ، وماتلاه من عصور • وبدأت بدرس النقائص : الفن الذي بارى فيه جريرا ثمانيا وأربعين سنة ، فنهضا به نهضة جعلته يعرف بهما ، ويذكر مقرونا باسميهما ، فلما استوفى القول في النقائص غايته ، عقبته بذكر الهجاء والفخر في ديوان الفرزدق مشيرا الى أبرز خصائصهما ، لأنهم صورة هذين الغرضين اللذين كانا في النقائص الاساسيين •

وكان الفصل الثالث معرض أغراض الشاعر الاخرى : الغزل والوصف ، والمدح والرثاء ، وقد أوضحت تخلف الفرزدق في الغزل ، فلم يكن في طبعه الجاسي الجاف ، ولا في أسلوبه الفخم القوي ، الجزل ، معين له ان يتشكى

الصباغة ، ويحسن صفة مايلقى المحبون • ثم بينت فطرة الفرزدق المصورة،
وابداعه في احياء الصورة وتشخيصها ، وتخيلها لسامعه ، تسغه في
ذلك موهبة فذة في تذوق الالفاظ المعبرة ، الثرة بمعانيها • ودلت انه
في مدائحه لم يكن باهت الشخصية ، ناصل الالوان ، يتزلف ويستجدي
بل كان معتدا بنفسه ، يرى أنه وافد قومه على الخلفاء ، ييئث شكواهم،
ويدفع عن حقهم ، وينصرهم ، ويرفع عنهم مائءوا به من مظالم ، ويصور
مدوحه بفضائل فيه ، يبالغ فيها مبالغة الشاعر يتشوف الى المثل الأعلى •
ففي مدحته بذور الواقع التي تمنع ان تختلط صورة بصورة • وماأبعد
صورة الحجاج في مدائحه عن صورة سليمان بن عبد الملك ، انهما صورتان
مختلفتان ، متباينتان ، وان كاتتا مديحا خالصا • ولم أنس الاشارة الى
هواه السياسي ، وانه كان بصري المنزع،أيد ابن الزبير حين ايدته قبيلته
تميم البصرة ، فلما استتب السلطان لبني أمية أيدهم ، وراح يحطب
في جبلهم ، وضمن مدائحه احتجاجا لحقهم خصم به أعداءهم • ولم يكن
الفرزدق مبرزا في فن الرثاء فقد ملأ نفسه التفخر وحب العراك ، فكان
أسلوبه فخما ، قوي الأسر ، شديد الرزاة ، لايلين لتفجع •

وكان الفصل الرابع دراسة لظواهر اللغة والنحو في شعر الفرزدق
وهي ظواهر لفتت اليه الأقدمين من اللغويين والنحاة والنقاد • وقد
بذلت وسعي لأوضح الأسس التي قامت عليها شهرته عند اللغويين والنحاة
حتى غصت كتبهم بشواهد شعره •

وجعلت الفصل الخامس لبيان خصائص الشاعر الفنية التي أكسبت
شعره الجمال والخلود ، فتناولت مميزات المعاني ، ومايتصل بها من فني
القصص والسخرية ، وأتبعتها بالمميزات اللفظية التي تجلت في لفظ الشاعر
وأسلوبه وصوره ، وميله الى التهويل •

وأتمت الدراسة بخاتمة دلت فيها على أبرز ما انتهت اليه في دراسة
الشاعر وفنه •

(٣)

وتنوعت مصادر البحث تنوع فصوله • ففي بحث بيئة البصرة عدت الى كتب التاريخ والبلدان ، والى تاريخ الطبري ، وفتوح البلدان للبلاذري خاصة ، لأصور نشأة البصرة ، وحياتها السياسية ، وكان طبقات ابن سعد خير مصدر استمددت منه وصف الحياة الدينية ، الى كتب أخرى في طبقات المحدثين والفقهاء والقراء ، أكملت مادعا اليه البحث • واستعنت بكتب طبقات النحاة واللغويين ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج ، والفهرست لابن النديم ، ووفيات الاعيان لابن خلكان لأصف النشاط الأدبي والثقافي الذي ساد البصرة في القرن الأول •

وكان كتاب الاغانى لابي الفرج الاصبهاني (ت ٣٥٦هـ) أوفى المصادر القديمة التي تحدثت عن الشاعر ، فقد أفرد له ترجمة طويلة في الجزء الواحد والعشرين (ط • بيروت) (١) ، وذكر خبره مع النوار خاصة في الجزء التاسع ، وأشار اليه في ترجمتي جرير والاخلطل ، وأخبارهما ، في الجزأين الثامن والحادي عشر ، الى أخبار أخرى تناثرت في كتابه • ويليه كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (١٣٩ - ٥٢٣١هـ) ، الذي جعل الفرزدق رأس الطبقة الاولى من الشعراء الاسلاميين ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، وقد رجعت الى كتاب انساب الاشراف للبلاذري (ت ٢٧٩هـ) الذي خص الفرزدق بترجمة واسعة ، وأكثر من ذكر أخباره ، حتى لا يفوقه في ذلك كتاب إلا كتاب الأغاني • وكان مصدر عنايتي به أنه أقدم من الاغانى بزهاء ثمانين عاما ، وهو أمر له شأنه

(١) وهو الجزء التاسع عشر في طبعتي بولاق والساسي .

في باب الرواية ، وان الطرق التي روى بها أخباره تخالف الطرق التي رويت بها أخبار الاغاني ، على تشابه الاخبار في أكثر الاحيان . وكثرة طسرق الرواية تعين الباحث في تمحيص الاخبار للتثبت منها ، وتبين صحتها ومدى توثيقها . ومن الغريب ان صاحب الاغاني لم يرو عن البلاذري في كل ما أتى به عن الفرزدق ، الا خبرا واحدا صغيرا^(١) . وقد ضمت الى الكتب السابقة أخبارا تناثرت في كتاب النقائص لأبي عبيدة ، وفي كتب التراجم والطبقات ، كمعجم الشعراء للمرزباني ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومعاهد التنصيص للعباسي ، وخزانة الأدب للبغدادي .

ومن خير ما ظهر من دراسات تناولت الفرزدق في العصر الحديث كتاب الفرزدق لخليل مردم ، وهو كتاب صغير ترجم فيه للفرزدق ، وتحدث عن فصاحته وبدأوته ، وأثر الإسلام فيه ، وما عيب عليه من التعقيد والمعازلة ، واستعرض بإيجاز فنون شعره . وكتابه أقرب الى الجمع والتلخيص منه الى الدراسة الجادة والتحليل ، وإن كانت تومض فيه لمحات من الأحكام الصادقة ، لما يتمتع به المؤلف من حس مرهف في تذوق الشعر وفهمه ونقده ، ولا غرو فقد كان شاعراً حسن الشعر . وتناول الأستاذ أحمد الشائب نقائص جرير والفرزدق في كتابه : تاريخ النقائص في الشعر العربي (ص ٣٠٢ - ٣٥٧) وقد عني المؤلف بترتيب النقائص ، وابرار جانبها التاريخي ، ووازن بين ميميتي الفرزدق وجرير ، ولم تحظ النقائص بدراسة فنية واسعة تبرز خصائصها وتقومها ، لأن المؤلف أراد أن يجمل في كتابه فن النقائص الأموية فاكنفى بالمعاني العامة ، خشية أن تكون الدراسة المفصلة استطرادا يخرج بالكتاب عن حدوده المرسومة (ص ٤٠٥ - ٤٤٤) . وجاء بعده الدكتور محمود غناوي الزهيري ، فأفرد كتاباً لنقائص جرير والفرزدق ، وعني بترتيبها، وبيان ما خلفته البيئة فيها من

(١) الاغاني ٢١ : ٤١٢ - ٤١٣

آثار سياسية واجتماعية وأدبية ، ولكن الدراسة الفنية كانت موجزة شديدة الإيجاز ، وضعيفة في مجموعها ، وبدا تحكم المؤلف في اختياره الأخبار التي تؤيد دعواه ، وتغاضيه عما سواها ، وكان لقلّة تفرسه بأنماط الأساليب في الكتب القديمة أثر في زلله أكثر من مرة * وعرض الدكتور شوقي ضيف في كتابه : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، للفحول الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجريز ، فكانوا مدار بحثه في الفصل الثالث الذي عقده لبيان التجديد في غرضي المديح والهجاء ، لأنهم خير من يمثل العصر ، ولأنهم دفعوا فن الشعر الى التعبير عن طاقات جديدة ، وقد ذهب شعرهم أو كاد ، في تدييح قصيدتي المديح والهجاء ، فتحدث عن قصيدة المديح الجديدة عند الثلاثة ، لينتقل الى فن النقائض ، ذروة التجديد في الهجاء *

وتبقى كتيبات وبحوث ومقالات تناولت الفرزدق وشعره ، جمعتها في

ثبت أثبت به في آخر الرسالة *

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول
في
بيته الفرزدق وحياته

رَفَعُ
عبد الرحمن الحمدي
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول البصرة في القرن الأول

(١)

الحياة السياسية والاجتماعية :

كانت البصرة الزهراء أول مصر أنشأه العرب في العراق ، يوم أقبلت جموعهم تحت خطاها الى المشرق ، تظله بفيء العدل والرحمة • بنوها سنة ١٤ هـ ، ثم بنيت أختها الكوفة ، فاستوطنتهما القبائل الوافدة ، واتخذتهما دار هجرة ، ومنزل جهاد ، فكانتا مثابة للمحاربين في خراسان وفارس ، وأمنا لأهلهم وأولادهم • وما لبثتا أن أصبحتا محور النشاط الذي عرفه العراق ، وغدت حياتهما صورة حياته في شتى النواحي السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية ، طوال قرن ونصف قرن من الزمان • وقيل لهما ، تنويهاً بسكاتهما ، ورفعاً من شأنهما : المصران ، والعراقان •

تقع البصرة في مستو من الأرض ، لا جبال فيه ، في أقصى البر من أرض العرب ، وأدنى أرض الريف من أرض العجم ، تحيط البادية بغربها ، بينها وبين دجلة أربعة فراسخ ، فيها خليج يجري فيه الماء الى أجمة

قصب^(١) . واختطت البصرة على نحو من تخطيط الكوفة : مدينة مستطيلة مساحتها فرسخان في فرسخ ، طولها ممتد على النهر ، ودورها في البر الى البادية . توزعتها القبائل خطأ ، وسككاً ، ودروباً ، وأزقة ، تتخللها الرحاب والأفنية والمربعات . جعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً ، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً ، وجعلوا عرض كل زقاق ، سبعة أذرع . وجعلوا وسط كل خطة ، رحبة فسيحة لمرابط خيلهم ، وقبور موتاهم ، وتلاصقوا في المنازل . وقامت في البصرة الأسواق والمساجد والقصور والحمامات ، وشقت اليها الأنهار ، مما حفلت به كتب البلدان والأخبار والأدب^(٢) .

كان العرب الذين نزلوا البصرة قلة ، أقبل بهم عتبة بن غزوان ليكونوا رداء لجيوش سعد ، يرد عنها أهل فارس ، وكانوا من قبائل شتى . وقام عتبة بغارات موفقة ، ففتح وظهر ، وأرسل يبشر الناس ، فأقبلوا الى البصرة ، ورجعوا في سكتها ، وتكاثر بها الحشود . وكانت تميم وبكر أسرع القبائل الى البصرة ، لمجاورتهم لها ، فدخلوا اليها من قريب ، وما لبثت القبائل أن تتابعت شتى ، تتال عليها من كل صوب ، واختطت خططها . فلما استقرت بهم الدار ، أخذت البصرة ملامحها ، وتحددت صورتها . فقد توزعت القبائل فيها أخباصاً: خمس بكر بن وائل ، وخمس عبد القيس ، وخمس تميم ، وخمس الأزد ، وخمس أهل العالية . وكانت العشائر العربية الأخرى يلوذ كل منها بالخمس الذي يربطها به آصرة الرحم وشيعة

(١) البيان والتبيين ١ : ١٩ ، الطبري ٣ : ٩٢ ، مسالك الممالك : ٨٠ ، مختصر البلدان : ١٨٧ ، معجم البلدان ٢ : ٩٣ ، وينقل ياقوت في معجمه ٥ : ١٤١ أن سناماً « جبل قريب من البصرة يراه أهلها من سطوحهم » . وتقع البصرة القديمة في الجنوب الغربي للبصرة الحديثة ، على مسيرة ساعتين منها للفارس ، أي مقدار ١٤ ك . م (خطط الكوفة : ٣٧ ، مجلة العربي ، عدد يونيو ١٩٥٩ ، ص : ٥٤ ، عنوان المجد : ١٥٩) .

(٢) البلدان : ٣٢٣ ، الطبري ٣ : ٩١ ، أحسن التقاسيم : ١١٧ ، الأحكام السلطانية : ١٧٩ - ١٨٠ ، فتوح البلدان : ٣٤٨ - ٣٦٥

النسب ، فلاذت اليمن بالازد ، وأهل هجر بعبد القيس ، وعنزة بن أسد ابن ربيعة ، وضيعة بن ربيعة ، والنمر بن قاسط ، بيكر بن وائل ، وضبة والرباب بتميم^(١) .

ولكن البصرة لم تصف خالصة للعرب ، بل شاركهم في سكانها عناصر أخرى ، أبرزها الأساورة ، والسيابجة ، والزط ، والاندغار . كان الأساورة من القوات الساسانية ، أسلموا ، وفرض لهم في شرف العطاء وخطت لهم خططهم ، فنزلوا وحفروا نهرهم الذي يعرف بنهر الأساورة ، فكانوا أول من سكن البصرة من الموالي . وكان السيابجة قبل الإسلام بالسواحل وفي جنبات الخطّ بالبحرين ، وهم قوم من السند والهند ذوو جلد . وكان الزط بالظفوف وأكناف الخطّ يتتبعون الكلاء . والاندغار من ناحية كرمان مما يلي سجستان . فلما اجتمعوا تنازعهم بنو تميم فرغبوا فيهم ، فصارت الأساورة والاندغار في بني سعد بن زيد مناة ، والسيابجة والزط في بني حنظلة بن مالك . وتدل الأخبار أنه وكل إلى السيابجة والزطّ حراسة دار الامارة وبيت المال والسجن^(٢) . وحل بالبصرة الاصبهانيون فسكنوها، وانضموا إلى الأساورة . وأرسل عمر بن الخطاب قوما من الحبش سكنوا البصرة ، وكان لهم فيها درب الحبش في خطة هذيل^(٣) .

(١) الطبري ٣ : ٩٠ ، ٩٣ ، ٤ : ٥٥٩ ، ٥ : ٣٢٩ - ٣٣٠ ، النقائض : ٧٣٧ - ٧٣٨ ، عيون الأخبار ٢ : ٢٩ ، مختصر البلدان : ١٨٨ .

(٢) فتوح البلدان : ٣٦٦ - ٣٦٩ ، الطبري ٢ : ٥٢١ ، ٣ : ١٨٥ - ١٨٦ ، الاغانى ١٥ : ٢٥٦ ، النقائض : ١١٥ ، ٧٣٧ - ٧٣٨ ، الشعر والشعراء : ٢١٢ ، ديوان الفرزدق : ٥٣٨ ، اللسان والتاج (سبج) ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ١٢ : ٤٠٠ .

(٣) فتوح البلدان : ٣٥٩ ، معجم البلدان (حبش) .

هذه هي ملامح البصرة في أول عهدها ، وهي تقارب في خطوطها الكبرى ملامح مدن أخرى نزلها العرب بعد حركة الفتح . ذلك بأن القبائل العربية التي أذن لها أن تسيح في الأرض تعلي كلمة الله ، وتبشر بالهدى ودين الحق ، لم تلبث ، وقد يسر لها الفتح ، ورزقت النصر ، أن استوطنت الحواضر ، ونزلت المدن ، ورابطت في الثغور ، تثبت دعائم الاسلام ، وتنتشر تعاليمه ، وتقيم في منازلها الجديدة حياة تلائم ما دعت اليه ، ونادت به ، وكان الخلفاء أمراء المؤمنين ، وعمر بن الخطاب خاصة ، يحضون القبائل على استيطان الحاضرة ، ويؤثرون أهلها على البداءة^(١) . فاذا العرب يملئون البلاد ما بين أقصى خراسان الى افريقية ، ليكونوا القوامين على الدعوة التي ائتمنوا عليها . وكان عجباً أن يستجيب العرب هذه الاستجابة الطائعة ، يتقبلون ما دعوا اليه ، ويسرعون متحمسين في إنفاذه والعمل به ، واذا القبيلة الواحدة التي كانت تشدها أواصر العصبية في جاهليتها الى مواطن متقاربة ، لتظل قوية بتماسكها ، قد توزعت في الأمصار المختلفة ، المتناحية ، لتساكن قبائل أخرى كانت تنازعها ، فاذا هم في الدار الواحدة اخوة ، يجمعهم الاسلام وتظلمهم رايته ، ويحميهم شرعه . وان المرء ليبهر لهذه المقدرة الفارقة التي قاد بها الخلفاء الاولون حركة الفتوح والاستيطان ، والمعاني البعيدة التي رموا اليها حين حثوا الناس على ايثار الحاضرة ، وحين فرقوا القبيلة أجزاء ، وجهوا بكل منها الى وجه من وجوه الفتح ، وحين جعلوا البلد الواحد قسمة بين قبائل شتى ، تخضع لسلطة الامير الذي يستمد سلطانه من الخليفة دون أن تسانده عصبية من القبيلة ، تشد أزره ، ثم حين ارسلوا حملة القرآن ، وصحابة النبي يقرئون الناس القرآن ، ويعلمونهم أمور الدين ، ويأخذونهم بأدابه ، لتعصمهم العقيدة المتمكنة في النفس أن تنزع بهم نزعات الجاهلية وتنأى بهم عن تعاليم الاسلام . فالبصرة ،

(١) فتوح البلدان : ٤٤٤ .

بتخطيطها وبنية مجتمعتها ، والتقاء قبائلها ، صورة جديدة لطراز جديد من المدن ، قام على أثر الفتح . ولم يبق الا أن نمضي في سرد الأحداث التاريخية الكبرى التي وقعت في القرن الاول لنتبين من مواقف أهل البصرة ، صورة هذا المصر ، والخيوط التي نسجت مصيره ، في القرن الاول ، والسنوات التي تميزه من سواه .

لما أذن عمر أمير المؤمنين للعرب أن ينساحوا في بلاد فارس وخراسان ليقموا هجمات فارس ، كان لأهل البصرة النصيب الأوفى في الفتوح ، وكان الأحنف بن قيس التميمي البصري الذي أشار على عمر بفتح خراسان ممن أوغل في الفتح حتى سماه عمر أسيد أهل المشرق^(١) . وفي عهد عثمان ابن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ) أرسل عبد الله بن عامر واليه على البصرة ، الجيوش الى المشرق وأمعن في بلاد فارس حتى قال الناس له : « مافتح على أحد ماقد فتح عليك : فارس وكرمان وسجستان وعامة خراسان » . وخرج في هذه الحروب الأساورة والزط والسيابجة ، وشاركوا في الحرب والظفر . وظلت البصرة حتى آخر عهد بني أمية صاحبة الكثرة من العرب المحاربين والمستوطنين في بلاد خراسان . ومن هنا غدت الصلات بين البصرة وخراسان أمتن وأوثق ، فتوزعت القبائل في خراسان توزيعا أقرب الى أخماس البصرة ، وغدت الاستجابة بين قبائل المصرين أسرع . فلما عقد حلف الأزدي وربيعة بالبصرة قام مثله في خراسان ، وكان للاحداث التي تقع في أحد البلدين صداها القوي في البلد الآخر ، حتى كأن فرعي القبيلة في البلدين متضامنان . وكان خلفاء بني أمية ، حين لا يرسلون بوال من قبلهم الى خراسان ، ينوطون أمرها بوالي العراق أو بوالي

(١) الطبري : ٣ : ٢٤٤ - ٢٤٧ .

البصرة ، اذا تفرد بولايتها ، لهذا الترابط الذي كان قائما بينهما^(١) . وكانت فتنة عثمان ، وأعقبها موقعة الجمل ، وقد التقى فيها أهل الكوفة يقودهم علي بن أبي طالب ، وأهل البصرة على رأسهم طلحة والزبير وعائشة . وخضعت البصرة لعليّ ذليلة مستكينّة ، وطوت جوانحها على عشائنة عرفت بها طول عهدا . وتتابع الحوادث : كان التحكيم ، وثار الخوارج ، وقتل علي . وأقبل عهد بني أمية ، ولم تستقم أمور البصرة أول الامر حتى جاء زياد واليا على البصرة ، وخراسان ، وسجستان سنة ٤٥ هـ فكان أول وال أموي استطاع بحزمه وحنكته وحسن تديره ، ان يتغلب على المصاعب ليرسي قواعد النظام .

كان زياد ابن البصرة ، شهد تخطيطها ونشأتها ، وعاش فيها : جاء في جيش عتبة بن غزوان المازني ، وكتب لأبي موسى الأشعري ، أميرها ، وغلب عليه حتى فوض اليه أمورها ، وكان واليا على الديوان وبيت المال من قبل عبد الله بن عامر بن كريز والي البصرة لعثمان بن عفان . وولي زمامها ، بعد أن ولي الخراج وبيت المال أيام علي بن أبي طالب ، فخبّر أمورها وعرف شؤون أهلها ، ونوازعهم ، وأعانه ذلك على وضع السياسة الرشيدة : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وتعظيم لأمر السلطان ، واطاعة أولي الأمر ، وبطش بالسفهاء لا يعرف الرحمة^(٢) . وكانت دعوة الخوارج التي نبتت في اثر التحكيم ، قد استهوت بتشددها ونفاذ بصيرة دعائها ، وتوطين أنفسهم على الموت ، طائفة من أفناء القبائل في البصرة ، روعوا الناس ، وأخافوهم ، ودعوا الى الخروج فلما جاء زياد بطش بهم : قتل بعضا ، وسجن بعضا ، واشتد في أمرهم ،

(١) فتوح البلدان : ٣٦٧ ، ٤١٢ - ٤١٣ ، الطبري ٣ : ٣٥٨ - ٣٦٠ ،
٥ : ٢٧٦ - ٢٧٨ ، النقااض : ٣٦٨
(٢) الطبري ٣ : ٩٥ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٥٤٦ ، ٤ : ٨٥ ، ١٦٥ - ١٦٧ ،
فتوح البلدان : ٣٣٨ ، ٣٥١ ، لطائف المعارف : ٦٠ .

وضمنهم عشائريهم ، ومنع اجتماع الناس في البيوت ، لئلا يخفى عليه
خاف مما يدبرونه ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، ثم أدره
العطاء ، وحارب العصبية وحمية الجاهلية ، وتشدد على من يحركهما ،
فهو يستكبر من أمرهما ما صغر وقل شأنه ، خشية أن يستطير شرره .
وقصته مع الفرزدق وسيأتي خبرها في الفصل الثاني ، تدل على شدة
تيقظه في أمرهما ، وحزمه . وقد أخذ زياد نفسه أخذا شديدا حتى لا يقع
منه ما يثير الحمية ، فلم يتعصب لقبيلة على قبيلة ، ولم يشح بوجهه عن
قوم ليتهلل به لآخرين . كان واليا للمصر ، وراعيا للقبائل جمعا ، ولعله
خير وال شهدته البصرة في عهدها الاموي .

وبعث زياد بجيوش البصرة الى خراسان ، تحصن الثغور ، وتحمي
الحدود ، وتسعن في أرض العدو ، ولما ضم اليه الكوفة (سنة ٥٠ هـ)
اختار خمسين ألفا بعيالانهم : من البصرة خمسة وعشرين ألفا ، ومن الكوفة
خمسة وعشرين ألفا ، ليقموا في خراسان . فضمن بذلك استقرار أمر
خراسان حتى لا تنتقض ، وتخلص من بعض المعارضين لحكم بني أمية ،
الذين دربوا على الشعب واثارة الفتنة^(١) . وأفاد زياد من عثمانية أهل
البصرة ليجب اليهم حكم بني أمية ، ويقال انه بنى مساجد لشيعة بني
أمية ، ومن يبغض عليا ، فمنها مسجد بني عدي ، ومسجد بني مجاشع ،
ومسجد الأساورة ، ومسجد الحدان^(٢) .

نعمت البصرة في عهد زياد (٤٥ - ٥٣ هـ) بالطمأنينة والسلام ، فقد
أقام التوازن بين الأخماس والقبائل ، وعرفت البصرة في عهده الرخاء

(١) الطبري ٤ : ١٧٠ ، ١٧٥ - ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٤ .
فتوح البلدان : ٤٠٠ .

(٢) أنساب الاشراف ٤ : ٧٩٤ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٣٦٨ .

والازدهار ، فقد اتاح لها الامن وحسن السياسة أن تعمر ارضها ، وان تزداد خيراتها ، وتتسع تجاراتها ، وتكثر ثرواتها • فقد قامت البصرة فرضة تربط بلاد العرب بالهند ، فتقاطر عليها التجار ، وطلاب الكسب والمعوزون فامتدت تجاراتها ونمت ثرواتها ، وغدت « مأوى كل تاجر وطريق كل عابر » وساعد زياد في عمارة الأرض : « كان يقطع الرجل القطيعة ، ويدهه سنتين فإن عمرها ، وإلا أخذها منه » فأحيا بذلك أراضي كثيرة كانت سباخا ، وبطائح مواتا • وأنهض زياد حركة البناء والتشييد ، « زاد في المسجد زيادة كبيرة ، وبناء بالآجر والجص ، وسقفه بالساج ، وحول دار الامارة الى قبلة المسجد » ، فكان بناء زياد أول بناء بني بالجص والآجر بالبصرة • وقامت في عهده القصور تنبىء بالثراء والنعمة واتسع الرزق (١) •

وجاء في أعقاب زياد ابنه عبيد الله (٥٥ - ٦٤ هـ) فسار سيرته : بالغ في تتبع الخوارج ، وأمعن في تقتيلهم ، لا يكف عنهم ولا يستبقيهم ، وجاهد لاختفات صوت العصية ، واستعمل الدهاقين بدل العرب في جباية الخراج ، لأنهم أبصر بالجباية وأوفى بالامانة ، وأهون في المطالبة من العرب ، لضعف عصبيتهم • وفي عهد عبيد الله سكن البخارية البصرة ، وهم خلق من أهل بخارى سباهم عبيد الله فأتى بهم الى البصرة ، مؤملا ان يكونوا عون له على الشدائد ، وعصبيته ان المت به الملمات ، كانوا ألفين ، كلهم جيد الرمي بالنشاب ، ففرض لهم العطاء وأسكنهم سكة البخارية ، بناها لهم فعرفت بهم ، واتخذ منهم الشرط ، واستعان بهم في محاربة الخوارج ، كما أخذ الولاة من بعد يبعثون بهم لتأديب العصاة (٢)

(١) فتوح البلدان : ٣٤٢ - ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، مختصر البلدان : ٩٢ - ٩٣ ، غرر الخصائص الواضحة : ١٠٩ ، لطائف المعارف : ١٦ - ١٧ .
(٢) الطبري ٤ : ٢٢١ - ٢٢٢ ، ٤٠٣ ، ٤٣٦ ، الاغانى ١٣ : ١٣٣ ، ٢٢ : ٣٤٨ ، فتوح البلدان : ٣٦٩ ، عيون الاخبار ١ : ١٣٢ ، العقد الفريد ١ : ٢٢٣ ، الكامل لابن الاثير ٣ : ٢٥٤ - ٢٥٥ ، معجم البلدان ٢ : ٨٤ - ٨٦ .

وعمر عبید الله بن زیاد البیضاء ، فأكثر من النفقة علیها ، وجملتها ، وزین جدرانها بالتصاوير : أسد كالح ، وکلب نابج ، وكبش ناطح^(١) لیدفع الناس الى العمران والبناء ، فاقتفوا أثره ، واتبعوا خطاه .

وكان لهذه السياسة الحكيمة التي اتبعها زياد وابنه في البصرة، آثارها في مشاعر الناس وتصرفهم . ومثل واحد أذكره يدل على احساس الناس الجديد وماطراً عليهم بعد أن نزلوا الأمصار ، من طاعة الامير ، والحرص على النظام ، والبعد عن عصبية الجاهلية . قالوا : « أتسى البصرة يزيد بن مفرغ ، ونزل على الأحنف بن قيس ، فالتجأ به واستجار ، فقال له الاحنف : اني لأجیر على ابن سمیة ، فاعزل ، وانما يجیر الرجل على عشيرته ، فأما على سلطانه فلا ، فإن شئت أجرتك من بني سعد وشعرائهم فلايريبك منهم ريب » . وتنقل ابن مفرغ يستجير بأشراف البصرة ، فكان موقفهم موقف الاحنف . واذا ضمنا الى كلمات الاحنف كلمات سبقت لبصرة بن شيان الحداني الازدي حين وقفت قيس البصرة تذود عن ابن عباس ، لتحميه من سائر أخماس البصرة اوآخر أيام علي ابن ابي طالب ، فقال صبرة : « والله ان قيسا لأخواننا في الاسلام ، وجيراننا في الدار ، وأعواننا على العدو »^(٢) ، تبين لنا تحول العربي عن عصبية البداوة الى اخاء الحاضرة ومسالمتها ، في ظلال الدين ، الذي حده العقوبة ، وشرع النظم ليستمسك بها المؤمنون .

وأقبل الناس ، في عهد زياد وابنه ، الى البصرة يزفون ، يدفعهم الى الهجرة من مواطنهم ، المعيشة الرغيدة ، والامن الذي تقياً ظلالة البصريون ، والنعم السابغة التي أخذوا يرفلون بها ، وقد زاد عدد أهل

(١) معجم البلدان ٢ : ٣٣٥ ، الطبري ٤ : ٤٠٢ ، آثار البلاد : ٣١٠ .

(٢) الطبري ٤ : ١٠٩ ، الاغانى ١٨ : ١٨٨ .

البصرة زيادة مفرطة ، تنبىء عن النمو الذي كانت تتسع به البصرة • ذكرت الاخبار ان عدد مقاتلة البصرة العرب أيام عليّ كان ستين الفا ، سوى الأبناء ، والعبدان ، والموالي ، فلما كان عهد زياد بلغ عدد المقاتلة العرب ثمانين الفا ، وعيالاتهم مائة الف وعشرين الف عيل ، وفي عهد ابنه عبيد الله أحصى ديوان المقاتلة مائة واربعين ألفا، وتدلّ هذه الاعداد أن أهل البصرة جاوزوا عدد أهل الكوفة منذ عهد مبكر ، فكانوا كما قال ابن زياد : « أكثر الناس عددا ، وأعرضه فناء ، وأغناه عن الناس ، وأوسعاه بلادا » (١) • وبديه أن هذه الزيادة تجر في أذيالها كثيرا من الفقراء والمعدمين ، يتبعون الخير فلا يجدونه ، ويطلبون الرزق فلا يقعون الا على التعاسة والشقاء •

ومات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، وقامت الفتنة في الشام ، وامتدت آثارها الى الأمصار العربية ، وأراد عبيد الله بن زياد أن يتألف أهل البصرة ، فعدّد لهم ما هم فيه من خير ونعمة ، وما كان له من أياد بيض ، في هذا العيش الرغد الذي يتقلبون فيه ، ولكن الناس انفضوا عنه ، ورفض مواليه البخارية أن يقاتلوا معه ، ورجاه اخوته وأهله ان يحقن الدماء ، خوف ان يفقدوا ثرواتهم وأموالهم ، فلجأ الى الأزدي ، ثم هرب الى الشام (٢) ، لبدأ عهد جديد في البصرة ، فقد وقعت فيها فتنة المربد ، (سنة ٦٤ هـ) ، التي كانت بدء التحول في مجتمع البصرة ، اذ تجلت فيها عصبية القبائل والأخماس ، وقتل فيها مسعود بن عمرو العتكي سيد الأزدي ، وكان أن ألفت هذه الفتنة ظلالها على أحداث البصرة التالية ، حتى آخر عصر بني أمية • ولا بد من تبين موقف الأخماس في المصر لتفسير

(١) الطبري ٤ : ٥٨ ، ٣٨٧ ، فتوح البلدان : ٣٤٤ - ٣٤٥ ، العقد الفريد ٥ : ٨ ، النقائص : ٧٢٢ .
(٢) الطبري ٤ : ٣٩٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، النقائص : ٧٢٩ .

هذه الظاهرة ، ذلك بأن موقف القبيلة كان يستوحى عوامل عدة لا بد من مراعاتها ، وهي التي كانت تملئ عليها خطتها ، ونهجها . لقد استطاعت حركة الفتح أن توزع القبيلة الواحدة في مدن شتى ، ولكن الصلات بين أبناء القبيلة الواحدة البادين والحاضرين في مختلف ديارهم ظلت قائمة ، لم يفصم من وحدتها نمط المعيشة ، واختلاف السكنى ، وتباعد الديار ، حتى إن القبيلة لتحالف أخرى فتذكر في تحالفها حاضرتها وباديتها ، ايذانا بهذه الصلة التي ثبتت باقية تربط بين أبناء القبيلة الواحدة^(١) . وان كانت تختلف قوة وضعفا ، وسعة وضيقا ، وفق المدن والاقاليم والاحداث السياسية ، فهي قوية متينة بين قبائل البصرة وخراسان ، مايقع في أحد المصيرين يجد صداه في المصر الآخر دون ابطاء، وقد بينت سبب ذلك قبل^(٢) . وهي أقل قوة بين البصرة والكوفة ، ولكنها تضعف بين قبائل الشام والعراق . وكان للصلة بين البصرة وخراسان أثر في هياج فتنة المربد ، على ما يأتي بعد ، أما السبب الاول فهو مكانة تميم البصرة والبادية ، فمنذ قامت البصرة وأسرت اليها تميم وبكر وتبعتهما القبائل الاخرى ، ظلت تميم القبيلة الكبرى في المصر ، وكانت وثيقة الصلة بباديتها ، لقربها ، وتجاور مواطنها وكثرة تردد أبنائها بين الحاضرة والبادية ، وكثرت تميم بباديتها وعزت ، وحالفت في البصرة الأساورة والسيابجة والزط والاندغار ، فزادت زيادة بالغة ، حتى قيل ان تميما بلغت ، يوم المربد ، مع باديتها وحلفائها زهاء سبعين ألفا^(٣) .

(١) شرح نهج البلاغة ٤ : ٢٣٤ .

(٢) انظر ص : ٢١ - ٢٢

(٣) الكامل للمبرد : ٨٢ ، وفي تصديق ذلك قال جرير/د : ١٧٢ .

سائل ذوي يمن وسائلهم بنا
فأثام سبعون ألف مدجج
في الازد اذ ندبوا لنا مسعودا
متلبسين يلامقاً وحديدا

وكان من ذلك أن غدت مضر تكثر ربيعة بالبصرة ، واضطرب التوازن بين الاخماس ، ولم يكن من سبيل أمام بكر بن وائل الا أن تحالف لتقف أمام هذه الكثرة الكاثرة من مضر ، فلجأت الى الأزدي وعقدتا بينهما الحلف برئاسة سيد الأزدي ، لتستطيعا الوقوف أمام تميم . فلما قامت الأزمة في البصرة سعى عبيد الله بن زياد في توكيد الحلف المعقود ، وبذل الأموال الكثيرة ، أملا أن يردده مثل هذا الحلف الى اماره البصرة ، بعد أن نادت بطون من تميم ومضر بالدعوة الى ابن الزبير في مكة ، وبعد أن كان لتميم أثرها الاول في تولية بية اماره البصرة . فلما أخفق ابن زياد فيما أمل ، جعل مسعود بن عمرو العتكي الأزدي سيد الحلف ، خليفته في اماره البصرة . وهاجت الفتنة يوم أقبل مسعود الى المسجد ليخطب وينزل دار الامارة ، واغتنم حليفه مالك بن مسعم الفتنة ، فمال الى دور بني تميم يحرقها ، شفاء لما قامت به قيس من مناوأة ربيعة في خراسان ، حين استعرض عبد الله بن خازم ربيعة بهراة ، فهاجت تميم ومضر كلها فأقبلوا الى مسعود وهو يخطب على المنبر ويحضض فاستنزلوه وقتلوه ، ثم تراضوا بالصلح بعد ان بقيت بينهم الهزاهز ثمانية أشهر . وتغنى الشعراء يوم المربد غناء جاهليا : فخروا بعصبياتهم وأحسابهم ، واعتزوا بالفتك وشدة القتل ، وتناسوا روح الاسلام . وبدت نوازع العصبية التي كانت قد توارت أيام كان أمير المصّر تؤيده قوة الدولة يجهد جهده لوأد دعوى الجاهلية . لقد أدى التنازع على السلطان الى الفتنة . ولئن كان التنازع على السلطان سنة الحياة التي فطر عليها الناس ، فهم يختصمون فيما بينهم ، ليظفر به الأقوى ، وهو يرى أنه الاحق ، إنَّ النزاع في البصرة بدا جاهليا لأن توزيع الاخماس فيها ، وقد توزعت على صلات الدم ووشائج القربى ، ساعد على الباسه هذا المظهر . فقد أحست تميم ، أقوى الاخماس ، أن الحلف بين ربيعة

والأزد لا غاية له إلا أن يطأطىء من أشرافها ، ولم تستطع أن ترى فيه منذ قيامه إلا حلف عداً لها ، وصفه بذلك سيدها الأحنف يوم عقده ، وظلت تلك نظرة تميم إليه طوال العهد الأموي ، تأمل جاهدة أن تقطعه . وكان الفرزدق لسانها حين قال :

أترضى بنوشيبان ، لله درشهم
بأزد عثمان أخوة ، دون قومهم
وبكر " جميعاً ، كل مشرٍ ومعدم
لقد زعموا في رأيهم غير مزعم (١)

فلا عجب أن نراها تحفزت يوم المربد ، لتدافع عن مركزها ، وهي ماهي اعتزازاً وقوة ، يرفدها ماض عريق ، وتؤيدها بادية لا مكان فيها لغير القوي المناضل ، وهكذا كان لتوزيع الأخماس ، وقيام حلف ربيعة والأزد ، ونفوذ تميم القوي ، وبقية البداوة والأعرابية التي حفظها شدة صلة القبائل الحاضرة بياديتها ، أثر في طبع كثير من أحداث البصرة بالطابع القبلي (٢) .

ولكن ليوم المربد وجهاً آخر ، فإن هذه القبائل لم تمض محتربة فعل العرب الجاهليين ، بل تنادت إلى الصلح ، ورضيت به ، واصطلحوا على عبد الله بن الحارث (بية) من بني هاشم ، واليا وقبلوا به ، ثم أرسلوا بطاعتهم إلى ابن الزبير بسكة ، ليستقبلوا جميعاً حياتهم المشتركة في مصر ، ويتعاونوا في مصيره ، ولعل الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة كان المعبر عن هذه الآمال التي تراود نفوس أهل البصرة حين قال يوم الصلح : « يامعشر الأزد وربيعه ، فانكم اخواننا وأخواننا في الإسلام ، وشركاؤنا في الصهر ، وجيراننا في الدار ، ويدنا على العدو ، ووالله لأزد

(١) ديوان الفرزدق : ٧٥٦ .

(٢) فتنة المربد مفصلة في النقائض : ١١٢ ، ٧٢١ ، والطبري ٤ : ٣٨٧ ،

وانساب الأشراف (ط) ٢/٤ : ٩٧ ، والكامل للمبرد : ٨١ ، ٦١٠ .

البصرة ، أحب الي من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب الي من تميم الشام . . . » وهذا احساس جديد ، ما كان يخطر لجاهلي أن يقوله ، وهو يخفف من المظهر القبلي الذي ظهرت فيه فتنة المربد . ولن يغير من الواقعة أن يقال : ان الاخنف بن قيس نسيج وحده بين الرؤساء ، اذاخلص نفسه للدين ، وتفيد بأحكامه ، فان سيادته تميما في البصرة على غير إرث تدل على أنها رأّت فيه الرجل الذي يعبر عن نوازعها الجديدة ، فرضيت به ، بل لعل الشعراء الذين تغنوا بهذا اليوم غناء جاهليا كانوا في موقف يشبه موقف زياد الأعجم وقد عاتبه المهلب فأجاب : « لاحجة على امرىء انتصر لنفسه ، وحسبه ، وعشيرته » ، فكأنهم لا يريدون العدوان ، وانما يستوحون قوله تعالى : « ولئن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ، آية ٤١) (١) .

وكلمة الأخنف التي عبرت عن أخوة المسلمين في مصر ، تنبئ أيضا بنشوء احساس الانسان برابطة مصر التي تربط بين أبنائه جميعا . ومن هذا الاحساس نشأت تلك الاقوال التي تحاول أن تحدد خصائص مشتركة لأبناء كل مصر ، وتدل على مميزاتهم ، وقامت المنافرات ، شعرا ومناظرات ، بين البلدان ، وبين البصرة والكوفة خاصة . ولئن لم يتح لهذه الرابطة أن تقوى قوة رابطة القبيلة ، إنها شيء جديد رافق نشأة الأمصار ، وحياة المدن ، وكان له أثره في اضعاف المنازعات القبلية .

وأمر آخر ، وهو تنادي أهل البصرة لحرب الخوارج ، فقد استطاعت كلمة « لاحكم الا لله » أن تجتذب طائفة من أفناء القبائل في البصرة ، وقد قوي عليهم زياد وابنه ، فلما كان يوم المربد ، اجتمعوا وكسروا أبواب

(١) النقائص : ٧٤٠ ، ٧٤٤ ، الكامل للمبرد : ٨١ - ٨٢ ، البيان والتبيين ٢ : ١٣٥ ، الاغاني ١٤ : ٢٨٨ .

السجن ، وخرجوا فرأسوا عليهم نافع بن الأزرق الحنفي ، واستولوا على الأهواز ، فجبوا الفيء ، وطرّدوا عمال السلطان ، واشتدت شوكتهم ، فأقبلوا نحو البصرة ، حتى دنوا من الجسر ، فتكاتف أهل البصرة جميعا على صدهم ، وأجمعوا أمرهم على تولية المهلب بن أبي صفرة الأزدي حربهم^(١) . وما كان ليحدث مثل هذا لولا احساس الناس جميعا ان مصيرهم واحد ، لا بد ان يتكاتفوا معا ليصدوا هذا الخطر الداهم .

وأمر ثالث وهو نشوء فئاة القراء في البصرة . ولئن كنا لا نعرف من الأخبار ما يجلو لنا كثيرا من أمرهم ، وما يجمع بينهم ، إن نشأتهم تثبت ان الرابطة الاولى التي جمعت بينهم هي حفظ القرآن ، والتقاؤهم على العمل به ، وانفاذ أحكامه ، لا فرق عندهم بين عربي ومولى ، فهم إخوة في الاسلام . وقد كان لهم آثار بيّنة في حياة البصرة السياسية والاجتماعية والدينية ، فقد كانوا أشد من أهاج الناس على ابن زياد في البصرة ، ووثبوا به حتى خرج الى الشام، وتصدوا للأزارقة يوم تهددوا البصرة، وكانوا في طليعة الجيش الذي انتدب لحربهم . وسنير بنا بعد ، مواقف لهم في تاريخ البصرة^(٢) . ولا بد أن يكون لهذه الفئاة أثرها في تهدئة العصبية وكسر شرّتها .

حلّ السلام في البصرة بعد يوم المربرد ، واستقبلت البصرة عهد ابن الزبير ، ولكنها كانت قد انحازت فئتين ، لكل منهما وجهة وهوى ، فلما هوجم الحجاز لم ينتدب من أهل البصرة لنجدة ابن الزبير الا تميم وحلفائوها ، وكانوا أشد انصار ابن الزبير . والتقى جيش البصرة وجيش الشام بالربذة وكانت معركة عنيفة اتصر فيها البصريون واشترك فيها

(١) الطبري ٤ : ٤٣٩-٤٤٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، الكامل للمبرد : ٦٠٩-٦١١ .

(٢) صحيح البخاري ٩ : ٧٢ ، طبقات ابن سعد ٢/٤ : ٣٥ ، أنساب

الإشراف (ط) ١١ : ٨٥ ، ٩٣

الأساورة ، وفرح أهل المدينة بالنصر فرحا استخفهم • وعدوا يوم الربذة (سنة ٦٥ هـ) ثأرا لقتلاهم يوم الحرة^(١) • ولما ولي الحارث بن عبد الله المخزومي القباة البصرة (سنة ٦٦ هـ) لابن الزبير ، أراد أن يخفت صوت العصية الذي بدأ يجلجل ، وكان الحارث دينا غفيفا كريم النفس ، فلاحق جريراً والفرزدق ، حين توافقا في المربد ، وهدم دورهما • ولكنه لم يكن يسلك في نفسه الحزم والضبط ، ولم تمنهله الاحداث التي كانت تتوالى مسرعة ، وجاء مصعب بن الزبير الى البصرة ليزحف بأهلها الى الكوفة التي سقطت في يد المختار وشيعته من السبئية، والخشبية، وانضم أشرف الكوفة الى المصعب ، وقتل المختار (سنة ٦٧ هـ) وفتك بأصحابه ، وكثر القتل في همدان التي ناصرت المختار ، حتى قال أعشى همدان شاعر أهل اليمن في الكوفة وفارسهم ، وكان مع أشرف الكوفة من أعداء المختار :

وما إن سرنى اهلاك قومي وان كانوا ، وجدك ، في خسار

وعده البصريون هذا النصر منة لهم يمنون بها على أهل الكوفة في

مقام المفخرة^(٢) •

ولكن السلام لم يستتب طويلا ، فقد أقبات جيوش الشام بقيادة عبد الملك بن مروان الى العراق • ولما سار مصعب لملاقاته أطلت أموية البصرة برؤوسها ، فقد كان مالك بن مسع رأس بكر أموي الهوى ، وتابعته ربيعة والازد ، ووقفت تميم تناهضهم ، تؤيدها كثرة مضر ، وعاد انقسام يوم المربد ، واقتتلوا في الجفرة (سنة ٧٠ هـ) اربعة وعشرين يوما ، ولما

(١) أنساب الاشراف (ط) ٥ : ١٥٠ - ١٥٦ ، الطبري ٤ : ٤٧٦ •

(٢) الطبري ٤ : ٥٣٨ - ٥٣٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦١ - ٥٦٢ ، النقائض :

١٦٦ - ١٦٧ ، ٦٠٧ ، ٦٨٣ ، الاغاني ٦ : ٥٠ ، ٥٤ ، تهذيب التهذيب ٢ : ١٤٤ ، طبقات ابن سعد ٥ : ١٨ ، ١٣٥ ، أنساب الاشراف (ط) ٥ : ٢٤٢

عاد مصعب الى البصرة ، وفر مالك بن مسمع رأس الفتنة الى ثاج قام الفرزدق تدفعه عصبيته لتسيم ، فندد بالثائرين ، ونال من رجال من تميم ، انضموا الى أنصار الاموية ، وخالفوا قومهم ، وتكروا لابن الحواري مصعب^(١) .

لم يطل عهد الزبيرين في العراق ، وتقوض حكمهم بقتل المصعب ، وانتصار عبد الملك يوم مسكن (سنة ٧١ هـ)^(٢) . ويبدو أن البصرة قد عانت شيئاً من الضنك والعسرة أيام الزبيرين . فحركة الأزارقة التي قامت في الاهواز قوية عنيفة ، فاستولت على الفيء والخراج ، وتقدمت الى البصرة مهددة ، بعثت الخوف والرعب حتى ان اكثر أهل البصرة ترحلوا عنها ، وكان الباقر على الترحل ، وعطلت التجارة التي لاتمو في ظل الاضطراب وشح المال ، حتى عمد المهلب ، حين قلد حربهم ، الى الاقتراض ليجهز جيشه^(٣) . ورافق حركة الازارقة في الشرق قيام الخوارج النجدية الذين استولوا على البحرين ، فعدت البصرة في حصار ، يشد منها بالمخنق . وقدر للبصرة أن تلقى من البلاء فوق ما لقيت من عنت الخوارج ، فنزل بها الطاعون الجارف سنة ٦٩ هـ ، وانما سمي الجارف لشدة فتكه وكثرة ضحاياه حتى جعل أهل الدار يموتون عن آخرهم ، لا يجدون من يدفنهم ، ويروي المبرد أنه هلك في ثلاثة أيام ، في كل يوم

(١) النقائص : ٧٤٩ - ٧٥١ ، ١٠٨٩ - ١٠٩٢ ، الطبري ٥ : ٣-٤ ، ديوان الفرزدق : ٦٠٠ ، معجم البلدان : (الجفرة) .

(٢) أنساب الاشراف (ط) ٥ : ٣٥١ ، الطبري ٥ : ٨-٩ ، طبقات ابن سعد ٥ : ١٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد : ٥٤٢ ، ٦٢٧ .

سيعون ألفاً • ومن أصيب فيه عالم البصرة أبو الاسود الدؤلي^(١) ، فكان لهذا كله أثره في أن لقيت البصرة الضنك والضييق •

وبدأت البصرة عهدها في ظل بني مروان ، فوليها خالد بن عبد الله الاموي (سنة ٧١ هـ) ، ولم يكن لديه من الحزم والتدبير ما يمكنه من ضبط الامور ، وارساء النظام ، وقوي عليه الخوارج ، وهزموا جيوشه ، ولم يكن بد من عزله ، لتضم البصرة الى بشر بن مروان والي الكوفة ، ولم يطل عهد بشر ، فقد فاجأته منيته خيرا ما كان شابا ونضارة^(٢) •

وأقبل الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراق (٧٥ - ٥٩٥) وكان الحجاج مندفعاً في تأييد بني أمية ، يرى طاعتهم ديناً واجباً ، وحقاً لا مرية فيه ، ويبالغ في تعظيم امر السلطان حتى لا يقبل فيه لمتهاون عذراً • وكان مفطوراً على الشدة والقسوة يراها وحدهما وسيلة تثبيت النظام ، واشاعة الهيبة • ولعل مجتمع العراق بما سادته من اضطراب ، وما تلاعب به من أهواء ، دفع الحجاج الى المبالغة والاشتداد ، لتسكن القتن ، ويخبو الشقاق ، فزاد بتدابيره العنيفة من نقمة العراق وباعد الهوة بينه وبين الشام ، ولم يستطع أن يقوم لبني مروان مقام زياد لبني حرب •

كان على الحجاج أن يبت بمشكلات ثلاث واجهته في العراق :

١ - ثورة الخوارج ٢ - شغب أهل العراق ٣ - مكانة الموالي

١ - أما الخوارج فقد تشمر لهم الحجاج ، وجد في طلبهم ، فأوجد

(١) المعارف : ٦٠١ ، التعازي والمراثي ، ظ ٨٩ ، الاغاني ١٢ : ٣٣٤ ،
انساب الاشراف (ط) ٢/٤ : ١٥٧ •

(٢) الطبري ٥ : ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٤٠ •

المهلب بن أبي صفرة ، وحض الناس الذين تقاعسوا عن الحرب ، وهددهم وتوعدهم ، ولم يقبل لمتخلف عذرا ، فلحقوا بالمحاربين ووالى رسله الى المهلب يحثه أن يمضي في الحرب لايتلبث ولايستأني ، وان يتبع الخوارج المنهزمين لبيدهم ، وما زالت جيوش الحجاج تلح عليهم ، وتشتد في آثارهم ، حتى أفتتهم ، واستأصلت شأفتهم سنة ٧٧ هـ (١) .

٢ - وأما أهل العراق فقد عرفوا بالتسلل من حكم بني أمية والتمرد على ولايتهم ، فلما جاءهم الحجاج لم يرفق بهم ولم يتألفهم ، بل أراد أن يخضعهم ويذل رقابهم ، فهدد وتوعد ، ثم أسرف في العقوبة ، فكان أول من ضرب أعناق العصاة ، وجعل شعاره : إن الحديد بالحديد يفلح ، واختار ولاية وعمالا على صورته ، غاية في القسوة والعنف ، فأرسل أميرا على البصرة ابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي ، وكان فظا ، غليظ القلب ، أعرايا جافيا ، بعث الرعب والخوف في النفوس . وقد فرغ أهل العراق الى أشرافهم ، وفقهائهم ، وقرائهم ، يشكون اليهم ما يلقون من ظلم ، وما يعانون من مهانة (٢) . ومضى الحجاج على سننه فرأى أن يبعث بهم الى الثغور ليخضع شوكتهم ، ويستأصل جذور التمرد من نفوسهم ، فجهز سنة ٨٠ هـ جيشا كثيفا ، قوامه عشرون ألفا من أهل الكوفة ، وعشرون ألفا من أهل البصرة ، يقوده عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لحرب رتبيل في سجستان . ولكن ابن الأشعث ما لبث أن تمرد وعاد لينفي الحجاج من أرض العراق ، وبين يديه أعشى همدان يرجز :

(١) الكامل للمبرد : ٦٢٣ - ٧٠٣ ، الطبري ٥ : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) أنساب الأشراف (ط) ١١ : ٢٧٥ ، (خ) ١٢ : ٣٥٦ - ٣٥٧ ،

الطبري ٥ : ٤٥ ، صحيح البخاري ٩ : ٦١-٦٢ ، ديوان الفرزدق : ٦٨٦،٢٧

إن ثقيفاً منهم الكذابان°
أمكن ربي من ثقيف همدان°
كذابتها الماضي وكذاب° ثان°
إن تاسموا نال الكفور الفتان°

بالسيّد العِطْرِيفِ عبدِ الرحمن°

وكانت معاركٌ عنيقة : دخل عبد الرحمن بن الأشعث البصرة ،
فبايعه أهلها من قرائها وكهولها ، وجاء فرسان الشام ينصرون الحجاج ،
فكانت واقعة الزاوية ، وقتل قراء البصرة في ربضة واحدة ، وانهمز ابن
الأشعث الى الكوفة ، فلما دخلها مال اليه أهلها كلهم ، وسبقت همدان
اليه فحفت به ، واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح
والقراء من أهل المصريين على حرب الحجاج ، وهم اذ ذاك مائة ألف مقاتل
ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم ، وحاول عبد الملك بن مروان
أن يتألفهم فأخفق ، وكانت ملاحم دير الجماجم مائة يوم (سنة ٨٣ هـ)
وانهمز ابن الأشعث وأذل الحجاج أهل العراق ذلاً ما عهدوه حتى أشهدهم
على أنفسهم بالكفر :

واذ° أتمم° من° لم يقل أنا كافر° تردى نهاراً عشرة° لا يُقالها (١)

لقد كانت ثورة ابن الأشعث الانتفاضة الكبرى التي قام بها العراق
تقوده أشراف يمن الكوفة ، لاسترداد العز السليب ، ودحر المد الشامي ،
وكانوا يننون النفس بالظفر ، ويأملون الاستقلال بحكم العراق . وكان
أعشى همدان شاعر السراة الاشراف ، وذوي الاحباب من يمن الكوفة ،
ينافح عنهم بشعره ، ويدعو لهم . ويحرّض على الحجاج وأهل الشام ،
« بين الأشجر وبين قيسٍ باذخ » ، ولم يكن بجانب الحجاج الا أمثالُ

(١) الطبري ٥ : ١٤٠ - ١٤٢ ، ١٤٥ - ١٦٩ ، النقائض : ٤١٢ ،
ديوان الفرزدق : ٦٢٢ ، الاغانى ٦ : ٥٨ - ٥٩ ، والفطريف ، بكسر الغين :
السيد الشريف ، والسخي السري ، والشاب .

حميد الأرقط التميمي الراجز ، يدافع عنه ، ويسخر من عدوه « مازال يبني خندقا ويهدمه » ، فلما قُتل ابن الأشعث أوى العراقُ ذليلاً تحز المأساة في نفوس ابنائه ، وتملأ الرهبة قلوبهم ، وراح الشعراء ، وفي مقدمتهم جرير والفرزدق ، يصفون في أماديحهم هيبة الحجاج وشدته ، وبطشه بالمخالفين ونصر الله إياه ، ويتحدثون عن روح الرعب الذي تملك الناس ، فأرقتهم ، وأقض مضاجعهم واستحوذ على أفئدتهم :

وخافوك حتى القوم تنزرو قلوبهم^١ نزاء القطا التفتت عليه الحبال^(١)

٣ - واما الموالي والرقيق فقد كان لهم في العراق حديث أيّ حديث ، إن الاسلام الرحيم فتح لهم صدره ، فأووا اليه يستظلون بجناحيه وقد دخل أكثرهم في الاسلام موقنا مؤمنا ، قد رأى فيه مثله الأعلى في المساواة والعدالة والكرامة ، ولكن البقية الباقية منهم دخلوا في الاسلام لانه رمز النفوذ والسلطان والجاه ، أو ليتستروا بالاسلام ، ويجدوا فيه منفذا لبت دعواتهم ، ونفت سمومهم ، فقد كانت فارس تعجّ بالآراء الاجتماعية : المانوية ، والمزدكية ، وقد أسرع الموالي الى مصري العراق : البصرة والكوفة ، فساكنوا العرب ، وخالطوهم ، حتى ماج بهم المصران ، وغدوا قوة قوية : شاركوا في الحروب ، وأخذوا الأعطيات ، وبلغوا منازل عالية في المجتمع ، وبرزوا في مناح شتى ، فلا عجب أن نرى الاحزاب العربية تحاول أن تجتذب الموالي والعبيد ، وتغريهم بالانضمام اليها ، فانضم شطر منهم الى الشيعة في الكوفة ، وأيدوا ثورة المختار الثقفي ، وانضم جزء منهم الى الخوارج في البصرة ، وشاركوا في حركاتهم ، وحانت فرصتهم يوم قامت ثورة ابن الأشعث ، فلبوا نداءها ليقوضوا

(١) الاغاني ٦ : ٤٥ - ٤٦ ، ٥٨ - ٦٢ ، الطبري ٥ : ١٧٨ - ١٨٢ ،

١٩٠ ، ديوان جرير : ٤٤٠ .

ملك بني أمية • وكان المتدينون من الفقهاء والأئقياء والقراء يؤيدون الموالي استجابة لنداء الاسلام ، دون أن يدركوا ماتخفيه طائفة منهم من حقد وضعينة على العرب ، ودولتهم ودينهم • فرأى الحجاج أن يعيدهم الى قراهم ، وتشدد في إقناذ ذلك ، ولكنه لم ينجح فيما رمى اليه من إبعادهم ، فما أسرع أن عادوا بعد وفاته (١) •

ووقع الحجاج في أسر العصبية ، فقد خشي أن يقوم المهالبة الازديون بشل ما قام به يسن الكوفة في ثورة ابن الاشعث ، فتخلص منهم ليسلم أمر خراسان الى قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي ، القائد المظفر ، الميمون النقيية ، الذي جاس خلال ديار الترك ، وأخضع عظماءها ، ومدّ من حدود الاسلام ، وأعلى سلطانه ، وبسط ظلال الأمن يتفيؤها الناس • وجعل الحجاج محمد بن القاسم الثقفي قائد جيوش السند ، فتبح وظفر ، وغلب على بلاد السند حتى بلغ الملتان • وتجمعت القوى الكبرى في أيدي القيسيين ، وعلا نجمهم وتألق ، فاتهم الحجاج لذلك بالعصبية والاتكاء على قيس بعدما أرضته « شدات قيس يوم دير الجماجم » ، وأنه لم يتعال على العصبية تعالي زياد ، وفي الحق أن الحجاج كان مضطرا أن يفعل ما فعل ، بعدما أرهقه أهل العراق من أمره عسرا ، فهو لا يجابي أهل عصبيته ، وانما يضمن بهم الولاء للدولة ، الذي يرفعه فوق كل ولاء • وبهدي من هذا الشعور أزاح الحكم بن أيوب الثقفي عن البصرة وهو ابن عمه ، ليوليها الجراح بن عبد الله الحكمي (٨٧-٨٩٦هـ)

(١) أنساب الاشراف (ط) ٥ : ٢٥٨ - ٢٦٧ ، ١١ : ٣٣٦ - ٣٣٧ ، الطبري ٤ : ٥٥٨ - ٥٦٢ ، ٥ : ١٨٢ ، الكامل للمبرد : ٢٨٦ ، ٦٨٦ ، العقد الفريد ٣ : ٤١٦ ، ٤١٧ ، ويرى فلهوزن ان الحجاج أعاد الموالي التي القرى ليوقف تدفق سكان الريف الى المدن ، مما أدى الى نقص الخراج ، (تاريخ الدولة العربية : ٢٤٤ - وانظر ص : ٢٣٦) .

وهو المتهم بعصبيته لليمن ، إذ رآه الأقدَر والأصلح^(١) .

وأراد الحجاج أن يأمن غدر أهل العراق به على غرة ، وأن يوطد سلطانه ، ويضمن له الاستقرار ، فبنى مدينة واسط (٨٣ - ٨٦ هـ) على دجلة ، وكان بينها وبين كلٍّ من المدائن والأهواز والبصرة والكوفة مقدار واحد . فعدت مقام أمير العراقيين أكثر أيام بني أمية ، ونقل إليها البخارية الذين وثق بهم ليحموه ، ويشدوا سلطانه ، وانتقى سكانها ممن لم تجمع بهم الأهواء ، فظلت واسط مسالمة ، يعتنق أهلها مذهب الجماعة ، ولكن لم يتح لها أن تظفر بما ظفر به المصران من استبحار في العلم ، وازدهار في الأدب^(٢) .

ولما قامت حركة التعريب الكبرى في الدولة الاموية أيام عبد الملك ابن مروان الذي ضرب الدنانير والدرهم (سنة ٧٥ هـ) فكان أول من أحدث ضربها ونقش عليها ، ثم عرب الدواوين بالشام ، وحض الناس على لزوم ما في مصحف عثمان الذي اجتمع الناس عليه ، كان للحجاج الفضل الكبير في انجاح الحركة بحماسة واندفاعه لتحقيقها ، فقد رآها خير وسيلة تهيء للعراق سبيل الاستقرار والتلاقي بين مختلف الأجناس على ثقافة موحدة . فقام بتعريب الدواوين على يد صالح بن عبد الرحمن (سنة ٧٨ هـ) ، وكان قد ضرب من قبل النقود العربية ، نقش عليها : « قل هو الله أحد » ، فعرفت بالحجاجية . وعني الحجاج بضبط القرآن عناية بالغة ، جمع الحفاظ والقراء أربعة أشهر ، ووكل اليهم تبيان عدد حروف القرآن ومنتصفه وأسابعه ، وحمل الناس على مصحف عثمان ، وأبطل ما سواه من المصاحف ،

(١) الطبري ٥ : ٢٢١ ، ٢٦٣ ، معجم البلدان : (المولتان) .

(٢) فتوح البلدان : ٢٨٨ ، ٣٦٩ ، معجم البلدان ٨ : ٣٧٨ ، البيان

والتبيين : ١ : ٢٧٥ ، مسالك الممالك : ٨٢ ، تاريخ الدولة العربية : ٢٤١ .

وتهدد من يقرأ على قراءة ابن مسعود ، وأمر نصر بن عاصم بنقطة القرآن وضبطه . وحركة التعريب التي قام بها الحجاج من أعظم الحركات التي تركت آثارها في الحياة السياسية والثقافية ، فقد فسحت الطريق رحباً لتعريب الموالي الذين يحملون بمناصب الدولة والارتقاء فيها ، وقللت من الفروق التي تنشأ عن اختلاف الألسنة ، وهيأت لنهوض الكتابة الفنية وفتحتها ، ولذلك كان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول : « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب » (١) .

ولكن تدابير الحجاج كلها لم تنقذ العراق . كان قاسياً لا يعرف اللين ولا الرفق ، فلقبت أعماله معارضة العراقيين وتكرهم ، وزاد في تفتح الفتنة ، ونمو بذور الشر ، ذلك التباين البالغ في توزيع الثروات ، فقد نشأت فئة ثرية من العرب والموالي ، أخذت تتصرف بأمر الدولة وفق مصالحها ، متناسية مصالح الشعب . كانت القطاعات الكبيرة تزداد منذ أطلقها زياد من عقالها ، فأقطع الأنصار ، وأعوان الدولة ، ورؤساء القبائل ، وكبار الدهاقين ، وقلده الولاة الذين جاءوا بعده ، وكانوا يحوزون لأنفسهم ، وأهلبيهم ، أثمن الغنائم ، وأغلاها . واستشرى الفساد بين الولاة الصغار الذين اتخذوا الحكم وسيلة للشراء ، وطريقاً الى الغنى . وفي الشعر العربي شكوى مرة من الولاة والجبابة لما يكلفون الناس من ضروب الارهاق (٢) . وكان لمسلك الولاة وأتباعهم وأنصارهم أن عرفت

(١) مروج الذهب ٣ : ١٥١ ، فتوح البلدان : ٢٩٨ ، ٤٥٤ ، المصاحف : ١١٩ - ١٢٠ ، ١٨٧ ، الاحكام السلطانية ١٥٤ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ، العقد الفريد ٤ : ١١٨ ، الكامل لابن الاثير ٤ : ١٣٣ ، وفيات الاعيان ١ : ٣٤٤ ، الوزراء والكتاب : ٣٨ ، طبقات ابن سعد ٥ : ١٧٠ ، ١٧٣ ، الفهرست لابن النديم : ٢٤٢

(٢) فتوح البلدان : ٣٥٧ ، ٣٧٢ - ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، أنساب الاشراف (ط) ٥ : ١٩١ ، العقد الفريد ٦ : ٣٤١ ، ديوان جرير : ٤١ ، ديوان الفرزدق : ٢٣٠ ، التطور والتجديد في الشعر الأموي : ١٣٥ - ١٤٢

البصرة أسراً وأفراداً شهروا بكثرة القطائع وثناء المال ، كآل عبد الله بن عامر ، وكأسرة زياد التي توارثت الثروة يسلمها جيل الى جيل « فهي الى اليوم تردد في آل زياد ، فيكون فيهم العرس أو المأتم ، فلا يكون في قريش مثلهم ، ولا في قريش أحسن منهم في العظارة والكسوة » (١) ، ثم أسرة أبي بكر ، وأسرة مسلم بن عمرو الباهلي ، والمهالبة . وبرز في الموالي أمثال شيرويه الأسواري الذي تزوج مرجانة أم عبيد الله بن زياد فبنى لها قصرأ فيه ألف باب ، فسمي هزاردر ، وكان زاذان فروخ خير دهقان يعمل في الخراج ، وكان فيروز حصين أعظم مولى بالعراق قدراً ، ولي الولايات ، وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف » ، فقال فيروز : « من جاءني برأس الحجاج فله مئة ألف » ، وبرز منهم صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج الذي نقل الديوان من الفارسية الى العربية ، وحسان النبطي مولى بني ضبة ، صاحب حوض حسان بالبصرة ، وقناة حسان بالبطائح ، وقرية حسان بواسط (٢) . وقد فطن الحجاج الى ما تنعم به البصرة من ثراء أدرته عليها التجارات والقطائع والصناعات ، مما لا مثيل له في الكوفة ، فقال : « الكوفة جارية جميلة لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها ، والبصرة عجوز شوهاء موسرة فهي تخطب لمالها » . انه يوازن بين موقعي المدينتين ، ثم يفسر سر ازدحام الناس بالبصرة وتتابعهم اليها (٣) . وقتن المال كبار الأثرياء فأخذوا يفتنون في اقتناصه ويستسلمون لطغيانه ، وكان العامة والأثرياء ينظرون الى هذا الثراء نظرات الألم والسخط ، كانوا يرون الأغنياء قد نسوا كلمة الله ، واندفعوا وراء المال ، يروون جشعهم وحرصهم ، وما أصدق

(١) الطبري ٤ : ٣٩١

(٢) فتوح البلدان : ٢٩١ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، البيان والتبيين ١ : ٣٣٥ ، المسالك والممالك : ٢٤٠ ، المعارف : ٣٣٧ ، ٣٤٧ ، الطبري ٥ : ١٨١-١٨٢

(٣) لطائف المعارف : ١٦٧

كلمات شريح التي قالها لعبيد الله ، يذكره غناه واسرافه في تنمية ماله :
«إنما حسبك أن يقال : بستان عبيد الله ، وحمام عبيد الله» (١) وتطلبت
القطائع الواسعة الأيدي العاملة فاستكثر الأغنياء من العبيد ، واستعانوا
بالتجار يأتونهم بالزنج ليكلفوهم من أمرهم عسرا ، وانتشر الزنج في الأراضي
يكدهون ويعملون ليلقوا معاملة سيئة ، وإن المرء ليعجب حين تطالعه أنباء
أول ثورة لهؤلاء الزنج في زمن الحجاج ، فقد اجتمع الزنج بفرات
البصرة أواخر عهد مصعب ، ولم يكونوا بالكثير ، فأفسدوا وتناولوا
الثمار . وولي خالد بن عبد الله الأموي البصرة (٧١ - ٧٣ هـ) ، وقد
كثروا فشكا الناس إليه ما نالهم منهم ، فجمع جيشا فلما بلغهم ذلك تفرقوا
وأخذ بعضهم فقتلهم وصلبهم ، فلما كانت ثورة ابن الجارود على الحجاج
(سنة ٧٥ هـ) خرج الزنج أيضاً ، فاجتمع منهم خلق كثير بالفرات ، وجعلوا
عليهم رجلاً اسمه رباح ، ويلقب شير زنجي ، يعني أسد الزنج ، فأفسدوا ،
فلما فرغ الحجاج من أمر ابن الجارود ، سير اليهم جيشا فهزموه ، ثم
أرسل اليهم جيشاً آخر فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة (٢) .

والحق أن الحجاج قد تميز وحده من بين الولاة جميعاً بالعبوة
ونزاهة اليد ، فكان يتهدد الولاة ، ويطلبهم بالأموال مطالبة شديدة ، فعل
ذلك مع المهلب بن أبي صفرة ، وفعل ذلك مع ابنه يزيد (٣) . ولكنه لم
يستطع ، ولم يكن بمقدوره ، أن يضع الحل الذي يخفف بؤس الفقراء
والمحرومين ، وما يلبسه من تدمر وشكوى ، ويبدو أن التعاسة التي حلت
بالفقراء في عهده كانت بالغة القسوة ، فقد جرّت الحروب والثورات كثيراً
من الخراب ، وتفجرت البشوق ، فطغت على الأرضين ، ولم يعان الحجاج

(١) الكامل لابن الأثير ٤ : ٧٢

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ : ٤٠ ، أنساب الأشراف (ط) ١١ : ٣٠٣ ،

(خ) ١٢ : ٢٩٧ ، مجموعة رسائل الجاحظ : ٦٢

(٣) ديوان الفرزدق : ١٥ - ١٧ ، الطبري ٥ : ٢٣٠

سدها مضارة للدهاقين ، لأنه كان اتهمهم بممالة ابن الأشعث حين خرج عليه ، فعاش الفقراء في ضنك ، وأُحرق الديوان عام الجمام (سنة ٨٣هـ) فضاعت الصوافي ، وأخذ كل قوم ما يليهم ، وكانت غلتها من قبل خمسين ألف ألف درهم ، فقلَّ الخراج ، والجباية ، وأراد الحجاج أن يجبي خواجه كاملاً ، فلجأ الى شيء من العسف في الجباية ، واضطر أن يفرض الخراج على العرب الذين يملكون أرضاً عشرية ، وأن يرد الى القرى من نزع عنها من الأنباط ، ثم حلَّ بالبصرة طاعون الفتيات (سنة ٨٧ هـ) فزاد الأمور سوءاً ، وقد بلغ من قسموته أن سماه بعضهم بالطاعون الجارف تشبيهاً له بسابقه . كل ما فعله الحجاج ليخفف بعض هذا البؤس الذي حاق بالفقراء أن كان ينفق عن سعة على إطعام الفقراء كل يوم ، ويراقب ذلك مراقبة تحول دون أن تمتد اليه يد الاهمال^(١) . ولكن أعماله لم تحظ بما قدره لها من نجاح ، لأنه كان يسلك اليها سبيل العنف ، ونقض خراج العراق في أيامه عما كان عليه^(٢) .

ومضى الحجاج ، دون أن يضع الأسس لتخفيف مساوئ الحياة في البصرة والعراق ، وما كان بمقدوره أن يفعل . ثم قتل قتيبة ، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ البصرة تتميز باشتداد النزعات العصبية ، فقد عادت اليمن الى استعلائها بقيادة المهالبة الازديين . وكان يزيد بن المهلب يؤثر قومه ، ويدينهم ، ويفضلهم على من سواهم ، ولم يطل عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) الخليفة العادل الذي أراد أن يرد الاسلام غضاً ، نضيراً ، بتولية الصلحاء ، ورفع المظالم ، والتخفيف من قسوة الفقر ، والمساواة بين العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء ،

(١) فتوح البلدان : ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٣٦١ ، الكامل للمبرد : ٢٨٦ ، الاحكام السلطانية : ١٩٣ ، التعازي والمراثي : ظ ٩٠ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٠٦ ، المعارف : ٦٠١ ، تاريخ الدولة العربية : ٢٤٤ ت ١
(٢) الخراج في الدولة الاسلامية : ٢٢٦ - ٢٢٧

واقناع المخالفين في الدين بالحجة والموعظة الحسنة • وأعقبت وفاته ثورة عييفة ألهبها يزيد بن المهلب في البصرة ، وكانت ثورة عصبية ، وقعت فيها اليمن وربيعة تناصر ابن المهلب ، ولاذت مضر وعلى رأسها تميم ، بجيوش الخلافة من أهل الشام • وأعلن يزيد أنه يدعو الى العمل بكتاب الله، فأيدته الخوارج من الاباضية والصفيرية وجشهم من الأزدي ، وانضمت اليه طائفة من قراء البصرة ، ولكن كثرتهم وعلى رأسهم الحسن البصري ، وقفوا على الحيدة ، لا يشاركون في الفتنة ، « ولا يكونون مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء » (١) • وقتل يزيد في واقعة العقر (سنة ١٠٢ هـ) ، وذلت اليمن ، وولي العراق عمر بن هبيرة الفزاري (١٠٢ - ١٠٥ هـ) ، فأيد قيساً وقدّمها ، ليخلفه خالد بن عبد الله القسري الذي ولي العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) ، وكان عنيفاً في تعصبه لليمن ، وأذل قيساً وتسيماً اذلالاً ما بعده اذلال • وكانت ولاية خالد القسري على العراق ، وولاية أخيه أسد على خراسان الثغرة التي نفذ منها دعاة بني العباس ليشيخوا دعوتهم ، ويحتموا بقبائلهم، متخذين من العصبية ستاراً • فلا عجب بعد أن نرى خراسان تمزقها حروب العصبية التي طاب لأبي مسلم الخراساني بعد ذلك أن يغريهم بها ليكتب له الظفر ، ويعلم دعوة بني العباس •

جعل خالد بن عبد الله القسري على الشرط والأحداث بالبصرة مالك ابن المنذر بن الجارود العبدي (١٠٥ - ١٠٩ هـ) وأثار مالك حفيظة مضر ، وتميم خاصة ، حين قتل في حبسه رجل أهل البصرة عمر بن يزيد الأسدي سنة ١٠٩ هـ ، فلما قتل جزعت تميم وتتمرت لربيعة ، وحدثت ربيعة على مالك ومالت اليه واشرب الناس للفتنة ، لولا حكمة هشام بن عبد الملك ، الذي حمل اليه مالك بن المنذر فهلك في حبسه • فولى خالد

(١) أنساب الأشراف ٧ : ٦٢٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، الطبري ٥ : ٣٤٠ -

٣٤٨ ، طبقات ابن سعد ٥ : ٢٧٧ ، ١/٧ : ١١٩

القسري بلال بن أبي بردة شرطة البصرة وأحداثها (سنة ١٠٩ هـ) ثم جعله أميراً على البصرة (١١٠ - ١٢٠ هـ) وكان بلال أديباً ، فصيحاً ، واسع المعرفة ، راوية للشعر ، فجمع حوله الكتاب والأدباء والعلماء ، وأتاه الشعراء والرواة والأخباريون وعلى رأسهم ذو الرمة الذي أصفاه أجمل مدائحه • وكان بلالاً قد ساعد في إنعاش الحركة الأدبية التي كانت تنمو وتتفتح (١) •

وكرثت في هذه الحقبة مفاصد الولاية وعمالهم ، وتجلى جشعهم أسوأ ما يكون ، فإذا هم حراس على أن يغتوا مال الله ، ويختانوا وديعته • إن الأموال التي احتجتها يزيد بن المهلب أثارت الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز حتى أمر بسجنه ، ولما أمل بلال بن أبي بردة أن يخدع عمر بصلاته ليوليه أحد مصري العراق ، ضمن مالاً كثيراً (مائة ألف درهم) لمن يزكيه عند عمر ، وانها لرشوة تنبىء بما كان يطمع في حوزة من مال حرام (٢) • وفي مثل هذه العهود تبرز طائفة من الأغنياء والأثرياء ، شديدة الجشع ، كثيرة الحرص ، تعاون الولاية والعمال على الفساد ، ويزداد الثراء ليتجمع في أيدي معدودة ، تجهد جهدها ليصبح لها كل شيء •

كثرت القطاعات في هذا العهد ، واتسعت حدودها • كانت المرغاب قطيعة هلال بن أحوز المازني التميمي ثمانية آلاف جريب ، وجعلت لخصبها وكثرة غلاتها ، عدل الخلافة (٣) • وأخذ الوالي وأتباعه يفتنون في حوز الأراضي ، وطرق اقتناء الأموال ، وقاموا بحفر الأنهار ، وجر المياه ،

(١) الطبري ٥ : ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٧ ، ٤٤٢ ، أنساب الأشراف ٨ : ١٤٧ - ١٤٨ ، ١٥٠ - ١٥٥ ، ١٥٨ - ١٦٠ ، الأغاني ١٧ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، معجم البلدان : (العقر) ، وسيعاد القول في بلال في بحث الكتابة الفنية .
(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٢٩٢ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣١٩ ، غرر الخصائص : ٤٥
(٣) فتوح البلدان : ٣٥٨ ، طبقات ابن سلام : ٢٩٩ - ٣٠٠

ينفقون عليها من مال الله الذي ائتمنوا عليه ، ليجنوا هم ثمراتها : أقطع سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ما اعتمل من البطيحة ، فاعتمل الشرقي والجبان ، والخست ، والريحية ، ومغيرتان ، وغيرها^(١) واقتنى خالد القسري الضياع ، واحتقر النهر المبارك ، الذي أنفق عليه أموالاً كثيرة :

جرت لك أنهار^١ يئسن^٢ وأسعد
الى جنّة^٣ في صححان الأجالد^٤
يئسن^٥ أعناباً ونخلاً مباركاً
وأنقاء^٦ بئر^٧ في جرون الحصائد

ويبدو أنه بدّد مال كثير في غير وجوهه حتى قال الفرزدق :

أهلكت مال الله في غير حقه
على النهر المشؤوم غير المبارك^١
أنفاق مال الله في غير كنهه
ومنعاً لحق المرملات الضرائك^(٢)

وقد بلغ ثراء خالد أن آثار حسد الخليفة هشام بن عبد الملك ، بله حسد الرعية وحفيظتها^(٣) . أما بلال بن أبي بردة والي البصرة فقد فتح نهر معقل في فيض البصرة ، وكان قبل ذلك مسكوراً يفيض الى القبة . واحتقر نهر بلال وجعل على جنبتيه حوانيت ، ونقل اليها السوق^(٤) .

وكان الخلفاء يقاسمون ولاتهم الجشع والحرص ، فطالبوا لأنفسهم ولأولادهم بنصيب في قطائع البصرة والبطائح . كتب يزيد بن عبد الملك

(١) فتوح البلدان : ٣٦٢

(٢) الطبري ٥ : ٤٧٥ ، ديوان جرير : ١٧٨ ، ديوان الفرزدق :

٦٠١ - ٦٠٢ ، معجم البلدان ٧ : ٣٧٨ ، فتوح البلدان : ٢٨٩

(٣) الطبري ٥ : ٤٦٧ - ٤٧١ ، ٤٧٥ - ٤٧٧

(٤) فتوح البلدان : ٣٥٧ - ٣٥٨

الى عمر بن هبيرة. « انه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب خرصة ، فبسر على القطائع فخذ فضولها لأمير المؤمنين » فجعل عمر يأتي القطيعة فيسأل عنها ثم يمسحها . . حتى ضج الناس من ذلك . وحاز حسان النبطي كل شيء من حد نهر الفيض لولد هشام بن عبد الملك . وكتب هشام الى خالد القسري : « لا تبعن من الغلات شيئاً حتى تباع غلات أمير المؤمنين » حتى بلغت الكيلجة درهماً^(١) .

ولعل القطائع بلغت في هذا العهد مبلغاً كبيراً . « فقد ذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة ألف نهر ، وعشرين ألف نهر ، تجري فيها الزوارق ، وقد كنت أُنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال بن أبي بردة حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار^(٢) .

ونشط في هذا العهد كبار التجار ، فالتسعت التجارة وما تجرّه في أذيالها من نخاسة ، وزاد الربح ، ولا غرو فقد كانت البصرة ثغر الهند تأتيها التجارات لتوزع في البلاد . ويبدو أن التجار كانوا مهرة في ترويح بضائعهم حتى قال خالد بن صفوان : « لأن يكون لأحدكم جار يخاف أن ينقب عليه بيته ، خير من أن يكون له جار من التجار ، لا يشاء أن يعطيه مالاً ويكتب به عليه سكاً إلا فعل^(٣) . وكان بديها ، وقد زاد الثراء وفحش الربح ، أن يستبحر عمران البصرة ، فتتسع مساحتها ، وتبعد حدودها ،

(١) فتوح البلدان : ٣٥٩ - ٣٦٠ ، ٣٦١ ، الطبري ٥ : ٤٧٧ ، والكيلجة :

مكيال .

(٢) مسالك الممالك : ٨٠ .

(٣) أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٣

حتى بلغ طولها في عهد خالد القسري فرسخين وعرضها فرسخين إلا دانقاً^(١) ،
وتكثر قصورها وأبنيتها الفخمة ، وكان المفاخرون المفاضلون بين البصرة
والكوفة يتخذون من كثرة القطائع في البصرة بنخيلها وأنهارها ، ومن رواج
التجارة ، وكثرة مال الأغنياء ، ومن اقبال الناس الى البصرة يحملون
بالربح مادة مفاضلاتهم . يقول خالد بن صفوان : « نحن منابتنا قصب ،
وأنهارنا عجب ، وسناؤنا رطب ، وأرضنا ذهب » ويقول الأحنف بن قيس :
« نحن أبعد منكم سرية ، وأعظم منكم بحرية ، وأكثر منكم ذرية ، وأعزى
منكم برية » ، ويقول أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً ،
ودياجاً وخراجاً ، ونهراً عجاجاً »^(٢) .

ويدرك المرء وقد استشرى الطمع ، ونما الحرص والجشع ، مدى
التعاسة والفقر اللذين يخيمان على فئات كثيرة في البصرة . إن هذا
الثراء العريض يأتي أصحابه من غير حله ، لا بد أن يخلف تعاسة وفقراً ،
ولم يستطع الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد هاله ما آل اليه فقراء
البصرة ، غير أن يوزع عليهم ثلاثة دراهم لكل انسان . وروى البلاذري
أن عمر كتب الى عدي بن أرطاة والي البصرة : « أما بعد ، فأحص أهل
المسكنة بالبصرة واكتب اليّ بعدتهم » ، فأحصاهم فبلغوا ثلاثين ألفاً ،
وتسعمائة وخمسة عشر انساناً ، فكتب الى عدي يأمره أن يعطي كل
انسان جريباً في كل شهر ، من طعام كسكر والسواد ، إذا قدم عليه
بالطعام^(٣) . ولكن حكم عمر لم يطل ، وعاد الفقر والشقاء يخيمان على

(١) المعارف : ٥٦٤ ، عيون الأخبار ١ : ٢١٦ ، معجم البلدان ٢ : ١٩٩ ،
تهذيب التهذيب ١١ : ٣٧٢

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩٣ - ٩٤ ، ١ : ٣٥٧

(٣) الطبري ٥ : ٣٢٢ ، أنساب الأشراف ٧ : ٤١٨ ، وكان عمر بن
الخطاب يرزق الفقير من أهل العوالي جريبين في كل شهر ، (الأحكام
السلطانية : ٢٠٢) .

المحرومين من أهل المسكنة ، وقد أفاد من هذا الوضع الزريّ دعاة بني العباس فراحوا يثيرون التذمر والسخط ، وينددون بهذه المظالم لتغلي مراجل الغضب ، كمثل قول سديف : « اللهم قد صار فيئنا دولةً بعد القسمة ، ومارتنا غلبة بعد المشورة ... واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة ... »^(١) . حتى اتيح لهم أن يقوضوا ملك بني أمية .

وإذا لم يكن بد من موازنة خاطفة بين مصري العراق : الكوفة والبصرة ، نختم بها هذه العجالة ، لتساعد في تمثّل الصورة وايضاحها ، فإننا نرى أن الطابع القبلي كان أغلب على البصرة التي توزعت أحماسها على العصبية وصلات النسب ، ولم يكن ذلك شأن أرباع الكوفة التي كانت قبائلها أكثر تنوعاً ، والتي جانبت العصبية في توزعها ، فكان مع كل معدية قحطانية^(٢) . ثم إن قبائل الكوفة ترجح فيها كفة اليمن ، وأهل اليمن ورثة حضارة وملك قديمين ، فهم أدنى الى روح المدينة وألصق بها ، أما البصرة فمضر فيها كانت الكثرة الغالبة ، وكانت قبائلها أقرب الى البادية ، وأشد اتصلاً بها ، ولعل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أدرك ذلك حين وصف أهل البصرة بأنهم أعراب جفاة^(٣) . ونزلت في الكوفة بيوتات العرب التي توارثت الشرف في الجاهلية ، فضمت بين جنباتها آل زرارة بن عدس وهم بيت الشرف في تميم ، وآل ذي الجدين بيت الشرف في بكر ، وآل بدر بيت الشرف في قيس عيلان ، وآل الأشعث بيت الشرف في كندة ، ونزل فيها أزد السراة وهم أشرف وأنبّل من أزد عمان الذين نزلوا البصرة . ولذلك قال عليّ ، وصدق في قوله : « الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم^(٤) » . أما البصرة فقد انتهى الشرف والسيادة فيها الى رؤساء كان

(١) الشعر والشعراء : ٤٧٩ - ٤٨٠

(٢) ديوان الفرزدق - نسخة المتحف : ٢٠٠

(٣) طبقات ابن سعد ١/٤ : ٨٠

(٤) الطبري ٥ : ٤٧٧ ، ٤٩٣ ، الأغاني ١٩ : ١٢٨ - ١٢٩ ، مختصر

البلدان : ١٩٠

لهم من صفاتهم وأعمالهم ومواقفهم من السلطان ما دفع بهم الى الرياسة والسيادة ، فكان الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة ، وكان مالك بن مسمع سيد بكر بن وائل في الاسلام ، وفي بيته الشرف ، وكان الجارود سيد عبد القيس ، والشرف في بيته ، وكان قتيبة بن مسلم الباهلي سيد قيس البصرة ، تطيف قيس بيته ، وكان المهلب بن أبي صفرة سيد الأزدي وفي بيته الشرف^(١) . وكانت العثمانية أغلب على البصرة ، فعدت أميل الى السلم والموادعة ، تؤثر العافية وتجهد جهدها لتبعد عن الصدام في هذا العراق العنيف الذي شب حول الحكم والخلافة ، كان شعار سيدها الأحنف : « إنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا »^(٢) ، وكان الحسن البصري سيّد فقهاءها إذا قيل له : « ألا تخرج فتغيّر » ، قال : « إن الله انما يغيّر بالتوبة ولا يغيّر بالسيف »^(٣) . ولا كذلك الكوفة التي التفت حول عليّ ، وعدت تدافع بعد عن مثل العراق ومكاته التي زالت ، بانتقال الخلافة الى دمشق ، وكان عليّ في الكوفة المنارة التي يتطلع اليها أبناء الكوفة رمزاً لسيادة مصرهم المفقودة . فكانّ التشيع كان يحمل في بعض معانيه آنذاك معارضة العراق لسلطان الشام ، ولما ثار المختار بن أبي عبيد يطلب بدماء أهل البيت ، ويدفع عن الضعفاء ، وغلا في تشييعه تخلّت عنه الكوفة بسرّاتها وأشرفها ، لتجد بعد ذلك زعيماً لها في عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي أحد أبناءها الأشراف ، فالتفت حوله وثارّت ومن ورائها العراق كله . وشتان ثورة ابن الأشعث الكوفي ، وثورة يزيد بن المهلب البصري الذي غلب على البصرة ، فكانت ثورته ثورة الأزدي لتولّي السلطان والحكم ، فلم يناصره الا قبيلته في البصرة ، وحلفاؤه من ربيعة . فكان الكوفة تمثل العراق الذي يريد أن يقود ويحكم ، على حين كانت

(١) مختصر البلدان : ١٧٠ ، ١٩٠ ، ديوان أبي نواس : ٥٤٦

(٢) الكامل لابن الأثير : ٣ : ٢٥١

(٣) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١١٩ ، ١٢٥

البصرة أقل طموحاً ، وأطوع للسلطان • ومن هنا نفهم كلمة زياد بن أبي سفيان ، وسئل عن البصرة والكوفة فقال : « لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدلني عليها » (١) • إنه ينطق بلسان الحاكم الذي يفضل أن يسود البلد الطاعة ، وحب النظام ، ويرى فيهما أفضل المزايا وخير الحسنات • ومن آثار الأعرابية التي أشار إليها عمر بن الخطاب ما تميز به خوارج البصرة من عنف وقسوة : قاموا يستعرضون الناس ، فقتلوا عبد الله بن خباب ، وبقروا بطون النساء ، وتبينت الفروق بينهم وبين خوارج الكوفة واضحة ، وقد أدرك القدماء أنفسهم هذه الفروق ، ونبه إليها عمر بن عبد العزيز حين ناظر الخوارج في أمر الدين (٢) ، ولما قضي على خوارج الكوفة المحاربين ، وصفت الكوفة للشيعة ، تفرد خوارج البصرة في الدفاع عن العقيدة • وفي أكناف البصرة نبت الأزارقة والاباضية والصفيرية والبيهسية • وتولى الأزارقة هذه الحركة العنيفة المستبسلة • وكانت كثرتها وعظمتها من تميم (٣) ، ولما قضي عليها لاذت الفرق الأخرى بالهدوء ، وأخذت تدعو في البصرة الى مبادئها بالاقناع والحجة • وكانت هذه الدعوة أجدى عليها إذ ضمنت لها حياة السلم أن تتصل بالأتباع والأنصار ، وأن تجادل الخصوم وتدفع عن المذهب بالحجة والمنطق ، وغدت الاباضية أنجح الدعوات الخارجية في البصرة ، واستطاعت أن تجتذب طائفة من البصريين يؤمنون بها ويدعون إليها • وكان كثرة مؤيديها من الأزدي اليمانية ، وقد شاركت في ثورة يزيد بن المهلب الأزدي (سنة ١٠٢ هـ) • وقدر لهذه الطائفة أن تبقى الى يومنا هذا في عمان وأكناف الجبل الأخضر ، والجزائر •

(١) العقد الفريد ٦ : ٢٤٩

(٢) الطبري ٤ : ٦٠ - ٦١ ، العقد الفريد ٢ : ٤٠٢

(٣) النقاوض : ١١٨ ، الكامل لابن الأثير ٣ : ٣٣٦ ، ٣٤٩

(٢)

الحياة الدينية والفكرية :

أما قصة الحياة الدينية ، والحركة العقلية ، التي قامت في البصرة ، فتنبىء عن هذه الحماسة المؤمنة التي تملكت قلوب العرب ، فحولت حياتهم ، وبدلت من مثلهم ، حتى أنشأتهم خلقاً جديداً ، فقد أقبلوا ظمأ الى كتاب الله يتفهمون معانيه ، ويسترشدون بهديه ، ويمدون أبصارهم ، بعد ذلك ، الى ألوان المعرفة ، يفتحون لها قلوبهم وعقولهم ، وإذا البصرة التي مصّرها العرب سنة ١٤ هـ قد غدت منارة من منارات العلم والهداية ، واحتضنت هي واختها الكوفة تراث العرب الروحي والفكري والأدبي ، فتفتح وآتى أكله ، كزرع أخرج شطأه فأزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع • ولئن قصرت كلمتي على تبيان خصائص البصرة الثقافية ، إنه مزيد من التخصص ، يقفنا على صورة الثقافة في المصّر ، دون أن يحجب عنا رؤية الخصائص العامة في الفكر والعقيدة ، والآداب التي فرضت سلطانها على الناس في شتى أمصارهم إذ كانت تمتح من منهل واحد ، هو الاسلام •

كان أصحاب رسول الله حراساً أن يبلغوا الدعوة نقية خالصة ، فلما مصّرت البصرة ، شمّر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن ساعد الجد ، وبعث اليها جلة من أصحاب رسول الله يعلمون القرآن ، ويفقهون في الدين ، ويرشدون الى الحق ، ويزينون البر والتقوى ، على رأسهم أبو موسى الأشعري والي البصرة (١٧ - ٢٩ هـ) • وأقبل الناس سراعاً ينهلون من هذه الينابيع الثرة • كان أبو موسى ، قارئاً ، جميل الصوت في قراءته ، قال له النبي (ص) : « لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل

داود) فقام يقرئ أهل البصرة القرآن ، ويرغبهم فيه ، ويفقههم ، ولباه البصريون ، واندفعوا يحفظون القرآن ويتفقهون في الدين . حدث أبو رجاء العطاردي ، قال : « كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد ، مسجد البصرة ، تقعد حلقاً ، فكأنني أنظر إليه بين بردين أبيضين ، يقرئني القرآن » . وكان عمران بن الحصين (ت ٥٢ هـ) صاحب رسول الله يستند الى اسطوانة من أساطين المسجد الجامع يحدث الناس ويفقههم . ولم تمض مدة يسيرة حتى بلغ عدد القراء الذين حفظوا القرآن في البصرة زهاء ثلاثمائة ، أوصى اليهم أبو موسى ، ونصح لهم (١) . فكانوا طليعة القراء والزهاد والبكّائين والفقهاء والمفسرين الذين ازدحمت بهم البصرة ، وكان لهم شأنهم في حياتها الدينية ، والسياسية . وظفر البصريون بثروة من أحاديث رسول الله ، وأحكام الاسلام رووها عن الصحابة الذين نزلوا بين ظهرانيهم ، ينشرون العلم والهدى (٢) وشغل القوم بالقرآن والدين إذ كانت معرفتهما فريضة واجبة ، مضى الآباء على ذلك ، وورثته عنهم الأبناء يتمون ما بدأه آباؤهم قال يونس : « وكان النظر في المصاحف خلقاً من الأولين » . وكان الأحنف بن قيس قلماً خلا الادعاء بالمصحف . وذكروا أن الفرزدق كان يخرج من منزله فيرى بني تميم ، والمصاحف في حجورهم ، فيسر بذلك ، ويجذل به ويقول : « ايه ، فدى لكم أبي وأمي . كذا والله كان آباؤكم » (٣) .

وأقبل الموالي يشاركون عرب البصرة في علوم القرآن والدين والعربية ويبارونهم ، فشقشوا على أنفسهم وجهدوا جهدهم ليلحقوا

(١) طبقات ابن سعد ١/٤ : ١/٧ ، ٨٠ : ١/٧ ، ٥ ، ٧ ، ١٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، صحيح مسلم : ٦ : ٨٠ ، فتوح البلدان : ٣٤٠ ، حلية الاولياء ١ : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٢٢ - ٢٣ ، صفة الصفوة ١ : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، إنباه الرواة ٢ : ٣١

(٢) الكامل للمبرد : ٦٩ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ٦٧

باخوانهم • وقدّر لكثير منهم أن يجثوا في مضمار العلم ، ويبلغوا من القرآن والعربية ما أوفوا به على الغاية^(١) .

وهكذا كانت البذور الاولى في ثقافة البصرة قرآنية عربية ، تتناول القرآن والحديث ، وما يعين على فهمهما والتفقه فيهما ، من اللغة والشعر ، وشارك الموالي العرب في تلقي العلم والدين ، فعدت الحركة الثقافية والدينية في البصرة ، من بعد ، تناجاً تعاون في تنميته ورعايته العرب والموالي على السواء ، وظلوا جميعاً ، وإن تنوعت بهم بعد ذلك دروب المعرفة ، يشاركون في هذه الأصول التي بدأت بها الحركة الثقافية في البصرة ، فإذا الواحد منهم لا يرى أن يقف نفسه على لون من ألوان المعرفة قبل أن يُلّمَّ بهذه الأصول جميعاً ، التي فرضتها عليه هذه النشأة لثقافة مصر ، وقد يبرز في جوانب عدة منها ، فإذا هو فقيه مفسر عالم بالعربية راوية • وقد كانت هذه الأصول المشتركة الأسس الأولى للثقافة العربية التي نمت من بعد وأخصبت وتعددت جوانبها ، وكأنها النظام الذي يمسك بأطراف هذه الثقافة على تعددها وتنوعها ، ولم يكن بد لكل مثقف من الالمام بها ، فهي حظ مشترك يحفظ على المجتمع وحدته وتجانسه مهما اختلفت به الدروب •

ومضت الحركة الدينية الثقافية ، نشيطة حية متوثبة ، فقد فاجأت العرب مشكلات متعددة تتصل بالسياسة والعقيدة والمجتمع والاقتصاد ، طالعتهم بوجوهها دون أن تتمهل بهم ، وقد تعرف العرب على ألوان من الثقافة القديمة قامت في العراق قبل مجيئهم ، وهي ثقافة خصبة تلاقت فيها ألوان شتى : يونانية ، وهندية ، وفارسية ، ومسيحية ، ويهودية • وحاول العقل العربي أن يجد الحلول وأن يحدد مواقفه في هذا الخضم الهائل ،

(١) طبقات ابن سعد ١/٧ : ٨١ - ٨٢

فإذا نحن أمام أبنية شامخة ، مثلت بتنوعها واختلافها نشاط هذا العقل في مختلف وجوه الحياة ، فشهدت البصرة الحجاج في العقائد ، وشروط الخلافة ، وتشعب الأحكام في الفقه والتشريع ونشوء طرائق في السلوك وآداب الدين ، تدعو الى الزهد والنسك . وقد قامت هذه الصروح على قواعد من كتاب الله وحديث رسوله استوحاها العقل العربي المبدع ، وهو يشيد بنيانه في العقيدة والفقه والآداب . ولن يضير هذا الحكم أن يشير مشير الى آثار تبدو من بقايا الثقافات القديمة التي انتشرت في تلك الأرض ، ودلّ على أمثال لها من قبل المتكلمون ، ومؤلفو كتب الفرق ، (وسأذكر طرفاً منها) ، لأنها لا تعدو أن تكون شيئاً ضئيلاً ، لا صلة له بالأسس التي قامت عليها تلك الصروح الدينية والثقافية .

كان القرآن الكريم كتاب الأمة ، أقام للناس بناء عقيدتهم ، وشرع لهم نظم حياتهم ، وجاءت السنة الى جانبه توضح مراميه ، وتفصّل اجماله ، فكان لا بد أن تنشأ دراسات تتناول القرآن ، معاني وأحكاماً ، وقراءة ، وضبطاً ، وتعكف على الحديث ، جمعاً وتصحيحاً وتفسيراً واستنباطاً .

١ - فنشأ علم التفسير ، يوضح آيات القرآن ، ويجلو غوامضه ، ونما على أيدي القراء والعلماء الذين بذلوا له من ذات أنفسهم وجهودا أبلغ الجهد لفهم مقاصده . فقد حظيت البصرة بعبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ بالطائف) وكان قد جاءها والياً في خلافة علي بن أبي طالب ، وكان ابن عباس أعلم الناس بالقرآن ، تضرب اليه أكباد الإبل ، ليؤخذ عنه العلم والتفسير . كان مشججاً ، يسيل غرباً ، سعد منبر البصرة فقراً سورة البقرة ففسرها حرفاً حرفاً . وسمي ترجمان القرآن ، لأنه كان يجيب عن كل

آية : فيم نزلت ، وكيف كانت^(١) ، وصحبه أبو الجوزاء الربيعي (قتل سنة ٨٢ هـ في دير الجماجم) من علماء البصرة ، اثنتي عشرة سنة ، لم يترك آية من كتاب الله الا سألها عنها^(٢) . ويشتهر أبو العالية الرياحي (ت ٩٣ هـ) الذي قرأ القرآن على أبيّ بن كعب ، ولم يكن أحد أعلم بالقرآن ، بعد الصحابة ، منه^(٣) . ويجيء الحسن البصري (٢٢ - ١١٠ هـ) فيخطو بعلوم القرآن خطوة فسيحة ، كان آية في الورع والزهد ، وكان آية في العلم والفقه والتبحر بالعربية ، ولعله النموذج الأعلى لرجل الدين علماً ومعرفة وزهداً وعبادة وخلقاً . وقد كان المرجع والغاية في علوم كثيرة ، تعهدا بعنايته ، ورواها بفيضه . برز في علم التفسير ، ورويت عنه في القرآن روايات عرفت باسم تفسير الحسن البصري ، وغدت أقواله لدى المفسرين لا تقل عن أقوال عبد الله بن عباس^(٤) . ثم جاء أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي (٦٠ - ١١٧ هـ) ، العالم البصري الكبير ، وكان يختم القرآن في كل سبع ليال مرة ، فرؤي عنه مثل ما رؤي عن الحسن من تفسير ، وكان قتادة يقول : « ما في القرآن آية الا وقد سمعت فيها شيئاً » ، وكان أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئاً الا حفظه ، قرئت عليه صحيفة جابر مرة فحفظها ، وكان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب^(٥) . وفتح القرآن أبواباً كانت مغلقة ، وكشف عن آفاق غير

(١) البيان والتبيين ١ : ٨٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٢ : ١٧١ ، الكامل للمبرد : ٤٧١ ، العثمانية : ١٢١ - ١٢٢ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٣٧ - ٣٩ ، ٨٦ ، الفائق ١ : ١٤٤ ، الاتقان ٢ : ٢٢٢ ، مذاهب التفسير الاسلامي : ٨٣ ، ٩٩ ، تهذيب التهذيب ٥ : ٢٧٦ - ٢٧٩

(٢) المعارف : ٤٦٩ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٦٢ - ١٦٣ ، صفة الصفوة ٣ : ١٨١

(٣) طبقات ابن سعد ١/٧ : ٨١ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٥٨

(٤) العثمانية : ٩٣ ، ١٢١ ، تفسير القرطبي ١ : ٣٦

(٥) تذكرة الحفاظ ١ : ١١٥ - ١١٦ ، وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٨ ، تهذيب

التهذيب ٨ : ٣٥١ - ٣٥٦

معهودة • فقد جمع الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق الحفظ والقراءة أربعة أشهر ، ليحيبوا عن مسائل تتصل بتجزئة القرآن وأسبأه ، وعدد حروفه^(١) • وألف الحسن البصري في عدد آي القرآن ، وفي أسباب نزوله^(٢) •

ونشأ علم القراءات فشغل حيزا ومكانة بين علوم القرآن • وهو علم يضبط قراءة القرآن ، ومخارجها ، ووجوهها المروية عن النبي • وكان أهل البصرة يقرءون بقراءة أبي موسى الأشعري (ت ٤٤ هـ) ، فلما أرسلت مصاحف عثمان الى الأمصار قرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم ، وتلقوا ما فيه عن الصحابة ، وكان أبرز قراء البصرة : عامر بن عبد قيس العنبري (توفي في أيام معاوية) ، وأبو العالية الرياحي ، وأبو رجاء العطاردي (ت ١٥٥ هـ) أم قومه في مسجدهم أربعين سنة ، ونصر بن عاصم ، والحسن البصري ، وقراءته مشهورة ما زال المفسرون يذكرون في تفاسيرهم بعض رواياتها ، ومحمد بن سيرين ، وجابر بن زيد (ت ١٥٣ هـ) ، ومعاذ ، ويحيى بن يعمر العدواني (ت ١٢٩ هـ) ، وهو الذي سأله الحجاج : أتسمعي الحن ، فقال : حرفاً ، قال : أيا ؟ ! قال : في القرآن ، وقتادة بن دعامة السدوسي • وساعد الحجاج على التقيد بقراءة عثمان ، حين أخذ الناس بها ، وأمرهم برفض قراءة ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وتوعد على ذلك • ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ، ويرحل اليهم ، ويؤخذ عنهم • أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول ، ولتصديهم للقراءة نسبت اليهم ، فكان بالبصرة عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) ، وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) صاحب

(١) المصاحف : ١١٩ - ١٢٠

(٢) الفهرست لابن النديم : ٣٧ ، ٣٨

الجامع والاكمال ، وكان ضريراً ، وأبو عمرو بن العلاء المازني التميمي (٧٠ - ١٥٤ هـ) شيخ القراء الذي انتهى اليه علم القراءة في البصرة ، فقد قرأ على قراء البصرة ، ثم قراء الحجاز في مكة والمدينة ، فاختار من كل قراءة أحسنها ، وأعانه على ذلك تبخره في العريية ، وسعة اطلاعه ، واستيعابه أساليب العرب في كلامها ، فكان أحد القراء السبعة المشهورين ، وليس في السبعة أكثر شيوخاً منه ، وكانت قراءته أفصح القراءات ، أسندها الى أبي بن كعب ، وعنه أخذ مشايخ البصريين ، ولعل أبا عمرو أول من ألف في هذا الفن كتاب القراءات (١) .

٢ - وظهر في البصرة المحدثون الذين حفظوا الحديث ورووه ودافعوا عنه وقاموا ينفون عنه البهرج والزائف . قام من الصحابة عمران بن الحصين الخزاعي (ت ٥٢ هـ) ، وأبو سعيد عبد الله بن مغفل المزني (ت ٦١ هـ) وأنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) ، يحدّثون الناس بأحاديث الرسول ، ويروون من أخباره وأعماله . ونبغ بعدهم من محدّثي التابعين طائفة كبيرة ، أبرزهم زرارة بن اوفي الحرشي (ت ٩٣ هـ أو ١٠٦ هـ) ، وكان محدّثاً ثقة ، رويت عنه أحاديث ، وكان فقيهاً قاضياً ، وابنته الملاءة شهرت في البصرة بجمالها وعفافها ودينها ، وقد تغزل بها الفرزدق الشاعر . وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير (ت ٩٥ هـ) العامري الحرشي رأساً في الحديث ، حدث عن أكابر الصحابة . وكان بكر بن عبد الله المزني (ت ١٠٨ هـ) ثقة ثبتاً مأموناً كثير الحديث حجة ، وكان فقيهاً ، وقيل فيه : « الحسن شيخ البصرة ، وبكر فتاها » . ثم كان الحسن البصري الشهير ، ومحمد بن سيرين (٣٣ - ١١٠ هـ) ، وكان فقيهاً اماماً رأساً في الورع . فكان هؤلاء

(١) المصاحف : ١٣ ، ١٤ ، طبقات ابن سلام : ١٣ ، النشر ١ : ٨ - ٩ ، الاتقان ١ : ٩١ - ٩٢ ، تفسير القرطبي ١ : ٥٩ ، ٨٣ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٢٥٥ ، الفهرست لابن النديم : ٢٨ ، ٣٠ ، ٤١ ، طبقات القراء ١ : ٢٣٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٥٠ ، ٤١٠ ، ٦٠٤ ، ٦١٣ ، ٢ : ٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨١

نواة الحديث الأولى التي قام في إثرها حفاظ البصرة الكبار الذين اتسعت رواياتهم ، وكثرت أحاديثهم وقاموا بتدوين ما رووا وحفظوا^(١) .

٣ - وعرفت البصرة فقهاء وقضاة أفتوا بعلم واجتهدوا ، فوضعوا اللبنة الأولى ، وشاركوا في البناء الشامخ الذي نهض في القرون التالية . كان أبو موسى الأشعري الذي ولي البصرة في أيام عمر وعثمان ، أحد قضاة الأمة الأربعة ، وظهر في البصرة عبد الله بن رباح الأنصاري ، وكانت الأنصار تفقهه ، وزرارة بن أوفى الحرشي ، القاضي أيام زياد ، وكان يقضي في الرحبة خارجاً من المسجد ، وأبو قلابة الجرمي (ت ١٠٤ هـ) ، وكان من الفقهاء ذوي الألباب ، لو كان من العجم لكان موبذ موبذان يعني قاضي القضاة ، وبكر بن عبد الله المزني ، وكان فقيهاً ، أراد عمر بن عبد العزيز أن يوليه قضاء البصرة فأبى . وكان الحسن البصري من أعلم الناس بالحلال والحرام ، يأتيه الناس من كل حدب يستفتونه ، ولما رأى الأحنف بن قيس الناس بالبصرة يقصدون الحسن في أمورهم ويسألونه عن أحوال دينهم ، قال : « كادت العلماء أن يكونوا أرباباً » ، وكان محمد بن سيرين يوازيه في العلم والشهرة ، ولم يكن أحد أعلم بالقضاء منه . وكان حميد بن عبد الرحمن الحميري أفقه أهل البصرة ، وهو أحد اللذين قصدا عبد الله بن عمر ، يسألانه عن القدر ، وما أتى به معبد الجهني في البصرة . وكان أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (ت ١٠٣ هـ) مفتي البصرة ، وكانت الإباضية تنتحله . وحميد بن هلال العدوي (توفي في ولاية خالد القسري على العراق) ، ما كان بالمصريين رجل أعلم منه . وإياس بن معاوية المزني (٤٦ - ١٢٢ هـ) وكان ثقة ، ولي قضاء البصرة سنة ٩٩ هـ ، وكان

(١) مذكورة الحفاظ ١ : ٢٨ ، ٤٢ - ٤٣ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٣ ، طبقات

ابن سعد ١/٧ : ١٠٩ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، البيان والتبيين ١ : ١٠٠ - ١٠١ ، الأغاني ١٣ : ٢٧٠ ، تهذيب التهذيب ٦ : ٤٢

غزير العقل والدين ، وضرب بذكائه المثل ، وكان أبوه معاوية من علماء التابعين • وإياس الذي أتاه الفرزدق يشهد فقال : أما أبو فراس فقد عرفناه ولكن زدنا شهودا ، فقال الفرزدق : « ما أحسن ما سللت عمك منها » (١) • وظهر في البصرة من فقهاء الخوارج وقضاتهم عمران بن حطان السدوسي الشيباني (ت ٨٤ هـ) رأس القعد من الصفرية • كان ورعا يحفظ القرآن والحديث ، وروى عن الصحابة : أبي موسى الأشعري وعائشة وغيرهما ، ثم غدا مفزع الصفرية عند اختلافهم ، وصاحب فتياهم • وكان من خطبائهم وفقهائهم وعلمائهم المقعد قاضي عسكر الأزارقة أيام قطري • ثم يزيد بن جابر قاضي الأزارقة بعد المقعد ، ويقال له الصموت • وكان عاصم بن الحدثان عالماً ذكياً ، وكان رأس الخوارج بالبصرة ، وربما جاءه الرسول منهم ، من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه • لقي الفرزدق ، ودعاه شاعر الكافرين (٢) •

وكان المنسرون والمحدثون والفقهاء يعقدون الحلقات والمجالس يعلمون الناس ويجيبون السائلين ويفتون ويشرعون • وكانوا يناظرون ويجادلون وتعرض لهم المشكلات فيجتهدون ما وسعهم الاجتهاد • وكان الناس يأتون متقاطرين من كل حدب ينسلون ، يدفعهم الايمان ، وتحثهم الرغبة في المعرفة ، والعلماء وأولو الأمر يحضونهم ويرغبونهم وينصحون لهم ، فانتشر العلم وحُمل ، ووعاه كثير من الناس ، وترك آثاره في

(١) تذكرة الحفاظ ١ : ٢٣ ، ٦٧ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، أخبار القضاة ١ : ٢٩٢ - ٢٩٧ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ٣٦٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٣٠ - ١٣٢ ، ١٣٣ - ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢/٧ : ٣ - ٥ . صحيح مسلم ١ : ١٥٠ - ١٥١ ، الفاضل : ١ ، تهذيب التهذيب ٢ : ٣٨

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٨ ، ٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣ : ٢٦٥ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ١١٣ ، العقد الفريد ١ : ١٠٦

شوسهم^(١) ، ولم يعد عجباً أن نرى طائفة من قضاياه وأحكامه منشورة في شعر الشعراء ، يحتجون بها ، أو يومئون اليها ، ذلك بأن الشعراء كانوا يحضرون حلقات العلماء ومجالس المدارس ، يسمعون ويشاركون ، ويأخذ كل منهم بقسط قل أو كثير . وقد روى الرواة أن الفرزدق كان يحضر حلقة الحسن البصري ، وأن جريراً كان يحضر حلقة محمد بن سيرين ، وينشد فيها شعره^(٢) . ويكفي أن يقرأ المرء شعر شاعر كالفرزدق ليدرك الأثر البعيد الذي تركته علوم القرآن في النفوس ، فقد ترددت في شعره الألفاظ الإسلامية التي أتى بها القرآن ، واستعان بالقصص القرآني يستمد منه ويستشهد به ، فإذا أنت تقع في شعره على قصة آدم وحواء وإبليس ونوح وإبراهيم وإسحاق وصالح والناقة ويوسف وفرعون وعاد وثمود وداود وسليمان ويونس والسامريّ ويأجوج ومأجوج والفيل ، وقد ذكر يوم الحساب وخشيته منه ، وذكر الجنة ونعيمها ، والجحيم وعذابها^(٣) . ثم لجأ إلى الفقهاء يستعين بقضاياهم وأحكامهم التي استمدوها من القرآن والسنة ، والقياس ، فهو يذكر اليمين وأحكام الحائث بها ، وطرائق التحلل منها ، ويذكر اللغو وحكمه ، وسبب الحرب ، وقصر الصلاة في السفر ، وخلود القاتل بغير جريرة في العذاب ، وآثام قطع الرحم ، وأمثال هذا من قضاياء الفقه والدين^(٤) . وأنا لندعش حقاً حين نجد فقيهاً محدثاً كالمعتز بن سليمان البصري (١٠٦ - ١٨٧ هـ) يروي من شعر الفرزدق ما يؤيد مذهبه في الفقه ، فإذا ذكرت العينة^{*} وذهب أبوه إلى أنها كالربا ، وتكرهها لذلك ، أيده المعتز ، بانشاد أبيات الفرزدق :

(١) صحيح مسلم ١ : ٧٥ - ٧٦

(٢) طبقات ابن سلام : ٢٨٣ - ٢٨٥ ، العقد الفريد ٥ : ٣٨٣ ،

التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٧٨ - ٨٠

(٣) الفرزدق لخليل مردم : ٤٠ - ٤٩

(٤) ديوان الفرزدق : ٥٤ ، ٦٣٦ ، ٧٠٢ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٩٣ ، ٨١٠ ،

٨٥١ ، التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٧٩ - ٨١

إذا وَضَعَ السَّيَاطَ لَنَا نَهَارًا أَخَذْنَا بِالرَّبِّبَا سَرَقَ الحَرِيرِ
فَأَدْخَلْنَا جَهَنَّمَ مَا أَخَذْنَا مِنَ الأَرْبَاءِ ، مِنْ دُونَ الظُّهُورِ (١)

وإذا كان في هذه الشواهد ما يدل على تأثر الفرزدق بعلوم الدين ، كان لا بد أن نلتبس تغيرا آخر في بناء شعره مستمدا من هذه الثقافة التي لقنها في حلقات العلماء ومدارسه الأكفاء، من ألوان الجدل وطرق الاستدلال والقياس . والفرزدق في هذا كله صورة شائعة بين الناس في هذا العصر ، حين كان يأخذ كل انسان نفسه بدراسة أسس الثقافة الدينية ، التي لم يكن بد من أن ينهل منها كل وارد . انها القدر المشترك ، الموحد بين الناس قبل أن تتفرق بهم الدروب ، دروب الثقافة والمعرفة .

٤ - وحضَّ القرآنُ على البرِّ والتقوى ، وزَيَّنَ الخَيْرَ فِي القُلُوبِ ،
وذكر بالآخرة ودعا إليها ، وحذَّرَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا العُرُورِ ، وقصَّ القصص
لتكون تذكُّرًا لأولي الألباب . وكان المؤمنون يجهدون ليلغوا بسلوكهم
مرضاة ربهم . ونشأت فئة في البصرة اتخذت الزهد طريقا ولزمت الورع
سمتا ، ورأت في مواعظ القرآن ، وما قصه الله على عباده مثلاً لها تقتدي
بها ، وتحتذيتها في سلوكها ، والتست في سيرة النبي ، وفي سيرة أصحابه ،
شواهد وحججا تدعم بها ما اختطته من نهج ، وما سلكته من طريق ، وكان
الزمن يعضدها في تعميق فكرتها ، وابرار جوانب كانت خفية ، وجاءت
الأحداث والملابسات لتقوي هذا الاتجاه، فحياة القهر والقسوة التي فرضت
على العراق ، دفعت الناس الى النسك والصلاح دفعا ، فزاد عديدهم في
البصرة ، وكثر أنصارهم ، وسالكو طريقهم (٢) ، وإنَّ تفتح العقل العربي

(١) اخبار القضاة : ١ : ٣٧٢ - ٣٧٣ ، ديوان الفرزدق : ٣٥٢ ،
والعينة ، بكسر العين : السلف وانظر اللسان والتاج (عين) .
(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٦٤ - ٦٥

الذي ألف العمران ، ونزع الى الاجتماع ، دفع بهذه الحركة الى الامام
تسدّ من أطرافها ، وتوسع أفكارها وآراءها ، وتدعمها بنصوص وأقوال لم
تلبث أن غدت مذهبا متناسقا .

وقد بدأت حركة الزهد مبكرة في البصرة ، بدأها عامر بن عبد قيس
العنبري زمن عثمان . كان راهب الأمة ، وأحد ثمانية من التابعين انتهى
اليهم الزهد ، فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة ، وتبتل ، وحرم على نفسه
اللحوم (١) . وعرفت البصرة طائفة من الزهاد والنسائك طارت شهرتهم ،
وكان لهم أبعد الآثار في تاريخ حياة الزهد والتصوف في الاسلام . عرفت
صفوان بن محرز المازني (ت ٧٤ هـ) ، وكان من أصحاب أبي موسى
الأشعري ، روى الحديث عنه وعن عمران بن حصين ، وله الكلمة المأثورة :
« إذا دخلت بيتي فأكلت رغيقي ، وشربت عليه من الماء ، فعلى الدنيا
العفاء » . وكان له سَرَبٌ لا يخرج منه الا للصلاة (٢) . وعرفت أنس بن
مالك الأنصاري (ت ٩٣ ، أو ٩٥ هـ) ، كان يصلّي ، فيطيل المقام حتى
تقطر قدماه دما (٣) . وكان الأسود بن كلثوم ناسكا شديداً التعبد ، بلغ من
طهارته ونقاء نفسه أن قال عامر بن عبد قيس حين ثفي الى الشام :
« ما آسى من العراق الا على ثلاث : ظمأ الهواجر ، وتجاوب المؤذنين ،
واخوان لي منهم الأسود بن كلثوم » . وكان الأسود يدعو ربه أن يحشره
من بطون السباع والطيور ، فقتل شهيدا في بيهق ، ولم توار جثته (٤) . وكان
صلة بن أشيم العدوي يصلّي حتى يأتي فراشه زحفا ، وكان ذا أثر في

-
- (١) المعارف : ٤٣٨ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ٧٣ - ٧٩ ، العقد
الفريد ٣ : ١٧١ ، الطبري ٣ : ٣٦٩ ، صفة الصفوة ٣ : ١٢٦ - ١٣٥
(٢) المعارف : ٤٥٨ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٠٧ ، صفة الصفوة
٣ : ١٤٩ - ١٥١ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٥٧
(٣) صفة الصفوة ١ : ٢٩٨ - ٢٩٩
(٤) فتوح البلدان : ٣٩٤ ، البيان والتبيين ٢ : ١٩٦ ، ٣ : ١٥٨

الناس بعيد ، يحوطه طلابه والآخذون عنه ، يهتدون بهديه ، ويترسمون نهجه ، ويتأدبون بأدابه ، قتل شهيدا في سجستان (بعيد موت يزيد بن معاوية ، أو في أول امرة الحجاج) • وكانت امرأته معاذة العدوية من أهل النسك والصلاح^(١) .

وأخذ النسك يؤثر في الجماهير ، ويفرض عليها الخلق والآداب ، والتفـّـحول النسك أصحابهم ، يرغبون الناس فيما هم فيه من خير، وينهون عن الشر والمعصية والاثم ، وتتالى النسك : مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري الحرشي (ت ٩٥ هـ) ، وكان شديد الخوف ، يردد : « حال ذكر النار بيني وبين الجنة » ، والحسن البصري ، وكان رجلا محزوناً ، شديد التخويف من عذاب النار ، يشتد في مواعظه ، وكان من خطباء النسك والعباد ، ومحمد بن سيرين ، وبكر بن عبد الله المزني ، وثابت بن أسلم البناني من قریش (توفي في ولاية خالد القسري على العراق) ، وكان يقرأ القرآن في كل يوم وليلة ، ويصوم الدهر ، وما ترك في المسجد سارية الا وقد ختم القرآن عندها ، ومالك بن دينار (ت ١٣٠ هـ) ، ومحمد بن واسع الازدي (ت ١٢٠ هـ) ، وكنت اذا رأيتـه حسبت وجهه وجه ثكلى^(٢) . وقد أكثر بعض هؤلاء النسك من الجزع والخوف والبكاء فعرفوا باسم البكائين • ولم يكن زهاد البصرة لونا واحدا من أهلها ، بل كانوا يمثلون الألوان كلها ، كانوا عربا وموالي، وكانوا خوارج وقدرية ومن أهل الجماعة •

ولكن حركة الزهد لم تنض الى غايتها التي انتهت اليها قرآنية

(١) طبقات ابن سعد ١/٧ : ٩٨ - ١٠٠ ، صفة الصفوة ٣ : ١٤٢
فتوح البلدان : ٣٨٩
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٦٣ - ٣٦٥ ، ٣ : ١٩٣ ، طبقات ابن سعد
١/٧ : ١١٨ ، ٢/٧ : ٣ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٦٠ ، ١١٨

النزعة ، عربية الاتجاه ، فهي لم تكتف بتعاليم القرآن ، وسيرة النبي وأصحابه ، ولم تلتزم الاسلام وحده معيناً تنهل منه ، بل اندفعت تعل وتنهل من ينابيع الأديان والمعتقدات الأخرى ، ومن التوراة والانجيل خاصة ، ترى فيها منابع ثرة تروي هذا الظمأ الديني المتعطش ، وتطفىء من أوار الحماسة المشبوبة التي تملأ صدور المؤمنين :

(أ) فالعراق وريث الأديان والفلسفات القديمة ، قد التقت على أرضه الفلسفة اليونانية (أتمى بها النساطرة المسيحيون) والديانات الثنوية واليهودية والنصرانية والمعتقدات الهندية ، وعرف العراق هذا المزيج العجيب الذي خرجت به مختلف النحل والمذاهب في محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة ، وبين السلوك والاعتقاد ، فظهرت نزعات زاهدة ترى الحياة عبئاً ثقيلاً ، وتحرّم على أتباعها كثيراً من ملذات الحياة تقشفاً وورعاً ، أو تطهيراً لصفاء الروح من نزعات الجسد .

(ب) وكان العرب والموالي قبل أن يعتنقوا الاسلام يؤمنون بأديان قديمة وثنية أو ثنوية أو كتابية ، وهم قد دخلوا بالاسلام ولكن نفوسهم لم تخلص من آثار دياناتهم خلوصاً تاماً ، فكان بعضهم يحاول أن يرى في القرآن بعض ما عرفه من صور دينه القديم ، وتفاسيره المطولة ، وكان بعض هذه الصور يندس خفية عن صاحبه ، يملئ عليه موقفه ورأيه ، ويؤثر في سلوكه ، على غير بينة منه .

(ج) وإن القرآن والسنة ذكرا من أخبار التوراة والانجيل وقصص الأنبياء والصالحين ما ذكرا ، لتكون عظة وعبرة ، فشجع ذلك حركة الزهد أن تلتمس في سيرة السيد المسيح ، والأنبياء السابقين ما يؤيد اتجاهها ، ويدعم سلوكها ، وأن تستمد منها ما تشاء من

شواهد في الزهد والتقوى والسياحة في الأرض ، فراحت عن عمد وتصميم ، تستكثر من قراءة التوراة والانجيل ، وترى في مواعظ المسيح مثلاً أعلى ، وغاية تستشرفها • وإن أثر التوراة والانجيل في حياة الزاهدين واضح ، يفوق بعد القرآن والسنة ، كل أثر ديني آخر (١) •

وقد بدأ هذا الاندفاع مبكراً في البصرة • كان أبو الجلد الجوني — حيّ من الأزدي — (القرن الأول) يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ، ويختم التوراة في ستة (٢) ، وكان عامر بن عبد قيس — حين ثقي الى الشام — يجلس الى كعب الأخبار ، وبينهما سفر من أسفار التوراة ، وكعب يقرأ ، فإذا أتى على الشيء يعجبه فسّره له (٣) • وبينما كان عمران بن الحصين الخزاعي يحدث عن رسول الله عارضه بشير بن كعب بما وجدته في بعض الكتب (٤) ، وكان مالك بن دينار (ت ١٣٠ هـ) يخبر عن بني اسرائيل ، ويقرأ في زبور داود ، ويعلل ما هو فيه من ورع بآيات من التوراة (٥) ، وكان قتادة (٦٠ — ١١٧ هـ) ينقل عن التوراة (٦) • ووقف يعارض هذه الآثار فئة كانت تشدد في أن تظل صورة الاسلام صافية لا تعلق بها شوائب الأديان ، كانت تخاف الصور المندسة أن تلبس على الناس أمر دينهم وتشوب نقاء الاسلام وصفاء تعاليمه ، بله الأخذ عن الكتب الدينية ، وتقليد أتباعها • كانت ترى في ذلك خطراً على الاسلام أيّ خطر ، وتجهد

(١) اتصل العرب منذ الجاهلية بالتوراة والانجيل مترجمين الى العربية، أو عن طريق تفسير أهل الكتاب (فتح الباري ١ : ٢٨ ، ٧ : ٢٣٣ ، صحيح مسلم ٢ : ٢٠٢ ، نسب قريش للزبير ١ : ٤١١) .
(٢) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٦١ ، تفسير الطبري ١ : ٣٤٠ ت ١
(٣) طبقات ابن سعد ١/٧ : ٧٩
(٤) صحيح مسلم ٢ : ٦ — ٨
(٥) صفة الصفوة ٣ : ١٩٨ ، ٢٠٦ ، وفيات الاعيان ٣ : ٢٨٧
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٠٤

لتمنعه ، وتزِيل آثاره • وبدأت هذه المعارضة في البصرة مبكرة تبكير الآخذين والناهلين ، فعامر بن عبد قيس كان من أسباب تفيه عن البصرة (سنة ٣٣ هـ) أنه قلد الرهبان المتناثرين في أطراف العراق في تحريم النساء ، وقلد غيرهم في تحريم اللحم ^(١) ، وفي وقعة الجمل (سنة ٣٦ هـ) قال كعب ابن سور الأزدي قاضي البصرة لصبرة بن شيمان ، وكان رأس الأزدي في البصرة : « كن وراء هذه النطقة ، ودع هذين الغارين من مضر وربيعة فهما أخوان » • وكان كعب في الجاهلية نصرانيا ، فقال صبرة : « أخشى أن يكون فيك شيء من النصرانية ، أنأمرني أن أغيب عن اصلاح بين الناس » ، وعيره الأزديون وقالوا له : « نصراني ، صاحب ناقوس ، و صليب ، وعصا » • ولما عارض بشير بن كعب عمران بن الحصين وهو يحدث عن رسول الله ، بما وجدته في بعض الكتب والحكمة ، غضب عمران حتى احمرت عيناه وقال : « ألا أراني أحدثك عن رسول الله ، وتحدثني عن صفك » ^(٢) •

ويمضي الاتجاهان جنبا الى جنب ، لا يرى المتساهلون حرجا ولا إثما في الأخذ والاقْتِناس ، فيفقدون الحركة الى غايتها ، واذا هم يقلدون الرهبان - وكانوا مبثوثين في أكناف العراق - فيتخذون لهم زيا وسمتا ، كانوا يشمرون ثيابهم ، يعني قمصهم ^(٣) ، ويلبسون الصوف والملابس الخشنة وينكرون على من يتنعم • وتقف المعارضة منددة ، مشهورة ، تلتمس لدينها النقاء ، أو مندهشة متعجبة لهذه الألوان الدخيلة على أعراف العرب وتعاليم الدين ، قال أبو العالية لرجل زاره وعليه ثياب صوف : « هذا

(١) الطبري ٣ : ٣٦٩ ، صفة الصفوة ٣ : ١٢٦ - ١٣٥

(٢) الطبري ٣ : ٥١٥ - ٥١٦ ، أخبار القضاة ١ : ٢٨١ - ٢٨٢ ،

صحيح مسلم ٢ : ٦ - ٨ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ٤٧ ، التصحيف والتحريف : ٨

(٣) طبقات ابن سعد ٢/٧ : ١٥

زي^ش الرهبان » ، ورأى قتيبة بن مسلم الباهلي (ت ٩٦ هـ) ممثل^١ الثقافة العربية الأصيلة بتقاليدها وأعرافها محمد بن واسع الأزدي (ت ١٢٠ هـ) يرتدي الصوف ، فعجب لأمره ، وسأله عن سر هذه الملابس . وقال الحسن البصري لفرقد السبخي : بلغني أنك لا تأكل الفالودج ، قال : « يا أباسعيد ، أخاف ألا أوذي شكره » . فأنكر عليه الحسن ، وكان عليه أشد انكارا ، حين رآه يلبس الصوف . فقال : « إن أحدكم يجعل الزهد في ثيابه ، والكبر في صدره »^(١) . انهم كانوا يرون في هذا التزيي لونا من المراءاة والتفرد والعلو ، لا يستحبه الاسلام ولا يستسيغه .

وكان لا بد لهذه الحركة الزاهدة الناسكة ، وهي ما هي قوة وأثرا في النفوس ، أن تنشئ تعاليم وآدابا ومواعظ تكون نبراس الحركة وهداية الأتباع والأنصار ، وقد عرفت كتب الأدب والمواعظ والتصوف شذرات من هذه الآداب تنبئ عن هذا المذهب الزاهد الذي بدأ عربيا يستمد نسغه من القرآن وحياة النبي وأصحابه ، ثم ما لبث أن نما وازدهر ، وأخذ يسيغ ألوانا أخرى من الزهد عرفتها الأديان الأخرى . قالوا : اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مجلس بالبصرة ، فقال مالك بن دينار : « ما هو الا طاعة الله ، أو النار » ، فقال محمد بن واسع : « ما هو كما تقول ، ليس الا عفو الله ، أو النار » ، قال مالك : صدقت . ثم قال مالك : « انه يعجبني أن يكون للرجل معيشة على قدر ما يقوته » ، قال محمد بن واسع : « ولا هو كما تقول ، ولكن يعجبني أن يصبح الرجل وليس له غداء ، ويسبي وليس له عشاء . وهو مع ذلك راض عن الله » ، قال مالك : « ما أحوجني الى أن يعلمني مثلك »^(٢) .

(١) شرح نهج البلاغة ٤ : ٢٨٥ ، العقد الفريد ٢ : ٣٧٢ - ٣٧٣ ،
٦ : ٢٢٥ ، ٢٩٣ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ٨٣ ، ١٢٣ ،
(٢) العقد الفريد ٢ : ٢٣٦ ، ٣ : ١٧٠ .

وشهدت البصرة كبار الوعاظ والخطباء والنسك ، يقومون في الناس
يحثونهم على الخير ، ويرشدونهم الى البر ، ونما لون من ألوان الأدب
جديد ، هو لون القصص . فقد بدأ الوعاظ يقصون في المساجد يرققون
القلوب ، ويعطفون النفوس ، ويهذبون المشاعر ، كان أول من قص في
جامع البصرة الأسود بن سريع التميمي (توفي أيام الجمل) وكان رجلاً
شاعراً ، وكان قاصاً . غزا مع رسول الله ، وأسمعه محامد حمد بها ربه ،
وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة ، وأقرأ
القرآن في مسجد البصرة^(١) . وتتابع القصص ينمون هذا الفن الوليد
ويسهرون على تجويده : مطرف بن عبد الله بن الشخير (ت ٨٧ ، أو ٩٥ هـ)
وقص في مكان أبيه بمسجد البصرة ، وزرارة بن أوفى الحرشي ، وكان
يقص في داره ، والحسن البصري رأس الفصحاء الأئمة ، والقصص
الوعاظ ، وكان الحسن رجلاً محزوناً كثير الترهيب في مواعظه ، يزجر
الناس ، ويخوفهم عقاب الله وعذاب الآخرة ، ويهوّل عليهم ما يلقاه العصاة
يوم البعث الأكبر والحساب ، ويؤكد مواعظه بأيمان مغلظة ، تبعث في
النفوس الاقناع ، وكان فصيحاً يشبه كلامه بكلام رؤبة بن العجاج . وقص
أخوه سعيد (ت ١٠٠ هـ) . وفي حلقة الحسن تخرج يزيد بن أبان الرقاشي
(ت ١٣١ هـ) الزاهد الواعظ . وكان من الفصاحة بمكان ، احتج اللغويون
بكلامه وهو رأس الرقاشيين الثلاثة الذين توارثوا القصص في جامع البصرة
حتى آخر القرن الثاني^(٢) .

لقد بدأ القصص عربياً في البصرة ، ثم ما لبث أن شارك في نمائه العرب

-
- (١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٧ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ٢٨ ، تهذيب
التهذيب ١ : ٣٣٨ - ٣٣٩ ، الأعلام النفيسة : ١٩٤ ، ١٩٦
- (٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٢٩٠ - ٢٩١ ، ٣٠٨ ،
٣٥٣ - ٣٥٤ ، ٣٦٧ ، ٣ : ١٣٢ - ١٣٩ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٠٦ ،
١٠٩ ، ١٢١

والموالي ، وكان لا بد أن يتأثر فن القصص بما ورد في التوراة والإنجيل من أقاصيص ، فقد وجد القصص فيهما معيناً لا ينضب ، استمدوا منه لتفصيل ما أجمله القرآن والسنة من ذكر الأمم السالفة والإفاضة فيما أوجزاه .

ولقد كان القصص من الفصاحة واللسن ، ومن الفقه وعلم الدين ما جعل الفقهاء والعلماء واللغويين والخطباء يحضرون مجالسهم . وكان لقصصهم ومواعظهم من السمات والتقاليد ما ميز القصص عن الخطباء وحق للجاحظ أن يقول : وعامة قصاص البصرة وهم أخطب من الخطباء ، كان يجلس إليهم عامة الفقهاء ، وهؤلاء [القصاص] وإن لم يسموا خطباء فإن الخطيب لم يكن يشق غبارهم^(١) .

وتفرغ عن الزهاد والنسك والعبادة فثة عرفت باسم القراء ، أخذوا أنفسهم بحفظ القرآن يواظبون على قراءته ، ويجهدون أنفسهم للتمسك بتعاليمه ، والتعلق بأهدابه ، فعلا شأنهم في قومهم ، وارتفعت مكاتبتهم . كان أبو رجاء العطاردي التميمي (ت ١٠٠ ، أو ١٠٥ هـ) قد تلقن القرآن من أبي موسى الأشعري ، وكان يختم في شهر رمضان ، في كل عشر ليال مرة ، فأتاح له ذلك أن يكون ذا دراية بالدين ، وعلم بالقرآن ، وأن يؤم قومه في مسجدهم أربعين سنة ، وكان يزيد بن عبد الله بن الشخير (ت ١١١ هـ) يقرأ في المصحف حتى يغشى عليه^(٢) . وكان هؤلاء القراء أشداء في الحق ، يدافعون عنه ويحاربون لاحقاؤه ، وكانوا يزدادون يوماً بعد يوم ، وقد أجلتتهم قبائلهم وقوي نفوذهم في الناس ، لما عرفوا به من الصلاح والتقوى وحب الآخرة والعمل لها ، وبدءوا يؤثرون في الحياة الدينية والسياسية . كانوا أشد من أهاج الناس على عبيد الله بن زياد ، كما أنهم حاربوا

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٩١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٩

(٢) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٠٠ - ١٠١ ، ١١٣ ، تذكرة الحفاظ

١ : ٦٢ ، صفة الصفوة ٣ : ١٤٢ - ١٤٣

الخوارج حين تهددوا البصرة ، ثم كانوا أشد الناس عظفا على الأنباط الذين أجبرهم الحجاج على الجلاء عن البصرة ، والرجوع الى قراهم ، وشاركوا في ثورة ابن الأشعث (٨٠ - ٨٣ هـ) ، وأظهروا جلدأً ونكاية بالعدو ، ولكنهم أصيبوا اصابة عظيمة ، وكان ذلك بدء تحول في تفكير القراء وفي سلوكهم . ذكر أيوب السختياني (ت ١٣١ هـ) القراء الذين خرجوا مع ابن الأشعث فقال : « لا أعلم أحدا منهم قتل الا قد رغب له عن مصرعه ، ولا نجا فلم يقتل الا قد ندم على ما كان منه » وغدا الثائرون من القراء مع ابن الأشعث أقل رتبة ممن سالم واعتزل ، وتعلبت نزعة السلام التي كان يدعو اليها الحسن البصري ابان الثورة ، فعنفه القراء الثائرون ، ونعته أحدئهم بالعلاج ، فأصبح الحسن بعد الثورة زعيم البصرة وموجهها الروحي . ومن أجل هذا التحول في تفكير القراء لم يؤيد يزيد بن المهلب حين نهض ثائرا بيني أمية الا طائفة قليلة منهم ، وقفت معه تناصره (١) .

وقد كان لهذه الحركة التي نادى بها الزهاد والوعاظ والقراء والفقهاء والمتدينون ، وحضوا الناس عليها ، مرغبين ومرهبين ، أثرها في تعميق الإيمان في النفوس ، وفي استجابة الناس للوازع الديني في التمسك بالخلق والفضيلة ، والندم والتوبة على ما فرط من معصية . كان الزهاد وأتباعهم المؤتسرون بهم ، والمقتدون بسيرتهم يدعون الى المعروف ، وينهون عن المنكر ، فاستجاب المؤمنون طائعين ، وعاشوا حياة قويمه سالحة يسودها التقى والورع . وكانوا يجهدون جهدهم ليفوزوا برضا الله ، وينالوا رحمته ، وانك لتجد صدى التحمس والايان اللذين سادا حياة الناس فيما روي عن جرير والفرزدق اللذين كانا ينهشان الأعراض ويستبان فلا يبقى

(١) طبقات ابن سعد ٢/٤ : ٣٥ ، ١/٧ : ١١٨ - ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، الطبري ٥ : ١٨٢ ، أنساب الأشراف (خ) ٧ : ٦٤٩ ، (ط) ١١ : ٨٥ ، ٩٣

أحدهما على صاحبه • فقد ذكروا أن جريرا كان لا يتكلم اذا صلّى الصبح حتى تطلع الشمس ، ولو تناحر الحي ، وكان يختم مجالس الشعر والحديث بالتسبيح فيطيل ، ومروا عليه بجزاة وكان يلبي قصيدة له فقطع الاثنان وجعل يبكي ، ثم قال : شيتني هذه الجزاة • ولما ذكروه قذف المحصنات في شعره قال : « يبدءونني ثم لا أعفو » ، ثم بين طمعه في غفران الله وعفوه • وكان يقول كثيرا : « أستغفر الله مما قلت لجعثن » (١) • وكان الفرزدق وهو ما هو ، يصيح لنداء الدين ، فيخرج في الليلة الظلماء الباردة الى المسجد ، ينشج ويبكي ، انها ذنوبه أفلقته ففرع الى الله ، يستغفره ، ويقيم الصلاة « وانه ، ليدعو الى الخير الكثير إقامتها » ، ويعظه الحسن البصري على القبر ويسأله : ماذا أعددت لهذا المضجع ، فيجيب : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وخمس نجائب لا يدركن » ، ثم أثنى آياتا تصور خوفه من عذاب الآخرة • ويعظه الحسن مرة اخرى فيجيب : « لله أحبُّ اليّ من سمعي وبصري ، أفتراه يخذلني » • وقد يشتد احساسه بإثمه فيندم ويتوب ، ويتنسك ويعاهد الله في البيت الحرام ألا يكذب ، وألا يثتم مسلما ، وينظم قصيدة يهجو فيها ابليس الذي زين له الشر ، وحبب اليه الإثم والمعصية :

ألم ترني عاهدتُ ربي وإني لبين رتاجٍ قائمٍ ومقامٍ
على حلقة لا أشتمُ الدهرَ مسلما ولا خارجاً من فيّ سوءٍ كلامٍ

وقد بلغ من شأن هذه القصيدة أن ترجم بعض آياتها الى الفارسية في كتاب من كتب المواعظ هو كتاب « مجالس المؤمنين » •

ولا يخطئك وأنت تقرأ شعر الفرزدق ، أن تحس صدى ما كان يتردد

(١) النقائض : ٣٢ ، ٣٩٨ ، الأغاني ٨ : ٤٤ ، ٥١ ، البيان والتبيين ٣ : ١٦٥ ، العقد الفريد ٣ : ١٨٦

في حاق الوعاظ والفقهاء في مساجد البصرة ومجالسها ، من مثل تعظيم
الله واخلاص الدعاء له ، لتنجو يوم الآخرة :

أَخْلِصْ دَعَاءَكَ تَنْجُ مَا تَنْقِي اللهُ ، يوم لقاءه بسلامٍ
ومن مثل تصوير القلق ، والتساؤل عما ينتظر الانسان بعد الموت :

عجبتُ من الآمالِ والموتِ دونها وماذا يرى المبعوثُ حين يقومُ

ولئن دل هذا على شيء ، انه يدل على النزعة الدينية التي استسرت
في أعماق الفرزدق الشاعر ، فدفعته أن يقيد نفسه ليحفظ القرآن ، وأن
يتردد على مجالس الحسن البصري يستمع الى مواعظه وزجره ، ودعته أن
يستشعر الندم على ما فرط في جنب الله ، فيعاهد ربه وهو متعلق بأستار
الكعبة ألا يكذب ولا يهجو خوفا من عذاب النار ، فإذا ثبته الى ما فرط
منه رأى في عفو الله ما يسع ذنوبه . وكان الفرزدق شديد الثقة بعفو الله
ورحمته . قال له عمارة ، وسمعه ينشد : « يا أبا فراس ، اتق الله » ،
فقال : « يا ابن أخي انما هي كلمة واحدة ، فإذا هي قد هدمت ما ترى » .
ومثل هذه النزعة الدينية ، جعلت الفرزدق يأنس الى بسر بن سعيد
المدني ، وكان بسر (٢٢ - ١٠٠ هـ) من العباد المنقطعين ، وأهل الزهد
في الدنيا ، وكان ثقة كثير الحديث ورعا ، فرافقه الفرزدق من البصرة
الى المدينة ، فلم يشعر أهل المدينة الا وقد طلعا عليهم في محمل . وكان
الفرزدق يقول : « ما رأيت رفيقا خيرا من بسر بن سعيد » ، وكان بسر
يقول : « ما رأيت رفيقا خيرا من الفرزدق »^(١) . وقالوا عن شاعر

(١) الأغاني ٢١ : ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ٤١٤ - ٤١٧ ، طبقات ابن سلام :
٢٨٣ - ٢٨٤ ، الكامل للمبرد : ٦٨ - ٧٠ ، أمالي المرتضى ١ : ٦٥ ،
أخبار القضاة ٣ : ٥١ ، لسان الميزان ٦ : ١٩٩ ، الشعر والشعراء :
٢٩٧ ، طبقات ابن سعد ٥ : ٢٠٨ ، ديوان الفرزدق (الصاوي) : ٥٧٧ ،
٧١١ ، ٧٦٩ ، ٧٨٣ ، ٨١٥ ، ٨٣٠ (ط . باريس) ، الترجمة الفرنسية :
٢٩٣ تعليق رقم ٣ ، وكتاب مجالس المؤمنين ، ألفه بالفارسية القاضي
نور الله الشوشتری (التستري) ، (٩٥٦ - ١٠١٩ هـ) ، من علماء الشيعة
وكبار أئمتها (أعيان الشيعة ٢/١ : ٢٨٣ ، ٥٠ : ٣٠ - ٣٤) .

البادية ذي الرمة : انه كان حسن الصلاة ، حسن الخشوع ، لأن العبد إذا قام بين يدي خالقه لتحقيق أن يخشع • وكان ينشد الشعر ، فإذا فرغ لاذ بتسبيح الله وحده^(١) • وأمثال ذلك كثير لا يستقصى • ولم يكن هذا كل ما تركه الدين في نفوس الشعراء ، فبدا بعضه في أشعارهم ، بل كان لهذه الحياة الدينية آثار أخرى بدت في شعر الشعراء حين أقبلوا على ممدوحهم من الخلفاء والامراء والولادة ، يصفون عليهم تلك الصفات والنعوت التي يأمر الاسلام أتباعه أن يتحلوا بها ليفوزوا برضوان الله ، وكذلك كان شأنهم في الغزل والهجاء وأشعار الدفاع عن العقيدة والسياسة والحكمة ، فقد تردد فيها أصدااء الحياة الروحية التي عاشها العرب ، بمقدار قلّ أو أكثر ، ولكنه يؤذن بما كان لهذه الحياة من آثار في نفوس الشعراء • وسيأتي مزيد من القول في بحث الحياة الأدبية^(٢) •

٥ - ثم قام النزاع المتصل بأصول الدين والعقيدة ، وشهدت البصرة ألوانا من المذاهب الدينية تتفاوت بعدا وقربا • يعنف بعضها ويشتم حتى لا يجد أمامه الا السيف يحتكم اليه ، ويثقف به ، ويلجأ بعضها الى اللسان يرتضيه أداة للبرهان ، ووسيلة للاقناع ، فإن كان عنف فالزجر والنفي من الأرض ، يدفع بهما خصومه ويردعهم ، ويكتفي بعضها بالدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، يلين بهما القلوب القاسية ويتألف النفوس النافرة •

ولقد برز هذا الاختلاف مبكرا ، لم تستأن به الأيام ، وكانت الخلافة المشكلية الاولى التي حركت أعماق المجتمع العربي وهزت روحه ونفذت الى صميمه ، وأثارت الاضطراب في كيانه كله • أطل الخلاف بقرنه زمن

(١) الأغاني ١٧ : ٣٤٦

(٢) ديوان الفرزدق : ٥٤٨ ، ٦٢٧ - ٦٢٨ ، التطور والتجديد في الشعر

الأموي : ٦٧ - ٧٧

عثمان فكانت الثورة ، وقتل الخليفة ، وبويع عليّ ، وكانت الجمل وصفين ،
ثم كان التحكيم ، فاشتد الخلاف ، وانقسم الناس خوارج وشيعة وعثمانية •

ومالت البصرة الى العثمانية ، الى جانب قلة من الشيعة ينتمون الى
ربيعة ، والى عبد القيس منها خاصة • أما الخوارج فقد وجدوا الأرض
الخصبة فيها بين أعراب بكر وتميم ، ثم ما لبث الموالي أن انضموا اليهم •
ولما انزوت حركة الخوارج في الكوفة وضعفت ، رفع خوارج البصرة راية
الثورة ، وكانوا أشد قسوة ، وأمعن فتكا ، وتسر الأيام ليشنتد الخلاف
ويعمق ، فقد جدّت ألوان من التفكير تفتح عنها العقل العربي أعمق
وأشمل ، فبدأ طور جديد في حياة المذاهب التي نشأت حول الحكم والخلافة ،
حاول فيها كل مذهب أن يستكمل صورة الايمان تامة الجوانب ويبحث في
الأجزاء والفروع ، ملتسما في القرآن أدلة التأييد ، وتجاوز الأمر العقائد
ليمتد الى نواح أخرى ، فنشأ فقه مذهبي ، وأدب مذهبي ، يساندان
العقيدة ويدعون اليها ، يورثها جيل جيلاً بعده ، ويرفدهما لون من
النسك والعبادة وآداب الدين ، وغدا لكل فئة فقهاؤها وعلماؤها
وشعراؤها وزهادها • وقد نما المذهب الخارجي وافترق أصحابه في
البصرة ، ففيها قام الأزارقة الذين كفروا جميع الأمة ودافعوا عن معتقداتهم
بالسيف ، وقتلوا حتى قتلوا ، أفنأهم سيف الحجاج (سنة ٧٧ هـ) ،
وقام الإباضية الذين آثروا السلم حين الضعف ، فبقوا في البصرة ، وأتاح
لهم الاستقرار أن يتموا بناء العقيدة وما يتصل بها ، وقام الصفرية ،
والبيهسية ، وبذلك كانت البصرة مهد نساء المذهب الخارجي وازدهاره •
ولكن الإباضية كانت أكثر المذاهب نموا ، وقدرة على جذب الأنصار
والمؤيدين ، وكان عظم أتباعها من أزد البصرة • ولم يلق المذهب الشيعي
قبولاً بين البصريين ، فظل أتباعه في نطاق ضيق ، يتطلعون الى الكوفة
يأخذون عنها عقائدهم وآراءهم •

ثم كان من أثر تطور الفكر وتقدم المعرفة أن جددت مذاهب لا تجعل من الخلافة مشكلتها الاولى ، بل تناولت بجدلها الإيمان والعقيدة أساسا ، تنفرع عنه الحلول والقيم ، والخلافة فرع من فروعه . وقد ساعد على نشأة هذه المذاهب عوامل عدة تمثل في الدراسة الجادة التي تناول بها الناس القرآن ، يتعمقون براهينه ، ويعملون الفكر في محكم آياته ، ومتشابهها ، وتفسح لهم الأحداث والمشكلات الطارئة مجال الفهم والتعمق . ثم كان هذا اللقاء بينهم وبين الأديان الأخرى اليهودية والنصرانية والثنوية ، وبينهم وبين الثقافات القديمة التي ورثت العقل اليوناني فكان النقاش والجدل الحر ، وحب المعرفة ، والاخلاص لها ، مما دفع الى ظهور فرقتي المرجئة والقدرية ، والى تطوير الفرق الأخرى التي تصدت لهما ، وجادلتها .

ظهرت المرجئة التي كانت متفائلة متسامحة ، جعلت الإيمان تصديقا بالقلب « المسلمون على الاسلام كلهم » ، وأرجأت الحكم في أمر علي وعثمان حتى يحكم الله بينهما ، ويبدو عجباً أن يظهر الارحاء في المدينة ، وأن يكون الحسن بن محمد بن الحنفية (ت ٩٥ ، أو ١٠١ هـ) أول من تكلم به هناك ، ووضع فيه كتابا رد فيه على السبئية^(١) . وامتدت المرجئة الى الأمصار الاسلامية ، نشيطة في دفاعها ، تؤلف الكتب تناقض الفرق الأخرى . وأول من وضع الارحاء بالبصرة حسان بن بلال المزني ، ثم كان طلق بن حبيب العنزلي البصري من أبرز معتنقيه^(٢) . ولم تلبث المرجئة أن افرقت طوائف ، ولما قامت ثورة يزيد بن المهلب في البصرة (سنة ١٠٢ هـ)

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ٦٧ ، ٢٤١ ، شرح نهج البلاغة ٢ : ٣٠٩ ، تاريخ الاسلام ٣ : ٣٥٧ ، ٤ : ٢٠ ، أنساب الاشراف ٣ : ١٧٧ ، تهذيب التهذيب ٢ : ٣٢٠ - ٣٢١

(٢) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٦٥ - ١٦٦ ، المعارف : ٤٦٨ ، تهذيب التهذيب ٢ : ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ٥ : ٣١ - ٣٢ ، خطط المقرئ ٤ : ١٧٢

انضم اليه أبو ربيعة المرجيء البصري على رأس طائفة من المرجئة ، وحارب بني أمية وأهل الشام ، وأبلى في قتالهم بلاء حسناً^(١) . ولعل في هذا ما ينفي أن تكون المرجئة مسالمة تؤيد بني أمية ، على أنه لم يكن للمرجئة في البصرة أثر بعيد ، فلم تستطع أن تستهوي فئات كثيرة ، وكانت أضعف منها في الكوفة وخراسان ، حيث لقيت في المصريين أنصاراً ومؤيدين . ويقال إن أبا عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤ هـ) ، أعلم البصريين بالعربية والشعر ، ومذاهب العرب ، كان يميل في أول عهده الى القول بشيء من الارحاء ، وناظر عمرو بن عبيد في الوعيد^(٢) .

ولكن البصرة تفردت في تاريخ العقائد بأنها كانت التربة المهيأة لنماء فرقة من أكبر الفرق أثرا في الفكر العربي . ففي أرض البصرة ظهر القول بالقدر ، وكانت مشكلة فتحت باب الجدل على مصراعيه ، ومهدت الطريق لنشوء المعتزلة بعد .

وأول من قال بالقدر في البصرة ودعا اليه معبد الجهني ، ويقال انه أخذه عن سنهويه زوج أم موسى^(٣) . لا نعلم كثيراً من أمر معبد وأوليته . فقد ذكروا أنه كان من المعلمين ، وأنه كان هو والشعبي عالم الكوفة الأكبر يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان ، وأن معبدا كان يعلم سعيد بن عبد الملك^(٤) . وكان معبد داعية متفوقا اتخذ من القول بالقدر وسيلة للانتقاص على بني أمية . فقد اجتذب اليه عطاء بن يسار فكانا يأتیان

(١) الطبري ٥ : ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

(٢) مراتب النحويين : ١٥ ، ١٧ ، المفردات السبع : ١١٥

(٣) طبقات ابن سعد ٢/٧ : ٢٧ ، سرح العيون : ١٥٧ ، تهذيب التهذيب ١٠ : ٢٢٥ - ٢٢٦ ، النجوم الزاهرة ١ : ٢٠٦ ، واختلف في اسم سنهويه ولقبه ، انظر لسان الميزان ٣ : ١٣١ ، ٦ : ٣٣٥ ، خطط المقرئ ٤ : ١٨١

(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٥١ ، الإعلاق النفيسة : ٢١٦ ، وانظر كتاب:

آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع : ١٣٣ - ١٤٨

الحسن البصري فيسألانه ويقولان : « يا أبا سعيد ، ان هؤلاء الملوك
يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال ويفعلون ويقولون : انما تجري
أعمالنا على قدر الله » ، فقال : « كذب أعداء الله » • لقد أحسن معبد عرض
قضيته وجذب اليه الأنصار والمؤيدين ، ينادون أن لا قدر ، وان الامر
أثف • وكانت دعوة معبد مبكرة ، تنبىء بهذا النشاط العقلي الذي كان
عليه القوم ، وما كان يضطرم في نفوسهم من تحمس في الدين ، وانتصار لما
يرون أنه الحق ، فهم يجهدون جهدهم لنشره واقناع الناس به ، لا يبالون
مغرما ، ولا يخشون عقوبة • يدل على هذا كله ما ذكروه من انطلاق يحيى بن
يعمر العَدَوَانِي وحميد بن عبد الرحمن الحميري البصريين الى مكة
يسألان عبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ) عن هذه النحلة المتدعة ، وكان
ما قاله يحيى في صفة أصحابها : « يقرءون القرآن ، ويتقرون العلم » ،
واستطرد يعدد ما هم عليه من الفضيلة والاجتهاد ، والتشدد في الدين ،
وما لبث معبد أن اشترك في ثورة ابن الأشعث فقتله الحجاج صبورا^(١) •
ولكن دعوته كانت قد انتشرت في البصرة ، ولقيت القبول والتأييد • وفي
كتب العقائد والسير طائفة صالحة من رؤوس البصريين ، آمنوا بالقدرية ،
ودعوا لها ، كبكر بن عبد الله المزني (ت ١٠٨ هـ) ، وقتادة بن دعامة
السدوسي ، وعمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ) تلميذ الحسن البصري^(٢)
وكان عمرو أكبر دعاة القدرية ، والمؤسس الحق لها ، ضمن لها الانتشار
في الأرض ، واجتذب اليها الأتباع ، إذ كان قدوة في العلم ، والعمل^(٣) بل
إن الحسن البصري نفسه نُسب اليه القول بالقدر ، وأنه خَوْف السلطان
فعاد عنه ، ويؤكد السيد المرتضى قدرية الحسن البصري وأنه كان يقول :

-
- (١) صحيح مسلم ١ : ١٥٠ - ١٦١ ، المعارف : ٤٤١ ، ميزان
الاعتدال ٣ : ١٨٣
(٢) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٥٢ - ١٥٣ ، ٢/٧ : ١ ، ٣٣ ، المعارف :
٦٢٥ ، الاعلاق النفيسة : ٢٢٠
(٣) تاريخ بغداد ١٢ : ١٦٦ - ١٨٨ ، أمالي المرتضى ١ : ١٦٩

« من زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسودا وجهه » • ولا غرو
ففي حلقة الحسن نشأ أكبر دعاة القدرية وهو عمرو بن عبيد تلميذ الحسن،
والآخذ عنه ، والمقتدي به • وهو الذي اتدبه الحسن ليناظر واصلاً حين
أحدث القول بالمنزلة بين المنزلتين ، فتناظرا في مجلس الحسن^(١) ، وكان
للقدرية ، بفضل دعائها وأنصارها ، من القوة والاقناع ما جعلها تمتد الى
الأقطار الأخرى ، فعرفت الشام غيلان دمشقي الذي قام فيها مقام
معبد في البصرة • وقد حاول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أن يقف
تيارها ، فجادل دعائها ، وحاورهم ، ثم تهددهم وأخافهم ، ولكن المنية
وافته • وما لبثت الدعوة أن اشتدت وانتشرت ، وظلت القدرية في
البصرة دعوة جذابة برافة ، تقنع بالبرهان والجدل ، وتبدو أقرب الى
العدل والحق ، فقد رزق دعائها القدرة على الجدل ، وموهبة الاقناع ،
والبراعة في اجتذاب الناس حتى قال إياس بن معاوية المزني البصري
(٤٦ - ١٢٢ هـ) وقد ضرب بكائه المثل : « كملت الفرق ببعض عقلي ،
وكلمت القدرية بعقلي كله »^(٢) • وكان من ذلك أن كثر أتباعها بالبصرة
كثرة كبيرة أجازت للناس أن يقولوا : « البصرة عش القدر »^(٣) • وأخذ
خصوم القدرية يعنمون في تحقير أتباعها، ويرفعون عن لقائهم ومجالستهم،
امعانا في تنفير الناس منها ، وابعادهم عن لقاء أصحابها • اقد وجدوا فيها
مهيدا للمعتقدات الموروثة والايسان ، فراحوا يشنعون عليها • قيل لطاوس :
هذا قتادة يريد أن يأتيك ، قال : لئن جاء لأقومن • قيل : إنه فقيه ، قال :
ابليس أفقه منه • وقيل للشعبي : رأيت قتادة ، قال : نعم ، رأيت كناسة
بين حشين^(٤) •

(١) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٢٢ ، أمالي المرتضى ١ : ١٥٢ ، ١٦٥

(٢) العقد الفريد ٢ : ٣٧٨ ، أخبار القضاة ١ : ٣٤٥

(٣) ميزان الاعتدال ٢ : ٢٠٧

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٣١ ، ٣٧٧

وغدت القدرية شغل القوم الشاغل ، يجادلون فيها ويخاصمون ، حتى لقد أصبح الجدل سمة من سمات البصريين « لا يخلو بصريّ من جدل » (١) . ولم يكن بد من أن يشارك الشعراء في هذا الجدل ، أو يكون له صدى في نفوسهم ، واتخذوا مواقف تبعا لما اقتنعوا به ، ولعل من الطريف إيراد لون من ألوان الجدل قام بين شاعرين من شعراء بادية البصرة هما ذو الرمة (ت ١١٧ هـ) ورؤبة بن العجاج الراجز (ت ١٤٥ هـ) ، واحتج كل منهما لمذهبه . قالوا : لقي رؤبة ذا الرمة عند بلال بن أبي بردة الأشعري أمير البصرة ، فاخصما : قال رؤبة محتجا لمذهب الجبر : « والله ما فحص طائر أفحوصا ، ولا تفرمص سبع قرموصا ، الا بقضاء من الله وقدر » ، فقال له ذو الرمة محتجا لمذهبه في القدر : « والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايل ضرائك » ، فقال رؤبة : « أفقدرته أكلها ؟ ! هذا كذب على الذئب ثان » ، فقال ذو الرمة : « الكذب على الذئب خير من الكذب على رب الذئب » (٢) . واذا كان شاعرا البادية يتحاوران هذه المحاورة ، تأثرا بما شاع في البصرة من جدل وحوار حول القدر ، فإن شاعرا كالفرزدق ألفت التردد الى حلقات العلماء ، والى حلقة الحسن البصريّ خاصة ، وهي التي كانت مألف العلماء ، يتجادلون فيها ويتناظرون ، ويحاج بعضهم بعضاً ، وفيها نشأ عمرو بن عبيد القدري ، وواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، لا بد أن يكون أعمق تأثرا ، وأشد انفعالا ، لا لقربه وصلته بحلق العلم فحسب ، بل لما عرف به من ظمأ للمعرفة ، وتيقظ للفهم ، واستيعاب لما يسمع . وهكذا شارك الشعراء في هذا الجدل الديني العقلي ، وانعكست صورة منه في أشعارهم لعلها تجلت أحسن ما تجلت في النقائض

(١) نهاية الارب ١ : ٢٩٥

(٢) أمالي المرتضى ١ : ١٩ ، سرح العيون : ١٥٨ - ١٥٩ وانظر قصة اخرى جرت لذي الرمة مع ابن أبي اسحاق (الاغانى ١٧ : ٣٣٤ ، الخصائص ٣ : ٣٠٢ ، الاشباه والنظائر ٣ : ٩١ ، سرح العيون : ١٥٩) .

التي عبرت بصورتها عن جدل آخر يوازي هذا الجدل الديني يتناول الأحساب ، وينفذ الى الثغرات ، ويقلب الدعاوى لينقضها ، فعل الفقهاء والجدلين من علماء الدين • وإن الأصمعي ليحدثنا أن المعتز بن سليمان (١٠٦ - ١٨٧ هـ) ، من كبار علماء السنة في البصرة ، الذين وقفوا في تيار القدرية ، روى أبيات الفرزدق في طلاق زوجه النوار فعقّب الأصمعي :
إن المعتز روى ما روى لقول الفرزدق :

ولو أني ملكت يدي وفتسي لكان عليّ للقدر الخيار^(١)

لأن فيه تأييداً لما ذهب إليه من عجز الانسان أن يتصرف بقدره ، وأن يهيمن عليه • وسبق أن ذكرنا (ص : ٦١ - ٦٢) ما رواه المعتز من أبيات الفرزدق ، يستشهد بها على ما ذهب إليه من كراهة العينة ، وما كان ليكون هذا لولا ما أخذ به الشعراء من مشاركة في هذه الحركة القوية الناشطة التي قامت في جنات البصرة •

وإذا كان لا بد من موازنة بين البصرة والكوفة فإننا نرى أن البصرة قد برزت في الجدل ، وبحث العقيدة ، إذ كانت مهد الحركة القدرية • وبلغت نزعة الزهد فيها والدعوة الى النسك غايتها ، في حين برزت الكوفة في الفقه والتشريع والتفسير والحديث ، لكثرة من نزلها من الصحابة ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود • وقد أوجز ذلك ابن شبرمة قاضي الكوفة حين سأله رجل من أهل البصرة : « نحن أفقه أو أتمم » • فقال : « نحن لأحاديث القضاء ، وأتمم أطلب لأحاديث البكاء »^(٢) •

(١) الكامل للمبرد : ٧٠ ، العقد الفريد ٦ : ١٢٥

(٢) أخبار القضاة ٣ : ١٢٢

ويحسن بي ألا أختتم هذا المبحث دون أن أشير الى شيئين اثنين :

(١) أولهما : قوة الصلات العلمية التي كانت تربط بين الأمصار ، فقد أكثر العلماء من الرحلة والتنقل بين البلاد ، يطلبون العلم ، ويتزودون المعرفة ، وكانوا يرون في الحج الى مكة فرصة للتلاقي ثمينة ، فهم يسألون ويناقشون ويجادلون ويجلسون الى العلماء يستمعون • وفي الحق أن الحجاز كان في القرن الأول مهوى أفئدة العلماء والفقهاء ، يقصدونه ليجدوا عند علمائه ما افتقدوه ، وكان لهذا التشابك والتلاقي أثره في الخطوط العامة الأساسية التي تلاقت عليها ثقافة الأمصار •

(٢) وأما الشيء الثاني : فهو أنني أغفلت الإشارة الى ما ترجم الى العربية من تراث الأقدمين ، مما نصت عليه الكتب ، وقد دفعني الى ذلك زيارة ما ذكر ، وان الحركة لم تتجل قوية الا في القرن الثاني ، وإن كنت لم أغفل الإشارة الى الصلات بالثقافات الأجنبية ، وما تبدى من آثارها في الحركة الدينية والعقلية •

(٣)

الحياة الادبية :

وكانت الحياة الأدبية في البصرة تمثل حياة القوم في مصر ، وتلبي دوافع البيئة وما جدَّ فيها • فنشأت علوم العربية، وظهر الرواة والاختاريون والنسابون ، وتجلَّى الأدب بأضربه الثلاثة : الشعر والخطابة والكتابة ، يعبر عن المجتمع البصري بشتى نوازه وأهوائه • ولعل من الخير أن نوجز القول في بيان نواحي النشاط الأدبي المختلفة ، مكتفين بلمحات تشهد لما وراءها ، ومذكرين بأن العلماء في هذا القرن لم يقصروا جهودهم على فن واحد ، بل كان أكثرهم مبرزا في أكثر من فن ، فإذا أدرج في لون غلب عليه ، فما ذاك بمانعه أن يكون له في ألوان أخرى معرفة ودراية •

١ - وكان النحو علم البصرة الذي تفردت به وقامت على تنشئته حتى استقام وصلب عوده ، وقد ارتبطت نشأته بنشأة علم النقط الذي ضبط ألفاظ القرآن خشية أن يداخله اللحن ، وبنشأة علم القراءات في القرآن ، فكانت العلوم الثلاثة مترابطة في نشأتها الأولى • وقلَّ أن تجد في القرن الأول نحويا لم يكن من القراء الذين عرفوا بقراءة القرآن ، وتجويد نقطه وضبطه • ولعل في هذا الترابط ما يفتح باب البحث في الدواعي التي دعت الى نشوء علم النحو ، والعوامل التي ساعدت على تنميته وارتقائه^(١) ، أما القدماء فيذكرون في سبب نشأة النحو روايات

(١) وتفرَّد البصرة بتنشئة النحو ، يعني عنايتها به ، وتفرغها له ، حتى تم لها وضع قوانينه ، واستنباط أحكامه ، وتفعيد قواعده ، ولكنه =

متعددة يُجملها أن لحنا وقع في البصرة ، دعا الى وضع النحو ، فقد كثر عديد الأعاجم ، ولم تعجز ألسنتهم بالعربية فصيحة سليمة ، فوق الخطأ ، وفتشا اللحن^(١) ، ففزع العرب الى لسانهم يحمونه أن يعنوره النقص والعجمة وأن يفسده اللحن فيستغلق عليهم فهم القرآن ، وتقف الحواجز بينهم وبين تراثهم من الشعر وألوان القول ، وكان العبقرى الذي هياه القدر ليرسي أسس هذا الصرح الشامخ أبا الأسود الدؤلى ، ابن البصرة •

كان أبو الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) من أكمل الرجال رأيا ، وأسدّهم عقلاً كما كان شاعرا مجيدا ، من أفصح الناس • وقد وضع أبواب النحو الاولى ، كما وضع أول شكل من أشكال النقط لضبط الاعراب ، فنقط المصحف بالنحو ، وكان حافظه على نطق القرآن خوفه أن يداخله اللحن ، فجنب بنقطه الألسنة أن تخطىء ، وكان بذلك أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وانهج سبيلها ووضع قياسها^(٢) • قام الى جانب أبي الأسود ، نصر بن عاصم الليثى (ت ٨٩ هـ) ، وكان أحد

= لا يعني أن الامصار الاخرى لا تعرف من أمره شيئا ، فقد ذكرت الاخبار أن أبا داود عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧ هـ) كان أول من وضع النحو ، وهو من أهل المدينة ، وأحد القراء الذين شهرروا بالقراءة ، وكان يكتب المصاحف . خرج الى الاسكندرية فأقام بها حتى توفي ، ومنه أخذ أهل المدينة النحو وعنه نقلوه . وجاء بعده عبد العزيز القارى الملقب ببشكست ، وكان يعلم النحو بالمدينة . وظهر في الكوفة نحاة في العصر الأول حتى قال ابن برهان : « النحاة مديون وبصريون وكوفيون » وهناك أخبار تدل على وجود نحاة بالشام . انظر : طبقات ابن سعد ٥ : ٢٠٩ ، أخبار النحويين البصريين : ١٣ ، ٢٢ ، نزهة الالباء : ١٨ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٩١ ، إنباه الرواة ١ : ٣٣٩ ، ٢ : ١٨ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، طبقات القراء ١ : ٣٨١

(١) أخبار النحويين البصريين : ١٧ - ١٨

(٢) أخبار النحويين البصريين : ١٦ - ١٨ ، طبقات ابن سلام : ١٢ ، الفهرست لابن النديم ٣٩ - ٤٠ ، الأغاني ١٢ : ٢٩٧ - ٣٣٤ ، المعارف : ٤٣٤ - ٤٣٥ ، وفيات الأعيان ٢ : ٢١٦ ، كتاب النقط : ١٣٢ ، المصاحف : ١٤١ ، ١٤٢

القراء الفصحاء ، يفلّق بالعربية تفليقاً ، وقد أخذ عنه أبو عمرو بن العلاء • شارك نصر في أبواب النحو الأولى وفي وضع النقط ، حضّته على ذلك الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أولى ضبط المصحف كثيراً من عنايته ، وجمع لذلك الحفاظ والقراء ، وأخذ الناس بقراءة عثمان أخذاً شديداً ، وتهدد من قرأ بقراءة ابن مسعود • وكان من اعجاب الحجاج بنقط نصر وشدة تدقيقه وضبطه أن كتب مصاحف وبعث بها الى الأمصار • ووجه الى مصر بمصحف منها^(١) • وبدأت البحوث تنمو ، يجدون لكل مشكلة حلاً ، ويؤوبون لكل قضية باباً ، وقام تلاميذ أبي الأسود : ابنه عطاء ، ويحيى بن يعمر العَدَواني (ت ١٢٩ هـ) ، وقد بعجا العربية بعد أبي الأسود ، وعنبسة بن معدان المهري ، وكان أبرع أصحابه ، وميمون الأقرن ، فمضوا بالنحو خطوة أخرى بعد أبي الأسود ونصر • وقد هجا الفرزدق عنبسة وشنع عليه لأنه كان يؤثر جريراً برواية شعره ، فقال فيه :
لقد كان في معدانَ والقيـلِ زاجرٌ لعنبسةَ الراويِ عليَّ القصائدا
وتابع يحيى بن يعمر النقط لضبط الإعراب ، وكان عند ابن سيرين مصحف من نقطه • وظهر في عصرهم أبو نوفل معاوية بن عمرو بن أبي عقرب الدؤلبي وكان فقيهاً نحويًا ، وكان أبو عمرو بن العلاء ، وشعبة بن الحجاج يأتياه^(٢) • ثم برز الثلاثة الكبار في النحو : عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء المازني ، وعيسى بن عمر الثقفي • كان ابن أبي اسحاق (ت ١١٧ هـ) أشد تجريدًا للقياس ، وقد أكثر من

(١) أخبار النحويين البصريين : ٢١ - ٢٢ ، الفهرست : ٣٩ ، وفيات الأعيان ١ : ٣٤٤ ، النقط : ١٣٣ ، المصاحف : ١١٩ - ١٢٠ ، الخطط ١٧ : ٤

(٢) أخبار النحويين : ٢٢ - ٢٥ ، المعارف : ٤٣٤ ، إنباه الرواة ٢ : ٣٨٢ ، النقط : ١٣٣ ، طبقات ابن سلام : ١٢ - ١٣ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٧١ ، معجم الأدباء ٦ : ٩١ ، ٧ : ١٦٤ ، ٢٠٠ ، تهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٥ - ٣٠٦ ، ١٢ : ٢٦٠ ، طبقات ابن سعد ٥ : ٣٣٧

الرد على الفرزدق ، فناله هذا بشؤاوا من هجائه ، وهزىء به وأكثر من تحديه ، يتعمد أن يغرب عليه • وكان أبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤هـ) أوسع علما بكلام العرب ولغاتنا وغربها ، وقد مدح الفرزدق فيه سعة اطلاعه وأطرى مقدرته • وأما عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) فقد أخذ عن ابن أبي اسحاق وغيره ، وهذب النحو ورتبه ، وألف كتابين فيه : الجامع والمكمل (الاكمال) ، سمع الحسن البصري ، وكان فصيحاً يتقعر في كلامه ، وله اختيار في القراءة على قياس العربية^(١) • وهكذا رفع الأولون من نحاة البصرة القواعد التي شيد عليها سببويه بناءه الشامخ العظيم ، وأقبل الناس سراعاً يتعلمون العربية ليسلم لهم لسانهم ، ويظلوا أوفياء لثرائهم ، يحضهم على ذلك العلماء والخلفاء ويحسنونه لهم • قال عمر : تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض • وقال أيوب السختياني (ت ١٣١ هـ) : تعلموا النحو فإنه جمال للوضع ، وتركه هجنة للشريف^(٢) •

٢ - وتجرد العلماء لرواية الشعر ، وما يتصل به من معرفة أيام العرب وأنسابها وأخبارها وطرائق حياتها وأعرافها ، ولم يكن بد من حفظ اللغة ، وفهم معانيها ، والوقوف على طرق العرب في التعبير • يحفزهم ويستحث خطاهم ما لذلك من صلة في فهم كتاب الله ، ومعرفة معانيه •

وكان المربد ، وكان المسجد الجامع خير مجلسين يجد المرء فيهما طلبته من اللغة والأدب ورواية الشعر والنسب ، ولقاء العلماء والأعراب الفصحاء الوافدين • يقع المربد في غربي البصرة ، وكان سوق الإبل ، يلتقي

(١) أخبار النحويين البصريين ٢٥ - ٣٣ ، الفهرست : ٤١ ، العقد الفريد ٢ : ٤٨١ ، معجم الأدباء ٤ : ٢١٦ ، وفيات الاعيان ٣ : ١٣٦ ، ١٥٤ ، إنباه الرواة ٢ : ٣٧٤ - ٣٧٧

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢١٩

فيه الناس صنوفا شتى ، وكان مألّف الشعراء ، تعقد فيه حلقاتهم ، فحلقة
لجرير ، وحلقة للفرزدق والراعي ، ويرده العجاج ، ورؤية ، وذو الرمة •
وتقام فيه سوق الهجاء والمناقضة ، فقد قام فيه الفرزدق وجرير يتهاجيان ،
وتواقف فيه أبو النجم العجالي ، والعجاج السعدي يتراجزان ، والتقى فيه
النابغة الجعدي وأوس وتهاجيا • وكان الناس يحضرون المربد ، يتناشدون
الأشعار ، ويتحدّثون بما رأوا وسمعوا • وقد قال الجارود بن أبي سبرة
أحد الخطباء الأبيناء في وصف المربد ومكاته : « عليكم بالمربد ، فإنه
يطرد الفكر ، ويجلو البصر ، ويجلب الخبر ، ويجمع بين ربيعة
ومضر » (١) •

وفي المربد والمسجد الجامع ، بدأت علوم العربية والرواية تخط
طريقها الأول على أيدي العلماء الذين شاركوا في أكثر من فن وبذلوا
النشاط في كل وجه لاقامة سوق العلم • وكان بعضهم يتفوق على الآخرين
في بعض تلك الفنون ، حتى يشار اليه ، فقد برز في النسب دغفل بن حنظلة
السدوسي البكري الخطيب العلامة ، لم يدرك الناس مثله لسانا وعلما
وحفظا ، لقي الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، فأطال معاوية محادثته ،
وجمعت مجالس دغفل عند معاوية في كتاب « التضايف والتناصر » وكأنها
قامت على السؤال والجواب ، وبلغ من اعجاب معاوية به أن ضمه الى يزيد
ابنه ، وقال له : علّمه العربية والأنساب والنجوم • نزل دغفل البصرة ،
وشارك في حرب الخوارج فقتل (سنة ٦٥ أو ٧٠ هـ) ، وقد ضرب به
المثل فقيل : أنسب من دغفل • ولاذ به الفرزدق فادعى أنه فضل قومه
على جرير :

(١) النقااض : ١٦٦ ، ٣٢٠ ، ٤٢٨ ، ٦٠٧ ، ٦٢٤ ، طبقات ابن
سلام : ١٣٦ ، ٢٦٢ ، ٣١٧ ، ٣٤٧ ، ٣٧٤ ، البيان والتبيين ١ : ٣٤٥ ،
الأغاني : ٨ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٧٧ ، ١٠ : ١٥٢ ، ٢٢ : ٢٧٤ - ٢٧٥ ، معجم
البلدان ٨ : ١٢

أوصى عشية حين فارق رهطه عند الشهادة في الصحيفة دغفل^(١)

وجاراه في معرفة الأخبار والأنساب الحنيف بن يزيد بن جعونة العنبري ، وقد تعارضا عند عبد الله بن عامر بالبصرة ، وأخذ كل منهما يعدّد مخازي قوم الآخر ، حتى سألهما ابن عامر بالله أن يكفأ^(٢) . وجاء في أعقابهما القاسم بن ربيعة الحرشي الفقيه الكبير ، وكان مبرزا في علم النسب ، كان الحسن البصري وهو ما هو ، علما وعريية ، اذا سئل عن شيء من أمر النسب قال : عليكم بالقاسم بن ربيعة الحرشي^(٣) . وما كاد يشرف القرن الأول على شأيته حتى كانت البصرة تغص بأكابر العلماء والرواة الذين وقفوا أنفسهم على العلم وأخلصوا له ، ورووا ألوانا شتى من فنونه ، تنبىء بالجهد البالغ المبذول ، والهمة العالية التي كانت تهون عليهم الصعاب ، وتدفع بهم الى تذليل العقاب . فكانت روايات القرن الأول الدعامة التي نهض عليها علم العلماء في القرن الثاني . وكان أول الرواة الكبار الذين جمعوا فأوعوا : قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه (٦٠ - ١١٧ هـ) أحد الأربعة الذين بثوا العلم في الدنيا ، كان عالما كبيرا وراوية محيطا من أجمع الناس ، « ما سمعت اذناي شيئا قط الا وعاه قلبي » ، وكان يختم القرآن في كل سبع ليال مرة ، وقال عنه أبو عبيدة : « ما كنا نفتقد في كل يوم راكبا من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة ، فيسأله عن خبر ، أو نسب ،

(١) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١٠٢ ، الأغاني ٦ : ١٤٧ ، الفهرست : ١٣١ ، النقائض : ١٨٩ ، التحفة البهية : ٣٨ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٤٢ ، الاصابة ٢ : ١٦٣ ، الأزمنة والأمكنة ١ : ٩٦ ، البيان والتبيين ١ : ٤٧ ، ٨٥ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، وفيات الاعيان ٣ : ٢٤٩ ، تهذيب التهذيب ٣ : ٢١٠ ، مجمع الامثال ٢ : ٣٠٨ (ط ، ١٣٥٢ هـ) .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣١٨ ، الاصابة ٢ : ٦٧

(٣) طبقات ابن سعد ١/٧ : ١١٠ - ١١١

أو شعر»^(١) . وكان أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي (٧٠ - ١٥٤ هـ) غاية الغايات في علم العربية والأدب والقرآن والشعر وأيام العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان ، شافه العرب وطاف بلادها ، وبلغ في تطوافه اليمن ، فنقل من لغاتها نقل الثقة الثبت ، وله الكلمة المشهورة : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عريبتهم بعريتنا » . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية . قال الأصمعي : « جلست الى أبي عمرو ابن العلاء عشر حجج ، فلم أسمع له يحتج ببيت اسلامي قط » . وكانت كتبه قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ، وله في النحو آراء كثيرة . وكان متعصبا للتقديم ، فإذا ذكر شعر الفرزدق وجريير قال : « لقد حسن هذا المحدث حتى لقد هممت أن أمر صبياننا بروايته » وقد بكر نبوغه ، فكان رأسا في حياة الحسن البصري ، ثم كان طول حياته مكبا على العلم لا يتوانى عن البحث والدرس ، سأله ابن منذر : « حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم » ، فأجابه : « ما دامت الحياة تحسن به » وفي حلقة نشأ الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري ، والرواية عنه في القراءة والنحو واللغة كثيرة . والفرزدق الشاعر ، وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم ، لم يتمالك أن يقول في أبي عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أفتحُ أبوابا وأغلقُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارٍ^(٢)

٣ - وظلت البصرة أوفى الأمصار لأدب الجاهلية ، وأخلص ورثته ، قامت على مشارف بلاد العرب ، تتطلع إليها ، تستوحىها الشعر واللغة والأخبار . وكان المربد ، بحلقه ومجالسه وشعرائه ، ابن عكاظ الجاهلية ، شهد من نقائص الشعراء ومفاخراتهم ومنافراتهم ما أحيا الأنماط القديمة .

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٤٢ ، طبقات ابن سعد ٢/٧ : ١ - ٢ ، صفة الصفوة ٣ : ١٨٢ - ١٨٣ ، وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٨
(٢) طبقات ابن سلام : ١١ ، البيان والتبيين ١ : ٣٢٠ - ٣٢١ ، العقد الفريد ٢ : ٢٠٩ ، أخبار النحويين : ٢٨ ، وفيات الأعيان ٣ : ١٣٦

وظلت بادية البصرة ترفد المصر بفحول الشعراء والرجاز يقيمون فيه ، أو يحلونه حيناً بعد حين . فقد أقام الفرزدق في البصرة ، دون أن ينسى أصلاته البدوية ، وجاءها جرير من اليمامة فحلها مدداً متظاولاً ، فكانا شاعريها الأثيرين المفضلين : نافحا عن قبائلها ، وليباً ذوقها الفني الذي يؤثر فخامة التعبير ، وجزالة الأسلوب ، وقوة اللفظة ، ويستثير إعجابه خيال البادية ، وصور الصحراء . فرفعتهما إلى الذروة ، وجعلتهما مثلها الأعلى تتطلع إليهما عيون البصريين .

وإثال على البصرة شعراء البادية الوافدون منذ عصر مبكر ، يُقَلِّدُ بعضهم المكث ، ويظيله آخرون حتى ليعدون مقيمين لا يبرحون ، جاءها عمرو بن أحمر الباهلي : الفصيح المغرب :

أخبر من لا قيت أني مبصرٌ وكائن ترى قبلي من الناس بصراً

والعديل بن الفرخ العجلي ، ومرة بن محكان السعدي ، وأبو حزابة التميمي ، وأقبل الراعي النميري ، وذو الرمة^(١) ، وأمثالهم ، ليجدوا فيها جميعاً اللقاء الكريم ، والاقامة الطيبة ، والاحتفاء الهاش الباسم . وكانت بادية تميم تضج بشعرائها الكثر ، فغمرت بهم البصرة ، يتغنون في جناباتها ، أو تبلغها قصائدهم من أمثال عنتيبة بن مرداس ، والبعيث ، والأشهب ، ومالك بن الربيع ، والشمر دل اليربوعي ، واللعين المنقري ، دع عنك الشعراء الذين يردون المربد يمتارون ويقضون حاجتهم وينشدون من أشعارهم ، ليعودوا بعد إلى باديتهم كمعن بن أوس المزني ، والنمر بن توبل العكلي ، وجبيهاء الأشجعي^(٢) . وكان هؤلاء جميعاً أقرب في أذواقهم إلى

(١) طبقات ابن سلام : ٤٣٤ ، ٤٦٥ ، ٤٩٢ ، الأغاني ٢٢ : ٢٧٣ - ٢٨٣ ، ٣٤٨ - ٣٥٢ ، ٣٧٨ - ٣٨٨ : ٢٣ ، ٣٦٤ ، البيان والتبيين ١ : ٣٩١ ،
(٢) طبقات ابن سلام : ١٣٤ - ١٣٧ ، ٤٥١ ، الأغاني ٩ : ٢٦٩ ، ١٢ : ٥٨ ، ١٣ : ٣٥١ ، ١٨ : ٣٩ ، ٢٢ : ٢٣٢ - ٢٤٣ ، ٢٨٧ - ٣٠٢ ، ٣٠٤ - ٣٢٣ ، معاهد التنصيص ٤ : ٢٠ ، معجم الأدباء ٤ : ١٧٣

البادية ، يعبرون في أشعارهم عن معانيها ، بل إن الرجز ، أشد أنواع الشعراء بدوابة خيال ، وغرابة لفظ ، وجفاء أسلوب ، قد نما وترعرع وبلغ ذروته في بادية البصرة . وجاء الرجاز يحملون أراجيزهم الى البصرة مفاخرين ، كالعجاج ورؤبة وأبي نخيلة . إنهم شواهد تنبىء بما تلقاه النفحة القديمة من ايثار وحب ، وما تملأ به النفوس من رضا وغبطة ، حتى إن راجزا كأبي النجم العجلي نشأ في سواد الكوفة ، كان يجد نشوة في القдом الى المربد يراجز شعراءه^(١) .

وبديه أن الفنون الشعرية الجديدة التي بدأت تطل برؤوسها في الأمصار الاخرى ، لم تستطع أن تصل الى البصرة الا من دروب ضيقة . كان الحجاز يترنم بالغزل الجديد . وبدأت الكوفة تنشج بأشعار الشيعة التي بلغت مداها في هاشميات الكميت ، وكانت تمجن وتنحلل بمثل خمريات الأقيشر الأسدي ، وأشعار حمزة بن بيض الحنفي^(٢) . إن روح المدينة في الكوفة كانت أقوى على الشعراء ، فاستجابوا لها ، يمثل لك ذلك بيتاً في أشعار الحكم بن عبدل ، وعبد الله بن الزبير الأسديين اللذين طرقا موضوعات الشعر بروح المدينة ، وكان أعشى همدان شاعر السراة الأشراف من عرب الكوفة ، حين وقف يتعالى بيلده ، ويعارض الحجاج في حكمه . أما البصرة فكان يتردد فيها صدى لهذه الألوان الجديدة ضعيف ، عرفت البصرة أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) شاعرا شيعيا ، ولكن نغماته ضاعت بين هدير الفحول من شعراء البادية . وعرفت عمران بن حطان (ت ٨٤ هـ) وقطري بن الفجاءة (ت ٧٨ هـ) ، شاعرين خارجيين ، حاولا أن يشيدا بالمثل الجديدة ، وخرجا عن البصرة في سبيل العقيدة . وكان لشعر عمران

(١) الشعر والشعراء : ٣٧٤ - ٣٧٦ ، ٣٧٦ - ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨١ - ٣٨٦ ، طبقات ابن سلام : ٥٧١

(٢) الأغاني ١١ : ٢٥١ - ٢٧٦ ، ١٦ : ٢٠٢ - ٢٢٥

من الجودة والصدق ، ما جعل الفرزدق يقول : « لقد أحسن بنا أن عمران ابن حطان لم يأخذ فيما أخذنا فيه ، ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا » يعني لجودة شعره^(١) ولكن أشعار عمران وصاحبه قطري لم تستطع أن تكون نموذجاً ومثلاً إلا لمن التف حولهما من شعراء الخوارج ، كعبدة ابن هلال الإشكري ، ومصقلة بن عتبان الشيباني وكان من عليّة الخوارج^(٢) . أما أهل البصرة فظلوا يتعلقون بالمربد والبادية .

نعم ، نبت بين جنبات البصرة شعراء من أمثال حارثة بن بدر الغداني لم يتح لشعرهم أن يبلغ من الكمال الفني ما يتيح له الخلود والشهرة . قام حارثة بن بدر يتحدث عن الخمر في شعره ، ليعارضه أنس بن زنيم الليثي ، ولم يكن حارثة مهياً ليبدع في هذا الطريق ، فظلت أشعاره رمزا لاتجاه لم يجد الشاعر الحق ليمضي فيه^(٣) . ولعل أبرز شعراء البصرة هؤلاء يزيد بن مفرغ الحميري الذي صب على آل زياد سياط هجائه ، فقد اختار لأشعاره ألفاظاً قريبة ، وحاكها حوكاً مقاربا لتتشر وتذاع ، بل بلغ به الحال أن نظم في هجاء سمية كلمات فارسية ، حين طيف به في أسواق البصرة ، ليردها الصبيان الذين تبعوه ، يصيحون به . ولكن ابن مفرغ بشعره الهجائي ظل فردا ، في البصرة ، نسيج وحده^(٤) . وقام في البصرة يزيد بن الحكم الثقفي ، ويتراءى في شعره الباقي احساسه بالكرامة والشرف ، والترفع عن الدنيا والصغائر ، فكانت قصائده في العتاب مثلاً من الخلق الكريم ، ولين الجانب ، وطيب العشرة^(٥) .

ولكن الخطابة في البصرة كانت أقدر من الشعر على التطور ،

(١) الأغاني ١٨ : ٥٧ ، أمالي الزبيدي : ١٠١ ، أخبار القضاة ٣ : ٥١

(٢) البيان والتبيين ١ : ٤٧ ، ٣٤٧ ، مروج الذهب ٣ : ٢٠٣

(٣) الأغاني ٢٣ : ٤٤٤ - ٥٠٠

(٤) الأغاني ١٨ : ١٨١ - ٢٢٠ ، طبقات ابن سلام : ٥٥٤

(٥) الأغاني ١٢ : ٢٨٦ - ٢٩٦

والاستجابة للعصر ، لا تعوقها تقاليد الشعر وطرائقه • وقد ازدهرت الخطابة في البصرة ، ولقيت من الدوافع والملابسات ما نمّأها ، ومضى بها أشواطاً ، ومما رقي بالخطابة ما عرفت به تسميم ، وهي أكبر أخماس المصر ، من الفصاحة والتبريز في البيان ، جرت منه على أعراق قديمة حتى قال معاوية : لقد أوتيت تسميم الحكمة مع رقة حواشي الكلم^(١) • وكان لا بد للخطابة أن تتشعب وتتوسع لتكون أقدر على تصوير حياة الناس ، وأصدق تعبيراً عن حاجات الجماعة ومنازعتها • وقد اتخذت جميعاً ألواناً وسمات إسلامية جعلتها حلية وزينة لتتأى عن النقد ، وتعلو أن تكون بترأ أو شوهاة •

برز في البصرة خطباء المحافل والجيوش ، كصحار العبدى ، وكان بليغاً مفوهاً ، أحد النسابين والخطباء ، وكان من شيعة عثمان ، وممن طلب بدمه ، وأدرك أيام معاوية بن أبي سفيان ، وله مع دغفل أخبار^(٢) • وكالأحنف بن قيس السعدي (ت ٦٩ هـ) الذي شهد صفين مع عليّ ، وكان متمكناً من البيان ، راع عمر بمنطقه ، وتجلت في كلماته صور مبتكرات^(٣) • ومن الخطباء : عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، الذي كان هشام يستمع إليه ويقول : إني لأنحّي كور العمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى^(٤) ، وعبد الله بن عبد الله بن الأهثم صاحب الخطبة الشهيرة عند عمر بن عبد العزيز^(٥) وأبو حاضر الأسدي وابنه^(٦) ، وقتيبة بن مسلم الباهلي (ت ٩٦ هـ)^(٧) ، والجارود بن أبي سبرة الهذلي وكان من

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٣ - ٥٤

(٢) طبقات ابن سعد ٥ : ٤٠٩ ، ١/٧ : ٦١ - ٦٢ ، الإصابة ٣ : ٢٥٣ ،

الفهرست : ٩٠ ، البيان والتبيين ١ : ٩٦ ، ٩٧ ، ٤ : ٤٦

(٣) البيان والتبيين ١ : ٥٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ٢ : ٨٨ ،

١٣٥ ، ١٤٤ ، طبقات ابن سعد ١/٧ : ٦٦ ، تهذيب التهذيب ١ : ١٩١

(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٤٤ ، ٣٥٤

(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٥٥ ، ٢ : ١١٧ - ١٢٠

(٦) البيان والتبيين ١ : ٣٠٠ ، ٣١٤

(٧) البيان والتبيين ١ : ٣٨٧ ، ٢ : ١٠٨ ، ١٣٢ ، ٢٤٣

أبين الناس وأحسنهم حديثاً ، وكان راوية علامة^(١) ، وخالد بن صفوان الأهمشي المنقري^(٢) ، وما روي من أقوالهم يدل على أنهم كانوا أميل الى القديم ، يؤثرون الجزالة والفضامة ، ويستهوهم النمط الأول ، على مقدرة في تصريف القول . ولكنهم لم يتأبوا أن يختاروا من المعاني الدينية ما يتصل بمرامهم ، لينزجوا به كلامهم ومعانيهم ، على اختلافهم في ذلك ، يقل بعض ويكثر بعض ، وكأنهم بذلك يمكنون لكلامهم في القلوب ، ويكونون أوثق اتصالاً وأشد قربى ، فكانوا حفظة تراث البادية بفصاحتها ولسنها وبيانها وأخبارها وآثارها . قال رجل من بني منقر : تكلم خالد بن صفوان في صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرابي في بت ، ما في رجليه حذاء ، فأجابه بكلام وددت والله أنني كنت مت ، وأن ذلك لم يكن ، فلما رأى خالد ما نزل بي قال : « يا أخا منقر ، كيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم ، وكيف نسابقهم ، وإنما نجري على ما سبق الينا من أعراقهم . فليفرخ روعك فإنه من مقاعس »^(٣) .

وبرز في البصرة خطباء المساجد والوعاظ والنسك ، وكان الحسن البصري سيدهم ومقدمهم ، وقد آثروا المعاني القرآنية والأفكار الدينية^(٤) . وشهدت البصرة من ولاة الأمويين خطباء مصاقع ، قاموا على منبرها يحضون على الحرب ، ويتهددون العصاة ، ويبينون السياسة ، وينصحون بالطاعة . فكان فيها زياد بن أبي سفيان ، وابنه عبيد الله ، وكان فيها الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء : لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، وقد آثر الأسلوب القوي الفخم ،

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٢٩

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٤ ، ١٧٣ ، ٣١٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٧٣ ، والبت : كساء غليظ مهلهل مربع

أخضر ، وقيل : هو من وبر وصوف .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٥٣ - ٣٥٤

والخيال البدوي الذي يؤذن بالعنف والخشونة ، وقال فيه مالك بن دينار :
ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق ، وما صنع
بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه ، وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه
بالحجج^(١) . وقام على منبر البصرة بلال بن أبي بردة الأشعري ، وسيأتي
القول فيه .

وبرز خطباء الخوارج : كان عمران بن حطان الشيباني رئيس القعد
من الصفرية ، وكانت أول خطبة خطبها عند زياد فأعجب الناس ، هاجر في
سبيل عقيدته وكان من خطباء الخوارج وشعرائهم وعلماهم ورؤسائهم في
الفتيا^(٢) . وكان قطري بن الفجاءة المازني رئيس الأزارقة خطيبا فارسا ،
وخطبته في الزهد تنبئ عن الاستخفاف بالدنيا ، والتطلع الى الآخرة^(٣) .
وكان زيد بن جندب الإيادي وعبيدة بن هلال اليشكري من خطباء
الأزارقة المعدودين^(٤) . وخطباء الخوارج أرق ألقاظا ، وألين أسلوبا ،
تترقق في كلامهم فحات الدين ، وهداية القرآن .

أما الكتابة الفنية التي هي ثمرة العقل والجهد ، وريية الحاضرة
والمدينة ، فلم تبدأ تشق طريقها الا في عصر بني أمية . وكانت البصرة
أحد المواطن التي شهدت المحاولات الاولى في هذا الفن ، وشاركت فيه ،
ثم نمته وسايرت رقيه ورعته ، حتى بلغت به الغاية .

ثرت بذور الكتابة الفنية في البصرة ، زمن الحجاج ، الوالي الذي
ضبط المصاحف ، وعني بنقطها ، ووكل علي بن أصمغ يتولى محو

-
- (١) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ ، ٣٨٥ - ٣٨٧ ، ٣٩٣ - ٣٩٤ ، العقد
الفريد ٤ : ٥٥ ، ٨٣ ، ١١٠ - ١١٣ ، ١١٥ - ١٢٤
(٢) البيان والتبيين ١ : ٤٧ ، ١١٨ ، ٣٤٦ ، ٢ : ٦ ، ٣ : ٢٦٥
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٤١ - ٣٤٢ ، ٢ : ١٢٦ ، ٣ : ٢٦٤ ، وفيات
الأعيان ٣ : ٢٥٥
(٤) البيان والتبيين ١ : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٥ ، الطبري ٤ : ٤٣٧-٤٣٨

المصاحف المخالفة لمصحف عثمان ، ثم قام بتعريب الدواوين (سنة ٧٨ هـ) على يد صالح بن عبد الرحمن ، ليتخلص من آثار الفارسية . وكان صالح ذا أثر كبير في تقدم الكتابة حتى قال فيه عبد الحميد الكاتب : لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب^(١) وكان من أثر عمل صالح أن عُدَّ عامة كتاب العراق تلامذته ، منهم المغيرة بن أبي قررة ، كتب ليزيد بن المهلب ، ومنهم قحذم بن أبي سليم وشيبة بن أيمن وكتبا ليوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن ياس ، كتب لخالد القسري^(٢) . ولكن كتاب الخراج هؤلاء الذين طوعوا العربية لهذا الفن الجديد من الكتابة ، فأكسبوها المرونة والقدرة لتعبر عن مطالب جديدة بأسلوب عربي فني ، قد ساعدوا بعملهم هذا على ترقية الكتابة الفنية التي كان يرقى بنفها حقا وينميها كتاب آخرون هم كتاب الرسائل . ولعل يحيى بن يعمر العَدَواني (ت ٨٩ هـ) أول من اختط طريق الكتابة الفنية في البصرة ، كان يكتب ليزيد بن المهلب ، وبقي لنا من كتابته رسالته الى الحجاج وهي رسالة تعتمد على اللفظ الغريب لتؤكد فصاحتها^(٣) ولا غرو أن تكون كذلك فقد كان يحيى بن يعمر أحد علماء العربية الذين تميزوا بحب الإغراب والميل الى التقعير . ولما ولي بلال بن أبي بردة الأشعريّ البصرة (١١٠ - ١٢٠ هـ) ، ولاء عليها خالد بن عبد الله القسري أيام هشام بن عبد الملك ، خُطت الكتابة الفنية في البصرة خطوة الى الأمام ، فقد كان بلال أدبيا بليغا ، وعارفا راوية ، وخطيبا

(١) الوزراء والكتاب : ٣٨ ، الفهرست : ٤٤ ، الأحكام السلطانية :

٢٠٣ ، مراتب النحويين : ٦٥

(٢) الوزراء والكتاب : ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٤ ، وقد بين أبو حيان التوحيدي

صلة الانشاء والبلاغة بصناعة الحساب والتحصيل (الامتاع والمؤانسة ١ : ٩٧ - ١٠١) .

(٣) الطبري ٥ : ١٨٧ ، طبقات ابن سلام : ١٣ ، أخبار النحويين : ٢٣ ،

البيان والتبيين ١ : ٣٧٧ - ٣٧٨ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٣٧ ، النجوم الزاهرة ١ : ٢١٧

كبيراً • خطب عند سليمان بن عبد الملك فوقف يشتم الحجاج ، فراع سليمان بحسن منطقه حتى قال سليمان : « هذا وأبيك الشتم ، لا تأتي به هذه السفلة » • وقد أشاد ذو الرمة ببلاغة بلال في منطقه وخطابته ، فقال فيه :

فصلت بحكمة فأصبت منها فصوص الحق فاتفصل انفصالا

وكان بلال ناقدا ذواقة ، يعرف جمال الكلام ، ويتذوق محاسنه ، ويحسد البلغاء أن يأتوا بما لا يستطيع أن يقول مثله^(١) • وقد حاول أن يحيط نفسه بهالة من الشعراء والكتاب والعلماء والخطباء البلغاء ، كان يفد عليه من الكوفة حماد الراوية يشده ويحدثه ، وكان يأتيه ذو الرمة منتجعاً قد دبح له أحسن قصائده ، وقطع اليه فلوات البادية ، وينتجعه رؤبة بن العجاج بأراجيزه ، ويجبر الفرزدق القصائد الطوال في مديحه • ولما قيل لذي الرمة : لم خصصت بلالاً بمدحك ؟ قال : « لأنه أوطأ مضجعي ، وأكرم مجلسي »^(٢) • وكانت تعقد حلقات العلم في مجالسه ، ويتناظر العلماء والرواة بحضرتة ، وروت كتب النحو واللغة والأدب خبر جمعه بين أبي عمرو ابن العلاء ، وابن أبي اسحاق الحضرمي ، وخبر جمعه بين عيسى بن عمر ، وأبي عمرو ، وما حكم به بينهما بكر بن حبيب السهمي • ولعل من وحي هذه المناظرات ما جرى بين رؤبة وذو الرمة في مجلسه وقد مر خبره (ص : ٨٠) — وفي مجلس بلال رد عنبسة بن معدان على الفرزدق تأنيثه الزحام^(٣) • وفي كنف بلال أخذ عبد الوهاب بن عليّ يدبج الرسائل ، وكان عبد الوهاب

(١) البيان والتبيين ١ : ١٤٨ ، ٣٩٧ ، ٢ : ١٦٤ ، تهذيب ابن عساكر ٣ : ٣١٨ ، تهذيب التهذيب ١ : ٥٠٠ — ٥٠١

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٩٤ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٢٠

(٣) إنباه الرواة ١ : ٢٤٥ ، نزهة الالباء : ٢٢ ، الموشح : ١٠٤ ، أمالي

المرضى ١ : ١٩

أحد البلغاء الفصحاء ، ولكن رسائله قليلة^(١) ، وكذلك برز بكر بن الفيض بن عبد الحميد التميمي ، والقاسم بن محمد^(٢) . ولا نستطيع أن نتبين مذهب هؤلاء الكتاب الثلاثة الذين التفوا حول بلال ، أو نتعرف طريقتهم في الترسل . ولكن عناية ابن النديم بهم وتحديثه عنهم ، يحملنا على الظن أن لهم طريقة في الكتابة والتعبير بلغت مستوى أدبيا لائقا ، يتيح لابن النديم أن يذكرهم الى جانب الكتاب الكبار والبلغاء . وتنبيه عن أن الذوق البصري قد بدأ يتعد عن الطريقة الاولى التي سلكها يحيى بن يعمر ، ليجد طريقة جديدة تلائمها وتلبي مطالبه .

ويبدو مشيرا أن نشير الى أن هذا العصر شهد بذورا صغيرة لنفن التأليف في البصرة . فقد ذكروا أن صحارا العبدي ألف كتابا في الأمثال^(٣) ، وان زياد بن أبي سفيان ألف كتابا في المثالب^(٤) . ولعله أن يكون ذلك صحفا جمعت ، وقد نسقت فيها روايات شفهية ، دون ترتيب وتأليف ، كما عرفتهما العصور التالية . وكتابة الصحف والرواية منها والاعتماد عليها في تثبيت الرواية الشفهية كانت أمرا قد ألفه الناس ، ويبدو أنهم بدءوا بكتابة المصاحف ونسخها ، ثم عنوا بكتابة الحديث وروايته ، وتتابعت الكتابة وراجت ، وظهرت الوراق ، بل إن الشعراء اتخذوا رواة كتبه ، يسجلون شعرهم ، خشية الضياع والتبديل .

(١) الفهرست : ١١٨ ، ١٢٥

(٢) الفهرست : ١٢٦

(٣) الفهرست : ٩٠

(٤) الفهرست : ٨٩ ، رسائل البلغاء : ٣٤٦ ، خزنة الادب ٢ : ٥١٩

الفصل الثاني

حياة الفردق

(١)

قبيلته وأسرته :

ينتمي الفردق الشاعر الى قبيلة تميم ، احدى قبائل مضر الكبرى ، ولا نعرف من أولية أمرها ، ومواطنها الاولى ما يركن اليه . ويتحدث التميميون أن قبر أبيهم تميم بمران ، وهو على أربع مراحل من مكة الى البصرة . (وقيل : على ثمانية عشر ميلاً) دون بلاد بني تميم (١) . ولما غضب ابن الزبير على الفردق عيره أن قومه تميماً جالية العرب ، وأنها كانت وثبت على البيت قبل الاسلام بمائة وخسين سنة فاستلبوه ، فاجتمعت العرب عليها لما انتهكت منه ما لم ينتهكه أحد قط ، فأجلتها من أراضي تهامة (٢) . وهو قول لا يخالف في جملته ما نقله البكري في أمر تميم

(١) المعارف : ٧٤ ، أنساب الاشراف . ١ : ٥٤١ ، معجم البلدان (مران) ، شرح شواهد المغني ١ : ٢٤٣ . وقال رؤبة بن العجاج التميمي الراجز ، علامة العرب : م تميم بمران ، انما هو بذات عرق ، وقبر معد بمران (الموشح : ١١٩) . وذات عرق : مهل أهل العراق ، وهو فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز (معجم ما استعجم ١ : ٩ ، صفة جزيرة العرب : ٥٠ ، معجم البلدان - العرق) .

(٢) الاغانى : ٢١ : ٣١٨ - ٣١٩

وظعنهما من بلاد تهامة ، إذ يرده الى حرب وقعت بين أبناء مضر ، فظعننت طابخة من تهامة « وظهرت تميم بن مر بن أد بن طابخة ، وضبة بن أد بن طابخة ، وعكل بن عبد مناة بن أد ، الى بلاد نجد وصحاريها ، فحلوا منازل بكر وتغلب التي كانوا ينزلونها في الحرب التي كانت بينهم ، ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر ، ونزلوا ما بين اليمامة وهجر ، ونفذت بنو سعد ابن زيد مناة بن تميم الى يبرين ، وتلك الرمال ، حتى خالطوا بني عامر ابن عبد القيس ، في بلادهم قطر ، ووقعت طائفة منهم الى عمان ، وصارت قبائل منهم بين أطراف البحرين الى ما يلي البصرة ، ونزلوا هنالك الى منازل ومناهل كانت لإياد بن نزار ، فرفضتها إياد ، وساروا عنها الى العراق » (١) . وهذه هي مواطن تميم التي نزلتها واستقرت فيها أواخر العصر الجاهلي ، حتى ظهر الاسلام ، فهي تحتل هذه البقاع الواسعة التي تمتد شرقا حتى تخالط عبد القيس في البحرين ، وتمتد بها رمال يبرين حتى تبلغ الأزدي في الجنوب ، وتخالط في الشمال الشرقي القبيلة الربعية الكبرى بكر بن وائل التي كانت تستد ديارها من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة الى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة فهيت ، وتمتد بلاد تميم غربا في اليمامة فتخالط حنيفة التي استأثرت بحاضرة اليمامة ، وكان لتميم باديتها ، وتلتقي بأسد وغطفان وبني عامر في نجد ، وقد وقع وادي التسريير موقعا صار الحد بين قيس و تميم ، لأن أوله لغني ، ثم شرقيه لتميم . وتعاقب في الشمال قبائل كلب من قضاة معانقة دفعتها الى مخالفتها ، وكان حلفا اغتبطت له تميم ، وأشاد به شعراؤها أطيب الاشادة (٢) .

(١) معجم ما استعجم ١ : ٨٢ ، ٨٧ - ٨٨

(٢) صفة جزيرة العرب : ١٦٩ ، معجم ما استعجم ١ : ٩٠ ، ٣١٢ ،

٢ : ٤٠٠ ، ٣ : ٨٧٣ ، معجم البلدان ٢ : ٣٨٩ - ٣٩٠ ، الاغاني ٢١ : ٣٦٠ ،

٤١٠ ، النقائص : ٢٥ ، طبقات ابن سلام : ٢٩٧ ، الطبري ٢ : ٥٧٨ ،

ديوان الفرزدق : ١٣

وكانت تميم قبيلة قوية ضخمة ، تعزز بكثرة عددها ، « لنا عدد يربي على عدد الحصا » ، حتى عدها ابن حزم قاعدة من أكبر قواعد العرب ، فحمت بقوتها وبأسها بلادها الفسيحة ، وازدادت عن أرضها الخصبة ومراعيها المعشبة ، القبائل الطامعة في الماء والمرعى . فقد عرف كثير من ديار تميم بالخصب ، كان فيها النخيل والقرى والزروع والآبار ، ومن أجلّ أراضيها : الحزن ، والصمان والدهنا ، فالحزن أطيب البادية مرعى ، يفلقه وادي فلج ، وفيه الماء ، ومن عن يمينه ، ومن عن شماله . والصمان أرض فيها غلظ وارتفاع ، وفيها قيعان واسعة ، وخبارى تنبت السدر ، عذبة ، ورياض معشبة ، وإذا أخصبت ربت العرب جميعا ، وبالصمان المصانع ، وهي معمولة من الأرض ، غدر مرصوفة بالصفاء من جوانبها . ويتاخم الصمان رمال الدهنا وهي سبعة أحبل من الرمل بين اليمامة والبصرة ، مقبلة من عمان ، وذاهبة الى المغرب ، وهي من أكثر بلاد الله كلاً ، مع قلة أعداء ومياه . وإذا أخصبت الدهنا ربت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها ، من سكنها لا يعرف الحمى ، لطيب تربتها وهوائها . وكانت العرب تقول : من تربح الحزن ، وتشتى الصمان ، وتقيظ الشرف فقد أخصب ، (الشرف : في بلاد بني عامر) . ولذلك عدت تميم من أرحاء العرب ، وهي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ، ولم تبرح من أوطانها ، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها ، الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجذب ، وذلك قليل منهم^(١) . وقد ذكرت الأشعار

(١) جمهرة ابن حزم : ١٩٦ ، ديوان الفرزدق : ٢٧٤ ، معجم البلدان ٣ : ٢٧٠ ، ٤ : ١١٥ ، ٥ : ٣٨٣ ، صفة جزيرة العرب : ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٧٣ العقد الفريد ٣ : ٣٣٥ ، مجمع الامثال ١ : ٥٦ ، معجم ما استعجم ٢ : ٤٤١ - ٤٤٢ ، ٥٥٩ ، ٣ : ٨٤١ - ٨٤٢ ، ٩١٣ - ٩١٤ ، ١١٠٩ : ٤

وكتب البلدان والرحلات كثيرا من مواضع تميم ، ولعله يبدو شائقا أن يتتبع باحث أشعار العرب ، وشعراء تميم خاصة ، وما ضمت عليه كتب البلدان ، ليحدد مواضع بطون تميم ، ومواقع مياهها ، وجبالها، ومرابعها ، في هذه الفترة من التاريخ^(١) ويكفي هنا أن نشير الى أن بطون تميم قد توزعت هذه البقاع الفسيحة فكان الحزن لبني يربوع ، وكان الصنان لبني حنظلة ، وييرين لبني سعد ، والدهنا لجماعتهم • وكان مجاشع بن دارم أقرب جيران بكر بن وائل تخالطها في أطراف البحرين مما يلي البصرة^(٢) .

وكانت تميم من الجماجم ، وهي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب اليها ، فصارت كأنها جسد قائم، وكل عضو منها مكتف باسمه ، معروف بموضعه^(٣) ، فاشتهرت فيها بطون كثيرة ، فأخرت بوقائعها ، وأشادت بفرسانها ، وباهت بعزها وشرفها ، وكان البطن من بطونها لكثرتة وشهرته وعزته وأيامه ، قبيلة مستقلة • وقامت بين بطون تميم الأحلاف ، وأشهرها الحلف الذي قام بين سعد والرباب على بني حنظلة وعمرو بن تميم^(٤) .

وعرفت لتمييم وقائع مشهورة وأيام ماثورة ، نشبت بينها وبين جيرانها الآخرين في الجاهلية ، كان شطر منها ، بينها وبين قبائل قيس المضرية ، وكان شطرها الآخر بينها وبين قبائل ربيعة ، وبكر بن وائل خاصة • هذا الى أيام قليلة أخرى تحصيها كتب التاريخ كالوقائع التي

(١) صفة جزيرة العرب : ١٨٠ - ١٨١

(٢) معجم البلدان ٣ : ٢٧٠ ، ٥ : ٢٨٣ ، النقائض : ٣٢ ، ٦١٤

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٣٦

(٤) النقائض : ١٥٦ ، ٢٥٨ ، ديوان الفرزدق : ٢٣٨ ، هامش ٣ ،

شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ١ : ١٥٩

نشبت بينهم وبين ملوك الحيرة ، أو بينهم وبين كسرى^(١) أو بينهم
وبين اليمن •

وأشهر حروب قيس وتميم : يوم السويان لبني عامر على تميم وضبة ،
ويوم اقرن لبني عبس على بني دارم ، وكان جرير ينعاها على الفرزدق ،
ويوم رحرحان لعامر على دارم من تميم ، وفيه أسر معبد بن زرارة ، ويوم
شعب جبلة لعامر وعبس على ذبيان وتميم ، وفيه قتل لقيط بن زرارة ،
وأُسر أخوه حاجب ، وأطال جرير في تعبير الفرزدق هذين اليومين • ويوم
المروت لتميم على عامر ، ويوم ذي نجب ليربوع على عامر^(٢)

وأشهر حروب ربيعة وتميم : يوم الوقيط للهازم على بني مالك بن
حنظلة من تميم ، ونعاها جرير على الفرزدق ، وأيام الزويرين ، والشيطان ،
وصغفوق ، ومبايض ، وفيحان ، لبكر على تميم ، ويوما إراب والشعب
لتغلب على بني يربوع من تميم ، ويوم النجاج وثيتل لمقاعس والأجارب من
تسيم على بكر ، ويوم جدود لبني سعد من تميم على بكر ، ولم تخف
يربوع لنجدة سعد ، بل رضوا من بكر بشيء من الغنائم فكفوا عنهم ،
فكان الفرزدق ينال من جرير ويغمز من قناته لموقف يربوع ، ويوم سفوان
لبني مازن من تميم على بني شيبان ، ويوم السلى لبني مازن على بني
يشكر من بكر ، ويوم غول الأول لتسيم على بكر ، وأيام ذي طلوح ،
وملهم ، والقحح ، ورأس عين ، والعظالي ، والغبيط ، ومخطط ، ليربوع
على بكر بن وائل ، ويوم زرود ليربوع على بني تغلب^(٣) • كانت أشد

(١) العقد الفريد ٥ : ٢٣٤ ، الكامل لابن الاثير ١ : ٣٩٦

(٢) النقااض : ٢٢٦ ، ٣٠٢ ، ٤٨٢ ، ٥٨٧ ، ٦٥٤ ، ٦٧٩ ، العقد

الفريد ٥ : ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٧٧ - ١٧٩ ، الكامل ١ : ٣٦٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ،
شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٩

(٣) النقااض : ١٤٤ ، ١٨٤ ، ٣٠٥ ، ٤٧٣ ، ٧٠٣ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢٣ ،

العقد الفريد ٥ : ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ - ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، الكامل لابن

الاثير ١ : ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩

الوقائع والغارات نكرا بين بكر بن وائل وتميم ، ولعلنا ندرك ما كانت عليه من شدة وكثرة من كلمة قيس بن عاصم المنقري الذي أسلم ، ونزل البصرة ، فكان فيما وصى به حين وفاته : « ولا تدفنوني حيث تشعر بي بكر بن وائل ، فإني كنت أغاولهم في الجاهلية » (١) .

وكانت صلة تميم بحنيفة في اليمامة صلة مودة وصفاء ، لم تنشب بينهما الغارات ، ذلك بأن حنيفة كانت منقطعة عن قومها بكر بن وائل باليمامة ، في وسط دار مضر ، قد حكت « ببلدة ، سيوى بين قيس ، قيس عيلان والفيزر » ، كانوا أصحاب نخل وزرع ، لا ينصرون بكرا ، ولا يستنصرونهم ، وهذا ما حمل مسيلمة الكذاب في رده أن يقول مؤكدا هذه الصلة : « إن بني تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيننا باحسان ، نمنعهم من كل انسان » (٢) .

غدت تميم ببطونها ، وكثرة عديدها ، وتوالي حروبها وغاراتها ، من أقوى القبائل البادية ، وأشدّها علوا ومفاخرة ، وقد أتاح لها مجدها وشرفها وقوتها أن تحوز مكارم وأن تعتدّ بمفاخر ومآثر ، لم يشركها غيرها فيها ، وقد اعترفت العرب بمكاتها ، ولم تنازعها مآثرها ، فكان لبني سعد بن زيد مناة الأفاضة في الجاهلية ، فكان بنو عطارذ يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى قام الاسلام ، كان لا يبرح أحد من الناس أيام الحج حتى يجوز القائم بذلك منهم ، ولما اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر ادعى عامر بن احيمر السعدي أن بيته في سعد أشرف بيت في مضر ، فلم ينكر عليه أحد ، ولبس بردي محرق . ومن مفاخر سعد كثرة عددها ، وانتشار بطونها ، حتى ملأت السهل والجبل ، وعدلت مضر كثرة ، حتى قيل فيهم : سعد الأكثرون .

(١) طبقات ابن سعد ١/٧ : ٢٤ ، اللسان والتاج : (غور ، غول) .

(٢) الطبري ٢ : ٥٠٧ ، الاغانى ١١ : ٣١٧ ، ديوان الفرزدق : ٢٨٠ .

شرح الحماسة للمرزوقي ١ : ٣٢٦

ولو أن سعداً أقبلت° من بلادها لجات بيبيرين الليالي تزحف^(١)

وأما بنو يربوع فكانوا الفرسان الأشداء ، أصحاب الغارات والأيام ، وقد فسحت انتصاراتهم الكثيرة أن يقول جرير فيهم فيطيل القول ، وأن يفخر بوقائعهم ، ويتغنى بفرسانهم في نقائضه ومفاخره ، وكانوا أكثر العرب غارة على ملوك الحيرة حتى انتزعوا منهم شرف الردافة ، على أن يكفوا عن الغارة على أهل العراق ، فكان يجلس الملك ، ويجلس الردف من بني رياح ابن يربوع عن يمينه ، وإذا غزا الملك جلس الردف في مجلسه ، وخلف الملك على الناس حتى يرجع من غزاته^(٢) . وكان في دارم بن مالك بن حنظلة شرف تميم الذي يتناولون به ويباهون . كان بيت عبد الله بن دارم أحد بيوت أربعة انتهى إليها شرف الجاهلية ومجدها ، وباراه في الشرف بيت أخيه مجاشع بن دارم . فكثرت في هذين البيتين الأشراف والسادات ذوو المآثر والمكارم ، والأجواد الذين لا يتناولون جوداً ، كان منهم جرارو تميم ، ولم يكن الرجل يسمى جراراً حتى يقود ألفاً ، قاد زرارة بن عدس ابن زيد بن عبد الله بن دارم تميماً وغيرها ، وقاد لقيط بن زرارة تميماً كلها إلا بني سعد بن زيد مناة ، إلى بني عامر بن صعصعة يوم جيلة ، وقاد الأقرع بن حابس المجاشعي حنظلة كلها يوم الكلاب الأول ، وكان غالب ابن صعصعة المجاشعي من جراري تميم^(٣) . وشهر صعصعة بن ناجية

(١) شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٥-٤٢٦ ، العقد الفريد ٢ : ١٩٤-١٩٥ ، ٣٣٢ : ٣٣٣ ، ديوان الفرزدق : ٥٦٩ ، ٧٤٤ ، شرح المقامات للشريشي ٢٥٣ : ٢

(٢) النقائض : ٢٩٨ - ٣٠١ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٧ ، المعارف (ط . أوروبا) : ٣٢٠

(٣) شرح نهج البلاغة : ١ : ٤٦ ، ٣ : ٤٢٦ ، العقد الفريد ٣ : ٣٣٢ ، العمدة ٢ : ١٨٣ ، المحبر : ٢٤٦ ، النقائض : ٢٦٤ ، الاغانى ١٩ : ١٢٨-١٢٩

المجاشعي بجوده ، وكان أول من أحيا الموءودة في الجاهلية^(١) . وفي بيت مجاشع كان القضاء والموسم ، ميراثا لهم ، وكان آخر من قضى منهم بعكاظ في الجاهلية حتى جاء الاسلام ، وهو كذلك يصدر عن رأيه وحكمه الأقرع بن حابس المجاشعي^(٢) . وفي أواخر عصر الجاهلية كان على عرب البحرين المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم^(٣) ، ومن أجل هذه المساعي والمآثر قيل في قبيلتهم : حنظلة الأكرمون . وفاخر خالد بن سلمة المخزومي الخطيب^١ المناسب^٢ جخدباً^٣ التيمي الخطيب الراوية فقال له : والله ما أنت من حنظلة الأكرمين ، ولا سعد الأكرمين ، ولا عمرو الأشد^٤ين . وكانوا حين يوازنون بين قبائل مضر يجعلون تميماً هامة مضر وكاهلها الذي يوثق به ويحمل عليه^(٥) . وقد أتاحت هذه المناخر أن يقف الفرزدق وريث^١ مجد تميم بين يدي سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ليقول له : « أنا من قوم منهم أوفى العرب ، وأسود العرب ، وأجود العرب ، وأحلم العرب ، وأفرس العرب ، وأشعر العرب »^(٦) .

وجاء الله بالاسلام ، ينشر ظلاله على أرض العرب ، فلما صلب عوده ، وضرب بجرائه ، وفتحت مكة ، وعز الاسلام وأهله ، بدأت وفود العرب تتدفق على المدينة ، وقدم وفد تميم سنة تسع ، وكان وفدا ضم رؤوسها وأشرفها ، فقد قدم على رسول الله عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس ، ومعه الأقرع بن حابس ، والزبيرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن

(١) الاصابة ٣ : ٢٤٥ ، أنساب الاشراف ١١ : ٣١

(٢) النقائص : ٢٦٥ ، ٤٣٨

(٣) فتوح البلدان : ٨٩ ، معجم البلدان : (البحرين) .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٣٦ ، العمدة ٢ : ١٨٢ - ١٨٤ ، التاج :

جخدب) ، الاشتقاق : ١٨٦

(٥) العقد الفريد ٣ : ٣٣٢ ، الاصابة ٣ : ٢٤٥ ، أنساب الاشراف

١١ : ٢٨

(٦) العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٧

الأهتّم ، والحتات بن يزيد المجاشعي ونعيم بن زيد ، في وفد عظيم من بني تميم ، معهم عيينة بن حصن الفزاري • وقد كان الأقرع بن حابس ، وعيينة ابن حصن شهدا مع الرسول فتح مكة وحيننا وحصار الطائف سنة ثمان ، فأعطى كلاّ منهما مائة من الإبل ، فيمن أعطى من المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافا من أشراف الناس ، يتألفهم ، ويتألف به قلوبهم • فلما وفد وفد بني تميم كانا معهم ، ودخل وفد بني تميم المسجد فنادوا رسول الله من وراء الحجرات جفاء وبدأوة ، يريدون مفاخرته ، فخطب خطيبهم عطارد ، وأجابه ثابت بن قيس الخزرجي الأنصاري ، وأشد شاعرهم الزبرقان فأجابه شاعر النبي حسان بن ثابت الأنصاري ، ثم أسلموا^(١) • ولعل في آية الحجرات (سورة الحجرات : آية ٢) التي نزلت في وفد بني تميم ما يدل على ما فيهم من جفاء البادية ، وعنجهية الاعرابية ، ويؤكد تلك الخصال فيهم ما رواه البخاري من أن الأقرع بن حابس قال للنبي مفاخرا بقومه ، ومتعاليا على من أسلم من القبائل : « انما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ، ومزينة ، وجهينة » فقال له النبي معلما ومؤدبا : « رأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان » • بل ان الأقرع نفسه كان يجالس النبي ، فلما قبّل رسول الله الحسن بن علي قال له : « إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا » •

عرف رسول الله أقدار أشراف تميم ، فقال في قيس بن عاصم المنقري : سيد أهل الوبر ، وسمع اعتذار عمرو بن الأهتم فقال : إن من البيان لسحرا ، ولما أزمعوا العودة جوّزهم فأحسن جوائزهم • وقدم سبي بني العنبر على النبي ، فركب فيهم وفد من بني تميم ، منهم الأقرع بن حابس ،

(١) الطبري ٢ : ٣٧٧ - ٣٨١ ، الكامل لابن الاثير ٢ : ١٩٥ - ١٩٧ ، سيرة ابن هشام ٤ : ٢٠٦ ، فتح الباري ٧ : ٦٣ ، الاستيعاب ١ : ٤٦ ، ١٥٠ ، البيان والتبيين ١ : ٣٢٨

فأعتق النبي بعضا ، وأفدى بعضا ، فكانت إحدى المفاخر التي أشاد بها الفرزدق في مناقضته جريرا^(١) .

ولما توفي رسول الله وارتدت العرب ، اختلف أمر تميم ، فكان مسلمهم بازاء من قدّم رجلاً وأخر أخرى وتربص ، وبازاء من ارتاب . وجاءت سجاح اليربوعية من الجزيرة ، تقود أفناء ربيعة من تغلب والنمر واياها ، وكانت راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم نصارى تغلب ، وكانوا أخوالها ، قد نزلت هي ورهطها فيهم ، فلما انتهت الى الحزن ، حزن بني يربوع ، أجابها مالك بن نويرة فيمن أطاعه من قومه بني يربوع ، ووكيح بن مالك فيمن تبعه من بني مالك بن حنظلة ، ولم يدخل في أمر سجاح من بني تميم أحد من بني عمرو ، ولا بني سعد ، ولا الرباب . ثم رجعت سجاح الى الجزيرة بعد أن صالحت مسيلمة ، وندم المرتدون من حنظلة وعادوا ، ولم يبق الا مالك بن نويرة اليربوعي ، ومن تأشب اليه ، فسار اليهم خالد بن الوليد ، ففض جمعهم وكانوا بالبطحاء دون حزن بني يربوع ، وقتل مالكا ، واطفئت نار الفتنة^(٢) .

وبدأت حركة الفتوح ، تبشر بالهدى ، وتشر العدل والانصاف ، فشاركت تميم فيها ، وانضمت جموعهم الى المقاتلة التي أقبلت الى العراق والمشرق ، وشهر منهم قواد كبار أمثال القعقاع بن عمرو ، وزهرة بن حوية السعدي ، والأحنف بن قيس ، مقتحم خراسان ، والذي وجه الأقرع بن

(١) الطبري ٢ : ٤٠٧ - ٤٠٨ ، صحيح البخاري ٤ : ٢٢١ ، ٨ : ٩ ، سيرة ابن هشام ٤ : ٢٦٩ - ٢٧٠ ، النقائص : ٧٤٧ ، البيان والتبيين ١ : ٥٣ ، ٢ : ٣٣ ، فتح الباري ٩ : ١٤٦ ، ١٠ : ٢١٢ ، صحيح مسلم ١٦ : ٧٦

(٢) الطبري ٢ : ٤٩٥ - ٥٠٤ ، ٥٢٢ ، فتوح البلدان : ١٠٧ - ١٠٨ ، الكامل لابن الاثير ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٣ ، معجم البلدان : (البطاح) .

حابس التميمي في خيل بلغت الجوزجان ، وفتحتها عنوة^(١) * وكثر زحف تميم الى المشرق فكانوا كثرة الناس في البصرة ، وفي خراسان ، حتى دُعي كل مضري بخراسان تميميا ، وحتى عد الفرزدق مرو خراسان من منازل تميم^(٢) * فشاركوا في شرف الفتح ، وسد الثغور ، وصد هجمات الأعداء ، طوال العهد الاموي *



وكان الفرزدق من مجاشع بن دارم ، ودارم بطن حل من تميم في ذؤابتها ، واقعد سنام مجدها ، واليه انتهى شرفها ، فبنو عبد الله بن دارم بيت الشرف ، وبنو مجاشع بن دارم لا يقلون عن إخوتهم مجدا وشرفا * وكان بيت الفرزدق في مجاشع وريثَ المجد ، يتردد فيهم ، فيتوارثونه كابرا عن كابر ، فكل آباءه ماجد كريم سيد ، رويت أخباره ، وحفظت مآثره ، فهي تذكر جيلا بعد جيل ، لتكون قدوة الخلف ، يمشون على آثار سلفهم ، « ومن شرف الفرزدق أن ليس بينه وبين معدّ بن عدنان أب مجهول » :

كم في من ملك أغرّ ، وسؤفةٍ حكم ، بأردية المكارم محبتي
وإذا عدت وجدتني لنجيبه غراء قد أدت لفحل منجب^(٣)

ولن نفيض في تعداد مآثر بيت الفرزدق ، وما عرف به رجاله ، من الحنكة،

(١) فتوح البلدان : ٣٩٨

(٢) عيون الاخبار ٢ : ٢٩ ، ديوان الفرزدق : ٢٢٠ ، ٨٦٩ ، النقاظ : ٣٦٨ ، الطبري ٥ : ٢٧٧

(٣) معجم الشعراء : ٤٦٥ ، الكامل للمبرد : ١٢٩ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٤٦ ، ٣ : ٤٢٦ ، العمدة ٢ : ١٨٣ ، أمالي المرتضى ١ : ٦٢ ، ديوان الفرزدق : ٣٨

واصابة الرأي ، وجودة الحكم ، حتى أقرت العرب للأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي أن يكون حكمها ، ترضى بقضائه ، وتستجيب لحكمه • وكفى بنا أن نذكر جده صعصعة بن ناجية بن عقال الذي كان له من راحة عقله ، وسجاجة خلقه ، ما دفعه أن ينكر وأد البنات الذي عرفته بطون من تميم في الجاهلية ، وأخذ على نفسه ، وقد رأى الناس يمجون على غير دين ، أن يفندي كل موءودة سمع بها ، وجاء الاسلام وقد أحيا مائة موءودة إلا أربعا (١) • وكان من أبناء صعصعة : غالب ، وعقال ، وهمام ، وناجية ، وذهيل ، والزحاف ، وكانا في ديوان البصرة على ألفين ألفين ، وهو عطاء أهل الشرف ، وهنيدة التي لقبت ذات الخمار ، لما دخلها من الخيلاء اعتدادا بشرفها ، وزهوا بحسبها • كانت تقول : من جاءت من نساء العرب بأربعة ، كأربعة يحل لي أن أضع خماري معهم ، فلها صرمتي : أبي صعصعة ، وأخي غالب ، وخالي الأقرع ، وزوجي الزبرقان بن بدر (٢) • وقد صعصعة على النبي (ص) فأسلم ، وقص عليه قصة افتدائه الموءودة • وساءله النبي فوصف له قبائل مضر ، وروى عن النبي ، وحسن اسلامه • ولم يكن أحد من أشرف العرب بالبادية أحسن دينا منه ، فكان من أشرف مجاشع في الجاهلية والاسلام • ولما مصرت البصرة كان أحد من قدمها وسكنها هو وولده (٣) • وعرف صعصعة بروايته أخبار الناس ، واطلاعه على أحاديث العرب وأيامها • وله أبيات من الشعر قالها في الحكمة (٤) •

(١) النقاظ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٤٣٨ ، ٦٩٧ - ٦٩٨ ، المحبر : ١٤١ ، الاغانى ٢١ : ٣٠٠ - ٣٠٢ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٦ ، أنساب الاشراف ١١ : ٢٦ - ٢٨ ، ٣١ - ٣٢

(٢) النقاظ : ١٨١ ، ٢٦٤ ، ٨٥٥ ، ٩٠٧ ، ٩٤١ ، أنساب الاشراف ١١ : ٣٤ ، الطبري ٤ : ١٨٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٩٦

(٣) طبقات ابن سعد ١/٧ : ٢٥ ، الاستيعاب ١ : ٣٢١ ، تاريخ الاسلام ٤ : ١٧٩ ، الاصابة ٣ : ٢٤٥ ، أمالي المرتضى ٢ : ٢٨٤ ، (٤) حماسة البحتري : ١٧٦ ، الاغانى ٢١ : ٣٠٦

أما غالب أبو الفرزدق فأمه ليلى بنت حابس بن عقال ، أخت الأقرع بن حابس حكم العرب ، والتي أمدت الفرزدق بمنهل من مناهل الفخر ، ثرٌّ ، أكثر من ورده • وكان غالب سيّدا من سادات مجاشع ، طويل عماد البيت ، جوادا ، متخرق اليدين في العطاء ، وهب فأجزل ، وسخا فأقرط ، وجاوز الحدّ •

لم يؤثر غالب الإقامة في البصرة كما فعل أخواه الزحاف وذهيل ، بل كان يستطيب البادية ، ويستريح الى سكنها ، وكان مسكنه حول كاظمة ، موطن بيته في الجاهلية • وكاظمة أقرب الى القرية منها الى البادية ، ولذلك غير جريز الفرزدق ، حين نشب بينهما الهجاء ، ملازمته القرى وبعده عن ساحات الوغى : « وأنت قُراحيٌ بسيف الكواظم » • كان غالب شديد التعلق بفضائل البادية ومكارمها ، وقد تجلّى افراطه في التعلق بمثل الجاهلية بما كان منه يوم صوّأر ، في خلافة عثمان ، حين عاقر سحيم بن وثيل الرياحي ، فعقر أربعمئة بعير ، فلما طلبه عثمان ليعاقبه ، أتى الموسم فأذهب ماله وهرب • وكان يوم صوّأر من مفاخر أيام دارم ، اعتز به شعراؤها ، وقالوا فيه فأفاضوا ، وظل صوّأر منهلاً للفرزدق ، عذبا ، ورده طول حياته مفاخرا ومناقضا^(١) ومثل ثان يذكره الرواة للتدليل على كرم غالب ، وهو ما تراهن عليه ثلاثة نقرٍ من كلب : أن يختاروا أفضل تسم وبكر ، فكان خيرهم غالب ، أعطاهم مائة ناقة ، وراعيها ، ولم يسألهم : من هم ، فقال الفرزدق :

وإذ نحبّ كلب على الناس أيّتهم
أحقُّ بتاج الماجد المتكرم ••

(١) النقائص : ١٧٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٦٢٥ -
٦٢٦ ، ذيل الامالي : ٥٢ - ٥٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٠٧ ، معجم البلدان :
(صوار) ، والقراحيّ ، بضم القاف : من لزم القرية ، لا يخرج الى البادية .

فلم يجعل عن أحسابهم غير غالب جرى بعناني كل أبلج خضرم^(١)
ولما وفد غالب على علي بن أبي طالب ، ومعه ابنه الفرزدق ، تقيئة يوم
الجميل ، قال له علي : من أنت ؟ قال : أنا غالب بن صعصعة المجاشعي •
قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم • قال : فما فعلت ابلك ؟ قال :
أذهبتها النوائب ، وذعدعتها الحقوق ، قال : ذلك خير سبلها^(٢) • وكان
الكرم غدا سمة لآل صعصعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى إن بني نهشل
أرادوا أن يعقروا كما عقر أحد أحفاد صعصعة فقال لهم الناس : أتعاقرون
بني صعصعة ؟ فكفوا عما أرادوا أن يفعلوا من المعاقرة ، وعلموا أن
رشدهم في الكف^(٣) •

عمر غالب حتى أدرك معاوية ، ومات في امارة زياد ، ودفن بكازمة
على جبل المقر^(٤) •

أصهر غالب إلى بني ضبة ، تزوج منهم لينة بنت قرظة ، من بني
السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة ، فولدت له الأخطل ، والفرزدق ،
وجعثن^(٥) ، ونعم الأبناء برعاية أبيهم وجهه ، وراعهم منه خلقه الكريم ،
وفضائله المثلى ، فشبوا على احترامه ، والمباهاة به ، وأحلووه من نفوسهم
المقام الأسمى • وكان من أثر ذلك أن قويت وشائج المودة والالفة التي

-
- (١) أنساب الاشراف ١١ : ٣٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٠٦ ، ديوان الفرزدق :
٧٥٩ ، المحبر : ١٤٢
(٢) معجم الشعراء : ٤٦٦ ، نزهة الالباء : ٤٣٥ - ٤٣٦ ، شرح نهج
البلاغة ٢ : ٥١١ ، ٤ : ٤٧٨
(٣) النقائض : ٩٤١
(٤) الاغاني ٢١ : ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، كازمة : ١٨ - ١٩ ، ٦٩ - ٧٣ ، معجم
البلدان : (المقر) ، ولغالب بن صعصعة ترجمة في كتاب الاصابة ٥ : ١٩٦ ،
وفي كتاب الشعور بالعمور للصفدي : ٥٠
(٥) النقائض : ١٨٨ ، ٢١٧ ، أنساب الاشراف ١١ : ٣٥ ، معجم
الشعراء : ٤٦٦

ربطت بين الإخوة وأبنائهم ، وتجلت في أوقات عدة ، تنبىء بالمحبة والحنان
والمودة التي كانت تجمع أبناء غالب ، وتفصح عن الحياة الكريمة الطيبة
التي عاشوها في ظلال أبيهم ورعايته .

ولا نعلم شيئاً من أخبار لينة أم الفرزدق ، الا ما ذكره الفرزدق من
أنه حج بأمه ، وكان يسوق بغيرها ، حين لقي الحسين بن علي بالصَّفَّاح
سنة ٦٠ هـ ، وهو خبر يدل على برِّ الابن بأمه ، ولا ينقضه أن الشاعر لم
يرثها يوم ماتت ، فليس الرثاء وحده دليل الحزن وشدة التعلق ، ولم يَألف
الشعراء القدماء أن يرثوا امهاتهم ، ولعل في اعتراف الفرزدق بما كان لخاله
العلاء بن قرظة - وكان شاعراً - من أثر في موهبته الشعرية ، ثم ما كان
من اعتزازه بضبة ، أخواله ، اعتزازاً مفرداً ، يفاخر بهم وينازع ويحتمي ،
ما يقوي ما ذهب إليه من صلة البر والمودة التي كانت تصل الشاعر
بأمه (١) .

كان الاخطل اكبر الابناء فكني به غالب أبوه ، وكان من وجوه
قومه ، فصيح اللسان ، يقول الأبيات من الشعر ، فكان الفرزدق يعتدُّ
به ، ويراه أهلاً أن يقرن بينه وبين أخطل تغلب :

ستبلغ عني الأخطلين : ابنَ غالبٍ وأخطلَ بكر ، حين عبَّ عباؤها

ورأى جرير الفرصة سانحة ، فاتهم الفرزدق بانتحال شعر اخيه ، ولعل مما
حال بينه وبين الشهرة ، اخاه الفرزدق ، كسفه ، وغطى عليه ، فذهب
شعره . ولما مات رثاه الفرزدق رثاء دل على مكانته منه :

(١) الطبري ٤ : ٢٩٠ ، الاغانى ٢١ : ٤٢٠ ، الشعر والشعراء : ٢٩٦ -

٢٩٧ ، أنساب الاشراف ١٠ : ٥١٦ ، معجم البلدان (الصَّفَّاح) .

أخي ، ما أخي، ما من أخ كان مثله ليلية ريح للقري ، ونصير^(١)

وكان ابنه محمد بن الاخل حبيبا الى قلب عمه الفرزدق ، توجه معه الى الشام ايام سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) فمات في اريحا ، فأبناه الفرزدق بمرثيته الشهيرة :

سقى أَرِيحَاءَ الغيث وهي بغيضة إليّ ، ولكن كي ليسقاه هامثها
وكانت العلية ابنة الاخل زوجاً لابن عمها لبطة بن الفرزدق ، وبلغ من
تعلقها بعمها وشدة حبها واكبارها اياه ، وجزعها لفقده ، أن اقامت على
قبره سبعة ايام ، تنحرف في كل يوم جزورا^(٢) .

وكانت جِعْثِنُ أخت الفرزدق امرأة عفيفة مسلمة سالحة ،
تزوجها ابن عمها شبة بن عقال بن صعصعة ، وكان من خطباء العرب ،
وروي عن أبيه عن جده صعصعة . وكان يحضر مجلس عبد الملك بن
مروان وينسب اليه بعضهم الكلمة المشهورة : جرير يغرف من بحر ،
والفرزدق ينحت من صخر . وقد نال جرير جعثن وشبة ، بشواظ من
هجائه ، فافحش على جعثن ، وندد بخور شبة وجبته ، وتزعم رواية في
النقائض أن شبة هو الذي حرص الفرزدق على هجاء بني جعفر بن كلاب

(١) النقائض : ٣٨٢ ، أنساب الاشراف ١١ : ٣٥ ، ديوان الفرزدق :
٩٩ ، ٣٤٥ ، ٨٨٦ ، ديوان الاخل : ٢٧٩ ، المؤلف والمختلف : ٢١ ، جمهرة
ابن حزم : ٢١٩ ، المكاثر : ٤٠ - ٤١ ، شرح شواهد المغني ١ : ١٤٣ ،
العمدة ٢ : ٢٦٨

(٢) أنساب الاشراف ١١ : ٣٥ ، طبقات ابن سلام : ٣٩٤ ، ديوان
الفرزدق : ٧٥١ ، الاغانى ٨ : ٨٤

وكان ابنه عقال وياس ابنا شبة ، ممن روى أخبار الفرزدق ، وحفظها ،
وكان عقال خطيبا ، روى عن ابيه ، وحضر مجلس الخليفة هشام بن عبد
الملك ، وعاش الى زمن المنصور ، وولده خطباء (١) .

(١) النقائص : ٢٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤١٤ ، ٦٢٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٨٥٥ ،
٩٠٧ ، أنساب الاشراف ٨ : ٦١ ، ١١ : ٣٠ - ٣١ ، ٣٣ ، ديوان جرير :
٤٧١ ، ٤٩٩ ، ٥٦٨ ، ٥٨٧ ، الجرح والتعديل ١/٢ : ٣٨٥ ، طبقات ابن
سلام : ٣٩٠ ، الاغانى ٨ : ٨١ ، ٢١ : ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، الطبري ٥ : ٥١٥ .
الاصابة ٣ : ٢٤٥ ، البيان والتبيين ٢ : ٨٠ .

(٢)

نشأة الفرزدق وشبابه :

والفرزدق ، اسمه همام ، - بصيغة المبالغة ، من الهمة - ، سمي باسم عمه همام بن صعصعة • وكان ابوه غالب يناديه باسمه مصغرا : هميم ، وكنيته ابو فراس ، وهي كنية الاسد • اما الفرزدق فلقب غلب عليه • واطال الرواة في سبب تلقيه ، ودلالته ، قال بعضهم : انه كان قصيرا ، غليظا ، فشبّه بالفرزدقة ، وهي الجرذقة التي تدق ، ويشربها النساء • وقيل : شبه وجهه ، وكان غليظا جهما ، بالفرزدق ، وهو الرغيف الضخم ، وزعم زاعمون انه لقب الفرزدق تشبيها له بدهقان الحيرة ، في تيهه ، وأبته • واختلف في أصل الكلمة ، جعلها بعضهم عربية منحوتة من فرز ودق ، وجعلها بعض فارسية معربة (١) •

وقد عني القدماء بأخبار الشاعر ، وتفصوا امره ، وتركوا فيه تأليف عدا الزمن على اكثرها • ولم يبق في ايدينا منها الا اسماؤها • فقد الف المدائني (١٣٢-٢٢٥هـ) كتابي : أخبار الفرزدق، ومناكح الفرزدق ، وعمل

(١) أنساب الاشراف ١١ : ٣٦ ، ٣٨ ، النقائض : ٤١٦ ، الدمشقية : ١ ، الحيوان ٦ : ٢٢٦ ، خزانة الادب ١ : ١٠٥ ، الاغني ٢١ : ٢٩٩ ، ٣٢١ ، ٣٨٢ - ٣٨٣ ، ٣٩٩ ، تاج العروس (الفرزدق) ، (فرس) ، والعجب ان الامر قد اختلف على الحرمازي احد رواة شعر الفرزدق واخباره فظن هميما اسما لآخيه الاخل ، انظر الدمشقية : ٧٦ ، ايا صوفيا : ١٦ ، الديوان : ٣٤٥ ، وتبعه في الخطأ صاحب الاغاني ٢١ : ٢٩٩ ، ولم ينفرد الفرزدق بلقبه هذا ، فالعجير السلولي له ابن يسمى الفرزدق ، وبه كان يكنى ، (المؤتلف والمختلف : ١٦٦) •

الجلودي الأزدي البصري (ت ٣٣٢هـ) كتابا في أخبار الفرزدق • وثالث الصولي (ت ٣٣٥ هـ) فعمل أخبار الفرزدق فدخلت في ثلثمائة ورقة ، وشرط فيها ألا يأتي بحرف ذكر في النقائص ، إلا ما لا بد منه ، والـف المرزباني (٢٩٦ - ٣٨٤ هـ) كتاب الموفق ، فيه أخبار الشعراء المشهورين من الجاهلية ، والمخضمين ، ومن تبعهم من الاسلاميين • وجعل جريرا والفرزدق في صدر الاسلاميين ، ولعل المرزباني قد احوال على هذا الكتاب وما فيه من اخبار حين قال في الموشح : « وقد ذكرنا ذلك في اخبار الفرزدق » وضاعت ترجمة الفرزدق التي سطرها ابن عساكر في كتابه : تاريخ دمشق • ويبقى علينا ان نتعرف الى حياة الفرزدق ، من الاخبار واللمحات الباقية ، نضم بعضها الى بعض ، لتستوي لنا ملامح شخصية الشاعر ، ويسعدنا في هذا المضمار ديوان الفرزدق الذي كان صورة الشاعر الصادقة (١) .

ولد الفرزدق في خلافة عمر بن الخطاب (٢) في حدود سنة ٢٠ هـ ، وهيئت له نشأة طيبة ، في بيت ورث المجد وفعل المكرمات ، وكان مألـف الاشراف ، ينتدون فيه يتداولون ما يلهم بهم ، ويتحدثون باخبار أسلافهم ، وما أثـلوه من مآثر وفضائل ، ويتذكرون حياة العرب وأيامها ، وقصص فرسانها ، وأقضية حكامها ، وسير ملوكها في اليمن والحيرة وغسان ، ويروون ما قاله شعراؤها من فاخر القول واكرمه .

وكان الفرزدق يصغي الى ما يسمع ، ويحفظ ما يقال ، قد أوتي الفطنة والذكاء والموهبة ، واوتي ، الى ذلك ، حافظـة واعية ينتقش فيها

(١) الفهرست : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٣٢ ، الموشح : ١٠٦ ، أخبار أبي تمام : ١٢ ، خزنة الادب : ١ : ١١٦ ، ٤ : ٣٩ ، شرح شواهد المغني ٢ : ٣٢١ ، فهرست الطوسي : ١١٩ ، أعيان الشيعة ٢/١ : ٥٨ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، الاعلام ٤ : ١٥٥ ، وكتاب المدائني في اخبار الفرزدق كان معروفا في القرن السابع الهجري (المنتخب مما في خزائن الكتب بحلب : ٣) .
(٢) لسان الميزان ٦ : ١٩٨ .

الكلم فما يزول « لم يغفل العلم صدره »^(١) . حنا عليه جده صعصعة ، ذو الرواية الواسعة والمعرفة بأخبار الناس ، لما توسمه فيه ، فروى له أحاديث كثيرة ، لعل من أجملها حديث امرئ القيس يوم دارة جلجل وانه لحديث انفرد الفرزدق بروايته عن جده^(٢) وعاش الوليد الشاعر في كنف أبيه غالب ورعايته ، فأحسن تهذيبه وثقيفه ، ورواه الشعر وكلام العرب^(٣) . وكان غالب يؤثر على البصرة الاقامة في بادية بني تميم ، فنشأ الفرزدق في مراع كاظمة نشأة فتيان البادية : ورث أخلاقها وفضائلها ، وقبل عاداتها راضيا معتزاً . وفي بادية تميم اتيح له ان ينهل الفصاحة من مناهلها ، ففتق لسانه ، وفصح بيانه ، واحاط بسر العربية ، واوتي القدرة على تشويق الكلام ، فقد كانت تميم من أفصح قبائل العرب ، قال ابو عمرو بن العلاء: افصح الناس سافلة قيس ، وعالية تميم . وفي الحديث ان رسول الله ورد عليه الوفود فاقرأوا الاخماس ، كل خمس على لغته . فكان اعرب القوم تميم^(٤) ، وكانت بادية تميم أيام الفرزدق تضج بشعرائها الكثر ، قد وانتهت فترة الشعر الخصب التي كانت تنتقل بين القبائل ، والتي نبه اليها القدماء : « كان شعر الجاهلية في ربيعة . . ثم تحول في قيس . . ثم آل ذلك الى تميم ، فلم يزل فيهم الى اليوم »^(٥) . وليس في الاسلام مثل حظ تميم في الشعر^(٦) . وقد تركت هذه النشأة البدوية آثارها في الشاعر ،

(١) الاغاني ٢١ : ٣٨٤ ، ديوان الفرزدق : ٧٥٩ .

(٢) ديوان امرئ القيس : ١٠ ، الاغاني ٢١ : ٣٦٤ ، الشعر والشعراء : ٤٨ - ٥٠ ، جمهرة أشعار العرب : ٣٩ ، وعد الدكتور طه حسين في كتابه في الادب الجاهلي : ٢١٥ - ٢١٦ ، ان حديث دارة جلجل وما يتصل به من شعر امرئ القيس قد ابتكره الفرزدق .

(٣) شرح نهج البلاغة ٤ : ٤٧٨ ، خزانة الادب ١ : ١٠٨ .

(٤) الفاضل : ١١٣ ، تفسير الطبري ١ : ١٥ ، المزهري ٢ : ٤٨٣ .

(٥) طبقات ابن سلام : ٣٤ .

(٦) معجم الادباء ٧ : ٢٥٨ ، الاغاني ٢١ : ٣٠٩ .

بل انها طبعته بطابعها ، فظل طوال حياته وفيها لها ، يؤثرها ، وهي مدارج صباه ، على ما نعم به من معاني الحضر ، ويحن اليها ويجهر بتفضيل عاداتها ، ألفا لها واعتزازا بها • وأي عجب أعجب من أن تسمعه يقول وقد جاوز الستين من عمره :

وانا اهل بادية ولسنا بأهل دراهم^١ حضروا القرارا

وملاه الحنين، وهو في المدينة التي كان يؤثرها ويفضلها، فلم يقو أن يغالبه، فقال ، وكان أقرب الى الثمانين :

ويا ليت زوراء المدينة أصبحت بأحفار فكلج^٢، أو بسيف الكواظم^٣ فلما دلف الى التسعين ، عاد يتغنى :

لفلج^٤ وصحراواه لو سرت^٥ فيهما أحب^٦ الينا من دجيل وأفضل^٧ (١)
ورأى الفرزدق في أبيه غالب المثل الاعلى الذي يتشوف اليه ، وكانت الايام تزيده اعجابا به وافتخارا ، فبالغ في تعظيمه وتوقيره ، وراح يتأثر خطاه وينهج نهجه ، والاب يشجعه على مسلكه ويحفزه ، مغتبطا له اشد الاغتياب • أرسله الى البصرة ايام زياد ، في غير له وجلب يبيعه ليتمتار له ، ويشتمري لأهله كسئ^٨ ، ولكن الفرزدق نثر الدراهم وأنهبها الناس في المربد ، حين ذكروه فعال ابيه وكرمه ، يريد أن يقتدي به • ان أخيلة صوár يوم المعاقرة ما زالت تطيف به ، وهو يسمع صوت أبيه يناديه : ردها يا هميم ، ولما بلغ غالبا فعل ابنه ، وسمع منه قصته يرويها مزهوا ، سر^٩به ومسح رأسه وهو يقول له مشجعا فرحا ، : « واثك لتحسن مثل

(١) ديوان الفرزدق : ٢٣٠ ، ٦٢٦ ، ٨٥١ .

هذا» (١) . واعتز الفردزق بأبيه اعتزازا قل ان نجد له نظيرا . اكبره وعظمه وأحله منزلة أفرده بها وغالى به ، ولم يزل طوال حياته يتشوف اليه ، يستلهمه فضائل الخلق ، ونبل الشمايل ، بكاه في شعره لما مات احرك بكاء ، وبين عظم الفاجعة فيه :

أبي الصبرَ أني لا ارى البدرَ طالعا ولا الشمسَ الا ذكراني بغالبِ
وادعى انه ورث اباه في اخلاقه وفضائله :

ورثتُ أبي أخلاقه : عاجل القرى وعبط المهاري : كومثها وشبوئها
ثم تجاوز الحد في المباهاة به ، وبلغ من تعظيمه اياه أن كان يفاخر به الملوك ، ويتعالى عليهم ، لا يتوقى ولا يتحرز ، وأن جعل قبره مستغاثا يلاذ به من مظفات النوائب ، فينهض الفردزق ليغيث من لجأ اليه ، ويدفع الشر عن عاذبه :

فله عينا من رأى مثل غالب قري مائة ضيفا ولم يتكلم
وله في ذلك أخبار ماثورة ، تدل على بالغ إجلاله لأبيه ، ذكرتها الرواة ، وتداولتها الشعراء ، كقصة عبد بني منقر الذي ظلع بمكاتبته ولجأ الى قبر غالب ، فضمن الفردزق عنه ، وكفعل مسلم بن جبير ، أحد بني الأبيض بن مجاشع حين جاء المقر ، فعاذ بالقبر « تحته خير أعظم » ، فأدى عنه الفردزق الدية . ورد الفردزق على المرأة ابنها ، وكان قد جُمّر بالسند ، حين أخبرته أنها عادت بقبر أبيه . وقد رفعه فعله في الأعين حتى ضربوه مثلا . فقال فيه ابو الشغب العبسي وهو يهجو بني مروان :

قبر التميمي أوفى من قبورهم يسعى بذمته في قومه الساعي (٢)

(١) الطبري ٤ : ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) ديوان الفردزق (الصاوي) : ٦٦ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ٧٥٨ - ٧٥٩ ، (هل) : ١٦٠ ، كتاب سيبويه ١ : ٢٢٥ ، أنساب الاشراف ٨ : ٢٨٩ ، ١١ : ٤٨ - ٤٩ ، ١٣٦ ، الاغانى ٢١ : ٣٧٧ - ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٤٢١ - ٤٢٢ ، الكامل للمبرد : ٢٨٠ - ٢٨١ ، الأضداد : ٢٥٦ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٦ - ٤٢٧ ، طبقات ابن سلام : ٢٦١ ، معجم الشعراء : ٤٦٦ .

وهكذا قدر لغالب ان يؤثر في حياة ابنه تأثيرا كبيرا ، وان يكون احدى الدعائم الكبيرة في بناء شخصيته . ولعل السخاء الذي عرف به الفرزدق حياته كلها ، ينفق لا يبقي على شيء ، ويعطي سائله ، ولا يخيب رجاء من رجاء ، أحد هذه الآثار (١) .

حفظ لنا الديوان اول ما قرزم من الشعر ، وكان فيما قاله قصيدة يجيب فيها امه التي لامته على ان ضيع كبشا تركه للذئب ، وهي تنبئ بما يمور في نفس الفتى من مطامح ، وما يتوق الى بلوغه في قومه ، من سيادة العشيرة ، يركب في سبيلها كل عزيمة :

أبيت أسوم النفس كل عزيمة إذا وطؤت بالمكثرين المضاجع^٢

وكان الهجاء اول ما تفتحت له نفس الفرزدق ، فقد بدأ الشعراء ، وشعراء البادية خاصة ، الذين قمعهم عمر أمير المؤمنين ، ينفثون شيئا من نزغات الجاهلية ، بعد ان امتد بهم عهد عثمان ، واستمع الفرزدق معجبا الى ما قيل يوم صوّر من مفاخرات ومهاجاة بين شعراء حنظلة ويربوع ، وقدّر لسحيم بن وثيل الزياحي ان يكون اول من يرمي مجاشعا بالقيون ، ليتلقفها الشعراء من بعد . ثم قام في بني نهشل بن دارم الاشهب بن رميلة النهشلي ، من مخضرمي الشعراء ، وشاعر تميم ، يهجو غالبا ابا الفرزدق . كان ينال منه ، ويؤذيه في نفسه ، وقومه من مجاشع ، وامتلات نفس الفرزدق حنقا وغيظا مما يسمع ، كان يبكي جزعا أن يمزق عرض ابيه الكريم هذا التمزيق ، وكان يجهد نفسه ليقول كما يقال لايه ، فيستعصي عليه الشعر ويتأبى ، وجاهد الفتى الناشئ حتى لانت له القوافي ، واطاعه القول ، فأنشد اياه ، الذي هزه ما سمع ، فاسرع به الى رجل بصير

(١) ديوان الفرزدق (هل) : ١٥٣ .

(٢) ديوان الفرزدق : ٣٠٩ ، ٥١٢ ، ٨٨٥ ، طبقات ابن سلام : ٢٧٣ .

بالشعر ، رضي عنه ، واعجب به ، وحثه على المتابعة ، وتجلى له اي شاعر عظيم في اهاب هذا الغلام ، فمضى يزف البشرى الى غالب بان ابنه سيكون اشعر العرب • واندفع الفرزدق يدافع عن ابيه واسرته ، ونشب الهجاء بينه وبين الأشهب ، وقد روت لنا كتب الادب اطرافا منه • وعنف الفرزدق بخصمه عنفا بالغا ، طأطأ من اشرافه ، واضطره أن يتصاغر لغالب ، يطلب الصلح ، بعد ان كان يتأباه ، وقوي الفرزدق على الأشهب وأخمله ، ولم يبق الا أن يتهدد أخو الاشهب ، زباب ، وكان فاتكا ، وأبوه ثور ، الفرزدق بالقتل • ويقولون : ان الفرزدق هرب الى البادية ، نحو الشام ، ولم يعد حتى قتل زباب ، ايام الفتنة ، بعد مقتل عثمان • فرجع ليستقبله الأشهب بقوله :

لقد أخزأك في ندوات سعدٍ وفي قيس فرارك من زباب^(١)

وظل الفرزدق يذكر أهاجيه الاولى راضيا عنها ، يقول : « كنت أجد الهجاء في أيام عثمان » • ومما يؤكد مسارحته الى الهجاء ، ومقارعته الخصوم قوله ، وقد سأله رجل : ايما اكبر ؟ • انت ام جرير ؟ • فقال : « والله لقد طعن عليّ في فرجي قبل ان يولد جرير »^(٢) • وأعجب الأب بابنه ، فأتى عليّ بن ابي طالب ، عام الجمل (٣٦ هـ) وهو معه فقال له علي : من هذا معك ؟ • قال : ابني ، وهو شاعر ، فقال له : « علمه القرآن ، فانه خير له من الشعر » ، ولعل عليا اراد بنصيحته ان يجنب الفتى قول

(١) انساب الاشراف ١١ : ٣٦ - ٣٨ ، ١١٩ ، الاغاني ٩ : ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ٢١ : ٤٠٦ ، الاصابة ١ : ١١٠ ، المؤتلف والمختلف : ٣٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ٣ : ٨٠ ، ديوان الفرزدق : ٦٤٢ - ٦٤٥ ، خزانة الادب ٢ : ٥١٠ ، شرح شواهد المغني ١ : ١٠٤٤ ، ديوان جرير : ٣٠ ، كنيات الجرجاني : ٧٧ ، معجم البلدان : (صوار) .
(٢) الاغاني ٢١ : ٣٠٨ ، ٤١٩ ، انساب الاشراف ١١ : ٧٧ ، معجم الشعراء : ٤٦٦

الرفث والسباب ، ليهديه الى ما هو خير وأبقى • ووقرت الكلمة في نفس الفتى وظلت تلح عليه ، حتى دفعته ، بعد حين ، ان يقيد نفسه ليحفظ القرآن (١) .



ولا يحدثنا الديوان بشيء كثير عن اخبار الشاعر ، ونوازهه أيام فتوته ومطالع شبابه ، ولا ندري أصمت الشاعر فلم يتحدث عما مر به من فتن الصبا وبهيج العيش ، وقد مرَّ به شيء كثير ، فقد أطال الشاعر التغني بعد ، بذكري شبابه الحلو ، وبمذاقه ما اشتهى من لذات الحياة ، أم عدا النسيان على ما قال ، فلم يبق الا وميض لتلك الحياة الخصبه التي عاشها الشاعر ، وهو وميض ينبىء عن فورة الحس عند الشاعر وتهالكه على التمتع ، ويكشف عن بذور استهتاره وجهه الافتضاح ، لا يخشى معرة ولا يتستر من إثم • فقد قدر للشاعر ، في حدود سنة ٤٠هـ (٢) ، وقد غدا الشاب ابن العشرين ، ان يمر بتجربة من هذه التجارب التي يمر بها الفتيان أمثاله • نزل أبوه غالب بالسيدان ، فجاور طلبة بن قيس بن عاصم المنقري الذي كان بالرحى (٣) ، وتوثقت الصلات بين جعثن ابنة غالب وظمياء ابنة طلبة ، وتعشق الفرزدق ظمياء ، ولعله تحدث عن حبه بما كشف سره ، وكثر اللغظ ، ويبدو أن الفرزدق استشير وناله أذى وشر ، فلم يتمالك غضبه ، ونظم قصيدته القافية ، يتحدث فيها عن سوء جوار منقر ولؤمهم ،

(١) أنساب الاشراف ١١ : ٣٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٤١٩ ، شرح نهج البلاغة ٢ : ٥١١ ، ٤ : ٤٧٨ ، معجم الشعراء : ٤٦٦ ، نزهة الالباء : ٤٣٦ .

(٢) استدللنا على هذا التاريخ بقوله في قصيدته الرائية التي قالها حين فر من زياد سنة ٥٠ هـ : (الديوان : ٢٢٦) :

تذكر ظمياء التي ليس ناسياً وإن كان أدنى عهداً حججاً عشراً
(٣) السيدان : بكسر السين ، موضع وراء كاظمة بين البصرة وهجر ، والرحى : جبل بين كاظمة والسيدان (معجم البلدان : السيدان ، الرحي) .

وان الذي أثاره عليهم ما أتوه من سوء « انما يهيج جليلات الامور
دقيقها » • ثم مضى يصف ظمياء ، وخلوه بها الليل كله ، ويصرح بمتعته
الحسية ، لا يورسي عنها ولا يتستر ، ويبين شدة تعلق المرأة به ، وأسلمه
الحديث الى غايته من الموازنة والمفاضلة :

رأت منقرا سودا قصارا، وأبصرت فتى دارميا كالهلال يروقها

ولئن دلت القصيدة على بذور التعهر الذي تفتحت به نفس الشاعر ،
وكشف عنه شعره ، فتجلى لنا رجلا لا يبالي الفضيحة والتشهير ، ويؤثر
التسميع به ، إنها تدل على زهو الفتى واعجابه بنفسه اعجابا تراءى له به
انه في عيني فتاته كالهلال يشغفها حبا ، فلا ترى بعده في قومها الا سودا
قصارا ، تقذى بهم العين • وانك لتمثل الكبر والتعالي اللذين يملآن
نفس الفتى حق تمثلهما حين تذكر أن الفرزدق لم يكن بالجميل ، بل كان
له حظ من القبح غير قليل ، أشير اليه في معارض شتى ، وغمز به
الفرزدق • وتدل القصيدة فوق ذلك على تمكن الفتى من ناصية الشعر ،
وحوزه كل أدواته ، وقدرته على التصرف في غرضه ، وموهبته في الوصف
التي كانت تجعل منه مصورا ، وفطرته على الهجاء يمضي به الى الاقذاع
الموجع المبكي • وهيبء للقصيدة ، بغرضها وأسلوبها ، ما مكّن لها أن
تسير وتذيع ، وسبت العرب ظمياء ، وأرادت مقاعس (ومنقر أكبر
بطونها) أن تنتصر وتثار لشرفها ، فأرسلت عمران بن مرة المقاعسي ،
وكان لا يجارى خفة وسرعة ، فأتى منزل غالب فدفع في صدر جعثن ومضى
يعدو ، وبدأت معركة الهجاء • قام اللعين المنقري ، وكانت ظمياء عمته ،
ينقض على الفرزدق ، وكان اللعين هجاء خبيث اللسان ، فشهر بجعثن ،
ثم قام في أعقابها مرة بن محكان السعدي ، من بني ربيع بن مقاعس ،

غاضباً لبني منقر ، وردّ الفرزدق فهجا ربيعاً وسخر منها ، وتهكم ،
وأرسل فيها بيته المشهور :

أترجو ربيع أن يجيء صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وعم الفرزدق مقاس بهجائه ، واستطال عليهم وتعالى :

وليس يعدل أن سببت مقاعساً بأبائي الشم الكرام الخضارم
ولكن عدلاً لو سببت وسبني بنو عبد شمس من مناف وهاشم
أولئك أكفائي فجيئوا بمثلهم واعد أن أهجوا عبيد أبادارم^(١)

واستطار الشرر ، ونال الفرزدق بني سعد جميعاً بأذاه ، كان يرسل
فيهم النتفة إثر النتفة ، هازئاً وساخرأ ، يشمخ عليهم مزهواً متعالياً .
ثم تفاقم الشر ونظم الفرزدق في ظمياء ومرة بن محكان وبني سعد قصيدة
من عيون شعره ، احتفل لها وروى ، بعد أن ملك قياد نفسه ، وتمكن
من عاطفته ، ولم يرسل القول في وقدة الافعال ، فأتمى بالمعجب المعجز ،
وتجلت في القصيدة فتوة شبابه وفتوة شعره . فمن فتوة شبابه
ما يطالعك من اعتزاز الفرزدق بنفسه وبقومه في مخاطبة ظمياء « أنمي
الى معشر شمّ الخراطيم » ، لا يحول الحب بينه وبين هذا الاعتزاز
والشموخ ، إنه حب الفرسان الفتيان ، لا يستدلهم بل يزيد في فتوتهم ،
ولم تعد ظمياء تلك المشهّر بها ، بل فتاة تبادل الحب ، وتخف اليه
تحمل النصح سراً ، تحذر شر قومها ، وما يضمرون له من الغيظ
والحنق ، في لهجة كلها صدق ومودة :

(١) أخطأ ابن خلكان (وفيات الاعيان ٥ : ١٤١) فظن الابيات الثلاثة
من نقيضة للفرزدق يهجو بها جريرا ، وهي كما ترى ، قد قيلت قبل أن
تنشب النقائص بزمن . وانما أوقعه في الخطأ اعتماده على وحدة البحر
والروي دون أن يرجع الى ديوان النقائص ليتثبت .

إذا رأوك ، أطال الله عبرتهم ، عضثوا من الغيظ أطراف الأباهيم
ومن فتوة فنه هذا التصوير الجميل ، يصور به حمار الوحش وأتفه ،
مما يرقى به الى مصاف النابغة ، وأمثاله من الشعراء المصورين ، وسيأتي
نبأ ذلك في بحثي الوصف ، والخصائص الفنية^(١) .

ولئن شهّر الفرزدق بظمياء ، وسمّع^(٢) بها في غضبة من غضباته ،
إن القدر هياً أن يقف له جرير ، بعد زهاء خمسة وعشرين عاماً ، حين
نشب بينهما الهجاء ، لينعى عليه هذا التعهر ، يحاوله في ديار جيرانه :

لقد نزل الفرزدقُ دار سعد ليالي لا يعفُ ولا يحامي

وليعيره خوفه منهم ، وتحوله عنهم « وتخصى اذا لاقيت سعداً وتجدهع »
وليقرّعه بأنه مفسد ، لا يرعى في غربته حسباً ، ولا يحفظ شرف عشيرته ،
ثم يعطف على جعثن ، فيسبها أقذع سباب وأفحشه ، ويرميها بالفاحشة ،
ويذكر ما نالها من منقر ، يوم السيدان ، مبالغاً ما شاء له الخيال ، يبدىء
في أمرها ويعيد ، مطيلاً تارة وموجزاً أخرى ، لا يسأم ولا يكل ، وهو
يسخر من الفرزدق ، ويعجزه أن يجرب بأخته كما جرت علانية . وفي شعر
جرير ما يدل الدلالة القاطعة أن أمر جعثن كان في حياة أبيها غالب^(٣) .

مضى الفرزدق سادراً في غلوائه، قد شغل بما يشغل بهفتيان البادية من هذه
المنازعات ، تقوم بين البطون المتجاورة المتقاربة : يختصمون على الماء

(١) ديوان الفرزدق : ٣٣٨ ، ٥٠٦ ، ٥٧١ ، ٦٠٧ ، ٧٤٥ ، ٨٤٤ ،
٨٧٤ ، ٨٨٢ ، طبقات ابن سلام : ٢٧٥ - ٢٧٧ ، أنساب الاشراف ١١ :
٣٩ - ٤٠ ، ١٠٣ ، ٣٠٢ ، شرح الشافية ٤ : ٢٨١ ، الشعر والشعراء :
٢٩١ - ٢٩٢ ، ٣١٤ ، النقائض : ١٢٤ ، ٢٢٢ .
(٢) سمّع به تسميعاً : أسمع القبيح وشمته . . . وسمّع بالرجل :
أذاع عنه عيباً وندّد به وشهره وفضحه وأسمع الناس اياه (لسان
العرب - سمع) .
(٣) ديوان جرير : ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ٣٦٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٩٩ ، ٥٨٧

والمرعى حين يختلفون فيهما ، أو يدفعون عدوانا يرون أنه لحق بهم ، أو يعيرون خصومهم ذلا نالهم . وقد شب النزاع يوم أقبل ركب من بني فقيم وبني نهشل على ماء لغالب بالقييات فضربوا أمته واستقوا ، وعلم الفرزدق فأدرك القوم وشق أسقيتهم وأداويهم وقربهم ، وأخذ يهجوهم ويفخر عليهم ، وامتد النزاع ، وبينما كان غالب متحملا يريد كاظمة ، وهو في محمل ، وعديلته أم الفرزدق لينة بنت قرظة ، عرض لهما ذكوان الفقيمي ، فعقر بعيرهما ثم عقر بعير جعثن وهرب . ويبدو أن الواقعة كانت أليمة ، فلم يزل غالب وجعا منها حتى مات بكازمة في امارة زياد . ومن ثم ادعى جرير ، بعد ذلك ، أن فقيما قتلت غالبا ، والهجاء كذوب (١) .

وهاج الفرزدق على فقيم ونهشل ، وأخذ يسبهم سبا قبيحا ، يرفث لا يتعفف . ولكن لم يتسن له أن يمضي على سننه ، جارا رسنه على هواه ، لا يرعوي عن غيه ، ولا يبالي ما أثم . فقد ولي زياد البصرة (سنة ٤٥ هـ) وكان مهيبا ، أرسى قواعد النظام في المصر ، وشدد على الناس أن يقوموا بما يثير العصبية والتفاخر ، مما يتصل بذرو من عادات الجاهلية التي تدعو الى التنافس والمهاترة . ولم يكن بد لزياد من أن يعنف بالفرزدق ويزجره حين يبلغه أمره ، وقد تلاقت الاسباب التي هيأت لزياد أن يبلغه أمر الفرزدق وأن يعلم علمه . وكان أول ما لفت اليه زيادا فعلته في المربد ، فقد بعثه أبوه غالب في غير له وجلب ليبيعه ويمتار له ، ويشترى لأهله كسئ ، فلما باع الجلب ، وأخذ الثمن ، ذكروه كرم غالب ، وحشوه أن يفعل فعله ، ولبي الفرزدق ما ندب اليه ، فدعا أهل المربد فأنهبهم ورقه والقى اليهم ثيابه ، مستجيبا لنزعة الكرم الأصيلة التي ورثها عن أبيه وأهل بيته ، الى تشبث بعادات البادية التي أخلص

(١) النقائص : ٢١٤ - ٢١٨ ، أنساب الاشراف ١١ : ٣٩ ، ٨٢ ، ديوان الفرزدق : ٢٤٩ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٨٤ ، طبقات ابن سلام : ٢٧٢

لها ، والتي كانت تفرط في أعمالها ، حتى تبلغ حد السفه والجهل ، فأغضب بفعله البدوي زياداً الذي كان يحارب كل ما يمت الى النزعات الجاهلية ، ووجد في نفسه عليه وقال : هذا الاحق يغري الناس بالنهب ، ثم وفد الى معاوية وفد " من بني تميم ، فيهم الحتات بن يزيد المجاشعي ، فمات في وفادته ، وكان معاوية قد أمر له بمال ، فحبسه ، فقال الفرزدق كلمته :

أبوك وعمي ، يامعاوي ، أورثا تراثاً ، فيحتاز التراث أقاربهُ

التي فاخر بها معاوية وطالبه بميراث الحتات وظفر برده الى أهله ، فزاد ذلك في حنق زياد عليه ، لانه رأى فيه تطاولا على السلطان لا يقبل ولا يسكت عنه •

وحانت الفرصة يوم أقبل الفرزدق يلحّ بهجائه على الأشهب والنهشليين وبني فقيم • واشتد النزاع ، وقام لون من النقائص بين الأشهب والفرزدق ورفدت خدلة الدحداحية الفقيمية الأشهب في معركته ، ولكن الفرزدق علا الأشهب بهجائه وأسقطه ، وهجا خدلة هجاء فيه من الرفث والاقذاع ما دعاها الى التوارى والصمت • ثم أمعن في سبّ بني نهشل وفقيم ، لا يكف ولا يرعوي ، فهو ينال من سيدهم يزيد بن مسعود النهشلي ، ويسخر منهم أن استعانوا بهجين مثل ابن رميلة لا يملك ضرا ولا نفعا •

فقلّ غناءً عن فقيم ونهشل مقام هجين ساعةً ثم أدبرا

ويقدح في هجائه فيمزق الأعراض ويرميهم بألوان البهتان ويشير النزعات العصبية حين يعجز عوفاً عن الاخذ بثأر قتيله • وكان زياد مكرما للأشهب ، وفد عليه فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، وكان يزيد بن مسعود سيد بني نهشل أثيرا عند زياد ، ذا منزلة ومقام ، فلما استعدوا عليه زياداً طلبه أشد طلب ، وتتبعه يريد أن يؤدبه ويقيم عوجه • وبدأ الفرزدق تجربة قاسية ، مريرة في حياته ، لم يكن قد هيا نفسه لها ، ولا توقعها •

(٣)

فرار الفرزدق الى الحجاز :

وبدأ الفرزدق حياة التنقل والهرب • وكان ذلك سنة ٥٠ هـ ، وقد تحاماه الناس ، ولفظه صديقه ومن كان يرحوه ، واشتد زياد في طلبه ، وألح عليه ينتبعه ، حتى أخاف من كان يؤويه ، وكاد يقع في يديه • وعزم الفرزدق على ترك العراق ، والخروج عن جوار زياد الى الحجاز ، اذ لم يكن بد من ذلك لئلا يظفر به ، ولجأ الفرزدق الى عيسى بن خصيصة السلمي ، فوهب له ناقة أرحبية ، متعه بها ، وبلغ زياداً شخوصه فأتبعه علي بن زهدم الفقيسي فلم يلحقه ، وأتى بكر بن وائل بالروحاء فأجاروه ، ثم قصد من وجهه الى المدينة ، ويصور ما بقي من أشعار هذه الفترة تصويراً أميناً أزمة الشاعر التي عاناها ، اثر النازلة التي ألمت بساحته ، فقد ملأه الخوف من السلطان ، والاشفاق أن يقع في يديه ، وتخلي عنه من أصدقائه وذوي قرابته من كان يطمع أن يجد في كنفهم الأمن والسلامة ، وكشف له الغطاء عن وجهه من وجوه الحياة لا يعرفه • انها المحنة يتلى بها ، والتجربة تمدده بزاد جديد في معرفة النفس الإنسانية ، واذا الشاعر المتعالي الصلف المتباهي ، يملأ قلبه الشكر والعرفان لمن مد له يداً أرشدته في ضلاله ، وأعانته على بلوغ مأمنه • انه يعرف لعيسى السلمي فضلته فيسدهه بقصيدتين جميلتين ، فيهما عرفان الشاعر بجميل مضيفه وكريم رعايته ، على حين نأى الناس عنه بجانبهم والاموه على ما فعل :

ومن كان يا عيسى يؤثب ضيفه فجارك محبور هنيء مطاعمه

ويشكر لبكر بن وائل جوارها وحماتها حين نزل في بني سعد بن مالك بالحفائر ، شكرا نبه الاشهب بن رميلة الذي اهتلها فرصة سائحة فراح ينقض عليه قوله ، منددا به ناعيا عليه جنبه وفراره • وهو ما عابه عليه جرير بعد « تحل ذليلا وسط بكر بن وائل » • ولم يتناس الفرزدق أن يذكر مية الضبية ، وبني هاجر ، وعزيرة وابنة المرار ، ممن مر به في فراره • وكأنه يريد أن يوفي كلا حقه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر • وصور الفرزدق خوفه من زياد تصويرا رائعا في حديث قصه عن رحلته ، وجاذبه رفيقه ودليله ، بين فيه ما كان يضطرب به قلبه من الخوف ، حتى لا يكاد يستقر به المقام ، وبلغ ذروة الصورة حين لقي الاسد الذي ربض له على ظهر الطريق ، فخاطبه بأبيات تحمل احساس الشاعر الذي رأى في الجرأة على الاسد ، وهو ما هو بأسا وبطشا ، خطرا أقل ، وعاقبة أسلم من لقي زياد :

فلأنت أهون من زياد جانبا فاذهب اليك مخرم السفار

وأشدد زياد بعد ، هذه المقطوعة التي تصور في أبياتها عاطفة الصدق ، فكأنه رق له ورحمه وقال : لو أتاني لآمنته وأعطيته ، ولكن الفرزدق الحذر أبى ، وقد أمن ، أن يعود (١) •

قدم الفرزدق المدينة، وكان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية واليا

(١) النقائض : ٦٠٨ - ٦١٩ ، الطبري ٤ : ١٧٩ - ١٨٦ ، أنساب الاشراف : ٤ : ٧٣١ - ٧٣٢ ، ٧٩١ - ٧٩٣ ، ١١ : ٩٥ - ٩٧ ، ١١٧ ، ١١٩ ، الاغانى ٢١ : ٣٧٣ - ٣٧٦ ، ٣٩٢ ، ٤٠٥ - ٤٠٦ ، طبقات ابن سلام : ٢٥١ - ٢٥٥ ، فرحة الاديب : و ٥٠ - و ٥٢ ، ديوان الفرزدق : (الفخر على معاوية) ٤٩ ، ٥٦ ، (هجاء نهشل و فقيم) ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٢٣٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٦٥٢ ، ٦٧٢ ، ٧١١ ، ٧٦٥ ، ٨١٣ ، ٨٧٩ ، (مدح عيسى) ١٩٧ ، ٧٦٣ ، (مدح بكر بن وائل) ٦٥٠ ، (خوف زياد) ٣٢١

عليها (٤٩ - ٥٣ هـ) ، وسعيد من الفصحاء الأبيناء ، اختاره عثمان بن عفان رابع أربعة لكتابة المصاحف ، وقيل : ان عربية القرآن أقيمت على لسانه ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله (١) ، وكان سعيد جوادا مبرزا سمح النفس سخيا اليد ، أحد أجواد الحجاز الثلاثة ، فكان يهتز للفصاحة ويرتاح للبذل والعطاء . فلما عاذ به الفرزدق وقال له : رجل لم يصب دماً حراما ولا مالا حراما ، أجاره سعيد وأمنه ، فمدحه الفرزدق بلاميته الجميلة التي احتفل لها وعني أن تكون وصفا لحاله ، وحججا عن موقفه . فذكر الهموم التي أرقته ، وما لقيه في اختفائه عاما ونصف عام ، يركب المسالك ويتنقل ، وما نصح له به الناصحون أن يستجير بني أمية . « فروحتُ القلوص الى سعيد » . ثم يبدأ الحجاج أثراً من آثار الحياة الدينية في البصرة ، ليبريء نفسه ، وكأنه لا ذنب له :

ولكني هجوت وقد هجنتي	معاشر قد رضخت لهم سجالات
فان يكن الهجاء أحل قتلي	فقد قلنا لشاعرهم وقالوا
وان تك في الهجاء تريد قتلي	فلم تترك لمنتصر مقالا

فضمن الفرزدق بيته الاخير معنى الآية الكريمة : « وَاَمَّا مَنْ اتَّصَرَ بَعْدَ ظِلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » (سورة الشورى : آية ٤١) ، ويختم القصيدة بمدح سعيد . وقد راعت القصيدة السامعين بجودتها ، وبلغ الامر بالشاعر العظيم الحطيط أن قام اليه فقال له : « قل ما شئت فقد أدركت من مضى ، ولا يدركك من بقي » .

لم ينس الفرزدق من كان سبب تفييه وتشريده في الارض ، ولم يدفعه

(١) أخبار القضاة ١ : ١١٦ ، ١١٨ ، الطبري ٤ : ١٧٣ ، ٢١٨ ، البيان والتبيين ١ : ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٢ : ٨٣ - ٨٤ ، ٣ : ١١٦ ، صحيح البخاري ٤ : ٢١٩ ، ٦ : ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، المصاحف : ٢٤ ، طبقات ابن سعد ٥ : ١٩

خوفه من زياد وبطشه الى الاغضاء والسكوت ، ومن قبل تهدد ابن زهدم الفقيمي وهو فارس ، وتعالى عليه • ان كبريائه ، وهو وريث المجد ، أبت عليه أن يستخذي لخصومه ، فراح وقد اطمأنت به حياته ، يسخر من بني فقيم ، ويقول فيهم ، ويراهم أقل من اليهود ، فيوالي صب سياط هجائه عليهم^(١) .

وبدأ الفرزدق حياته في المدينة ، وكان يتشوق الى بلده ، ومن خلفه وراءه ، والعجب انه استفتح أولى قصائده بذكر ظمياء ، فاذا حبه لها متأجج اللهب ، لم تخدعه سنوات "عشر ، لم يلقها فيها ، فقلبه أبدا متعلق بها ، لا ينساها • ويجره الحنين الى التغني بجمال محبوبته التي لا يفوقها مغزل بغور تهامة ، ولا مزنة ، والتي ظلت على ودادها له حين نذر أعداؤه دمه ، وأخذوا يتوعدونه :

إذا أوعدونني عند ظمياء ساءها وعيدي وقالت : لا تقولوا له هجرا

إن الفرزدق ، وهو يخطو الثلاثين ، ليملؤه الاعجاب بنفسه ، فهو لا يصور نفسه الا محبوبا قد تصبى ظمياء كما تصبته ، وولها كما توله بها • وهو شيء فهمه في الفرزدق الذي ملك عليه التيه أمره ، فكان يذهب بنفسه أشد الذهاب ، أليس هو الفتى الذي تدلته به ظمياء قبل عشرة أعوام ، حين أبصرت ، « فتى دارميا كالهلال يروقها » ، كأنه لا يكفيه أن يتصبى المرأة ، دون أن يشير الى جماله ، وهو هو الرجل الذي قد

(١) أنساب الاشراف (خ) ٤ : ٧٩٢ - ٧٩٣ ، (ط) ٢/٤ : ١٣٠ ، ١٣٣ ، العقد الفريد ١ : ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، المحبر : ١٤٦ ، الاغاني ٢١ : ٣٤٦ - ٣٤٨ ، ٢٣ : ٥٤٦ - ٥٤٧ ، ديوان الفرزدق : (هجاء فقيم) ١٧١ ، ١٨٣ ، (مدح سعيد) ٦١٥ ، النقائض : ٢٢٢ ، ٤٨٢ ، وجعل ابن قتيبة قصة ظمياء سبب نفي الفرزدق (الشعر والشعراء : ٢٩٦) ، وشعر الفرزدق صريح الدلالة في اتهام بني فقيم .

عرفت ، مئني بوجه غليظ جهم قبيح ، طالما غمزه الناس به • ويخيل اليّ
أن الفرزدق الذي أخذ عليه الزهو كل سبيل ، ذهاباً بنفسه واعتداداً
بمجده ، كان يرى في نفسه كل جمال ، ما دام الشرف والمجد ، في
معتقده ، رأس كل جمال (١) •

اطمأن الفرزدق الى جوار سعيد بن العاص ، ونعم بقربه ، وأحس
الأمن والسلامة « ولا يسطاع ما يحمي سعيد » ، وأقام بالمدينة ، تلهذه
حياتها اللينة وعيشها الوارف الظليل ، فانغمس في لذاتها ونعم بترفها ،
وراح يختلف الى بيوت القيان بها ، ويحضر مجالس الغناء واللهو ، ويلقى
الشعراء والندماء • وتعرف ، من قرب ، الى الفتاة الحضرية المنعمة ،
وتدوق من لذاتها ، فأعجب بها ، ونسي بقربها محنته وخوفه ، وأطب في
نعتها ، انها بيضاء بضة ريا المعصم ، تجيد الغناء وتميس في الشفوف من
التياب ، تتصبى بحدِيثها القلوب ، عاشت تنقلب في أحضان النعمة ، فلم
تعرف البؤس ، ولم تكده لتعيش ، قد كفاها أهلها كل شيء يهملها ، فهي
تستمع بثرائهم العريض ، وتأوي الى منيف من البنيان ، فاذا مشت فتنت
بحسن مشيتها :

حواريّة تمشي الضحى مرجحة وتمشي العشيّ الخيزلي رخوة اليد
ويزيدها الغنى والترف دلاً وزهواً ، « تجرّ على البطحاء برداً مرقماً » ،
ولازمته صورة المرأة الحضرية طول حياته لا تبرح خياله ، وهي في
نموذجها الاعلى المرأة المدينية ، التي كانت منذ الجاهلية تنعم بأنوثة
تجعلها محببة الى قلوب الرجال ، غالبية عليهم • فلما كان الاسلام وكثر
الغنى ، هبىء لها من النعمة والدعة ما أضفى عليها هذا السحر الذي تغنى
به شعراء الحجاز وأفاضوا فيه ، فلا عجب أن نرى الفرزدق يظل حياته

(١) ديوان الفرزدق : ٢٢٥ ، ٥١٠ ، ٥٧٩ •

كلها يتغنى بالحضرية المترفة ، تروح في الديباج والخز ، ويرى في
الحواريات النواعم يتفتلن من تحت الجلايب معطبة ، لا يبرأ منها الرجل
الحليم (١) .

لم يكن هذا هو الاثر الوحيد الذي تركته المدينة في نفس الشاعر
الذي أتاها أشد جفاء ، وأمعن بدعوة ، بل لعلها تركت في نفسه آثارا
أخرى أعمق وأبعد . إن اقامة الفرزدق بالمدينة ، وتعرفه على أهلها :
أشرافها وفتيانها وشعرائها ، وحضوره مجالس غنائها ومواطن لهوها في
أجمل سني حياته ، وأكثرها حيوية وتدفق عاطفة ، وتدوقه مناعم العيش
فيها ، قد حبت اليه المدينة وقربتها الى قلبه ، فاذا هو بعد ذلك وثيق
الصلة بها ، كثير التردد عليها ، يؤثر الرحلة اليها على كل بلد آخر ،
والمدينة قلب الحجاز كله ، تمثله وتستقبل خيرا ما فيه ، فكان الفرزدق ،
حين عاش فيها ، قد عرف صورة الحجاز كله . واطلع على أحسن ما فيه ،
وتوثقت صلته به .

وقدم يزيد بن معاوية سنة ٥١ هـ حاجاً (٢) ، وكان يزيد فتى قريش سخاء
ونجدة وأدبا وأريحية، لو شاء الفرزدق أن يتصل به لما أعجزه ذلك، ولكننا لانجد
في الديوان أثرا لهذه الصلة . أترى الشاعر أثر الابتعاد، أثرا من آثار اعتزازه
بنفسه ، فهو يأبى أن يمدح الا اعترافا بجميل ، وشكرا على صنيعه ، فعل
الشعراء السادة من أمثال امرئ القيس . ان حياته الماضية ، وبعده عن
أبواب السلطان ترجح ذلك ، انه لم يخضع بعد لمطالب الحياة الجديدة ،
ولم يدفعه ذل الطلب أن يندمج في غمار الشعراء المادحين .

(١) ديوان الفرزدق : ٢٤ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ٥٣٨ ، ٨٢٦ ، أنساب
الإشراف ٤ : ٧٩٣ ، الاغاني ٢١ : ٣٧٦ ، ٤٠٦ ، ٢٣ : ٥٤٧ ، مسند أحمد
ابن حنبل ١ : ٢٢٢ - ٢٢٣ ، فتح الباري ٦ : ٣٩ ، ١١ : ١٩٠ .
(٢) الطبري ٤ : ٢١٣

لم يقدر للفرزدق أن يظل في المدينة يستمرىء هذه الحياة اللينة الوداعة ، يخالطها شيء من العث واللهمو ، فقد أقبل في شهر ربيع الاول سنة ٥٣ هـ مروان بن الحكم والياً على المدينة ولايته الثانية ، وكان مروان شديدا صلبا في ولايته ، ضابطا لأمواره ، حازما ، يخالف سلفه سعيد بن العاص الذي كان يؤثر اللين والعافية ، ويغض العين عن هنات خفيضة يراها ، حتى قالوا عنه : كان في تدبيره اضطراب • ولم يلحظ الفرزدق فرق ما بين الرجلين ، ومضى سادرا في غيه ، يشرب ويدخل الى القيان ، ويتغنى في شعره لهوه وعبثه • وهيات له حياة المدينة لونا من القول جديدا لم يعرفه من قبل ، فاذا الفرزدق يطلع على الناس بقصيدته الرائية الشهيرة التي قص فيها قصة تسوره الى صاحبتة ، وهي قصيدة بلغ فيها الفرزدق قمة الجمال في التعبير عن نوازعه ، وهو اجس حسه • بدأ الشاعر في مطلعها متغزلا يقف على الاطلال ، وتهيجه ذكرى محبوبته :

حواريّة بين الفراتين دارمها لها مقعد" عال برود" هواجرمه

ثم يمضي ليصف هذه المرأة الجميلة التي ختلها ، وصعد اليها ، وقضى ليله معها والتي أنزلته كما أصعدته بأسباب دلته بها :

اذا قلت قد نلت البلاط تذبذبت جبالي في نيق مخوف مخاصرمه ••
فلما استتوت رجلاي في الارض قالتا احي" يرجى أم قتيل" نحاذره ••
هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض" باز" اقمم" الريش كاسره

فمثلت القصيدة هذا الجانب النفسي في الفرزدق ، الذي من أجله قالوا في نعتة : « كان الفرزدق يتعهر ، ويستبهر بالفواحش ، لا يبقى على نفسه ولا يتستر » • وقد رأينا بذور هذا الطبع النزاع الى الفضيحة في قصيدة ظمياء ، ولكن البذور تفتحت وآتت أكلها في أكناف المدينة ، فاذا الشاعر يقول فيغري ، ويفخر بتصبيه النساء على اختلافهن :

شريحان : بكر لم تديث ، ومرضع تركنا لها لبناً كلب المعالق
 ودل شعر الفرزدق على أصالة هذا الطبع فيه ، حتى كان أقول أهل
 الاسلام في هذا الفن ، ظل يقوله حتى أدركه الموت . ولكن القصيدة ،
 الى ذلك ، مثلت هذا اللون من فن القول ، يقيمه الشاعر على القص
 والمحاورة ، وهو لون نبغ فيه الفرزدق وتفوق . ولعله يدين بشيء من
 ذلك لبيئة المدينة والحجاز . ألم يقيم عمر بن أبي ربيعة في مكة يتغنى هذا
 اللون من الغناء ، وكان اعجاب الفرزدق به لا حد له حتى قال فيه قولته :
 « هذا الذي أرادته الشعراء فأخطأته » .

أثارت القصيدة أهل المدينة ، انهم لم يألفوا سماع التعهر والاشادة
 بالفاحشة ، بل ان سكينه بنت الحسين التي شهرت بذوقها الادبي وحسها
 المرهف والتقاء الشعراء والادباء والرواة في بيتها ، وتحكيمهم اياها فيما
 شجر بينهم من خلاف ادبي لعقلها وتبصرها بالشعر ، أنكرت على الفرزدق
 حين جاءها بعد ذلك بزمن أن يفضح نفسه ويشهر بصاحبته ، مما يدل على
 خروج الشاعر عن السنن المألوف في الغزل والمحاورة ، وضج أهل المدينة
 الى مروان غضابا أن يقال هذا الشعر بين أزواج رسول الله ، وطلبوا
 اخراج الفرزدق ، وأندر مروان الشاعر أن يغادر المدينة بعد ثلاث وقال
 له : « ألم أنك عن الافصاح بالخنا ، والاقرار بالفسق » ، وكان الفرزدق
 يقيم بين أظهر بني عامر بن لؤي ، فبعث مروان اليه فاتترعه منهم ، وأزعجه
 عن المدينة بعد ثلاث . ويزعم زاعمون ان مروان قد حقد على الفرزدق
 مبالغته في مدح سعيد بن العاص ، وتفضيله على سائر بني أمية ، واضطغنها
 في نفسه . ويروي الفرزدق نفسه أن الذي أثار مروان عليه دخوله دار
 ابن صياد ، وهو رجل يزعم أهل المدينة أنه الدجال ، فليس يكلمه أحد ،
 ولا يجالسه أحد . قال الفرزدق : ولم أكن عرفت أمره ، فارسل اليّ
 مروان فقال : أتدري ما مثلك ، حديث تحدث به العرب : ان ضبعا مرت

بحيِّ قوم قد رحلوا ، فوجدت مرآة ، فنظرت وجهها فيها ، فلما نظرت قبح وجهها ألقتها ، وقالت : من شرِّ ما طرحك أهلك • ولكن من شر ما طرحك أميرك ، فلا تقيمن بالمدينة بعد ثلاثة أيام^(١) • وقد فسح مخرجه صاغرا من المدينة وقصيدته ، لخصمه جرير بعد ذلك ، أن يعيره فيكثر تعييره^(٢) •

وخرج الفرزدق الى مكة ، حمامة تلوذ بالحرم لتأمن ، واشتد به الخوف أن تناله يد زياد ، أو تصل اليه بأذى • انه يتخوفه في خير أوقات أمنه ، وترتعد لخوفه فرائصه ، ولم يقو أن يغالب هذه المشاعر • انه يتجلد للنازلة التي ألت به ، متحديا من ظن به الضعف « وما جرب الاقوام مني أناثة » وييدي التجمل والصبر ، ولكنه لا يلبث أن يذكر وعيد زياد ، فاذا هو خائف لا يحس أمنا ، قد تكمشت أحشاؤه :

أتاني وعيدٌ من زياد فلم أنم وسيلٌ اللوى دوني فهضبُ التهائم
فتُكاني مشعرٌ خيريةٌ سرت في عظامي ، أو دماء الاراقم

ويتصاغر لزياد ويستعطفه ، مدعيا أنه يؤثر المواعدة والسلام ويؤمل الامن :

فدعني أكن ، ما كنتُ حياً ، حمامةً من القاطنات البيت غير الروائم

ولم يطل بالفرزدق مقامه في مكة ، فقد هلك زياد في شهر رمضان سنة ٥٣ هـ فأمن الخائف ورأى أن يعود الى البصرة ، « فما رمت حتى

(١) ديوان الفرزدق : ٢٥٥ ، ٤٨٢ ، ٥٧٩ ، الاغاني ١٦ : ١٦١ ، ٢٠ ، ٢٥٧ ، ٢١ : ٣٣٥ ، ٣٤٦ ، ٣٦١ ، ٤٠٦ ، ٢٣ : ٥٤٧ ، صحيح البخاري ٢ : ١١٧ ، ٤ : ٧٨ ، ٨٥ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤٢ ، ٤٣ ، الموشح : ١١٣ ، ١٦٦ - ١٧٠ ، البيان والتبيين ١ : ٣١٥ ، العقد الفريد ٥ : ٣٩٧ ، الكشكول ١ : ٣٦٦ ، أخبار القضاة ١ : ١١٨ ، طبقات ابن سلام : ٢٨٧
(٢) ديوان جرير : ٢٧١ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠

مات من كنت خائفا» • وهكذا قضى الفرزدق سنوات الخوف في الحجاز، لم يجرؤ أن يغادره ، وكان في منفاه قد ملأت قلبه رهبة زياد ، فهو يذكره ذكر الخائف المستعطف ، متمسحا بحرمة البيت ، ولم يقو أن يتعرض له بما يشتم منه ريح الهجو ، فلما بلغه موته استطار فرحا ، ورأى أن عناية الله قد شملته برحمتها ، وأنزلت بخصمه الموت •

كيف تراني قالبا مجني
أضرب أمري ظهره للبطن
قد قتل الله زيادا عني

ألم يأن للحمامة أن تطير ، وللمبعد أن يعود ؟ انه يتغنى والفرحة ملء جوانحه ، والشماتة تنضح من وجهه :

أبلغ زيادا إذا لاقيت جيفته أن الحمامة قد طارت من الحرم

ويسمع مسكينا الدارمي يرثي زيادا فيرد عليه :

أمسكين* ، أبكى الله عينك ، انما جرى في ضلالٍ دمعها فتحدرًا
رثيتَ امرأ من أهل ميسان كافرا ككسرى على عدائه أو كقيصرا

ثم يبلغ ذروة تشفيه :

أقول له لما أتاني نعيه : «به لا بطبي في الصريمة أعفرا»

وهو يشهر ببخله وامساكه ، « ما كان يشبع طائرته » (١) •

حادثة الفرار من زياد ، والاحتفاء بالحجاز تركت أبعد الآثار في نفس

(١) ديوان الفرزدق : ٦٥ ، ٢٤٥ ، ٤١٣ ، ٧٧٢ ، ٧٧٦ ، ٨٨١ ، الطبري ٤ : ٢١٤ ، طبقات ابن سلام : ٢٥٩ - ٢٦٠ ، لسان العرب (قتل ، ظهر ، جنن) الاغاني ٢١ : ٣٦٧ ، ٣٧٦ ، أنساب الاشراف ٤ : ٧٩٢ - ٧٩٣ ، ٥ : ٨١٥ - ٨١٧ ، النقائض : ٦٢١

الفرزدق ، لم ينسها حياته كلها ، كان يذكرها ليضرب بها المثل فيما يعرض له . أخافه الحارث القباع فهرب ، ثم عجز الحارث ، وأدل عليه بقدرته على تعجيز زياد :

وقبلك ما أعيت كاسر عينه زيادا ، فلم تقدر علي حباله

ومدح عبيد الله بن أبي بكرة ، فأظهر له حزمه وتيقظه :

أبا حاتم ، قد كان عمك رامني زياد ، فألفاني امرأ غير نائم

وأثنى على بكر بن وائل حماته « هم منعوني اذ زياد يكيدني » ، ونجا من يزيد بن عمر بن هبيرة وأبيه فقال يستعطف يزيد بن عبد الملك :

فقلت : أليس الله قبلكما الذي كفاني زيادا ذا العري والشكائم
سبقت الى مروان حتى أتيته بساقي ، سعيًا ، من حذار الجرائم
وأعاد القول يذكر فضل بني أمية :

هم منعوني من زياد وغيره بأيد طوال أمنت كل خائف

وقبض عليه خالد القسري ، أيام هشام ، وكان آمنا لا يتوقع القبض عليه ، فقال يثبت براءته :

ولو كنت أخشى خالدًا أن يروعي لطرت بواف ريشه غير جادف
كما طرت عن مصري زياد ، وانه لتصرف لي أنيأ به بالمتالف^(١)

وما ندري كيف راح الفرزدق بعد ، يذكر أن حاميه ومجيره مروان بن الحكم ، ويستشفع الى الخلفاء الامويين ، مذكرا اياهم فضل مروان عليه ، فهو يخاطب هشام بن عبد الملك ، ويستشفعه :

(١) النقائص : ٦٠٧ ، أنساب الاشراف ٤ : ٧٩٣ ، ديوان الفرزدق :

٥٣٧ ، ٥٤٥ ، ٧٥٦ ، ٨١٦ ، ٨٢٨

ألم يكفني مروان لما أتيتنه تفارا ، وردّ النفس بين الشراسف
ولست بناس فضل مروان ما دعت حمامة ايك في الحمام الهواتف

ثم عاد فادعى جوار مروان مرة ثانية في قصيدة يتشفع بها الى هشام :
ألم تذكروا يا آل مروان نعمةً لمروان عندي مثلها يحقن الدما(١)
ولئن خلفت حادثة زياد أثرها في نفس الفرزدق ، إن اقامته في الحجاز
وفي المدينة خاصة ، قد أتاحت له أن يتعرف الى لون من الحياة جديد ،
وأن يعود أغنى نفسا وأخصب خيالاً . وقد دلت قبل على أشياء ظهرت
في شعره ، ولكن ما دلت عليه يبدو نورا اذا قيس بما يظفر به شاعر في
ربيع العمر ، ونضارة الشباب ، ظمى الى المعرفة ، ذو موهبة فذة ، أقام
في هذه البيئة ، فحببت اليه الاقامة ، فإذا هو بعد كثير التردد اليها ،
يؤثرها برحلاته . وقد كثرت الاخبار التي تصلح أن تكون شواهد لصلاته
بالمدينة ومكة ، وما يمكن أن ينجم عنها من ثمرات . انه ينتهز كل فرصة
تتيح له أن يأتي الحجاز ، فهو يقصده للحج تارة ، وللقاء الاشراف الاجواد
تارة ، وقد يجمعهما معا :

تريد مع الحج ابن ليلي ، كلاهما لصاحبه خير" ترجى فواضله

فيقابل الاشراف والعلماء والشعراء ، يلقاهم في المسجد الجامع ، وفي
الدور والمجالس ، يتناشدون الاشعار ويتذكرون الاخبار ويتفقون في
الدين ، وقد لقي الفرزدق في المدينة في قدمته الاولى أو بعدها بقليل ،
أبا هريرة (ت ٥٩ هـ) فنصح له أن يتوب ، وروى الفرزدق عنه . وقد
ذكروا خبر التقائه بعمر بن أبي ربيعة والأحوص وكثير ونصيب وعروة بن
أذينة ، وأمثال لهم كانت مجالسهم خير ما يظفر به شاعر ، ولم يكن بد
لهذه البيئة الادبية ، من أن تفعل فعلها في نفس شاعر عظيم ، أقبل عليها

(١) ديوان الفرزدق : ٥٣٥ ، ٧٥٠ .

بحب ، واستمتع فأطال الاستماع • وإذا ضمنا الى ذلك مجالس الغناء التي كان يحضرها الشاعر مع أصدقائه وخلائه ، وفيهم الشاعر ، والرواية ، والناقد الذواقة ، يستمتعون بالأصوات والالحان ، وكان الغناء في الحجاز، وفي المدينة خاصة ، يشق طريقه بخطا فسيحة ، على حين كانت البصرة فقيرة فيه أشد الفقر ، لم يكن لنا أن نغفل عما تتركه هذه المجالس في أنغام الشاعر ، وموسيقى شعره^(١) .

وعاد الطريد الى البصرة ، ولعله في طريق عودته مر بالمطلب المخزومي ، وكان جوادا ممدحا ، فمدحه بقصيدته :

تقولُ ابنةُ الغوثيِّ : « مالك ها هنا وأنت تسميُّ مع الشرق جانبه^(٢) »

وجاء عبيد الله بن زياد والياً على البصرة (٥٥ - ٦٤ هـ) ، وهي فترة لا تبدو فيها صورة الشاعر جلية بينة القسما ، بل يكاد الصمت يلفها فيخفيها ، فقد قلّت أخبار الشاعر وبخلت علينا كتب الرواية والاعخبار فلم تزودنا من أنبائه بما يهيم لنا سبيل معرفة أمره • ولعل أبرز ما ذكرته هو لقاء الفرزدق الحسين بن عليّ ، فقد أقبل الفرزدق الى مكة يحج بأمه ، سنة ٦٠ هـ ، فلقبي الحسين في الصفاح - موضع بين حنين وأنصاب الحرم - يريد العراق ، فواقفه فقال له : أعطاك الله سؤلك ، وأملك فيما تحب • فقال له الحسين : بين لنا نبأ الناس خلفك ، فقال له الفرزدق : « من

(١) الاغاني ١ : ١٤٩ ، ٣٢٦ ، ٨ : ٩٦ ، ١٥ : ١٣٥ ، ١٦ : ١٦١ ، ١٧٠ ، ٢١ : ١١٥ ، ٣٢٧ ، ٤١٧ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤٤ ، ٧٩ - ٨١ ، طبقات ابن سعد ٥ : ١١٩ - ١٢٠ ، غرر الخصائص : ٢٤٥ ، ثمرات الاوراق ٢ : ٧٦ ، ديوان الفرزدق : ٦٣٠ ، المعارف : ٣٧ - ٣٨ ، وفي كتاب : الشعر الغنائي في الامصار الاسلامية ، بجزاياه ، في المدينة ومكة ، تصوير لحركة الغناء الناهضة في الحجاز ، وأثرها في الشعر والشعراء .

(٢) ديوان الفرزدق : ٩٢ ، نسب قريش للمصعب : ٣٣٨ - ٣٤٠ ، شرح شواهد المغني : ٢٩٩ ، المحبر : ١٥٣

الخبير سألت ، قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء» (١) . ولم تهدنا دراسة الديوان الى تبين طائفة كبيرة من قصائد هذه الفترة ، كانت حرية أن تضيء لنا طريق حياته ، ونستشف منها دخيلة نفسه . ذلك بأن الفرزدق كان يعنى بتصوير كل ما يحوطه ، قد انغمس في أحداث العصر ، وعدّ نفسه لسان القبيلة المناجح عنها ، فهو يحكي في شعره الوقائع والاحداث ، ويتصدى للدفاع عن مواقف قومه متعصبا لهم ، أو ينتصب حكما يريد أن يفض ما ينشب بين أبناء قبيلته من نزاع وأن يصلح ما فسد . وكان الفرزدق يبالغ في تصوير كل ذلك حتى جعل من شعره سجلا لوقائع عصره ، ويبدو أن شعرا كثيرا من شعر هذه الفترة قد ضاع ، فليس في ديوانه الا مقطوعة وتنفة في مديح ابن زياد ، يفضله في الاولى على مروان ويراه خيرا منه أبا وعرفا فهو أولى بالقصد ، ويذكر في الثانية النوق التي أقبلت ترجو نواله ، ويبدو للناظر ، منذ أول وهلة ، أن الايات في المقطوعة والتنفة من قصيدة واحدة تبذرت ، ولم ترو منها الحافظة الا هذه الايات الخمسة التي وزعت على مقطوعة وتنفة (٢) . وفي الديوان قصيدة ومقطوعة جيدتان في مديح عبد الرحمن بن أم الحكم ، والي الكوفة لمعاوية (سنة ٥٨ هـ) ، وابن اخته ، وقد احتفل الفرزدق لقصيدته ، واستوفى لها عناصر الجمال الفني . ولكن القصيدة تفصح الى ذلك ، عن الكبرياء تملأ نفس الشاعر والترفع يشمخ به . انه ليس المداح يبغى المال ، ولكنه الكريم يصفي بمدحته الكرام :

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٦٨ ، ٤ : ٣٨٤ ، البيان والتبيين ٢ : ١٨٩ ، أنساب الاشراف ٣ : ٦٨ - ٦٩ ، الاغاني ٢١ : ٣٨٤ ، ٤١٦ ، الطبري ٤ : ٢٩٠ ، معجم البلدان (الصفاح) ، الأخبار الطوال : ٢٤٥ .

(٢) ديوان الفرزدق : ١٨٦ ، ١٩٩ ، الاغاني ٢١ : ٣٦٢ ، معجم البلدان

(قسى) .

وما ساقها من حاجةٍ أجمعتُ بها اليك ، ولا من قلة في مجاشع^(١)

فإذا قسنا ما جهلنا من أمور حياته بما عرفنا ، أيقنًا أن الفرزدق قد شغل نفسه بما يتصل بقبيلته من أمور ، يفرض ذلك عليه مكاتته في بيته ، وطبعه الذي بني عليه ، ولعل من شعر هذه الفترة ما قاله في يوم كنهل ، يوم قتل هبيرة بن ضمضم المجاشعي - وكان على شرط عبيد الله ابن زياد - القباع بن عوف^(٢) . ويبدو أن الفرزدق أرادها فترة هدنة واسترواح ، بعد المحن التي مرت به ، والتي عدها الفرزدق أقسى ما مر به في حياته ، فكان يقول بعد ، وهو يذكر أيام محنته ، والشدائد التي أفلت منها : « نجوت من ثلاثة أشياء لا أخاف بعدها شيئاً : نجوت من زياد حين طلبني ، ونجوت من ابني ربيعة ، وقد نذرا دمي ، وما فاتهما أحد طلباه قط ، ونجوت من مهاجرة مسكين الدارمي ، لأنه لو هجانني اضطرني أن أهدم شطر حسبي وفخري ، لأنه من بجوحة نسبي ، وأشرف عشيرتي ، فكان جرير حينئذ ينتصف مني بيدي ولساني »^(٣) .

وقامت فتنة سنة ٦٤ هـ في البصرة ، وقوي ساعد العصبية ، وتوزعت البصرة الى مضرية تقودها تميم ، وعلى رأسها الأحنف بن قيس ، والى اليمن وربيعة تقودها الأزدي ، وكان يوم مسعود الذي رجحت فيه كفة المضرية الموالية لابن الزبير ، ووقف الفرزدق الى جانب قومه يشيد بهم ، ويرفع من أقدارهم ، ويهزأ بخصومهم . فهو يسخر من أشيم بن شقيق ، وفراره يوم مسعود ، ويعلن بيعته عبد الله بن الحارث ، الملقب ببة : « وبية

(١) الطبري ٤ : ٢٣٣ ، ديوان الفرزدق : ٢٤٢ ، ٤٨٩ ، العقد الفريد

١ : ٣٦١ - ٣٦٢ ، أنساب الاشراف ٤ : ٧٥٢ ، العمدة ٢ : ١٢٢

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٤٩ ، وقد حرف فيه اسم القباع فصححته عن

نسخة المتحف : ٧ ، أنساب الاشراف ١١ : ٧ ، معجم الشعراء : ٤٦ ، معجم البلدان : (كنهل) .

(٣) الاغاني ٢٠ : ١٦٨ - ١٧٠ ، معجم الادباء ٤ : ٢٠٤

قد بايعته غير ناكث»^(١) ، ولم لا ؟ • ألم يكن الفرزدق لسان قوميه ومدرهمهم ، يدفع عنهم في مصر ، وقد تشابكت المصالح واضطربت الامور بين القبائل ، وشتان ما شأنه وشأن جريير المقيم بالمرشوت في اليمامة ، تأتيه أصداء الاحداث خافتة ، فلا تحفزه أن يشارك فيها • وكان الفرزدق صادقا كل الصدق حين قال في صفة نفسه :

أنا ابن تميم ، والمحامي وراءها اذا أسلم الجاني ذمار المحارم

ولذلك كانت تميم تراه أحب شعرائها اليها^(٢) •

وخضعت البصرة لابن الزبير الذي قام في مكة يدعو الناس الى بيعته ، وفي أوائل عهده مرت بالفرزدق محنة قاسية ، لم يذكرها الفرزدق بين المحن التي نالته ، ولكنها في الحق أشد محنة وأقساها ، تلك هي محنة زواجه بالنوار •

(١) الطبري ٤ : ٣٩٦ - ٤٠١ ، النقائض : ١١٢ ، ٧٢١ ، ديوان الفرزدق : ١٩٣ ، لطائف المعارف : ٣٨ - ٣٩

(٢) ديوان الفرزدق : ٨٥٧ ، النقائض : ١٠٥٠

(٤)

الفردق والنوار :

كانت النوار ابنة عم الفردق ، فهي ابنة أعين بن ضبيعة بن ناجية وهو ابن غالب بن صعصعة بن ناجية • وكان أبوها أعين من أنصار علي المدفوعين في تأييده ، المتسرعين الى نصرته • وقد قدمه علي وجعله على قبائل عمرو وحنظلة ، من تميم البصرة ، ولقي مصرعه حين أرسله علي الى البصرة أيام الهدنة والحكدين ، ليسكن فتنة ابن الحضرمي ، فاغتاله خصومه^(١) • وكانت النوار زوج رجل من مجاشع ، ولدت له ابنين ثم مات عنها ، فخطبها رجل من قومها ، فبعثت الى الفردق : انك أولى قومي بي ، فتولت تزويجي ، فقال : نعم • واستغل الفردق ثققتها به ، فقام في الحفل ، وقد بيئت أمرا آخر ، فزوجها نفسه ، وتقرت نوار وأبت منه هذا الغدر ، ولجأت الى عبد الله بن الزبير بمكة ، فاستجارت بامرأته ، وطاردها الفردق ، فتبعها الى مكة ، وهجا من أعانها وحملها ، وعاذ بحمزة بن

(١) أنساب الاشراف ٢ : ٦٠٤ - ٦٠٩ ، ١١ : ٩٢ ، النقاظ : ١٢٥ -
١٢٦ ، ديوان الفردق : ٦٠٣ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٣٤٦ - ٣٤٨ ،
الاستيعاب ١ : ٥٤

عبد الله بن الزبير ، ومدحه ليكون سنده عند أبيه^(١) . ويتنمر الفرزدق
ويصمم على الظفر بنوار ، مهددا كل من يساعدها ، ومؤكدا أنه لن
يتخلى عنها ، وانها لن تكون لغيره ما أمسكت كفه سيفه :

فان امرأ يسعى يخبّب زوجتي كساع الى أسد الشرى يستبيلها
فاني كما قالت نوار ، ان اجتلت على رجل ، ما سد كفي خليلها

ويكشف لنا هذا القول عن قوة التشبث ، وعن روح العناد والاصرار ،
لذلك لم يستمع الى ابن الزبير حين قال له : « ما حاجتك بها وقد كرهتك ،
كن لها أكره ، وخلّ سبيلها » ، بل راح يتهمه ويتمتم : « ما أمرني بطلاقها
الا ليثب عليها »^(٢) ، ولما تلكأ ابن الزبير في فض الخصومة ، ولم يقض
له ، أرسل فيه بيته اللذين ذهباً مثلاً سائراً في الناس :

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم وشفّعت بنت منظور بن زبّانا
ليس الشفيح الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيح الذي يأتيك عرياناً^(٣)

وخضعت نوار يأسسة ، بعد أن علقت منه بحبل محكم العقد ،
واصلحها ورضيت به ، وعاد الفرزدق نشيطاً أرنا ، يعلن غير مخافت وقد
ملأته الفرحة : « خرجنا متباغضين ، ورجعنا متحابين ، وخرجت حائلاً ،
ورجعت حاملاً »^(٤) . ويحار المرء في تعليل ما أقدم عليه الفرزدق . انه
في الخامسة والاربعين من العمر ، قد عرف النساء وخبرهن : حرائر وقيانا ،

(١) النقائص : ٨٠٣ ، انساب الاشراف ٦ : ١٠٣٢ - ١٠٣٣ ، ١١ ،
٥٦ - ٥٩ ، الاغانى ٣ : ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ٩ ، ٣١٨ - ٣٢٦ ، ٢١ : ٣١١ -
٣٢٠ ، ديوان الفرزدق : ٣٠٨ ، ٣٣٩ ، ٥٧٠ ، ٦٠٣ ،
(٢) الاغانى ٩ : ٣٢٩ ، طبقات ابن سلام : ٢٨٢ ،
(٣) ديوان الفرزدق : ٨٧٣ ، الفاخر : ٢٥٠ ، انساب الاشراف ٦ :
١٠٣٣ ، الاغانى ٩ : ٣٢٧ ، طبقات ابن سلام : ٢٨١ - ٢٨٢ ،
(٤) انساب الاشراف ٦ : ١٠٣٣ ، ١١ ، ٦٣ : ١١ ، الاغانى ٩ : ٣٢٧ ،
ديوان الفرزدق : ١٥٣

وهو كريم النفس سليل المجد ، لا يدفع ولا يجهل قدره ، فما باله يلجأ الى هذه الحيلة ، ويصطنع هذه الخدعة ، ليظفر بالنوار زوجا له ، ويأبى أن يستمع لنصح ، أو يأتف لاستشارة ؟ بل هو لا يعترف بما أقدم عليه ويعجب ، وقد نافرتة النوار الى ابن الزبير أن تسخط وتنفر ، ويتهمها بالغدر ويتساءل في مرارة : كيف تسخط منه ما رضيت به الأزواج قبلها • ويحاول المرء أن يجد في حياة الفرزدق الاولى تفسيراً لما حدث ، فلا يقع في الديوان على ما يأخذ بيده ، فنحن لا نعرف متى تزوج الفرزدق زواجه الاول ، ولا عدد الأزواج اللائي رضين به قبل النوار ، وما صفاتهن • انه يذكر في شعر قاله في أثناء فراره من زياد وكان في الثلاثين من عمره ، أنه أتى عزيزة الدهلية يسعى مع ابن له ، ولكننا نجعل عمر هذا الابن يسعى مع أبيه ، بل نجعل كل أمره ، أيكون من أبناء زوجته مفداة ، تلك الزوج التي أحبها الشاعر ، فبادلته حباً بحب ، وراح يتغنى بجمالها ، معتزاً بما تكنه له من حب :

فما روضة وسمية رجبية خلت ، وتحامت الرماح تحاميا
بأطيب نشرا من مفداة موهنا اذا ما أرادت للضجيع تعاطيا

ويبدو أنه كان ناعم البال راضي النفس ، يأوي من مفداة الى ظل ظليل ، وعيشة طيبة • ولما التوت عليه نوار ، ونفرت ، هاجته ذكرى مفداة ، تلك الزوج الودود العطوف ، الكريمة في نفسها وقومها ، والتي اغتالنها يد المنون ، فامتلاً قلبه أسى رقيقاً وحناناً ، وتمثل أيامها الاولى الصافية ، لا يشوبها كدر ، فدعا لها ، وأكد أنه لا ينساها ، وأنسى له أن ينسى ، وفي تفحات الصبا وريح الخزامى ما يذكره بطيب ريحها .

ومنسوبة الأجداد غير لئيمة شفت لي فؤادي، واشتفى بي غليلها
فلا زال يسقي ما مفداة نحوّه أهاضيب : مستن الصبا ومسيلها

فما فارقتنا رغبة عن جماعنا ولكنما غالت مفداة غولتها
تذكرني أرواحها نفحة الصبا وريح الخزامى : طكثها وبليتها

أم يكون ابنه الساعي معه من أبناء سويده ، تلك الزوج التي كانت
تكثر من عتابه فكان يشمخ عليها ويتعالى ، ويذكرها أن نساء كثيرات
يرغبن فيه ، ويتمنين أن يحللن محلها ، ثم يمن عليها أنه لا يسكها عنده
الا بنوها الذين يحبهم ويؤثرهم بمودته :

ولولا أئينوها الذين أحبهم لقد أنكرت مني عنود الجنائب
ولكنهم ريحان قلبي ورحمة من الله أعطاها مليك العواقب

ولو صحت الرواية التي روت بها نسخة سترسبرغ مطلع أولى
النقائض بينه وبين جرير ، لكان لنا أن نجزم أن سويده بقيت بجانب
الفرزدق حتى شهدت قصة النوار ، ونشوب معركة النقائض (١) .

لا يُعجز الباحث أن يجد من الاسباب ما يسوغ به موقف النوار (٢) ،
ففي خلق الفرزدق ومسلكه وخداعه ، ما يدفع النوار - وكانت مسلمة
تألفه - أن تشمئز منه وتنفر ، ومن الحق ان النوار كانت تندد بأخلاقه ،
وتنعتة بنعوت شتى ، دفعته أن يتحداها :

فاني كما قالت نوار ، إن اجتلت على رجل ما سد كفي خليلها
ولكن المعجز موقف الفرزدق المتعالي المتكبر المزهو ، الذي بلغ به

(١) ديوان الفرزدق : ٢٨ ، ٣٢ ، ٦٠٥ ، ٨٩١ ، النقائض : ١٢٧

(٢) يرى الدكتور محمد كامل حسين (متنوعات ٢ : ٩٩ - ١٠٧) أن
نفور النوار يرجع الى قصور جنسي عرف به الفرزدق ، ولم يأت في التذليل
بما يقنع ، بل أن شعر جرير في هجائه ينصب في هذه الفترة على التشهير
بخلقه الفاجر ، الذي نددت به النوار .

التيه ألا يذكر ولعه بامرأة الا أعقبه بذكر ولعها به وتعلقها بجهه ، بل كان يتمادى في تيهه فيصف نفسه بالجمال « وأبصرت ، فتى دارميا كالهلال يروقها » وهو ما هو ، قصرا ودمامة وجه ، ولكنه الاعتداد بالنفس يرفده اعتزاز بماض مجيد زين له أنه مرغوب فيه ومطلوب • أفيكون هذا التعالي والشموخ سبب ما انتهى اليه الفرزدق من الاصرار حين ردتة النوار ، فقد رأى في رفضها ما جرح كرامته ، وثلم شرفه ، ؟ ان مسلكه بعد لا يوحى بهذا ، ولعل الاقرب الى الحق أن نرى في فرحته حين ظفر بها ، فرح المحب العاشق ، لا فرح الغالب المنتصر • ويزيد من صعوبة القطع بشيء ان الفرزدق الذي عرف عنه أنه يفضح سرّه ، ويعلن ما يخفيه غيره ، كان ينوء باخفاء أشياء ثقيلة ، لا يبوح بسرّها ، ولعل فيها مفتاح المغلق من خفايا نفسه :

وحاجةٍ لا يراها النَّاسُ أَكْتَمَهَا بين الجوانح لو يثرُمى بها الجبلُ
لظل يحسب أن الارض قد حملت قُتْرِيه لما علا عَرْضِيَّه الثقلُ^(١)

بدا للفرزدق أن يبذل سيرته بعد زواجه ، وان يقلع عن حياة السباب والفحش لينهج طريقا لا عوج فيه ولا أمت ، فيرضي زوجته ويستجيب لنزعة الخير فيه ، فحج بالنوار (أواخر سنة ٦٥ هـ) ، ويقال انه مر بجريير في ذهابه ، وتنبأ بما يؤول اليه أمرهما ، ولما عاد الى البصرة أعلن توبته ، وقيد نفسه :

وما صب رجلي في حديد مجاشع مع القدر الا حاجة لي أريدها
وحلف ألا ينفك قيده حتى يجمع القرآن ، وهو ما كان يحيك في صدره منذ مقالة عليّ لأبيه ، وكان يرى في ذلك طاعة تقربه الى ربه ، وتغسل عنه حوبته وآثامه :

(١) ديوان الفرزدق : ٦٠٥ ، ٦٨٩ ، طبقات ابن سلام : ٢٨٢

لعمرى لئن قيـدت نفسي لظالما سعيتُ وأوضعت المطية للجهل
ثلاثين عاما ، ما أرى من عمايـبة اذا برقت الا شددتُ لها رحلي^(١)

وهذا اللون من القيد يأخذ الناس به أنفسهم ، أو يأخذهم به أولياؤهم ليوفوا
بنذر أو يقوموا بأمر ، مألوف في هذا العصر . فقد ذكروا أن ابن عباس قيد
عكرمة على تعليم القرآن والسنن والفرائض^(٢) وقد نعى جرير على
الفرزدق قيده ، حين نشب بينهما الهجاء ، وجعله مرآة ، وكذبا فقال :

وهو يرأى الناس حجلا مغلقا

وقال :

يصلصل الحجـل بغير الايمان

وكذلك قال له البعـيث :

لعمرى لقد ألهى الفرزدق قيـده ودرج نوار ذو الدهان وذو الغسل^(٣)
وكان البعـيث صادقا في تصوير فرحة الفرزدق بالنوار ، التي طغت
عليه ، وشغلته عن أشياء كثيرة . وأخذت النوار تحل في مطالع قصائده ،
يتغنى بها ويحدو باسمها الركب ليدفع عنهم النعاس ، ويذهب بذكرها
خدر أعضائه ، فعل العشاق المتيمن ، ويحن إليها اذا نأى ، ويطرقة خيالها
في الصحراء البعيدة ، الموغلة في البعد ، « حيث تقيل عـنقر الأبدِ » ، فيشـم
نفحات شذاها العطر ، وتتبدل صحراؤه الى جنة :

فكأنما نزلت بنا عطارة برياض ملتف حدائقه ندى^(٤)

(١) النقائض : ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٦٥ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤١ ،
٢٣٦ ، أمالي المرتضى ١ : ٦٣ ، شرح نهج البلاغة ٢ : ٥١١ ، اصلاح
المنطق : ١٠٩

(٢) صحيح البخاري ٣ : ١٦١ ، طبقات ابن سعد ٥ : ٢١٢ ، تهذيب

التهذيب ٧ : ٢٦٨

(٣) ديوان جرير : ٤٠٣ ، ٥٩١ ، النقائض : ١٣٧

(٤) ديوان الفرزدق : ١٦٢ ، ٣٢٤ ، ٤٤٠ ، ٥٨٩ ، ٦٨٥

ولكن الامور لا تستقيم للفرزدق كما يشاء ، فقد كان صاحب شراب
وكان فاجرا صاحب فسوق لا يصبر عن النساء ، ويدعي ان الغلطة تؤذيه ،
وكان لا يتورع عن المجاهرة بالزنا ، والاصرار ألا يتركه « أما الزناء فاني
لست تاركه » وقد أوقعته النوار مرة في شرك ، فما كان منه الا أن قال
لها : « ما أطيبك حراما ، وأردأك حلالا » • كان لا يتحرج ولا يتأثم ،
يظهر فسقه ويعلمه ، ويتحدث بفحشه في أشعاره ، ولا يستحي أن يخاطب
المرأة ببذيء القول ، حتى عد ممن يتعهر ولا يبقي على نفسه ولا يتستر ،
بل عدّ أقول أهل الاسلام في هذا الفن • وقد ذكرت (ص : ١٣٦)
عجب سكينه من أمره حين جاءها زائرا في المدينة وقالت له : « أما
استحييت من الفحش تظهره في شعرك ، ألا سترت عليك وعليها » ولم
تدر سكينه أن الفرزدق يسعى وراء الفضيحة وينشدها ، انها سجية من
سجايها التي فطر عليها ، والتي دفعته أن يخلق القصص الماجنة ليرضي
طبعه ، ويلبي هذه الرغبة الماجنة التي تموج بين جوانحه • وكانت احدي
الشغرات التي نفذ منها خصمه جرير :

لم يثلق أخبثُ يا فرزدقُ منكم ليلاً ، وأخبث بالنهار نهارا
ما زلتَ عند بنات أعنقَ جاحرا رجسا ، لكل خبيثة زوّاراً

أما النوار فكانت امرأة سالحة حسنة الدين ، وكانت تكره كثيرا من
أمره ، فهي لا تزال تشارّه وتخالفه ، ترضى عنه حيناً لتخاصمه أحيانا ،
وكانت تقرعه وتذكره أنه تزوجها خدعة وتطالبه بطلاقها^(١) • ويحار
الفرزدق في أمرها ، كيف تخاصمه وقد تزوجها وآثرها بحبه ، ومنحها

(١) ديوان الفرزدق : ٨٧٤ ، الاغاني ٩ : ٣٣١ ، ٢١ : ٣١٤ ، ٣٨٥ ،
٣٨٧ - ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤٢ - ٤٣ ، الموشح :
١١٣ ، ١٦٦ - ١٦٧ ، طبقات ابن سلام : ٣٤ - ٣٦ ، ٢٨٢ ، ديوان جرير :
٣٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٩

من ذات نفسه ما لم يمنحه امرأة ، وقطع من أجلها كل علائقه ، وهي ما تنفك تناله بسوء : تبكر عليه تنتف لحيته ، وتلومه تحت ليلتها لاندفاعه في الغواية والجهل ، فتكثر الملامة والعتاب وتتجنى عليه ، فاذا جرب أن يؤدبها فضرها لسنته وشتمته وعيرته ، وبلغ من كرهها اياه أن فضلت عليه جريرا في الحرب الناشبة بينهما فقالت له : « شاركك في مره وغلبك في حلوه » • ويدرك الفرزدق ما ناله وما حل به من هذه العنيدة لا تسلس له قيادها ولا تلبى رغباته وتعصي أمره ، لقد أذلت النوار كبرياءه وشانت عرضه وملأت بالهموم قلبه ، حتى أصابه الهزال ونزل الشيب برأسه قبل الأوان ، انها قرين السوء يهدث الجسم ، ويفلّ العزم ، ويفعل في المرء فعل الليل والنهار في اسراع البلى ، وتقريب الاجل ، وهو يتمنى أن بيت ما بينه وبينها ليحفظ لنفسه كرامتها ولوجهه ماءه ولكنه لا يستطيع ، وهل يقوى الانسان أن يتخلى عن حياته وأحلامه ؟ انه ليذكر جمال اللحظات التي ينعم بظلالها ، حين تكون غريرة راضية ، فتمتلىء نفسه رضا وجورا ، وانه ليحس لذع الشوق حين يبعد عنها ، فهو يترقب اللقاء ملهوف القلب • انها الحيرة الكبرى ، والعذاب المقيم لا فكاك منه ، والته في صحراء لن يهندي سالكها • وها هو ذا يصور حاله ، وما لاقى في شرفه وعزته وما بلغه من ذلة على يدها ، تصويرا يملأ النفس شجا وأسى ، لصدقه :

لعمري لقد رققنتي قبل رقتي وأشعلت فيّ الشيب قبل زماني
وأمضحت عرضي في الحياة وشتته وأوقدت لي نارا بكل مكان
فلولا عقايل الفؤاد الذي به لقد خرجت ثنتان تزدحمان
ولكن نسيلا لا يزال يشلني اليك كأني معلق برهان

سواء قرين السوء في سرع البسلى على المرء ، والعصران يختلفان (١)
وأراد الفرزدق أن يتغلب على النوار التي كانت تشارشه وتضاراه ،
وأن يعيظها ويذلها لتغدو طيعة منقادة ، تستجيب لرغباته وتقبل برضا
نزواته ، ولكنه لم يسلك الى ذلك الطريق الصحيح ، فقد تجاهل سبب تنكر
النوار ، وأراد أن يثبت لها أنه كفاء لأن يصهر لأكرم بيوت العرب ، فخطب
في عهد الحجاج ، حدراء بنت زيق الشيبانية ، من بيت ذي الجدين ،
تزوجها على مائة من الابل ، فراحت النوار تهزأ به ، وتقيّل رأيه ، وتقول
له : « ويلك ، تزوجت أعرايبة سوداء مهزولة حمشة الساقين ، على مائة
بعير » ، وهو نقد حري أن تقوله امرأة ، يعنيها المنظر والشارة والهيئة
الحسنة ، ولكن الفرزدق رد عليها كما يرد الرجال ، فهو سليل المجد ،
يتطلع الى الشرف ، فلا يرى مناصا أن يفضلها عليها ، لانها ابنة بسطام بن
قيس بن ذي الجدين ، في بيت الشرف من شيبان ، ثم يغمز النوار التي
كانت أمها أمة :

لجارية" بين السليل عروقتها وبين أبي الصهباء من آل خالد
أحق باغلاء المهور من التي ربت وهي تنزو في حجور الولايد

وكأنه يريد أن يتشفى منها ، فيكرر القول ويبدى فيه ويعيد •
واستثيرت نوار ولجأت الى جرير تحفزه أن يهجو الفرزدق ويخزيه لينتقم
لها • واستجاب جرير ، وغدت حدراء محور ست نقائص وعدة قصائد ،
تقارضها جرير والفرزدق ، وكان الفرزدق يشمخ على جرير بأنه لا يجرؤ
أن يخطب الى شيبان ، وشاء القدر أن تموت حدراء قبل أن يبني بها
الفرزدق ، وأسبي الشاعر لما أصابه ، واعتزته الحيرة أمام القضاء المغلق ،

(١) ديوان الفرزدق : ٨٩ ، ١٩٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ - ٤٦٧ ، ٤٨٦ ، ٥٢٣ ،
٦٦٦ ، ٨١٢ ، ٨٧٠ ، الاغاني ٢١ : ٣٢١ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤٦ ، ٦٣ ،
اللسان والتاج (مضح) .

وعجب لنفسه : يسرع السير حتى ظلمت ابله وكلت وهو يمضي النفس أن يلقاها وتجمعه الدار بها ولو درى الغيب وكشف له ما خفي عليه ، لما حدا بركابه ، ولعاد الى بيته ، ينعم بقليا امرأته اللتين خلفهما وراءه بين قف واجرع ، وهما جميلتان ، فيهما للعنين والقلب مقنع ، وهما شريفتان ، تلاقياه في النسب . واذا كانت نوار احدى المرأتين فمن الثانية التي تنتمي الى عقال من مجاشع ، وتشارك الفرزدق في نسبه ؟ انه لم يكشف لنا من أمرها شيئا . أتكون عرسه سويدة التي سبق خبرها ، أم هي امرأة أخرى (١) ؟ أما جرير فاهتبلها فرصة ، وراح ينعي على الفرزدق ، خيبة أمله ، فقد ادعى أنها جمحت عليه ، وأبت أن ترضاه لها بعلا :

فأقسم ما ماتت ، ولكنما التوى بحدراء قوم لم يروك لها أهلا (٢)

وكان الفرزدق قد تزوج جارية سوداء زنجية ، اسمها وقعة ، ومدحها فهجته النوار منددة به وقالت له : ريحها مثل ريحك ، فولدت له ابنته مكية التي كان يودها ويؤثرها بالمحبة ، وكان اذا حمس الشريين وبين النوار اكنتى بها ، وبلغ من حبه اياها ان كان لا يصدقهم اذا شكوا اليه شراستها وسوء خلقها (٣) .

ولكن الامور لم تمض مع النوار هينة ، ولم يتعظ الفرزدق بل أعاد الكرة ، وتزوج مضادة للنوار ، رهيمة بنت غنيم بن درهم ، امرأة من

(١) النقائض : ٨٠٣ - ٨٣٦ ، الاغاني ٩ : ٣٣١ - ٣٣٦ ، ٢١ : ٣٢١ - ٣٢٤ ، ٣٢٩ - ٣٤١ ، طبقات ابن سلام : ٣٣٣ - ٣٣٧ ، ديوان جرير : ٢٠٢ ، ٢٧٣ ، ٣٥٧ ، ٤١٩ ، ديوان الفرزدق : ١٨١ ، ٤١٥ ، ٥٥١

(٢) ديوان جرير : ٤٢٠ ، طبقات ابن سلام : ٣٣٧

(٣) ديوان الفرزدق : ٣٢ ، ١٤٣ ، ٤٨٠ ، ٦٤٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨٥ ، النقائض : ١٠٥٠ - ١٠٥١ ، الاغاني ٢١ : ٣٤٥ ، أنساب الاشراف ١١ : ٧٢ - ٧٠

اليرابيع ، وهم بطن من النمر بن قاسط ، حلفاء لبني الحارث بن عباد .
ولما استخفت بها النوار وقالت له : هل تزوجتها الا هداية ؟ أخذ يشيد
بنسبها ومكاتها ، ممعنا في اغاظة النوار ، ومبينا أنها ستكون السبب في
استقامتها :

أراك نجومَ الليل، والشمس حية^١ زحامُ بنات الحارث بن عباد .
عدلت بها ميل النوار ، فأصبحت مقاربة لي بعد طول بعاد
وهيء للفرزدق أنه وجد الحل ، وتعنى بالفرحة التي تملكته ، والفتنة
التي استهوته ، وانتقل الى دارها ، ودافع عنها وعن أهلها :

لقد حولتني عن تميم ، وبدلت رهيمة داري وسط بكر بن وائل
وكانت فرصة سانحة أخرى أن يقول جرير ، يشنع على الفرزدق
وينقض عليه ويسخر منه ومن زوجه وأصهاره ، ويستشهد عليه بأقوال
النوار زوجه :

أنت نوار على الفرزدق خزية^٢ صدقت وما كذبت عليك نوار
ولم تطل بالفرزدق فرحته ، فما لبثت النمرية أن كرهته ونشزت به ،
واستجابت لأمها التي كانت تثيرها عليه ، وكانت له مثل الشوكة في القدم ،
فطلقها وأنشأ في هجوها أبياتا يعارض بها أبيات مدحه الاولى^(١) ثم
تزوج الفرزدق جارية من بني نهشل ، فحملت منه ، ثم ماتت بجمع ،
فراثها وبكى ولده منها^(٢) . وأخفق الفرزدق فيما أمل ، ولم تعنه الايام

(١) النقائض : ٥٩٥ ، الاغاني ٩ : ٣٤٢ - ٣٤٣ ، ٢١ : ٣١٤ - ٣١٥ ،

٣٤١ ، أنساب الاشراف ١١ : ٧٠ ، ديوان الفرزدق : ١٠٦ ، ١٥٩ ، ٢١١ ،

٦٩٢ ، ٨٢١ ، ديوان جرير : ١٣٢ ، ٢٠٧ ، ٣٧٨ - ٣٧٩

(٢) الاغاني ٢١ : ٣٤٢ ، النقائض : ١٠٤٢ - ١٠٤٣ ، أنساب الاشراف

١١ : ٧٢ - ٧٣ ، ديوان الفرزدق : ٨٩٤

في التقريب بينه وبين النوار ، ذلك بأنه لم يقع على العلة التي بغضته إليها ، انها فيه : في خلقه ومسلكه ، لا يستطيع لها تبديلا • وجاءته النوار بأولاده : لبطة ، وسبطة ، وخبطة ، وركضة ، كما أنها فقدت ابنين لها منه ، كان حزنها عليهما بالغاً^(١) • ولكن ذلك كله لم يقلل الكراهة في قلبها فلم تنزل تندد به وتشمئز منه وتقول له : « ويحك ، أنت تعلم أنك انما تزوجت بي ضغطة ، وعلى خدعة » ثم لا تزال في كل ليلة ، حتى حلف يمين موثقة ثم حنث ، وتجنبت فراشه خشية أن يقيم معها على حرام ، وعادت اليه ترققه وتستعطفه حتى أجابها الى طلاقها ، وأخذ عليها الا تفارقه ولا تمنعه من مالها ما كانت تبذله له ، وأخذت عليه أن يشهد الحسن البصري ، فقيه البصرة ، على طلاقها • وأقدم الفرزدق على طلاقها بعد تمنع ، وأشهد الحسن ، ولعل ذلك كان في أواخر خلافة يزيد بن عبد الملك ، أو أوائل خلافة هشام ، وقد جاوز الفرزدق الثمانين ، ولكنه لم يلبث أن ندم على طلاقها ، وقال أبياته :

ندمت ندامة الكسبي لما	غدت مني مطلقةً نوارٌ
وكانت جنتي فخرجت منها	كآدم حين أخرجه الضرار
وكنتُ كفاقيء عينيهِ عمدا	فأصبح ما يضيء له النهار
ولا يوفي بحب نوار عندي	ولا كلني بها الا اتحار
ولو رضيت يداي بها وقرت	لكان لها على القدر الخيار
وما فارقتها شبعاً ولكن	رأيت الدهر يأخذ ما يعار ^(٢)

(١) جمهرة ابن حزم : ٢١٩ ، معجم الشعراء : ٢٥٤ ، أنساب الإشراف ١١ : ٣٨ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ديوان الفرزدق : ٢٧٠ ، ٧٦٤ ، ٨٨٥ ، وفي أسماء أبناء الفرزدق اختلاف ، انظر التاج (حبط ، كلط ، لبط) .

(٢) ديوان الفرزدق : ٣٦٣ ، الاغاني ٢١ : ٣١٤ - ٣١٦ ، الكامل للمبرد : ٧٠ - ٧١ ، أنساب الإشراف ١١ : ٥٩ ، ٧٣ - ٧٤ ، اللسان والتاج : (كسع) .

وهي آيات تنبئ عن اللفظة التي تملك هذا الشيخ الفاني ، وعمما كان يعتلج بقلبه من حب ، لم تزده الايام وسوء العشرة والمخاصمة الا توقدا .

تلك هي قصة الفرزدق والنوار ، وقد تركت في نفس الشاعر أبعد الآثار ، ولونت نظرتة الى المرأة ، ولم تتح له أن ينعم بالبيت الهاديء المريح ، ولا أن يرى في المرأة الشريك الذي يزيد الحياة بهجة ، ويساعد في التغلب على صعابها . أما جرير فقد رأى في قصة النوار موضوع سخرية وتندر ، فراح يصب عليه سيل التهم ، وينعته شر النعوت ، مستغلا نفور النوار منه وكرهها اياه (١) .

وأقبل الفرزدق الشيخ يدب الى بيت الهثاثة المجاشعي ، وكان قد دلف الى التسعين ، فخطب طيبة بنت دلم بن الهثاثة ، وحل اسمها في مطالع قصائده محل النوار :

وطيبة دائي ، والشفاء لقاؤها وهل أنا مدعوٌ لنفسي طبيئها

وكان جدها الهثاثة من أكثر بني مجاشع مالا ، فأشطوا عليه في مهرها ، ولم يكن صداقها عنده ، فتركها عند أمها بالبادية سنة ، وكتب الى أبان بن الوليد البجلي ، وهو عامل على فارس لخالد بن عبد الله القسري يسأله ، ويرجيه ، فأرضاه أبان ، وساق عنه مهرها :

وما أرجو لطيفة غير ربي وغير ابن الوليد بما أعانا
أعان بهجمة أرضت أباهما وكانت عنده غلقا رهانا

وطار الفرزدق فرحا بعد أن طال انتظاره ، ومضى بامرأته تملؤه اللفظة ، ألم يسترد وديعته بعد أن استودعها أمها ، « فهذا زمان رد فيه الودائع » .

(١) ديوان جرير : ٢٩ ، ٢٠٧ ، ٢٣١

كان يستعجل الزمن ، فهو يريد أن يبادر بها شوالا ، الذي تتطير العرب
من عقد المناكح فيه ، ليحظى :

بمائة الحجلين ، لو أن ميتا وان كان في الاكفان تحت النصاب
دعته لالقي الترب عنه اتفاضه ولو كان تحت الراسيات الرواسب

وأقام بكاطمة : نحر وأطعم ، وكأنما يعلن فرحته ، أو كأنما يحلم
بالشباب الضائع ، هي لهفة العجوز الشيخ ، يمني النفس ، وقد ظفر ، أن
يأوي الى بيت يفيء عليه ظلال الراحة ، ويلقى فيه دفئا يعوضه من قر
الشيخوخة الذي يسري في جسده ، ولكنها اللهفة الضائعة ، كان الفرزدق
قد أسن وكبر ، وبهظ منكبیه عبء التسعين ، وكان الفرزدق قد أسرف
على نفسه في شبابه ، وأضاع قوة رجولته أيام فسقه ، فوقعت مأساته ،
عجز عنها حين ابنتى بها ، وكاد يغدو سخرية الساخرين • خاصته أمها
الى المهاجر بن عبد الله الكلابي والي هشام على اليمامة ، واغتنمها جرير
فرصة يحط فيها من شأن خصمه ، كان قد شهر به حين تزوج ، وادعى
أن أبا المرأة قد ندم ، اذ تبين أن الفرزدق « قين يشين بشركه الأصهارا » ،
ونصح لطيبة أن تسأل نوار عن جهل زوجها الخبيث ، فلما وقعت الواقعة
أقبل يتندر به : « شيخ يعلل عرسه بالباطل » ولكن الفرزدق لم يطأطىء
له رأسه ، بل خاشنه في الرد وأقذع • وخشي المهاجر لسانه فقال : « لو
أتتني بالملائكة لقضيت للفرزدق عليها » فلم تمكث معه الا يسيرا حتى
نشزت (١) .

(١) ديوان الفرزدق : ٧٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٧٢ ، ٣٤٧ ، ٤٢٢ ، ٤٨٢ ،
٥٠٦ ، ٦٥١ ، ٨١١ ، ٨٧٧ ، أياصوفيا : ١٨٥ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، الأغانى ٢١ :
٣٤٣ - ٣٤٥ ، النقائض : ١٠٤٤ - ١٠٤٥ ، أنساب الأشراف ١١ : ٧٤ - ٧٦ ،
١٠٨ ، ديوان جرير : ٢٣١ ، ٤٢١

(٥)

مع الولاية والخلفاء :

وإذا كان عهد ابن الزبير في البصرة (٦٤ - ٧١ هـ) قد شهد في مطالعة قصة الفرزدق والنوار ، التي تدهدى فيها الفرزدق ، فقد شهدت مطالعه أيضا قيام المناقضة بينه وبين جرير ، ذلك بأن معركة عنيفة نشبت بين جرير والبعيث المجاشعي ، وقد استطال فيها جرير وعلا خصمه ، ونال قومه بني مجاشع بشرًا ما ينالون ، وفزعت نساء مجاشع الى الفرزدق ، يستصرخنه أن يرد عنهن عادية هذا الشر ، ويستثنن نخوته وحفيظته ، ولم يقو الفرزدق الا أن يستجيب ويلبي النداء « فهو الضامن الراعي على قومه ، يدافع عن أحسابهم » ففض قيده ، وبدأ تلك الحرب الضروس ، التي استعر أوارها بينه وبين جرير ثمانيا واربعين سنة (٦٦ - ١١٤ هـ) حتى أطفأها الموت (١) .

وكانت تميم البصرة زبيرية الهوى ، تقاتل عن ابن الزبير وتدعو له وتشد سلطانه ، حمته من جيوش الشام يوم أقبلت تريد المدينة بقيادة حبيش بن دلجة القيني ، فسارعت تميم وقاتلتها دونه وهزمتها ، ووقفت الى جانبه في البصرة يوم الجفرة (سنة ٧٠ هـ) . وكان الفرزدق لسان قبيلته ، يميل أثنى مالت ، فدافع عن مواقف قومه كلها ، وندد بالمخالفين عليهم ، وهجا أصحاب الجفرة الذين تنكروا لمصعب ابن الحواري ،

(١) النقائص : ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٨١ ، انساب الاشراف ١١ : ٤١ ،

وعجب لأقوام من تميم ينضمون الى الازد وربيعة ، وينسون قومهم
وولاءهم لأميرهم ، وراح يؤكد مرة أخرى بيعته ، وبيعة قومه لابن
الزبير^(١) .

وينتصر عبد الملك بن مروان ، ويجيء خالد بن عبد الله بن خالد بن
أسيد الأموي واليا على البصرة (٧١ - ٧٣ هـ) . ولا ندري لم غرّبي به
الفرزدق ، ينال منه ومن أسرته ، هجا أخويه عبد العزيز وأمّية ، وكانا قد
فرا أمام الخوارج ، وتهكم بخالد ، وغيرهم أمهم السوداء . وغضب
خالد ، وطلب الفرزدق فاستخفى ، وظل متواريا « منطمرا لا يظهر » ، حتى
عزل خالد عن البصرة ، ولم يعد له سلطان عليه ، فراح الفرزدق يتبجح
معتزا بقومه من تميم ، مفاخرا أنهم حموه حين طلبه زياد والقباع أميرا
البصرة قبل خالد :

أتوعدني والمالكان كلاهما ورائي ، وسعد^(٢) والحلول الكراكر
هم منعوني من زياد ، وقد رأى زياد مكاني ، وهو للناس قاهر
ومن مصعب ، حيث القباع لحنقه علي^(٣) ، ولما استطعني ، زماجر
وهو فخر يدل على ما قامت به تميم من اخفائه ومواراته وحمائته أن
يقع بين يدي الامير ، لا أنها تصدت للسلطان وجاهرت بحماية الشاعر ،
بل ان الفرزدق نفسه في مديحه عبيد الله بن أبي بكر (ت ٨٠ هـ) ،
وكان قاضي البصرة أيام خالد ، يذكر أنه أنقذه من مخالب الامير :

تداركني من خالد بعدما التقت على جثتي أنيابه ومخالبه^(٢)

(١) ديوان الفرزدق : ٦٠٠ ، الطبري ٥ : ٣ - ٤ ، النقائص : ٧٥١ ،
نسب قريش للمصعب : ١٨٩ ، أنساب الاشراف (ط) ٢/٤ : ١٥٥ - ١٦٣ ،
٥ : ١٥٠ ، ١١ : ١٣٦ ، معجم البلدان : (الجفرة) .
(٢) ديوان الفرزدق : ٥٨ ، ١٧٢ ، ٣٨٦ ، ٥٨٦ ، ٧٧٦ ، (أياصوفيا) :
١١٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، (هل) : ١٠٧ - ١٠٨ ، أنساب الاشراف (خ) ٧ :
١٩٨ ، ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، (ط) ١ : ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٢/٤ : ١٦٤ - ١٦٨ ،
٥ : ١٦٨ ، الطبري ٥ : ١٣ ، ٣٤ ، أخبار القضاة ١ : ٣٠٢ .

وضُمت البصرة (سنة ٧٣ هـ) الى بشر بن مروان والي الكوفة ، وكان بشر من فتيان قريش سخاء ونجدة ، ومن ذوي الآداب وأصحاب الاخبار ورواية الاشعار ، والانساب ، وكان لين الولاية ، سهل الحجاب ، طلق الوجه ، ممدحا ، يحب الشعر ويكرم الشعراء . فما لبثت الكوفة أن غدت في ولايته منتجع الشعراء ومرادهم ، يظيفون بأمرها ، ويخصونه بأجمل أماديحهم . وغدت مجالسه منتدى أدبيا ، تسع فيه أحاديث العرب وأخبارهم ، ومطارحات الشعراء ومعارضاتهم ومناقضاتهم . وقد أعجب الفرزدق بالأمير العربي ، يهتز للندى ويرتاح للبذل ، وهو في الذروة من قريش ، أشرف العرب ، فاحتفل له ومدحه ، وتختلف الروايات في قصد الفرزدق الأمير في الكوفة ، أو لقائه في البصرة . ولعل من أجمل أماديح الفرزدق له رأيته المشهورة :

يا عجبا للعذارى يوم معقلة غيرني تحت ظل السدرة الكبرى

كان الفرزدق قد جاوز الخمسين من عمره ، فلا غرو أن يستفتح قصيده بذكر الكبر ، وبكاء الشباب ، ثم مضى يصف بطولة بشر ونخوته وأريحيته وغيائه الناس :

يا بشر ، إنك سيفُ الله صيل به على العدو ، وغيثُ ينبت الشجرا

ويتأق الفرزدق في مدحته تأثقا تحس معه هذا التبديل الذي طرأ على نفس الفرزدق ، فتبعه تبديل في فنه . انه يبدأ عهد المدح حقا ، ويتوفر على فنه توفرا ما عهدناه له ، يريد أن يرضي ممدوحه ، ويبلغ من نفسه خير مبلغ . واذا كان للسن أثرها في هذا التحول فان الحب والفرح اللذين تسلكا قلبه دفعا به أن يبضي في هذا الطريق خطوات فساحا ، واذا هو متأن متمهل ، يبضي في أناة وصبر ، يختار ألفاظه الموحية ، وينتقي تشابيهه

وصوره ، ويفيض في الصفة متلبثا على مهل ، كأنما يخشى أن يقصر عن الغرض ، أو أن يفوته نعت من النعوت • فبشر في شجاعته :

كمخدرٍ من ليوث الغيلِ ذي لبد ضِرْغامة يحطم الهاماتِ والقَصرا
تري الاسودَ له خرسا ضراغمها يسجدن من فَرَاقٍ منه اذا زأرا
وبشر في سخائه :

ولا الفراتُ اذا آذَيْته زخرا ما النيلُ يضرب بالعبرين دارئه
يلقي على سورها الزيتونَ والعشرا يعلو أعاليَ عاناتٍ بملتطم
لو يستطيع الى برية عبرا ترى الصراريِّ ، والامواجُ تلطمه ،
بواسقات ترى في مائها كدرا اذا علتة ظلال الموج واعتركت
ولو أعانها الزابي اذا انحدرأ بمستطيع ندى بشر عبابئهما

وكانت الصورة الثانية صورة أثيرة لدى الفرزدق ، كررها في شعره ، ولما سمع يونس بن حبيب قوله في بشر :

تغدو الرياح فتمسي وهي فاترة وأنت ذو نائل يسي وما فترا

قال : « كان والله الفرزدق من مداحي العرب » •

كان بشر بن مروان يغري بين الشعراء يستشيرهم ويستمع الي مناقضاتهم ، فاشتد تناوش الشعراء وتخاصمهم ، يتناشدون بين يدي الامير الاديب الذوافة السخي قصائدهم ، وهو يحرس بينهم في فرح وغبطة • وفي مجلسه فضل سراقه البارقيّ الفرزدق على جرير ، فقامت المناقضة بينه وبين جرير ، وفي مجلسه حكم الاخطل أن الفرزدق أشعر العرب ، ودخل حرب النقائص محلبا للفرزدق ومعينا له ، فقال فيه جرير :
تعرضتَ من دون الفرزدق محلبا فما كنت منصورا ولا عالي الكعب

وارتفعت منزلة الفرزدق لدى الأمير الفتى ، كان اذا حمل حمالة أداها بشر عنه ، واذا سأل حاجة قضيت له في نفسه ومن شفع له ، ويدخل دار بشر فيدعو بشهوته من الطعام فيؤتى بها حتى قيل : انه نادى بشرا • ولكن الفرحة لم تطل فقد غالت بشرا منيته ، وافته في عنفوان شبابه سنة ٧٥ هـ ، وحزن الفرزدق على أميره أشد الحزن ، وعقر على قبره فرسه ، فعل العرب الجاهليين ، وأبنته راثياً بقصيدة ، ما بقي أحد سمعها الا بكى :

أعينيَّ إلاَّ تسعداني المكما فما بعد بشر من عزاء ولا صبر

ويبدو أن معركة الهجاء بينه وبين جرير كانت مستعرة الأوار ، ذلك بأن الفرزدق لم ينس أن يعرض بخصمه في هذا الموقف الحزين :

نمته الروابي من قريش ولم يكن له ذات قربى في كليب ولا صهر^(١)

وجاء الحجاج بن يوسف الثقفي العراق والياً (٧٥ - ٩٥ هـ) ف قضى على الفتن والثورات وشدّد على المخالفين ليوطد سلطان بني أمية ، وقمع المريب والعصاة ليعيد الامن الى أرض العراق ، واشتد في ذلك شدة بالغة بعثت الهيبة في النفوس فلاذت بالسكينة وأوت الى الطاعة ، وانظفأت نيران الفتن بعد تأجج وذاق العراق طعم الهدوء بعد أن طال أرقه في مراقد الضلال •

وهاب الفرزدق الحجاج هيبة شديدة امتلأت نفسه لها خوفاً ، فأسرع اليه يمدحه ويشيد به ، وتترأى في أماديحه أوصاف أفرد بها الحجاج ،

(١) الطبري : ٥ : ١٦ ، ٣٤ ، ٤٠ ، طبقات ابن سلام : ٣٧٧ ، ٤٠٨ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٧٨ ، تاريخ الاسلام ٣ : ١٤١ - ١٤٢ ، أنساب الاشراف (ط) ٥ : ١٦٧ - ١٨٠ ، نقائض جرير والاخلط : ١٩٧ ، ديوان الفرزدق : ٢٦٨ ، ٢٨٦ ، شرح الشافية ٤ : ٣٢٨ ، الاغاني ٨ : ١٧ - ١٩ ، ٦٨ - ٦٩ ، النقائض : ٤٩٤ - ٤٩٩ ، ٨٧٩ - ٩٠٥ ، ديوان جرير : ٦٠ ، التعازي : ١١١ ، طبقات النحويين واللغويين : ٢٣٥ ، ٢٣٦

يلح عليها ويؤكدها ويفتن في ابراز صورها ، فهو يذكر بسطة سلطانه وقوته ، وماله من مهابة تبعث الرعب في النفوس ، ويعنى بتعداد الصور التي تؤكد معناه وتثبته ، فاذا طلع الحجاج على الناس أطفقوا هيبة وأسكت منهم كل ناطق ، وطارت القلوب ، فعدوا بين شرق بالريق ، أو ملقبق يهذي ، واذا أوعد أحداً أو همَّ بذلك أسقطت مخافته الأجنة من بطون أمهاتها ، وعاش من نجا من تهديده في رعب مقيم طوال حياته ، فان يكن لمحبا أن ينصح لمن يوده فمثل نصيحة النوار لزوجها ، تقولها وعيناها تفيضان :

تنح عن الحجاج ، ان زحامه شديد اذا أغضى على من يزاحمه
ومن يأمن الحجاج ؟ والجن تتقي عقوبته ، الا ضعيف عزائممه

ويذكر الفرزدق قمع الحجاج الفتن التي أثارها أعداؤه ، وأعداء الدين من جند ابليس ، وقضائه على العصاة والمريين، ونشره الأمن في المصر والبادية ، ضرب بسيف الله من عصى ، ضربة حازم شفت النفوس من دائها وتضعضع لها جند ابليس ، وضرع المنافق واستكان . وقد جلسى الفرزدق في هذا المضمار حتى بدت بعض أماديحه ملحمة هجاء ، نال بها الثائرين بشواظ من نار لسانه ، كالقصيدة الشهيرة التي هجا بها ابن الاشعث ، ومن شايعه في فتنه :

لبئت هدايا القافلين أتيم بها أهلكم يا شر جيشين عنصرا
ندد فيها بالثائرين وعددهم معايبهم ، وأطال في وصف مخازيبهم ، حتى إن الحجاج وهو يبكت الثائرين أقامه مع الخطباء الى جانبه ، وكان يهيب به أن ينشدهم ما قاله فيهم من هجو ومعاينة . ويذكر الفرزدق نزاهة الحجاج وعفة يده وابطاله الرشوة التي كانت وسيلة الناس الى عمال السلطان ، حتى بسط العدل ظلالة يتفيؤه الناس :

وكنّا بأرض يا ابن يوسف لم يكن
يرون اذا الخصمان جاء اليهم
وما تبتغى الحاجات عندك بالرشا
ويالي بها ما يرتشي كل عامل
أحقّهما بالحق أهل الجعائل
ولا تفتضى الا بما في الرسائل

وأنت ترى أن هذه الصور التي صور بها الفرزدق الحجاج صادقة كل الصدق ، توافق ما نقله المؤرخون والرواة من أخبار الحجاج وصفاته .
انها الوجه المشرق لوالي العراق يجلوه الشاعر للناظرين ، وانها محاسنه ينشرها^(١)، أما الصورة الكاملة فستتراءى يوم يجلو الشاعر الوجه الثاني بعد وفاة الحجاج .

كان الفرزدق يجهد جهده ليكون أقرب الى نفس الحجاج ، انه خائف يتوجس ان تبدر منه غلطة ، أو يقع في زلة ، فهو يقدر لرجله قبل الخطو موقعها ، خشية أن يقع فيما وقع فيه أيام زياد . ان الذكرى ما زالت تؤرقه وتضنيه ، والحجاج قادر بطاش لا يرحم ، فمضى يلوذ به يتخاضع ويتخاشع ، يبالي في المدح وينافس الشعراء في التقرب . ولعله كان ينافس جريرا الذي أطل بمدح الحجاج حتى عرف به ، ومدح قومه قيسا ودافع عنهم ، بل هو يعارضه في بعض أماديحه فاذا قال جرير في مديح الحجاج :

سئمت من المواصلة العتابا وأمسى الشيب قد ورث الشبابا

قال الفرزدق :

رأيت نوار قد جعلت تجنّى وتكثر لي الملامة والعتابا

واذا قال جرير :

شعفت بعهد ذكرته المنازل وكدت تناسى الحلم والشيب شامل

قال الفرزدق :

اذا أوعد الحجاج أو همّ أسقطت مخافته ما في بطون الحوامل

(١) انظر كلمة عبد الوهاب الثقفي في الحجاج (معجم البلدان - واسط).

ثم يظهر الفرزدق تخوفه وخشيته ويعلن طاعته ، وما أكثر الصور التي لجأ إليها الفرزدق ليعلن عن مشاعره ، فبسطه سلطان الحجاج عليه لا حد لها ، بلغت الصين وامتدت الى ما وراء هجر :

ولو اني بصين استان أهلي وقد أغلقت من هجرين بابا
عليّ ، رأيت يا ابن أبي عقيـل ورائي منك أظفارا ونابا

ولو جاءه الموت ليأخذه ، والموت يكره ، لكان من الحجاج أهون روعة • وأين المفر من سلطان الحجاج :

وان لو ركبـتُ الريحَ ثم طلبتني لكنت كشيء أدركته مقادره
وكثرت مدائح الفرزدق للحجاج ، وقد أرضاه بصوره القوية العنيفة التي كان الحجاج يؤثر أن يصور بها ، وقدر للفرزدق أن يصور الحجاج بأسلوبه القوي وصوره العنيفة التي تتراءى منها نفس الحجاج ترائيها من معانيه ، انها المزاجية الفنية بين المعنى وصورته ، وقد أدرك الحجاج تفوق الفرزدق في أماديجه فقال : ما أشعر الفرزدق في قوله لي :

لا يألف البخل ، ان النفس بأسلة والرأي مجتمع ، والجود منتشر
ولما مات أخو الحجاج وابنه ، وقد ماتا في جمعة واحدة (٩١ هـ) ، رثاهما رثاء خفف من لوعة الحجاج وحزنه وأبكاه حتى نشج • ومات الحجاج (٩٥ هـ) فرثاه بعد موته طمعا وخوفا ، فذكر الرزية التي نالت الناس بفقده فقد مات الذي يرعى على الناس دينهم وعلى الفقراء مالهم ويبطش بالمفسدين ويسد الخروم ويضرب رؤوس المخالفين (١) •

(١) ديوان الفرزدق : ٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣١٣ ، ٣٦٥ ، ٤٣٥ ، ٤٩٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٩ ، ٥٩٣ ، ٦٩٤ ، ٧٦٣ ، الطبري ٥ : ١٨١ ، أنساب الاشراف : ٧ ، ١١٠ ، ١١ : ٦٢ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٢ : ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ديوان جرير : ١٦ ، ٤٣٩ ، العقد الفريد ٥ : ٤٧ - ٤٨ ، خزانة الادب ٣ : ٤١٢ ، ٤١٤ ، وفيات الاعيان ١ : ٣٤٨ ، وصين استان ، معنى استان : الموضع أو الناحية .

ويبدو أن الفرزدق لم يندفع في مديح الحجاج لرهبته فحسب ، بل كانت الرغبة تحدوه وتدفعه ، فقد كان الحجاج ، على عتوه ، جوادا طلق اليدين يطعم على ألف خوان كل يوم ، ولم يترك حين مات ثروة ولا مالا ، مما لم يكن مألوفا في الولاة والامراء ، وقد أكرم الفرزدق ووهب له ما وهب ، وأعطاه مهر حدراء مائة ناقة^(١) .

واتصل الفرزدق بولاية الحجاج على البصرة ، كان الحكم بن أيوب الثقفي أول من استعمله الحجاج على البصرة (٧٥ - ٨٧ هـ) ، وهو ابن عمه وزوج اخته ، وكان قاسيا عنيفا نكل بالعصاة وأخاف المفسدين وعظم شأن السلطان وعاقب من تجرأ عليه حتى لا يجسر على خلافه أحد ، وتبدو هذه الرهبة في مديح الفرزدق ، فالخوف يترقق في أثناء المدحة :

ما تنه عنه فإني لست قاربه وما نهى من حلِيم مثل تجريب

ويبلغ به الأمر أن يخشى الشكل يصيب بناته ، فقد نشزت بنفسه مخاوف لم تترك فؤادا ولا عقلا . وهذا التصوير بليغ الدلالة على خلق الحكم وسجايا نفسه^(٢) .

واتصل الفرزدق بالجراح بن عبد الله الحكمي الذي ولي البصرة بعد الحكم (٨٧ - ٩٦ هـ) ، وكان من صلحاء الامراء ومجاهديهم ، فمدحه وشكا اليه ما يلقاه من عسف ابراهيم بن عربي^٣ وكان على اليمامة ، وأنه لولا ثقته بعدله وطمعه في الدفع عنه لقصدت ركابه الإمام أمير المؤمنين ، واستجاب الجراح^٤ وأزاح الظلم عن كاهل الفرزدق ، ووضع عنه غرم العصاة وأكرمه ، وظل الشاعر وفيها لهذا الأمير المنصف العادل الذي أحسن الولاية،

(١) الفاضل : ٣٦ - ٣٧ ، النفاض : ٨١٩ ، الاغاني ٩ : ٣٣٥ - ٣٣٦ ،
٢١ : ٣٣٩ ، طبقات ابن سلام : ٣٣٣

(٢) ديوان الفرزدق : ٢٧ ، ٦٨٤ ، انساب الاشراف ١٢ : ٣٥٦ - ٣٥٧

ورعى أهل البصرة ، محبا له ، لم ينسه يوم قتلته الخزر أيام هشام (سنة ١١٢ هـ) بل خلده بقصيدتين جميلتين^(١) .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز المدينة (٨٦ - ٩٣ هـ) ، قصد اليه الفرزدق فيمن قصده من الشعراء ، ومدحه وهو في المدينة ، ومدحه وهو في مكة ، ورثى أباه الكريم الفياض (توفي عبد العزيز سنة ٨٥ هـ) ، وأكد أن عمر وفاء بأخلاق أبيه ، أعاد الله به على قريش أيام جده مروان :

وما اعيد لهم حتى آتيتهم أيام مروان اذ في وحشها غر*

وذكر بؤس أهل البادية لجائحات ثلاث ما تركن مالا ، ورجا من كرم عمر ما ينعش الكربة ويجبر الخلة^(٢) . وقد بينت قبل صلة الفرزدق الوثيقة بالمدينة ومكة ، ودلت على بعض ما تركنا في نفس الشاعر وفي موهبته ، وأشارت الى ما كان يجد من الرعاية والاکرام في كنف أشرافهما وأجوادهما . فقد ذكروا ما كان يحبوه به طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري المدني القاضي (٢٥ - ٩٧ هـ) وكان سخيا جوادا ، مدحه الفرزدق في احدى قدماته الى المدينة فأعطاه ألف دينار ، فجعل أشراف قريش في المدينة يتكلفون ما أعطاه طلحة وقالوا : أتعب طلحة الناس . ودخل الفرزدق المدينة سنة ٩٧ هـ فوافق فيها موت طلحة فقال : يا أهل المدينة ، أتمم أذل قوم لله غلبكم الموت على طلحة حتى أخذه من بينكم . وتحدث الرواة بما كان يلقي الفرزدق عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠ هـ) وعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان (ت ٩٦ هـ) في المدينة ، من البر والاکرام ، بل كانت تأتيه صلات سكيئة بنت الحسين حين يزورها ،

(١) الطبري ٥ : ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٤١٠ ، الكامل لابن الاثير ٤ : ١٠٨ ، ١١٦ ، أنساب الاشراف ٧ : ٣٦٧ ، تاريخ الاسلام ٤ : ٢٣٧ ، ديوان الفرزدق : ٢٢٨ ، ٥٧٣ ، ٧٨٩ ، ٨٠٦ ، (نسخة المتحف) : ٥٨ ، ٢٣٠ .
(٢) ديوان الفرزدق : ٢١٩ ، ٦٢٨ ، ديوان جرير : ١٣٤ ، خزنة الادب ١٣٠ : ٢ - ١٣٣

وكان يلقي في مكة أمثال عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي فيحبوه ويجزل له العطاء . فكان ذلك كله مما يجب الى الفرزدق الحجاز ، ويرغبه في زيارته^(١) . ولكن الفرزدق لم يتح له أن ينعم بالمدينة في هذه الزيارة كما كان ينعم بها من قبل ولم تطل به الاقامة ، فقد ذكر الرواة أن عمر تفاه عن مسجد المدينة لئلا ينشد فيه هجاءه المقذع ، ويروى رواية أنه تفاه عن المدينة كلها ، أجله ثلاثا يغادر بعدها البلد ، لأنه خالف ما أمره به من ترك المسألة في تلك السنة المجذبة ، أو لأنه هجا رجلاً من قريش هجاء أقذع فيه ، أو لأنه ذكر سكيئة بنت الحسين ، وشبب بها ، واستغل جرير الفرصة فقال فيه :

تفأك الأغر ابن عبد العزيز بحقك تنفى عن المسجد^(٢)

ولكن ، ما صلة الفرزدق بخلفاء بني أمية ؟ يذكر رواية منهم ابن الكلبي أن الفرزدق وفد على معاوية بن أبي سفيان . فإن صح ذلك ، وهو بعيد ، فإن الشاعر لم يفد مادحا . ولعله كان في وفد جاء يطالب بميراث الحتات . فنزل في ضيافة معاوية .

وظل الفرزدق بعيدا عن الخلفاء ، فلما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان ، عرض لمديحه والاشادة به ، في مدائح الحجاج بن يوسف ، والحكم ابن أيوب ، وهجاء ابن الأشعث ، بل إن في ديوانه مقطوعة يمدحه بها ،

(١) طبقات ابن سعد ٥ : ١١٩ - ١٢٠ ، ٣٤٩ ، طبقات ابن سلام : ٢٧٩ - ٢٨٠ ، الاغاني ٨ : ٩٦ ، ١٦ : ١٦١ ، ١٧١ ، ٢١ : ٣٢٧ - ٣٢٨ ، ٤٢٥ - ٤٢٦ ، ٢٣ : ٥٤٩ ، ديوان الفرزدق : ٣٦٠ ، أنساب الاشراف ١١ : ٧٩ - ٨١ ، تهذيب التهذيب ٥ : ١٩ ، ١٧٠ - ١٧١ ، ٣٣٨ - ٣٣٩ ، ٨ : ٦٢ - ٦٣ ، غرر الخصائص : ٢٤٥ ، ثمرات الاوراق ٢ : ٧٦

(٢) النقائض : ٣٩٧ ، ٧٩٨ ، أنساب الاشراف ٧ : ٤٧٧ ، ١١ : ٤٧ ، الاغاني ٢١ : ٤٢٥ - ٤٢٦ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٤٣٢ ، ديوان الفرزدق : ١٨٥ ، ٣٦٠ (هل) : ٥١ ، ديوان جرير : ١٢٨ ، ١٦١ ، نوادر المخطوطات ١ : ٦٨ ، كنيات الجرجاني : ٧٧

وهي في الحق ، اشادة بشجاعة بني مروان ، وغلبتهم عبد الله بن الزبير • ولكنه لم يفد على عبد الملك ، بل ظل بعيداً عن دمشق ، يؤثر العراق ، ويقنع بمديح ولاتته وأشرافه^(١) .

وجاء الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، فكثر مدائح الفرزدق اياه • وفي الديوان خمس قصائد من مدائحه • نادى في واحدة منها الخليفة أن يغيث مضر التي تتابعت السنون عليها ، وحل بها الجوع • ويبدو أن البادية في مطلع عهد الوليد ، قد أجذبت ، وقست على أهلها ، فنالهم شر كثير ، تحدث به الفرزدق الى عمر ، والي المدينة ، وتحدث به الى الوليد ، واختتم قصيدته بمديح الحجاج • وشكا الفرزدق في الثانية عمال القرائض وما يأخذون به الناس في البادية من عسف وظلم ، ولعلنا نتبين أن الشاعر في قصيدته كان لسان قومه من مضر البادية ، صور آلامهم وما يعانون ، فهو وافدهم وسيدهم ينطق باسمهم في مجلس الخليفة :

أغثني بكنهي في نزار ومقبلي فإني كريم المشرقين وشاعره
وذكر الفرزدق في الثالثة بناء جامع دمشق الذي احتفل الوليد له ، حتى جعله اعجوبة من أعاجيب فن البناء ، فأكثر الشعراء القول فيه ، ويبدو في القصيدة فقه الفرزدق وتعمقه أمور الدين ، حين يقول للوليد :

فهمت تحويلها عنهم ، كما فهما إذ يحكمان لهم في الحرث والغنم
داوداً والملك المهديش ، إذ حكماً أولادها ، واجتزاز الصوف بالجلم
مشيرا الى آيتي سورة الأنبياء في قصة داود وسليمان ، وراداً على ملك الروم في قصة أوردها المؤرخون • ولم تكن القصائد الخمس هي كل مدائحه • بل عرض الفرزدق لمديحه حين مدح الولاة من أمثال الجراح الحكمي • أفستطيع القول بعد ، إن الفرزدق قد وفد على الوليد ؟ إن عدة قصائد

(١) تاريخ الاسلام ٤ : ١٧٨ ، الشعر والشعراء : ٣٠٢ ، ديوان الفرزدق : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٩٦ ، نقائض جرير والاخلط : ١٥٨ ، البيان والتبيين ١ : ١٧٢

كانت تصلح للتدليل على وفادته وظفره بالعظايا والهبات ، لولا أن الفرزدق يعلن في صراحة لا تحتمل اللبس في مدحة له ، أنه لم يأت الشام ، ولم يزر خليفة قبل سليمان :

تركت بني حرب ، وكانوا أئمةً ومروان لا آتية ، والمتخيِّرا
أباك ، وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيرا أو ليؤمن أوجرا
فما كنت عن نفسي لأرحل طائعا الى الشام حتى كنت أنت المؤمرا
واختلف الرواة ، فأثبت بعضهم وفادته على الوليد ، وجزم آخرون بأنه لم يقرب مروان في خلافته ولا عبد الملك ولا الوليد ، وانه لم يأت خليفة قبل سليمان^(١) .

وفي عهد الوليد ، على الأرجح ، كانت حادثة لقاء الفرزدق زين العابدين علي بن الحسين (٣٨ - ٩٤ هـ) في مكة إبان الحج . واذا أخذنا باحدى روايات الأغاني التي تذكر أن الفرزدق حج ، وله سبعون سنة ، فقد وقع مثل هذا اللقاء نحو سنة ٩٠ هـ . وكان الذي حج بالناس في ذلك العام عمر بن عبد العزيز عامل الوليد بن عبد الملك على مكة والمدينة والطائف . وقد حج في العام نفسه هشام بن عبد الملك ، وكان فتى حدث السن لم يبلغ العشرين من عمره ، فراعه مرأى علي بن الحسين يطوف بالبيت ، والناس يفرجون له . كان علي في نحو الثانية والخسين ، تبرق أسارير وجهه ، فتجاهله هشام أمام أهل الشام ، فانتدب أبو فراس الفرزدق ليعرف الأمير المتجاهل فقال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
وأثبت الديوان أبيات الفرزدق الستة التي قالها في مديحه . ويبدو أن الرواة خلطوا بعد ذلك ، عمداً أو عن غير قصد ، بين أبيات الفرزدق

(١) ديوان الفرزدق : ٨٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ - ٢٤١ ، ٣٠٩ ، ٣٤٩ ، ٧٠٢ ، ٧٦٧ ، تاريخ الاسلام ٤ : ١٧٨ ، العقد الفريد ٢ : ٢٠٢ ، البداية والنهاية ٩ : ١٤٧ ، خزنة الادب (الهامش) ٤ : ٢٩٢ - ٢٩٤ ، مرآة الجنان ١ : ٢٤١

وأبيات أخرى لشعراء آخرين ، ثم ربطوا بين واقعة الفرزدق هذه وبين حجة مع هشام بن عبد الملك أيام خلافته سنة ١٠٦ هـ حين أمر له هشام بخمسمائة درهم ، فغضب الفرزدق وهجاه ، وبين الواقعتين زمن غير قليل . وقد نسب أبو الفرج الاصفهاني الخطأ والتخليط الى ابن عائشة التيميّ البصريّ (ت ٢٢٨ هـ) الذي روى الخبر ، ولكن العودة الى ما كتبه الكاتبون من رجال الجرح والتعديل ترجح نسبة الغلط الى محمد بن زكريا الغلابيّ البصريّ (ت ٢٩٨ هـ) الذي روى عن ابن عائشة ، فقد عرف عنه تشييعه ، وتزويره الاحاديث الكاذبة للاشادة بفضل عليّ زين العابدين خاصة . وقد عني الشيعة بالقصيدة عناية خاصة وطالت على الزمن أبياتها ، وتناقلتها كتب السنة والشيعة على السواء وأشادت بها ، ورجا أصحابها للفرزدق أن يدخل بها الجنة ، حتى أفردت بالتأليف والرواية والطبع ، وأراد مؤلفون قدماء ومحدثون أن يجعلوا من قصيدة الفرزدق دليل تشييعه ولا دليل فيها ، لان التشيع مذهب أول أركانه اعتقاد إمامة عليّ وأبنائه ، فهي حق لهم موروث لا يشركهم فيه سواهم . ولم يكن الفرزدق من هذا في شيء ، وكل ما نعرفه عنه يوحي بخلاف ذلك ، فأكثر قومه من مجاشع عثمانية ، وكثرة تميم عثمانية ، والبصرة التي عاش فيها الفرزدق عثمانية ، وأشعاره التي قالها تنطق كلها بفضل عثمان خليل النبيّ ، وتمدح برفيع مكاتته ، وتندد بالبغيّة الذين قتلوه ، وتشفي بهم أن قتلوا بكل ثنية ومدينة ، وتدافع عن حق بني أمية في الخلافة لأنهم ورثة عثمان الذي نال الخلافة عن مشورة ورضا ، وتنال ممن نازعهم هذا الحق فتشتد في النيل منه ، وتثني على ما قام به مروان وبنو أمية من اطفاء الفتن بصفين ، ومرج راهط ، ثم تشيد بهم وتعلي مكاتتهم ، وتفضلهم تفضيل الشيعة لأئمتهم ، وتجعلهم خيرة الله لعباده ، وأفضل الناس بعد رسول الله ، وأمناء الله في أرضه . بل أكاد أقول : ان الفرزدق بالغ في رفع أقدار الأمويين مبالغة لا أجدها لشاعر أموي آخر ، وأفرط في الشاء عليهم ،

وكان ، وهو يمدحهم ، يكاد يضفي عليهم صفات الانبياء والرسل الذين اختارهم الله لتبليغ رسالاته (١) .

وجاء سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) ، وكان سمح النفس ، سخي اليدين ، طيب السريرة ، أطلق السجناء ورد المسيرين ، ورجع المجرمين في البعوث ، ورفع العنت والمظالم ، وآمن الطرداء :

وكم أطلقت كفاك من قيد بائسٍ
ومن عقدة ما كان يترجى انحلالها
كثيرا من الأيدي التي قد تكتنعت فككت ، وأعناقاً عليها غلالها

وكان سليمان ، الى ذلك ، خطيباً فصيحاً ذا بيان ولسن ، يهتز للقول البليغ ، ويعجب بالشعر الجيد . واستقبله الناس مستبشرين بعهده ، وتفاءلوا به ، ودعوه مفتاح الخير ، ونعتوه بالمهدي . وهو نعت لقفه الشعراء وعلقوا به ، ورددوه في أماديحهم التي أشادوا فيها بعدله ، وحميد أخلاقه .

واتصل الفرزدق بسليمان ، وعلت منزلته عنده ، ولم يخش منافسة جرير ، الذي تورط في مجارة الوليد بن عبد الملك والحجاج ، ونظم

(١) ديوان الفرزدق : ٥١ ، ٦٤ ، ١٠١ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ، ٧٨١ ، ٧٨٥ ، ٨٢٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤٥ ، ٨٤٨ ، أنساب الاشراف ٨ : ٧٤ ، ٧٧ ، الكامل لابن الاثير ٥ : ٥٢ ، تاريخ الاسلام ٤ : ٣٨ ، شذرات الذهب ١ : ١٠٤ ، ١٤٢ ، فهرست ابن خير : ٤٠١ ، الاغانى ٤ : ٣٨٧ ، ١٥ : ٣٢٥ - ٣٢٩ ، ٢١ : ٤٠٠ - ٤٠٢ ، تهذيب التهذيب ٧ : ٤٥ - ٤٦ ، أعيان الشيعة ٢/١ : ١٢٩ ، ١٦٦ ، ١/٤ : ٢٠٤ ، ٥١ : ٦٧ - ٧٣ ، لسان الميزان ٥ : ١٦٨ - ١٦٩ ، طبقات الشافعية ١ : ١٥٣ - ١٥٥ ، تاريخ بغداد ١٠ : ٣١٤ - ٣١٨ ، وفيات الأعيان ٥ : ١٤٥ ، معجم الشعراء : ٤٦٦ - ٤٦٧ ، أخبار أبي تمام : ١٢ ، تاريخ الادب العربي ١ : ٢١١ - ٢١٤ ، حلية الاولياء ٣ : ١٣٩ ، أمالي المرتضى ١ : ٦٧ - ٦٨ ، سرح العيون : ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ميزان الاعتدال ٣ : ٥٨ - ٥٩ ، وفي الاغانى (٢١ : ٤٠٠ - ٤٠٢) خبر يحتاج الى فضل نظر ، فقد روى أبو الفرج من طريقين نبأ علي زين العابدين ليس فيهما الغلابي عن ابن عائشة ، وروى قصيدة الفرزدق ٢٠ بيتا ، وهو يناقض بذلك ما ذهب اليه في الاغانى (١٥ : ٣٢٦) ، وقد جمع أغلب الروايات البغدادي في شرح شواهد المغني ٢ : ٤٣٩ - ٤٥٠

القصاصد في تأييد عبد العزيز بن الوليد لولاية العهد ، ولولا سخاوة نفس سليمان لناله شر عظيم . وتدلل الأخبار التي روتها كتب الأدب على المكانة التي نعم بها الفرزدق في ظل سليمان ، والدالة التي كان يدل بها في أيامه . لقد أصبح شاعر الخليفة حقاً ، حلّ منه محل الاخل من عبد الملك ، أحبه أشد الحب واحتفل بمدحه وتأثق ، فاذا هو يقول فيه أجمل القصائد وأروعها وأصدقها ، وتعالى بمديحه فبلغ به الذروة ، والغاية التي لا مطمع له وراءها . وفي ديوانه سبع قصائد وثلاث مقطعات في مديح سليمان يشيد فيها بخير الناس ، ويتحدث فيها عن مآتيه ومآثره ، حديثاً تترقق فيه عاطفة الشاعر طلقة فياضة ، وتسمع فيه نبرة الصدق والثقة التي ملأت نفس الشاعر ، فردت اليه شباب الشعر . انه سليمان المهدي الذي قوّم صلب الدين وكان مائلاً ، وكشف عن الابصار كل عشاً بها ، فاهتدى به الممترون ، وانه الامام تخيره الله ، وآتاه خلافته ، مخشوشة بزمامها ، فوليها تراثاً غير معتصب ، وحمل الامانة التي عجزت عنها الارض ، فأداها بعد أن أضيعت : رفع الظلم الذي أنزله الحجاج بالناس ، وعدل كل قضاء جائر ، وحل عن البأس المسكين سلسله ، وشام السيوف ، وعمل بسنة الفاروق :

وما قام مذ قام النبي محمد
وعثمان فوق الارض راع يعادله

فأشرقت الارض بعد نحس ، وانجلى الغم والحزن ، بل ان الفرزدق لا ينسى أن يذكر مكرمة سليمان لآل المهلب ، وقد احتموا به من بأس الحجاج ، أيام خلافة أخيه ، حين فروا من السجن (سنة ٩٠ هـ) فكان ، وهو ولي العهد ، خير جار حساهم ورد عنهم ووفى لهم :

ولولا سليمان الخليفة حطقت
بهم من يد الحجاج عنقاء مغرب
انك تحس في شعره فرحة الامن ، وتطلق الامل ، وارتياح الطمأنينة التي

عمت نفوس أهل العراق ، فراح الفرزدق يتغنى عواطفهم ومشاعرهم وما تضرب به قلوبهم ، وانزاح عن شعره ذلك العبوس القاتم ، والرغبة المؤسفة التي كانت تغلفه ، حين كان يرى ما حل بقومه من بلاء لا يملك له رداً ، فيرثيهم شعراً أحر من البكاء :

لو أعلم الأيام راجعةً لنا بكيت على أهل القرى من مجاشع

ويعطف على الحجاج فيقسو عليه ، ويندد به ، معدداً مخازيه ، فيذكر غلظته ، وبطشه ومظالمه والدماء التي هراقها ، والأسرى الذين سجنهم ، ويصور تصويراً صادقاً الذلة التي أنزلها بأهل العراق عقب ثورة ابن الأشعث ، ثم يتشفي من آل الحجاج وأعوانه بما يلقونه من عذاب شديد : لقد أصبح الأحياء منهم أذلةً وفي النار موتاهم كلوحاً سبالتها وكان الفرزدق يصور في أشعاره عواطف أهل العراق وأحاسيسهم ، ويترجم عن مشاعرهم التي طال كتبها أيام الحجاج ، فأحسوا بالفرج يوم مات ، وملأتهم الفرحة ، وقدمت وفودهم على سليمان بعد ما استخلف ، فقاموا يشتمون الحجاج . فكأن الفرزدق يصدر عن هذه العاطفة العامة التي كانت تعتمل في نفوس الجماهير ، والتي أمدته بحرارة الصدق ، وقوت انفعاله ، فاستجاب لها وكان خير من صورها . ولم يستطع الناس أن يتبينوا موقف الشاعر ، وعجبوا لأمره : يمدح الحجاج حياته ، ويرثيه وقد ظن أن ابنه يثبت على عمله ، فلما قام سليمان هجاءه ، وكان رد الفرزدق أعجب رد : « انما نكون مع القوم ما كان الله معهم ، فاذا تركهم من يده تركناهم » . وهو جواب يوافق مزاج الفرزدق ، غايته افحام مخاطبه لا اقناعه ، ولو شاء أن يجد الحجة المقنعة ما أخطأته .

وثار قتيبة بن مسلم الباهلي في خراسان منتقضا على سليمان بن عبد الملك ، واتصرت تسيماً للخليفة ، يقودها وكيع بن أبي سود الغداني

اليربوعي ، وقتل قتيبة ، وبعثوا الى الشام برأسه ، وترامى الخبر الى الفرزدق وكان في المدينة « أتاني ورحلي بالمدينة وقعة » ، فاستأثرت به نشوة الفرح ، وملأه الزهو ، ومضى يحث الخطا الى الشام يبشر الناس بسليمان « ملء الارض نورا ورحمة وعدلا ، وغيث المغبرات القواتم » ويتشفى من الحجاج الجحّاد الذي طغى ، لينقضّ بضراوة من بعد على قتيبة وباهلة ، وقيس من ورائها ، فيمزق أعراضها ، ويهدم مجدها ، ويعيرها أيامها بتلك الميمية الشهيرة التي تعد من أجمل ملاحمه ونقائضه ، حتى قال فيها سلم بن قتيبة الباهلي : « يا بنيّ ارووا ما هجانا به الفرزدق ، ولا ترووا ما مدحنا به جرير » ، ويتعالى الفرزدق ، وقد ملأ الفخر برديه ، بذكر تميم ، وييجح بمفاخرها ، وقد كانت هذه الميمية بدء معركة بين الفرزدق وبين شعراء قيس ، وأبرزهم أصمّ باهلة ، وجندل بن راعي الابل ، ردوا عليه فسنعهم بشواظ من نار هجائه ، فتركهم هامدين ، لا يقوون على الحراك . وقوي احساس الفرزدق بخندق ، يضم الى مفاخره بتسيم الفخر بها ليجعل في جانبه مفخرة النبوة والخلافة :

وما كان هذا الناس حتى هداهم بنا الله الا مثل شاء البهائم
فما منهم الا يُقَادُ بأثفه الى ملكٍ من خندقٍ بالخزائم

وحج سليمان (سنة ٩٧ هـ) وحجت الشعراء معه ، وكانوا قد جاءوا لتنهنته ، وكان منهم الفرزدق وجرير ورؤبة بن العجاج ، وأكثر الفرزدق من الوقوف بالموسم ، ينشد أماديح سليمان . انه ، وهو يدلّف الى الثمانين ليرمي عن منكيه عبء السنين ، ويختال أرنا تشيطا في أبراده المفوفة المخططة ، تنوس غدירתاه ، وهو يتغنى في الجموع الحاشدة تصغي الى الشاعر الاكبر يعبر عن مشاعرها وأفراحها . استمع اليه محمد بن زياد ، وهو ينشد بسكة بالردم ، ويذكر اطلاق سليمان الاسرى ، ولما قال له

ابن زياد ، وكان في ديباس الحجاج ، : « أنا أحدهم » اهتز الفرزدق وأخذ بيده ليقول : « أيها الناس ، سلوه عما أقول ، اني والله ما كذبت قط » وكأنه بذلك يسوغ ما قاله في هجاء الحجاج وأنه لم يتجن عليه ، ولم يأت مأثما •

وعاش الفرزدق أيامه الجميلة الحلوة ، ونعم بصحبة سليمان وكثرت ملازمته اياه ، كان يقدم على سليمان اقدام الواثق المطمئن ، حتى يجاوز المألوف • استنشده سليمان وهو يرى انه سينشده مديحا له ، فاندفع الفرزدق يفخر أمامه بأبيه ، وعمامته على رأسه مثل المنسف ، يريد بها أن يبدو مهيبا ، فخم الجسم ، فخامة نفسه ، وفخامة شعره ، ومضى يتمدح بأبيه حتى أثار حفيظة سليمان ، وبلغت به الدالة أن أبي أن ينشده قائما وأبت له تسييم ، وفخر بنفسه وبقومه أمامه وفضلهم على سائر الناس • دع عنك ما كرره في شعره من أنه أول خليفة رحل اليه ، يدفعه الى ذلك حبه اياه :

فحبثك أغشاني بلادا بغيضة اليّ ، وروميا بعمان أقشرا

انتظره حتى كفاه الله المالحين ، فلما أتته الخلافة شد اليه رجال الميسر بعد أن وضعها ثلاثين حجة ، غنى وانتظارا • وكان سليمان يقبل منه تفاخره وادلاله ، ويمضي في مسامرته يحاول أن يستنزه ويستثيره • ذكر لبطة بن الفرزدق أنه دخل مع أبيه على سليمان بن عبد الملك وأنشده قصيدة أبيه اللامية وهي قصيدة من فاخر شعر الفرزدق وحرّره ولكن سليمان ابتدر الفرزدق بما لم يتوقع ، فقال له : يافرزدق ، اذا مدحتني فجدود في الشعر ، فما كان من الفرزدق الا أن لهز ابنه لبطة لهزة أقعدته ، وأنشد سليمان رائعته ومعجزة مدائح التي تجلى فيها فنه القادر :

طرقت نواراً ودون مطرقها جذب البري لنواحلٍ صُعرٍ

ولعله أدهش سليمان وهو يرسم صورة الحياة والاحياء ، ويصف عواطف الناس وآمالهم وتشوفهم ، وما كانوا يعانون من مظالم وبؤس . وقد ذلت له اللغة وألقت مقادها ، ليمضي بها في دروب لم تعهدا ، ويعبر بها عن معان جديدة لم تكن تعرفها . انه الشاعر العبقرى الذي تألف النافر ، وقيد الشارد ، وملك سر العربية ، فهو يصرفها كيف يشاء . ولما نبا السيف بيد الفرزدق حين ضرب الاسير الرومى في المدينة ، وضحك سليمان ، لم يتردد الفرزدق أن يدافع عن نفسه ، ويعرض بأحوال الخليفة من عبس ، يذكرهم بنبو السيف بيدي ورقاء العبسي ، عن رأس خالد . وقد أراد كاتب بحث الفرزدق في دائرة المعارف الاسلامية ان يستدل بهذه الحادثة على قسوة الفرزدق ولا دليل له . بل ان في اعتذار الفرزدق ما يثبت كرم نفسه ، وترفعه ، وايثاره العفو والمغفرة :

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم اذا أثقل الاعناق حمل المغارم^(١)

وبينا كان الفرزدق في معسكر سليمان بأريحا ، فجع بابن أخيه محمد ابن الاخطل وكان يوده ويؤثره بسحبته، فقال فيه رائعة من روائع رثائه^(٢) .

(١) ديوان الفرزدق : ١٧ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٤٠ ، ٣٢٤ ، ٣٦١ ، ٤١٥ ، ٤٩١ ، ٦١٨ ، ٦٣٥ ، ٦٥٤ ، ٧٩٩ ، ٨٠٣ ، ٨١٦ ، ٨٢٢ ، ٨٥١ ، شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٢٧ ، ٤٧٨ ، ٤ : ٤٨ - ٤٩ ، الطبري ٥ : ٢٣٠ - ٢٣٥ ، الموشح : ١٢٠ ، الفاضل : ٣٣ ، ديوان جرير : ٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، معجم الشعراء : ٣٣٨ ، النقائض : ٣٤٢ ، ٣٥١ - ٣٥٢ ، ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ٥٤٧ ، أنساب الاشراف ٧ : ٣٣٨ ، ٥٩٢ ، ١١ : ٤٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢ : ٣٧٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، الأغاني ١ : ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ٢١ : ٣٣٤ ، طبقات ابن سلام : ٢٨٥ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ ، ٥٤٧ - ٥٤٨ ، المكاترة : ٤١ - ٤٢ ، المعارف : ٣٦٠ ، البيان والتبيين ١ : ٣٩٧ ، دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الفرنسية) ٢ : ٦٥ ، والديماس : سجن كان للحجاج بواسط (معجم البلدان) .

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٥١ ، طبقات ابن سلام : ٣٩٤ ، الأغاني ٨ : ٨٤

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يولي عهده ابنه أيوب ، وكان من فتيان قريش أدبا وسماحة ونجدة وعفافا ، قد اكتملت فضائله ، وأدبه أبوه فأحسن أدبه ، وتنادى الشعراء يمدحون « ولي العهد أيوب » ، وكان الفرزدق سابق حلبتهم ، ولكن المنية لم تمهل أيوب ، فعدت عليه في حياة أبيه^(١) .

وفي عهد سليمان مدح الفرزدق آل المهلب ، ولم تكن صلته بهم من قبل حسنة ولا طيبة ، كان قد تقدم الى المهلب ان يضع البعث عن رجل ويخلفه فيما يخلف ، واعترضت خيرة القشيرية زوج المهلب وساعدها جديع ابن سعيد ، من المهالبة ، فاستشير الفرزدق وراح يهجو خيرة هجاء فيه اقداع ، وكأنه لم يشف نفسه ما وصمها به فنال قومها بني كعب بسباب لا رحمة فيه ، وهجا جديع بن سعيد وعيره فقره القديم ومخازيه ، ثم التفت الى المهلب فهجاه ، وهجا معه الازد ، وهزأ بهم أن يتقلدوا الاعنة بعد القلوس ، وتفاهم عن العربية ، وعجب كيف يكونون عربا وهم لم يعبدوا أوثان الجاهلية ، ولم يجروا على أعرافها في الفروسية ، والاصطباح والقمار والصيد وسكنى الخيام ، وايقاد النيران للاضياف ، وختان النساء . ولا عجب ، فهم نبط من خارك ، وبلاد الغاف في عَمَكان . لم يكتف الفرزدق بهذا كله بل راح يتهدد المهلب أنه انما يرفق به تهييا لبشر ابن مروان والي المصريين ، ولولا بشر ما بالى غيظا يتكسر في فؤاد المهلب . وقد أغضب هجاؤه الازد ، والمهالبة وأثار حفيظتهم^(٢) . وتتجلى في هجاء المهالبة صورة الفرزدق أعرايا يفاخر بوثنية الجاهلية ، ويعدّ أهلها خير

(١) ديوان الفرزدق : ٣٠٢ ، ديوان جرير : ٣٢

(٢) ديوان الفرزدق : ١٠ ، ١٤٩ ، ٢٥٢ ، ٦٠٩ ، ٨٦٨ ، الاغاني ٢١ : ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٩٤ ، ٤٢٤ ، معجم البلدان : (خارك ، غاف) .

الناس ، كان لهم من فضائلهم وأخلاقهم ما ارتفع بهم على غيرهم بعد أن وصلوا ماضيهم الكريم بالاسلام .

ولما كان عهد سليمان ، ودان للمهالبة العراق وخراسان ، تردد الفرزدق بل أراد أن يتعالى ويزهى ، فلما أطمعه يزيد بن المهلب بالهبات والعطايا أقبل يتزلف ويتمدح ، فأعلن أنه يتقدم الى آل المهلب بمدحة غراء ظاهرة على الاشعار ، وغدا آل المهلب « اذا جلسوا زان النديّ جلوسهم » ، وأشاد بيزيد والي خراسان والعراق الذي لبس التقى ومهابة الجبار :

وإذا الرجال رأوا يزيداً رأيتهم خضع الرقاب ، نواكس الابصار^(١)

ولكن هذه الصلات لم تتوثق ، بل جاءت الاحداث لتبتها . فسرعان ما تار يزيد بن المهلب وقومه ، وشبت نار العصبية ، وكان الفرزدق في جانب قومه من تميم ، ذلك بأن سليمان بن عبد الملك لم تطل أيامه ، وجاء عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) أعدل بني مروان . ويبدو أن الفرزدق لم يفلح في مدحه ، فتنحى ، وتنحى معه شعراء كثير ، فلما قام بالخلافة يزيد ابن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) فتح أبوابه للشعراء فجاءوا يلتمسون الهبات التي حرموها أيام عمر .

وقد بدأ عهد يزيد بشورة آل المهلب ، وانحازت قيس البصرة ، وتميم البصرة الى جانب الخلافة . وكان الفرزدق لسان مضر ، فلما وقعت الواقعة بمسكن (سنة ١٠٢ هـ) وانتصر جيش الخلافة بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وقتل يزيد بن المهلب ، ولحق هلال بن أحوز المازني التميمي بآل المهلب ، فقتلهم بقندايل ، وثأر لقتلى مضر ، وأقبل الشعراء يهنئون الخلافة ، رأى الفرزدق مجال القول ذا سعة ، وفتح له باب واسع

(١) ديوان الفرزدق : ٤٦ : ٢٤٣ ، ٣٧٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٦٩ - ٣٧٠ .

يلج منه ، فقال وأظن * كان يحتفل لقصيده ، يبدؤه متغزلا ، فيذكر أشواقه ، وما يلقاه من لاعج الحب ، وقد يضيف الى ذلك وصف هرمه وكبره ، وكيف غدا رأسه أصلع كبيضة دارع ، بعد أن كان شعره الجعد الاسود يتهدل كعناقيد كرم ، ثم يصف الصحراء بمفاوزها ، ومتاعب الطريق ، وبعد الشقة وما قاساه في طريقه الى الشام من متاعب حين أقبل يخوض الليل من الدهنا ، لينتقل الى مدح الخليفة ، فيبالغ ما شاءت له المبالغة ، ويتزيد ما أتيح له التزيد ، لقد جاوز الرجل الثمانين ولم يعد يقوى على تحمل المشاق ، فهو يؤثر الدعة ، واللين ، وقد ألف أن ينفق عن سعة ، وكان مشهورا بالجود والسخاء يعطي سائليه وقاصديه ، فكان لا بد له أن يمضي في المبالغة والترضي ، ليحظى بالأعطيات ، فالخليفة خير الناس ، مع النبي والخلفاء الثلاثة في غرف الجنة * ولولا ان البشارة سبقت للنبي لكان الخليفة يزيد نبي الامة :

لو لم يشر به عيسى وبينه كنت النبي الذي يدعو الى النور

وقد أثبت الله الخلافة في بني أمية الى تفخة الرحمن في الصور * وهو يؤكد هذا المعنى لينتقل الى هذا الازدي ، يزيد بن المهلب ، الذي رام صعبا فكان جزاؤه الصلب منكسا وهو مقرون بخنزير * وكان الفرزدق ، مبالغة منه في ارضاء الخليفة ، يعيد في مديحه القول في يزيد بن المهلب ، ويتشفى منه ومن آل المهلب وكأنه يعلن أن هذه نهاية كل عاص (١) .

(١) ديوان الفرزدق : ٢٦٢ ، ٤٢٧ ، ٨٩٠ ، معجم البلدان (قنديل) ، وقد فعل جرير والشعراء فعل الفرزدق في التشفي من يزيد بن المهلب ، يتقربون الى الخليفة الذي أهمه أمره ، وأقلقه ، فلما ورده نأ قتله سجد ودعا بحجّام فأخذ من ناصيته ، ونواصي من حضره (انساب الاشراف ٧ : ٦٤٨) ، ولا قيمة لخبر الاغاني ٤ : ٢٥٥ - ٢٥٦

والعجب أن الفرزدق الشيخ الذي جاوز الثمانين كان يستفتح أماديحه بلون من الغزل يخالطه التعهر ، والاستبهار بالفواحش ، فيتحدث عن امرأة منعمة ، تعرف إليها ، ويصف مهارة رسوله وقاع في تأدية رسالته للإيقاع بها ، واغرائها بالفساد^(١) . ثم يمضي فيذكر ما كان بينه وبينها ممعنا في نعته ، لا يتوقى ولا يتحرز ، ويفضي به الحديث الى المرأة وحبها ، انه مشغوف بها ، قد ملكت عليه نفسه وقلبه وبلغ به هيامه بالمرأة أن لو نادته احداهن وهو جشوة ، لحرك قبره شوقا إليها ، ولأجابها صدها . وينتقل ليدير الحديث بينه وبين معشوقته التي تعجب لأمره ، كيف يطلب الصبا وهو أكبر من ابن الثمانين، ولكنها لا تقوى أن تستعصي عليه ، فهي تستجيب لرغباته ونزواته طائعة ، تستعظمه أن يرفق بها ، ليصرف عنها ما تحذره منه ، وقد سحرها بحسن حديثه :

فلو قلت للأروى على شعفاتهما كما قلت لي، همت ضحى أن تحذرا^(٢)
أترى الفرزدق ، وقد أمضه ما نزل به من النوار ، عاد يتشفي من المرأة ، فيذكر ولهاها به وشوقها اليه ، ويشهّر أمرها ويفضحها ؟ . وكأنه يسترجع سيرته الاولى ، أيام شبابه في المدينة .

وتوالت قصائد الفرزدق في يزيد ، وظل فيها الشاعر يبالح في تمجيد الخليفة ، ويراها خير الناس بعد النبي ، ورث الخلافة عن مروان وعثمان ، وأعطاه الله مرتبة ما فوقها الا النبوة :

تقى الله ، والحكم الذي ليس مثله ورأفة مهدي على الناس عاطف
ولو كان بعد المصطفى نبي لاختاره الله نبيا . ثم يفضي به المديح الى ذكر الحاجة فيشكو اليه السنين التي تتابعت ، والجذب الذي نزل ، وما يرجوه

(١) والى ذلك يشير أبو العلاء المعري بقوله :

ولم أكن ورسولي حين أرسله مثل الفرزدق في ارسال وقاع

(٢) ديوان الفرزدق : ٤٢٧ ، والأروى : الوعول ، وشعفات الجبال :

أعاليها ، والأروى تسكن شعف الجبال .

الناس من نداءه وكرمه ، وما يأمل من العطاء واغداق الهبات^(١) . وكان الفرزدق يهتبل فرصة مديحه أحد الولاة ليضمن قصيدته مدح الخليفة يزيد ، وهجاء ابن المهلب الثائر^(٢) .

وفي عهد يزيد اتصل الفرزدق بمسلمة بن عبد الملك القائد المظفر المنتصر ووالي العراق وخراسان ، فمدحه :

كم فرج الله عنا كرباً مظلمةً بسيف مسلمة الضراب للبهيم^(٣)

واتصل بالعباس بن الوليد ، وكان على الخيل يوم العقر ، وتجلت شجاعته واقدامه في المعركة :

اني سمعت بجيش أنت قائده ووقعة رفعت أيامها مضرا

وبالغ في تمجيده ، ومدح فعاله :

وما ولدت أنثى من الناس مثله ولا لفه اظآره في اللفائف
ولما دعا الداعون وانثقت العصا ولم تخب نيران العدو المقاذف
فرعنا الى العباس من خوف فتنة وأنيابها المستقدماات الصوارف^(٤)

وولئى مسلمة بن عبد الملك ، عبد الرحمن بن سليم الكلبي أمر البصرة ، وكان أحد قواد بني أمية المظفرين . فجاءه الفرزدق مادحا ، ولما ذكر شجاعته وأثره في بلاد الروم ، ويوم وقعة بابل ، عطف ليذكر حلف تميم وكلب :

حليفان بالاسلام والحق تنتهي الى ابن سليم بالوفاء أمورها^(٥)

(١) ديوان الفرزدق : ١٦٨ ، ٥٤٣ ، ٦٨١ ، ٨٢٨

(٢) الديوان : ٥٧٩

(٣) الديوان : ٢٠١ ، ٨٠٦

(٤) الديوان : ٤٢٣ ، ٥٣٨

(٥) ديوان الفرزدق : ٣٢٢ ، ٦٧٧ ، ٨٢٦ ، أنساب الاشراف ٨ : ٤ - ٥

وأبرزت الاحداث يوم بابل هلال بن أحوز المازني التميمي الذي تعقب آل المهلب ، واستأصل شأقتهم بقندايسل ، وغالى الفرزدق في مديحه والمفاخرة به ، اذ جعل منه رمز تسييم المنتصرة في هذه الحرب ، والثائر لقتلى تسييم وقيس . كنت تحس بشعره في هلال يمور فيه الزهو وفرح المنتصر المباهي ، وكأنما جرت في عروقه دماء الشباب ، فلم يحس عبء السنين التي جاوزت الثمانين ، والتي ناءت تحت ثقلها كتفاه ، وتأطر متنه . فاذا هو يتغنى غناء جاهليا ، فيه فتوة الجاهلية ، وعنجهيتها ، وزهوها :

وذا ت حليل أنكحتنا رماحنا حلالاً لمن ييني بها ، لم تطلق

ثم تمدح بفرسان تميم الذين شاركوا في يوم بابل ، وأظهروا شجاعة وبسالة أطلقنا من لسان الفرزدق^(١) . واهتبلها فرصة يهجو فيها المهالبة والأزد ، ويتشفي بمقاتلتهم ، وانبرى له الطرماح بن حكيم الطائي شاعر اليمن ، ومثير العصبية ، فنشبت بينهما أهاج ومناقضات ، انعس الفرزدق في أوارها ، وقد ذرّف على الثمانين . انه لم يسأم ، على السن العالية ، حب المناوشة والحرب ، والذود عن العرين^(٢) .

ولم يطل عهد مسلمة على العراق وخراسان ، وجاء عمر بن هبيرة الفزاري القيسي واليا عليهما (١٠٢ - ١٠٥ هـ) ، فمدحه الفرزدق ، وذكر أنه قام مقام الحجاج في كفاية أمر العراق ، حزما وضبطا ، أمات الداء ، وقوم المعوج ، ونشر لواء العدل ، وكان رؤوفا بالمؤمنين ، غليظا على المنافقين :

يلين لأهل الدين ، من لين قلبه لهم ، وغليظ قلبه للمنافق
وما رفعت إلا إمام جماعة على مثله حزماً عماد السرادق

(١) ديوان الفرزدق : ٦٠ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، ٣٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٨٧٨ ، أنساب الاشراف ٨ : ٢

(٢) ديوان الفرزدق : ٤٤ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ٣٤٣ ، ٦٢٥ ، ٦٧٤ ، ٨٢٣ ، ٨٣٤ ، ٨٧٩ ، ٨٩٤

ثم رفع من شأن أسرته ، فهي أثلة فلفت صفاة ذبيان ، لا تدنو لها الشجر ، ولم ينس أن يمدح الخليفة ، وانتهى به المطاف أن يطلب العطاء ويعرض بحاجته :

أنت رجائي بأرضي إني فرق من واسط ، والذي نلقاه ننتظر

وهكذا اختلطت في مدائح الشاعر المعاني الإسلامية ، والقيم الجاهلية ، ويبدو التغير الكبير الذي أصاب الشاعر حين نسمعه يعرض بالمسألة ، وكان في صدر شبابه ، يتعفف ، ويترفع^(١) . ولكن الفرزدق لم يلبث أن تنكر لابن هبيرة ، وراح يهجو ، وينال من أماته ، وهجا قبيلة فزارة فأقذع ، وعيرها ما تناقله العرب من مثالبها ومخازيها ، وعاد ينصح ليزيد الخليفة أن ينزع هذا الوالي الذي خان الأمانة ، وخاس بعهده . وعجب — فطال عجه — أن تُنزع أمية ذات الشرف الباذخ لتلي فزارة . وعده من دنو أشراط القيامة حين تقلب موازين القيم^(٢) .

وطلب عمر بن هبيرة وابنه يزيد الفرزدق وأرادا أخذه وسجنه ، ولكن الفرزدق الحذر لاذ بالفرار ولم يقدرُوا الا على حبس امرأته النوار ولحق الفرزدق بالبادية ثم لجأ الى حمى يزيد بن عبد الملك :

إليك سبقتُ ابني فزارة بعدما أرادا ثوائي في حلاق الأدهم
وفي كنف يزيد لقي الأمن والبر والصلة ، وأحسن الأحوال الشاعر محضره
عنده فكتب يزيد بتخية النوار ، وإيمان الفرزدق ، فشكر له الشاعر جميل ما صنع :

(١) ديوان الفرزدق : ٢٨٠ ، ٤١٦ ، ٥٧٩

(٢) ديوان الفرزدق : ٢٨٢ ، ٤٨٧ ، ٥٠٨ ، ٦٤٧ ، انساب الاشراف

٧ : ٥٦٩ ، ٨ : ١٤٠ ، طبقات ابن سلام : ٢٨٧ - ٢٩١ ، الاغاني ٢١ : ٣٣٥ -

٣٣٧ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٤٣١ ، ٤٣٣ ، الفاضل : ١١١ ، الكامل : ٤٧٩

إلى خير جار مستجار بحبله واوفاه حبلاً للطريد المشارف
على هوة الموت التي إن تقاذفت به قذفته في بعيد النفاق (١)

وأتاح له مقامه في الشام أن يتصل بالوليد بن يزيد « سيد الشبان »
يمدحه ويتقرب به إلى أبيه ، وبلغت مدائحه فيه أربع قصائد ومقطوعة • أشاد
فيها بجوده وشجاعته وكريم عنصره والوفاء لجيرانه :

الواهبُ المائة المخاض وعبدها للمجتديه ، وذو الجناح الأخضر
وتمدح بخندف ، وفخر بها :

والناس يعلم أننا أربابهم يوم التقى حجاجهم بالمشعر

وتدل الأخبار أنه حضر مجالس الوليد ، وما كان يدور فيها من غناء
ولهو وأنه استمع في مجلسه إلى غناء ابن عائشة مغني المدينة • ولعله وجد
في كنف الوليد ما أمل من خير ونعمة فأكثر من مديحه والثناء عليه (٢) •

(١) الديوان : ١٦١ ، ٥٤٤ ، ٨٢٨ ، أنساب الاشراف ٧ : ٥٧١ ، ١١ :
١٣٦ ، ١٢ ، ٨٦

(٢) ديوان الفرزدق : ٧ ، ٨٤ ، ٤١٧ ، ٥١٠ ، ٧٠٨

(٦)

شيخوخة الفرزدق :

وجاء عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) فأقبل الشاعر ، وقد بلغ من الكبر عتياً ، يجبرّ القصائد في مديح الخليفة ، كان يجيئه من الصنان والرمل ، فيقطع هذه الصحارى بحرّها المتلطي وهجيرها المتأجج ، تشاركه المتاعب والجهد ناقتة ، بما تلقى من عنت الصوان ، وما ينالها من لافح السموم ، ولكنه يحاورها فيرق حديثه اليها ، ويعذب ، ويمنيها أجمل الأماني :

إِلام تَلَفَّتَيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَمَامِي
مَتَى تَأْتِي الرِّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنْ التَّهْجِيرِ وَالِدَبَّرِ الدَّوَامِي

ولا غرو أن يترنم بأجل ألحانه ، وهو ماض ليلقى أمين الله في الأرض ، وخياره للناس :

ترى الوحش تستحييه والأرض إذ غدا له مشرقاً شرقيه ومغاربه
وهو يشيد بأخلاقه ، ويشني على كرمه ، ويتحدث بما تباشر به الناس لمقدمه حتى إن السماء لتبشر به الأرض :

وبشرت السماء الأرض لما تحدثنا باقبال الإمام
فإذا قضى أربه من نعت الخليفة مبالغا ، مطبنا ، عطف الى ذكر آبائه الكرام ،

وتتردد في أماديجه الإشارة الى حق بني أمية في الخلافة ، إذ كانوا ورثة عثمان الذي نال الخلافة عن رضا ومشورة • ويتحدث عن فضائلهم وعماسدوا الى الإسلام ، فبهم جمع الله الصلاة وألف بين المسلمين وأخذ الفتنه ، ونصرهم في معارك صفين والمرج • كان يطيل في ذلك ويعيده صدى للمعارضة المتفاقمة التي أخذت تناوىء الحكم الأموي وتعمل على زعزعته ، فإذا ظن أنه قد بلغ من مدح الخليفة ما يريد عرض بحاجته مصرحاً ، مطالباً « فهب لي سَجَلًا من سجالك يثروني ، وأهلي » ، « فأفرغ لي ذنوباً أهناه » :

وكم أنعمت كفا هشام على امرىء له ، نعمة خضراء ما يستشبهها
ليضم الى ذلك التحدث عما أصاب البادية من إلاح الجدوب ، وتتابع القحط (١) •

وقد يبدأ مديحه بالنسيب ، فإذا هو أسير غرام ، لم ينسه إياه نعاس ولا سرى ، ويذكره بفتاته بكاء حمامة فوق غصن فيهيح وجده ، وتسجم عيناه ، ويناجي فتاته الجميلة في الخلق والخلق ، العفة ، البخيلة ، لا يظفر بكلامها ولا يطمع في وصالها ، قد دلته عن صلاته وقادته الى حتفه ويثور به يأسه فيناديها :

فهل أنتِ إلا نخلة غير أنني أراها لغيري ظلشها وصرامتها (٢)

ويفجؤنا في نسيه ما فجأنا أيام يزيد ، فهذا الشيخ الذي رمته الليالي بالثمانين يجعل من نسيه تكأة ينفذ منها الى وصف تعهره وفحشه فيذكر

(١) ديوان الفرزدق : ٦٣ ، ٩٩ ، ٧٨٢ ، ٨٣٥ ، والدبرة ، بفتح الدال والباء : قرحة الدابة والجمع دبر وأدبار •

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٨٢

خادمه الأسود الذي تفتحمه العين فلا يؤبه له ، لذلك ينتقيه فيبعثه الى النساء بحاجه ، ومواعد لقاءه ، وهو لا يقنع بواحدة :

ثلاث واثنتان ، فهن خمس وسادسة تميل الى الشام ويمضي في وصف مجونه وإذا هو يقنفي آثار امرىء القيس فيعلن أنه قد بذّءه وتفوق عليه لأن النساء تدلهن بحبه ، وتمنين أن يطول ليلهن بقربه حتى تكون الليلة نصف عام :

فلو أن امرأ القيس بن حجر ودارتسه معي ، لرأى غرامي له منهن إذ يبكين ألا بيتن بليلة هي نصف عام إنه لا يرى في المرأة إلا الجنس والحس حتى في وصفه السابق العف لم ينس أن يقول :

ألا ليتنا نننا ثمانين حجة تنام معي عرّياناً وأنا مئماً ضجيعين مستورين ، والأرض تحتنا يكون طعامي شمئها والتزامها وكأنما كان يستروح لهذا اللون من الغزل وتطيب به نفسه ، فيذكر به أيام شبابه ويعبر عن خبيثة نفسه المتعطشة الظائمة والتي قدر عليها الحرمان ، فهي أبداً تحلم وتتمنى ، ثم يخيل اليها أن الحلم حقيقة ، ولكن الفرزدق لا يلبث أن يكفكف من غربه حين تطلعه الحقيقة بوجهها ، فيعود الى رشده ، ويعترف بشيخوخته :

رأني الغايات فقلن : هذا أبونا جاء من تحت السّلام
فإن يضحكن أو يسخرن مني فإنني كنت مرقاص الخدام^(١)
وخرج هشام بن عبد الملك الى الحج (سنة ١٠٦ هـ) فصحبه الفرزدق

(١) ديوان الفرزدق : ٧٨٢ ، ٨٣٥ ، النقائض : ١٠٠٤ ، والسلام ، بكسر السين : الحجارة الصلبة ، الواحدة : سلمة ، كفرحة .

من المدينة حتى حج ورجع الى المدينة ، يطمع بالمنزلة عنده ويؤمل الخير الكثير ، وكان الشعراء قد عودوا أيام يزيد بن عبد الملك أن ينالوا العطاء الجزيل والهبات ، وكان الفرزدق شديد الطمع ، ملحاحا يطلب الكثير لأنه سخيٌ ينفق ما عنده ، ولكن هشاما لم يكن كسلفه كريما مبسوط اليد بل كان ممسكا لا يحب الاسراف ، فخرجت جائزته الى الفرزدق خمسمائة درهم ، فنقم الشاعر وهجا هشاما هجاء مرا أغضب الخليفة فسجنه ليخرجه بعد قليل (١) .

ولا بد قبل أن نمضي في وصف السنوات الأخيرة في حياة الشاعر الكبير من أن نقف وقفة تفرض نفسها على الدارس فإن سني الفرزدق الأخيرة أبانت جوانب في حياته وكشفت عن صفات في سلوكه لم يكن من اليسير أن تتكشف بهذا الوضوح ، لقد أدركته الشيخوخة ، وكان يحس العجز عن المضي قدما ويتوقع أن ينزل به الموت ، وكان الفرزدق مؤمنا متدينا قد ملأت نفسه صور ما يلقاه المذنب في الحياة الآخرة . ولئن شهرت عنه أقوال تدل على ثقته بالله لقد كانت تتنابه الخشية ويملؤه الخوف من عذاب الله ، وتترامى في أشعاره لمحات لهذه المشاعر التي كانت دفيئة في نفسه قد طغت عليها تلك الحياة العنيفة المقاتلة التي انغمس فيها حتى كادت تطمس ما سواها ، ولكن اللحاحات القليلة قد أخذت تزداد وتطرّد كلما تقدمت به السن وأدركه الضعف ، تؤيدها الأخبار التي نقلها الرواة . حدث فضيل الرقاشي قال : « خرجت في ليلة باردة فدخلت المسجد فسمعت نشيجا وبكاء كثيرا ، فلم أعلم من صاحب ذلك الى أن أسفر الصبح ، فإذا الفرزدق

(١) ديوان الفرزدق : ٥١ ، ٧٨١ ، الاغاني ٤ : ٣٨٧ ، أنساب الاشراف ٧٤ ، ٧٧ ، الكامل لابن الأثير ٥٢ : ٥٢ ، ومن قبل مدح الأخطل هشاما وهو أمير فأعطاه خمسمائة درهم فلم يرضها وخرج فاشترى بها تفاحا وفرقه على الصبيان فبلغ ذلك هشاما فقال : قبحه الله ، ما ضرر الا نفسه (الاغاني ٨ : ٣٠٣) .

فقلت : يا أبا فراس ، تركت النوار وهي لينة الدثار ، دفئة الشعار • قال :
إني والله ذكرت ذنوبي فأقلقنتني ، ففزعت الى الله عز وجل « (١) • ولما
توفيت نوار ، أوائل عهد هشام (على الأرجح) اشتد تخوف الفرزدق فلما
ذكره الحسن البصري بما ينتظر المذنب يوم الدين لم يقو الفرزدق أن يخفي
جزعه ، فصور عذاب النار الذي طالما خشيه :

أخاف وراء القبر ، إن لم يعافني ، أشدّ من القبر التهابا وأضيقا (٢)
ولعله في هذه الفترة أو بعدها بقليل نظم قصيدته الشهيرة التي عاهد فيها
ربه ألا يشتم مسلما وتاب الى الله مما فرط منه وأتاب بعد أن كان يظلم
الناس ، وهجا فيها ابليس هجاء لا نجد له مثيلاً في شعر هذا العصر (٣) •
ولئن لم يتح للفرزدق أن يفي وفاء تاما بما عاهد عليه ، إنا نحس أن مشاعر
التدين وخوف الله قد كثرت في أشعاره الأخيرة :

أخلص دعاءك تنجّ مما تتقي لله يوم لقائه بسلام

وكان يضم اليها تمجيد الله ، والتحدث عن قدرته التي وسعت كل شيء (٤) •
ومرت بالفرزدق ، في عهد هشام ، أيام سود حالكات ، فهذا الشاعر
الذي علت سنه لم يأو الى الظل ، ولم يسترح من الكلال ، ولم ينعم بما
ينعم به الشيوخ من الهدوء والراحة والاطمئنان ، كانت التجربة ما تكاد
تعلمه شيئاً حتى تنسيه أشياء ، فما كان يضبط لسانه ، ولا يحسن اخفاء
عواطفه ونوازعه •

(١) الاغاني ٢١ : ٤١٦

(٢) ديوان الفرزدق : ٥٧٧ - ٥٧٨ ، الاغاني ٢١ : ٤١٥ - ٤١٦ ، أنساب
الاشراف ١١ : ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٤ ، شرح الشافية ٤ : ٧٥ - ٧٨

(٣) ديوان الفرزدق : ٧٦٩ ، خزانة الادب ٢ : ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ٣ : ٣٤٦

(٤) ديوان الفرزدق : ٨٣٠

بدأت أيامه السود يوم جاء خالد القسري العراق واليا (١٠٥-١٢٠هـ) وكان الفرزدق قد أساء اليه في سلطان سليمان بن عبد الملك ، فقد كان خالد واليا على مكة فظلم رجلاً من بني شيبه ، فاستعدى الشيبه عليه سليمان واستعان بالفرزدق ، وكان ذا منزلة من سليمان فأعانه وشنع على خالد فعلته :

سلوا خالداً لا أكرم الله خالداً متى وليت قسر قريشاً تدينها

فأثار حفيظة الخليفة سليمان ، وأخذته لذلك حمية ، وغضب غضبا كاد يودي يمين خالد لولا شفاعه من يزيد بن المهلب واكتفى بأن يضرب مائة سوط ، فشمت به الفرزدق وتشفى منه :

لعسري لقد صبت على ظهر خالد شأيب ما استهلن من سبل القطر^(١)

فلما ولي خالد القسري العراق لم يكن له همة الا الفرزدق ، ينتظر هفوته للايقاع به ، ولم يطل به الانتظار ، وهيات له الحوادث الأعذار التي تبيح له أن يمسك به . ذلك بأن خالداً أحق عليه مضر واستثارها حين حبس عمر بن هبيرة الفزاري ، وأدال من سلطان قيس ، وتعصب لليمانية تعصبا جاوز الحد ، وأثار النعرة ، فتسخطت مضر ما حل بها ، وانطلقت السنة شعرائها تدافع عن عمر ، وتطري صفاته وأخلاقه ، وتنال من خالد بما تنهك من محارم وما اقتترف من ظلم ، وبلغ من انتصار شعراء مضر لعمر أن جريرا وهو ما هو ، فرقا من السلطان ، واتباعا لمواقع رضاه، لم يقر أن يكتب ما يملأ نفسه من اشفاق على عمر منعه النوم « وكيف يهجع من يخاف » .

(١) ديوان الفرزدق : ٣٧٢ ، ٨٧٤ (هل) : ٦٠ ، النقائض : ٩٨٤ ،

الاغاني ٢٢ : ٢٧ - ٢٨ ، أنساب الاشراف ٨ : ١٥٥ - ١٥٧ ، ١٩٨ - ١٩٩

وأدعو الله فيك وأن يجليّ عماية ما يزايلها انكشاف^(١)

ولم يكن بد للفرزدق ، وهو لسان مضر وشاعرها ، أن يقف حيث وقفت ، فتناسى ما بينه وبين عمر بن هبيرة ، ووقف ينافح عن مضر لا يتوقى ولا يتحرز ، ولم يكن الأمير خالد برا بالفرزدق ، كان يتجهمه ويحفوه ولا يباليه ، فانطلق لسان الفرزدق بدمه ، ولم يكن بد من أن يناله بقوارص هجائه ، فلما قدر لعمر أن ينجو من محبسه وأن يلحق بمسلمة في الشام مدحه الفرزدق وأشاد به مستجيبا لعواطف قومه ، ومعبرا عن مشاعرهم ، فاستحق أن يقول فيه ابن هبيرة : « سيد العراق الفرزدق ، هجاني ملكا ، ومدحني سؤفة » . ثم نال من خالد وهجاه هازئا به أن فر ابن هبيرة من سجنه « قد ضيع السجن ، والتضييع عادثه » . وغير خالدا نسه في بجيلة ، وأخذ ينعي عليه نصرانية أمه^(٢) . وتوالت الأحداث والفرزدق لا يرعوي ولا يكف ، فلما احتقر خالد القسري النهر المبارك أطلق الشاعر لسانه فيه : فبين خرقه في الإتيان ، وجوره في الحكم ، وغصبه حق الضعاف المرملات الضرائك :

أهلكت مال الله في غير حقه على النهر المشؤوم غير المبارك^(٣)

واهتبلها خالد فرصة سانحة ، فطلب من مالك بن المنذر بن الجارود العبدي ، وكان قد ولاه شرطة البصرة ، أن يقبض على الفرزدق لأنه هجا نهر أمير المؤمنين ، وعرف مالك كيف يحتال للايقاع بالفرزدق الذي كان حذرا

(١) ديوان جرير : ٣٨١

(٢) ديوان الفرزدق : ١٤٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، أنساب الاشراف

: ٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١١ : ٨٧ ، الاغاني ٢١ : ٣٣٧ - ٣٣٨ ، ٢٢ : ٢٤ - ٢٥ ، ٢٩

(٣) ديوان الفرزدق : ٦٠١ ، أنساب الاشراف ٨ : ١٠٦ ، ١٨٢ - ١٨٣ ،

الاغاني ٢١ : ٣٣٩ ، ٣٥٣ ، ٢٢ : ٢٨ ، معجم البلدان : (المبارك) .

كغراب ، أرسل اليه رجلاً من ضبة أخواله أحسن التآتي له ، والرفق به حتى أوقعه ، وقاده الى مالك بن المنذر الذي أمر به الى السجن^(١) . وكان الفرزدق قد هجا مالكا حين ولي شرطة البصرة هجاء أحفظه^(٢) . فلما وقع في يديه استقبله متوعدا منذرا ، قد ملاء الغضب عليه حتى انتفخ وريده فأطفأ الفرزدق جمرة غضبه بأبيات جميلة مدحه بها :

أقول لنفسي حين غصت بريقها ألا ليت شعري ما لها عند مالك
لها عنده أن يرجع الله روحها إليها ، وتنجو من حذار المهالك
وأنت ابن جباري ربيعة ، أدركا بك الشمس ، والخضراء ذات الجباءك^(٣)

وأخذ يستعطفه بمذائحه ، فيذكر قوته وشدة مراسه وبطشه بالظالمين وانصافه للمظلومين ، ويمدح أسرته من آل الجارود ، فيعدد مناقبهم ويذكر مآثيهم ويشيد بمساعيهم في الجاهلية والإسلام ، ويعود فيستجير بقبر أبيه المنذر بن الجارود ، ثم يصف ما لحق به من أذى السجن ومحنته : شيخ طاعن في السن ، أُلقي في هوة ، قد كبلت يداه بالأغلال الثقيلة — وكان مالك أمر أن يوقر حديدا — فلا يقوى على النهوض لصلاته ، ويتبرأ مما قرف به من قول محرش ضغن ، أو موتور ينتقم :

وإذا حملتُ الى الصلاة كأنني عبء يميل بعدله المعدول . . .
يا مال ، هل لك في كبير قد أتت تسعون فوق يديه غير قليل
فتجز ناصيتي ، وتفرج كربتي عني ، وتطلق لي يد الكبولي . . .
لا تأخذنَّ عليَّ قول محرشٍ ضغن عليّ ، وترته ، متبول

(١) ديوان الفرزدق : ١٧٣ ، ٣٩٦ ، أنساب الاشراف ٨ : ١٥٧ ،
٢٠١ - ٢٠٢ ، ١٠ : ٥٢٠ ، الاغاني ٢١ : ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ٤٠٣
(٢) الديوان : ١٠١ - ١٠٢ ، الاغاني ٢١ : ٤٠٢ - ٤٠٣ ، أنساب
الاشراف ٨ : ١٥٩ - ١٦٠
(٣) الديوان : ٥٩٩ ، أنساب الاشراف ٨ : ١٤٧ ، ١٥٧ ، الاغاني ٢١ :
٤٠٢ ، ٣٥٣

ويمضي يصف ما يقاسيه من ثقل القيود :

وكيف بمن خسون قيداً وحلقة عليه ، مع الليل الذي هو أدهم
ولو أنها صمّ الجبال تحملت كما حملت رجلاي كادت تحطم

ويصور مخافته مالكا ، ورهته اياه ، وأنه لو نزل به أسد تلمع عيناه
كشهابي قابس تحت جبهة أصلب من الصخر لكان أقل خوفا له من مالك •
ثم يتنصل أن يكون قد قال ما قال من الهجاء^(١) •

وحبر الفرزدق القصائد الرائعة في مديح خالد القسري ليفك أسره ،
فوصف همومه وأحزانه وما يعاني في سجنه ، وكأنه حروري له فوق كعبه
ثلاثون قيدا ، ورفع من شأن خالد وأشاد بكرمه ، ومدح المبارك وتنصل
من هجائه وعجب كيف ينسب اليه ما لم يقله ، ومثل شعره لا يجهل :

أينطقها غيري وأرمى بعيها فكيف ألوم الدهر أن يتغيرا

وهل أدل على نقاء ساحته من أن قبضوا عليه آمنا لا يتوقع أن يقبض عليه ،
ولو كان قد أتى ما زعموا لخاف واستتر :

وكنت ابن أحذار ، ولو كنت خائفا لكنت من العصماء في الطود أحذرا
وكان يطيل في مديح المبارك ، والنعم التي فاض بها ، وقدرة خالد على
التحكم بدجلة وقهرها :

إن المبارك كاسمه يسقى به حرث السواد ، وناعم الجبار •••
يا دجل كنت عزيزة فيما مضى فلقد أصابك خالد بصغار •••

(١) ديوان الفرزدق : ٣١ ، ٧٦ ، ٣٢٠ ، ٥٣٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ ، ٨٤٨ ،
أنساب الاشراف ٨ : ١٥٨ ، ٢٠٢ ، الاغاني ٢١ : ٣٥٥ ، ٤٠٣

يجتاز دجلة لا يخاف خياضها من كان يقطعها على المعبار^(١)

ويُؤس الفرزدق ، ولم ينفعه مديحه خالدا ومالكا • وكان مالك بن المنذر يرسل الى لبطة بن الفرزدق - وكان يأتيه لينشده شعر أبيه فيحجب - إن أمر أبيك الى غيري ، فالتمسوا له وجهها سواي ، فولى الفرزدق وجهه شطر الخليفة هشام وأرسل اليه بشعره مع ابنه لبطة وابن أخ له • بدأ قصائده يرجو ويستعطف خليفة أهل الأرض ، ويعلم ثقته بعدل أمير المؤمنين ويتبرأ مما نسب اليه من هجاء المبارك :

وكيف أسب النهر لله ، بعد ما ترامى بدفّاعٍ من الماء مزبدٍ

ولا ينسى أن يمدح خالداً إمعاناً منه في الاسترضاء والعتبي ، فقد كان خالد قريباً من هشام بن عبد الملك ، مكينا عنده ، ومضى الفرزدق يوالي اعتذارياته الى هشام ويدعوه وهو أمين الله في الأرض قد ملأها عدلاً ، يرجو منه العفو والرحمة والعدل • إنه لم يقارف شيئاً من الغش لآل مروان ، وقد سبق لمروان منة عليه وفضل ، حين لجأ اليه خائفاً أيام زياد فرد عليه حياته • ويظيل الفرزدق في ذكر حماية مروان وجواره ، وفي تتابع نعم آل مروان عليه ، ثم أخذ الشاعر ينهج في اعتذارياته نهجاً آخر ، فهو يستنكر جسسه بغير جريرة ولو كان اقترف شيئاً مما رمي به لخاف وهرب :

ولو كنت أخشى خالداً أن يروعي لطرتُ بواف ريشته غيرِ جادفِ

وما ذنبه إلا دفاعه عن خنْدِ ف ، وكأنه يلزم بذلك خالدا القسري الذي أفرط في تعصبه على مضر ، ولا غرو أن يتبدل نهج الشاعر فهو قد يؤس من عفو

(١) ديوان الفرزدق : ١٥٦ ، ٣٣٥ ، ٣٦٥ ، أنساب الاشراف ٨ : ١٨١ -

١٨٢ ، الاغاني ٢١ : ٣٥٥ - ٣٥٦

خالد ، وأكثدَ يأسه حبسُ رؤوس المضربة ، كنصر بن سيار في خراسان حين ضرب بالسياط وجيء به الى خالد من خراسان مقيدا ، وكعمر بن يزيد الأسدي التميمي ، فتى أهل البصرة ، حبسه مالك بن المنذر ، متجنيا عليه ، وأحس الفرزدق أنه في هذه المرحلة شاعر مضر كلها لا شاعر خندف وحدها ، فهو يعبر عن مشاعر فرعيها العظيمين : قيس وخندف ، ونصح لابنه لبطة الذي أوفده الى الشام أن يستعين بالقيسية ونفوذها عند هشام ولا يمنعه منها ما كان الفرزدق قد قدم فيها بالأمس من أهاج • وترقرقت في قصائده رنة الصدق وهو يصف حاله في السجن وليله الطويل، وما يلقاه من عنت قيوده الثقيلة تحول بينه وبين النهوض ، والزطش يطوفون حوله بجلجل ، رقباء لا يتركونه طرفة عين • وكانت هذه الاعتذاريات لونا تجلت فيه براعة الشاعر ، وقد كان لم يطرقه من قبل ، فلما نابه من حبس خالد ما ناب به ولج هذا الباب فدل على قدرة وموهبة أصيلتين في فنه ، أدهش بهما القدماء حتى قال له حماد الراوية يوازن بينه وبين جرير : « هو أشعر منك اذا أُرخي من خناقه ، وأنت أشعر منه اذا خفت أو رجوت » وتقف الفائية في قمة اعتذارياته : صدق عاطفة ، وجودة اسلوب ، وقدرة على تصوير ما يعتلج في النفس من مشاعر تنموج بين تعاليه واعتزازه بمكائنه في قومه وذوده عنهم ، وبين أولئك الأعداء يظهرون له المودة ، فإذا غاب كادوا له ورموه بالشنع^(١) •

ثم تقرب الى هشام بابنه معاوية (ت ١١٩ هـ) فأغرقه وأغرق أسرته بمديحه ، يروم أن يكون معينه عند أبيه ، وتبرأ مما نسب اليه من هجاء المبارك « غيث الفقير ، وناعش الأيتام »^(٢) •

(١) ديوان الفرزدق : ١٦٥ ، ٥٣٢ ، ٧٥٠ ، ٨٠٨ ، ٨٤٥ ، انساب الاشراف ٨ : ٢٠٢ - ٢٠٣ ، الاغاني ٢١ : ٣١١ ، ٢٢ : ٢٩ ، طبقات ابن سلام : ٢٩٤ - ٢٩٥ ، الطبري ٥ : ٣٩٢ - ٣٩٤

(٢) ديوان الفرزدق : ٨٣٠ ، تاريخ الاسلام ٤ : ٣٠٥

ولاحق الفرصة يوم قُتل عمرُ بن يزيد الأسدي التميمي (سنة ١٠٩ للهجرة) في سجن مالك بن المنذر ، وثار تميم غاضبة لمقتله ، وورثاه شعراؤها محرضين ، وتعصبت مضر لتميم وأيدتها ، وانحازت ربيعة الى مالك وتنمرت ، وكادت تقع في البصرة الفتنة ، وأكثر الفرزدقُ القول في مقتل عمر وبكائه ، واستثارة قومه والفخر بمضر ، وخرج رجال تميم الى الشام وقد شيعهم الفرزدق بقصيدة طويلة بعث بها الى هشام ، يحرض بها مضر الشام ويستثيرهم على ما يلقونه من ظلم خالد في العراق :

أرى مضر المصرين قد ذلَّ نصرها ولكن قيساً لا يذل شامها ...
غضبنا لكم يا آل مروان فاغضبوا عسى أن أرواحاً يسوغ طعامها ...
صلوا من تميم ، ما تميمٌ تجدهُ إذا ما حبال الدين رثت رمامها

ويلح الفرزدقُ على ذكر القرابة التي تربط بين قريش وتميم وهي قرابة لا يجوز أن تنفصم ، فتميم عز خندق وسنامها ، تصون الخلافة وتدفع عنها . وكان الفرزدق يئنه الخلفاء أن يعتمدوا على مضر ، وتميم خاصة ، ويشككهم في اخلاص اليمن التي انتقضت على الخلافة وتداعت يوم العقر باسم القحطاني الذي ينقض دمشق حجرا حجرا . كان الفرزدقُ يحس ذلك احساسا قويا ، فنبه اليه هشاما في أول صلته به ، ثم جاءت الحوادث فأكدت للفرزدق صدق ما ذهب اليه فعاد يلح عليه ، ناصحا ومنذرا معا . وأنجح وفد تميم ، وحمل مالك بن المنذر الى هشام ، فأمر بجبسه فمات في السجن ، دس اليه القيسيةُ من قتله ، وعزل خالد القسري عن خراسان وصرف أخاه أسدا عنها^(١) وتشفع القيسية الى هشام في أمر الفرزدق وقالوا:

(١) ديوان الفرزدق : ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ٧٨٥ ، ٧٩٠ ، ٨٢٥ ، ٨٣١ ، طبقات ابن سلام : ٢٩٨ - ٣٠١ ، الطبري ٥ : ٣٩١ ، ٣٩٢ ، الكامل لابن الاثير ٥ : ٥٧ ، أنساب الاشراف ٧ : ٦٣٥ ، ٨ : ١٥٠ - ١٥٤ ، ١١ : ٦٠٢ - ٦٠٤ ، الاغانى ١٣ : ٣٦٠ ، ٢١ : ٣٥٧ - ٣٥٩ ، ٤٠٤ ، نواذر المخطوطات ٢ : ١٨٢ - ١٨٣

كلما ظهر ناب أو شاعر أو سيد وثب عليه خالد ، وأعانهم الأبرش الكلبى
وكان الفرزدق قد كتب اليه بأشعاره :

الى الأبرش الكلبى أسندت حاجة تواكلها حيا تميم ووائل

وكان الأبرش أقرب الناس الى هشام ، صحبه أميرا وخليفة ، وكان جرير
والأحوص قد ذكرا الفرزدق بخير أمام هشام ، ودافعا عنه من قبل (بل إن
جريرا رجا خالدا القسري أيضا أن يفك إيسار الفرزدق ويسن عليه)
فقبل هشام شفاعة الأبرش وكتب الى خالد بتخليفة سبيل الفرزدق ، ولم
ينس الشاعر فضل الأبرش عليه فأطال بمدحه ومدح قومه من كلب ، حلفاء
تميم ، كما أخذ يمدح قيس عيلان ، بعد أن كان قد أطال بدمهم ومدح
هشاما وشكر له صنيعه^(١) .

وكان خالد القسري حين ورد كتاب هشام غائبا عن واسط ، وكان
أسد خليفة أخيه ، فأمر باطلاق الفرزدق ، وكان النضر بن عمرو المقري ،
قد ولي بعد مالك وحل في شرطة البصرة فأطلقه ، وحمد الفرزدق للنضر
صنيعه ، وشكر له أن خلى سبيله ، وألقى قيوده ، ولكنه عطف على مالك
ابن المنذر العبدى يتشفى منه ، فسلقه بلسان حديد لا يمسكه عنه حرمة
الموت^(٢) .

خرج الفرزدق من السجن ، وقد خنق التسعين أو كرب ، وأثر
السجن في نفسه آثارا بعيدة ، وأحس أنه من الموت قاب قوسين أو أدنى،

(١) ديوان الفرزدق : ١٣ ، ٦٣ ، ٧٦١ ، ٧٨٨ ، طبقات ابن سلام :
٢٦٩ ، ٢٩٥ - ٢٩٨ ، الاغانى ٢١ : ٣٥٩ - ٣٦١ ، ٤٠٤ ، أنساب الاشراف
٨ : ١٠٦ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، العقد الفريد ٥ : ٣٢٥ ، النقائض : ٩٨٤ ، ٩٩١
(٢) ديوان الفرزدق : ٣٣ ، ١٠١ ، ٢٤٩ ، ٧١١ ، أنساب الاشراف
٨ : ١٥٥ ، ١٥٩ - ١٦٠ ، ٢٠٥

فأطلق لسانه يمدح أسد بن عبد الله القسري : مدح قبيلته بجيلة وذكر
مآتيها ، وتغنى بمجدها « بجيلة عند الشمس ، أو هي فوقها » :

الأحلمون فما خفت حلومهم والأثقلون على الأعداء ميزاننا
وأشاد بأسرته وما قام به أجداده من عظام المساعي التي أحلتهم الذروة
من بجيلة :

هم أهل بيت المجد حيث ارتقت بهم بجيلة فوق الناس من كل مرق
ثم راح يصف أسدا أجمل ما يوصف به امرؤ ، فهو أبو الأشبال ، بلغ الغاية
في الشجاعة ، تستهزم الخيل باسمه ، وبلغ الغاية في الكرم ، لا يشبهه
البحر إن زخر ، فإن ألمت به مصيبة صبر ولم يجزع ، ثم انطلق يشكر له
جميل ما صنع ، تداركه من هوة كان قعرها ثمانين بوعا فأنقذه منها وحطم
قيوده التي أثقلتته :

فأصبحت أمشي فوق رجلي قائماً عليها ، وقد كانت طويلاً قعودها
ورد إليه نفسه وقد بلغت مكان المخنق ، وكان له خير جار ألبسه رداء
الأمن فما ينسى نعمته أنه طليقه ، وما أكثر ما كان يملؤه القلق عليه أن
تمسه حادثة في ملاقاته الترك فهو يسأل البريد على دهش ثم يعلن في زهو
أنه سيحبر في مدح أسد خير القصائد :

كأنها الذهب العقيان حبرها لسانُ أشعرِ خلق الله شيطاننا

وفي مطلع قصيدتين من قصائد المديح ، وصف الفرزدق السفينة التي حملته
الى أسد :

وراحلة قد عودوني ركوبها وما كنت ركاباً لها حين ترحل
قوائمها أيدي الرجال إذا اتحت وتحمل من فيها قعوداً وتحمل

وهو من أوائل ما قيل في وصف السفن^(١) .

وأقبل يمدح الولاية ويتقرب اليهم ، قصد بلال بن أبي بردة الأشعري وكان على شرطة البصرة سنة ١٠٩ هـ ، ثم ولي أمور البصرة كلها : الأحداث والصلاة والقضاء (١١٠ - ١٢٠ هـ) ، فأفرغ عليه ذنوب مدائحه ، وكان الفرزدق شيخاً هيمًا فانياً ، يحس شيخوخته ويدرك ما نابيه من ضعف : وأصبحت مثل النسر أصبح واقعاً وأفناه من كر الليالي ذهابها ولكن حب الحياة ما زال يتدفق في عروقه حاراً فإذا هو ينسب بطيبة التي كان قد خطبها بعد ما أسن وكبر :

وطيبة دائي ، والشفاء لقاؤها وهل أنا مدعو لنفسي طيبها

ثم يقبل على بلال الجود ، يقطع اليه الفلاة والأتياه تعاوي ذئابها ، لا يعبأ بما ناله من تعب في اجتياز الدهنا الواسعة ليحظى بقاء ممدوحه الذي عرف بالشجاعة والهيبة « تخشع اليه الأبصار » ، والكرم « لا تُحجّل قِدْره » ، ومنع الجيران • ويبدى ويعيد في ذكر جده أبي موسى الأشعري خليل محمد ، يرفع اليه أصحاب الرسول حوائجهم ثم يؤكد أن قناة الدين كانت عوجاء فقومها بلال وأنه يحفظ ما في المصاحف ، ويعد أن تتوالى قصائده في مديحه :

ستأتي بلالاً مدحتي حيث يمت به العيس ، أو سود عليها جلالها

إنها قصائد تخذ ثناءه عليه ، ترددها أفواه الرواة وتبلغ المواسم في مكة :

لتطلعن مني بلالاً قصيدة طويل بأفواه الرواة ارتجالها

وقد اتسمت قصائد الفرزدق الأخيرة بشدة الملق والإلحاح بالمسألة ، وزايلتها

(١) ديوان الفرزدق : ١٦٨ ، ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٤١٤ ،

٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥

نفحات الفتوة التي كانت تظالنا بها قصائده أيام شبابه ، وقد أدرك ذلك بلال بن أبي بردة وكان راوية فصيحاً أديباً ، يجتمع في مجلسه الرواة والعلماء والشعراء ، فحدثت المدائني وأبو عبيدة أن بلالاً قال للفرزدق ، وقد أنشده لاميته السابقة ، : « هلكت وخرفت وذهب شعرك ، أين هذا من شعرك في سعيد بن العاص ، وفلان وفلان » فقال الفرزدق : « ائتني بحسب كأحسابهم حتى أقول فيك كقولي فيهم » فغضب بلال وقال له جلساؤه : ستكفاه • فأمسك عنه فلم يحل عليه الحول حتى مات (١) •

ومدح الفرزدق أبان بن الوليد البجلي ، وكان على فارس ولاء إياها خالد القسري ، وكان قبل على شرطته ، ويتجلى في مديحه الإلحاح في الطلب والإلحاح في المسألة اللذان يبلغان حد الضراعة ، وهو يفيض في وصف كرمه ويطنل ، وكان المال قد شغل على الشاعر نفسه ، فلا يفتأ يبدىء ويعيد الحديث فيه ، وكان يزيد من إلحاحه مهر طيبة التي علق بها على كبر ، ولم يكن لديه ما طلبوا منه فجاء يستمد أبانا ويستميحه :

رأيت بحور أقوام نضوباً وبحرك يا أبان يفيض يجري

وكان يضيف الى ذلك مديح بجيلة قبيلة أبان ، ثم يعطف الى مديح أسرته :

وقد علمت بجيلة أن منكم فوارسها ، وصاحب كل ثغر

والعجب أن الشاعر لم يكن لينسى نفسه والفخر بقومه ، إنها شنشنة فيه لا يستطيع لها تركاً (٢) •

(١) ديوان الفرزدق : ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، أنساب الاشراف (ط) ٢/٤ : ١٣٤ ، (خ) ١١ : ٦٠ ، الاغاني ١٧ : ٢١ ، ٣٣٢ : ٣٨٧ طبقات ابن سلام : ٤٨٣
(٢) ديوان الفرزدق : ٦١ ، ٣٧٤ ، ٤٢٠ ، ٥٤٧ ، ٨٧٦ ، أخبار القضاة ١ : ٣٥٧

ومدح المهاجر بن عبد الله الكلابي^١ والي اليمامة لهشام ، وكان قد عاد عن هجاء قيس وفاخر بها وبخندف ، ولكنه لم يستخذ في مديحه بل باهى بأنه رفع سنانه عن هوازن بعد أن استسلمت ، وأسلمها جرير الذي رشته فكان لئىما لم يقو على الصدام ، وكان المهاجر قد أصابه رشاش من هجاء الفرزدق إذ عده مؤثرا لجرير ، ويبدو من نسج القصيدة التي مدح بها المهاجر أنها قيلت قبل أن يدخل السجن فما تحس فيها الضراعة التي تلمسها في قصائده الأخر^(١) .

وكان آخر ممدوحيه خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ولي على المدينة (١١٤ - ١١٨ هـ) ، ولاه عليها هشام بن عبد الملك ، فقصد الفرزدق الى المدينة ليمدح ملكا :

نمته فروع الزبرقان ، وقد نسى به من قريش الأبطحين أوائله^(٢)

وآن لهذا المتعب المكدود أن يستريح ، توفي ابن له صغير ، فصلى عليه ثم التفت الى الناس فقال :

وما نحن إلا مثلهم ، غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدموا

وصدق حدسه ، أصابته ذات الجنب ، أو الدشبيلة ، وهو بالبادية فقدم به الى البصرة ، وكان يعاني آلاما شدادا ، ويغمى عليه اغماء يظنه له أهله أن قد فارق الدنيا ، ولكن الفرزدق ، الى ذلك ، ظل مالكا لنفسه ، لم يضطرب عليه أمره ، ولعل سر اطمئنانه يكمن فيما عرف به من ثقة بالله وطمع في عفوه ، وإن فيما رواه عن أبي هريرة وإن فيما أجاب به الحسن البصري ،

(١) ديوان الفرزدق : ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٧ ، النقائض : ٩٣٤

(٢) ديوان الفرزدق : ٦٣٣ ، الطبري ٥ : ٤٢٥ ، أخبار القضاة

١ : ١٧١ ، ١٧٤

وعمارة بن القعقاع ، حين ذكره يوم الدين ، لدليلاً أي دليل على مبلغ ما كان يثلج قلبه من ايمان لا محل فيه لليأس من رحمة الله . وقال أبو عمرو بن العلاء : « حضرت الفرزدق وهو يجود بنفسه ، فما رأيت أحسن ثقة بالله منه » . ومن هنا ظلت أقواله الأخيرة وتصرفاته وثيقة الصلة بسجاياه ، ظل يستعذب الشعر الجيد ، ويرويهِ ويردده ، ولم تفارقه روح الفكاهة في أشد ساعات أوجاعه فقد وصف له رجل من بني قيس متطبب أن يكوى ويشرب النفط الأبيض فقال لابنه لبطة وهو يسقيه : « يا بني ، إنك قد عجلت لأبيك شراب أهل النار » ، كما أنه لم يفارقه اعتداده بنفسه واعتزازه بما كان يقوم به في قومه ، ثم ما كان يكنه لهم من حب وإيثار ملكا عليه أمره ، حتى إنه ليوصي اليهم وينصح لهم بما يفعلون وهو على عتبة الآخرة . ومات الفرزدق سنة ١١٤ هـ وهو ابن ست وتسعين سنة ، ودفن بالبصرة في مقابر بني تميم . وأقامت العلية ابنة أخيه الأخطل ، على قبره سبعة أيام تنحرف في كل يوم جزورا . وبلغ نعيه جريرا في اليمامة فشمت به أول وهلة ثم ما لبث أن أحس بخطئه وأن بقاءه بعده قليل ، فرثاه وبكى فيه الوافد الميمون ، والرائق الثأى ، وحمال الديات ، وحامي تميم ، وممن رثاه وأشاد به ، وذكر عظم الخسارة بفقده أبو ليلي الأبيضي المجاشعي ، ولما لحق جرير بربه بعد قليل أعاد أبو ليلي القول في رثاء شاعري تميم اللذين تتابعا ، مجيبين للداعي الذي قد دعاهما (١) .

(ذكر بعض الرواة أن وفاة الفرزدق كانت سنة ١١٠ هـ ، وقد رده صاحب الأغاني ، ورآه غلطا من الراوي أبي زيد عمر بن شبثة النميري

(١) الاغاني ٨ : ٨٨ ، ٢١ : ٤٠٨ - ٤١٧ ، ٤١٩ ، النقائص : ١٠٤٥ - ١٠٤٦ ، أنساب الاشراف ١١ : ٣٦ ، ٥٣ - ٥٥ ، طبقات ابن سلام : ٣٥٦ - ٣٥٧ ، الشعر والشعراء : ٢٩٤ ، تاريخ الاسلام : ١٧٨ ، شذرات الذهب ١ : ١٤٢ ، معاهد التنصيص ١ : ٥٠ ، ديوان الفرزدق : ٢٦٢ ت ١ ، شرح المقامات ٢ : ٢٧٣

البصريّ (ت ٢٦٣ هـ) ، ودليله أن الفرزدق ذكر في مواضع من قصائده يوم كاظمة ، الذي وقع في سنة ١١٢ هـ ، وأضيف الى دليل صاحب الأغاني أن الفرزدق رثى الجراح بن عبد الله الحكمي الذي استشهد سنة ١١٢ هـ ، ورجح أبو الفرج أن وفاته كانت سنة ١١٤ هـ ، لخبر رواه المدائني ، وهو ما ذهب إليه ، وأؤيد الخبر بما ورد في الديوان من مديح خالد بن عبد الملك بولاية المدينة ، وإنما وليها سنة ١١٤ هـ (١) .

ويكاد التاريخ يسدل ستوره على أسرة الفرزدق فلا ينبئنا من أخبارها الا القليل ، فقد روي أن بنيه من النوار : لبطة وسبطة وخبطة وركضة ، ومن غيرها زمعة (٢) وكان له غيرهم فماتوا ولم يعرفوا الا برثاء الفرزدق إياهم ، وكان له بنات خمس أو ست .

وكان لبطة أشهر أبنائه ، روى أخبار أبيه وأشعاره ، وكان ينشد قصائده بين يدي الخلفاء والأمراء في صحبة أبيه أو رسوله إليهم ، وكان لبطة أدبيا ذواقة يسأل أباه ، ويذاكره في أمر الشعراء ، وقال الشعر حتى عده المرزباني من الشعراء وأثبتته في معجمه ، وكان رضي الخلق ، ثقة فيما يرويه ، رضي عنه رجال الجرح والتعديل على ما عرفوا به من تشدد ، وروى عنه المحدث الكبير سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) ويذكر الأخباريون أنه أحد العققة ، وينشدون في عقوقه قصيدة أبيه الفرزدق فيه ، وهي تدل على نكران وجحود بالغين ، ولكن ما نعرفه من أخبار لبطة ووقوفه الى جانب أبيه في كثير من الحوادث يمنعنا أن نقبل فيه قول أبيه ، فقد كان الابن يجلب أباه ويحترمه ، فعني بجمع تراثه وروايته ، وذكر أخباره ذكر المطمئن الواثق ، وبلغ من حبه لأبيه أن رآه في منامه بعد وفاته وقد غفر له ،

(١) الاغاني : ٢١ : ٤١١ - ٤١٣ ، الطبري ٥ : ٤١٠ ، ٤٢٥ ، ديوان الفرزدق : ٦٣٣ ، ٧٨٩ ، ٨٠٦ ، تهذيب التهذيب ٧ : ٤٦٠ - ٤٦١ .
(٢) اختلف في أسماء أبناء الفرزدق وعدتهم ، ولعل ما ذكرناه أرجحها .

وكان له في حياته نعم الرفيق ينصح له ويرفق به ، فإن ألمت به شدة كان رسوله الى الخلفاء والأمراء يستشفع له • وما مظهر العقوق الذي نعاه عليه أبوه الا حبه لأمه النوار وعنايته بها ووقوفه الى جانبها ، يدافع عنها ظلم أييه ، ولذلك عاشت أمه في كنفه بعد طلاقها حتى ماتت • ولعل مما يدل على حب لبطة لأهله جميعا أن زوجه العلية بنت الأخطل حزنت على عمها الفرزدق يوم وفاته حزنا بالغا ، وأن لبطة وقد تكنى بأبي غالب وفاء لذكرى جده لأبيه ، قد سمى ابنه أعين وفاء لذكرى جده لأمه أعين بن ضبيعة • وقد طعن لبطة في السن وأصبح شيخا كبيرا ولكن لم تمنعه سنه العالية من أن يتحمس للثورة التي قام بها ابراهيم بن عبد الله في البصرة سنة ١٤٥ هـ ، وهي ثورة اجتذبت اليها كثيرا من الزيدية والمعتزلة وأهل الحديث والأتقياء الورعين ، ونهض لبطة يدعو اليها ويجمع الأنصار والاعوان يؤلبهم على بني العباس ، حتى جعله ابراهيم أحد قواده ، ولما قضي على الثورة وقتل ابراهيم ، دُعي لبطة الى الفرار فقال لمخاطبه : « قف ها هنا نعش جميعا أو نمت جميعا » وقتل وهو يقول : « لا ملجأ من الله الا اليه » • ونصب رأسه مع ما نصب من الرؤوس وقد علقت في اذنه رقعة مكتوب فيها : « رأس لبطة ابن الفرزدق » • وقام ابنه أعين بن لبطة ، فروى عن أبيه كثيرا من أخبار جده الفرزدق ، ولقيه كبار الرواة من أمثال أبي عبيدة ، والأصمعي ، فنقلوا عنه أخبار جده وأشعاره ، وللأصمعي رواية عن لبطة أبيه •

وكان زمعة بن الفرزدق شاعرا • أما البنات فشهرت منهن مكية وبها كان يكنى الفرزدق في شبابه، وهي أغرب كنيته ، وكانت مكية سيئة الخلق، سليطة اللسان ، حتى ضج أهلها منها ولكن الفرزدق آثرها بعطفه وحباها بحب وحنان عظيمين :

ربيبة دايات ثلاث ربينها يلقمها من كل سخن ومبرد
إذا اتبعت أطعمتها وسقيناها وإن أخذتها نعسة لم تسهد

ولا يذكر الأخباريون شيئاً عن بناته الأخر اللائي كان الفرزدق يتخوف عليهن الشكل .

وتسدل الستور على هذه الأسرة ، فيقول ابن حزم في الجمهرة : « ولا عقب للفرزدق » . ويقول ابن قتيبة في الشعر والشعراء : « وليس لواحد من ولده عقب الا من النساء » . ولكننا نجد في كتب الأخبار والتراجم إماماً من أئمة النحو واللغة والتصريف في القرن الخامس الهجري ينتمي الى الفرزدق ، وهو أبو الحسن علي^ث بن فضال بن علي بن غالب ، يعرف بالفرزدقي المجاشعي ، القيرواني (ت ٤٧٩ هـ) ، وهو من أبناء زمعة ابن الفرزدق . وله من الكتب التي تناقلها الناس : الإشارة في تحسين العبارة ، وشجرة الذهب في معرفة أئمة الأدب ، والمقدمة في النحو ، وغيرها^(١) .

(١) أنساب الاشراف ٣ : ٢٩ ، ١١ : ٣٥ ، ٣٨ ، ٦٦ ، ٨٤ - ٨٥ ، عيون الاخبار ٤ : ١٢٣ ، جمهرة ابن حزم : ٢١٩ ، النفاضة : ٥٩٤ ، مقاتل الطالبين : ٣٦٩ ، معجم الشعراء : ٢٥٤ ، الاغاني ٧ : ٢٣٢ ، ٢١ : ٣٠٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، نوادر المخطوطات ٢ : ٣٥٦ ، الاشتقاق : ١٤٧ ، لسان العرب والتاج (كلط ، لبط ،) أمالي المرتضى ١ : ٦٢ ، لسان الميزان ٤ : ٤٣٣ ، الشعر والشعراء : ٢٩٢ ، معجم الادباء ٥ : ٢٨٩ - ٢٩٤ ، المنتخب : ٦ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ديوان الفرزدق : ١٢٤ ، ١٨٢ ، ٦٨٦ ، ٨٨٠ ، ٨٨٥ ، شرح المقامات ٢ : ٣٠١ ، بنية الوعاة : ٣٤٥ ، انباه الرواة ٢ : ٢٩٩

الباب الثاني في شعر الفردق

« إن الفردق صخرة عادية

طالت ، فليس تنالها ، الأوعلا »

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

مصداق شعر الفرزدق

ضم القسم الأكبر من شعر الفرزدق مجموعان : ديوانه ، وكتاب النقائض ، ذلك بأن الرواة القدماء قد أفردوا نقائض جرير والفرزدق بديوان مستقل ، لما بينها من ترابط لا يحلُّ به أن تفصل لتوزع مبشرة في ديواني الشعارين ، فكان أن جرد الديوانان منها^(١) . وبقيت بقية من شعر الفرزدق توزعتها كتب الأدب والنحو والتاريخ والبلدان واللغة والتفسير . وقد زلت أقدام طائفة من العلماء ، قدماء ومحدثين ، غابت عنهم هذه التفرقة التي وزع بها شعر الشاعر ، بين ديوانه والنقائض ، فكانوا يقعون في الغلط حين يعودون الى الديوان فحسب . من ذلك الإمام العيني حين عرض لقول الفرزدق :

قنافذ هداجون حول بيوتهم بما كان إياهم عطية عودا

قال : « لم أقف على ما قبله وما بعده » لأنه رجع الى الديوان ولم يرجع الى النقائض ، وكذلك المستشرق بوشيه الذي بدأ طبع ديوان الفرزدق فقد ذكر بيتين للفرزدق في معجم البلدان فقال : إنهما لم يردا في ديوانه ، وهما بيتان شهيران في النقيضة الميمية التي قالها في قتيبة بن مسلم^(٢) .

(١) فهرست ابن خير: ٣٩٦ ، وان الديوان الذي وصل إلينا برواية السكري عن ابن حبيب قد التزم هذه التفرقة ، ولكن يبدو أن رواة آخرين لم يلتزموا مثل هذه التفرقة ، انظر : خزانة الادب ٣ : ٦٦٩ ، شرح شواهد المغني ٦٠١ : (٢) خزانة الادب ٢ : ٢٤ ، ديوان الفرزدق (ط . باريس ، الترجمة الفرنسية) : ٦٤٠ ت ٤

(١)

ديوان الفرزدق :

ويتناول الحديث عن الديوان أن نذكر طبعات الديوان وننقدها أولاً،
ثم نعقب عليها بذكر مخطوطات الديوان ووصفها •

١ - الديوان المطبوع :

كان المستشرق الفرنسي ريشارد بوشيه ، أول من قام بطبع ديوان
الفرزدق ، وترجمته الى الفرنسية ، فقد أصدر منه في باريس أربعة كتيبات:
الأول - ١٨٧٠ ، الثاني - ١٨٧٢ ، الثالث والرابع - ١٨٧٥ ، وحالت منيته
دون اتمامه^(١) •

جعل بوشيه شعر الفرزدق في قسم الكتيب الأيمن والترجمة في
قسمه الأيسر ، وجعل أرقام الصفحات في كل من النص العربي والترجمة
الفرنسية متتابعة في الكتيبات الأربعة فبلغت صفحات النص العربي (٢٤٠)
صفحة^(٢) بكل كتيب ستون صفحة • وبلغت صفحات الترجمة (٧٢٧) •

ورقم بوشيه القصائد والمقطوعات المترجمة فبلغت ٢٦٠ ، ووضع في

(١) ريشارد بوشيه (١٨٤٣ - ١٨٨٦ م) . ترجمته في الجريدة
الآسيوية ، المجلد الثاني عشر ، عام ١٨٨٨ م ، (ص : ٤١ - ٤٢) .

(٢) وهي تقابل (١٣٤) ورقة الا أسطرا ، من مخطوطة أيا صوفيا
التي اعتمد عليها في نشر الديوان .

هامش مطالعها رقما يشير الى صفحة نصها العربي ليسهل الرجوع اليه والموازنة بينه وبين الترجمة ، وبلغ بترجمته الصفحة ٢٤١ من النص العربي وهي الصفحة التي كان يزعم أن يفتح بها الكتيب الخامس ، فزاد المترجم من الشعر بذلك على ما في النص العربي ثلاث قطع (ص ٧٢٥ - ٧٢٧ ، الترجمة الفرنسية) • فيكون النص العربي قد حوى ٢٥٧ ما بين قصيدة ومقطوعة وبيت مفرد^(١) .

للكتاب مقدمة فرنسية يشير فيها الناشر بايجاز الى حياة الفرزدق وذيوع شهرته ويعده بدراسة وافية تأتي بعد انجاز عمله في الديوان ، ثم يتحدث عن مخطوطة الديوان التي اعتمد عليها في نشره ، فيذكر أنها النسخة التي أهداها السلطان محمود^(٢) الى مكتبة أيا صوفيا ، وهي تحمل الرقم ٣٨٨٤ ، في فهرس مخطوطات المكتبة ، ويؤكد أنها المخطوطة الوحيدة في مكاتب القسطنطينية التي حفظت ديوان الفرزدق بشرح محمد بن حبيب الراوية الذي جمع أيضا : تعاريف جرير والفرزدق ، ونقائض جرير والفرزدق^(٣) . ويرى بوشيه أن شرح ابن حبيب قد حرره ورتبه أبو سعيد [السكري] ، وأنه يرمز بأسماء اللغويين الرواة : أبي عبيدة ، وابن الأعرابي ، وسعدان ، وأبي علي الجرمازي ، وهم الذين استمدوا أصول شروحيهم دون شك من

(١) ويشير الى هذه الطبعة طائفة من الباحثين ، ومن المستشرقين خاصة ، ولكن نسختها قليلة في البلاد العربية ، فجهلها لذلك قوم . انظر : تاريخ الدولة العربية : ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، وأخطأ صاحب معجم المطبوعات العربية والمعرية ٢ : ١٤٤٤ ، حين جعل عدد القصائد في طبعة بوشيه ، ٢٣٠ فقط .

(٢) ولي السلطان محمود الثاني السلطنة : (١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ) ،

(١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) .

(٣) أشار الى الكتابين حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون ١ : ٤١٦ ،

٢ : ١٩٧٣ ، وتابعه بوشيه ، والحق أنهما كتاب واحد : هو النقائض ، تصحف اسمه على حاجي خليفة الذي لم ير الكتاب ، بل نقل اسمه من بطون الصحف ، فضل .

شرح المفضل أبي شفقل^(١) ، نديم الفرزدق ، وكاتبه وراويته ، وقد أُلّف شرحه بإملاء الفرزدق عليه^(٢) . وكان هذه النسخة جزء من مجموعة تحوي شعر جرير والفرزدق ، دلّ على ذلك ما ذكره الشارح في مقدمة القصيدة التي قالها الفرزدق في مدح الوليد بن عبد الملك حين هدم بيعة دمشق إذ قال : وقد مر حديثها في شعر جرير^(٣) . وقد كتبت مخطوطة ديوان الفرزدق بخط جيد ، وعورضت على أصل ، وأشير الى تلك المعارضة في هامش كل كراس ، وكان الأصل المنقول عنه مجزأ أجزاء ، وأشير في هامش الورقة ٣٥ الى آخر الجزء الأول من الأصل ، وفي هامش الورقة ٦٨ الى آخر الجزء الثاني^(٤) . وعدد أوراق النسخة ٢٦٤ ورقة . ولم يعين تاريخ نسخها . ولكن ذكر أحد مالكيها أنها وقعت في حوزته عام ٦٦٧ هـ ، وختم يوشيه وصف النسخة بتصوير الصفحة الاولى من المخطوطة ، زين بها مطلع

(١) اعتمد يوشيه في ذكر « المفضل أبي شفقل » على ما ورد في ديوان الفرزدق : ٣٦٣ ، « حدث المفضل أبو شفقل » وقد رفع اسم المفضل في المخطوطة : « اياصوفيا : ٢٧٨ ، هل : ٥٤ » . والصواب أن ينصب ، وقد عودت المخطوطة مثل هذا الخطأ في حركات الاعراب لسقم أصلها على ما أكده الناسخ في خاتمتها ، ويقوي ما ذهب اليه أن نسخة الهند : ٨٣ ، لم تشكل الاسم . ولئن اختلف الرواة في اسم أبي شفقل ، على ما يمر بك بعد ، إن اسم المفضل ليس من أسمائه ، وإنما المفضل هو المفضل الضبي الذي روى عنه ابن الاعرابي ديوان الفرزدق (وانظر الديوان : ٦٩٩) .

(٢) أخطأ الناشر في تعرف أثر أبي سعيد السكري ، وآثار الرواة علماء اللغة ، وسيأتي بيان ذلك في الفقرة التي أتحدث فيها عن رواية الديوان وتوثيقه .

(٣) ديوان الفرزدق : ٧٦٧ ، وعذرة يوشيه موهمة ، وكان الصواب أن يقول : أملى محمد بن حبيب شعر الفرزدق بعد أن أملى شعر جرير ، والنقائض (انظر ديوان الفرزدق : ١٨٣ ، ٣١٦ ، المصرية : ٤٥ ، اكسفورد : ٢٧٤ ، ايا صوفيا : ١٦٢) .

(٤) أصبحت الورقة ٣٥ من مخطوطة اياصوفيا ، بعد الخروم ، الورقة ١٦ ، وتقع الاشارة في نهاية القصيدة ٣٧ ، ووقع مثلها في نسخة اكسفورد : ٢١٤ ، أما الورقة ٦٨ فقد فقدت فيما فقد على ما نبينه بعد .

الديوان ، وأوضح ما كتب في هذه الصفحة وفسره^(١) .

أفاد بوشيه في ترجمته الفرنسية من شرح ابن حبيب ، وعاد الى مصادر عربية مختلفة لايضاح الغامض من شعر الفرزدق ، ولكنه أباح لنفسه أن يعبث بالنص العربي فجرده من شروحه ، واقتصر على طبع الشعر وحده ، فترك في عمله صدعا لا سبيل الى رآبه الا بعمل جديد وعود على بدء ، ويبدو عظم الخسارة حين ندرك ما أصاب النسخة بعده من ضياع أوراق بلغت الثمانين عدا . والقصائد في الديوان المطبوع مشكولة ، ولكن يكثر الخطأ في ضبط الكلمات وحركات الإعراب ، لأن بوشيه اعتمد على ضبط نسخة الديوان في الأعم الاغلب ، ولم يحاول إلا في مواضع معدودة رد الخطأ الى الصواب . ويقع بوشيه في التصحيف والتحريف من مثل : « فرقتها ، طريق لزيات تقاد ركائبه ، وإن تتجر مني تنلك المحافر ، تعجل بالمعبوط :

وأين مناخي عنكم إن نبوتهم عليّ ، وهل تنبو صدور الصوارم ؟ » فقد وقعت في طبعته مصحفة محرفة^(٢) ، الى أمثال لها كثيرات . وقد يبدل الصحيح المستقيم من مثل : ولو كانوا أولي غلق شغابا (ص ٨٢) ، فجعل ذوي بدل أولي لئلا يختل الوزن ، ولا اختلال ولا فساد . وكذلك : لعبن بنجد والملا كل ملعب (ص ١٤٦) فأثر لعبت على لعبن ، فأفسد المعنى ، ومثله : تدني من أدنى الله حرمة (ص ٢٣٦) وهو موزون مستقيم

(١) أطلت في تلخيص ما قاله بوشيه عن مخطوطة أيا صوفيا ، لانه الوحيد الذي رآها تامة قبل أن تتخللها الخروم . وأضيف الى ذلك أن بوشيه أشار الى نسخة المتحف بلندن والى نسخة أكسفورد اللتين علم بهما بعد أن بدأ الطبع (انظر مقدمة الكتيب الثاني ، وانظر ص : ١٦٢ ، ٢٨٥ ت ٢ ، ٦٩٦ ت ١ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٢) أثبت الصحيح ، وتجد التحريف والتصحيف في ديوان الفرزدق (ط باريس) : ٤ ، ٧٤ ، ٨١ ، ١١٧ ، ١٢٩

من البحر الكامل ولكنه أبي إلا أن يخل بوزنه ويحرفه عما ورد^(١) . وقد يستعصي عليه معنى النص فيخبط في ترجمته ، أو يحاول تفسيره فتزلّ به قدمه، وتقع له من ذلك أعاجيب ، ولن أضرب لذلك الأمثال ، وهي كثيرة ، لأنها خارجة عن نطاق بحثي ، ويكفيني أن أذكر أشياء تتصل بتفسير الألفاظ تكون شاهدا لما وراءها : يقول الفرزدق : فإن أبا بكر (ص ٤) فيقروها بوشيه بكسر الباء من بكر فيفسد معناها ، ويقول الفرزدق في رثاء مالك بن مسمع (ص ١٦٠) : تضعض طودا وائلٍ بعد مالك ، فظن الطودين — وهما بكر وتغلب ابنا وائل — يشكر وعلياً ابني بكر . ويقول الفرزدق في مدح أبي مروان بشر بن مروان والي العراقين (ص ١٦٠) :

وما لأبي مروان بعد محمد وبعد أمير المؤمنين ضريبٌ

يمدحه بأنه خير الناس بعد النبي « ص » والخليفة عبد الملك بن مروان ، ولكن بوشيه يتحدث عن محمد بن مروان ويفيض في وصف حروبه حتى مماته (سنة ١٠٢ هـ) ويضيف أن أمير المؤمنين هو عمر بن عبد العزيز . ويقول الحرمازي عن عبد الرحمن بن برثن : « وكان من أبناء الأعاجم » (ص ١٦٢) ، فيطيل بوشيه في التفسير ويغمّ عليه اللفظ فيخلط بين أبناء الأعاجم ومن سمّي الأبناء في اليمن من الذين انحدروا من نسل الفرس الذين جاء بهم وهرز الى اليمن سنة ٥٩١ م لطردهم الأعباش فاستقروا باليمن وتزوجوا العربيات وأنسلوا . ويقول الفرزدق أربعة أبيات يعتذر الى قومه (ص ٨٨) ، ويذكر محمد بن حبيب أن بيتين منها لابن أحمر ، أخذهما منه الفرزدق ، وهو يعني عمرو بن أحمر الباهليّ الشاعر المخضرم الفحل الذي شهر بصحة كلامه وغريب شعره (توفي على عهد عثمان) ، ولكن بوشيه

(١) ديوان الفرزدق (الترجمة الفرنسية) : ٢١٥ ت ٢ ، ٣٢٣ ت ١ ، ٧٠٩ ت ٣ ، والصفحات المثبتة في الأعلى هي صفحات طبعة باريس .

صرفه الى خلف بن الأحمر (وهو يقصد أبا محرز خلف بن حيان الأحمر البصري المتوفى في حدود سنة ثمانين ومائة) وأخذ يتحدث عما عرف به خلف من تقليد أساليب الشعراء القدماء وادخاله شعره في قصائدهم ، دون أن يفتن الى تأخر خلف الأحمر عن الفرزدق الشاعر • ولما قال الفرزدق في هجاء ابن الأشعث وأصحابه (ص ٢١١) :

ولو أنهم إذ نافقوا كان منهم يهوديهم ، كانوا بذلك أعذرا

لم يرتض بوشيه رأي ابن حبيب في أن المعنيّ بيت الفرزدق عبد الرحمن ابن الأشعث ، وأصر أنه عبد الله بن سبأ ، وهذا اغراب عجيب^(١) • ويبيض الديوان بمثل هذه الأغلاط ، ولم أذكر ما ذكرت إلا لأن طائفة منها تسلفت ، بعد ذلك ، الى طبعة الصاوي القاهرية • ولم ينبه بوشيه الى ما تكرر وروده في الديوان ولا الى ما كان رواية ثانية للقصيدة أتم وأوسع • فالبيتان ذوا الرقم ١٣٥ (ص ١٤١) قد وردا في مفتتح القصيدة رقم ١٨٢ (ص ١٧٠) ، والقصيدة رقم ١٣٣ (ص ١٣٩) أتم وأوفى من المقطوعة رقم ٥٣ (ص ٧٠) • بل عمد الناشر الى تكرار ما كرره الناسخ سهوا وتكرار ترجمته^(٢) •

والترقيم الذي اتبعه بوشيه لم يكن دقيقا ، فالرقم ٥٧ شمل عنده بيتين مفردين كان حق كل منهما أن يحظى برقم مفرد ، والرقم ١٠٦ شمل مقطوعتين لاتفاقهما وزنا وقافية وموضوعا • والرقم ٢٣٩ شمل رجزين كان حقهما أن ينالا رقمين اثنين ، وأسقط الأرجوزة (ص ٢٣٠) لفحشها من الترجمة فأسقط رقمها ، وجعل الرقم ٢٣٤ يتقدم الرقم ٢٣٣ في النص العربي ،

(١) ديوان الفرزدق (الترجمة الفرنسية) : ٧ ، ٢٣٥ ت ٢ ، ٤٧٣ ت ٢ ،

٤٧٥ ت ٢ ، ٤٨٣ ت ٢ ، ٦٣٣ ت ٢

(٢) ديوان الفرزدق : (ط باريس) : ٢٢٧ ، (الترجمة الفرنسية) : ٦٧٧

أما المقطوعة رقم ٥ فقد غلط في نسبتها الى الفرزدق وانما هي لأسماء بن خارجة الفزاري^(١) ، وردت في الشرح شاهدا لكلمة الصيق بمعنى الغبار ، فالتبس الأمر على الناشر وظنها من شعر الفرزدق ، وقد أوقعه ذلك في خطأ ثان فقد ذكر ابن حبيب في أعقاب القصيدة الرابعة حديثها ، لما له من شأن في حياة الفرزدق ، ولكن بوشيه ألحق الحديث بالقصيدة التي توهمها خامسة ، وما هي إلا شاهد لغوي ، فلبس الأمر على القارئ^(٢) ، بل وقع في اللبس الصاوي نفسه حين طبع الديوان في القاهرة .

— حالت المنية دون أن يتم بوشيه طبع ديوان الفرزدق ، وعدت طبعته الجزء الأول من الديوان ، وطال انتظار الجزء الثاني ، حتى قام المستشرق الألماني يوسف هل بعد خمسة وعشرين عاما ينجز عمل سابقه ، فأصدر في ميونيخ (عام ١٩٠٠) الجزء الثاني من ديوان الفرزدق الذي أكمل به طبع الديوان ، ولم يسلك سبيل سلفه في تجريد الديوان من شروحه ، بل آثر تصوير الجزء الباقي من نسخة أيا صوفيا ليضمن أن يكون عمله أدق وأضبط ، فكان ما صوره سبعين صفحة (من ١ - ٧٠) تجمع كل صفحة منها صفتين من نسخة المخطوطة ، ما عدا الصفحة الأخيرة ، فكأنه صور تسعا وستين ورقة ، و صفحة واحدة من المخطوطة . وذيّل هل الجزء الثاني بفهرسين :

أحدهما : لقوافي الديوان بجزأيه ، وضم اليه قوافي نقائض الفرزدق التي استمدها من نسختين من نسخ النقائض ، مخطوطتين .
والثاني : لأسماء الأعلام التي وردت في الديوان بجزأيه .

(١) لسان العرب : (حشأ) ، (أوس) ، (صيق) ،
(ابل) ، (ذال) ، (هيل) ، مخطوطتا دمشق وأكسفورد .
(٢) ديوان الفرزدق : (ط باريس) : ٦ - ٨ (الترجمة الفرنسية) :

ورقم هل القصائد والمقطوعات والأبيات المفردة بأرقام كتبها ازاء المطالع ، متابعا اعداد الجزء الأول • فوقف به الرقم الأخير عند العدد (٥٠٦) • فكان بذلك عدد ما حواه الجزء الثاني من قصائد ، ومقطوعات ، وأبيات مفردة : (٢٤٩) • وأشار هل في مقدمة الجزء الثاني الى أن القصيدة : ٤٦٧ ناقصة ، وخيل اليه أن ورقة قد سقطت من المخطوطة ، ولكن الأمر كان أخطر من ذلك ، فما صدر الجزء الثاني حتى بادر المستشرق الانكليزي بيفان في كمبردج ، (وكانت قد آلت اليه نسخة بوشيه ، المنقولة عن مخطوطة أيا صوفيا) ، فأخبر أن الخرم الذي أصاب نسخة أيا صوفيا كبير ، وأنه يشمل (١٢٢) صفحة في نسخة بوشيه • ولم يكن بد أمام هل الذي عجز عن وجدان الأصل المفقود من أن يعود ، فينشر هذا القسم ، عن نسخة بوشيه ، المكتوبة بخط فارسيّ جميل ، وأصدره في ميونيخ (عام ١٩٠١) مصورا ، باسم الجزء الثاني ب ، وأشار الى أن القسم الأول الذي سبق تصويره يميز باسم الجزء الثاني أ • وذيل هذا الجزء بفهرسين ، لقوافيه وأعلامه ، ورقم قصائده فكانت : (١٩٨) ، وصحح ما وقع فيه الخطأ من أرقام القصائد السابقة • فكان مجموع ما ورد في الديوان كله من قصائد ، ومقطعات ، ومفردات (٧٠٤) : ٢٥٧ ، الجزء الاول (ط • بوشيه) ، ٢٤٩ ، الجزء الثاني أ ، ١٩٨ ، الجزء الثاني ب ، ولئن كان الجزء الثاني ب المصور أنيق الخط ، واضح الحروف ، إن الجزء الثاني أ يتعب النظر ، بدقة حروفه ، وتشابكها ، حتى ليصعب على المرء أن يتابع قراءته ، مما قلل الانتفاع به (١) •

(١) خفيت الصلة بين جزأي الديوان (ط بوشيه وهل) على كثير من الباحثين ، من أمثال الشيخ محمد محسن الامين العملي ، (أعيان الشيعة ٢/١ : ١٦٦ ، ٢٧٦ ، ٥١ : ٦٨) ، أما صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢ : ١٤٤٤ فقد أشار الى الجزء الثاني ، ب ، ولم يذكر شيئا عن الجزء الثاني ، أ .

واختار هل أن يقف بعمله عند هذا الحد ، فأخلى نفسه من تبعة التعليق والتصحيح ، راضيا عن نسخته المخطوطة ، مع أن ناسخها أشار في ختامها الى أنها « نقلت عن أصل فيه سقم ، وأشياء كثيرة غيرت ، وشكوك تحتاج الى أصل معتمد » فلم يحفل بلفظ سقط في بيت ، ولم يبال التصحيف والتحريف ، ولم يشر الى الجمل التي وقعت في غير مواقعها^(١) . بل إنه جاوز ذلك فلم يشر الى ما اعيد روايته من الأشعار ، مطابقا لما ورد في طبعة باريس ، أو مجتزأ منه ، أو أتم منه وأوفى ، أو رواية ثانية فيه . وكان يكفيه أن يشير اليها في الفهرس ، أو أن يضع الى جانبها الرقم الاول الذي ذكر في طبعة باريس ، ما دام قد جشم نفسه أن يذكر قوافي نقائص الفرزدق التي لم ترد في الديوان بل كانت حبيسة المخطوطات .

فالبيتان ٣٣٣ ، مجتزأان من القصيدة ٩٦ ، والقصيدة ٣٧٤ ، أتم من القصيدة ١١٦ والقصيدة ٣٧٧ أتم من القطعة ٧٢ ، والقصيدة ٣٨٤ هي القصيدة ١٨١ والمقطوعة ٣٩٩ رواية ثانية في المقطوعة ١٩٢ ، وتشتركان في المطلع . والمقطوعة ٤٠٣ هي المقطوعة ٤٥ ،

والبيتان ٤٢٤ هما البيتان ٦٣ ، مع اختلاف الرواية في البيت الثاني والمقطوعة ٤٥٨ هي القطعة ١٢٦ ، مع انفراد كل منهما بيت والبيت المفرد ٤٨٨ هو البيت ١٢٣ ، والبيتان ٥٠٨ هما البيتان ١٩١ والمقطوعة ٥٧٢ هي المقطوعة ١٦٩ ، والبيتان ٥٧٩ هما البيتان ١٤٥ والمقطوعة ٦١٥ هي المقطوعة ٤٦ ، والمقطوعة ٦١٦ هي المقطوعة ٤٧ والمقطوعة ٦٤٨ هي المقطوعة ٤٨ ، والقصيدة ٦٤٩ هي القصيدة ٤٩ والمقطوعة ٦٦٤ هي المقطوعة ١٦٣ ، والبيت ٦٦٧ رواية ثانية للبيت ٣٣٣ والمقطوعة ٧٠٢ مجتزأة من القصيدة ١٨

(١) ديوان الفرزدق (هل) : رقم ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٥١٧ ، ٦٣٧ ، ٦٤٤

بل إنه لم يشر الى شيء من ذلك في الجزء الثاني (بقسميه أ ، ب)
الذي قام بطبعه . فالقصيدتان ٢٧٧ ، ٣٩٥ ، تشتركان في الأبيات الخمسة
الاولى ، والبيتان ٤٤٥ هما البيتان ٣٤٠ ، ومطلع القصيدة ٤٦٧ هو رابع
أبيات القطعة ٥٦٤ . ويكتفي هل بأن يشير الى تداخل الأبيات في
القصيدتين ٢٩٠ ، ٤٧٥ (١) .

وكان على هل وقد أورد في الفهرس قوافي النقائض أن يشير الى
ما ورد منها في الديوان . فالقصائد ذوات الأرقام : ١٣٢ ، ٢٢٩ ، ٣٩١ ،
٥٠٠ هي النقائض ذوات الأرقام : ١٠٧ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ (٢) ، مع
اختلاف الرواية وعدد الأبيات، أما القطعة ٢٥٩ ، فهي جزء من النقيضة ٧٤ (٣) .

ولم ينج ترقيم هل من الخطأ : فالرقم ٤٢٥ ، يجمع قطعتين اتفقتا وزنا
ورويًا وتغاير موضوعهما ، أولاهما مديح ، وثانيتها هجاء ، فصل بينهما
بكلمة « تمت » التي يثبتها الناسخ في أعقاب كثير من القصائد والمقطوعات ،
مبالغة في الدقة والضبط ، والرقم ٥٩٧ ، يشمل بيتي مديح ، وثلاثة
أخرى ، ولم يرقم البيت المفرد الذي ورد على روي الزاي بين ٥١٣ ،
و ٥١٤ . ثم رقم قصائد وردت في أثناء الشرح لشعراء آخرين ، وكان
ينبغي له ألا يرقمها ، لأنها ليست من شعر الفرزدق . فالرقم ٥١٩ كلمة
لخالد بن الطيفان ، والرقم ٥٢٠ كلمة للمرقال ، والرقم ٦١٩ كلمة للهذم .
ثم اضطرت موازينه في تحديد البحور ، فالقصيدة ٣٢٧ ، — وهي من
الكامل : —

طرقت نوار ، ودون مطرقها جذب البرى لنواحلٍ صَعْرٍ

(١) ديوان الفرزدق (هل) ب ، المقدمة والفهارس : ٧

(٢) النقائض : ٩٨١ ، ١٠٠٤ ، ١٠٢٧ ، ١٠٣٩

(٣) النقائض : ٧٨٥

يميل فيها بين المنسرح والكامل • وقول الفرزدق (من مشطور السريع) :
٤٧٩ ،

سام بها يا ابن حريثٍ طولاً

• يجعله من الوافر (١) .

— وصدر في مصر ديوان الفرزدق ضمن مجموع يشتمل على خمسة
دواوين : للنابغة ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وعلقمة الفحل ،
والفرزدق • وقد تم طبع المجموع بالمطبعة الوهبية ، أواسط شهر ربيع
الأول سنة ١٢٩٣ هـ (ابريل ١٨٧٦ م) على ذمة السيد أمين بن عمر زيتونة ،
والمجموع مائتا صفحة ، ، خص منها ديوان الفرزدق ثنتان وستون صفحة
(ص ١٣٨ — ١٩٩) وأثبت في فاتحته : ديوان الفرزدق من رواية
الأصعي (ص : ١٣٨) •

وحين نستعرض الديوان نجد أن قصائده توافق في ترتيبها ، وتتابعها
قصائد ديوان بوشيه التي ملأت منه الصفحات (٢ — ١٣٤) ، وبلغ عددها
١٢٥ ، ولكن التطابق ليس تاماً في كل شيء • فالجزء الأخير من القصيدة
١٨ ، والقصيدة ١٩ ، وقعا في أعقاب ٩ ، والجزء الأوسط من القصيدة ١٨
وقع في أعقاب القصيدة ١٠ ، وسقطت القصائد : ١٢ ، ما عدا المطلع ،
١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، والجزء الأول (١١ بيتاً) من القصيدة
١٨ ، والقصيدة ٩٠ ، وتسعة عشر بيتاً من مطلع القصيدة ٩١ ، واختلطت
أبيات القصيدتين : ٤٢ ، ٤٣ ، بعد أن سقطت خمسة أبيات من آخر الأولى ،
وعشرة أبيات من أول الثانية ، وسقط الى ذلك ، البيت الثاني من
القصيدة ٥ ، ومطلع ٦ ، وخمسة أبيات في خاتمة القصيدة ١٤ ، وبيت من
القصيدة ١١٨ ، وسبعة أبيات من وسط القصيدة ١٢١ ، واستعاض عن

(١) ديوان الفرزدق (هل) أ ، الفهرست — فهرست القوافي : ٤ ، ٧

القصيدة ٥٣ بالقصيدة ١٣٣ ، التي هي أتم وأكمل^(١) ثم ختم الديوان بخبر عن المفضل الضبي ، وبخبر الفرزدق وهشام ومديحه علي بن الحسين ، وبخبر عن أبي عبيدة يؤكد أن شيطان جرير والفرزدق واحد . وهي أخبار وردت في كتب الأدب^(٢) . ولكن الناشر أخطأ في الخبر الأول إذ أضاف الى بيت رواه المفضل بيتا ثانيا من مقطوعة أخرى ، تشابه عليه الأمر فيهما ، لاتفاقهما وزنا ورويا^(٣) .

وهذا العرض يدل على أن الناشر وقع على مخطوطة تحوي القسم الأول من ديوان الفرزدق (نحو الثلث) ، فجردها من شروحها ، كما فعل بوشيه ، وطبعها ، وكان بها خروم واضطراب في الاوراق ظهرا في الموازنة بينها وبين مطبوعة باريس . ويؤكد ذلك أن مقدمات القصائد وأحاديثها توجز عنده ، أو تحول عن مواضعها أحيانا^(٤) ولكنه يذكر ، في أحيان أخرى ، أشياء لم تذكر عند بوشيه ، وأبرز تلك الزيادات : ما قاله الحرمازي في مقدمة القصيدة ٢٠ ، والاستطراد اللغوي في مقدمة القصيدة ٢٤ ، وذكر الرواية الثالثة في مقدمة القصيدة ٥١ ، وايضاح المراد بأبيات المقطوعة ٥٥ في أعقابها ، ورد طعمة الهجري على الفرزدق في أعقاب ٥٦ ، وتعدد الروايات في مقدمة ٦٠ ، وتفسير المراد في أعقاب ٧٧ ، والزيادة في

(١) خمسة دواوين : ١٦٧ - ١٦٨ ، ديوان الفرزدق (ط . باريس) : ٦٩ ، ١٣٩

(٢) الاغانى ٨ : ٣٢ - ٣٣ ، ٢١ : ٤٠١ ، ٣٠٩ ، وفيات الاعيان ٥ : ١٤٥ - ١٤٦

(٣) خمسة دواوين : ١٩٨ ، ديوان الفرزدق : ٨٤٤ ، ٨٤٨ ، جمهرة الامثال ١ : ٣٢٩ ، وفيات الاعيان ٥ : ١٤٠ - ١٤١

(٤) القصائد : ١ ، ٤ ، ١٠ ، ٣٠ ، ٣٩ ، خمسة دواوين : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٦٢

مقدمة ١١٩ (١) • أما مقدمة ١١٨ فهي تغاير مثلتها في مطبوعة باريس (٢) • وقد يقع التغيير في ترتيب الأبيات ونسقتها (٣) • وهذه الزيادات المذكورة في مخطوطة أيا صوفيا ، فرجح ذلك عندي أن يكون الناشر قد اطلع على جزء من مخطوطة اتخذه أساسا لنشره • وسيأتي بيان أنه اطلع على نسخة أكسفورد أو على منسوخة عنها (بحث المخطوطات ص: ٢٣٣ت ١) •

— وقامت المكتبة الأهلية ببيروت فأعادت سنة ١٩٠٩ (٤) طبع الدواوين الخمسة ، ولكنها جعلت كل ديوان مستقلاً بعنوانه وترقيم صفحاته ورتبت الدواوين على حروف القوافي ، وصدرت كل ديوان بكلمة عن الشاعر لا تجاوز الصفحة وبلغت صفحات ديوان الفرزدق ٩١ صفحة (٩٣-٣) ، وحوث القصائد التي وردت في مطبوع مصر ، ولكنها أهملت أشعارا كثرتها بذئثة ، فكان مما أهملت ، المقطوعات : ٣١ ، ٤٦ ، ٧٨ ، والمفردات : ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ولم تزد على مطبوع مصر غير بيتين مفردين أولهما :

لو أن كعبا وحامتا نشرا كانا جميعا في بعض ما يهب^(٥) (ص ٨)

والثاني :

إذا مت فانعيني بما أنا أهله فكل جميل قلت فهو مصدق^(٦) (ص ٢٩)

(١) خمسة دواوين : ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ - ١٧٧ ، ١٩٦

(٢) خمسة دواوين : ١٩٦

(٣) خمسة دواوين : ١٤٢ - ١٤٤ ، ديوان الفرزدق (الصاوي) : ٦١٨ - ٦٢٣ ، وترتيب الصاوي المنقول عن طبعة باريس هو المضطرب .

(٤) لم يذكر تاريخ الطبع على الديوان . ولكن مجلة المشرق (سنة ١٩٠٩ ، ص ٧١٠) نوهت بالكتاب فدات على زمن الطبع .

(٥) نسب الى الفرزدق في محاضرات الادباء ١ : ٣٥٦ ، والحق انه للكيميت من قصيدة مدح بها خالد القسري ، الاغاني ١٦ : ٣٥٥ (بيروت) .

(٦) ورد في محاضرات الادباء ٢ : ٢٩١ ، وهو من مقطوعة للفرزدق ، انظر : سرح العيون : ٢٣٨ ، كنيات الجرجاني : ١٢٢

ومما يؤخذ على الديوان أنه أخطأ في معرفة القوافي ، فوضع في قافية الهاء قصائد على روي اللام ، والقاف ، والباء ، والراء ، والميم ، والدال ، مخدوعا بهاء الوصل ولم يكن فيما أورد ، قصيدة واحدة على روي الهاء •

وأعدت المكتبة الأهلية في بيروت طبع ديوان الفرزدق ضمن كتاب فحول الشعراء الذي أصدرته (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م) وهو يشمل دواوين الشعراء الخمسة وهم : الفرزدق ، والنابغة الذبياني ، وجميل بثينة ، وذو الرمة ، وأمّية بن أبي الصلت • وكانت قد أصدرت الدواوين متفرقة مستقلة بأوقات متقاربة ، ثم جمعتها وصدرت المجموع بديوان الفرزدق ، وأثبتت على غلافه ما يشعر أنه الطبعة الثانية وأنها تمت في المطبعة العلمية ببيروت (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م) وأنه وقف على تصحيحه وطبعه بشير يموت •

الديوان مرتب على القوافي ، صفحاته ١٦٠ ، وفي مطلعها كلمة للناسر محمد جمال صاحب المكتبة الأهلية يذكر فيها بنشره الأول ، وتعقبها ترجمة الفرزدق (ص ٤ - ٩) لبشير يموت ، ويستقل الديوان باحدى وخمسين ومئة صفحة (١٠ - ١٦٠) ، ومجموع ما حواه الديوان والمقدمة (٢٠٠) ما بين قصيدة ، ومقطوعة ، وبيت مفرد • والعجب أن الناشر لم يلتزم بذكر جميع ما ورد في الطبعة الاولى فقد أسقط منها (٤٤) ما بين قصيدة ومقطوعة • وكان يبيح لنفسه اسقاط ما يشاء من أبيات القصيدة ، ويتعمد اسقاط ما اتصل بوصف الناقة والفلاة والغيث ، أو ذكر جذب البادية وبؤس أهلها ، ونعت النار الحمراء في ليل الشتاء ، ترشد الضيفان الى المبيت والقري ، وكان يسقط الى ذلك ، ما كان فاحش اللفظ ، هاتك الستر ، ولم يعلق على الديوان بشرح يكشف لفظة ، أو يفسر معنى •

— ثم قام في مصر الاستاذ عبد الله اسماعيل الصاوي فأصدر في (ذي الحجة ١٣٥٤ هـ — فبراير ١٩٣٦ م) ديوان الفرزدق في جزأين • وكان قد أصدر قبل ، ديوان جرير (١٩٣٤ م) ، وجزأين من نقائص جرير والفرزدق (١٩٣٥ م) ، أما مراجعه في نشر ديوان الفرزدق فهي : ديوان الفرزدق (ط • بوشيه وهل) ، ونسختا الشنقيطي والبارودي الخطيتان في دار الكتب المصرية ، وكتاب النقائص (ط • بيفان) ، وعدة من كتب الأدب لقي فيها أشعارا للفرزدق لم ترد في الديوان والنقائص ، وأشار في رؤوس القصائد بالحرف ب الى ما أخذه عن بوشيه ، وبالحرطين هـ ١ ، هـ ٢ ، الى ما أخذه عن هل بقسميه (ب ، أ) ، وبالحرط ن الى ما أخذه عن النقائص ، وبالحرط ق الى ما أخذه عن الشنقيطي من شروح • ولم يشر الى نسخة البارودي لأنها صورة من نسخة الشنقيطي ، أما المصادر الاخرى فقد أشار اليها بأسمائها^(١) ، ورتب القصائد على حروف القوافي •

وقد وازنت بين طبعة أوروبا وطبعة القاهرة فوجدت أن الصاوي قد أسقط من شعر الفرزدق القطعتين : ١٢٠ ، ٣٣٧ ، وحذف ما ورد في الشرح من أشعار الطرماح ، وابن نوفل الحميري ، وخالد بن الطيفان ، وجرير ، والمرقال ، ولهزم^(٢) ، واضطر أن يغفل الشرح اغفالا تاما من مطلع قافية الميم ، لأن للكتاب غاية يقف عندها^(٣) • ولم يدرك الصاوي الصلة بين ما طبعه بوشيه وهل ، ولا الصلة بين قسمي هل ، وكان من أثر هذا الجهل أن أورد القصيدة : ٤٦٧ ، في مديح الوليد بن يزيد بن عبد الملك مجزأة نصفين في موضعين ، وعلق على النصف الثاني بقوله : « ليس لهذه الايات

(١) مقدمة الديوان : س ، والعجب أن يقول بعد هذا ، شلوزنجر ، أن الصاوي لم يبين مصادر الديوان التي أخذ عنها ، (انظر أنساب الاشراف ٢/٤ ، المقدمة ص ٢ — ٣ ، ولا أرقام للمقدمة) .

(٢) المقطوعات : ٢٣٨ ، ٢٨٠ ، ٤٠٨ ، ٥١٩ ، ٥٣٠ ، ٥٩٠ ، ٦١٩ ، ٦٥٢

(٣) ديوان الفرزدق : المقدمة : س .

أول في الاصل الذي بين أيدينا»^(١) . وهو عجب من العجب لأن هل رقم أشعار الفرزدق ، بله اشارته الطويلة في المقدمة .

وترتيب ديوان الفرزدق على القوافي أدى الى تفريق ما التقى في الديوان من قصائد تجتمع على غرض واحد ، فتقطعت الصلة بينها ، وزادها فرقة افساد الصاوي ما فسرهما من شروح يضعها في غير مواضعها : مواضع يعجب المرء لها ، فالقصيدة القافية (ص ٥٧١ - ٥٧٣) يسوق حديثها في (ص ٦٠٧ - ٦٠٨) ويخطيء الفهم في أسهل العبارات ، فإذا قال الفرزدق قصيدة في رثاء محمد ابن أخيه الأخطل ، ظنها الصاوي قصيدة في رثاء ابن أخي الممدوح السابق سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص^(٢) ، وقد ضم الصاوي نقائض الفرزدق الى ديوانه ، وفي ديوان النقائض ٣٨ نقيضة للفرزدق ، ورد أربع منها في الديوان^(٣) ، وأورد الصاوي ثلاثا وثلاثين نقيضة ، ففاته بذلك نقيضة واحدة لم يوردها هي النقيضة ٩٦ :

محت الديار فاذهبت عرصاتها محو الصحيفة بالبلى والمور^(٤)

وقد أحصيت الزيادات التي جمعها الناشر من كتب الأدب فبلغت ٧٦ بيتا ، ويبدو أن الصاوي لم يستقص ما في هذه الكتب نفسها من شعر الفرزدق ، بله الكتب الاخرى الكثيرة التي تناثر فيها شعر الشاعر ، فقد ورد في كتاب الأغاني وحده ما يزيد على مائة بيت مما لم يأت به الديوان .

وأتاح ترتيب القصائد على القوافي أن يتنبه الناشر لطائفة من القصائد

(١) ديوان الفرزدق : ٦٤٥-٦٤٧ ، ٧٠٨ - ٧١٠ ، مقدمة الديوان : س .

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٥١ ، طبقات ابن سلام : ٣٩٤ - ٣٩٥

(٣) هي القصائد ذوات الارقام : ١٣٢ ، ٢٢٩ ، ٣٩١ ، ٥٠٠ ، وهي

النقائض ذوات الارقام : ١٠٧ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠

(٤) النقائض : ٩٠٩

التي تكررت فيسقطها ، ولكنه لم يوفق الى ذلك دائما ، فكرر بعضها منها
انسياقا وراء الديوان السابق ، وكرر بعضها سهوا :

في ص ١١٥ ، أورد ثلاثة أبيات من زياداته ، وكانت قد وردت ضمن
قصيدة طويلة ص ٣٦ ، وأعاد في ص ٢١٠ - ٢١١ أبيات الرثاء التي أوردتها
ص ١٦٣ ، والأبيات ص ٣٨٣ - ٣٨٤ جزء من القصيدة ص ٢٣٣-٢٤٠ ،
والمقطوعة في ص ٥٨٨ ، جزء من النقيضة ص ٥٩٤ - ٥٩٥ ، والمقطوعة في
ص ٦٣٢ - ٦٣٣ هي المقطوعة ص ٦٨٣ ، والمقطوعة في ص ٧٦٠ - ٧٦١
هي المقطوعة ص ٨٤٠ ، والمقطوعة في ص ٧٦٢ جزء من القصيدة ص ٨٣١ -
٨٣٣ ، والقصيدة في ص ٧٨٦ جزء من القصيدة ص ٨٢٧ - ٨٢٨ ، والبيتان
في ص ٨١٨ ، قد سبقا في القصيدة ص ٧٧١ - ٧٧٢ ، والبيتان في ص ٨١٩
اعيدا في ص ٨٤٧ ، ومن خطئه أن جعل بائية الفرزدق التي رثى بها أبناءه :
أبي الحزن أن أسلى بني ، وسورة " أراها اذا الأيدي تلاقى غضابها
في قافيته الهاء (١) وكثر خطؤه في ضبط الكلمات ، فهو يقابلك في كل صفحة
بل في كل بيت ، كما غلط الصاوي في التفاسير التي أتى بها عن غير شراح
الديوان الأقدمين .

— وظهر في بيروت آخر طبعة لديوان الفرزدق ، أصدرتها في مجلدين
دارا صادر وبيروت سنة ١٩٦٠ م وهو صورة من الديوان الذي طبعه
الصاوي بمصر ولكنه يختلف عنه باختزال أكثر مقدمات القصائد ، وحذف
كثير من الشروح القديمة ، واسقاط جزء من القصائد لأنه « لا يحسن أن
يقرأه الطلاب ، لما فيه من فحش » (٢) وهو يتابعه في كل ما أخطأ فيه حذو
القذة بالقذة ، لا يقوم بتصحيح لفظة ، أو تقويم معوج . إنه أسوأ سلب

(١) ديوان الفرزدق : (ط . الصاوي) : ٨٨٥ - ٨٨٧

(٢) ديوان الفرزدق (ط . بيروت) ١ : ٧

لجهود الآخرين ، وأمعنه في الجحود والنكران ، يسرقهم ثم يضمن عليهم أن يذكرهم بكلمة ، أو ينوه بما سبقوه اليه من عمل ، فكان بذلك في باب التحقيق العلمي رجعة الى الوراء ، اتصفت بها كثرة ما أخرجته الداران من دواوين الفحول المتقدمين •



٢ - مخطوطات الديوان :

يُبين العرض الذي قدمته آنفاً أن ديوان الفرزدق يتطلب نشرًا جديدًا يقوم على التحقيق العلمي الدقيق ، ويجعل عماده مخطوطات الديوان المعروفة في مكاتب العالم ، وسأصنف ما وقع اليّ منها وصفاً يبين ما تتميز به (١) •

أ - مخطوطة دمشق (٢) ، وعدد أوراقها ٩٦ ورقة ، وهي الجزء الأول من ديوان الفرزدق ، مفتتحها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الحسن بن الحسين السكري ، أخبرنا محمد بن حبيب ، عن ابن الأعرابي ، عن المفضل ابن محمد ، ويعقوب بن السكيت عن الحرمازي ، وسعدان عن أبي عبيدة ، قال الفرزدق » وأثبت السند نفسه على صفحة العنوان ، ومعه عدة تملكات • وكان ختام النسخة : « نسخته من خط السكري ، وكتب أحمد بن أحمد ، وراق أبي عبد الله بن عبدوس » • وفي أسفل الصفحة : « قابلت أحمد بن أحمد ، وكتب علي بن عيسى النحوي ، بخطه ، في شهر

(١) أتيح لي أن أطلع على صور هذه المخطوطات في خزانة شيخنا الاستاذ الكبير محمود محمد شاكر ، سيد كتاب العربية والحفيظ على تراثها ، الذي أحيا مآثر السلف العلمية والخلقية ، فجزاه الله عن العرب والعربية الجزاء الأوفى •

(٢) هي في المكتبة الظاهرية بدمشق ، رقمها ٨٨٠٠ عام

رجب من سنة احدى وثلاثين وثلاث مئة » وتحتته بخط دقيق في سطرين :
 « قابلت به نسختي وكتب نصر الله بن حمزة ، قابلت به نسختي وكتب
 ابراهيم بن شناف » • وتشمل المخطوطة أربعاً وثلاثين قصيدة (١-٣٥) (١) •
 وقد سقط منها ورقة واحدة تسبق الورقة الأخيرة، وسقط بها المقطوعة ٣٦ •

وهذه المخطوطة أقدم ما نعرف من مخطوطات الديوان، كتبها أبو الطيب
 أحمد بن أحمد ابن أخي الشافعي ، وراق أبي عبد الله بن عبدوس (٢) ، وقد
 نسخها من خط أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (٢١٢ - ٢٩٠ هـ) •
 وكان أحمد بن أحمد كاتباً مجوداً ، أثنى عليه ياقوت وجعل خطه حجة ،
 لصحة نقله ، واتقان ضبطه ، وقد أكثر النقل من خط أبي سعيد السكري ،
 فوثقه لذلك العلماء ، ورجعوا اليه في مقابلة نسخهم (٣) • وقد قابل العالم
 النحوي الكبير علي بن عيسى النحوي (٢٧٦ - ٣٨٤ هـ) (٤) أحمد بن
 أحمد في شهر رجب سنة ٣٣١ هـ ، لضبط نسخته من ديوان الفرزدق، فكأن
 نسختنا قد ظفرت الى جانب الضبط ووضوح الخط بمقابلة عالم من علماء
 النحو الكبار •

ب - مخطوطة أيا صوفيا (٥) ، وعدد أوراقها ١٨٤ ورقة (٦) ، وهي

-
- (١) بينت (ص : ٢١٨) أن رقم ٥ ، شاهد وليس قصيدة . وهو
 ما تؤكد مخطوطتا دمشق وأكسفورد .
 (٢) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، صاحب كتاب
 الوزراء والكتاب ، توفي سنة ٣٣١ هـ (النجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٩ ، الاعلام
 ٧ : ١٣٥) .
 (٣) معجم الادباء ١ : ٨١ ، معجم البلدان : (أسنمة ، بطحان ، ترياع ،
 التناضب ، وقيط) .
 (٤) معجم الادباء ٥ : ٢٨٠ ، بغية الوعاة : ٣٤٤
 (٥) هي في مكتبة أيا صوفيا بالقسطنطينية ، رقمها ٣٨٨٤ ، وفي معهد
 المخطوطات العربية بالقاهرة صورة عنها رقمها ٣٤١ ، (فهرس المخطوطات
 المصورة ١ : ٤٦٤) .
 (٦) يذكر فهرس المخطوطات المصورة أن أوراقها ٢٤٠ ورقة، وهذا خطأ .

المخطوطة التي اعتمد عليها بوشيه وهل ، كتب على وجه صفحتها الاولى : ديوان شعر الفرزدق الذي أملاه محمد بن حبيب ، ومفتتحها : « بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين • قال الفرزدق ••••• » وكان ختامها : « هذا آخر شعر الفرزدق ، من املاء محمد بن حبيب ، والحمد لله وحده ••• » وأثبت في أسفل الصفحة بطرفها الأيمن : « عورض بالأصل المنقول منه ، على سقم فيه ، وما قصر ناسخه في نقله ، فقد رد أشياء كثيرة غيرت الى أصولها ، وبقي عليه شكوك تحتاج الى أصل معتمد لتصلح منه إن شاء الله ، والحمد لله وحده ، وله المنة » ، وأثبت في الطرف الأيسر : « في نوبة محمد بن موسى بن يونس ، نفعه الله بالعلم ، وزينه بالحلم ، ملكه في صفر من سنة سبع وستين وست مئة » • وهذا التملك يدل على أن نسخها قد كان قبل هذا التاريخ • وأصلها مجزأ ، فقد أثبت على هامش الورقة ١٦ « هذا آخر الجزء الأول من الأصل ، أول الثاني » وهي تجزئة تخالف تجزئة نسخة دمشق فهي تزيد عليها قصيدة ، اذ ينتهي الجزء الاول باتهاء القصيدة ٣٧ • (انظر ما سبق ، ص ٢١٤) •

ودراسة المخطوطة ثم موازنتها بالوصف الذي قدمه بوشيه عن المخطوطة ، وبما طبعه هل ، بينت لي أن ثمانين ورقة قد سقطت بعد أن رآها بوشيه ، وقادتنني الى تعرف مواطن هذا السقط ، وأنه خروم خمسة ، بعد ترتيب الاوراق المضطربة في النسخة •

أولها : بعد الورقة الاولى ، ومقداره ١٩ ورقة •

والثاني : بعد الورقة ٢١ ، ومقداره ٣٠ ورقة •

والثالث : بعد الورقة ١٥٠ ، ومقداره ١٠ ورقات (هي ص ٧١-٩٠ ، في هل) •

والرابع : بعد الورقة ١٧٠ ، ومقداره ١٠ ورقات (هي ص ١٣١-١٥٠ ، في هل) •

والخامس: بعد الورقة ١٨٠، ومقداره ١١ ورقة (هي ص ١٧١-١٩٢، في هل) •
 أما القصائد التي تشتمل عليها المخطوطة فهي: ١، ١٣، ٣٩، ٩٦، ٤٦٧،
 ٤٧٦ - ٥٥٤، ٥٨٤ - ٦٣٢، ٦٦٦ - ٧٠٤ •

ج - مخطوطة اكسفورد^(١)، وعدد أوراقها ٢٣٣ ورقة، ومزودة
 واحدة (طيارة) • وهي الجزء الأول من نسخة يبدو أنها كانت ثلاثة أجزاء
 كتب على صفحتها الأولى: « برسم الخزانة العالية المولوية المخدومية
 الصحابية الشمسية، شمس الدين القرشي البهنسي، عمرها الله بقاءه،
 أمين »، وكانت فاتحتها: « قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري،
 أخبرني محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي قال: أخبرني الفضل بن محمد
 قال، قال الفرزدق » وأثبت في ختامها « والحمد لله، وحسبنا الله ونعم
 الوكيل » • وهي منقولة عن أصل مجزأ سبعة أجزاء، فقد كتب في هامش
 وجه الورقة ٩٣ (نهاية القصيدة ٣٧): « آخر الجزء، وهو آخر السبع
 الأول من خط الكريدي » (وهو يوافق تجزئة نسخة أيا صوفيا) • وجاء
 في هامش وجه الورقة: ١٩٦ (نهاية القصيدة ٩٢) « آخر الجزء الثاني من
 أجزاء الكريدي المنقول منها » • أما الورقة المزودة التي أثبتت بين
 الورقتين ١٢٨، ١٢٩، فقد كتب فيها الرواية الثانية المطولة لقصيدة الفرزدق
 في مفاخرة معاوية^(٢) • وقد قرئت المخطوطة وعورضت بالأصل، وأثبت ذلك
 في هوامش كثيرة^(٣) • وهي بخط نفيس يرجح أنه من القرن السابع الهجري،
 أو الثامن • وكتب أسفل قافية البيت الأخير بالأرقام عدد أبيات القصيدة
 أو المقطعة •

(١) هي في مكتبة بدليان باكسفورد، رقمها، مارش ٢٠٥

(٢) انظر ديوان الفرزدق (ط.الصاوي): ٤٩، ٥٦

(٣) مخطوطة أكسفورد، ص: ٣٩، ٦١، ٩٩، ١٣٣، ١٧٦، ٢١٤،

٢٥٠، ٢٧٥، ٣١١، ٣٥٢، ٣٩٢، ٤٣٠، ٤٣٦، ٤٨٥

وهدتني دراسة المخطوطة ، وموازنتها بالمخطوطات الأخرى ، أن قد أصابها الخرم في ستة مواضع :

أولها بعد الورقة ٩ وقدرته بورقة واحدة
وثانيها بعد الورقة ٤٩ وقدرته بسبع ورقات
والثالث بعد الورقة ٥١ وقدرته بست ورقات
والرابع بعد الورقة ١١٥ وقدرته بثلاث ورقات
والخامس بعد الورقة ١٨٩ وقدرته بخمس ورقات
والسادس بعد الورقة ٢٣١ وقدرته بورقة واحدة

فيكون مقدار الساقط من المخطوطة ، على ما خمنته وحزرته ، ثلاثا وعشرين ورقة ، والقصائد التي تشتمل عليها المخطوطة هي (١ - ١٢٥) ، على أن نسقط من الأشعار ما سقطت به الأوراق الثلاث والعشرون (١) .

د - مخطوطة الهند (٢) ، وعدد أوراقها ٢٢٥ ورقة ، وثلاث ورقات مزيادات . وهي الجزء الأخير من ديوان الفرزدق ، كتب على غلافها : « ديوان الفرزدق برواية محمد بن حبيب » ، وفوقه : « العمدة الشيخ سليمان الصفطي الحنفي » ، وفي يسار الصفحة : « من كتب الفقير علي بن صالح العماري ، ثم الى الفقير أحمد بن علي العماري ، ثم في ملك الغني بالله محمد بن صالح العماري . وفقه الله » . افتتحت المخطوطة بمقطعة

(١) وأرشدتني دراسة مخطوطة أكسفورد الى أنها كانت في حوزة السيد أمين بن عمر زيتونة ، وطبع عنها ديوان الفرزدق في مجموعه المشتمل على خمسة دواوين بعد أن جرد الشعر من شروحه ، لتطابق ما فيهما من أشعار وشروح وخروم واضطراب في الأوراق . أو على الأقل ان السيد أمين بن عمر زيتونة اطلع على نسخة مأخوذة عنها . وسيأتي تمام بيان ذلك في الحديث عن مخطوطة زيتونة .

(٢) هي في مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا ، رقمها ٣٩٥ ، وفي معهد المخطوطات العربية بالقاهرة صورة عنها ، لم تدرج بعد في الفهارس .

الفرزدق ٣٨٨ ، في مدح أسد بن عبد الله القسري ، وكان ختامها : « هذا آخر شعر الفرزدق ، من املاء محمد بن حبيب » وهو ختام نسخة أيا صوفيا سواء بسواء . وخطها النفيس المتقن هو خط مخطوطة اكسفورد ، مما رجح لي أنهما الجزءان الأول والثالث ، لنسخة واحدة كانت في مصر قبل أن تعصف يد النوى بجزأياها ، ليحط الأول منهما رحاله في اكسفورد ، والثاني في كلكتا . ويعرى قسم من المخطوطة عن النقط ، ويبدو تلفيق في خطها يدل على فقد طائفة من أوراقها اعيدت كتابتها لتسلم النسخة صحيحة تامة . وفيها خرم واحد صغير ، بعد الورقة الاولى ، سقط به القصيدة ٣٨٩ ، والمقطعة ٣٩٠ ، وستة وخمسون بيتا من القصيدة ٣٩١ ، فسلم لنا من القصائد التي تحتويها : رقم ٣٨٨ ، ونهاية ٣٩١ - ٧٠٤ .

وهي خير ضبطا من نسخة أيا صوفيا . وأثبت في هامش الورقة ٢٨ ، (نهاية القصيدة رقم ٤٠٤) : « آخر الخامس من أجزاء الكريدي » فدل ذلك على أنها منقولة من أصل مجزأ ، كما أكد ما ذهبت اليه من أنها ومخطوطة اكسفورد نسخة واحدة منقولة من أصل واحد هو نسخة الكريدي . وقد روجعت نسخة الهند على أصل ثان غير الأصل الذي نقلت منه ، والمشبه لأصل نسخة أيا صوفيا ، يدل على ذلك زيادات طفيفة ألحقت بالمخطوطة الحاقا بخط مخالف أدق ، وأقل جودة واتقانا ، وخلت منها نسخة أيا صوفيا :

ألحق بيت ثان بالبيت اليتيم رقم ٤٢٣ ، (ص ٨١) وألحق بيت سابع بآخر القطعة رقم ٤٥٩ (ص ١١٨) وزيدت سبعة أبيات على القصيدة رقم ٤٨٢ ، أثبتت بمزيدة ألحقت بالمخطوطة بين الورقتين ١٠٣ ، ١٠٤ ، وزيدت قصيدة (١٤) بيتا ، في مديح بلال بن أبي بردة بين القصيدتين ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، وأثبتت بمزيدة ألحقت بالمخطوطة بين الورقتين ١٥٧ ، ١٥٨ .

هـ - المخطوطة المصرية^(١) ، عدد أوراقها ٧٨ ورقة ، كتب على وجه ورقها الاولى : « الجزء الثاني من شعر الفرزدق : رواية أبي سعيد الحسن ابن الحسين السكري ، عن ابن حبيب » ، وهي جيدة الخط والضبط ، ويرجح أن خطها يرجع الى القرن الخامس الهجري ، وهي تشتمل على القصائد : ٣٨ - ٩٢ ، وهو ما نصت نسخة اكسفورد من قبل أنه الجزء الثاني من أجزاء الكريدي . وقد ختمت المخطوطة بقوله : « نجز ، بحمد الله ومنه ، الجزء الثاني من شعر ديوان الفرزدق ، ويتلوه إن شاء الله في الجزء الثالث ، وقال الفرزدق ، ودخل المربد فلقى رجلاً من موالي باهلة »^(٢) .

والمخطوطات الخمس تنتمي الى نسخة الديوان التي جمعها السكري فتشابهت في نسقها ، وتتالي أشعارها ، على ما بينها من فروق طفيفة .

و - مخطوطة لندن^(٣) ، وعدد أوراقها ١٣٠ ورقة ، وهي الجزء الثالث من ديوان الفرزدق ، على صفحاتها الاولى تملكان ، أولهما على اليمين : « من كتب أبي بكر بن رستم بن أحمد بن محمد الشرواني » وثانيهما على اليسار « دخل في يد أحمد بن مصطفى بن يوسف بن محمد الحلبي الشهير بدهنة في غرة ربيع الأول سنة ١٢٤٩ »^(٤) . ومفتتح الجزء : « وقال الفرزدق يهجو جريرا : تعز فلست مدرك ما تعنى » وأثبت في ختامه : « تم الجزء الثالث من شعر الفرزدق ، يتلوه في الرابع وقال الفرزدق :

كم لك يا ابن دحمة من قريب مع التبان ينسب والزيار »

(١) هي في دار الكتب المصرية ، رقمها ٢٦٠٥ أدب ، (فهرس دار الكتب ٣ : ١٤٢) .

(٢) والعجب أن فهرس دار الكتب قال حين وصف الجزء الثاني : « وهو الاخير » ، وما أدري كيف جنب الصواب ، وهو منه قريب .

(٣) هي في المتحف البريطاني بلندن ، رقمها ١٩٤٠٦

(٤) تقابل سنة ١٨٣٣ م .

وكتب في الورقة بعدها : « نظر فيه السيد ابراهيم بن المرحوم السيد مصطفى الدهنة ، نظر فيه السيد محمد بن السيد محمود دهنة ، نظر فيه السيد محمد بن السيد أحمد الدهنة ، نظر فيه السيد محمد بن السيد محمود بن السيد مصطفى بن يوسف بن محمد » .

ودراسة المخطوطة تدل على أن فيها خرمين ، أولهما بعد الورقة الثالثة، والثاني بعد الورقة ١١٩ ومخطوطة لندن تخالف في نستها وبعض رواياتها وشروحها المخطوطات الخمس السابقة . انها مستمدة من أصل ثان ، ورواية مخالفة . عدد قصائدها ومقطعاتها ١٠٥ ، وهي منسقة على القوافي، فقسمها الأول على حرف الميم ، وقسمها الأوسط على حرف اللام ، وقسمها الاخير على حرف الراء . وبين قصائد اللام قصيدة الفرزدق في مديح بلال التي روتها مخطوطة الهند في ورقة مزيدة . وبين أشعار الراء مقطعة في هجاء جرير لم ترد في دواوينه المطبوعة، ولا في المخطوطات الخمس، وإنما رويت في ديوان جرير المطبوع (١) .

هذه هي المخطوطات الرئيسية (٢) التي يجب أن تكون عماد نشر لديوان الفرزدق جديد ، يجلو شعر الشاعر صحيحا مفسرا مقربا الى الدارسين ، قد ظهرت غوامضه ، وقل فيه ما يستغلق معناه على قارئه . وهناك الى جانبها مخطوطات ثانوية ، نجمل أمرها بإشارة عابرة :

أ - مخطوطة الشنقيطي (٣) وهي نسخة نقلت عن مخطوطة أيا صوفيا ،

(١) مخطوطة لندن ص : ٨٤ ، ٢٥٨ ، ديوان جرير (ط ١ ، ١٣١٣ هـ)

١ : ١١١

(٢) أشار بروكلمان في كتابه ، تاريخ الادب العربي ، ١ : ٢١٣ - ٢١٤ ، الى مخطوطات : أيا صوفيا واكسفورد ولندن ، والى مخطوطة الشنقيطي الآتية بعد ، ولكن الأرقام التي ذكرها لم تكن كلها صحيحة ، وأشار بروكلمان أيضا الى أشعار للفرزدق متفرقة ، مخطوطة بربلين رقم ٧٥٢٥ ، ولم أستطع الحصول عليها لأصفها ، واقدر قيمتها .

(٣) في دار الكتب رقمها ٢ أدب ش . وقد ملكها الاستاذ الشنقيطي

سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩ م) .

بعد ما نزل بها من خروم • عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وقد ضم إليها الاستاذ الشنقيطي عدة قصائد استدركها من ديوان بوشيه ، وفي الهامش بعض من تعليقاته •

ب - مخطوطة البارودي^(١) ، وهي منقولة من مخطوطة أيا صوفيا المخرومة أيضا ، وقد ترك فيها بياض يدل على مواضع هذه الخروم • عدد أوراقها ٢٢١ ورقة •

ج - شرح ديوان الفرزدق^(٢) ، عدد أوراقه ٩١ ورقة • وهو يماثل المخطوطة المصرية التي تحدثت عنها في الفقرة السابقة • وإن كان أقل منها ضبطا ودقة^(٣) •

د - مخطوطة الطرابلسي^(٤) ، صفحاتها ٢٣٥ صفحة ، كتب الشرح فيها بمداد أحمر يخالف مداد الشعر الأسود وهي صورة عن مخطوطة الهند ، سقط منها عدة أشعار وأثبتت فيها الإشارة الى تجزئة الكريدي^(٥) ، وزيدت فيها قصيدة مديح بلال • وطالت في نهايتها قصيدة الفرزدق في مديح زين العابدين ، وأثبت الناسخ محمد أبو المواهب الطرابلسي ، ثم المدني في ختام النسخة أنه أتم كتابتها سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ - ١٩٠٦ م) برواية محمد بن حبيب وشرحه •

(١) في دار الكتب ، رقمها ٥٨٩ أدب ، وقد اشترتها دار الكتب في ٢٣ يونيه ١٨٨٣ م •

(٢) في دار الكتب ، رقمها ٤٢ أدب ش ، وقد ملكها الاستاذ الشنقيطي سنة ١٢٩٦ هـ •

(٣) جهلها فهرس دار الكتب فقال : وهي تخالف النسخ المتقدمة في عدد القصائد ورواياتها (فهرس دار الكتب ٣ : ١٤٢) ، وقد بينت أنها تماثل المخطوطة المصرية لا تخالفها في شيء ، فهي الجزء الثاني من ديوان الفرزدق •

(٤) في دار الكتب رقمها ١١٨٤٦ أدب ز •

(٥) مخطوطة الطرابلسي ، ص : ٥٠ •

هـ - مخطوطة زيتونة^(١) ، صفحاتها ١٣٥ صفحة ، وقد عريت عن الشروح ، واحتفظت بمقدمات القصائد ، مجموع ما فيها من قصائد ، ومقطعات ، وبيوت مفردة : ١١٩ ، وقد رتبت على تتابع هجاء القوافي ، إلا عدة أشعار على روي اللام ، اعترضت بين قوافي الباء ، ووردت طائفة من قصائدها ناقصة ، ويبدو أن النسخة أصابها الاضطراب فسقط بعض أوراقها ، ووضع بعضها الآخر في غير موضعه^(٢) . ومن زياداتها بيت مفرد لم تروه الدواوين^(٣) ، والحاق بيت مفرد بالقصيدة ٨٢ ، وأثبت ناسخها محمد أمين بن المرحوم السيد الحاج عمر الزهدي بن المرحوم السيد الحاج ابراهيم آغا بن المرحوم السيد الحاج أحمد بن المرحوم السيد الحاج اسماعيل زيتونة ، في ختامها ، أنه فرغ من جمع هذا الديوان الغريب لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ، أي قبل اقدمه على طبع المجموع بثلاث سنين .

(١) في دار الكتب رقمها ١٣٤٧٠ أدب ز .

(٢) مخطوطة زيتونة ، ص : (٥٠ - ٥١) ، (٦٦ - ٦٧) .

(٣) مخطوطة زيتونة ، ص : ٧٧

(٢)

توثيق نسخة الديوان :

ذكر ابن النديم في الفهرست أن أبا سعيد الحسن بن الحسين السكري عمل شعر الفرزدق فجوده ، وأنه كان مجودا محسنا في كل ما عمله من شعر الشعراء^(١) . وتهدينا دراسة مخطوطات الديوان وما أوردته في مطالعها وخواتيمها ، أن أبا سعيد السكري الذي عمل ديوان الفرزدق قد جعل عمود روايته ما رواه عن محمد بن حبيب عن ابن الاعرابي عن المفضل الضبي ، ثم أضاف إليها ما رواه يعقوب بن السكيت عن الحرمازي ، وسعدان عن أبي عبيدة^(٢) . وتبدو في الديوان رواية ثالثة هي رواية أبي عمرو الشيباني ، وتلك هي طريقة السكري ، كان يستقصي في روايته ، حريصا الا يندد عنه شيء مما رواه العلماء « كان اذا جمع جمعا فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة »^(٣) . فكان رواية السكري مجمع روايات ، وملتقى طرق . وكان القدماء أشاروا الى طريقته في تأليف الدواوين حين وصفوها

(١) الفهرست : ٧٨ ، ١٠٧ ، ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) في مفتتح مخطوطة دمشق ضبط اسم سعدان مرفوعا ، وهذا غلط لانه يدل على أن السكري روى عن سعدان ، وهو محال ، فسعدان قديم روى عنه محمد بن حبيب استاذ السكري (الاغانى ٢١ : ٣٨٢) ، وكان السكري يروي عن ابراهيم بن سعدان عن أبيه ، روى عنه النقائض (معجم الادباء ١ : ٥٩ ، الاغانى ٨ : ٤ ، ٢١ : ٣٠٠) .

(٣) معجم الادباء ٣ : ٦٢

أنها عمل السكري ، وصنعة السكري ، يريدون أنه جمع الروايات وعمل على ضمها ولم يقتصر على رواية واحدة ، والسكري حريص على تبيان اختلاف الروايات ، يدل عليها في أثناء رواية القصائد ، ويذكر لكل رواية ما انفرد به من زيادة في أبيات القصيدة ، أو اختلاف في ألفاظ البيت ، أو في ترتيب الأبيات ، أو تفسيرها ، توخيا للدقة في الرواية ، والأمانة في النقل ، فيمضي قارئه وهو مطمئن النفس ، على بيّنة مما بين يديه ، قد عرف ما أجمع عليه الرواة وما انفرد كل به • ولمخطوطة دمشق مميز آخر فقد حرصت على أن تذكر في رؤوس عدة قصائد أسماء رواياتها^(١) • وكأن النسخ بدأت مع الزمن تتخفف من هذا التدقيق الشديد الذي أخذ به الرواية السكري نفسه ، مكتفية بإشاراته في الشرح • ولعل وجدان نسخ أخرى قديمة لديوان الفرزدق يكمل ما انفردت به نسخة دمشق من شدة الضبط والتدقيق في ذكر أسماء الرواة ، في مفتتح القصائد • ولا يبقى بعد هذا غير فروق قليلة تقع بين النسخ تتصل بالشرح ، من تفسير لفظ ، أو إيراد شاهد لغوي ، أو اختلاف يسير في أداء المعنى • وإذ جعل السكري رواية ابن حبيب عن ابن الاعرابي عمود روايته ، اجتزأ بعض النساخ بذكرها في العنوان دون أن يفصلوا اسناد الرواية ، مكتفين بما ورد في الشرح من نسبة كل رواية الى صاحبها • وكان النقلة ينسبون الى ابن حبيب ما ينقلون من شروح له في الديوان^(٢) وكان بعضهم يتجاوز ويتسمح فينسب الشرح للسكري من رواية ابن حبيب^(٣) • ويبقى أن نلم المامة سريعة بهؤلاء الرواة ، ونبين طرقهم في الرواية ، لنصل الى ما نريده من توثيق الديوان •

كان أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (٢١٢ - ٢٩٠ هـ) ثقة صدوقا يقرئ القرآن ، وكان مكثرا في الرواية عالما باللغة والانساب

(١) مخطوطة دمشق ، ص : ٤٢ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٥١

(٢) سمط اللاليء ٢ : ٧٧٦ ، ٨٨٤

(٣) خزانة الادب ٢ : ٣٨٧ ، ٣٨٩

والشعر ، انتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه ، كان من أهل البصرة ، وسكن بغداد فقالوا عنه : راوية البصريين • وقد روى عن محمد بن حبيب فأكثر الأخذ عنه • وروى عن يعقوب بن السكيت^(١) •

وكان أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) من علماء اللغة والشعر والأخبار والانساب حافظا صدوقا ، وهو من أهل الكوفة وسكن بغداد ، روى عن ابن الاعرابي وهشام بن الكلبي من الكوفيين ، وروى عن أبي عبيدة من البصريين ، وكتبه صحيحة ، منها المحبر^(٢) •

وكان يعقوب بن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ) ، من رواة الكوفة الثقات ، عالما بالنحو وعلم القرآن واللغة والشعر ، أخذ عن أبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي^٣ ، والقراء الكوفيين ، وروى عن الأصمعي^٤ وأبي عبيدة البصريين ، له تصانيف كثيرة ، وروى طائفة من الدواوين وشرحها^(٣) وقد تداول الناس روايته في شعر الفرزدق وأشاروا إليها^(٤) • وقد دلتنا مخطوطة دمشق أنه رواها من طريقين : أولهما طريق الحرمازي^٥ عن أبي عبيدة ، والثاني طريق سعدان عن أبي عبيدة •

والحرمازي ، أبو علي الحسن بن علي ، امرؤ نشأ بالبادية ، ثم قدم

(١) معجم الادباء ٣ : ٦٢ ، ٦ : ٤٧٣ ، ٧ : ٣٠٠ ، نزهة الالباء : ٢٣٨ ، ٢٧٤ ، إنباه الرواة ١ : ٢٩١ ، تاريخ بغداد ٧ : ٢٩٦ ، طبقات النحويين واللغويين : ٢٠٠ ، بغية الوعاة : ٢١٨ ، الفهرست : ٧٨ ، ١٠٧ ، الاعلام ٢ : ٢٠٢

(٢) الفهرست : ١٠٦ ، معجم الادباء ٦ : ٤٧٣ ، ٧ : ٨ ، بغية الوعاة : ٢٩ ، إنباه الرواة ٣ : ١١٩ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٧٧ - ٢٧٨

(٣) نزهة الالباء : ٢٣٨ - ٢٤١ ، معجم الادباء ٧ : ٥ ، ٣٠٠ ، إنباه الرواة ١ : ٢٢٨ ، بغية الوعاة : ٤١٨ ، تاريخ بغداد ١٤ : ٢٧٣ - ٢٧٤

(٤) شرح الشافية ٤ : ٧٧

البصرة فأقام بها ، وكان راوية من فصحاء الأعراب ، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الانصاري ، وكان من أكبر أصحابهم (١) .

وسعدان بن المبارك (ت ٢٢٠ هـ) من علماء الكوفيين ورواتهم ، روى عن أبي عمرو الشيباني من الكوفيين ، وروى عن أبي عبيدة من البصريين ، وما رواه عنه كتاب النقائض بين جرير والفرزدق (٢) .

ونصل الى الرواة الكبار الثلاثة : أبي عبيدة البصري ، وابن الاعرابي ، وأبي عمرو الشيباني الكوفيين .

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (١١٠ - ٢٠٨ هـ) من أعلم الناس باللغة وأنساب العرب وأخبارها ، قال الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه (٣) . وقد روى النقائض بين جرير والفرزدق وكانت له رواية في ديوان الفرزدق انفرد بها فنسبت اليه وأشير اليها وكان سعدان يذكرها أحيانا باسم كتاب أبي عبيدة (٤) .

وكان أبو عبد الله محمد بن زياد الاعرابي (١٥٠ - ٢٣٢ هـ) من أئمة اللغة ورواة الأشعار ، أحفظ الناس للغات والايام والانساب ، وكان ريبيا للمفضل الضبي سمع منه الدواوين وصححها ، ولم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه (٥) .

(١) الفهرست : ٤٨ ، معجم الادباء ٣ : ١٤٨ ، بغية الوعاة : ٢٢٥

(٢) معجم الادباء ٤ : ٢٢٩ ، الفهرست : ٧١ ، تاريخ بغداد ٩ : ٢٠٣ ،

إنباه الرواة ٢ : ٥٥ ، نزهة الالباء : ٢٠٦ (الرقم المطبوع : ٢١٤) .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٤٧ ، معجم الادباء ٧ : ١٦٤ ، الفهرست : ٥٣ ،

بغية الوعاة : ٣٩٥

(٤) مخطوطة أبا صوفيا ص ٥٣ ، ٥٤ ، سمط اللآلئ ٢ : ٨٨٤

(٥) معجم الادباء ٧ : ٥ ، طبقات النحويين واللغويين : ٢١٣ ، فهرست

ابن خير : ٣٧٢ ، بغية الوعاة : ٤٢

وكان أبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٥ هـ) ، أعلم الكوفيين باللغة ، وأحفظهم وأكثرهم أخذًا عن ثقاة الاعراب ، جمع أشعار العرب ودونها ، وقرأ الدواوين على المفضل الضبي ، وأصبح راوية أهل بغداد ، ومن روى عنه : ابنه عمرو ، وأحمد بن حنبل ، وأبو عبيد القاسم بن سلام^(١) .

لم تتضح طريقة رواية السكري عن أبي عمرو الشيباني ، وإن كثرت الرواية عنه ، ويبدو لي أن من أسباب ذلك ما عرف به أبو عمرو من كتابة أشعار القبائل ، والحرص على تدوينها فكان الناس يثلون منه الى كتب مدونة محفوظة ، وقد هدتني دراسة مخطوطة لندن التي جاءت برواية منفردة أنها جعلت عمود روايتها ما رواه أبو عمرو الشيباني ، وقد رواها عنه ابنه عمرو بن أبي عمرو الشيباني (ت ٢٣١ هـ) الذي سمع كتب أبيه وسمع الناس منه روايته عن أبيه سنين ، وأبوه في الأحياء^(٢) . ثم رواها راو عن عمرو بن أبي عمرو لعله سعدان نفسه ، دلني على ذلك تطابق ما ورد في المخطوطة وما نسبه السكري في كتابه من الروايات الى أبي عمرو الشيباني ، أو الى سعدان مما انفرد به^(٣) ، والروايات في مخطوطة لندن قليلة فإذا عرضت لرواية لم تذكر اسم الراوي بل تقول : وروى غيره . ولم أستطع الجزم بطريق الرواية تامة في مخطوطة لندن لأن الجزء الباقي لا يعين على هذه المعرفة .

وتنتهي الرواية الى شيخ رواة الكوفة المفضل بن محمد الضبي ، وكان

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٢١١ ، نزهة الالباء : ١٢٠ - ١٢٢ ،
إنباه الرواة ١ : ٢٢١ - ٢٢٩ ، وفيات الاعيان ١ : ١٨٠ ، معجم الادباء
٢ : ٢٣٣

(٢) إنباه الرواة ١ : ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢ : ٣٦ ، طبقات النحويين
واللغويين : ٢٢٤ ، معجم الادباء ٦ : ٥٥
(٣) انظر رواية القصيدة (٢٥٠) في نسخة أيا صوفيا : ١٦٠ ، ونسخة
المتحف : ١٦١ ، وانظر ديوان الفرزدق : ٣١٦ ، ٣١٩ هامش ٧ ، ٤١١
هامش ١

علامة ، راوية للآداب والأخبار ، ثقة ، ثبتا ، قدم بغداد في أيام هارون الرشيد ، روى عنه الفراء وابن الاعرابي ، قال ابن سلام الجمحي : « وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » وهو الوحيد من رواة الكوفة الذي روى عنه البصريون إذ روى عنه أبو زيد الأنصاري وخلف الأحمر^(١) . ذلك بأن أهل الكوفة كانوا يأخذون عن البصريين ، وأهل البصرة يمنعون من الأخذ عنهم ، لانهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة^(٢) .

فكان السكري ، وهو راوية البصريين في بغداد ، قد جمع في رواية ديوان الفرزدق روايات الكوفيين والبصريين ، فطريق كوفي خالص هو طريق محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي عن المفضل الضبي . وطريق تختلط فيه رواة البلدين ، فابن السكيت الكوفي يروي عن الحرمازي عن أبي عبيدة وهما بصريان ، وله رواية أخرى عن سعدان الكوفي عن أبي عبيدة البصري . ويبقى الطريق الكوفي الآخر الذي اهدت إليه وهو ابن السكيت عن سعدان عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه .

ويخلو الديوان من رواية الأصمعي الذي روى ديوان الفرزدق ، غير شك ، ولكن لم تتصل روايته^(٣) .

ولا يذهبن بنا الظن أن هذه الطرق في الرواية تقيّد كل راوية بالاختصار على رواية من يروي عنه فقد يشير الى رواية أخرى رواها ، لأن الرواية اتسعت في هذا العصر ، ويبدو ذلك أوضح ما يبدو في روايتي

(١) معجم الادباء ٧ : ١٧١ ، طبقات ابن سلام : ٢١ ، طبقات النحويين واللفويين : ٢١٠ ، تاريخ بغداد ١٣ : ١٢١ ، بغية الوعاة : ٣٩٦

(٢) معجم الادباء ٥ : ٣٠٠

(٣) لسان العرب : (خ ل ص) ، شرح القصيدة الدامغة : و ١٥٣

الحرمازي وسعدان ، فقد عارضا رواية أبي عبيدة بروايات اخرى حتى بدت في الديوان روايات ثلاث : رواية الحرمازي ورواية سعدان ورواية أبي عبيدة^(١) . وكان سعدان أكثر تعلقا برواية أبي عمرو الشيباني، وروى ابن حبيب عن أبي توبة^(٢) ، وهناك رواية عن سلمة^(٣) ، وعن عمارة بن عقيل^(٤) ، وترد في الديوان روايات مغلطة لا تنسب الى أحد، كأن السكري لا يريد أن يفوت على قارئه رواية ، ويضن بها أن تضيع ، أو كأن النقلة بعد السكري أهملوا النسبة . ونقل السكري تفاسير الرواة على اختلافها ، والأخبار ، وبرز في أضعاف التفسير ورواية الأخبار أسماء طائفة من شيوخ الرواية وأهل الاخبار اسند اليهم الرواة ما فسروه ونقلوه ، فروى السكري عن أبي غسان عن أبي عبيدة^(٥) ونقل ابن حبيب أقوال أبي توبة^(٦) ، ونقلت أقوال الأصمعي وأبي زيد الأنصاري والمفضل وابن الكلبي ، (الذي نقل من كتاب حماد الراوية) والشرقي بن القطامي ، وعمارة بن عقيل ، والكلابي^(٧) وقد يصحح لاحق على سابق^(٨) ، ولكن الطريقة المتبعة أن تنقل الأقوال جميعا . وأن ينسب كل تفسير الى قائله

(١) ديوان الفرزدق : ٣١٧ ت ١ ، ٣٦٧ ت ٦ ، ٣٨ ت ٢ ، ٢٦٥ ت ٣ ، ٣١٨ ت ٢ ، ٤٢٨ ت ٣ ، ٤٨٥ ت ١

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٧ ت ٥ ، ٥١٥

(٣) ورد مرة في مخطوطة دمشق : ٩٩ ، والمعروفون بسلمة في هذا العصر كثرة ، ورأيت ابن السكيت يروي عن سلمة النميري (الأغاني ٨ : ٣٠٤) .

(٤) ديوان الفرزدق : ٣١٤ ، ٣١٨

(٥) ديوان الفرزدق : ٤٨٤

(٦) ديوان الفرزدق : ٢٩٤ ، ٣٩٦ ت ١ ، ٤٠٩ ت ٣ ، ٥٧١ ت ٣ ، ٦٢١ ت ١

(٧) ديوان الفرزدق : ١٩ ت ٤ ، ١٥٨ ، ٣٠٧ ت ٣ ، ٣١٤ ت ١ ، ٣١٨ ت ٢ ، ٣٩٩ ت ٢ ، نسخة اكسفورد : ١٤١

(٨) ديوان الفرزدق : ١٢ ت ٣ ، ٣٠٨ ت ١ ، ٤٢٧ ت ١

في سلسلة الرواة : ابن حبيب ، وسعدان ، والحرمازي ، وأبي عمرو ، وأبي عبيدة ، ويعقوب والسكري ، على اختلاف أقوالهم أو اتفاقها .

بقي بعد ذلك أمر له خطره وشأنه ، وهو صلة الرواة الكبار الأوائل : المفضل الضبي^(١) ، وأبي عمرو الشيباني الكوفيين ، وأبي عبيدة البصري ، بالفرزدق الشاعر ، وطرق روايتهم عنه . وفي الحق أن الصلة تبدو لأول وهلة مقطوعة . ولكنني أكاد أجزم أن الرواة الأوائل قد ذكروا طرق أخذهم ، ثم أخذ الرواة من بعد يتخففون منها ، ثقة واطمئنانا ، فبدت الصلة منقطعة . وسيرد ما يؤيد ما ذهبت إليه . وليس من غرضي الإفاضة في بيان طرق رواية الشعر ، وتناقله على الألسنة عصرا بعد عصر ، فذلك موضعه من الكتب التي تتحدث عن طرق الأخذ والرواية^(١) .

ويكفي أن أذكر أن الفرزدق وأنداده من الشعراء الإسلاميين قد ظفروا بما لم يظفر به أسلافهم ، فقد أدركوا عصر التدوين . وإن الفرزدق خاصة قد لقي عناية بالغة ، وأدرك أوائل عصر ازدهار الرواية . فكان لذلك كله أثره في حفظ كثير من شعره ، فلم تعبت به يد الضياع التي عبثت بشعر أسلافه الجاهليين ، فلم يصل إلينا منه إلا القليل^(٢) .

ولئن تحدثت الكتب عن رواة الفرزدق الذين كانوا يأخذون عنه شعره حديثا عاما^(٣) ، إنَّها لم تغفل ذكر أسماء عدة منهم، زاملوه في الرحلة والمقام وحكوا كثيرا من أخباره ، وهؤلاء الرواة هم :

(١) انظر كتاب : مصادر الشعر الجاهلي ، وقيمتها التاريخية للدكتور

ناصر الدين الاسد .

(٢) قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاؤكم علم وشعر كثير » ، (طبقات فحول الشعراء: ٢٣) .

(٣) الاغاني ٤ : ٢٥٨

- ١ - ابنه لبطة (١) .
- ٢ - أبو شفلق ، كاتب الفرزدق ، وراويته ، ونديمه (٢) .
- ٣ - عبد الله بن رآلان المازني التميمي (٣) .
- ٤ - عدرو بن عفري الضبي ، من بني السبيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة (٤) .
- ٥ - ابن مشوبة ، راوية الفرزدق وكان يكتب شعره (٥) .
- ٦ - هبيرة بن الصلت الربيعي ، من ربيعة الجوع بن مالك ، كان يروي شعر الفرزدق (٦) .
- ٧ - رجل من بني ربيعة الجوع بن مالك (٧) .
- ٨ - عبيد ، من بني ربيعة بن حنظلة بن مالك (٨) .
- ٩ - الطهوي (٩) .
- ١٠ - عبيد الله بن عطية ، راوية الفرزدق وجري (١٠) .
- ١١ - مضارب (١١) .

-
- (١) الاغاني ٢١ : ٣٥٧ ، أنساب الاشراف ١١ : ٨٤
 (٢) ديوان الفرزدق : ٣٦٣ ، ٤٨٠ ، ٦٩٩ ، الشعر والشعراء : ٧٠ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤٧ ، ٧٣ ، ٨٨ ، الاغاني ٢١ : ٣١٥ ، ٣٩٠ ، خزانة الادب ٢ : ٦٨ ، ٣ : ٤١٦ ، وقد تورط بوشيه فجعله المفضل انظر : ٢١٤ هـ ١
 (٣) الاغاني ٢١ : ٣٦١ ، ٣٦٤ ، خزانة الادب ٢ : ٦٨ ، ٣ : ٤١٦ ، القصائد السبع : ظ ١ ، شرح المعلقات : ظ ١ ، شرح شواهد المغني ١ : ٧٥٩
 (٤) أنساب الاشراف ١٠ : ٥١٨ ، الاغاني ٢١ : ٣٢٥ ، طبقات ابن سلام : ٢٧٧
 (٥) النقاؤض : ٩٠٨
 (٦) الاغاني ٨ : ٢٥ ، أنساب الاشراف ١١ : ٢٥٥
 (٧) النقاؤض : ١٠٤٩
 (٨) الموشح : ١٠٦ - ١٠٧ ، الاغاني ١٧ : ٣٢٠ ، ٢١ : ٣٥١ ، النقاؤض : ١٠٤٩
 (٩) الاغاني ٨ : ٢٦ - ٢٧ ، أنساب الاشراف ١١ : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، شرح شواهد المغني ٢ : ٦٢٧ - ٦٢٨ ، ديوان جرير : ١٤١
 (١٠) الاغاني ٢١ : ٣٧٨ ، شروح سقط الزند : ٨٢٩
 (١١) النقاؤض : ١٠٤٧

وإني أسرع فأعترف بأن ثمة اضطراباً في النصوص التي روت بعض أخبار هؤلاء الرواة جعلنا نتردد قبل الحكم • فالمصادر تختلف في اسم أبي شفل ، وفي ضبط ابن مثوبة • ولا يستقيم خبر النقائص في سرده خبر الراويين السابع والثامن • ولكنه الاضطراب الذي يزيله متابعة البحث ، لتصحيح النصوص ، وتقويمها •

الى جانب هؤلاء الرواة الذين داروا في فلك الفرزدق ، وارتبطت أسماؤهم به ، لقي الفرزدق أكابر الرواة الذين اتهمت اليهم الرواية في عصرهم ، وعلماء العربية ، والأخباريون • فقد روى شعر الفرزدق عنسة الفيل (١) • وحماد الراوية (٢) ومحمد بن السائب الكلبي (٣) ولقيه راوية الكوفة القديم أبو البلاد (٤) ، ولقيه أبو مالك الراوية (٥) ، ولقيه أبو عمرو ابن العلاء المازني التميمي البصري (٦) ، ولقيه وروى شيئاً من شعره أبو بكر بن عياش الحنات (٧) ، وهارون بن ابراهيم الأهوازي أبو محمد البصري (٨) ولقيه وروى عنه الراوية اللغوي يونس بن حبيب ، والشاعر النميري أبو حية ، الذي كان مؤتماً به ، يتتبع خطاه (٩) ، وروى عنه رؤبة ابن العجاج الراجز التميمي (١٠) ، وأمثال لهم •

(١) معجم الادباء ٦ : ٩١

(٢) أنساب الاشراف ١١ : ٧٨ ، الاغاني ٨ : ٣٦ - ٣٧ ، ٢٨٧ ، ٢١٠ :

٣١٠ - ٣١١ .

(٣) أنساب الاشراف ١١ : ١٠٩ ، المعارف : ٥٣٦

(٤) المعارف : ٥٤١ ، أنساب الاشراف ١٢ : ١٧٨

(٥) الاغاني ٨ : ٤٤

(٦) الاغاني ٢٣ ، ٥٥٤ ، التصحيف والتحريف : ٤٥ - ٤٦

(٧) معجم الادباء ٢ : ٣٧٣ ، تهذيب التهذيب ١٢ : ٣٦

(٨) تهذيب التهذيب ١١ : ٢

(٩) العمدة ١ : ١٧٢ - ١٧٣ ، الاغاني ١٥ : ١١٩ ، الشعر والشعراء :

٤٨٦ ، خزانة الادب ٤ : ٢٨٣

(١٠) ديوان الفرزدق : ١٨٥ ، ٣٣٩ ، الطبري ٥ : ٣٠٥ ، النقائص

٣٨٣ ، الاغاني ١٥ : ٣٤١

وإذ قدمنا هذا العرض فقد وضح لنا الطرق التي سلكها رواة الديوان في جمع شعره عامة ، وقد بقيت بقية من الأخبار تدل على ما وراءها في هذا الصدد . فمما ورد في الديوان رواية لأبي عبد الله بن الأعرابي عن المفضل عن لبطة بن الفرزدق^(١) ، (وكان المفضل ولبطة مؤيدين لابراهيم ابن عبد الله بن الحسن في ثورته بالبصرة ، فنجى المفضل ، وقتل لبطة) . وفيه رواية أخرى لأبي عبد الله بن الأعرابي عن المفضل عن أبي شفلق^(٢) ، وفي الأخبار التي جاءت بها الكتب الأخرى ما يدل على ما ذهب إليه من اختصار السند في الديوان تخففاً . فقد ورد في الديوان (ص ٢٤٤) : « وذكر عن لبطة بن الفرزدق قال ٠٠٠ » والخبر نفسه في أمالي اليزيدي (ص ٥٦ - ٥٧) : « عن المفضل بن محمد بن يعلى الضبي قال : أخبرني لبطة بن الفرزدق . » ، كذلك ترد أخبار أخرى تسد ثلما كثيرة في هذا الباب . ففي أنساب الأشراف (١ : ٥٠١) رواية أبي علي الحرمازي عن أبي محمد القرشي ، عن لبطة بن الفرزدق ، وذكروا في الأخبار رواية أبي عمرو الشيباني والأصمعي عن لبطة بن الفرزدق^(٣) ، ورواية الأصمعي وأبي عبيدة عن أعين بن لبطة بن الفرزدق^(٤) . وكان أعين يروي كثيرا من أحاديث جده وأشعاره ، يرويها عن أبيه لبطة ، وعن ابني عمه ياس وعقال ابني شبة بن عقال بن صعصعة^(٥) وقد صرح صاحب منتهى الطلب (٣ : ٩٦) ان نقائض الفرزدق قد رواها أبو عبيدة عن أعين بن لبطة . وذكروا في الأخبار رواية أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي عمرو بن العلاء ،

(١) ديوان الفرزدق (هل) : رقم ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، (الصاوي) : ٣٦٠

(٢) ديوان الفرزدق (هل) : رقم ٤٢٦ ، (الصاوي) ٣٦٣

(٣) معجم الشعراء : ٢٥٤ ، الاغاني ٧ : ٢٣١ ، ٢٣٢

(٤) النقائض : ٤١٤ ، ٥٩٤ ، ٦٢٥ ، ٨١٩ ، ٩٤١ ، الاغاني

٢١ : ٣٣٩ ، أنساب الأشراف ١١ : ٨٤

(٥) النقائض : ٤١٤ ، ٦٢٥

وخلف الأحمر ، وأبي زيد الأنصاري ، ويونس عن رؤبة بن العجاج (١) الذي لقي الفرزدق وروى عنه . الى أمثال لها من الأخبار كثيرات . ولا غرو ، فقد كان رواية الأخبار يروون الى جانبها الأشعار ، واذا تتبع المرء رواية أخبار الفرزدق في الكتب أتمّ بها الطرق التي رويت بها أشعاره . وأظني قد ابلت عذرا في سد كثير من الثلم في هذا الباب . وأعدت صورة ذلك النشاط الذي كان يقوم به الرواة ليجمعوا الشعر ويحفظوه ويصونوه أن يضيع .

(١) شرح شواهد المفني ١ : ٥٠ ، طبقات ابن سلام : ٢٠ ، الموشح :

١٠١ ، خزانة الادب ٢ : ٣٤٧ - ٣٥١

(٣)

نقائض جرير والفرزدق :

شهد العصر الأموي ازدهار فن النقائض ، واتساعه ، ومشاركة كثير من الشعراء فيه . وكانت نقائض جرير والفرزدق الذروة التي سما لها هذا الفن ، والغاية التي انتهى إليها . فاجتذبت إليها الأدباء والرواة والخباريين والنحاة واللغويين والنسائين : عنوا بها عناية بالغة ، وتتابعوا على روايتها وشرحها ، وبيان أخبارها وأيامها ، وتعرف ما اشتملت عليه من طرائق العربية ، ووجوهها . فبدلوا فيها وكدهم ، واستفرغوا مجهودهم . وكانت نواة حركة ناشطة ، جادة ، منذ استبحار الرواية في القرن الثاني حتى أواخر القرن الرابع ، تعاقب عليها الرواة ، والشراح المفسرون ، وأصحاب العربية ، لتنال من عنايتهم الحظ الأوفى .

روى المفضل الضبي نقائض جرير والفرزدق^(١) ، وعملها أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، ورواها الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) دون تلك الرواية^(٢) ولأبي عمرو الشيباني^(٣) ، وابن الأعرابي والحرمازي^(٤) رواية في النقائض . وروى عمرو بن أبي عمرو الشيباني النقائض عن

(١) النقائض : ٣٧ ، ١٧٢ ، انساب الاشراف ١١ : ٢٣٥

(٢) الفهرست : ١٥٨ ، المنتخب : رقم ٨٨٧

(٣) النقائض : ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ١٦٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ،

٣٢٥ ، ٣٧١ ، ٤٧٥ ، ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٢٥ ، ٥٥٨ ، ٥٦٢ ، ٦٠٦ ، ٧٤٦ ، ٧٨٨ ، ٩٨٢ ، ٩٢٦ ، ٨٨٠ ، ٨٢٣ ،

(٤) النقائض : ٣٧١ ، ٣٧٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٨٨٠ ،

أبيه^(١) . ولأبي عقيل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير رواية في النقائض^(٢) .
وألف سعدان بن المبارك نقائض جرير والفرزدق ، رواها عن أبي عبيدة^(٣) .
وألف محمد بن حبيب كتاب النقائض^(٤) . وعملها أبو سعيد الحسن بن
الحسين السكري ، فجوّدها ، وقد عملها أبو المغيث الأودي ، رواها عنه
ثعلب^(٥) وكان أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي (٢٢٨ - ٣١٠ هـ)
الراوي الذي وصلت إلينا عن طريقه أوسع رواية في النقائض . وبلغ من أمر
النقائض أن كانوا ينصون في كتبهم على من حفظها ووعاها ، ليدلوا على
تمكنه في العربية ، ومعرفته بحياة العرب وأحوالهم . قال اليزيدي : كان
نقطويه أديبا ، حافظا لنقائض جرير والفرزدق وشعر ذي الرمة ، وغيرهم
من الشعراء^(٦) . وجعلوها في المتخير من أشعارهم : أشعار الفحول
المتقدمين^(٧) .

ولما أراد المستشرق البريطاني بيغان طبع كتاب النقائض وقع على
مخطوطات ثلاث : الأولى في اكسفورد ، ورمز إليها بحرف O ، والثانية في
لندن ، ورمز إليها بحرف - ، والثالثة في سترسبرغ ، ورمز إليها بحرف
S^(٨) وقد أهمل مخطوطتي بيل ، والقاهرة ، لأنهما منسوختان عن
مخطوطة سترسبرغ ، فلا حاجة له بهما في التحقيق^(٩) . (مخطوطة القاهرة ،

(١) النقائض : ١٧ ، ٣٤٦

(٢) النقائض : ١٦٦ ، ٤٩٢ ، ٥١١ ، ٥٧٤ ، ٨٥٥ ، ٩٣٨ ، ٩٩٦ ، ٩٨٠

(٣) الفهرست : ٧١

(٤) الفهرست : ١٠٦ ، المنتخب : رقم ٨٨٨

(٥) الفهرست : ١٥٨ ، وفي كتب الادب ذكر عدة من كتب النقائض

لم ندرجها لانها لا تنص صراحة على أنها نقائض جرير والفرزدق - معجم
الادباء ١ : ٢٢٧ ، ٥ : ٣١٤ ، ٣١٨

(٦) طبقات النحويين واللغويين : ١٧٢

(٧) منتهى الطلب ١ : ١

(٨) النقائض : مقدمة بيغان ١ : ١٠

(٩) النقائض : مقدمة بيغان ١ : ١٣ - ١٤

التي أشار إليها بيفان ، في دار الكتب المصرية ، رقمها ٦٢٠ أدب ، وعدد أوراقها : ١٧٥ ورقة ، وفرغ من نسخها لاثنتي عشرة خلت من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٩٧ هـ - « ١٨٧٩ م » وهي منسوخة عن أصل كثير الخروم ، مضطرب الأوراق ، على ما يبدو من مطالعتها) •

والمخطوطات الثلاث التي اعتمد عليها بيفان في طبع الكتاب ، متفاوتة في رواياتها ، وشروحها ، وترتيب قصائدها ، تفاوتاً جعل بعضهم يظن أن نسخة سترسبورغ الموجزة من صنع أبي عبيدة ، وأن نسخة اكسفورد المطبوعة من عمل أبي سعيد السكري^(١) . •

حاول بيفان في مقدمته أن يبرز السمات والمميزات التي يتصف بها كل من المخطوطات الثلاث ، فذكر ما ورد من النقائص في كل منها ، وبين اختلافها عدداً وترتيباً . ودل على صفات المخطوطة بلمحات خاطفة تعين عدد الأوراق وتاريخ النسخ ، واتقان الخط ، واكتفى بكلمات قليلة تناول بها الشرح ، وأسماء الرواة الذين ورد ذكرهم في النسخة^(٢) . •

وجعل بيفان مخطوطة اكسفورد عماد كتابه ، لأنها أوفى المخطوطات الثلاث وأوسعها ، فاتبعها رواية وترتيباً ، والتزم أن يستوفي نصوص النسختين الأخرين ، وأن يثبت الاختلاف أتى ورد . واعتمد في تحقيق نص المخطوطات على خمسين مصدراً ونيّف ، عددها في مقدمته ، أبرزها ديوان الفرزدق المطبوع في أوروبا ، ونسخة بوشيه المخطوطة الكاملة ، وديوان جرير في طبعته القاهرية (ط ١ ، ١٣١٣ هـ) وفي نسخته المخطوطتين في ليدن والمتحف البريطاني^(٣) . •

(١) النقائص : مقدمة بيفان ١ : ٥

(٢) النقائص : مقدمة بيفان ١ : ١٠ - ١٣

(٣) النقائص : مقدمة بيفان ١ : ٧ - ٩ ، ١٤

وبذل يبفان جهودا صادقة في نشر الكتاب : استقرى المصادر ، وأعمل النظر ، وأدام المراجعة ، ونقب في الدواوين^(١) ، تحدوه الرغبة والعزم أن يبلغ بعمله ما يؤمله له من الكمال والاتقان ، حتى أخرجه للناس في ثلاثة مجلدات كبيرة ، اثنان منها للنص العربي ، صفحتاهما ١٠٩٩ صفحة ، والثالث يتصل بالفهارس بلغت صفحاته ٦٣٧ صفحة^(٢) واتيح لبفان حظ من النجاح عظيم ، يكافىء ما بذل من مجهود ، وما أنفق من وقت . ولكنه لم يستطع ، على جهده الصادق ، أن يبلغ بعمله الغاية التي جرى اليها . قصر عن الغاية أشواطاً ، وعشر عشرات ، فبدت في عمله ثغرات وثلم ، تدعو المحقق أن يعود اليه ، يلم الشعث ، ويرأب الصدع .

وأول ذلك أن يبفان قد فاتته في التحقيق نسخ مخطوطة كان عليه أن يطلع عليها . ذلك بأن نسخة سترسبرغ التي اعتمدها في عمله ، كثيرة السقط والخروم ، سقط منها خمس وعشرون نقيضة^(٣) ، فكان على يبفان ، أن يجدد ، قبل الطبع ، في البحث عن نسخة أتم وأكمل ، ويشاء حظه السيئ أن ينيه ، وقد أتم عمله ، أو كاد ، الى نسخة من النقائض في بغداد ، تشبه نسخة سترسبرغ ، ولكنها تفضلها ، لأنها أتم منها وأوفى . تحوي عشرين نقيضة من النقائض الساقطة في نسخته ، وتكمل ست نقائض فيها ، فاكتفى بالإشارة اليها^(٤) . ولم يثبت الفروق التي تخالف بها النسختين

(١) بين ما أخذه من هذه المصادر في النقائض ، المجلد الثالث ٢١-٤٨

(٢) وطبع كتاب النقائض بين جرير والفرزدق في مدينة ليدن بمطبعة بريل (١٩٠٥ - ١٩١٢ م) .

(٣) النقائض ، المقدمة ١ : ١٢

(٤) النقائض : المقدمة ٣ : ٥ - ٦ ، وهي نسخة الاب انستاس الكرمللي =

الأخريين ، ولعله لم يستطع ذلك ، لأنه اطلع عليها بأخرة ، فحالت شؤون الطباعة بينه وبين ذلك . وفي دار الكتب المصرية نسخة من النقائض (رقمها ١٨ أدب ش) ، وهي من كتب العالم اللغوي الكبير محمد محمود بن التلاميذ المركزي الشنقيطي ، (ت ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م) (١) ملكها بمكة المشرفة سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) ، وهي تماثل نسخة بغداد في خلوها من السقط والخروم ، وتختلفان في أن نسخة بغداد احتفظت بالشروح اللغوية ، على حين تخفت منها نسخة دار الكتب ، مكتفية بمقدمات القوائد (٢) . ولو اتيح لبيبان أن يطلع على هاتين النسختين لتلافى السقط في نسخته . وأتم الموازنة بين الروايات في النسخ الثلاث التي تنتمي الى أصل واحد . وفي دار الكتب المصرية أجزاء من كتاب منتهى الطلب (٣) ، تحوي فيما تحويه : المختار من نقائض جرير والفرزدق ، وقد روى منها ٣٠ نقيضة من نقائض جرير ، و ٢٩ نقيضة من نقائض الفرزدق . ولا بد لمن ينشر النقائض ، من الموازنة بين ما ورد في نسخها المخطوطة ، وما ورد في المخطوطات الجامعة التي روت عنها . ويبقى بعد ذلك كتاب نقائض جرير والأخطل الذي فات بيبان ، فلم يره . وقد طبع في بيروت ١٩٢٢ م ، وهو مصدر لما ورد في كتاب النقائض من أخبار وأشعار تتصل بدخول الأخطل في معركة الهجاء .

= في مكتبة المخطوطات العربية في المدرسة المستنصرية ببغداد ، رقمها ٢١٠٢ ، وعدد أوراقها ٢٠١ ورقة ، تم نسخها في ١٧ شوال سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) عن نسخة قديمة محفوظة في خزانة الجامع الاموي بدمشق المحروسة .

(١) انظر ترجمته في كتاب الاعلام ٧ : ٣١١ - ٣١٢

(٢) وقد أخطأ الأستاذ الزهيري ، حين ظنها نسخة مفردة لا صلة لها بنسخة سترسبرغ ، (نقائض جرير والفرزدق للزهيري : ٢٩ - ٣٣) .

(٣) هو من كتب العالم اللغوي الكبير محمد محمود الشنقيطي ، رقمه

في الدار : ٥٣ أدب ش .

وأخذ ييفان على نفسه أن يورد نصوص المخطوطات الثلاث بدقة وعناية : يذكر اختلاف النصوص أتى ورد ، يثبته ، ويشير اليه ، ويدل على ما تفردت به كل نسخة من زيادات في الرواية ، والأشعار • وهو أمر لا بد منه ليستطيع الباحث أن يطمئن الى صدق النص وصحته ، وما يصدره عليه من أحكام • ذلك بأن نقائص جرير والفرزدق في نسخها التي بلغتنا ، كانت مجال جهود الرواة واللغويين والأخباريين الذين تلقوها ، وتناقلوها ، حتى القرن الرابع الهجري ، يضيف كل اليها ما بلغه من روايات ، وتفسير ، وأخبار ، حتى اختلفت نسخها اختلافا يزيدنا حرصا على أن نقف عند كل رواية ، لنبين بالدراسة الدقيقة ، والفحص المروّبي ، ما كان لكل واحد من العلماء من جهود بدت آثارها في هذا الاختلاف ، ثم نتبع سلسلة الرواة والعلماء في النسخ المتعددة لندل على ما تفردت به كل نسخة من أقلام علماء خصوصها بزواياتهم ، ونشاطهم • وليكونن دراسة شائقة ممتعة ، غاية في الافادة ، تبيان هذا النشاط الدائب ، يقوم به العلماء في حلقتهم ومدارساتهم فيبدو لنا هذا النموّ الحي في كتاب النقائص على مدى الأيام ، يمدّه الزمن بنسج التفتح والنضارة والخصب ، فإذا نحن أمام قصة حياة كتاب تحكي لنا طرفا من حياة العلم ، وسيرة العلماء في قروننا الزاهرة الماضية ، بل تحييها ماثلة أمام الناظرين •

ولكن ييفان لم يستطع أن ينشر صورة صادقة كل الصادقة ، لما في نسختي لندن وسترسبرغ ، واكتفى بلمحات سريعة في وصف النسخ ، أوردها في المقدمة لا تكفي الباحث ولا تقنع العالم • ولم يحاول الذين جاءوا من بعد ، فقدموا في دراسة النقائص بحوثا وكتبا ، أن يدرسوا هذا الجانب من تاريخ النقائص بنسخها المختلفة ، ويبينوا عوامل اختلافها ، فتجاهلوا الأمر ، واكتفوا بتلخيص ما أشار اليه ييفان في

مقدمته^(١) ، أو جعلوا من دراسة نسخة اكسفورد دراسة لنسخ النقائض جمعاء^(٢) . وأنا لا أعني بخطأ بيفان في النشر ما عمد اليه من تقطيع أوصال نسختي لندن وسترسبورغ ليساير ترتيب نسخة اكسفورد ، ويتابع النص فيها ، لأنه أمر أكره عليه ، واضطر اليه ، وقد تجنب أن يلبس الأمر على القارئ بما أثبتته في الهامش من أرقام صفحات المخطوطات فكان غاية في الدقة أتاح به للمطالع أن يتخيل أصول المخطوطات وطريقة ترتيبها ، ولكن ما يعينني أن بيفان كان يهمل أشياء عدة يراها صغيرة لا شأن لها وهي غاية في القيمة والخطر ، وكان يتجاهل اختلاف العبارات وتباين طرق الرواية ما دام المعنى العام واحدا ، فأثار بعمله هذا ألوانا من الاعتراضات وأضعف حجة من يود أن يبت بحقيقة رواية العلماء وتطورها معتمدا على كتابه ، لأنه لا يقوى على الجزم بأن هذا النص وارد بكلماته نفسها في النسخ الثلاث ، إذ أجاز الناشر لنفسه مرارا أن يكتبي بإيراد النص الذي تفردت به نسخة اكسفورد ما دام معناه مرويا في النسختين الاخرين ، دون أن يشير الى ذلك أو يدل عليه ، فعجز عن اثبات ما ورد في النسختين الاخرين تاما . وسأضرب أمثلة قليلة تنبئ بمدى الخطورة فيما أقدم عليه الناشر :

أ - ورد في مطلع النقائض : « قال أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قال الحسن بن الحسين السكري ، قال أبو جعفر محمد بن حبيب ، حكى عن أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، قال^(٣) : « وفي الهامش ما يشير الى ورود النص في نسختي اكسفورد وسترسبرغ ، ولكننا نعلم أن مطلع نسخة سترسبرغ يقتصر على قوله : قال أبو عبيدة . وهو أمر كان

(١) تاريخ النقائض في الشعر العربي : ٣٠٣ - ٣٠٦ ، نقائض جرير والفرزدق للزهيري : ٢٦ - ٢٨

(٢) نقائض جرير والفرزدق للزهيري : ١٣٨ - ١٦٤

(٣) النقائض : ١

يجب الإشارة إليه في النص لأنه هام وأساسي في الدلالة على الفروق بين النسخ ، والعجب أن ييفان أشار الى ذلك في مقدمته^(١) ، ثم أهمله حيث يجب ألا يهمل .

ب — أول مقدمة النقيضة (٢٦) في نسخة (س) أتم منه في نسخة اكسفورد ، وكان على ييفان اذا اتبع القواعد التي ارتضاها لنفسه في مقدمة كتابه^(٢) فيما يتصل بالزيادات أن يورد النص في الصورة التالية : « قال أبو جعفر محمد ابن حبيب : ومن ها هنا روى المفضل ، [قال] : « وأن ييرزه ابرازا يوازي خطره في الرواية من اجتماع الراويين الكبيرين الكوفي والبصري ، والتقاءهما في طريق واحد ، ولكن ييفان أورد نص نسخة اكسفورد الموجز وحده وأشار في الهامش الى رواية النسخة الاخرى حاذفا كلمة قال ، وهي ذات دلالة كبيرة لأنها تنبئ عن بدء اشتراك الراويين في رواية النقائض بدءا من النقيضة ٢٦ ، ويبدو أن ييفان لم يدرك شيئا من دلالتها مما دفعه أن يلحق كلمة ابن حبيب بختام الكلام السابق الحاقا ، بدل أن تبدو وكأنها تمهيد ومطلع لما يأتي^(٣) . والعجب كل العجب أن ييفان أورد النص تاما في مقدمته^(٤) ، ليتجاهل بعضه حيث لا يجوز التجاهل .

ج — يشير ييفان (النقائض : ١٢٦) الى مقدمة النقيضة ٣١ في نسخة (س) ، ويعجب الانسان كيف يمكن أن يكون مطلع الكلام مبتورا لا مفتتح له ، ولكن الحق أن ييفان أهمل حيث كان عليه أن يذكر ، فقد

(١) النقائض ، المقدمة ١ : ١٣

(٢) النقائض ، المقدمة ١ : ١٥

(٣) النقائض : ٣٧ ، وقد نقل البلاذري في أنساب الاشراف (١١ : ٢٣٥)

رواية المفضل وهي لا تخرج عما في النقائض .

(٤) النقائض ، المقدمة ١ : ١٣

ورد مفتتح الكلام في آخر السطر السادس ، ويتمه ما ورد في السطر الثالث عشر ، وبذلك يطرد القول ويتسق ويرتبط آخره بأوله .

د - أوردت نسخة اكسفورد سبب النزاع الذي نشب بين جرير والأخطل في موضعين قالت في أولهما : قال أبو عثمان | سعدان بن المبارك | ، قال أبو عبيدة ، حدثنا عامر بن عبد الملك ، قال : (وسأقت حديثاً بين سبب النزاع)^(١) . وقالت في الثاني : قال أبو عثمان ، أنبأنا الأصمعي وأبو عبيدة قالوا : (وسأقت حديثاً في سبب النزاع يخالف الحديث الأول)^(٢) ، وأشار ييفان في هامش الموضعين الى ورود الحديثين في نسخة (س) مجموعين معا في موضع واحد ، وأول المآخذ أن ييفان أهمل الإشارة الى أن أبا عثمان (في الموضعين) والأصمعي زيادة تختص بها نسخة اكسفورد . نعم إن ييفان أشار الى خلو نسخة (س) من ذكر أبي عثمان في مقدمته^(٣) ولكن دقة النشر توجب عليه أن يشير الى ذلك في مورد النص ، وثاني المآخذ هو ما بدا للقارىء من اضطراب سياقة الحديث في نسخة (س) بمخالفة آخره لأوله ، وهو على ما وضعه ييفان تنمة له لا فاصل بينه وبينه ، ويزيده ارتباكاً اقحام اسم الأصمعي في داخل الكلام ، دون أن يسبق له ذكر ، وقد يخرج القارىء الى اتهام أبي عبيدة بالاضطراب والتخليط في الرواية . ولو كان الناشر دقيقاً لاثبت ما أسقطه من نسخة (س) في مطلع الحديث الثاني وهو قال [أبو عبيدة] : وأما اليربوعي فقال^(٤) ، فدلنا بذلك على روايتين رواهما أبو عبيدة عن سبب النزاع بين جرير والأخطل ،

(١) النقائض : ٤٩٤ ، وعامر بن عبد الملك المسمعي ، من بيت الشرف في بكر بن وائل بالبصرة ، وكان راوية للاخبار ، نسابة ، أخذ عنه كبار الرواة : أبو عبيدة والأصمعي وابن سلام ، وكان عامر يقدم جريراً ويفضله (الموشح : ١١٨ ، المعارف : ٤١٩ ، الاغانى : ٨ : ٩ ، جمهرة أنساب العرب : ٣٠١) .

(٢) النقائض : ٨٧٩

(٣) النقائض ، المقدمة ١ : ١٣

(٤) مخطوطة النقائض (دار الكتب) رقم ٦٢٠ أدب ، و ١٠١ - و ١٠٢

ونشوب معركة الهجاء ، احدهما عن عامر بن عبد الملك المسمعي ، والثانية عن اليربوعي ، وهما روايتان جمعتا في نسخة (س) بينما جزئتا في نسخة اكسفورد ، مما يؤكد دقة أبي عبيدة وأماتته وشدة توقيه في الرواية ، بل ويلقي الضوء على ما في نسخة اكسفورد فيوضحه ، وشتان ما عرضه ييفان ، وما ورد في نسخة (س) في باب الرواية .

هـ - وكذلك الشأن فيما أورده بشأن الأقرع بن حابس وهو : قال أبو عثمان ، قال الأصمعي ، قال اليربوعي ، حدثني الشرقي بن القطامي ، عن الكلبي أن الأقرع بن حابس كلم رسول الله في أصحاب الحجرات (١) . . وأشار في الهامش الى وروده في نسخة (س) والحق أن ما ورد في مخطوطة (س) معنى الحديث موجزا ولم يرد شيء من السند (٢) .

و - اكتفى ييفان في مقدمة النقيضة ١١٠ بايراد ما ورد في نسخة اكسفورد وتجاهل ما روته نسخة (س) من نص أطول وأتم وهو : وقال الفرزدق لما أطال جرير الفخر بارداف الملوك ، وبقعب بن عتاب ، وبعتيبة بن الحارث بن شهاب (٣) . وهو نص له شأنه وخطره في التحقيق ، وفي الدرس الادبي ، لأنه يعين في تأريخ الشعر وكفى بهذا التناسي أثرا أنه أوقع أحد المؤلفين في الخطأ ، ودفعه الى التورط والضلال في أحكامه (٤) .

هذا كله يؤكد لنا ضرورة اعادة طبع النقائض بمراجعتها على النسخ المختلفة جميعا لسد الخروم ، وتصحيح الروايات ، واستدراك ما سقط ، ثم الاستعانة بكل الوسائل لايراد النصوص كلها دون تناس أو حذف

(١) النقائض : ٧٤٧

(٢) مخطوطة النقائض ، ظ ١٣٨

(٣) النقائض : ١٠٣٩ ، مخطوطة النقائض : و ٨٨

(٤) نقائض جرير والفرزدق للزهيري : ٣٢

أو تجاهل ، ليكون القارىء على بينة من أمره حين يصف النسخ ويبين
مميزات شروحيها •

و كنت قد ذكرت قبل ما بذل ييفان من جهد مشكور في تخريج
الروايات والأخبار والأيام وأبيات النقائض والقصائد التي وردت في الشروح،
فكان يدل على مصادرها في الدواوين المختلفة ، وكتب اللغة والأدب
والتاريخ والبلدان^(١) وهو أمر تنوء به العصبه أو لولو القوة ، ومن هنا
كان لا بد له أن يغفل أشياء كثيرة لا يشير الى مصادرها في مراجعته
نفسها ، ولعله كان أحوج ما يكون الى استشارتها ، والاسترشاد بها
لتصحيح ما وهم فيه وأخطأ ، ولن أذكر الا بضعة أمثلة اكتفي بها ، من
ذلك روايته بيت لبيد :

تسلب الكانس لم يؤرَبها شعبة الساق إذا الظل عقل^(٢)

وهو من الرمل ، ولكن الناشر ضبط (لم يؤر) ضبطا أخل بوزن البيت
ولو عاد الى لسان العرب (ورأ) ، (أور) ، (وأر) ، (أرى) ، وهو
قد استرشده كثيرا جدا لرأى الروايات الأربع في البيت ، ولاهتدى الى
الصواب في ضبطه ، وتبين له خطأ ما ذهب اليه ، والعجب أن الناشر رجع
الى الديوان المطبوع في أوربا ، وفيه احدى الروايات الأربع الصحيحة
التي لا بد أن تقوده الى ضبط ما في النقائض ، ولكنه لم يتنبه الى تصحيح
ما وقع فيه • وعرضت نسخة لندن لتفسير « أردية الطبل » بقولها : وأردية
الطبل ، برود منسوبة ، وشيها كالطبول، وهو تفسير يشبه ما ورد في اللسان
(طبل)، وليس فيه غريب أو غامض أو مجهول، فما أدري لم أكثر الناشر
من اشارات الاستفهام في النص ، وكأنه شيء يستعصي على الفهم ، دع عنك

(١) بيت ييفان ما رده الى هذه المصادر في الفهرس، النقائض ٣: ٢١-٤٨

(٢) النقائض : ٨

أنه حذف ما جاء من تفسير في هامش نسخة (س) (١) . وترك التحريف في قول الفرزدق « إِذْنٌ لِأَتَى الدَّوَاهِرَ مِنْ قَرِيبٍ » (٢) ، وروايته الصحيحة في اللسان والتاج : (دهر) ، وتصحف عليه قوله : شواء رشرش ، ونبيد سعبر ، وغناء حسن (٣) ، وروايته الصحيحة في اللسان والتاج : (سعبر) .

ويجس المرء أن ييفان لم يأنف أسلوب المؤلفين العرب في سرد أسماء الاعلام ، وزاده اضطرابا جهله بطبقاتهم ، وطريق رواية بعضهم عن بعض ، فحار في تحديد المراد بأبي عمرو في النقائص ، وميل فيه بين أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عمرو الشيباني ، حيث لا تردد ولا شك ، بل يقين قاطع يدرك به المرء المقصود منهما في كل نص دون أدنى ريب (٤) . وبلغ به الأمر أن ظن أبا عمرو بن العلاء شيخ رواة البصرة ، يروي عن أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي (ت ١٥٧) (٥) ، وكذا الشأن في أبي العباس ظنه المبرد ، ثم عاوده التردد بينه وبين ثعلب ، وهو في النقائص ثعلب كناه تلميذه اليزيدي راوي النقائص تعظيما ، ولم يلقبه . وأما المبرد فقد ذكر في النقائص مرة واحدة باسمه غير مكنى ولا ملقب (٦) . ولما ورد ذكر أبي ريش في النقائص واسمه أحمد بن ابراهيم القيسي ، جعل الناشر الابن أبا ، والأب ابنا (٧) (متابعا بذلك خطأ صاحب بغية الوعاة) . وكذلك جعل محمد بن السائب الكلبي أبا هشام (٨) ، لأن ابنه الذي روى عنه العلم وشهر هو هشام ، فتناسى بذلك ما اطبقت عليه كتب التراجم من أن كنية محمد بن

(١) النقائص : ١٣٣ ، الهامش ، مخطوطة النقائص : ظ ٢٤

(٢) النقائص : ٨٠٤

(٣) النقائص : ١٠٤٨

(٤) النقائص : ٣ : ١٧٧

(٥) النقائص : ٤٠٢ ، وانظر ترجمة أبي مخنف في الاعلام ٦ : ١١٠-١١١

(٦) النقائص : ٣ : ٥٧ ، ٢١٤

(٧) النقائص : ٣ : ١١٦

(٨) النقائص : ٣٦٥ ، الهامش ، ٣ : ٢٤١

السائب الكلبي أبو النضر^(١) ، والذي ورطه في هذا الخطأ جملة بكلام أبي عبيدة في النقائص . فقد احتفل أبو عبيدة لحديث مقتل قتيبة بن مسلم وأفاض فيه^(٢) وأسند الحديث الى رواة عدة ، كان يذكرهم في تضاعيف حديثه مبالغة في الدقة وتحريي الحق ، فلما انتهى الى ذكر الشعر الذي قيل في مقتل قتيبة أنهاه بقوله : قال سعدان ، قال أبو عبيدة ، قال أبو هشام : قال بيهس بن حاجب بن ذبيان :

ورد على سعد وكيع دماءها حفاظا ، وأوفى للخليفة بالعهد

ثم عاد ليتم حديث يوم قتيبة فقال : قال أبو عبيدة ، قال أبو هشام — وهو من بني العجيف بن ربيعة بن مالك بن حنظلة — : فحج سليمان بن عبد الملك^(٣) ، فأبو عبيدة يورد خلال حديثه جملة اعتراضية فيها شيء من نسب أبي هشام ، أحد من روى عنه ، فيذكر لنا أنه من ربيعة الصغرى ، من تميم . وكأنه يعرفنا بمن روى عنه في أثناء روايته ، لا يقطعها بل يتمها . ولكن صراحة هذا النص لم تغن شيئا ، فقد ظن ييفان أن أبا عبيدة يعرفنا بيهس بن حاجب وأنه من بني العجيف ، وهو قول عجيب^(٤) ، ولجهل ييفان بطبقات الرجال لم يعلق على ما ورد خطأ ، أو سهوا في نسخ النقائص المخطوطة ، فقد ورد (ص ٥١١) : قال أبو عبيدة ، أخبرنا أبو العباس الأحول أن عمارة بن عقيل كان يرويها بيض ، بكسر الباء ، وبديه أن اسم أبي عبيدة سهو من الناسخ ، صحته أبو عبد الله ، وهو اليزيدي الذي روى عن أبي العباس الأحول ، فكان لا بد للناشر من أن يشير الى هذا السهو .

(١) الفهرست : ٩٥ ، المعارف : ٥٣٥ ، لسان الميزان ٦ : ٨٤٨

(٢) النقائص : ٣٤٩ — ٣٧٠ ، وهو حديث تفردت به نسخة اكسفورد

(٣) النقائص : ٣٦٥ — ٣٦٦

(٤) النقائص : ٣٦٦ ، الهامش ، ولعله يحسن أن نذكر أن بيهس بن حاجب بن ذبيان من بني مزن بن عمرو بن تميم ، وأبوه حاجب بن ذبيان ، ويعرف بحاجب الفيل ، شاعر مشهور ، (العقد الفريد ٣ : ٣٤٥) .

ولئن أطلت في هذه الأمثلة إني محمول عليها ، ذلك بأن أشباه هذه الأغلاط كانت الباعث على غلط أفدح تورط فيه بعض الباحثين حين بنى أحكامه على ما أثبتته ييفان في فهارسه^(١) .



وتدل دراسة النقائص ، بنسخها الثلاث ، على أن عمود الرواية والشرح فيها لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، ومن هنا جاز أن تنسب النقائص الى أبي عبيدة^(٢) . ولكن الرواة الذين جاءوا من بعد اتسعوا في الرواية ، وأفاضوا في التفاسير ، فأضافوا اضافات كبيرة على الأصل الذي رواه أبو عبيدة ، وكان لكل منهم أثره البين ، ويتجلى ذلك في هذا التفاوت الذي وقع بين النسخ الثلاث . وإن دراسة لهذا التفاوت واسعة تقوى على أن تبين أثر العصور والرواة في كل منها . وليس من بحثي أن أعقد هذه الدراسة ، ولست أطمع أن أوجز صورة صادقة لهذه النسخ لما قدمت في نقد المطبوع ، ويكفيني أن أجتزئ ببيان الملامح العامة لكل من النسخ الثلاث على حدة وأرجو أن يكون تمهيدا لدراسة أوسع وأوفى .

دراسة نسخة (س) ، على ما في النسخة من خروم وسقط تجعل كل دراسة ناقصة ، تدل على أن الرواية أبا جعفر محمد بن حبيب الذي روى النقائص عن أبي عبيدة أضاف إليها رواية المفضل الضبي ، ورواية أبي عمرو الشيباني^(٣) ، وابن حبيب إنما يروي عن المفضل الضبي عن طريق ابن الأعرابي ، ثم روى السكري النقائص عن محمد بن حبيب وأضاف إليها روايات عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير وانتقاداته^(٤) ، وذكرت روايات أخرى غير منسوبة .

(١) نقائص جرير والفرزدق للزهيري : ٢٣ - ٢٦ ، ١٣٠ .

(٢) لسان العرب (قرن) ، الاغانى ١٥ : ٣٤١ ، الاقتضاب : ٣٧٥ .

(٣) النقائص ، مقدمة ييفان ١ : ١٣ ، مخطوطة النقائص : ظ ١٠ ،

ظ ١١١

(٤) مخطوطة النقائص : ظ ٥٦ ، النقائص : ٢٧٢

والشرح في نسخة (س) لا يلتزم طريقة واحدة فهو يكون بعد البيت ، وفوق البيت ، وفي هامش النسخة ، أنواع ثلاثة • وتذكر الأقوال اللغوية أحيانا والتفاسير والأخبار منسوبة الى أصحابها ، ومن هنا تراءت أسماء اللغويين والاعرابيين والرواة : المفضل الضبي ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، والشرقي بن القطامي ، ومؤرج ، وابن الاعرابي ، وأبي العميثل ، وعمارة ، ومحمد بن حبيب ، وأبي سعيد السكري^(١) ، وذكر أبو عبيدة من رواته : مسحل بن كسيب ، من أحفاد الخطفي ، راوية النقائص الأول ، وذكر الى جانبه أبا أسلم خفيد الشاعر حكيم بن معية (أحد بني المجر ، من بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة) ، واليربوعي ، وأعين بن لبطة بن الفرزدق ، وعامر بن عبد الملك المسمعي ، وخالد بن جبلة ، وسعيد بن خالد ، وجهم ابن حسان السليطي^(٢) • وختلت نسخة (س) من ذكر الأيام والأخبار التي أطالت بذكرها النسختان الاخريان ، ولا يكاد المرء يقطع ، بعد دراسة النسخة ، أصلاً كانت نسخة (س) أم موجزة ملخصة عن أصل مطول ، ويبدو لي أن الهامش نقله أحد الشراح أو القراء من نسخة أخرى وكذلك كان يفعل العلماء ، يضيفون في الهامش تعليقات لغوية يرونها ضرورية^(٣) • ويقتى لنا أن نختم القول ببيان أن نسخة (س) قد استوعبتها نسخة اكسفورد ، ما خلا أبياتا وتفسيرات قليلة تفردت بها ، ذكر جزء منها داخل معقفين ، وأهمل الناشر الجزء الآخر •

(١) مخطوطة النقائص : ظ ١ ، ظ ٢ ، و ٣ ، ظ ٨ ، ظ ١٠ ، و ١١ ، ظ ١٢ و ١٨ و ٢٧ ، ظ ٢٧ ، ظ ٣٠ ، ظ ٣٢ ، ظ ٣٩ ، و ٤٥ ، و ٥٨ ، ظ ٦٤ ، و ٦٦ ، ظ ٦٦ ، و ٦٨ ، ظ ٦٨ ، و ٦٩ ، ظ ٧٠ ، و ٧٩ ، ظ ٨٠ ، و ٨١ ، ظ ٨١ ، ظ ٨٣ ، ظ ٨٥ ، ظ ٨٨ ، ظ ١٠٥ ، ظ ١٠٨ ، ظ ١١٠ ، و ١١١ ، و ١١٢ ، و ١١٤ ، و ١١٦ ، و ١٢١ ، ظ ١٢١ ، ظ ١٢٤ ، و ١٢٦ ، و ١٢٧ ، و ١٢٨ ، و ١٣٤ ، و ١٤٧ ، و ١٤٨ ، ظ ١٥٧ ، ظ ١٥٧ — و ١٥٨ ، ظ ١٦٩

(٢) مخطوطة النقائص : ظ ٧٥ ، و ٧٦ ، ظ ٩٤ ، و ١٠١ ، و ١٣٩ ، ظ ١٥٠ ، و ١٧٤ ، ظ ١٧٤

(٣) معجم الادباء ١ : ٧٤ ، ١٨٥ ، كتاب الرياش المصطنعي .

أما نسخة اكسفورد فهي أتم النسخ وأوسعها شروحا وأخبارا ، ذكر في مفتتحها سلسلة روايتها : « قال أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي ، قال الحسن بن الحسين السكري ، قال أبو جعفر محمد بن حبيب ، حكى عن أبي عبيدة معمر بن المثنى » ، واعد ذكرهم في الخاتمة^(١) ، وقد عودنا اليزيدي والسكري فيما رواه أن يؤلفا بين الروايات المختلفة وأن يحشدا في كتبهما أكثر ما قاله الرواة السابقون ، حتى تغدو كتبهما جامعة لما تبدد، مستوعبة ما تفرق ، وكذلك الشأن في نسخة اكسفورد فهي تجمع أكثر من شرح ، وتنقل أقوال العلماء جميعا ، وقد يذهبون مذاهب شتى في تفسيرهم وشروحهم ، فتضم ذلك كله ولا تكاد تشير الى التباين بين الأقوال^(٢) ، لأن غايتها أن تمثل تمثيلاً قويا هذا النشاط الدائب لعلماء اللغة والأخباريين منذ القرن الثاني حتى القرن الرابع ، وقد حفلت بأسماء الرواة واللغويين والأخباريين ، وعرضت لأيام العرب ووقائعهم ، معنية بتفاصيلها وشواهدا وأبطالها ، ويروع القارئ هذا الحشد الهائل من العلماء الذين شاركوا في بناء هذا الصرح العظيم ، يضيف كل الى سابقه فائدة وعلما ، وينقل عن استاذة التفاسير والشروح ، فإذا أنت تقع فيها على أسماء أبي عدرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والمفضل الضبي ، والكلبي ، وأبي مخنف لوط ابن يحيى ، والكسائي ، والقراء ، وأبي اليقظان سحيم ، والشرقي بن القطامي ، وهشام بن الكلبي ، وأبي عمرو الشيباني ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، والمدائني ، وابن الاعرابي ، وعمرو بن أبي عمرو الشيباني ، والحرمازي ، وأبي توبة ، وعمارة بن عقيل ، ومحمد بن حبيب ، وأحمد بن عبيد ، وأبي سعيد السكري ، والمبرد ، وثعلب ، وأبي العباس الأحول ،

(١) النقائض : ١ ، ١٠٥٤ ، وكان اليزيدي من شيوخ أبي الفرج فكثر في الاغاني في نقوله عن النقائض ايراد السند السابق مفردا أو يضم اليه رواية آخرين ، انظر الاغاني ٨ : ٣٠٧ ، ٩ : ٣٣٧ ، ١١ : ٦١ ، ١٥ : ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٢١ : ٣٩٤
(٢) النقائض : ٩٤٣ ، ٩٤٤

وأبي عبد الله الزبيدي^(١) . ويتألق فيها اسم سعدان بن المبارك الذي روى أغلب الأخبار والأيام ، والذي خلت نسخة (س) من روايته^(٢) . وتبدو في النسخة ردود بعض الرواة على بعض لتقويم ما انحرف من المعاني ، والترجيح بين الروايات ، وتصحيح ما غلط فيه ، فسعدان يصحح تعداد الأخرى برواية لأبي عمرو الشيباني ، ويؤيده أبو جعفر محمد بن حبيب^(٣) ، وتردش روايات لسعدان^(٤) ، ويرد أبو سعيد السكري رواية لعلها لمحمد ابن حبيب^(٥) ، وقد تذكر الرواية الصحيحة دون ذكر الراوي^(٦) . وليس من غرضي وصف الشرح وبيان مميزاته تفصيلا ، ولا التحدث عن هؤلاء العلماء الأعلام وأقدارهم في العلم ومنزلتهم في الرواية وأخذ بعضهم عن بعض^(٧) ، ولكنني أشير الى أن كتاب النقائض قد ذكر في فاتحته وختامه سلسلة الرواة الذين حملوه : الزبيدي عن السكري عن ابن حبيب عن أبي عبيدة .

والزبيدي هو أبو عبد الله محمد بن العباس الزبيدي (٢٢٨ — ٣١٠ هـ) ، إمام من أئمة النحو واللغة والأدب ، روى عن السكري وثعلب والمبرد وأبي العباس الأحول ، وكان خاتمة أسرة الزبيديين الشهيرة بمن

(١) انظر فهرس الأعلام في النقائض ، المجلد الثالث .

(٢) النقائض : ٣ : ١٢٦

(٣) النقائض : ٣٧٢

(٤) النقائض : ٨٧١ ، ٩٢١ ، ٩٩٨

(٥) النقائض : ٦٠٧

(٦) النقائض : ٧٧٢

(٧) بحث ذلك الزهيري في كتابه: نقائض جرير والفرزدق: ١٢٢-١٦٤ ، على اضطراب كثير ، وأعجب ما فيه تصنيفه رواية النقائض وشرحها ، فقد جعل محمد بن حبيب بصريا مرة (ص ١٣٣) وبغداديا مرة (ص ١٨ ، ١٣٧) ، وهو كوفي من علماء بغداد (طبقات الزبيدي : ١٥٣ ، ٢١٦ ، الفهرست : ١٠٦) ، وجعل أحمد بن عبيد بغداديا ، (ص ١٣٣) وهو كوفي (الفهرست: ٧٣ ، طبقات الزبيدي : ٢٢٤ ، إنباه الرواة ١ : ٨٤) ، ثم أضاف الى البغداديين من اسمه أحمد (ص ١٣٣) دون أن يدل عليه بكلمة أو يعرفه لفظة .

ظهر فيها من العلماء والادباء والرواة ، وقد روى اليزيدي عن أعمامه علما كثيرا ، وأفاد منهم فيما ترك من مصنفات وكان مصدقا في حديثه^(١) . وإن شعر الأخطل الذي نشره الأب أنطون صالحاني (بيروت ، ١٨٩١ م) إنما وصل إلينا برواية اليزيدي عن السكري عن ابن حبيب عن ابن الأعرابي .

ورجح عندي من دراسة النقائض أن اليزيدي قد ضم إلى روايته الأولى رواية ثانية هي روايته عن الأحول عن سعدان عن أبي عبيدة ، وهي الرواية التي تفسر لنا دخول شروح سعدان ورواياته نسخة أكسفورد من النقائض . فقد كان أبو العباس محمد بن الحسن الأحول من العلماء باللغة والشعر ، معروفا بالرواية عن سعدان عن أبي عبيدة ، وهو أستاذ اليزيدي الذي روى عنه^(٢) وذكر القدماء رواية ثالثة للنقائض هي رواية السكري عن إبراهيم بن سعدان عن أبيه عن أبي عبيدة^(٣) . ولكننا لا نجد لهذه الرواية أثرا في النسخة التي بين أيدينا ، وقد ازدحمت صحف النقائض بروايات أخرى كثيرة منسوبة ، وغير منسوبة ، وهي تؤكد أن كتاب النقائض تناج روايات شارك فيها البصريون والكوفيون ثم ضم شتاتها ، وجمع متفرقها ، اليزيدي الراوية البغدادي .

وتعنى نسخة أكسفورد بذكر السند والرواية عناية بالغة ، وتحتفل له ، ونحن ندين لها بإيراد كثير من أسماء الرواة الذين خلت منهم النسختان الأخريان ، وهي أغنى النسخ بذكر الرواة الذين روى عنهم أبو عبيدة أخباره

(١) الفهرست : ٥١ ، تاريخ بغداد ٣ : ١١٣ ، وفيات الاعيان ٣ : ٤٦١ ،
إنباه الرواة ٣ : ١٩٨ ، الاعلام ٧ : ٥٢

(٢) نزهة الالباء : ٢١٤ (والرقم خطأ ، صحته ٢٠٦) ، تاريخ بغداد
٢ : ١٨٥ ، ٩ : ٢٠٣ . فهرست ابن خير : ٣٤١ ، ٣٨٣ ، معجم الادباء
٦ : ٤٨٢ ، إنباه الرواة ٣ : ٩١ - ٩٢

(٣) معجم الادباء ١ : ٥٩

وأيامه حتى جاوز عددهم الخمسين^(١) ، وهو أمر له شأنه وخطورته في أمر الرواية في قرونها الاولى .

ونسخة اكسفورد متأخرة تم نسخها سنة ٩٧١ هـ وعرضت على الأصل مع تصحيفه وتحريفه^(٢) ويبدو لنا من دراسة النسخة أن الأصل المنسوخ عنه كان مقابلاً على عدة نسخ ، وكان ناسخه يرجح بينها^(٣) ثم كان الناسخ القديم يهمل أشياء مما ورد في الأصل الذي كان بين يديه إذا تراءى له تخليط فيها^(٤) بل إن عليها لأحد الكتاب في الهامش تعليقا يصحح ما أخطأ فيه من تقديم القصيدة المؤخرة^(٥) وتبرز نسخة النقائض التي كتبها بخطه عثمان بن سعدان بن المبارك مستندا يتكرر ذكره احدى عشرة مرة^(٦) ، ولا ندري اسم الراوية الذي اعتمدها ورجع اليها ليذكر الفروق بينها وبين نسخ النقائض المروية الاخرى ، وتتكرر أحاديث أيام ووقائع في مواضع عدة مما يتبين معه أن نسخة اكسفورد قد أدخلت فيها زيادات ، دون أن يحاول جامعها الأخير أن ينسق بينها ، ويحذف المكرر ، ولكننا نفيد من هذا التكرار كثيرا ، إذ تبدو أسماء رواة أغفلوا في الحديث الأول ، وتعرض تفاصيل لم تذكر من قبل^(٧) ، ومما يؤكد أن الجامع الأخير قد أغفل التنسيق في نقوله أنه يذكر أن حديثا ما قد مضى ذكره ، وتفاجأ بأنه لم يرد له ذكر ، ثم تستقبله بعد ذلك^(٨) .

(١) ذكرت أسماءهم جميعا في النقائض ٣ : ١٦٠ - ١٦١

(٢) النقائض : ١٠٥٤

(٣) النقائض : ٣٠٠

(٤) النقائض : ٨٩٤

(٥) النقائض : ٣٣٣ ، ٣٥٢

(٦) النقائض : ٣١٣ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٦٣ ، ٥٨٣ ، ٧٤٤ ، ٩٢٥

(٧) النقائض : ٤١٤ ، ٦٢٥

(٨) النقائض :

ويبدو أن حظنا في دراسة نسخة لندن وتبيان ملامحها سيكون سيئا، فالنسخة مخرومة خروما عدة ، وقد فقد مفتحتها ، وخاتمتها ، فلم يذكر رواتها • وأضاف ييفان الى هذه المصاعب أنه لا ينص على كل الفروق التي تتميز بها النسخة ، على ما أشرنا اليه قبل • ومهما يكن من شيء فإن نسخة لندن تماثل نسخة اكسفورد في اكثارها من ذكر الوقائع وافاضتها في سرد الأيام ، وهي تخالف في بعض ما تذكره رواية نسخة اكسفورد ، وهذا الخلاف يتناول الرواية وترتيب النقااض والتفسير اللغوي والشاهد وأحاديث الأيام والوقائع ومواطن ذكرها • يقل حيناً ، ويكثر حيناً مما أشار اليه الناشر في صلب الكتاب وهامشه^(١) • وقد يشتد الخلاف اشتدادا اضطر الناشر أن يثبته في ملاحق آخر الكتاب لبعده الشقة بينه وبين ما في نسخة اكسفورد^(٢) وتنفرد النسخة بذكر أيام وتفاسير لغوية ، وروايات وشواهد لا ترد في سواها^(٣) ، ولكنها ، على ذلك ، أقل أياما من نسخة اكسفورد ، وسقط منها شروح^(٤) ، أكثرها مما تكرر في نسخة اكسفورد ، مما يدل على أن يد التنسيق كانت أمهر وأدق • وتبدو نسخة لندن في عدة مواطن تختلف فيها النسختان ، أقرب في تفسيرها وعرضها ، وذكر ملابسات الشعر ، الى شرح ديوان الفرزدق برواية السكري^(٥) ، ولعله يفسر ذلك أن منسق النقااض قد أملى شرحها بعد أن أملى ديواني جرير والفرزدق^(٦) •

-
- (١) النقااض : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢٩ ، ٦٩٦ ، ٧٢٩ ، ٩٤١
(٢) النقااض : ١٠٥٨ - ١٠٩٩ ، وقد شمل ١٧ ملحقا .
(٣) النقااض : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ١٠٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٦٢٣ ، ٩٢٧
(٤) النقااض : ١٢٥ ، ٣١٣
(٥) النقااض : ٣٣٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ ، ٦٩١
(٦) النقااض : ٣٧٢ ، ٥٠٧ ، ٩١٣ ، ٩٥٩ ، وسمى الديوان مجردا ، ومما يؤكد أن العبارة ليست لابن حبيب إشارات وردت في شرح ديوان الفرزدق (وذكرتها ص : ٢١٤ ت ٣) تؤكد أنه ألف بعد النقااض ، وديوان جرير .

وتنفرد نسخة لندن بذكر كتاب السكري في النقائض ، وأن النقيضة ٦٢ فيه ، مقدمة على النقيضة ٦١^(١) ، ولا تعنى نسخة لندن بسرد أسماء الرواة الذين رووا الأيام والوقائع ، والأعراب ، الذين روى عنهم أبو عبيدة ، ولكنها تختص بذكر أسماء رواة تأخروا عن اليزيدي آخر رواة نسخة اكسفورد هم : أبو بشر^(٢) ، وأبو رياش^(٣) ، وأحمد^(٤) ، تفردوا بذكر روايات وتفسير لم ترد عن سواهم .

ولا أستطيع القول إن أبا بشر هو أحمد بن ابراهيم بن أحمد العمي البصري (ت ٣٥٠ هـ) ، من متكلمي الشيعة وفقهائهم ، وكان يستملي على الجلودي مؤلف أخبار الفرزدق وسمع كتبه كلها ورواها^(٥) ، لأنه ظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، ولكنني أرجح أن أحمد الذي كثرت روايته وتفسيره هو أبو رياش البصري الأديب الراوية المشهور (ت ٣٤٩ هـ) يقال انه كان يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة ، وعشرين ألف بيت شعر^(٦) ، وقد علق أبو رياش على نسخة السكري ، وذكر أقوال ابن حبيب ونقل

(١) النقائض : ٥١٢ ، ٥٤٨ ، ٥٧٦

(٢) النقائض : ٥٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ -

٦٨ : ٣

(٣) النقائض : ٤٢ ، ٤٤

(٤) النقائض : ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٨ ، ١١٧ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ،

٣٠٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٤٣١ ، ٤٨٤ ، ٥٠٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٨ ،

٦٩٨ ، ٧٠١ ، ٧٠٩ ، ٧٦٥ ، ٧٧٤ ، ٨٠٨ ، ٨١٧ ، ٨٢٤ ، ٨٥٧ ،

٨٧١ ، ٨٩١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٤ ، ٩١٤ ، ٩٢٦ ، ٩٣٤ ، ٩٤٣ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ،

٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٧٧ ، والعجب أن يفتان لم يكلف نفسه في الفهرس عناء

استقصاء المواضع التي ورد فيها اهمالا لثأته .

(٥) الفهرست لابن النديم : ١١٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، معجم الادباء

١ : ٣٧٦ ، الفهرست للطوسي : ٣٠ ، أعيان الشيعة ٧ : ٢٣٠ - ٢٣٢ ،

الاعلام ١ : ٨٢

(٦) معجم الادباء ١ : ٧٤ ، إنباه الرواة ١ : ٢٥ ، بغية الوعاة : ١٧٨

عنه ورد على أشياء قالها^(١) ، وقد شجعني على هذا الترجيح أنه ورد مرتين في النسخة بكنيته ، وأن نسخة من النقائض بقلم تلميذه راوية بغداد أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري (٣٢٩ - ٤٠٥ هـ)^(٢) ، كانت في متناول أحد كتاب نسخة اكسفورد فنقل منها زيادة ، ورد بيت منها في نسخة لندن التي أصابها الخرم بعده مباشرة^(٣) .

هذه الخطوط الاولى التي دلت بها على ملامح النسخ الثلاث هي صوى الطريق لدراسة خصبة يأخذ بها دارس النقائض نفسه ليستخرج صورة هذا العمل العلمي الدائب ، خلال القرون الثلاثة ، وهي تؤكد اعادة طبع الكتاب مبينا فيه فروق كل نسخة بدقة وعناية بعد البحث والتنقيب عن نسخ مخطوطة أتم وأكمل في بطون المكتبات .

(١) النقائض : ١٨ ، ٢٢

(٢) نزهة الألباء : ٤١٢ ، بغية الوعاة : ٣٠٥ - ٣٠٦ ، إنباه الرواة ١ : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢ ، ١٧٥ ، فهرست ابن خير : ٣٨٧ . وكان أبو العلاء المعري قد لقي عبد السلام أيام اقامته ببغداد ، وعقدت بينهما أواصر مودة والفة ، وإياه عنى أبو العلاء بقوله :

أهدي السلام الى عبد السلام فما يزال قلبي اليه الدهر ملفوتا

(٣) النقائض : ١٧

(٤)

ولئن جمع الديوان والنقائض جلّ شعر الفرزدق ، إن الناقد الأدبي ملزم ألا يعض الطرف عما تنائر من شعرا لفرزدق مفرقا في بطون الكتب مما لم يضمّه الجامعون ، فقد يكون في هذه الأشعار الموزعة أشتاتا ما ينير جانبا في حياة الشاعر ، ما زال يغطيه الظلام • وقد طالت حياة الفرزدق ، وظل يقول الشعر حتى آخر أيامه ، لم يصف ، ولم يتوقف ، فغزر شعره غزارة ، لا تجدها لشاعر اسلامي آخر • وشارك الفرزدق في أحداث عصره فكان أحد أولئك الشعراء الذين عبروا عن مجتمعهم ، وكانوا السنة عصرهم القوالة ، ولم يعكفوا على أنفسهم عكوبا يحول بينهم وبين الرؤية العامة • ففي شعره صدى المشاعر التي تعتلج في النفوس ، وبعث التاريخ الذي جمده الصحف فأعاد اليه الحياة • فهو بذلك يساعد في ابراز صورة للعصر صحيحة ، أقرب الى الحق • وهذا حافظ ثان يحثنا على جمع المفرق • دع عنك القيمة الفنية التي تكون لأشعاره تلك ، والتي هي رائدنا من دراسته •

ولاح لي أن الشعر المفرق كثير ، يتطلب لجمعه اناة وصبرا ودؤوبا • ويكفي أن أتى بشاهد واحد يكون دليلا لما وراءه ، فقد أحصيت الشعر الذي ورد في كتاب الأغاني مما لم يروه الديوان فكان مئة بيت ، وبيتين ، ولم أدخل في الاحصاء القصيدة المطولة التي رويت في زين العابدين والتي

بلغت عشرين بيتاً^(١) . فإذا تتبعنا الشعر في مظانه ، نظم متفرقه ، كان لنا ثروة من شعر هذا الشاعر جديدة تساعد في ايضاح مراحل حياته ، وتعين على استشفاف ما حجب من نفسه ، وتسعف الناقد الأدبي أن يكون أقدر على تبين خصائص فنه ، وأوثق بما ينتهي اليه من أحكام .

وقد هدتني الدراسة أن أتبين أن طائفة من القصائد ، قد رويت مبتورة بترافظيها^(٢) ، وان طائفة أخرى رواها الرواة مفرقة في الديوان حين عجزوا عن روايتها تامة^(٣) . وقد يردد الرواة بيتا واحدا في قصيدتين تشابهتا وزنا ورويا^(٤) . وترد في كتب الأدب واللغة والتاريخ مختارات من قصائد الشاعر فإذا هي تروي أبياتا قد سقطت من رواة الديوان^(٥) . دع عنك ما سقط عن طريق النساخ في المخطوطات وهو أخفها مؤونة لسهولة تداركه^(٦) . وقد وقع الشراح القدماء أنفسهم في أغلاط تورطوا فيها ، ولا بد من التنبيه على ما نابهم من السهو أو التسرع ، وكل هذه أمور يجب الاسترشاد بها والنص عليها لمن يود أن يستأنف تحقيق الديوان ، فإذا

(١) الاغاني ٢١ : ٤٠١

(٢) الديوان : ٧١ ، ١٦٢ ، ٤١٦

(٣) الديوان : ١٨٦ - ١٨٧ ، ١٩٩

(٤) الديوان : ٢٧٤ ، ٤١٤

(٥) ديوان الفرزدق : ٨٠٢ ، امالي المرتضى ٢ : ١١٥ ، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤ : ١٧٠٢ ، ديوان الفرزدق : ٣٨٢ ، فرحة الاديب : ورقة : ٣٦ ، شرح الشافية ٤ : ٤٤ ، الديوان : ١٣٣ ، انساب الاشراف ٧ : ٦٣٥ ، الديوان : ٤٩ ، ٥٦ ، النقائص : ٦٠٨ - ٦٠٩ ، الطبري ٤ : ١٧٩ - ١٨٠ ، الديوان : ٢٣٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٩٣ ، الديوان ٨٤٦ ، نوادر المخطوطات ١ : ٢٠٠

(٦) الديوان : ٩٢ - ٩٣ ، شرح شواهد المغني للسيوطي : ٢٩٩ ، شرح شواهد المغني للبغدادي ٢ : ٨٢٨ ، الديوان : ٣٤٢ ، نسخة المتحف : ١٧٦ ، الديوان : ٣٧٩ ، نسخة المتحف : ١٤٠ ، الديوان : ٦١٢ ، الدمشقية :

و ٨٣

تم ذلك كله كان لا بد لدارس الفرزدق من محاولة ترتيب الديوان ترتيباً تاريخياً ، مهتدياً بأحداث التاريخ ، وخصائص الشعر الفنية ، وهذا الترتيب يعين بدوره على فهم الشاعر ، وتطوره في مراحل حياته وفي خصائصه ، ويجنب الناقد كثيراً من المزالق والمزال .

وقد تنبه دارسو النقائض الى شدة حاجتهم الى ترتيبها ترتيباً تاريخياً يساير الأحداث التي ألمت بحياة الشعراء وقد بدأ ينفذ المحاولة في مقدمته^(١) ، وتعبه الاستاذان الشائب والزهيرى في دراستهما^(٢) . ولكن هذه الدراسات ما زالت في بدئها تمشي على استحياء ، فيها كثير من الثغرات والمآخذ لصعوبة ما أقدم عليه ، وتوعر جانبه على الباحث ، وهي ما زالت تتطلب المتابعة والمثابرة الجادة التي تلم بأطراف المسائل جميعاً وتنضد بالنظرة الفنية الى أغوار المشكلة . وسأبسط ما أوجزت بيان شاف في بحث النقائض .

واستهديت في دراستي بما انتهيت اليه في هذا الباب من ترتيب في الديوان والنقائض ، ولكنني لم أفرد له بحثاً خاصاً لأنه يخرج عن نطاق رسالتي ، ولأنه أوسع من أن يضمه فصل خاص ، فهو أولى برسالة تامة تفرد له ويتفرغ صاحبها لبحثه فيصل الى نتائج أقرب الى الحق وأجدي على الدرس الفني .

(١) النقائض ، المقدمة ١ : ١٦٠ - ١٩

(٢) تاريخ النقائض في الشعر العربي : ٣٠٨ - ٣٣١ ، نقائض جرير والفرزدق للزهيري : ٦٢ - ١٢١ ، والعجب أن الاستاذ الزهيري بعد هذا الفصل الطويل الذي عقده لترتيب النقائض أراد أن يجمعه بجدول فجاء الجدول مخالفاً لما قرره من أحكام .

الفصل الثاني

الهجاء والفخر

كان الفخر والهجاء أبرز غرضين استهويا الفرزدق واستأثرا بنفسه، قال فيهما فأكثر : أمدته مساعي قومه وما أثرهم ليغلو في الفخر ويبجح « وجد آجرا وجصا فبنى » ، وفسحت له ملاسبات عصره السياسية والاجتماعية ليبالغ في الهجاء ، ويعنف على الخصوم ، فقارض الشعراء مرّ القول ، وذاد عن قومه ، ونال الخارجين على الدولة بشواظ من ناره ، ولما هاج الشريفة وبين جرير استطار شره ثمانيا وأربعين سنة ، لم يملا العراك ، أو يقفا الخصومة ، وكتب لفن النقائص أن ينهض على أيديهما ليلبغ الغاية التي لا مرقى وراءها ، حتى صار يعرف بهما ، وينسب اليهما • فكان لا بد من أن أفرد هذا الفن ، فن النقائص ، أبداً به فأدرس خصائصه ومميزاته ، ثم أعقب بذكر الهجاء والفخر كما تجليا في قصائد الديوان الاخرى لتستكمل صورة هذين الغرضين اللذين قام عليهما بناء النقيضة نفسها •

أ - النقائص بين جرير والفرزدق

مقدمة :

قال اللغويون : نقض البناء : هدمه • ونقض الجبل : نكثه ، وحلّ قواه (قوى الجبل : طاقاته) • وضده : قتل الجبل ، وابرمه ، وأمرّهُ ، وأحكمه ، وأحصده ، قال جرير :

لا يأمن قويّ نقض مرته إني أرى الدهر ذا نقض وإمرار

قالوا : ومن المجاز ، ناقضني وناقضته : ينقض قولي وأنقض قوله ، فهو يعني المراجعة والمرادّة • والمناقضة في الشعر : أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول بأن يقول شاعر قصيدة فينقض عليه شاعر آخر حتى يجيء بغير ما قال • والنقيضة في الشعر : ما ينقض به ، يقال : هذه القصيدة نقيضة قصيدة فلان ، وتجمع على النقائص • ولذلك قالوا : نقائص جرير والفرزدق^(١) • فكأن النقيضة في رأي اللغويين فعيلة بمعنى فاعلة ، ولذلك قالوا أحيانا في التعبير عن القصيدة الاولى : منقوضة^(٢) •

وأراد اللغويون أن يوضحوا مأخذ المجاز فقالوا : المناقضة هي مفاعلة من نقض البناء وهو هدمه^(٣) • فجعلوا مجاز المناقضة في الشعر مستمدا من نقض البناء ، ولكن العودة الى النصوص اللغوية القديمة توضح أن

(١) جمهرة ابن دريد ٣ : ٩٩ ، تفسير الطبري ١٤ : ١١١ - ١١٢ ، ديوان جرير : ٣١٠ ، مادة (نقض) في اللسان والتاج وأساس البلاغة .

(٢) النقائص : ٥٧٦ ، هامش السطر ١١

(٣) لسان العرب : (نقض) .

المعنى المجازي مأخوذ من نقض الحبل لا البناء ، تضافرت على ذلك الشواهد من شعرهم • قال جرير :

وإذا رجوا أن ينقضوا مني قوى مرست قواي عليهم ومرائري
وقال :

ماذا رجوت من العلالة بعدما نقضت جبالك واستمر مريري
وقال عمر بن لجا يرد على جرير :

ما قلت من مرة إلا سأنقضها يا ابن الاتان ، بمثلي تنقض المرر
وقال الفرزدق يتحدى جريرا :

فدونك هذي فاتنقضها فإنها شديد قوى أمراسها ومواصله^(١)
ولئن اكتفى اللغويون في حد النقيضة بأنها القصيدة التي تنقض معاني سابقتها ، إن رواة الشعر والمتأدين درجوا على أن يعدوا من النقائض ما صدق فيه شرطان :

١ - أولهما : أن تنفق القصيدتان بحرا ورويا •

٢ - والثاني : أن يرد اللاحق على السابق معانيه وينقضها • قال جرير : ما قال لي ابن القين بيتا الا وقد اكتفأته ، أي قلبته الا قوله :

ليس الكرام بناحليك أباهم حتى ترد الى عطية تعتل

فإني لا أدري كيف أقول فيه ، وقيل لجرير : من هاجيت فكان أشد عليك ؟ قال : التيم ، كنت أقول القصيدة أحب إليّ من بكري حزرة ، فيجتمعون

(١) النقائض : ٦٢٩ ، ديوان جرير : ١٩٣ ، ٣٠٧ ، طبقات ابن سلام :

٣٦٦ ، الاغاني ٨ : ٧١

فينقضونها حرفا حرفا • ولذلك قال ابن رشيق : وكأنا يتقارضان الهجاء ، ويعكس كل واحد منهما المعنى على صاحبه^(١) • ومن هنا بدا في النقائص لفظ : كذبت ، وزعمت ، يقوله الشاعر لسابقه يرد عليه دعاويه ، وينقض مقاله^(٢) • فإن اكتفى الثاني يرد معاني الأول دون تقييد بالبحر والروي قالوا : أجابته ، ورد عليه ، وعرض له ، واعترضه ، وعارضه^(٣) ، وانبرى له • فالنقض عندهم أخص ، وهم يبيحون لأنفسهم أن يحلوا محله ماشاءوا ، من ألفاظ العموم السابقة ، ولكنهم لا يوردون لفظ المناقضة الا حيث يصدق شرطها ، مضى السابقون من الرواة والكتاب على ذلك في كتبهم وأخبارهم ، وتلقاه من بعدهم بالقبول ، ومشوا فيه على آثارهم •

ولعل الشعراء كانوا يرون في النقائص ما ارتآه الرواة والمتأدبون من بعد ، بل لعلهم هم الموحون الى الرواة بشرطتهم في النقائص ، فالفرزدق في احدي نقائضه يعجز جريرا ويقول له :

فدونك هذي فاتتقضاها ، فإنها شديدا قوى أمراسها ومواصله

فيرد عليه جرير ناقضا معانيه بقصيدة على وزنها ورويها • ويعيد الفرزدق القول في تقيضة أخرى :

إن كان قد أعيالك نقض قصائدي فانظر جرير إذا تلاقى المجمع

(١) الاغاني ٢١ : ٣٤٩ ، معجم الشعراء : ٤٦٧ ، الموشح : ١٢٩ ،
العمدة ٢ : ٢٦٨ - ٢٦٩

(٢) ديوان الفرزدق : ٨٥٦ ، ديوان جرير : ١٩٥ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ،
طبقات ابن سلام : ٣٧٠ ، الاغاني ٨ : ٧٨

(٣) للمعارضة معنى آخر ، وهو أن يتبارى الشاعران بغاية التفوق والتجويد ، فيلتزما البحر والروي ، (الاغاني ١٦ : ٢١١) •

ويقول لراويته : ويلك ، أنشدني وأوجع ، فإني أريد أن أنقض عليه •
ويشيد جرير في إحدى نقائضه بقصائده العواصي التي أعيا الفرزدق
نقضها :

ولقوا عواصي قد عييت بنقضها ولقد نقضت فما بك استمرار^(١)

ونلقى لفظ النقض في كثير من أقوال الشعراء الاسلاميين ، أتوا به جميعا
ليدلوا على ما تناقضوا به من قصائد ، استوفت وحدة البحر والروي ، الى
نقض الكلام وردّ معانيه ، كقول عمر بن لجأ بعد الصلح : « والله ما نقضت
هذه ، ولا سمعتها » ، وكقول عقاب بن هاشم في مناقضته الرماح :

ألا أبلغ الرماح نقض مقالة بها خطل الرماح ، أو كان يمزح^(٢)

وقد ينقض الشاعر على نفسه ، يقول في موضوع ، ثم يعود فيرد معانيه ،
وينقضها^(٣) •

(١) النقائض : ٦٢٩ ، ٨٦٠ ، ٩٥٨ ، ١٠٤٧

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٣٧١ ، الاغاني ٢ : ٣٠٩ ، ٨ : ٧٨

(٣) ديوان الفرزدق : ١٥٩ ، ٢١١ - ٢١٢ ، ٧٠٧ ، أخبار القضاة ٢ : ٣٢

(١)

صورة النقائض ومعانيها :

شغلت النقائض جانبا في حياة الشعر العربي ، عرفها العصر الجاهلي حين عمد اليها الشعراء في الخصومة والمنازعة والمفاخرة ، وقام بها الشعراء المخضرمون ، فلما كان عصر بني أمية بلغت النقائض الذروة على أيدي جرير والفرزدق والأخطل ، فقد اتيح لهذا الفن أن يستكمل مقوماته ، وأن ينال من عناية أولئك الفحول ما أوفى به على الغاية . ويدهش المرء لهذه الكثرة الكثيرة من النقائض في هذا العصر ، فكأن الشعراء جميعا اندفعوا في تيارها ، وراحوا يتنافسون فيما بينهم للتفوق في ميدانها^(١) ، وكأن كل شيء في الحياة كان يعد لتنمية فن النقائض والرقبي به ، وتمكين أولئك الفحول الثلاثة من النهوض به نهضة خلقتة خلقا جديدا ، جعل النقاد يرونه لونا متميزا عما سبقه وما جاء بعده ، فإذا أطلقت النقائض قصد بها نقائض جرير والفرزدق في هذا العصر ، وقد تضم اليها نقائض الأخطل .

ولم تكن النقائض بين جرير والفرزدق أول ما بدأ به الفرزدق هذا الفن ، فقد كان « مردى حروب من لدن شد أزره »^(٢) ، ناقض كثيرا من الشعراء تتابعوا عليه منذ شبابه وما زال يهرهم ويهرونه ، حتى وافته منيته . كانت أولى نقائضه مع الأشهب بن رميلة ، كان بينهما لجاج ومهاجاة

(١) تاريخ النقائض : ١٧٧ - ٣٠١

(٢) النقائض : ٧١٩

وتناقض • وكان ذلك في أول أمر الفرزدق ، فغلبه الفرزدق^(١) ، وقامت مناقضة بينه وبين اللعين المنقري من أجل ظمياء ، ومناقضة بينه وبين البلتع العنبري حين ضل بالفرزدق دليله عاصم العنبري فهجاه ، ويبدو في تاريخ مناقضي الفرزدق أسماء الهزهاز البكري ، وخليفة الأقطع ، وجرير بن خرقاء العجلي ، والبعيث ، وجوشن بن بشير ، والجعد بن درهم ، وطعمة بن قرظة الهجري^(٢) ، وكان أبو نهر الطرماح بن حكيم الطائي آخر الشعراء الذين ناقضوه ، وقد بلغ من الكبر عتيا^(٣) ، ولكن هذه النقائض لن تفرد بالدراسة وإنما تضم الى مبحث فن الهجاء ، إن ما يعيننا في كلمتنا هذه ، نقائض جرير والفرزدق التي رزقت الخلود بجودتها ، وتأثق الشعارين بها ، فشغلت أهل عصرها ومن وليهم من أجيال الرواة والادباء •

وكتاب النقائض بين جرير والفرزدق يحتوي على ثمان وثلاثين نقيضة للفرزدق ، وما يقابلها من نقائض جرير • وانفرد الكتاب برواية نقيضتين أخريين لجرير وهما النقيضتان : ١٠٤ ، ١٠٩^(٤) ، دون أن يورد نقض الفرزدق • وفي الحق أن رد الفرزدق على النقيضة ١٠٤ قد ضاع فيما ضاع من شعر الشاعر ولم يبق منه غير أربعة أبيات^(٥) ، أما المقطوعة ١٠٩ ، فليست من النقائض ، فجرير يحكم بين الفرزدق والباهلي ، ولا يوجب

(١) المؤلف والمختلف : ٣٨

(٢) النقائض : ١٣٢ ، ١٨٠ - ١٨١ ، ديوان الفرزدق : ٢٤٩ ت ٢ ، ٥٧١ ، ٦٠٨ ، ٧٠٧ - ٧٠٨ ، الشعر والشعراء : ٢٩٣ ، ٤٤٨ ، طبقات فحول الشعراء : ٢٥٩ ، ٣٠٢ - ٣٠٣ ، أنساب الاشراف ٧ : ٥٦٩ - ٥٧٠ ، الطبري ٥ : ٣٣٣ ، ٣٣٩ ، معجم الشعراء : ١١٧ ، ٤٥١ - ٤٥٢ ، ٤٧٥ ، المؤلف والمختلف : ٧١ - ٧٢ ، ٩٤ - ٩٥ ، ٢٤١

(٣) ديوان الفرزدق : ١٣٥ ، ٣٤٣ ، ديوان الطرماح : ١٢٩ ، ١٩١ ، مخطوطة أيا صوفيا : ١٥٧ ، الوحشيات ٢٢٣

(٤) النقائض : ٩٩١ ، ١٠٣٩

(٥) ديوان جرير : (طبعة ١ ، سنة ١٣١٣ هـ) ١ : ١١١ ، مخطوطة

المتحف : ٢٥٨

ذلك أن يرد الفرزدق مناقضا ، فديوانا الشاعرين يغصان بقصائد يتهاجيان فيها ولكنها ليست من النقائص ، لأنها لا تستوفي شرطي المناقضة ، ومن ذلك مقطوعة يحكم فيها الفرزدق بين جرير وعمر بن لجا ، ولا نجد لها نقضا^(١) ، ذلك بأن الحكم بوقوع التناقض رهن بأن توجد النقيضتان ، أو بأن ينص الرواة على المناقضة ، ان فقدت احدى النقيضتين ، والا اضطررنا أن نعد تهاجي جرير والفرزدق كله من النقائص ، لأن كلا منهما يرد فيه على خصمه ، وينال منه ويهدم دعواه .

وإذا تفحصنا نقائص جرير والفرزدق على هدي ما ارتآه الرواة من نوافر شرطي النقائص ، لم نر اخلافاً بهما إلا في النقيضتين : ٨٧ ، ٨٩ فأولاهما :

لئن أم غيلان استحل حرامها حمار الغضا من ثقل ما كان ريقا
من البحر الطويل . والثانية :

طرقت لميس ، وليتها لم تطرق حتى تفك جبال عان موثق

من البحر الكامل^(٢) ، ولعل سر هذا الاخلال أن جريرا حين زوج ابنته أم غيلان ، الأبلق الأسدي ، انقض عليه الشعراء يرمونه بأهاجيهم ، وينالون منه بأقذع سبابهم . وكان من أهاجيهم قصيدة على البحر الكامل :

أهلكت نفسك يا جرير وشنتها وجعلت بنتك بسلة للأبلق^(٣)

ولعلها كانت أكثرها تداولا ، وأشيعها ذكرا . فرمى جرير الفرزدق ونقض عليه بقصيدة اختار لها هذا البحر لتزوج وتشيع بين الناس فتمحو ذكر الاولى .

(١) ديوان الفرزدق : ٥٩

(٢) النقائص : ٨٤٠ ، ٨٤٣ ، خزانة الادب ١ : ٤٨٠ - ٤٨٢

(٣) أنساب الاشراف ١١ : ٢٧٢ ، ٦٠٩

ومن تتبع شعر جرير والفرزدق وقع على قصائد ومقطعات وأبيات
حازت شرطي النقائص ، ولم يحوها ديوان النقائص . وهي نوعان :
نوع نص القدماء أنفسهم في كتبهم على تناقض الشعارين فيه .
ونوع يخلص اليه بمطالعة شعر الشعارين .
ومن أمثلة النوع الأول :

تناقض الشعارين حين تزوج الفرزدق طيبة ، وتناقضهما المتصل بأم
غيلان ابنة جرير ، وما تناقضا به حين حفر جرير ركية في أرض لبني ضبة ، وتناقضهما
حين تزوج الفرزدق رهيمة ، وتناقضهما حين أخرج الفرزدق من المدينة^(١) .
ومن أمثلة النوع الثاني ، وأمثله كثيرة :

ما قاله الشاعران في مدح سفيان ، وبني حنيفة ، وما قالاه بشأن نسب بني
كلب ، وما قالاه وأعادا القول فيه من هجاء بني الديان ، وهجاء بني قنان^(٢) .
ولكن الشعارين لم يكتفيا بالنقائص ، يتهاديانها ، فكان لهما أهاج
وردود ، تناولا بها المعاني بالنقض والهدم . ولكننا لا نعداها من النقائص
بمعناها الفني ، لأنها لا تلتزم وحدة البحر والروي . وخير نموذج لها :
كلمتا الفرزدق وجرير في طيء ، وكلمتاهما في جارية الفرزدق^(٣) . هذا

(١) أنساب الاشراف ١١ : ٦٠٩ ، النقائص : ١٠٤٤ - ١٠٤٥ ، الاغاني
٢١ : ٤٠٧ - ٤٠٨ ، ديوان الفرزدق (هل) : رقم ٤٠٨ ، ٥٣٠ ، مخطوطة
ايا صوفيا : ١٣٠ ، ديوان جرير : ٤٣٦ - ٤٣٧
(٢) ديوان الفرزدق : ٣٢٢ ، ٨٦٧ ، ٨٨٤ ، (هل) رقم ٦٥٢ ، ديوان
جرير : ٢٣٦ ، ٥٦٦ ، ٥٦٩
(٣) ديوان الفرزدق : ٨٣٤ ، ديوان جرير : ٥١٥ ، شرح القصيدة
الدامغة : ظ ٢٤ ، النقائص : ١٠٤٢ - ١٠٤٣ ، أنساب الاشراف ١١ :
٧٢ - ٧٣ ، الاغاني ٢١ : ٣٤٢ - ٣٤٣ ، ولا بد من شدة الحذر في الحكم
على هذا اللون من الردود ، لئلا تقع في الخطأ ، وخير مثل على ما يفرض اليه
التعجل ، ما ذهب اليه الزهيري في كتابه : نقائص جرير والفرزدق : ٥٦ - ٥٧ ،
٢٦١ - ٢٦٢ ، ٤٣١ ، اذ أراد التكثر في النقائص ، فعد نقيضتين ، زعم أنهما
قيلتا يوم الموافقة في المربد ، ونظرة الى القصيدتين تدل على أن بينهما زهاء
ثلاثين عاما . انظر ديوان الفرزدق : ١٥٤

الى ما في الديوانين من أهاج عامة تناول كل بها خصمه ، مهتبلا فرصة ، أو منتهزا ثغرة ينفذ منها اليه .



بدأت النقائض بين جرير والفرزدق في حدود سنة ٦٦ هـ ، وبقيت بينهما زهاء ثمانية وأربعين عاما . لم يزالا يتهاجيان حتى أسكتهما الموت سنة ١١٤ هـ . كانا أعلم الناس بعيوب الناس ، وكانا يتباريان في أشعارهما ، فإذا قال هذا بيتا سائرا ، قال هذا مثله ، لم يغلب واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاج شاعران في الجاهلية والاسلام بمثل ما تهاجيا به .

وقد أثار هذه العاشية بين الشعاعين ، ما نال به جرير مجاشع قوم الفرزدق من سليط هجائه ، حين احتدم القول بينه وبين البعيث المجاشعي ووهن البعيث فلم يقو أن يقوم له ، واستطال جرير ، وعلا خصمه ، ونال قومه بني مجاشع بشر ما ينالون . فلما غم جرير نساء بني مجاشع فزعن الى الفرزدق يستصرخه أن يرد عنهن عادية هذا الشر ، ويستترن نخوته ، وحفيظته ، وكان الفرزدق قد حج ، بعد أن تزوج النوار ، وعاهد الله ألا يهجو أحدا ، وقيد نفسه ليجمع القرآن . فلم يقو الا أن يستجيب لندائهن ، « فهو الضامن الراعي على قومه ، يدافع عن أحسابهم » . ففض قيده ، وبدأ تلك الحرب الضروس . وكانت نقيضته الاولى :

الا استهزأت مني هنيذة ان رأت أسيرا يداني خطوه حلق الحجل

الشرارة التي استطارت لتستعر نيران الهجاء فلا يطفئها إلا الموت^(١) .

كان الفرزدق قد رمى عن منكبيه الخامسة والاربعين من عمره ،

(١) النقائض : ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٨١ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٣ ، طبقات ابن سلام : ٣٢٧ - ٣٢٩ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤١ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ ، نقائض جرير والفرزدق للزهيري : ٧٢ - ٧٤

ودلف الى الخمسين ، حين بدأ المناقضة . وكان قد قضى زهاء ثلاثين عاما يقارع الشعراء ، ويذل الخصوم ، قد دان له الشعر ، وأطاعته القوافي ، وتخوف بأسه الشعراء . وتنبىء النقائص الاولى أنه لم يندفع الى المعركة اندفاع المتوثب ، المتترع الى الشر . بل تقدم بخطأً وئيدة ، تقدم المتأني ، المتريث ، يريد أن يثبت قبل أن يثب ، فتحدث عن قيده الذي شده خوف عذاب النار ، يرجز أن يكفر عما أسرف به على نفسه من الضلالة التي تردى فيها ثلاثين عاما ، ما برقت له عماية الا شد لها رحله . ثم عطف فحذر وأندر انذار الواثق بنفسه ، مبينا مكاتته في قومه، يضمن عليهم ، ولا يضيع لهم حسبا ، ومدلا بقوته وتفوقه ، فهو السابق ، ليس بالبطيء ولا الوغل ، وقد أنزل بأعدائه ما أنزل من القوارع . ثم تهدد جريرا دون أن يذكر اسمه ، أو يفحش عليه ، وكأنه يرى أن يكفته بمثل هذا النذير يرسله ، وهو ما هو .

ولم يكن ذلك شأن جرير ، الذي كانت تراوده أحلام ابن الثلاثين ، فقد بدأ المعركة مزهوا بقوته ، متوثبا ، نشيطا ، تملؤه الفرحة أن يتصدى للفرزدق ، شاعر مضر ، آملا أن يصمد صمده ، فيخفض من غلوائه ، ويكفكف من غربه ، ويخلفه وراءه في ميدان المناقضة ، كما خلف من لقيه قبل من الشعراء ، فاحتفل لنقيضته : أطال النسيب ، وتعنى حبه ، وندد بالبعيث المستغيث ، ونال من أمه أشد نيل ، وهزىء بالفرزدق « القين المقيد في الحجل » وعيره قصة عاصم حين ضل به ، وتهدده ، ولعل من اعجاب جرير ، وزهوه بنفسه ، ما نراه من اعادته التصريح في قصيدته ، ادلالا بقوته ، وشدة تمكنه من فنه ، وتنبئها الى ما يأتي به من صواعق هجائه . ورأى الفرزدق - والطبيب أطب - أن يثب على البعيث وجرير ، فيدع البعيث ، ويأخذ جريرا ، وقد راعه أن يقدم جرير عليه هذا الاقدام ، لا يتهيب ، ولا يتردد ، بعد أن رأى ما نزل بالشعراء منه ، وفيه عظة ومزدجر .

وهل كان فيما قد مضى من شيبتي له رخصة عندي فيرجو ذكائياً^(١) وسقط البعيت ، ومضت المعركة بين فحلي مضر : جرير والفرزدق ، قوية ، عنيفة ، استثارت حماسة الناس والقبائل ، فاندفعوا يفاضلون بين الشعارين ، ويوازنون بين أقوالهما ، وانحاز كل الى جانب ، ينتصر له ، ويؤازره . وبلغت الحماسة أشدها يوم الموافقة في المربد ، حتى اضطرت الحارث المخزومي أن يطلبهما ، فيفر الفرزدق ، ويحبس جرير ، وتهدم دورهما في البصرة . وتبلغ أصداء المناقضات معسكر المهلب الواقف بازاء الخوارج ، فإذا الجند يتسامرون بأبائهما ، ويختصمون ، ويبلغ بهم الخلاف أن يندفع أبو حزابة الشاعر التميمي من معسكر المهلب ليسأل عبيدة بن هلال اليشكري من شعراء الخوارج عن أيّ الرجلين أشعر : أجرين أم الفرزدق^(٢) ؟

واستهوت المعركة الشعراء ، وزين لعدة منهم أن يشاركوا فيها ، فانغمسوا في المعركة ، إما موازين بين الشعارين ، أو منحاكين الى تفضيل واحد منهما ، أو هاجين الاثنين معا . تدفعهم الى ذلك الشهرة ، وحب الصيت ، أو حوافز العصبية والشرف ، أو مقاييس الفن وقيمه ، الى ضروب من الاغراء شتى ، تدفع الشاعر أن يخوض في اللجة ، ويغالب التيار ، فاتسعت آفاق المناقضة ، وجرى في ميدانها أمثال الصلتان العبدى الذي فضل جريرا في الشعر ، والفرزدق في الشرف ، واللعين المنقري الذي هجا الفرزدق وجريرا معا ، وثلت بالبعيت ، ونال منهم جميعا ، وكان هجاء . وسراقة البارقي والراعي النميري ، والأخطل ، وعمر بن لجأ ، الذين فضلوا الفرزدق لكرمه ، وشعره ، ورفعوه على جرير^(٣) .

(١) النقائض : ١٢٧ ، ١٥٨ ، ١٦٧

(٢) طبقات ابن سلام : ٣٢٢ ، الاغاني ٦ : ١٤٩ ، ٨ : ٧ ، ٤٢-٤٣

(٣) طبقات ابن سلام : ٣٤٢ - ٣٤٥ ، ٣٦٢ - ٣٨٠ ، ٣٨٦ - ٣٩١

الشعر والشعراء : ٣١٤ ، الوحشيات : ٦٣ ، معاهد التنصيص : ٧٤٥٠ ، أنساب الاشراف ١١ : ٢٣٨ ، ٢٥٦ - ٢٥٨ ، معجم الشعراء : ٤٩ ، الاغاني

١٧ : ٢٠ ، ٦٨ - ٧٢

ولكن الشعراء المتعرضين بين جرير والفرزدق لم يثبتوا في أرض
 المعركة ، ومنهم من لم يلتفت إليه ، احتقارا لشأنه ، واستصغارا ، فهووا كما
 هوى البعيث ، ولم يبق منهم غير الأخطل . وكانت فرحة الفرزدق
 بالأخطل بالغة ، لقد انضم إليه شاعر فحل ، يقوى أن يقف أمام جرير ،
 يقول :

فإن يك أقوام أضاعوا فإنني وصلت الذي بيني وبين الفرزدق

وكان من آثار تلك الفرحة الغامرة التي تملك قلب الفرزدق أن جعل تقيضته
 النونية: ٩٤، اشادة بتغلب، خالصة لها ، فذكر أيامها ، وعدد وقائعها ، وفخر
 ببطولها الهذيل ، وتهكم بجرير وقومه . ونسى في غمرة فرحه أن يفخر بقومه
 من دارم، وهو المفاخر بهم في مجالس الملوك والخلفاء، والمغالي في مدائحهم،
 لا ينقطع عن حمدهم لسانه . ولن نجد في غير فرحته بالأخطل تفسيراً لهذه الظاهرة
 الغريبة ، تلقاك وأنت تقرأ نونيته ، فإذا هي ثناء على تغلب خالص ، لا يشوبه
 مدح لغيرهم . ولم تفت جريراً هذه الظاهرة فغمز من الفرزدق في تقيضته
 الحائية :

فخرت بقيس وافتخرت بتغلب فسوف ترى: أي الفريقين أربح

فأما النصارى العابدون صليبيهم فخابوا ، وأما المسلمون فأفلحوا

والحق أن حب الفرزدق للأخطل قد تملك عليه نفسه ، وكان صادقا فيه
 كل الصدق . دعاه خليله وأخاه في حديثه وشعره ، وأثنى عليه ، وجعله
 في قصيدته الفيصل من شركائه في وراثته شعر الفحول . ولجَّ الهجاء وتكاوح
 الشريين الثلاثة ، وظلوا يتصاولون ، حتى اختلطت الأخطل منيته (سنة
 ٩٢ هـ) ، فكان من آخر كلماته :

أوصي الفرزدق عند الممات بأم جرير وأعيارها

فلما بلغ الفرزدق خبره جزع لفقده ، وجعل يحن عليه ويقول : سأخذ
بوصية أخي ، ثم تشمر للدفاع عن تغلب :

أمسى لتغلب من تميم شاعر يرمي القبائل بالقصيد الأثقل

وخلأ الميدان ليجري فيه الشاعران أشواطا كثيرة ، يتعاوران ملاءة الحضرة ،
فما أوقفهما إلا الموت^(١) .

وقد استطاعت هذه الأحوال التي لا بست حياة النقائص أن تترك فيها
آثارها وسماتها ، فلم تسلك النقائص طريقا واحدا ، واختلقت أنماطها
اختلاف ما ألم بها وخالطها : بدأت النقائص بين الشعارين خالصة لهذا
الفن وحده ، يتهاجى فيها الشعاران ويتفاخران وينال كل من خصمه ،
وينقض عليه قوله ، فهي ضيقة الساحة ، تناولت الفرزدق وقومه من مجاشع ،
وجريرا وقومه من كليب بن يربوع ، فهما أبدا يتبادلان السباب ، ويتنازعان
الشرف والكرم . ثم اتسعت آفاق المناقضة ، وامتدت الى بطون وقبائل
آخر انحازت في المعركة الى أحد الشعارين لقرايةٍ أو لانتصار شاعرها له ،
فغدت أشمل وأمد ميدانا وأفسح ساحة ، وألم بحياة الشعارين على توالي
الأيام ما ألم من مواقف ترتبط بالحياة السياسية والاجتماعية عامة ،
وبحياة القبيلة خاصة ، وكانت لهما صلات بالامراء والقواد والخلفاء
والشعراء شتى متباينة ، فانعكس بعض ذلك على النقائص فغيّر من
ملامحها بعض التغيير ، وخلط بها أغراضا أخرى ، فمن ذلك أن الأخطل
انتصر للفرزدق وفضله في مجلس بشر بن مروان ، فهجا جرير بنى تغلب ، وعيّرهم
هزائهم ، وسخر من الأخطل وأشاد بقيس وفوارسها ، فانبرى الفرزدق
يتغنى بسجد تغلب وأيامها ويدافع عنها ويهجو جريرا وقومه . وكذلك كان

(١) النقائص : ١٨٠ - ١٨١ ، ٤٩٤ - ٤٩٨ ، ٨٧٩ ، طبقات فحول
الشعراء : ٤٢١ - ٤٢٢ ، ديوان الفرزدق : ٧٠٨ ، ٨٨٧ ، ديوان جرير : ١١١

شأن الراعي النميري أغضب جريرا حين فضل عليه الفرزدق ، فهجاه جرير وهجا بني نمير بنقيضته الدامغة المشهورة ، فتصدى الفرزدق يرد على جرير ويرفع من شأن بني نمير . وفي إحدى النقائض نجد جريرا يذيلها بمديح أميره الحجاج . ولما حدثت فتنة قتيبة وقتل قام الفرزدق ليهجو العاصي الثائر ، ولينحي على قيس ، ويشهر بقبائلها ، فاستهل بنقيضته بمديح الخليفة سليمان وهجاء الحجاج . وهجا الفرزدق بني جعفر وهجا عامرا وقيسا بالنقيضتين : ٥٩ ، ٩٦ ، ولم يعرض فيهما لجرير الا بيتين ، فتصدى جرير يرد عليه ويشيد بأيام قيس ، واختصم الفرزدق والأصم الباهلي فهجا الفرزدق باهلة وشاعرها ، وعجز الباهلي عن الرد ، فنقض جرير على الفرزدق . وهجا الفرزدق مخرقا الذهلي (النقيضة ٩٠) ، وهجا بني نهشل وفخر عليهم (النقيضة ٩٨) ، فقام جرير بالرد على نقيضته . ولما ماتت أم حزرة زوج جرير ورثاها بمرثيته الشهيرة (النقيضة ٩٢) ، نقضها عليه الفرزدق ، وعاد جرير الى مرثيته يضيف اليها ما ينقض به على الفرزدق قوله . وسجن الفرزدق فمدح خالد القسري واستعطفه فنقض عليه جرير ، وكذلك حين أقبل الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك ، سخر منه جرير ونقض عليه مدحته ، واضطر الفرزدق أن يضيف اليها أبياتا يرد بها على جرير^(١) . ولعل في هذا العرض ما يؤكد أن النقائض لم تعد خالصة للشاعرين مقصورة على النسط الذي بدأت به حين نشبت المعركة : التهاجي والمرادة بينهما ، بل اتسع افقها واختلفت أنماطها ، ولعل جامع ديوان الفرزدق القديم لحظ بعض هذا حين أثبت في الديوان النقائض : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، وشذ عما كان قد أخذ به نفسه من فصل النقائض عن الديوان ،

(١) النقائض : ٣٤٢ ، ٤٣٢ ، ٤٥١ ، ٤٨٦ ، ٥١٢ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٦٦ ، ٨٧٩ ، ٩٠٩ ، ٩٤٢ ، ٩٨١ ، ١٠٠٥ ، ديوان الفرزدق (هل) : رقم ٣٩١ ، ص ٣٩

ذلك بأنه رأى فيها من المغايرة لموضوع النقائض القديم ما جعله يرجح اثباتها في الديوان (١) .

مثلت النقائض جانبا من حياة القبائل الاجتماعية والسياسية في العصر الأموي يقوم على المفاخرة والتهاجي ، فأحيت بذلك ما كمن وتوارى من نزعات الجاهلية ، واندفعت في تشفيها وتباهيها ، غالية مفرطة ، فقد راح الشعراء ينتبعان في أهاجيهما المثالب وينشران العيوب والمخازي ، دون تحرج ولا تأثم ، وراحا يشيدان في مفاخرهما بالماثر والمكارم ويسبغان حلال المجد مستعنين على ذلك بعلم محيط ومعرفة واسعة . فعدت النقائض التي طالت ثمانية وأربعين عاما خير معرض لأيام العرب وأخبارها ومفاخرها ومعانيها ، مما يتصل بمعركة الهجاء المستعرة بين الشعارين .

ولكن النقائض ، الى ذلك ، تخالف موروث الجاهلية . كان الشعراء في جاهليتهم يعبرون عن وقائع قائمة ، ومعارك تراق فيها الدماء، ويتنازعون نزاعا هم فيه السنة قبائلهم ، يتحدثون عن نوازعها في الانتقام ، والتشفي والثأر ، أو في التعالي والتحدي والبأو . أما نقائض جرير والفرزدق فكانت مفاخرة ومهاجاة لا تبلغ أن تشير الأحقاد وتؤجج الأضغان ، لأنها لم تكن تلبية لحروب ووقائع بل هي مهاداة ومغالبة تروم أن تنتزع الاعجاب وتظفر بالتفوق وتسكت الخصم وتبكتته ، وقد تخطىء سبيلها حينما فتمضي في الاثارة والتهميج ، ولكنها أبدا ، تؤثر الانتصار الفني . وكأنها كانت البديل لما كان يقوم في الجاهلية من أيام ومنازعات وخصومة (٢) . ولعل في هذا ما يفسر لنا حماسة الناس لها ، وتتبعهم الشعارين سنين طوالا . ولعل في هذا ما يكشف سر المبالغات التي أخذ الشعراء أنفسهما بها . فقد اشتط في

(١) ديوان الفرزدق : ٣٤ ، ١٥٦ ، ٨٣٥

(٢) التطور والتجديد في الشعر الاموي : ١٧٧ - ١٨٠ ، ٢٠٠ - ٢٠٢

المبالغة ، وجاوزا المعقول والممكن ، بل كانا يفتريان ويكذبان ، لتكتب لهما الغلبة ، ويظفرا بالتأييد • وكانا يحوران في الواقعة الواحدة ليجعل كل منها مادة لفخره أو لهجائه • ولم لا يفعلان ؟ وهما يستبقان ، وكل يريد أن يتلقى بيمينه راية النصر ، يحف به أعوانه وأنصاره ، وكانا يعرفان ما يقترfan من كذب وبهتان في سبيل الغلبة ، وبلوغ الغاية • يقول الفرزدق في احدى نقائضه :

الا تدعي ان كان قومك لم تجد كريما لهم الا لثيما أوائله
 الا تفترى اذ لم تجد لك مفخرا الا ربما يجري مع الحق باطله
 فتحمد ما فيهم ولو كنت كاذبا فيسمعه يا ابن المراغة جاهله (١)

وهذا التفسير الذي يجعل غاية النقائض المغالبة الفنية والانتصار في القول يوضح مواقف عدة ما كنا لنفهمها لو كانت النقائض تمثل خصومات عنيفة، ونزاعا قائما تشهر فيه السيوف ، وتهراق الدماء • فقد وقف جرير الى جانب قبائل قيس ينصرها ويذود عنها ، ويتغنى بماآثرها وأيامها لا يفرق بينها وبين قومه في موقف المنازعة والمفاخرة ، وهو يخاطب قومه مباهايا بما صنع :

عظفتُ عليكم ود قيس فلم يكن لهم بدلا أقيان ليلي وكيرها (٢)
 وما كان جرير ليقف هذا الموقف لو كانت المنازعات جاهلية الطابع ، عنيفة الخصومة ، وكان جرير قد انحاز الى الحجاج وقتيبة حين زينا للوليد أن يخلع سليمان ، ويستخلف ابنه عبد العزيز ، فلما قام سليمان بن عبد الملك وحظي الفرزدق حظوته عنده ، لم يشر الى ذلك على حين سعى غيره بجرير ، ونبهوا سليمان على قوله للوليد (٣) ، ويسأل هشام بن عبد الملك جريرا - والفرزدق محبوس - : أما يسرك أن يخزي الفرزدق ؟ قال جرير : لا والله يا أمير المؤمنين ، الا أن يخزي بلساني • قال : فأين ما تقول له

(١) النقائض : ٦٢٨

(٢) النقائض : ٥٤٥

(٣) معجم الشعراء : ٣٣٨

ويقول لك ؟ • قال : ما أقول ولا يقول إلا الباطل (١) • ومن بعد قال دعبل ابن عليّ الخزاعي : رأيت النبي (ص) في النوم فقال لي : ما لك وللكميت ابن زيد ؟ فقلت : يا رسول الله ، ما بيني وبينه الا كما بين الشعراء (٢) •

ولا بد لنا قبل أن نتبين خصائص النقائض الفنية من أن نعنى ببيان المعاني الأساسية التي دارت عليها النقائض ، وتحاور بها الشاعران هذا الأمد الطويل •

كان جرير ، في نقائضه ، يفخر بنفسه ويدل بمكاته في قومه ، إنه الذائد عن أحساب تميم ، قد ألف العراك ، فما زال مجنيا عليه وجانيا • اذا جرى كان الفرس السابق ، غمر البديهة ، واذا رمى لا تبل رميته ، ولا يخطيء نبله المقاتل • قوي على البعيت مفردا ، وعليه وعلى الفرزدق معا ، وفات الفرزدق بحضاره ، فهو ضبور الوعث ، قد حل في متمنع ، فمن رام أن يعتدي عليه رأى دون ذلك حياض الموت ، سرباله مفاضة من الحديد ، واذا كره الرجال حلاوته فهو الذعاف مقشبا بسمام •

وكان يفخر بشعره الذي غني به في البر على المطي ، وفي البحر في السفن العظام ، فإذا حدا قصيدة بلغت عمان ، وطبىء الأجيال ، في ليلتين • فلا طاقة للفرزدق بأوابده « سبقن كسبق السيف ما قال عاذله » •

ولم يطل جرير الفخر بأسرته الأدينين ، فخر بجده الخطفَى ، ولكنه لم يبدىء في هذا الفخر ويعد ، فقد كان له من وضاعة أبيه عطية ما يمعنه أن يجلي في هذا المضمار ، ولم يطل جرير الفخر برهطه الأدينين من بني كليب بن يربوع ، وأنتى له أن يفخر بمن لا مفاخر له ؟ بل مضى يفخر يربوع وبطونها ويذكر مآثرها ومحامدها ، فهم نعم حماة الحي ، يحمون أرضهم ،

(١) النقائض : ٩٨٤ - ٩٨٥ ، العقد الفريد ٥ : ٣٢٥

(٢) الاغانى ١٦ : ٣٤٨ (بيروت) .

ونعم الجيران لمن خاف ، ينهلون القنا ويمنعون الثغر المخوف ، اذا سوموا لهم يمتنع عليهم أحد ، يستلبون الملوك ويدفعون العضلات ، كانوا أرداف الملوك • وقد أطال جرير الفخر يربوع الذين يبصر بضوئهم ، ويزيد سمعه ذكرهم ، وأشاد بأيامهم : بيوم ذي نجب ، ويوم الغبيط ، ويوم ذي قار ، ويوم طخفة ، ويوم ذات الجرف ، ويوم جذع ظلال • وقد يفخر بتميم كلها : عمرو وحظلة وسعد ، وحين وقف نفسه للدفاع عن قبائل قيس أخذ يفاخر بها ، ويعدد أيامها ويذكر مناقبها ، ويعد نفسه شاعر خندف وقيس ، وابن مجدهما « أنا ابن فروع المجد قيس وخندف » •

وهجا جرير الفرزدق أنه قين ابن قين ، ينفخ بكيره ، وتعرف مس الكلبتين أنامله ، يرده عن المجد عرق من قفيرة مقرف • له سبال قرد ، وعليه جلاجل كرج • جبان يحسن عقر ناقة ، ولكنه لا يحسن ضرب الأبطال في ساحة الوغى • وأطال في وصف فجوره : بيته ماخور ، يرقى الى جاراته بالسلام ، لا يتعفف عن الفاحشة ، ويشرب الخمر عند كل مقصص • وعيره قصة جعثن أخته يوم السيدان ، وزعم أن منقر قد نالت منها ، وقرعه بيوم الرحى • وذكره أعين الذي لم يثأر به ، والزيير الذي غدر به :

لاقيت أعين والزيير وجعثننا أعدل مخزية عليك ثقال

وينتهز عوارض عرضت للفرزدق فيستمد منها مادة لهجائه • انها المناسبات السارة لا يفلتها ، فلما قيد الفرزدق نفسه ليحفظ القرآن هزأ به جرير ، وجعله القين المقيد في الحجل • ولما ضل بالفرزدق دليله عاصم قبل نشوب المناقضة ، وقال الفرزدق في ضلاله قصيدته المشهورة ، لم ينس جرير أن يهتبلها ليذكر الفرزدق أنه ضل ضلال السامري ، وانه لعطشه بلع نسيء العنبري ، وكان في فرار الفرزدق من زياد واستجارته بيكر بن وائل ما أتاح لجرير أن يفخر على الفرزدق « لنا إبل لم تستجر غير قومها » •

ولما نبا الحسام بكف الفرزدق أمام سليمان بن عبد الملك طاب لجريير أن يهزأ به ويسخر منه ، ثم شهّر به حين تفاه عمر بن عبد العزيز عن المدينة ، واغتنم قصة زواجه بحدراء ليتخذ منها مادة ينسج بها سبابه •

ولا ينسى جريير أن ينقض على الفرزدق معانيه ، ونقض المعاني يشغل مكانا رحبا في النقائص ، ويفتح للشاعر مغالق القول ، ويتيح له مادة جديدة • وقد أفاد منه جريير أيّ فائدة ، ولعل النقيضة : ٤٠ ، مثل حي لما يتيح نقض المعاني من مادة خصبة في بناء النقيضة • إن كثيرا من معاني هذه النقيضة قد استمدّه جريير من ردّه معاني خصمه وكفئها •

وكان جريير يوازن بينه وبين الفرزدق ، فهو البدر يُعشي عيني خصمه ، وهو الفارس الشاكي السلاح ، والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرّج وجلالجه ، وهو البعل والفرزدق وقومه حلائله ، ولئن كان الفرزدق حية ، إنه قاتل الحيات •

وهجا جريير مجاشع قوم الفرزدق ، فهم قيون ، ليس فيهم كريم سابق ، جناء لجأ الزبير الى جوارهم فلم يحموه وقتل فلم يكن لهم نكير إلا الرغاء ، قد نادى قريش بغدرهم يوم منى ، أذلاء لم يمنعوا عقرفاتهم جعثن (وهذه هي الأشياء الثلاثة التي زعم أبو الخطاب الأخفش أن جرييرا لم يهج الفرزدق الا بها - الموشح : ١٢٢) وكأنهم لذلهم فقع ، خفت حلومهم ، اذا حلوا زرود بنوا عليها بيوت الذل • جمعوا الجبن والفياش ، ولا فخر لهم الا أن يسوقوا ناقثهم المسنّة (يهزأ بيوم صوآر) ، يتبين اللؤم في وجوههم ، همهم في الحياة أكل الخزير • وهجا المواجن من بنات مجاشع ، مأوى اللصوص وملعب العهار ، فأقذع في هجائهن ، وذكر من سواتهن ما لا يذكر •

وعير جريير مجاشع هزائمها في الجاهلية ، ولما اتسع أفق المناقضة وهجا الفرزدق قيسا ، وقد التفت دارم حوله ، وانتدب جريير يدافع عنها ،

أخذ يعير دارم بن مالك هزائمها وأيامها ، فذكرهم يوم أواره ، ويوم شعب
جبله ، ويوم أقرن ، ويوم زباله، ويوم رحرحان، ويوم أبال، ويوم الوقيط،
وهزىء من مجاشع التي لم تشهد أيام النصر والظفر في تميم : يوم الإياد،
ويوم ذي نجب •

وقد يوازن جرير بين قومه وبين مجاشع ، وكيف يستوي عقر الكزوم
بصوآر ، وعقر ذي التاج تحت الراية • ولا تستوي يربوع تشطّي خيلها
قلال الحزن ، وبنو جوخي (وهم مجاشع ، نبزهم احتقارا) نقش الخزير •

وهجا جرير ضبة أخوال الفرزدق ، فجعل بيتهم كبيت الضب ، ليس
له سوار ، وهم تبع وحشوة ، وغيرهم الصميم ، ضلوا ضلال شيعة أعور
الدجال ، رجالهم ونسأؤهم سواء •

أما الفرزدق ، وهو في ذؤابة قومه من مجاشع ، فكان يفخر بنفسه
فيتعالى في الفخر ، فهو الضامن الراعي على قومه ، يدافع عن أحسابهم ،
وهو السابق الى غاية المجد ، خلت له معد العنان، وهو الهزبر أبو الأشبال،
ضينغم ، ورد ، أصيد ، هدار ، يدق مجامع الأوصال • وهو غيث أنجد
واستطار ، فيه رعد وصواعق ، جاء يقلع الصخر ، فأجر بني كليب • انه
ابن حنظلة الاغر ، وهو في آل ضبة المعم المخول ، يمشي برايته سفيان
أو عدس ، أو جندل ، أترعت له دارم الجوابي ، وبنت له عند المجرة ،
وحملته مجاشع أمورا كبارا لن يضيعها •

وكان الفرزدق يفخر بشعره ، ما حملت أمٌ أعق من الجاني عليها
هجاءه • إذا هجا قبيلة جدعها بعوارم الأمثال ، قد فقأ بقصيدته الفيصل
أبصار كليب ، ودمغ أبا جرير • إن شتمه سلع وقار على أكباد كليب ،
عركهم عركا ، وتركهم فقعا بقرقر • وان قصائده المنسوقة غرّ مشهرات
طوالع ، بلغن الشرق والغرب ، تعزى اليه بكل ثنية وبكل ثغر ، لا يطيق

لها جرير جوابا ، ولن يدركها بتنحل الأشعار ، ولا عجب فالفرزدق وريث الشعراء الفحول ، وهبوا له القصائد ودفعوا اليه كتابهن وصية • ويفخر الفرزدق بأسرته وآبائه الأدينين ، فيطيل الفخر بهم ، لا يمل ولا يسأم :

كم من أب لي يا جرير كأنه قمر المجرة ، أو سراج نهار
ورث المكارم كابرا عن كابر ضخم الدسيعة يوم كل فخار
يذكر الأقارع أعمامه ، وأباه غالبا الذي غلب الملوك ، وجده صعصعة الذي
غمر البحار ، وناجية الذي كانت تميم تعيش بحزمه ، والحقات ، وأمثالهم :
من كل أبيض في ذؤابة دارم ملك الى نضد الملوك همام
سبقوا بماثرهم ومكارمهم وكانوا المتوجين ، ثم يشيد بمآتهم : ينيخ الى
قبر أبيه كل غارم ، عجز الأحياء أن يحملوا عنه الدية • وجده صعصعة أحياء
الوئيد ، وناجية رئيس يوم النصار ، وسفيان ورد الكلاب ، وأصلح بين
المنذر بن ماء السماء ، والحارث الكندي •

ثم يفخر بقومه ، يفخر بمجاشع ودارم ، فهم شحاح على أحسابهم
الغالية ، وهم ملوك غسولهم فأرة الداري ، ودمأؤهم تشفي الكلبى المراض ،
لم يلبس تاج محرّق إلا هم ومقاول اليمن ، بنى لهم المليك بيتا دعائمه أعز
وأطول ، وما بنى حكم السماء فإنه لا ينقل ، حلومهم كالجبال ، وعزهم
لا يغالب ، يحتبون ، فلا تحل جباهم ، فوارس في الهيجا ، يمنعون النساء
يوم الغارة والخوف ، ويحمونهن بضرب تخر له السواعد ، ثقال على العدو ،
قد قتلوا الملوك المعصين بالتيجان ، يشدخون الحية الصماء ، وينزلون ثغر
كل مخوفة ، « بالمقربات كأنهن سعال » • حلل الملوك لباسهم في السلم ،
والسابعات لباسهم في الحرب ، مجدهم كتهلان لا يتحلحل ، نادموا الملوك ،
وفكوا العناة ، ولهم معاقل كل أعيط باذخ ، وكل مباءة محلال ، قدورهم
ضوامن للأرزاق في الجذب ، يعجلون للضيفان قدور اللحم ، تفرغ في
جفان الشيزى ، لا ينطق قائلهم إلا بالتي هي أعرف ، والفرزدق مولع بتعداد

بطون قومه ، والبذخ بذكر الأسماء اعتلاء على جرير وقومه من بني يربوع ،
فبيت دارم يحتبي بفناه زرارة ومجاشع ونهشل وبنو فقيم ، مجرد لا يعدل
عدده ، والرباع كأنهم الجراد أو السيل لا يدفع ، والبراجم يتخاطرون
بالقروم ، وبنو العدوية جرثومة صعب مناكبها نياف عيطل ، ولم ينس أن
يفخر بأيام قومه ، وهي قليلة ، فخر بيوم ذي بيض ، وبيوم الكلاب •

فإذا بلغ غاية ما أراد من البذخ بقومه وذكر آبائه ، عطف على أخواله
بني ضبة ، يعدد ما أتتهم وصنائعهم ، فيشيد بزيد الفوارس ، وابن زيد ،
وأبي قبيصة ، والرئيس الأول ، ويتعالى بخاله حبيش الذي غصب الملوك
نفسهم ، وشرط على ملوك غسان أن يأتيه جباؤهم « واليه كان جباء جفنة
ينقل » منهم كانت الرؤساء ، وفضلهم ما خاضوه من وقائع ، يقدمون
الخيال ، ويضربون بالسيوف ، ويقتلون الملوك ، ويحمون الذمار ، ويته بضبة ، فيذكر
مزهوا بطونها ، معددا : يفخر ببني السيد ، وبني ضرار ، وعائذة ، وبني ثعلبة بن
سعد أصحاب الشقيقة ، ويتعالى بذكر أيام ضبة ووقائعها ، فيفخر بيوم
الشقيقة ، (يوم نقا الحسن) ، ويوم بزاحة ، ويوم أعيار ، ويوم
النسار ، ويشيد بشجاعتهم يوم الجمل • فكيف لا يبلغ السماء مجدا ؟
ومن ذا يطاوله ؟ وحظلة أبوه وضبة أخواله : « فرعان قد بلغ السماء ذراهما » •
وفخر الفرزدق بتسميم كلها ، وهو يناقض جريرا ، كأنه يعد نفسه
الأحق بها ، فتسميم أكرم قوم إذا سبي النساء ، يضربون إذا أحجمت
الكتيبة ، وينازلون الخصوم ، ويضمنون على المنية جارهم ، ويطعمون
أيام الجذب •

وهجا الفرزدق جريرا انه ابن المراغة ، وانه الكلب ، ورماه باتيان
الأمتن ، يشهد على ذلك كسر ثنيته حين رمحته ، ويذكره بقصة أبي سواج
ويطيل فيها تشفيا وتشنيعا ، وينبزه براعي الضأن ، ضل وهو يطلب
طريق المجد ، ضلال ملتمس طريق وبار ، لا يهتدي ابدا ، فكأنه السامري ،
وهو لثيم شغل عن المكارم ، جبان ، اتابته الحيرة حتى هم بقتل نفسه خوفا من

الفرزدق ، قد جر على قومه المخزيات ، فكان كبكر ثمود في الشؤم ،
دمرهم دمارا ، وحين أسن جرير تحول حمارا وبقيت لحيته •

ثم وازن الفرزدق بينه وبين جرير ، فكان جرير حين هاجى الفرزدق
ككلب عوى فأثار اغلب ضيغيا ، ويسخر منه متهكما :

دعدع° بأعنقك التوائم ، إني في باذخ يا ابن المراغة عبال
وعير الفرزدق جريرا اياه عطية الذي يتقمل خلف اتانه ، يهز الهرائع ويتقلد
الارباق بين حظائر الاغنام ، لم تمس° كفاه عنان لجام ، وشنع على أمه ،
كأنها طريق معمل ، تفجر بأسفل سوق حجر ، لتشتري لجرير ازاره ، وهي
تبكي على ابنها بعد أن أودى به الهزبر • وعماته وخالاته يرعين على
الفرزدق ، يراوحن العلب على عواتقهن • وكأن بيت جرير في الوهن
والذلة بيت العنكبوت « ضربت عليك العنكبوت بنسجها » •

وهجا الفرزدق قوم جرير من كليب بن يربوع ، فهم يتقلدون
الارباق ، ويردون في العشي حين يخلو المنهل لضعفهم ، يمنعم الذل أن
يحتبوا ، هم شر القبائل والديار ، أهل المضايق ، كلاب تحت أخبية صغار
ذوو الحمرات والعمد القصار ، بلغوا الغاية في اللؤم ، لو لبسوا النهار
لدنسوا وضح النهار ، ولو رميت بلؤمهم نجوم الليل ما وضحت لसार ،
يرويههم ، لقلتهم ، الشمد ، يتراهنون على الحمير ، وكأنما مسحوا بوجه
حمارهم الحقير جبين ذي العقال أكرم الخيل • جبناء قد تقاعسوا يوم
جدود ، فلبسهم الذل ، فهم لجنهم وذلتهم ، لا يغدرون ولا يفون لجار •
ثم يعطف فيشنع على نسوتهم اللاتي لا تستر مخازيهن ، فيقدع في تشنيعه
ويدل على حقارتهن بأن مهورهن الحملان ، فهن أحقر من أن يمهرن الايل •

ووازن الفرزدق بين آباءه وآباء جرير ، وقومه من دارم وقوم جرير
من كليب ، وأين عطية مدعدعا بأعنقه من عقال ، وأين يجد جرير من
يسامي بهم دارما وطهية ؟ أبنو كليب مثل آل مجاشع ؟ وكيف تقاس

المساعي القصار بمساع طابت وكرمت ؟ وإن مثل جرير حين يفاخره
لكالمجري مع الفرس الحمار ، ومن يوازن بالخضارمة الوبار •

وفتح للفرزدق دخول قيس المعركة بابا جديدا مدّ من آفاق
مناقضته ، حين هجا بني جعفر ، وعامرا ، وباهلة ، وهوازن ، وقد مثلت
هذا الاتجاه أقوى تمثيل نقيضته الميمية في قتل قتيبة ومدح سليمان
(النقيضة ٥١) فإذا الفرزدق ابن تميم ، ووافدها المعروف عند المواسم ،
والمحامي وراءها ، يفخر ببطونها جميعا ، ويفخر بضبة التي وقفت معها ،
ويندد بهزائم قيس ، فتميم تقهر العصاة ، وأبوهم تميم ، منذ ولادته ،
عادي ، من شبول الضراغم ، تأرّر بين القابلات ، وكان توأمه الدهاء
والحزم ، وضبة الهامة التي تدمغ بها مضر الخصوم ، ومتى اجتمعت تميم
وضبة فالناس بعدهم حشوة ، واطال الفخر بأيام تميم وضبة وما أنزلته
وقائعهم بقيس من هزائم ، أرت نساءهم ، نهارا ، صغيرات النجوم
العوائم ، ففخر بيوم المروت ، ويوم ذي نجب ، ويوم ملزق ، ويوم غول ،
ويوم دارة مأسل ، ويوم النसार ، ويوم الودتات ، ويوم الدثينة ، وهجا
قبائل قيس وذكر مثالبها ، ولم يكتف أن يفاخر بتميم وضبة ، بل فاخر
بخندف كلها ، وكذلك كان دأبه في مهاجته قبائل قيس ، كقوله في مهاجته
بني جعفر « وأصبحت الاسماء منا كبيرها » ، مفاخرا بالرسول لأنه من
خندف ، ولا ينسى ان يؤثر دارما بأعلى المفاخر فهم ملوك ، أحق الناس
بالمستأثرات الجسائم ، يميلون بأنضاد الجبال الأضاحم ، لاكفء لهم الا
عبد شمس وهاشم • ونعى على جرير أنه ينبج دون قيس ، وليس منها ،
ويهجو تميما لينال من قيس زيوف الدراهم ودرسان الثياب ، فكأنه المريق
ماءه بالفلاة اغترارا بسراب لاح له •

فكأنّ المعاني التي قامت بها النقائص تتناول الأحساب ، والأنساب ،
والعصية ، والأيام ، والمآثر : (الكرم ، والشجاعة ، وحماية الجار ، والعزة)
والمثالب ، مفاخرة ومهاجاة •

(٢)

الخصائص الفنية :

وأول ما يلوح لدارس النقائض أن بناءها الفني يخالف بعض المخالفة بناء القصائد الاخرى . فالمناقضة تقتضي من صاحبها أن يكون متحفزا لخصمه ، متأهبا لابطال أقواله ، وهدم حججه ، فهو أبدا معني به ، متغلت اليه ، يتناول معانيه ليكفأها ، وتختلف الصور التي تتم بها هذه المناقضة والمعارضة ، على ما حدث به الرواة وأصحاب الاخبار ، وما تهدي اليه الدراسة الفنية المتأنية .

فهناك صورة المناقضة الشائعة ينظم الشاعر قصيدته ويرسلها في الناس فيتناشدونها في أنديتهم ، ومواطن اجتماعهم ، ويقام بها في المربد الذي قام في الاسلام مقام عكاظ في الجاهلية . تنعقد فيه الحلقات ، وتسمع فيه الاشعار ، فيتصدى له خصمه لينقض معانيه ، ويرد عليه وقد واتته فرصة التأمل ، وتبين الثغرات التي ينفذ منها الى خصمه . يقول الفرزدق لراويته : أنشدني وأوجع ، فإني أريد أن أنقض عليه . ويعود الاول ليرد بقصيدة جديدة ، وتتابع النقائض . وأبرز مثل على هذا اللون من النقائض يقف الشاعر فيه عند كل بيت ويكفأ كل معنى فيفسد على خصمه مدعاه ، النقيضتان : ٣٩ ، ٤٠ (١) .

هذه الصورة من صور النقائض (وهي الصورة الغالبة الشائعة) ، تكلف الناقد أن يلم بهذه السلسلة المتبادلة من القصائد ، يستعين بها في نقد النقيضة ، وفهم مرامي الشاعر فيها ، وهي التي أملت على دارسي

(١) النقائض : ١٨٢ - ٢٣١ ، ١٠٤٧ ، طبقات ابن سلام : ٣١٧

النقائض أن يحاولوا ترتيب النقائض ترتيباً تاريخياً ليكونوا أعرف بالملابسات التي قيلت فيها ، وأقوى على فهم معانيها وإشاراتها ، مما يهيئهم ليكونوا أدق نظراً ، وأصدق حكماً .

ولكن ليس من الحتم أن يبدأ الشاعر نقيضة ثالثة يرد بها على خصمه ، ويكفيه أن يعود الى نقيضته الأولى ، يضيف إليها أبياتاً ينقض بها ما أورده مناقضه ، ويبيكته ويندد به ، ذلك بأن النقائض معرض لنشاط الشاعر ، ومحاولة منه أن يسد على خصمه الأبواب ، ويقمعه في جحره كلما أطل برأسه أصابه بصاعقة من قوله . فكان من ذلك أن بدت في كثير من القصائد المنقوضة أبيات ترد على معان وردت في القصيدة الناقضة اللاحقة ، وقد ذكر الرواة شيئاً من هذا التبادل في المعاني والأبيات في النقيضتين ٥٥ ، ٥٦ ، ويبدو جلياً للناقد في النقيضتين : ٧٧ ، ٧٨ (١) .

وقد يضيف الشاعر الى نقيضته ابياتاً تتصل بحادثة جديدة ، لا يراها تستأهل أن يفرد لها بنقيضة ، فعل جرير حين حبس مع النوار وفعل الشعاعين حين نبا سيف الفرزدق (٢) .

وقد يطرق الشاعر موضوعاً لاصلة له بالهجاء ، فيغتتم الفرصة الشاعر الآخر ، مبالغاً منه في التحرش والايذاء ، فينقض عليه ما قال ، ويفسد معانيه ، ويهزأ به ، فعل جرير حين رثى امرأته أم حذرة خالدة ، فاعتنمها الفرزدق فرصة ينهش بها عرض خصمه ، فنقض عليه ما قال ، ساخراً مندداً ، مما اضطر جريراً أن يعود الى قصيدته فيتمها شتما جارحاً وفحشاً يمزق به الأعراض ، لا يبغي ولا يذر . ثم تربص بالفرزدق ، وقد أقبل الى هشام بن عبد الملك مادحاً فرد له الكيل صاعاً بصاع ، وسخر من

(١) النقائض : ٤٧٨ - ٤٩٤ ، ٨٠٣ - ٨١٨ ، طبقات ابن سلام :

٣٣٨ - ٣٤٠ ، الاغانى ٨ : ٦١

(٢) النقائض : ١٦٦ ، ٣٨٣ ، ٤١٣ ، ٧٥٣

معانيه ونقض عليه ، ويبدو أن الفرزدق فتر في الرد ، فاكتفى بأربعة أبيات ألحقها بقصيدته ، رواها أبو عمرو الشيباني دون المفضل (١) .

وصورة اخرى للنقائض ، تلك هي النقائض التي تقال في مشاهد المواقفة ، يأتي الشاعران وقد استعدا وأخذا أهبتها ، وهيتا مايتفاخران به ، فيقتان في مكان واحد او مكانين متقاربين ، يحيط بكل منهما أنصاره ومؤيدوه ، يسعون بينهما بالأشعار والأخبار ، وكل من الشعارين ينال من خصمه ويرد عليه أقواله ، وقد توافق جرير والفرزدق في المربد أيام الحارث المخزومي (وزعم ابن سلام أن المواقفة كانت زمن الحجاج بن يوسف) ، احاطت بنو يربوع بجرير ، وقد لبس سلاحه ، وركب المنحاز فرس عباد بن الحصين الحبطي ، وجاء الفرزدق ببني مجاشع ، وقد لبس الديقاج والخز ، والتف حوله بنو العمّ يناصرونه ويؤازرونه ، وأخذ الناس يسعون بينهما ويختلفون ، ينقلون الى كل كلام صاحبه ليرد عليه ، وكان لهذه المواقفة من الإثارة والتهيج وبعث الشغب ، ما دفع الحارث المخزومي ، وكان متنسكا ، يروى عنه الفقه ، أن يطلبهما ، ففر الفرزدق ، وحبس جرير ، وهدمت دورهما . وليست هذه المواقفة بين الشعارين بدعا ، فقد توافق جرير وعمر بن لجأ ، وتوافق ابو النجم العجلي والعجاج ، وفي هذه الصورة من صور المناقضة ترفد البديهة صاحبها ، وتعيّنه على التفوق ، ولذلك قال محمد بن زياد وقد شهد مواقفة جرير والفرزدق :

« فكأن جريرا كان يومئذ أظفرهما » (٢) .

(١) النقائض : ٨٤٧ ، ١٠١٤ ، ديوان الفرزدق (هل) : ٣٩ ، نسخة

المتحف : ١

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٣٤٦ - ٣٤٧ ، النقائض : ٦٢٤ ، ٣٢٠ ،

٦٥٠ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، الاغاني ٣ : ٢٥٧ ، ٨ ، ٧٦ ، ١٠ ، ١٥٢ - ١٥٣ ،

٢١ : ٣٤٩ ، ديوان جرير : ٤٨ ، ديوان الفرزدق : ١٥٤ ، أنساب

الاشراف ٦ : ١٠٧٧ - ١٠٧٨ ، ١١ : ٥٣٤

وقريب من هذه الصورة ما يحدث بين يدي الأمير أو الخليفة ،
يحدث بين الشعارين ، يستخرج ما عندهما فيتناقضان ، ليكون لذي
البدية والذكاء الظفر والمقام الاول . من ذلك ما ذكر أن الفرزدق وجريرا
اجتمعا عند بشر بن مروان ، فقال لهما بشر: انكما قد تقارضتما الأشعار،
وتطالبتما الآثار ، وتقاولتما الفخر وتهاجيتما ، فأما الهجاء فليست بي
اليه حاجة ، فجدا بين يدي فخرا ، ودعاني مما مضى (١) .

ومن صور المناقضة أن يقع الشاعر على معنى نادر معجز ، فيبعث
به الى خصمه متحديا مستنزا ، قال عبد الله بن عطية (راوية جرير
والفرزدق) : دعاني الفرزدق يوما فقال : إني قلت بيت شعر ، والنوار
طالق ان نقضه ابن المراغة :

فإني أنا الموت الذي هو نازل بنفسك ، فأنظر كيف انت محاوله
فما كان من جرير ! الا أن رده بقوله :

أنا الدهر يفنى الموت ، والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله
وقد ألحق كل من الشعارين بيته بنقيضة (٢) . ولعل أبا عبيدة لمح الى هذا
في قوله : « وكانا يتباريان في اشعارهما فاذا قال هذا بيتا سائرا قال هذا
مثله » (٣) .

وآخر صور النقائض ، وأقلها شيوعا ما رووه من أن جريرا أراد أن
يرد على الفرزدق إحدى نقائضه الأولى ، فعاد الى قصيدة له قديمة ، قد
مر عليها عشرون سنة ، ليضيف اليها أبياتا ، ويجعلها نقيضة (٤) .

(١) الاغاني : ٨ : ٣٧ - ٣٨

(٢) الاغاني ٢١ : ٣٧٨ ، التشبيهات : ٣٨٠ - ٣٨١ ، النقائض :

٦٠٦ ، ٦٥١ ، وأنظر مجمع الأمثال ٢ : ٢٤٠

(٣) النقائض : ١٠٥٣

(٤) ديوان جرير : ٦٠١

هذا العرض في بيان الطرق التي سلكها الشاعران في بناء النقااض يجعل مهمة الناقد الدارس أشق وأصعب ، حين يدرك أن ليس كل النقااض قيل جملة واحدة ، بل كان فيها ما قيلت أبياته على التراخي ، وقتا بعد وقت ، فهو مضطر أن يمضي في درسه حذرا ليميز بين الأنواع ، محاولا أن يتبين المتقدم والمتأخر ، وهو أمر غاية في الصعوبة ، يستدعي منه التثبت كل التثبت قبل الاقدام ، وإلا تورط في أحكام تجور به عن قصد السبيل .

ويأتي بعد ذلك عمل الرواة الذين كان لهم جهدهم في حفظ هذا التراث ، فقد اختلفوا في رواية النقااض: اختلفوا في ألفاظ الأبيات ، وفي ترتيبها ، وفي عدتها ، واضطربوا في مواضع أبيات ، فألحقوها بأكثر من نقيضة للشاعر^(١) أو ألحقوا البيت أو الأبيات بنقيضة وقصيدة للشاعر^(٢)، أو نسبوا البيت الواحد الى الشاعرين، فأثبتوه في النقيضتين^(٣) أو أثبتوه في نقيضة لأحدهما وقصيدة للآخر^(٤) وسقطت عنهم أبيات شذت لم يثبتوها^(٥) . وجاء من بعدهم فزاد الاختلاف ، حتى إننا نجد كل نسخة من نسخ النقااض الثلاث التي حقق عليها كتاب النقااض تسلك طريقا في الرواية والترتيب وعدة الأبيات دفع الناشر أن يثبتها في هامش كل نقيضة ، لتغايرها .

ولهذا الاختلاف أسبابه الكثيرة ، وقد أشار الى واحد منها الشاعر

(١) النقااض : (٣٨٣ ، ٧٥٧) ، (٣٧٧ ، ٧٤٦) .

(٢) ديوان الفرزدق : ٣٠٣ ، ٧٩٧ - ٧٩٨ ، ٨٠٠ ، ٨١٦ ، النقااض : ٣٤٦ ، ٣٧٨ ، ٥٢٠

(٣) النقااض : ٦٠٦ ب ٣٩ ، ٦٥٠ ب ٦١ ، ٧١٠ ب ٢٨ ، ٧١٢ ب ٢٢

(٤) ديوان جرير : ١٠١ ، ديوان الفرزدق : ١٥١

(٥) النقااض : ٨١٨ ، ديوان جرير : ٣٩٤ - ٣٩٦

الكبير ذو الرمة حين قال : « لأن يروي شعري صبي أحب من أن يرويه
أعرابي بدوي ، لأن الصبي اذا ذهب عنه حرف رجع فيه الى معلمه فذكره
إياه ، والأعرابي يذهب منه الحرف لعلني قد سهرت في طلبه ليلة فيجعل
مكانه غيره اقتضابا ، فيفسده » (١) .

والآن ، وقد كشفت كل الجوانب التي تتصل بتأليف النقيضة
وبنائها ، وضحت الصعوبة التي يعانها من يحاول ترتيب النقااض ترتيبا
تاريخيا ، والتي دفعتني أن أعد ماتم منها خطوة ، لا بد أن تتبعها خطوات
بل أن الصعوبة مازالت قائمة في تعرف النقيضة والمنقوضة في عدة
قصائد ، وقد ادركت الحيرة القدماء أنفسهم ، ونظرة الى ترتيب النقااض
في النسخ الثلاث تبين أن نسخة لندن قد قدمت النقااض : ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
٩٥ ، على النقااض : ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٩٤ (٢) . وقد قدمت نسخة
(س) النقيضة ١١٣ على النقيضة ١١٢ (٣) ، بل إن نسخة لندن التي
وافقت نسخة اكسفورد في ترتيب النقيضتين : ٦١ ، ٦٢ أكدت في الشرح
أن نقيضة جرير : ٦٢ هي الأولى ، وأنه المبتدئ ، ودعمت ما ذهبت اليه
بأنها توافق في ذلك كتاب السكري (٤) ، ونسخة اكسفورد نفسها التي
قدمت نقيضة الفرزدق : ٩٤ ، على نقيضة جرير : ٩٥ ، كانت قد اقررت
بالقول من قبل إن نقيضة جرير هي المقدمة (٥) . وكذلك الشأن في

-
- (١) أنساب الاشراف ١ : ٣٩٤ - ٣٩٥ ، الحيوان ١ : ٤١ ، وتجد
اسبابا أخرى للاختلاف في : عيار الشعر : ١٢٤ ، الاغانى ٤ : ٢٥٨ ، الموشح :
١٢٥ ، ديوان المعاني ١ : ٣٥٣ ، العمدة ٢ : ٢٣٥ - ٢٣٦
- (٢) النقااض : ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩٥ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣ ، ٨٧٩ ،
٨٨٨ ، مقدمة بيفان ١ : ١٢
- (٣) النقااض : ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، مقدمة بيفان ١ : ١٢
- (٤) النقااض : ٥٤٨ ، ٥٧٦
- (٥) النقااض : ٤٩٥ - ٤٩٦ ، ٨٧٩ ، ٨٨٨

النقيضتين ٤٩ ، ٥٠ ، فقد ورد في الحاشية ما يفيد أن النقيضة ٥٠ مقدمة ، وأن النقيضة ٤٩ جوابها (١) .

فدارس النقائض ملزم أبداً أن يدرك ما يكتنف هذا الموضوع من صعوبات ، وعليه أن يستعين بكل ما يقدمه له المنهج النقدي ، ليعيد للنقيضة بناءها الفني على هدي ما عرفه من نهج الشعارين في بناء القصيدة ، ونسجها ، فيبدأ دراسته بعد وقد هيء له أن يتجنب كثيراً من المزالق والمزال .

عدت النقائض من رائع الشعر الاسلامي، كان الأدباء والنقاد يختارونها نموذج الشعر الجميل الرصين ، يجمع فخامة المعاني وقوتها وصدق الأداء، وخصب الخيال ، ومتانة الأسلوب ، وجزالة اللفظ ، ولئن كانت النقائض نتاج شاعرين يختلفان في أسلوبيهما الشعري ، إن الناقد ليسترعي بصره هذه الخصائص الفنية المشتركة التي تميزت بها النقائض ، فأكسبتها سماتها وملامحها ، ولا عجب أن تتبدى في النقائض تلك السمات الفنية المشتركة ، فإن النقائض ، بأغراضها ومعانيها التي قصصناها ، وهي معان وأغراض تمتد الى أغوار الحياة الجاهلية بمفاخرها وأحسابها ومآثرها وأيامها ومثالبها ، وإن النقائض ، ببواعثها وطريقة بنائها وغاياتها الفنية ، وما لابسها في الحياة العامة ، وفي بيئة البصرة والمربد خاصة ، قد تطلبت أسلوباً في المفاخرة والمنافرة والمغالبة قرب من طريقتي الشعارين في الأداء الفني ، ودفعهما وقد اشتبكا هذا الزمن الطويل الذي امتد ثمانياً وأربعين سنة ، وكل منهما يريد أن يعكس معاني خصمه ويكفأها ، أن يسلكا مسالك متشابهة تميزت بها النقائض مما ندل عليه بعد قليل .

وإنها لدراسة شائقة أن يبحث ناقد مميزات شعر الشعارين ، وطريقتيهما الفني في الأداء ، قبل التحامهما في التهاجي ، ليبين ما طرأ بعد المناقضة على

هذا الشعر ، في معانيه واسلوبه من آثار ، غيرت في طريقتي الشعارين ، وتركت ملامحها الواضحة في معانيهما وأساليبيهما في أبواب الشعر المختلفة . ولعل جريرا قد أحس ما نحس من تحول في فنه الشعري استجابة لمطالب الهجاء ، فأشار الى بعضه حين قال للفرزدق : « شغلني سبك عن جيد الكلام »^(١) ، وأيده الفرزدق حين قال عنه : « لو تركوه لأبكي العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها »^(٢) .

ويعيننا أن ندل بإيجاز على الخصائص الفنية المشتركة التي تميزت بها النقااض ، لنخلص بعد الى موازنة بين الشعارين المتناقضين ، تبين الفروق الفنية بينهما .

أول ما يلقانا في النقااض الطول ، فقد جاوزت عدة الأبيات في ثمان من نقااض الفرزدق خمسة وثمانين بيتا ، وبلغت نقيضته في قتيبة تسعة وخمسين ومئة بيت ، ولجرير من طوال النقااض مثل ما للفرزدق ، وهذه الخاصة تنبىء عن احتفال الشاعر بنقيضته، وحرصه على الاجادة والتغلب، فلم يعد الشاعر يرسل القول عفوا ، ينتصر به لقومه ، أو يفاخر بهم ، إثر مهاجاة طارئة ، أو ذكرى ظفر في موقعة ، بل كان يروى في قوله ، يحشد له الحجج ، وكأنه يناظر خصمه ليفحمه ، ويبيكته على مرأى من الجماهير ومسمع ، فعدت النقيضة ثبنا طويلا يضم المثالب والأيام والمفاخر وكأنها تعرض تاريخ المتناقضين وأنصارهما، وتاريخ قبائلهما في الماضي والحاضر، وهو أمر لاتكاد تراه في النقااض الأولى الموروثة من عهد الجاهلية ، فهو خاصة من خصائص الشعارين ، وثالثهما الأخطل .

وإذا كان غرض النقااض الأول الهجاء والفخر ، فقد كان الشاعر

(١) العقد الفريد ٥ : ٣١٣ ، أمالي المرتضى ٢ : ١٢ ، خزانة الادب ٢٦٧ - ٢٦٩
(٢) الاغاني ٨ : ١١ ، شرح المقامات للشريشي ٢ : ٢٧١ ، العقد الفريد ٦ : ٢٥

يمهد لغرضه ، في الأغلب ، بالغزل ، وما يتصل به من ذكر أشجانه التي أثارها ما نزل بمنازل الأجابة من البلى ، فهو يبكي الأطلال ، ويصف الرماد والأثافي ، ويمتد به الوصف ليتحدث عما صار إليه ، بعد الشباب النضير ، من أخذ العصا ، وايضا المسائح • وقد يحتفل فيصف البادية بقارها ، ومياها الأواجن ، ويصف إبله وما تعانیه من هزل وکلال ، بعد هذا الكد الطويل ، وهي تضرب في هذه الصحارى ، لاعلم بها ولا أنيس • ويصف سنوات الجذب ، وشتاء المحل ، وفقر الأرامل والأيتام ، توطئة للفخار بكرمه ، وكرم قومه ، وما يجزرون من إبل يستقبلون بها الضيفان • وقد يستدعي غرض النقيضة المدح كنقيضة الفرزدق في هجاء قتيبة حين استهلها بمدح سليمان ، فإذا النقائص ، ومحورها الفخر والهجاء ، قد التبس بها فنون أخرى ، أبرزها الغزل والوصف ، ويليها المدح ، ثم الرثاء ، وهذا الافتنان في أغراض النقيضة أثر من آثار التنوع ، والتجويد اللذين أخذ الشعراء أنفسهما بهما ليرقيا بفن النقيضة ، إذ أتاح للشاعر أن يرضي نوازعه الفنية وميوله ، فيضمن النقيضة من عناصر الجمال ما يوفي بها على الغاية التي يرتضيها ، وخرج بذلك على الإسار الذي يفرضه غرض النقيضة ، والذي كاد يكبل الشعراء فلا يقويان على التفلت منه ، لولا الموهبة الفذة التي هيأت لهما تلك المسارب ينفذان عن طريقها الى ما يؤثرانه من الوان التعبير •

واتصفت النقائص بالجزالة في الأسلوب ، فمقام المفاخرة والمهاجاة في المحافل ، وبين الجماهير المتحفزة المتوثبة ، يتطلب اللفظ القوي ، يملأ الفم ، والأسلوب الجزل المتين ليلائم التفتيم والتعالي على الخصم ، أو انزال المهانة به ، والتحقير له ، إذ تتصل المعاني بالانساب والأحساب والمفاخر والأيام والمثالب ، مما لا يحسن فيه غير الأسلوب الجزل الرصين الذي يتدفق قويا متلاحم الاجزاء ، متين النسج ، عنيف الايقاع ، عالي النبرة والجرس ، ليعبر عن معاني القوة والشمم والترفع واضدادها ،

وكلها قيم نبتت في جنبات الجزيرة العربية ، تحت ظلال السيوف ، وفي ذرا المجد والسيادة ، فاكسبت من القوة ما يلائم تلك النشأة ، وغدا التعبير عنها رهنا بصيغ القوة ، حتى ليخيل الى الناقد أن تلك المعاني لا يصلح لها إلا هذا الاسلوب الجزل . ولذا فقد كثرت في النقائص الفاظ البادية التي تمعن في بداوتها حتى تقترب من الغرابة .

وليس عجبا بعد ، ان تتوارد في النقائص المعاني والصور التي توحى بالقوة والعزيمة ، وتحمل في طياتها طابع الشدة والعنف والمغالبة ، فإذا الشاعران ينطلقان في تفاخرهما وتهاجيهما الى وصف النوق والصحارى وسنواب الجذب ، والمياه الأواجن ، ورياح الشمال ، والى الاطالة في وصف الخيل والجيوش والحرب ، والى المباهاة بنقص صفات الاسد والبحر الجياش والسييل المنهمر والحية الصماء والفحل القطم ، وما يتصل بها من معان وصور ، تدل على العزة والقوة والسخاء والقدرة على احتمال قسوة الحياة وشدائدها ، والتغلب على المصاعب والظفر بالخصم . إنها صور القوة في النقائص ، وقد استمد أكثرها أصوله من هذه البيئة البادية التي عرفها الشاعران ولا بساها واستجابا لأخلاقها وفضائلها ، فكان حتما أن يستمدا من مشاهد الحياة فيها صورا يستعينانها في تباريهما ومغالبتهما . وقد تعمد الشاعران المبالغة فيما صوراه لينبئا عن القوة والغلبة والاستعلاء في مقام الملاحاة والمنازعة .

واتصفت النقائص ببداوة الخيال تمور في آياتها ، وكيف لا يكون ذلك كذلك وليس في معاني النقائص وأسلوبها وحياة الشاعرين إلا ما يدفع دفعا الى هذا الخيال البدوي يسترفدانه ، فإذا الشاعران يستمدان من مشاهد البادية : من الغيث والسييل والصحراء والجبال والصخر والظباء والابل والأسد والوبار والماء والبئر والجبال والدلاء ، معاني لا ينضب معينها ، تدل على ما يريدانه من الفخر برجالهم السادة وقوتهم

في مقارعة الخصوم ، وعراقة أصولهم ، ورجاحة حلومهم ، وثباتهم ،
واستعصائهم على الاعداء ، أو تدل على ما يبرزان به الخصوم والمهجوين •
« وكان شتمي ، على أكبادهم سلعا وقارا » « ركب النعام »
« على دبر أندابه لم تقشر » « اعلو الحزون به ولا أتسهل » :

يصعدن ضاحية الصفا عن متنها ولهن من جبلي عماية أثقل
« جبلي أعز » « صغرت دلاؤهم فما ملأوا بها حوضا » (١) • وقد رقد
الشاعرين خيال خصب ، يحسن الابتكار ، أبدع في اتقاء الصور ،
ليجسم المعاني فتكون أوقع في النفس ، وأعلق بالقلب •

والصفة الرابعة التي اتصفت بها النقائض انما كانت أثرا من آثار
هذا الالتقاء بين مافطر عليه الشاعران من خصب في الخيال ، وما لققاه
من معرفة تزوداها من هذه الحياة الجديدة التي قامت في الأمصار العربية ،
والتي اعتمدت في بعض ألوانها على الحوار والمناظرة والجدل ، والعناية
بالمقدمات والأسباب ، للتفوق على الخصم وإفحامه ، فقد أصبحت المناظرة
سمة من سمات هذا العصر ، لافي الدين والعقيدة ، ولايين الفقهاء
والزهاد فحسب ، بل جاوزت ذلك الى ألوان جديدة من المناظرة ، وشهد
هذا العصر قيام المناظرة في المفاضلة بين البصرة والكوفة ، وكل ذلك هيا
للشاعرين جوا جديدا لاعهد للعرب السابقين به ، فانطلق الشاعران من
إسار المناقضة القديمة ، ليضيفا اليها ألوانا جديدة ، ولولا هذا المدد
الجديد يستمدانه من حياة الفكر الاسلامي في الأمصار لما استطاعت هذه
النقائض أن تمضي الى غايتها ثمانيا وأربعين سنة ولخنقتها المعاني
المحدودة (٢) • ولئن فرض موضوع النقائض على الشاعرين معاني معادة
مكرورة ، إن توّيب الخيال قد أعان على تلوين هذه المعاني وتوليدها ،

(١) ديوان الفرزدق : ٤٤٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٧١٨ ، ٧٢١ ، ٧٢٣ ، ٨٤٩

(٢) التطور والتجديد في الشعر الاموي : ٨٧ - ٩١ ، ١٨١ ، ١٨٦ ،

٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٧

وإبرازها صوراً شتى ، تلذ قارئها ، وكأنها خلق جديد . وقد نبه الى خصب خيال جرير ، وقوة توليده صاحب المثل السائر في معرض رده على من زعموا أن جريراً فقير المعاني لا يجاوز في هجائه أربعة معان^(١) .

ويلقانا في النقائض فحش الشعارين واقذاعهما ، هجت الفرزدق حقة فنادها ابركي ، أنت وما جمعت الأسفل ٠٠٠٠ ، وأم جرير كأنها طريق معمل ، ويكثر هذا الفحش في النقائض^(٢) ، يبدىء فيه الشاعران ويعيدان ، مما يفجأ القارئ ويعجبّه ، ولم يكن الجاهليون ليقولوا مثل هذا الفحش ، كان الشاعران يفرطان فيه ، وغايتهما إضحاك السامعين ، وإثارة إعجابهم ، وبعث السخرية من خصومهم ، وكان المبالغة فيه لا تعني عندهم غير المغالبة ، وإسكات الخصم ، يدل على ذلك قول جرير : « هجوت بني طهية أنواع الهجاء ، فلم يحفلوا بقولي حتى قلت :

كأن بني طهية رهط سلمى حجارة خارية يرمي كلابا
فجزعوا حينئذ ولاذوا بي » وهو البيت الذي أخاف زيادا الأعجم حين دعي الى هجاء جرير فقال : ليس بيني وبين هذا عمل^(٣) . ومثل ذلك جزع الفرزدق لقول جرير :

بها برص بجانب أسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا^(٤)
والحق أن لاجمال في التشبيهين ولامهارة ، إنما هو الفحش بغاية الاضحاك والاستهزاء بل إن جريراً صرح بذلك وأوضحه حين قال : « إذا هجوت فأضحك ° » ثم كانت أمثله التي أضحك بها الناس مثل هذه النماذج الفاحشة المضحكة^(٥) . واندفع الشاعران في هذا الميدان ،

(١) المثل السائر ٢ : ٣٩٩ - ٤٠٣ ، التطور والتجديد في الشعر الاموي : ٢١٨ - ٢٢٠
(٢) النقائض : ٢٠٥ ، ٢٠٩ - ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٢٤٩
(٣) ديوان جرير : ٦٦ ، الاغاني ٨ : ٧٤ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠
(٤) ديوان جرير : ٦٩ ، الاغاني ٨ : ٣٥ ، وفي النقائض : ١٠٥٣ ،
أخبار تؤكد ما ذهبت اليه في قصد الشعارين الى الفحش .
(٥) العقد الفريد ٥ : ٣٠٠

وأخذا يفتنان في الصور الفاحشة ، يقلبانها على وجوه مختلفة ، حتى وقع لهما من الصور الغريبة أعاجيب تستثير الخيال ، وتبعث على الضحك والتشفي والاثارة ، كصور الكلييات السبايا ، أو كصورهن بأفواه الأزقة مقعيات ، أو كصور بني كليب^(١) ، وذكر النقاد القدماء أن كبار الهجائين في العصر العباسي استمدوا في أهاجيتهم المقذعة بعضا من صور هذا الهجاء الفاحش عند الشعارين • وقد كثر الاختلاق والافتراء في النقائص ، استجابة لهذا الدافع ، حتى تخوف الرواة أن يظن ظان أن ما طفحت به النقائص من السباب والفحش حق لا مرية فيه ، فنصوا على بطلانه ، فإذا ادعى جرير أنه نال النوار بفاحشة أسرع ابو عبيدة يكذبه فيقول : وكان جرير عفيفا • وإذا رمى جعثن وعيرها قال ابو عبيدة : وكل ما ادعى جرير فهو باطل ، ويقال إن جعثن كانت امرأة عفيفة سالحة^(٢) •

ومما يؤذن بما كان يملك نفوس الشعارين من إضحاك السامعين والنظارة في سبيل المغالبة ، تلك الصور الساخرة المضحكة التي تمور بها النقائص فلا يدع واحد منهما صورة ساخرة تفوته ، إنه يتأق في عرضها وكأنه يتوقع أن يسمع في أعقابها قهقهة السامعين ، والصور الضاحكة لم تكثر في شعر الهجائين القدماء الذين كانوا يوجهون سهام هجائهم الى مقاتل الفضائل والصفات الخلقية ، ولكن هذه الصور أخذت تمور في شعر النقائص ، وإن القارئ ليتمثل بسمة السخرية تلعو الوجوه ، وهي تستمع الى جرير يسخر من قصر الفرزدق وتشويه وجهه :

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا

ويسرع الفرزدق يرد على جرير صورة بصورة :

(١) ديوان الفرزدق : ١٢١ ، ١٣٠ ، ٢٠٥ ، ٥٢٠

(٢) النقائص : ١٦٦ ، ٢٢٢

رأيت ابن المراغة حين ذكسى تحول ، غير لحيته ، حمارا

ورأقت الصورة الفرزدق حين رأى مدى إعجاب الجماهير بها ، حتى حولت ابتسامتهم قهقهة فعاد يلون الصورة وزينها ويقلبها على وجوه مختلفات :

ولا ينفك ينهق في طريق كليبي^٣ عليه مزادتان

وشاعت الصورة الساذجة البسيطة القريبة من خيال الشعب ، وتلقفتها مجاشع ولهجت بها ، ينقلها لسان الى لسان ، حتى ضاق جرير بانتشارها وقال يعجب لأمر مجاشع :

أغرکم الفرزدق من أيکم وذكر مزادتان على حمار^(١)

وهكذا كان لهذه الصور المضحكة أثرها الكبير في نظارة المربد ، وحلقه ، وأندية القبائل ، وقد افتن فيها الفرزدق افتنانا بلغ فيه الغاية ، وسيأتي مزيد بيان لهذا اللون الفني في فصل الخصائص الفنية .

هذه هي أبرز أوجه التشابه في خصائص النقائض الفنية ، وقد يجد ناقد أوجه شبه أخرى تضاف الى ما أثبت ، كالتراء اللفظي ، وتقارب المعاني تقاربا يؤذن بالتشابه ، أحيانا ، اثرا من آثار التناقض الذي كان يدعو الشاعر الناقض أن يكب معاني سابقة ، فإذا هو يقع فريسة لها ، ويضطر أن يستلب المنقوض معناه ولفظه ، ولعل في هذا التشابه الذي قام بين أسلوبي الشعارين في النقائض ، بعض ما يفسر لنا خلط الرواة حين كانوا يثبتون البيت الواحد أو الأبيات للشاعرين^(٢) وقد تنبه الشاعران أنفسهما الى تشابه أسلوبيهما في النقائض فقال الفرزدق لمن عجب منه :

(١) النقائض : ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ديوان الفرزدق : ٨٧٤

(٢) الاستدراك : ٦٢ ، المثل السائر ٢ : ٣٧١ - ٣٧٢ ، النقائض :

٦٠٦ ، ٦٥٠ ، ٧١٠ ، ٧١٢ . وما أكثر ما وقع الخلط بين أشعارهما في كتب الادب واللغة .

« أوما علمت أن شيطاننا واحد » بل ذكر بعض الرواة أخباراً
تدل على أن أحدهما كان يتنبأ بما يرد عليه خصمه (١) .

ولئن تشابه الشاعران في النقائص ، في كثير من خصائص الأسلوب ،
إن بينهما فروقا واختلافا يفرضهما ما يتحلى به كل شاعر من صفات لا بد
أن تترك آثارها وسماتها في نتاجه ، مما يميز شاعرا من آخر ويفاضل
بين كلام وكلام ، ويصدق قولهم : الأسلوب هو الشخصية . وسيلي في
هذا التفريق وغايتي أن يكون معينا على تبيين خصائص أسلوب الفرزدق
بكل سماته ، وهو غاية هذه الدراسة .

لم يلتزم الفرزدق الاستهلال بالغزل التزام جرير ، فست وعشرون
من نقائضه هجم فيها على الغرض ، دون تمهيد غزلي يوطيء به لغرضه ،
فإن استفتح بالغزل مر به متعجلا ، وكأنه كان يحس في نفسه شيئا من
جسوءٍ يباعد بينه وبين هذا الفن ، فلا يطرقه الا لماما ، ولعل براعة جرير
في هذا الميدان حالت بين الفرزدق وبين الجري فيه ، لأنه أدرك أنه
متخلف ، لا يقوى على طول المجازاة ، إن أسلوبه القوي ، كأنه قد من
الصخر ، كان يتمرد على هذا الغرض ، ولا يستجيب له في سماحة ويسر .
ألم يقل الفرزدق في أسى وأسف يصف طبعه وطبع جرير في هذا الباب :
« ما أحوجه مع عفته الى صلابة شعري ، وما أحوجني مع فسوقي الى
رقة شعره » (٢) وقال الحافظ فيه وفي جرير : « وهذا الفرزدق ، وكان
مشتهرا بالنساء ، وكان زيرغوان ، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في

(١) الاغاني ٨ : ٣٣ ، أمالي القالي ٢ : ٢٣٥ ، شرح المقامات
١ : ٤٠٣ - ٤٠٤ ، خزانة الادب ١ : ٤٥٦ ، المثل السائر ٢ : ٣٧٢ ،
جمهرة اشعار العرب : ٣٧ - ٣٨ ، شرح شواهد المعنى ٢ : ٣٢٥ ،
معجم البلدان : (رصافة الشام ، المروت) .

(٢) الشعر والشعراء : ٢٩ ، ٢٨٦ ، الاغاني ٨ : ١٢ ، العقد الفريد

النسيب المذكور ، ومع حسده لجرير ، وجرير غفيف لهم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا»^(١) . ولكن الفرزدق ، الى ذلك ، أثر في أربع نقائض أن يتغزل فيطيل الغزل ، وأن يفتن فيه ، وسيرد حديث ذلك في باب الغزل ، ولم يفلته جرير حين سمعه يتغزل فقال يهزأ به ، ويتشفى منه :

فهلأ تأرت بينت القيون وتترك شوقا الى مهدد^(٢)

وكأنه يرد عليه ما كان الفرزدق ينهيه من قبل على جرير من إكثاره الغزل ، وإيثاره أن يستهل به نقائضه . كقوله المقذع في نقيضته الفيصل يتشفى من جرير وإطالته في التغزل : « يكي علي دمن الديار ، وأمه . . . »^(٣) .

ولهم يعن الفرزدق بتصريح المطالع ، ولم يأخذ نفسه بهذا العرف الأدبي الذي أخذ جرير نفسه به . فنقائضه ، وقد بلغت ثمانيا وثلاثين نقيضة ، لم يصرع منها إلا أربع ، وهي :

عفى المنازل آخر الأيام قطر ومور واختلاف نعام

و :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

و :

عرفت المنازل من مهدد كوحى الزبور لدى الفرقد

و :

إلا من لمعتاد من الحزن عائدي وهم أتى دون الشراسيف عامدي^(٤)

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٠٨

(٢) النقائض : ٨٠٠

(٣) النقائض : ٢٠٣

(٤) النقائض : ٢٦٢ ، ٥٤٨ ، ٧٨٧ ، ٩٨١

وكان الأمير في الديوان على غرار النقائض ، يندر فيه التصريح ، وقد نبه الى ذلك ابن رشيقي فقال : « وكان الفرزدق قليلاً ما يصرع ، أو يلقي بالاً بالشعر »^(١) ولعله في هذا التأبي على التصريح يدل على ما يملأ نفسه من التعالي والزهو ، وما يحسه في نفسه من الغطسة ، وأنه لا يحفل بالشعر احتفال الآخرين به حتى يغدو له صناعة • بل إن هذا الاحساس المتعالي الذي كان يملؤه هو الذي جعله يرضى حين سمع الصلتان العبدى يفضله على جرير في الشرف والنسب ، ويفضل جريراً في الشعر ، بقوله في قصيدته :

الا انما تحظى كليب بشعرها وبالمجد تحظى نهشل والأقارع
أرى الخطفى بذ الفرزدق شعره ولكن خيراً من كليب مجاشع
ويرفع من شعر الفرزدق أنه له باذخ لذى الخسيصة رافع

فقال الفرزدق : « الشعر مروءة من لا مروءة له ، وهو أخس حظ الشريف » ، وكأنه يدل بعظيم مفاخره ، وشرف ارومته ، ويأبى عليه كريم نجاره أن يرى في الشعر ، وهو شاعر العرب ، عزا يضيفه الى عزه ، وقد نبه الى بعض ذلك ابن رشيقي في كلمته • والفرزدق بموقفه وكلمته التي تعبر عن احساسه بشرف عنصره يذكرنا بشاعر آخر هو عمر بن أبي ربيعة حين دخل على الوليد بن عبد الملك فنعتة الوليد بالشاعر ليتثبت من نسبه فاستنكر عمر أن ينعت بالشعر وقال له : « مثلي يا أمير المؤمنين لا ينسب الى الشعر ، إنما الى نسبه وآبائه »^(٢) •

وكان الفرزدق أغزر مادة في معركة النقائض والمهاجاة ، فأغرق جريراً

(١) العمدة ١ : ١٥٢

(٢) انساب الاشراف ٧ : ٣٤٢ ، ٨ : ٦٧ ، ١١ : ٢٥٦ - ٢٥٨ ، طبقات فحول الشعراء : ٣٤٣ - ٣٤٤ ، الشعر والشعراء : ٣١٤ - ٣١٦

بسيل من المعاني ، كان يطالعه في كل نقيضة بجديد ، ويرميه كل يوم بقارة ، فلم يكن جرير ليقوم له ، ذلك بأن الفرزدق كان أعمق فكرا ، وأخصب خيالاً ، فأعاناه في اختراع المعاني وابتكار الصور ، وقوي أن يتصرف فيما لا يتصرف فيه جرير . ورفده في معاركه ، مفاخره الموروثة ، ومجده الباذخ يقارع بها من يحلب أبوه ضرع العنز لئلا يسمع صوت شخبها فيطلب منه اللبن . وأين يقف جرير من شاعر ورث من مجد آبائه ما ملأ نفسه زهواً وافتخارا حتى إنه كان لا يرى كفتأله يدانيه ، أو ندا يماثله ، غير الخليفة . فصدق فيه قوله في الكميت : « وجدا آجرا وجصاً فبني » (١) . كان إذا أخذ في تعداد مآثره ومحامده ، والاشادة ببيته وشرفه لا يقف عند حد ، ويخلق في آفاق تعجز خصمه وتبهره :

وإذا نظرت رأيت فوقك دارما في الجو حيث تقطع الأبصار

فتراه وكأن المعاني والمفاخر تنتال عليه ، يقرع بها خصمه ، ويتباهى بهذا المجد العريض ينشره ويمد أطرافه ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أوردتها :

فلا فخرن عليك فخرا لي به قحم عليك من الفخار كبار

ويبلغ من زهوه بأبائه وأسرته أن يعددهم في قصائده شامخا متعاليا ، فإذا أنت أمام حشد حاشد من أسماء الأشراف والحكام والسادة ، الذين حشوا الذرا بفعالهم ومآثرهم ، تتابع متوالية ، يعلن بها عن تبهه وعجبه ، وكأنه يصك خصمه ويسكته ، بل ويقرعه ويعجزه :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع (٢)

وكان يزيد فخرا احساسه الصادق القوي أنه المدافع عن حسب تميم ،

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٩٩ ، محاضرات الادباء ١ : ٢٣٦

(٢) ديوان الفرزدق : ١١٥ ، ١٢٩ ، ٢٠٢ ، ٤٤٥ ، ٤٦٨ ، ٥١٦ ،

٥٢٥ ، ٨٥٠

الذائد عن حياضها ، المباهي بمفاخرها ، فإذا هو لا يرى أحدا يوازي
قومه ، ولا شرفا يطاول شرفهم :

لنا العزة الغلباء ، والعدد الذي عليه إذا عد الحصا يتخلف

ولا عز إلا عزنا قاهر له ويسألنا النصف الذليل فينصف

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا الى الناس وقفوا^(١)

إنها النبوة الصادقة القوية المتعالية تعبر عن غنى النفس واضطرام ما فيها ،
ولم لا يشمخ وقد بلغ به فرط احساسه بعزته أن يرى في نفسه الناطق
بلسان خندف جمعاء وفيها بيت الخلافة والنبوة :

لنا مسجدا الله الحرامان والهدى وأصبحت الأسماء منا كبيرها^(٢)

ولعلك غير واجد في هذا العصر شاعرا يباري الفرزدق في مفاخره ، حتى
إنه كان لا يتأبى أن ينتزع من الشعراء أبياتا لهم راقته في الفخر ، إذ كان
يعد نفسه أحق بها^(٣) .

وقد كان هذا الشعور الطاغى يدفعه أحيانا الى الافراط في القول ،
والمبالغة في المباهاة :

ولو تنكح الشمس النجوم بناتها إذن لنكحناهن قبل الكواكب^(٤)

وقد ذكر له النقاد مبالغاتٍ عدشوه قد جاوز فيها المعقول . من مثل قوله :

أنا ابن خندف والحامي حقيقتها قد جعلوا في يدي الشمس والقمر
وقوله :

(١) النقائض : ٥٧١ - ٥٧٢

(٢) النقائض : ٥٢٩

(٣) الموشح : ١٠٦ - ١١١

(٤) الديوان : ١١٣

إن السماء التي من دارم خلقت والأرض ، كانا لنا عزا ومفتخرا
وقوله :

رمى الناس عن قوس تميما، فما أرى معاداة من عادى تميماً تضيئها

ولو أن أم الناس حواء حاربت تميم بن مر لم تجد من يجيرها^(١)

كان هذا كله يجعل الفرزدق أقوى وأعنف وأظفر من جرير في المفاخرة ،

ولعل الفرزدق لمح الى ذلك حين دارت المعركة بين جرير وعمر بن لجا ،

وأنف الفرزدق لجرير أن يتعلق به التيمي ، فلقى أخاه عمرو بن عطية

فقال له : « قل لأخيك ، ايت التيمي من عل ، كما أصنع بك أنا »^(٢)

وأطبق القدماء جميعا على تفوق الفرزدق في الفخر ، قيل لشيخ من تميم :

لم فضلتم الفرزدق على جرير ؟ فقال : لقوله :

بأي رشاءٍ يا جرير وماتح تدليت في حومات تلك القماقم^(٣)

وقال الآمدي : ومما يزيد على كل جيد ، قول الفرزدق :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع^(٤)

واعترف له بالتفوق في الفخر، الأخطل، وقتيبة بن مسلم القائد الخطيب الذي وعى

تراث الجاهلية ، وجرى من الفصاحة على عرق^(٥) . بل إن جريرا نفسه قد

اعترف للفرزدق بالتفوق في الفخر ، فقد روى ابن الكلبي أن جريرا قال :

« الفرزدق أكذبنا ، والأخطل أرمانا للفرائص ، وأما أنا فمدينة الشعر »^(٦)

وأتاحت ضعة بيت جرير ، وتخلفه ، أن تكثر الثغرات التي ينفذ منها

الفرزدق ، فمضى يندد بجرير وأهله ، ويسخر من رهطه كليب بن يربوع

(١) الموشح : ١٠٣ - ١٠٤ ، النقائض : ٥٢٩ ، ١٠٥ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٣٧٠ ، الاغاني ٨ : ٧٧

(٣) أخبار القضاة ٣ : ٢٨٨ ، وانظر ما رووه عن الاشهب بن ثور في

نقد البيت (تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٨٠) .

(٤) الموازنة : ٢١٨

(٥) شروح سقط الزند : ١٦١٣ - ١٦١٤ ، العمدة ١ : ٧٩

(٦) انساب الاشراف ١١ : ٢٧٥ ، الموشح : ١٠٣

العجزة الألائم • وتهيأت له في ذلك صور عجيبة راح يقلبها تصرّحاً ،
وتشبيها ومجازاً • تناولت جريرا ، وأباه ، وأسرته ، وأمه ، ورهطه من
كليب بن يربوع • ويروع القاريء شدة افتنان الفرزدق في معانيه ،
وتصرفه فيها تصرفاً يعطيها الجدة والطفافة ، فحين رمى جريرا ورهطه برعية
الحمير ، أخذ يقلب هذا المعنى ، ويبرزه في معارض شتى ، يصور لك
عطية ينوء بالارباق ، وهو يتبع الاتان في لظى الهاجرة ، يلوذ منها بالظل ،
ويعود مرة ليريك بني كليب فرحين بحميرهم التي أنسلت ، فهم يتناولون
لخطبة بنات الملوك والسادة ، أو يصورهم يتراهنون على حميرهم تراهن
الكرام على الجياد :

وكأنما مسحوا بوجه حمارهم ذي الرقمتين ، جبين ذي العقالِ

ويستغل سقوط ثنيتي جرير ليرميه بأشنع رمية ، وتموت أم حزرة ، فينصح
الفرزدق لجرير ألا يبكي ، لأن عنده أخوات لها من الأتن :
ولتكفينك فقد زوجتك التي هلكت ، موقعة الظهور قصار(١)
ويمضي على هذا النهج ساخراً ومتشفيماً ، يواتيه خياله كل يوم بصورة ،
حتى يضعف جرير أمام إلحاحه ، ويرى أن يقابل هذا الشتم الذي لا يقوى
على نقضه ، بشتهم آخر :

سبوا الحمار فسوف أهجو نسوة للكبير وسط بيوتهن أوار(٢)

ويبدو تفوق الفرزدق ومقدرته حين ندرك أنه ضيق الساحة على نفسه في
هجاء جرير فلم يجاوز كليياً إلا قليلاً ، على حين كان جرير يتناول دارم
كلها ، وضبة ، وآل الزبرقان السعديين ، وغيرهم ، ذلك بأن الفرزدق كان
يطيل الفخار بأجداده وأخواله فيضطر جرير أن يرد على المفخر ،

(١) ديوان الفرزدق : ١١٢ ، ٤٧٠ ، ٧٢٣ ، ٧٢٨ ، ٧٣٤

(٢) ديوان جرير : ٢٠٥

ولا كذلك الفرزدق الذي كان يرى في نقائص جرير وأسرته ورهطه ما يكفيه أن يقف ، ولا يمد هجاءه ، حتى إنه لم يكن يتناول يربوعا إلا قليلاً إنما وكده هجاء كليب وأسرة جرير • ومن عجب أن الفرزدق كان يضطر جريرا الى الجري وراءه يتبعه ، ويقتفي خطاه، فإذا فخر الفرزدق بأخواله من ضبة راح جرير ينشد أخوالاً له من بني سعد يريد أن يفاخر بهم ، وإذا دعاه الفرزدق أن يسائل أهل العلم والأنساب عن شرف أسرتيهما ، قلده جرير ودعاه أن يسائل الناس العارفين • وهما ، في هذا الباب ، ليسا سواء • إنه الفرزدق دفع جريرا أن يكون أقرب الى المدافع ، فإذا رام الهجوم فلا يتجاوز الاقذاع والسب في أشياء معدودات •

وقد أدرك القدماء تفوق الفرزدق في ابداع المعاني ، وابتكار الصور ، وغزارة المادة ، مفاخرا ومهاجيا حين قالوا : « من أين لجرير معاني الفرزدق ، وحسن اختراعه ، جرير يجيد النسيب ، ثم لا يتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء : بالقين ، وقتل الزبير ، وبأخته جعثن ، وبامرأته النوار ، والفرزدق يهجو في كل قصيدة بأنواع هجاء يخترعها ، ويبدع فيها »^(١) ولئن كان للمبالغة أثرها في قول القدماء ، إن أصل المسألة صحيح • يروعك الفرزدق بمعانيه غزارة وعمقا وبراعة افتنان • ويتمثل لك شاعرا حفيظا للتراث الجاهلي ، محيطا بثقافة عصره ، قد استوعب ذلك كله ليحيله شعرا يغالب فيه صاحبه ومن أجل هذا قال من قال : إنما فضل جرير لمقاومته الفرزدق^(٢) . ولما سأل الفرزدق حمادا عن نفسه وعن جرير قال حماد : هو أشعر منك إذا أُرخي من خناقه ، وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت ، فرضي الفرزدق وقال : قضيت لي والله عليه ، وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء ، وعند الخير والشر • وقال أبو الزناد حين سأله جرير ، : « لا والله

(١) أخبار البحترى : ١٧٤ ، الموشح : ١٢١ - ١٢٤ ، كتاب الصناعتين : ٢٤ ، العمدة ٢ : ٩٩ - ١٠٠ ، المثل السائر ٢ : ٣٩٨ - ٣٩٩
(٢) الاغانى ٨ : ٥٢

ما يشاركك ولا يتعلق بك في النسب « فقال جرير : أوه ، قضيت والله له علي^(١) . وأما كلمة النوار تخاطب الفرزدق في تفضيل جرير : « هو والله أشعر منك ، غلبك على حلوه ، وشركك في مره » ، فقد رده المرزباني أنه لا يقبل قول النوار على الفرزدق لمنافرتها إياه^(٢) ، وقد يحسن بنا أن نضيف الى قولة المرزباني طبيعة الأثني العفيفة الحضرية في النوار ، التي تؤثر النسب الحلو على هذا السباب الفاحش يتناول الأعراض ، وينهش اللحوم .

وكان الفرزدق وهو يبجح بمفاخره ، أقوى على التعبير الجزل المتين ، واللفظ القوي الضخم ، والصورة العالية العنيفة ، والمبالغة والتهويل . كانت ألصق بنفسه ، وأحظى عنده ، وكانت طريقه لابرار مقاصده ، والدلالة على مراميه ، فجاءت له من ذلك أعاجيب . فأثني أجلت البصر في نقائضه طاعتك تلك الصور القوية ، العالية ، بأسلوبها الجزل المتين . وكان الفرزدق يحسن انتقاء صوره ، حفيها بها ، يجهد جهده ليوفر لها كل ما يطبعها بطابع القوة والمبالغة ، فكثرت صور القوة والخشونة في نقائضه : صور الصحراء ، والابل والخيل ، والمياه الأواجن ، والهاجرة المحرقة ، والرمال ، وبرد الشمال ، والصقيع ، وتراءت صور الجيوش ، والحرب ، واستعار المعارك ، وكل ما يرضي هذه النزعة الى المغالبة ، والمقاومة ، يصف شجة أنزلها برأس جرير فإذا هي بعيدة أطراف الصدوع ، كأنها ركية لقمان ، لعمقها وبعد غورها ، يراها الآسون فتتقلب حماليقهم ، من هولها . فإذا علتها الشمس ظل طبييها مختلس العقل ، شديدة الايلام ، يبلغ الألم بصاحبها أن يود له الأدنون لو مات قبلها . قد كشفت عن فراخ الدماغ الجاثمة جثوم الفراخ حول الغطاطة ، تشيب لهولها الفتيان ، لا يشفيها دواء ، إذا عولجت

(١) الاغاني ٨ : ٣٥ ، ٢١ : ٣١١

(٢) الموشح : ١٠٦ ، فحولة الشعر : ٣٩ ، أنساب الاشراف ١١ :

٤٦ ، وقد سبقت كلمة النوار ، ص : ١٥٢

بالسمن انتفخت كاتتفاخ عيني عجوز من عرينة أو عكل^(١) . ويصف سيديا من سادات قومه فيحشد له صفات فحولة الابل ، وما ورثه من بيئته ، فإذا هو قراسية ، تخضع لمخافته القروم البزل ، ويمضي في صفات الفحل : متخبط ، قطم ، له عادي مجد بلغ الفراق ، ضخم المناكب ، ذو ناب مقصل . فإذا أنت أمام حشد حاشد من الألفاظ التي تعاونت بأصواتها وإيقاعها ومعانيها ، وتضافرت بتتابعها لتنقل اليك الصورة المهيبة التي يريد الشاعر أن يخيّلها اليك : صورة السيد القوي الذي يبطن فيرهب ، وينزل الرعب في النفوس غير هيب ولا وجل . أما جرير ، فكلب أثاره ، فأثار أغلب ضيغيا ، ثم يمضي ليصف هذا الأسد ، يظل الألف منيخا من مخافته نهارا ، وتظل المخدرات له سجودا ، حمى الطرق المقانِب والتجار ، كأن بساعديه سواد ورس إذا وثب . وإن هذه الصور لتطالعك أنثى وجهت ، تمر بك صورة جرير وأبيه كالجعل ، وصورة الأسيرات ، وصورة الخيل في المعركة ، وصورة الصحراء والنوق ، وصورة السنة المجدبة ، وصورة الجيش ، والبحر الزاخر . . . الى أمثال لها كثيرات لا نعددها بل نكتفي بما عددنا منها^(٢) . وثناء الفرزدق اللفظي أعانه على الايغال في الوصف وفي عرض هذا الحشد في الصورة ، مفاخرا ومهاجيا ، يسردها سردا منتابعا ، لا يكاد يتوقف . ولا يُعيبه أن يجد من أصوات الألفاظ ، ما يعين على اكمال الصورة ، فيفتنك بهذه المزاجية بين الألفاظ الجزلة ، والمعاني ، حيث يعنف إيقاع الألفاظ ويقوى ، عنف المعاني وقوتها .

وجرير ، وإن جرى الفرزدق في هذا المضمار من التصوير والتعبير لأن النقااض بغرضها ومعانيها وأساليبها الفنية فرضت طرقا متشابهة ، فإنه

(١) ذكر ابن قتيبة صفة الشجة مثلا لتحويل الفرزدق (المعاني الكبير :

٩٨٣) .

(٢) النقااض : ١٣١ ، ١٨٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ - ٢٩٣ ،

٤٦٧ ، ٥٥٧ - ٥٦٠ ، ٦٠٠

لا يدركه ، ولا يلحق به • وقد قوسى من شأن الفرزدق، الى جانب ما عرف به من فطرة المبالغة والقوة التي تبين عنها نفسه ، ويدل عليها أسلوبه ، نزعة قوية الى التصوير ، كانت تستأثر به لتجعله المصور الشاعر ، يصور بكلماته المنظر ليققه بين يديك • كانت نزعة بعيدة الغور فيه ، بدت في قصائده أيام عنفوان شبابه ، لم تستطع المنازعة والمناقضة أن تميتهما وإن صرفت الشاعر عن تميتهما ، والافتنان فيها • فاتخذت لها هذه المنافذ لتجلو عن نفسها • ولعل من خير أمثلتها نعته الدرّة التي شبه بها جبيرة (المرأة التي يتغزل بها) ، فاستطرد الى ذكر الغواص ، والحية والمخاطرة ، بأسلوب اتقنت كلماته المعبرة عن الصورة ، وانتقل الى صورة أخرى هي صورة الجذب في البادية أيام البرد والشتاء^(١) ، إن الفرزدق بهذه النزعة يغدو أمسّ رحماً بأمثال النابغة وذوي الرمة من الشعراء المصورين • وما أروع تألق الفرزدق إذا استجمعت له أدواته ، وتلاقت ضروب فنه ، كأن يقوم مفاخراً ، فيختار لفخره أن يقص عليك احدى قصصه الكثيرة ، فيروع بقدرته في القص • تراه قد طوعت له اللغة ليختار منها ما يشاء ، ويمضي يصور لك كل ما يحيي القصة ، ويبعث فيها الروح ، فإذا هو قد أدى ما شاء ببراعة ومهارة ، وفخر ما شاء له الفخر • ويكفي أن تقرأ قصة المرأة التي استحيا وليدها جده صعصعة لتدرك ما انضمت عليه حنايا الشاعر من فطرة شاعرية متدفقة :

تعالج ريحا ليلها غير مقمر	وفارق ليل من نساء أتت أبي
أنتيتك من هزلى الحمولة مقتر	فقلت أجر لي ما ولدت فيّ أني
له ابنة عام يحطم العظم منكر	هجفت من العثو الرعوس إذ اضغت
الى خدّ منها وفي شر محفر	رأى الأرض منها راحة فرمى بها
لبنتك جار من أبيها القنور ^(٢)	فقال لها نامي ، فيّني بدمتي

(١) ديوان الفرزدق : ٤٥٥ - ٤٥٧

(٢) ديوان الفرزدق : ٤٧٧

لقد استتم للشاعر ، السرد الحلو ، والتصوير ، والأسلوب الجزل القوي ،
لم تضعفه الحكاية ، بل زادته وحدة وتناسقا .

وكان الفرزدق ، وهو يهزأ بجرير وأسرته أقوى على الاضحاك ، إن
لديه موهبة فائقة أن يعرض عليك خصمه في صور من الزراية
والسخرية تبعث فيك الضحك حتى لا تملك نفسك أن تشارك الشاعر
مقهقها ، ساخرا . ولئن بدت هذه الصفة مغايرة للمألوف المتداول ، إنها
الحق الذي تهدي إليه الدراسة ولها أسبابها التي جعلت الفرزدق أقدر
عليها وأنجح فيها . وسيرد حديث هذه الصفة من صفات الفرزدق في فصل
خصائصه الفنية ، ولعل الفرزدق كان يشير الى شيء منها حين قال :
« شيطان جرير هو شيطاني ، إلا أنه من فمي أخبث »^(١) ويجاوز الفرزدق
السخرية الى المرارة الصرف حيناً ، فعِله حين هزىء بجرير ، وقد فكرته
جارية بني زيد ، فقال فيه :

تبكّي وقد أعطتك أثواب حيضها فقبحت من باك عليها ونائح^(٢)
ولعل هذه الموازنة بين الشاعرين قد بينت أن الفرزدق قد رجح على جرير .
ولا غرو فقد جمعت النقائص بين فني الفخر والهجاء ، وهما فنان فطر
عليهما الفرزدق . كان وهو صغير تحدثه نفسه بالتعالي والتطلع الى المجد
والترفع عن سفاسف الأمور ، فلما بلغ مبلغ الرجال أخذ يحس شرفه ومفاخره
احساسا عميقا قويا ، وقد ملأه الزهو والتعالي والغطرسة فعد نفسه وريث
شرف بيته ، بل لعله كان يرى نفسه وريث قيم الجاهلية وشرفها ومجدها ،
فتدفق فخارا وبجحا ومغالة ، وقام مقاوم لم يكن جرير ليقومها وأتّى له
بها . قيل ان سليمان بن عبد الملك سمع أبياتا له في احدى نقائضه ابتدر بها
الشعراء ، فحكم له بالتفوق عليهم في الفخر^(٣) ، لما حشد في أبياته من

(١) ثمار القلوب : ٥٧

(٢) ديوان الفرزدق : ١٥١

(٣) الاغاني ٢١ : ٣٥١ - ٣٥٢ ، ديوان الفرزدق : ٣٦

تهويل ومبالغة ، رصيدها هذا الغنى النفسي الذي كان يملأ نفس الشاعر ، ولعل نقيضته الفائية أروع مثل على هذا الفخر الذي يفتن فيه صاحبه ، مزهوا تياها بشرف أسرته وقومه ، يعدد أياديهم وصنائعهم ، ويتمجد بعزتهم ، وكرمهم وأحلامهم وقوتهم في حروبهم^(١) . وشاءت ملابسات حياة الشاعر أن تنفتح نفسه للهجاء منذ عصر مبكر ، يذود به عن مجده وشرفه ، فلما ابتلي بمهاجاة جرير رأى مجال القول ذا سعة ، فقد فتحت له مخازي أسرة جرير وقتها وضعفها بابا من القول ، وأعاتته على التفنن والاختراع ، فكثرت معانيه وغزرت وتنوعت ، على حين وقف جرير يسب ويشتم ، ويدمن طرق الأبواب فلا تفتح له . وكان الفرزدق يحس تفوقه على جرير في المناقضة حين تهكم به موازنا بين قصائدتهما فقال : « وتعدل بالمفقتة السبابا » ، ورماء بانتحال أقواله والاتكاء على معانيه :

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم وأوابدي بتنحل الأشعار
بل صرح بغلبته إياه في قوله :
غلبتك بالمفقىء والمعني وبيت المحبتي والخافقات
وفي قوله يمدح الحجاج :

هم رفعوا يدي فلم تنلني مفاضلة ، يدان ، ولا سبابا^(٢)

وهو ما قاله بعد ذلك مروان بن أبي حفصة : كان جرير إذا أخذ الناس غلبهم ، وإذا أخذ الفرزدق جريرا غلبه الفرزدق ، ومن نظر في النقائص تبين له ذلك ، وعلم أن جريرا لم يقم فيها للفرزدق^(٣) . وكان لطبع الفرزدق في

(١) ديوان الفرزدق : ٥٥١

(٢) ديوان الفرزدق : ٨٩ ، ١١٧ ، ١٣١ ، ٤٤٨ ، اللسان : (فقا ،

عمى ، عنا) .

(٣) الموشح : ١٢١

إيثار المبالغة ، وتضخيم الصور ، أثر في شدة احساسه بحقارة مهجوه ،
وضعة أصله ، فراح ينضح من هذا المعين ، ويغرق في معانيه :

ولو ترمى بلؤم بني كليب نجوم الليل ما وضحت لساري
ولو يرمى بلؤمهم نهار لدنس لؤمهم وضح النهار
وما يعدو عزيز بني كليب ليطلب حاجة إلا بجار
وهي أبيات قال عنها العسكري : لو قيل إنها أهجى ما قالتها العرب لم
يعد^(١) ، ومن هذا الباب قوله :

أنتم قرارة كل معدنٍ سوءٍ ولكل سائلة تسييل قرار^(٢)
وإذا كان لا بد من كلمة نختم بها خصائص الشعارين في النقائض فإننا
لا نجد أوجز من كلمة الفرزدق حين قال : « إني وإياه نعترف من بحر
واحد وتضطرب دلاؤه عند طول النهز »^(٣) ، فهو يدل في مطلع قوله على
التشابه الذي ساد أسلوب النقائض مما فرضه على الشعارين الغرض
والمعاني والوزن الشعري والغايات الفنية ، ثم يعقب على ذلك بذكر ما تخلف
فيه جرير حين يمتد به القول ، فيعيد في المعاني ، ويلوذ بما سبق إليه
الفرزدق ويبدو عليه التعب والانبهار ، لقد أعياه طول النهز ، فاضطربت
دلاؤه ، ولم يعد يقوى على الخلق والابتكار وفي الحق أن الفرزدق قد
أنصف صاحبه ، ولعل جريرا نفسه قد أحس تخلفه عن الفرزدق في باب المناقضة
فقد روى ابن أبي الزناد عن أبيه قال : قال لي جرير : « يا أبا عبد الرحمن ، أنا
أشعر أم هذا الخبيث ؟ يعني الفرزدق ، وناشدني لأخبرته ، فقلت له :
لا والله ما يشاركك ولا يتعلق بك في النسيب ، فقال : أوه ، قضيت والله
له عليّ ، أنا والله أخبرك ، ما دهاني إلا أني هاجيت كذا وكذا شاعرا ،

(١) شروح سقط الزند : ٧٦٠ ، ديوان المعاني ١ : ١٧١ ، ١٨٣ ،
نهاية الأرب ٣ : ٢٧٢ ، ديوان الفرزدق : ٤٤١
(٢) ديوان المعاني ١ : ١٧٤ - ١٧٥ ، نهاية الأرب ٣ : ٢٧٥
(٣) طبقات فحول الشعراء : ٣١٨ ، الأغاني ٨ : ٨ ، النقائض : ١٠٤٧

فسمى عددا كثيرا ، وأنه تفرغ لي وحدي» (١) . وأنت ترى مميزات الفرزدق التي تفضله على جرير مجموعة في كلمة أحد الحكام الذي فضل الفرزدق فقال : « الفرزدق أشعر ، لأنه أقواهما أسر كلام ، وأجراهما في أساليب الشعر ، وأقدرهما على تطويل ، وأحسنهما قطعاً » (٢) . فحكم له — كما ترى — بالتفوق في جزالة الأسلوب ، والعراقة في صنعة الشعر ، والغزارة في المعاني ، والتمكن في القافية .

وبعد ، فإن كان لا بد أن ندل على أجمل النقائص التي صاغها الفرزدق فإننا نعد منها ستا تنوق فيها الشاعر ، فبلغ بها الغاية ، واستولى على الأمد وهي :

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتا دعائمه أعز وأطول (وأبياتها ١٠٤) و :

تحن بزوراء المدينة ناقتي حين عجول تبتغي البورائهم (وأبياتها ١٥٩) و :

لا قوم أكرم من تميم إذ غدت عوذ النساء يسقن كالأجال (وأبياتها ١٠٠) و :

عرفت بأعلى راس الفأو بعدما مضت سنة أيامها وشهورها (وأبياتها ١٠٤) و :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف (وأبياتها ١٢١) وقد عدّها صاحب جمهرة أشعار العرب من الملحقات ، ولما طلب سليمان ابن عبد الملك الى الفرزدق أن ينشده أجود ما قاله أنشده إياها (٣) . و :

سمونا لنجران اليماني وأهله ونجران أرض لم تديث مقاوله (وأبياتها ٩٤)

(١) الاغاني ٣١١:٢١ ، وقد سبقت كلمة أبي الزناد ، ص : ٣٢٢ — ٣٢٣

(٢) العمدة ١ : ١٦٢

(٣) الاغاني ١٦ : ١٦٧ (ط . الدار) .

ب - الهجاء والفخر في الديوان

مقدمة :

يقتضينا القول أن نعقب على النقائص ببيان مذهب الشاعر في فني الهجاء والفخر عامة ، وليس بد من هذا البيان بعد درس النقائص لنتم الصورة وتستبين ملامحها ، وقد مر بنا أن الهجاء والفخر هما ألصق الفنون بنفس هذا الشاعر الذي نشأ في البادية ، بادية البصرة ، واضطرب بين أهلها وأخذ فيما يأخذون فيه ، فلم يكن له مندوحة من أن يندفع في هذا الطريق ، وقد تهيأت البواعث وتوافرت ، واستجاب طبع الشاعر ، فكان أن استغرق هذان الفنان أكثر ما قال ، وقد تلازم الهجاء والفخر في أكثر قصائد الفرزدق التي طرق فيها أحد الغرضين ، تلازمهما في النقائص ، كان أحدهما يسلم الى الآخر لأن بواعث الشاعر في المفاخرة أو المهاجاة كانت تقتضيه مثل هذه الطريقة من الجمع بين الفنين ، ليلبغ مراده من تبيكيت الخصم والتعالي عليه .

(٣)

الهجاء :

ويبدو عجبا أن قصائد كثيرة من هجاء الفرزدق تناولت جريرا ورهطه من كليب ، وكأن الشاعرين لم يكفهما ما تناقضا به ولم يستفرغ ما عندهما فراحا يتهاديان الهجاء في قصائد كثيرة مضت على غرار النقائص في المعاني^(١) ، فكان الفرزدق يندد بكليب شرار الناس ويذكر خسة أصلها ،

(١) ديوان الفرزدق : ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٨٧ ،
١٠٥ ، ١٦٤ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٣١٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ،
٣٤٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١٥ ، ٤٣٨ ،
٤٣٩ ، ٤٨١ ، ٦١٤ ، ٦٦٤ ، ٦٩٨ ، ٧٨٦ ، ٧٩٥ ، ٨١١ ، ٨٢٦ ،
٨٣٣ ، ٨٧٤

ورعيها الحسير ، وجبنها ونزولها بدار الذل ، ويهزأ بجريير ابن الحمارة والحمار ، قد فل حافره ، قصير عماد البيت ، خلف العير مضروب ، ويحقر من شأن أبيه عطية ، وينبز أمه بالمراعة هزءاً وسخرية ، وقد يقذع في سبابها فيرميها بألوان الفجور ، وتواتيه المناسبات ليمدّ من أطراف الهجاء ، فإذا نشبت المعركة بين جرير وعمر بن لجا التيمي ، نصر الفرزدق تيماً ، وفضل شاعرهما عمر ، وإذا دافع جرير عن قيس رأى فيه الفرزدق كلباً رشته قيس ، فهو يعوي عنهم ، باسط اليهم يدي مستنطعم ليشتتم قومه من تميم ، فجزء على قيس بعمله شؤماً مثل شؤم صاحب ثمود .

وكان يمازج هذا الهجاء تعالٍ وشموخ حين يمضي الفرزدق مفاخرًا بنفسه وبآبائه الأمجاد وبأسرته من مجاشع ودارم وقومه من تميم وأخواله من ضبة ، فهو في شهرته سماك الأعازل ، قد وقف نفسه ليدود عن ذمار مجاشع وتميم ، فيفتك بأعدائه ، ويترك آثاره في وجوههم وأقنائهم ، ثم يضي على نفسه من الصفات ما يجعله قويا على خصومه ، قاهراً لهم ، فهو هزير تقادى الأسود من وثباته ، ويتغنى بشجاعة قومه ، ومجد أسلافه ، لا يجد لهم كفتاً إلا عبد شمس وهاشما ابني عبد مناف ، ثم يدعو جريراً أن يحتكم إلى حكام بكر بن وائل ليعرف فضل دارم على قومه كليب : وما تجعل الظربى إلى رهط حاجب ورهط عقال ذي الندى ابن محمد (١) وقد يستأثر به الفخر والبجح بقومه وأخواله فإذا هو لا يفتن لسب جرير إلا بكلمة عابرة وكان غايته الأولى من قصيدته الفخر والمباهاة (٢) . ويبدو أن هجاء جرير قد شغل الفرزدق واستأثر بعنايته فهو يختلس بيتاً في مدحة له أو مرثية ليغمز من جرير وقومه ، لا يريد أن يدعه بحال (٣) .

لم تطل قصائد الهجاء التي نال بها جريراً طولها في النقائض ، وقد

(١) ديوان الفرزدق : ١٩٥

(٢) ديوان الفرزدق : ٤٢ - ٤٣

(٣) ديوان الفرزدق : ٨٧ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٣١٢ ، ٤٠٠

نقل أبياتها حتى تبلغ البيت والبيتين والثلاثة ، يثبت بها الشاعر صورة
 مرت بخاطره فلم يشأ أن يفلتها^(١) ، على أنا لا نعدم بعض قصائد طالت
 أبياتها بعض الطول واحتفل لها الشاعر احتفاله لنقيضته^(٢) . والاقذاع
 والفحش في هجائه جريرا لا يقصران عنهما في النقائص ، فكان الفرزدق
 لا يتورع عن القذف والبهتان يفتريه والرجم يصيب بها من يصيب^(٣)
 ويبدو أن شاعرة كلبية انتصرت لجريير ، فبالغ الفرزدق في تعريتها بصور
 فيها الهزاء والاضحاك الى جانب الاقذاع والفحش^(٤) . ويظل الفرزدق
 كالعهد به ، بارعا في عرض صور مضحكة ، يتناول بها جريرا ورهطه ،
 فتارة يصور لك اقتتال رجال كليب وحميرها إذا استودقت عفوة لهم ،
 كل يريد بها ، ويناضل من أجلها ، وتارة يصور تنافس ولدي عطية : جريير
 وأخيه ، على الأتان بعد وفاة أبيهما ، أو يصور جريرا قائما في سوق اليمامة
 يبيع شعره على أهل السوق أخس بيع « إذا قال بيتا بالطعام يكايله » .
 ومن صورته الرائعة على بذاءتها صورة جريير مكبا على درهم يتغيه
 بلسانه ، إذ لم تنله أنامله ، والفرزدق يحثه ويدعوه الى الرفق لينال الدرهم :
 « تقدم عليها يا جريير »^(٥) .

وقد تضرر الصورة المضحكة لتغدو اقذاعا مضحكا ، كان يستشير
 الناس ويهيج سخريتهم^(٦) .

ولو عدنا الى أهاجي الفرزدق الأولى التي قالها في صدر شبابه والتي
 ألح فيها على نهشل و فقيم وتصدى لمن ناصرهما ودافع عنهما ، من مثل
 الأشهب بن رميلة النهشلي ، وخذلة الدحداحية الفقيمية ، لمحنا سمات فنه

-
- (١) ديوان الفرزدق : ٣٦٢ ، ٤٠٦ ، ٤١٥
 (٢) ديوان الفرزدق : ٤٢ ، ٦٦٤ ، ٧٩٥
 (٣) ديوان الفرزدق : ٣٣٤
 (٤) ديوان الفرزدق : ٣٧٠
 (٥) ديوان الفرزدق : ٤١٠ ، ٦٦٤ - ٦٦٥
 (٦) الديوان : ٣٦٢

الهجائي بينة فيها ، فهو يتناول مهجويه فيقلل من شأنهم ، ويرميهم بألوان اللؤم والحطة ، والخسة ، ويندد بأحساب القبيلة ، وينعى عليها مخازيها ، فإذا شفى غليل نفسه من السباب فاخرهم بتعداد مناقبه ، وذكر مآتي آباءه وقبيلته ، وكان الفرزدق بارعا في تحري النقائص وكشف العورات والنفاذ منها الى الخصم ، فهو في هجاء الأشهب وأخيه زباب ، يلح على ذكر أمهما رميلة وكانت أمة ساعاها أبوهما ، فيذكر رعايتها الابل ، وركوبها السوية ، ويقذع في الحديث عن فجورها ، ويمضي الى ابنها الأشهب ، فيفتن في نعته ، فهو وأخوه هجينان ، وهو محرر ، وهو عبد ، فإذا تصدى الأشهب للذود عن نهشل راح الفرزدق يهزأ بقبيلة يحيي ذمارها عبد ، وأتسى للأشهب أن يسلك طريق المجد :

وحق لمن أمست رميلة أمه يسد عليه اللؤم كل سبيل^(١)

وقد كثر في أهاجي الاسلاميين رمي الناس بالهجنة والعبودية ، وكان من قبل نذرا في أهاجي الجاهليين ، ولعله أثر لهذه الظاهرة التي بدت في المجتمع العربي حين كثر السراري والهجناء ، وكان الأشهب أول من هاجاه الفرزدق^(٢) .

ولما هجا نهشلاً غيرهم ضعفهم وذلتهم ولؤمهم وانهم عبيد العصا ، قصر باعهم عن العلا ، واستطال عليهم بمجاشع^(٣) . وهجا فقيما أنهم لئام لا يفارقهم لؤمهم ، قصار عمد البيوت لذلتهم ، حرد الأيدي ، قصار القوائم ، لا همة لهم ، خير منهم القرود^(٤) . وكان الفرزدق يقذع في أهاجيه هذه ، ولعله بلغ غاية الاقذاع في هجاء خدلة الدحداحية الفقيمية

(١) ديوان الفرزدق : ٤٠ ، ١٧٨ ، ٢٣٥ ، ٤٩٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ،

٦٧٢ ، ٧٦٥

(٢) الموشح : ١٢٤ - ١٢٥ ، المؤلف والمختلف : ٣٨

(٣) الديوان : ٥٣ ، ١٧٨ ، ٢٤٩ ، ٦٢٥ ، ٦٤٠ ، ٦٧٢ ، ٧٦٥

(٤) الديوان : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ٢٤٩ ، ٣٨٤ ، ٧١١

التي كانت تركز به ، وتعين عليه الأشهب ، فلما سمعت تشهير الفرزدق بها قالت : لا أرى الرجال يذكرون مني مثل هذا ، فعاهدت الله أن لا تقول بيت شعر أبدا^(١) . ولعل سر إفحاش الفرزدق في هجو من هاجاه من النساء واسرافه في ذلك ، وتعمده أن يقطع عليهن القول فينجرن منه راجع الى رأي الفرزدق في المرأة ، فقد كان لا يرى لها أن تقتحم هذا الميدان ، فما هي من فرسانه ، وله الكلمة المأثورة التي غدت مثلاً حين أخبروه أن امرأة تقول الشعر فقال : « إذا صاحت البجاجة صياح الديك فلتذبح »^(٢) ، فكان يرى أن يصب عليها سجال هجائه ليقطعها خشية أن تقوم له ، وتهاديه الشعر ويطول أمد المعركة :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب

وهو هو شعور الفرزدق حين هاجته خدلة ، ورجزت به فهرب منها الى بيت ، فليم في هربه فقال : خشيت أن ألقى منها ما لقي أوس بن حجر من سلمى ، حين واقفها فرجرت به ، ولكن دعوا الشعر يغب ، ثم انصب عليها بعد بسياط هجائه^(٣) .

أكثر أهاجي الفرزدق في فترته الاولى قصيرة ، فيها البيتان^(٤) وفيها الثلاثة^(٥) وقد تبلغ الأربعة والخمسة . وأهاجيه على قصرها لاذعة ، تؤدي غرضها وتصيب هدفها ، « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق » ، ولجودة قصار الفرزدق قال فيه الجاحظ : « إنك لم تر شاعرا قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره »^(٦) . ولكن الفرزدق كان يطيل إذا

(١) الديوان : ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ٦٧٢ ، الاغاني ٢١ : ٣٩٣

(٢) التمثيل والمحاضرة : ٣٧١ ، نهاية الارب ٣ : ١١ ، مجمع الامثال

٤٠ : ١

(٣) ديوان الفرزدق : ٢٣٣ ، ٣٨٣

(٤) الديوان : ٤٠ ، ٥٣ ، ١٦٠ ، ٦٢٥

(٥) الديوان : ١٦٣ ، ١٧٨ ، ٣٨٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٢ ، ٦٧٢

(٦) الحيوان ٣ : ٩٨

احتفل لغرضه فيمتد به القول ، لا يتحبس ولا ينبهر ، وفي طوالة التي تحدى فيها بني نهشل وفقيم ، ونال من سيد بني نهشل يزيد بن مسعود ، وهزىء بالأشهب كان يمتزج الهجاء والفخر ، ويروعك أن ترى في فنه الأول هذه الفتوة التي لازمتها في المفاخرة ، فيجزل لفظه ، ويشتد أسر كلامه ، ويعلو جرسه ، وتواتيه صور القوة والمبالغة التي توحى بها المغالبة، فإذا أنت في أفخم كلام وهو يصف خيل قومه وفرسانهم ويعدد مباحيا بأيامهم ويملؤه الاعتزاز بنفسه ، ومكاته في قومه فيتعالى صوته :

أنا الشاعر الحامي حقيقة قومه ومثلي كفى الشر الذي هو جارمه^(١) وهو هو فنه الذي نما بعد في النقائص وتألّق ، بل إن حكمته وهو يهاجي تتلون بهذه الفتوة :

وقد يركب الموت الفتى من مضيمة إذا لم يكن إلا الى الموت مزحل^(٢) ونلمح فنه المبكر في مقدرته البيانية حين يلجأ الى التشبيه والمجاز ليؤدي معناه موجزا قويا حيا مشيرا للخيال ، فصورة الضعف يصور بها نهشلا تتراءى أمامك في مثل هذا التشبيه :

تضج الى صلح العشيرة نهشل ضجيج الحبالى أوجعتها عجوبها^(٣)

فيبرز معناه قويا واضحا يحقق ما أراد لصورته من هذه السخرية المرة تثيرها في النفس صيحات الضعف تجأر بها نهشل ونلمح، الى ذلك ، بذور فن الوصف المصور الذي كان سمة من سمات الشاعر ، فهو حين يهاجي نهشلا ، ويمضي به الفخر الى وصف الجيش يستغرق في الوصف الى جانب ما عرف به من إيثار المبالغة في صورته :

كثير الحصا ، جم الوغى ، بالغ العدى يصم السميع رزه وهماهمه^(٤)

١) الديوان : ٧٦٦

٢) الديوان : ٦٧٢

٣) الديوان : ٥٣

٤) الديوان : ٧٦٦

واذن الفرزدق - كما ترى - سمیعة ، تختزن ماتسمع فاذا انت قادر على ان ترى وتسمع الجيش في مسيره ، واذن الفرزدق سمیعة حين ادت اليك الشطر الاول بوقفاته الثلاث، لتساعدك الموسيقى الداخلية على أن تتباطأ في الانشاد ، ليتمكن في نفسك معنى ضخامة الجيش ، وكثرة عديده ، فإذا تمكن ذلك من نفسك كان لك في هذا الطباق ، وفي هذه الهماهم لاتفهم ، ما ثبت المعنى الذي جاءك في أوله •

واستعان الفرزدق في طوال اهاجيه بما وعته حافظته من ذكر المثالب والمآثر والايام ، حشدها في قصائده شواهد ثلب أو فخار ، وكان حافظا واسع الرواية ، يتتبع الأخبار ، ويتقصى الآثار ، ويتثبت من مواطىء قدميه وهو ينظم أهاجيه ، لينتقدم ثابت الخطا ، لاتزل به قدم • ولامر ما لجأ الى عمر بن لجأ ، يستقصيه أخبار بني جعفر حين بلي بمهاجاتهم ، ولم يكن في جعبته من مخازيهم الشيء الكثير ، ليدرك الثغرات التي تفتح له طريق القول والاستعلاء ، وليقدم عن ثقة ومعرفة (١) وكانت روايته وسعة معرفته خير معين له بعد ذلك حين نشب الهجاء بينه وبين جرير ، فمضى الفرزدق يستعين بمعارفه وروايته ليخزي جريرا ورهطه ويستعلي عليهم ، فكثرت أخبار النقائص حتى قال الجاحظ في وصف الفرزدق: « وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم » وقال يونس : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » (٢) •

ويبقى أن نشير الى ظهور بذور فن الاضحاك في أهاجيه الاولى ، وهي بذور قدر لها أن تنمو وتتفتح بعد، لتؤتي أكلها طيبا . ومن أمثلة فنه الاولى موازنته الساخرة بين نهشل وفقيم وهو يفاضل بينهما :

وجدنا نهشلا فضلت فقيما كفضل ابن المخاض على الفصيل (٣)

(١) النقائص : ٩٠٧ - ٩٠٨

(٢) البيان والتبيين : ١ : ٣٢١

(٣) الديوان : ٦٥٢

ومن أمثلة سخريته تصويره بني فقيم حين عادوا من المدينة خائبين :

أتونا بالقدور معدليها وفاز الجد ، بالجد ، السعيد^(١)

إنها البرق المبشر بالغيث ، فقد سهر الشاعر على فنه في الاضحاك والسخرية
ونما حتى بلغ فيه غاية بعيدة .

وتبادل الفرزدق والاشهب النقائض في تهاجيها ، فكانت أولى
تجارب الفرزدق في هذا الفن ، وبقي لنا من كل ما قالاه أربع نقائض . بدأ
ذلك حين فر الفرزدق من زياد (سنة ٥٠ هـ) ، وأوى الى بكر بن وائل
يلتمس الحماية والأمن ، ومدحهم بقصيدته :

لقد ميّلت أين المسير ، فلم تجد لعورتها كالحى بكر بن وائل

فاهتبل الاشهب الفرصة ليهجو الفرزدق ، ويندد بضعفه وذلة قومه من
مجاشع فنقض عليه قوله بقصيدة أرسلها فيه :

إن تميما شرها وأذلها وألأمها جيران بكر بن وائل^(٢)

فخر فيها بنفسه ، وأشاد بعزة قومه ، وتعالى . وعاد الفرزدق من منفاه
ولم يكن قد كف عن بني نهشل ، وشاعرهم الأشهب ، فأرسل فيهم نقيضته
العينية الرائعة^(٣) ، بدأها باظهار شماتته بمقتل زباب بن رميلة أخي
الاشهب ، ونعى عليه جبنه ولؤمه وسبه بأمة الامة الراعية التي لاترعوي عن
فاحشة ، وصوره قتيلًا ، ملقى ، لايحى لحمه ، تصيبه الكلاب ، وتغمس
أيديها في دمه ، ثم هزىء بأخويه وقد قبالا الدية ، ومضى الى هجاء سيد

(١) الديوان : ١٦٣ ، النقائض : ٢١٥

(٢) النقائض : ٦١٢ - ٦١٥

(٣) في نقيضة الفرزدق اشارة الى مقتل عمرو بن عوف بن القعقاع ،
واختلف الاخباريون في زمن قتله ، جعله بعض ايام زياد ، وجعله اخرون ايام
عبيد الله بن زياد ، (النقائض : ٧٩ ، الديوان ٧٤٩) ، ولم استطع الترجيح .
فالترتيب الذي اتبعته ، تحكمي .

بني نهشل ، يهديه ثناء مقذعا ، ويرميه بذات حبار تترك الوجه اسفع ،
 فيفاخره بقومه ، ويعتو بياديته التي نفت عنها الهجين ، ويعدد آباءه
 غالبا وصعصعة وعقالا ، وخاله الأقرع ، وتدل النقيضة على أن هجاء
 كثيرا قد تبادله الفرزدق وبنو نهشل « فلما أبوا الا الضجاج » ، « كذبتهم
 بني سلمى » ، وقد طالت أبيات النقيضة حتى بلغت ٤٤ بيتا ، وهي مثل
 قووي من أمثلة فن الشاعر في الهجاء ، تدل على تمكن الشاعر منه ، وبلوغه
 غاية بعيدة فيه قبل ان يلتحم بجرير (١) .

وقارع الفرزدق ، بعد عودته من المدينة مسكين بن عامر احد بني
 عبد الله بن دارم ، وكان مسكين شاعرا شريفا من سادات قومه ، رثى
 زيادا حين مات ، فانبرى له الفرزدق ، وعرض به ، ونال منه ، وهجا
 زيادا لطلبه اياه واخافته له ، ورد مسكين على الفرزدق وفاخره بأبائه ،
 ولكن الفرزدق لم يمض على سننه الذي سلكه حياته كلها ، فيمضغ عرضه
 وعرض قبيلته من بني عبد الله بن دارم ، بل وقف مكانه ، يعرض بمسكين
 ويهجو زيادا ، لم يتقدم في هجائه خطوة ثانية . انه الاستثناء الوحيد
 في حياة الفرزدق ، ولم يحفظ الديوان الا أبياتا قليلة من هذا التهاجي ،
 على حين تدل الاخبار ان الهجاء قد امتد بين الشاعرين حتى شهد نشوب
 المعركة بين الفرزدق وجرير ، ثم دخل بينهما شيوخ بني عبد الله وبني
 مجاشع فتكافأ (٢) . وفرح الفرزدق لهذا الصلح فقد كان حائر النفس
 مبدد الخاطر في الاقدام على هجاء مسكين الذي ينتمي الى بني عبد
 الله بن دارم ، وهم بيت تميم ، ينتهي اليه شرفها وحسبها ومجدها وقد
 روي عن الفرزدق قوله : « نجوت من ثلاثة أشياء لأخاف بعدها شيئا ،

(١) الديوان : ٤٩٧ ، ٦٤٢ ، طبقات فحول الشعراء : ٤٩٧ - ٤٩٩ ،
 الاغاني ٩ : ٢٦٩ - ٢٧٢ ، فرحة الأديب : و ٥٠ - ٥١
 (٢) الاغاني ٢٠ : ١٦٧ - ١٧٤ ، ٢١ : ٣٦٧ ، ٣٧٦ ، النقائص : ٦٢١ ،
 طبقات فحول الشعراء : ٢٥٩ - ٢٦٠ ، الديوان : ٢٤٥ ، ٤١٣ .

نجوت من زياد حين طلبني ، ونجوت من ابني رميلة وقد نذرا دمي وما فاتهما أحد طلباه قط ، ونجوت من مهاجاة مسكين الدارمي لأنه لو هجاني اضطرني ان اهدم شطر حسبي وفخري ، لانه من بجبوحة نسبي وأشراف عشيرتي فكان جرير حينئذ ينتصف مني بيدي ولساني» (١) . وكذلك كان الشأن في مهاجاة الاشهب امتد أمدها حتى التحم التهاجي بين جرير والفرزدق فسكنت ، فقد رووا أن معاوية بن صعصعة قال للاشهب بن رميلة وللفرزدق ولمسكين : أرضيتم معشر بني دارم أن يسب آباءكم ، ويشتتم أعراضكم كلب بني كليب؟ (٢) .

هذه ملامح من سمات فن الهجاء حين بدأ الفرزدق مقارعة الشعراء في صدر شبابه ، ثم حين نشبت معركة الهجاء بينه وبين جرير ، وقد قوي على القول وتمكن من سر الفن ، وهي تؤذن بطريق الشاعر الذي سلكه في فنه ، ولم يبق الا أن نعبّر سراعا الى معاركه الاخيرة : المعركة التي نشبت بينه وبين شعراء قيس في أعقاب مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي (سنة ٩٦ هـ) ، ثم التي نشبت بينه وبين الطرماح بن حكيم الطائي عقب مقتل يزيد بن المهلب (سنة ١٠٢ هـ) . كان مقتل قتيبة منعظا في طريق الفرزدق الذي سلكه في فنه الهجائي، فقد استطير فرحا بانتصار وكيع وقومه من تميم ، فوقف يندد بقتيبة الذي ألقى من كفيه جبل الجماعة، وطاعة الخليفة ، وأعلن العصيان ، ويصب على قيس الوان الهجاء والسخرية للؤمها وجبنها ، ويشيد بقومه وقائدهم الظافر الذي دعا الى الجماعة ، وطاعة الخلافة ، فجالد ذوي النكث وقتل قتيبة وأحمد الفتنة (٣) ، وتصدى للفرزدق من شعراء قيس الأصم الباهلي ، وجندل بن الراعي ، ففتح له هذا التصدي بابا من القول واسعا ، فاذا هو لا يقف عند فخاره بتميم وحدها ، بل يمد

(١) الاغاني ٢٠ : ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢١ : ٣٧٦ ، معجم الادباء ٤ : ٢٠٤ ،

وسبقت الكلمة في ص : ١٤٣

(٢) شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٨٥ .

(٣) الديوان : ٨٥١ ، ٨٧٢ .

مجده ليشيد بخندف كلها ، وفيها الخلافة والنبوة ويمضي الى قيسر ،
يندد بمخازيها :

جُعِلتْ لقيس لعنة نزلت بهم من الله لن يرتد عنهم عذابها^(١)
وقد منيت باهلة باشد هجائه وأقذعه ، ذكر الباهليين بهزائمهم ، ومخازيهم
وضغفهم ، وذلتهم ، ونبزهم بالدخانيين (ابني دخان) ، وأنهم عيب
أدوا الإتاوة ، وألقوا الهوان ، ونساؤهم إماء ، متخذاً من سعة معارفه شواهد
لما يرميهم به . وكثرت في هجائه باهلة الصور الفاحشة ، المقذعة كثرة
بالغة^(٢) وافتن فيها ، حتى إن أحد النقاد أراد أن يتخذ من غرابتها وخبثها
حجة لعقدة في نفس الفرزدق ، وصفة خفية^(٣) . ولكنني أرجح أن هذا
التفحش المبالغ فيه كان ثمرة ما يحسه الفرزدق من حطة هذه القبيلة ،
وشدة تعاليه عليها ، وغضبه ان يتصدى له شاعر كالأصم ينال من أعراض
مجاشع ودارم :

وان هجاء الباهليين دارما لاحدى الامور المنكرات العظائم^(٤)

فأراد ان يرميها بقوارع من الاقذاع والتفحش ، تقض عليهم مضاجعهم ،
وتضطرهم الى الانجحار والصمت ، وأمر ثان وهو افتتان الفرزدق في
عرض هذا الفحش عرضاً ساخراً ، وباعثاً على الضحك ، فقد دللنا على
موهبة الفرزدق في هذا الباب وما أتيح له من صور حققت له الغلبة وتبكي
الخصم ، فكان يجد في سب باهلة بهذه الصور الفاحشة المضحكة شفاء
لما في نفسه ، وتحقيقاً للغلبة التي ينشدها في جمهرة السامعين الذين كانت
تهزهم صورته وتستهويهم . وصورته في الأصم وأمه على فحشها ، مشيرة
للضحك^(٥) .

(٢) الديوان : ٤٠٨ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة) ١٠ : ٣٤ .

(٤) الديوان : ٨٠٢ .

(٥) الديوان : ٧٢ .

ولكن صور الهجاء لم تخلص لهذا الاقذاع وحده ، فقد افتن الفرزدق في صور أخرى ينال بها خصومه • وأي تصوير للذل الذي نزل بياهله يصوره في قوله :

تعطي ربيعة عامر أموالها في غير ما اجتموا وهم كالأرنب
تُرْمى وتحذف بالعصي ومالها من ذي المخالب فوقها من مهرب^(١)
وأي هزء وسخرية من أصم باهلة ، وما طمع فيه من غلبة الفرزدق ، فكان شأنه معه :

وجدتك أمك والذي منيتها كالبحر اقبل زاخرا والثعلب
أقعى ليحبس باسته تياره فهوى على حذب له منتصب^(٢)
إن الفرزدق كالعهد به ، يهوى المبالغة في المغالبة ، ويصور قوته الباطشة بخصمه الذليل الضعيف • وكان يحسن اتقاء اللفظة الدالة والصورة المعبرة ليؤدي ما يريد من مبالغة ، كقوله في هجاء الفزاريين « لما أناخ الى أحفاشكم سحرا » ، فاختياره الأحفاش بدل البيوت قد وصم مهجويه بخسة وضعة بالعين • وقال لعمر بن هبيرة وقد منعه عطاءه فتعرض لهجائه :

فأصبحت مما قد منعت كقابض على الماء ، لم تقبض عليه أنامله
من الماء شيئا ، غير أن قد تعرضت لنابي شجاع المجهزين مقاتله
ومما قاله في هجاء قيس :

إذا لبست قيس ثيابا ، سمعتها تسبح من لؤم الجلود ثيابها^(٣)
فقد استطاعت هذه اللفظة المستعارة ان تجمع في طياتها كل ما يريد ان

(١) الديوان : ٣٧ .

(٢) الديوان : ٣٨ .

(٣) الديوان : ٦٩ ، ٢٨٥ ، ٦٤٨ ، سرح العيون : ٢٣٧ ، التشبيهات : ٢٦٩

يصوره الشاعر من لؤم قيس وخستها ، تصويرا جمع الايجاز ، والوضوح
والمبالغة في الوصف •

وقد يرمز الفرزدق الى ما يريد من فحش رمزا فيه خبث ومهارة تذكر
بنن الحطيئة في : « واقعد ، فانك أنت الطاعم الكاسي » ، على بعد ما بين
الطريقتين في الغاية • وانما نشير الى طريق الأداء ، والرمز في القول •
وذلك مثل قول الفرزدق في هجاء باهلة :

ما الباهلي بصادقٍ لك وعده ومتى تعدك الباهلية تصدق^(١)

ففيه القسوة المبكية لا ترحم ، ولكنه ، في ظاهره ، عف اللفظ ، يدل على
مهارة صاحبه وتفوقه في الصناعة تفوقا دفع بالشعراء أن يقلدوه ، وينازعوه
قوله^(٢) • دع عنك معانيه في الهجاء التي غدت متكأ لكثير من شعراء
الهجاء في العصر العباسي •

ومازج هجاء الفرزدق باهلة ونميرا وفزارة ، وقيسا كلها ، الاطالة
في المفاخر وقد رحب الميدان وفسح الطريق ، فهو يفاخر بتميم ويعالي
بحسبها ، ويعدد أيامها على قيس ، ثم يضم الى مفاخره البذخ بالرباب
وخزيمة وخندف ، والتباهي بقريش ، والنبوة ، والخلافة • وإذا نحينا
نقيضته التي قالها في قتيبة ، وقد مضى ذكرها ، تبين لنا أن أهاجيه
الباقية تجري على نسقها وسياقها في المعاني ، بل أن الفرزدق نظم في
هجاء باهلة وعامر وسائر قبائل قيس ، ثلاث قصائد على وزنها ورويها^(٣) •
حتى إن طائفة من الأبيات تتردد في القصائد الثلاث والنقيضة • وكان
الشاعر ، وقد رزق النصر والفلج في نقيضته ، أراد ان يستغل جرسها في
قوارع أخرى يرمي بها قيسا ، فمضى ينظم على قافيته المنصورة • وأهاجي
الفرزدق في هذه المعركة متوسطة الطول لم تكثر قصارها كما كثرت في

(١) الديوان : ٥٩٢ .

(٢) كتاب الصناعتين : ٢٢١ .

(٣) الديوان : ٧٩٥ ، ٧٩٩ ، ٨١٥ ، ولعل القصائد أقل من ثلاث .

مرحلته الاولى ، فليس فيها الا مقطوعة واحدة ، ولا تجاوز طولها ٣٨ بيتا .

ان بناء الالهجية مازال يستند الى دعامتيه : الفخر والهجاء ، وانما اقتصر التعبير على الميدان الذي يجول فيه الشاعر ، فقد اتسع وامتدت ارجاؤه ، فإذا الفرزدق ممثلاً خندف بقبائلها ، يتصدى لقيس كلها . وطالت مهاجاته قيساً زهاء عشر سنين . ومما زاد في طول المعركة وتأجيج أوارها نقمة الفرزدق على والي العراقيين عمر بن هبيرة الفزاري (١٠٢ - ١٠٥ هـ) ، فتابع المعركة ، ولئن افرد عمر وقبيلته فزارة بمقطعات من قوارص قوله^(١) ، إنه لم يقصر القول عليهما ، بل مد أذاه الى غطفان وقيس عيلان ، فتهددها وأنذرهما :

إني متى أهجج قوما لا أدع لهم سميعة، إذا استمعوا صوتي، ولا بصرا^(١)
وكرت مغالاة الفرزدق بنفسه وقومه ، وتجاوز المبالغة الى الافراط الشديد ، وكان له في ذلك صور تثير العجب ، وكأنها تعبير عن نفس هذا الشاعر الفرد ، الذي يبدع الصور الفردة:

أنا ابن خندف والحامي حقيقتها قد جعلوا في يدي الشمس والقمر
ولو نرت بقيس لاحتقرتهم الى تميم تقود الخيل والعكرا
وفيهم مئتا ألف ، فوارسهم وحرشف كجشاء الليل إذ زخرا
كانوا إذاً لتمييم لقمة ذهب في ذي بلاعيم ، لهّام إذا فغرا
بات تميم وهم في بعض أوعية من بطنه ، قد تعشاهم وما شعرا^(٢)

وظل الفرزدق مندفعاً في هجاء قيس ، جارياً رسنه على هواه حتى جاء خالد القسري واليا على العراقيين (١٠٥ - ١٢٠ هـ) فلفته عن هجاء قيس .

(١) الديوان : ٤٨٧ ، ٥٠٨ .

(٢) الديوان : ٢٨٢ ، ٦٤٧ .

(٣) الديوان : ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وكانت معركة الفرزدق والطرماح آخر المعارك ، وكان الفرزدق قد طعن في السن وآثر ان يأوي الى الظل ، ولعله في هذه الفترة كان قد أعلن توبته وعاهد ربه :

على قسم لا أشنم الدهر مسلما ولا خارجا من فيّ سوء كلام^(١)
ورأى ان يكف عن الهجاء ومشاتمة الشعراء ، ولانملك أن نعرف كيف بدأ الهجاء بينه وبين الطرمماح ، واستطار شرره ، وإن رجح لنا أن فخر الفرزدق بيوم العقر كان الشر الذي أوقد نار المعركة . وإن قصائد الهجاء والنقائض التي تهادها الشاعران تدل على أن الفرزدق لم يتوثب لها توثب الطرمماح . كان الطرمماح يهاجي الفرزدق ويرد عليه وهو يطمع أن يستزيده ، فتجد في قصائده ونقائضه احتفال الشاعر وعنايته ، إنه يتتبع معاني خصمه ، يفندها وينقضها ، ويتقصى العيوب والمخازي فينال الفرزدق وأمه وقومه ، ثم يستخدم المنطق والاقناع في خصومته ، فيضع المآزق في طريق الخصم وكأنه يريد أن يقطعه ويفضحه^(٢) . وليس كذلك حال الفرزدق الذي بلغ من الكبر عتيا ، وخمدت قريحته بعض الخمود فإذا هو حين يهجو طينا يبالغ في الاقذاع والذم ، ويفحش فيمعن في الافحاش ، ولولا أنه شاعر كبير لعدا هجاؤه سبابا محضا ، ولكنه الشاعر الفحل قادر أن يثبت دون أن تزل به القدم . كان يهجوهم أنهم نصارى ، وأنهم مجوس ، وأنهم أنباط من أهل حوران ، قد وسموا باللؤم في أعناقهم ، ويتحدث عن ضعفهم وذلتهم :

قلوا وذلوا ، ولم يسلم أديمهم ولم يكن للمعالي فيهم أرب^(٣)

وأنهم لا يعصمهم من الناس الا التجاؤهم الى جبلي : أجا وسلمى ، حين

(١) الديوان : ٧٦٩

(٢) ديوان الطرمماح : ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، طبقات

فحول الشعراء : ٢٧٢ ، الشعر والشعراء : ٣٧٢-٣٧٣ ، الاغاني ١٢ : ٤٣-٤٤

(٣) ديوان الفرزدق : ٩٦ - ٩٩ ، ٦٧٥

تعصم الفرسان سيوفهم وشجاعتهم • ويذكر نساء طيبىء وينعى عليهن انهن لا يخنن ، ويمضي الى ذكر فجورهن فيفرط في الافحاش ، ويهجو الطرماع العبد الذي أصلى قومه بنار الفرزدق وكان لهم كأشقى ثمود ، ثم ييكنه ويريه أنه يتحكك به ليهجوه ، فينال بهجائه ذكرا :

إن الطرماع يهجونى لأرفعه هيهات هيهات ، عيلت دونه القضب^(١) ويفخر الفرزدق بقومه وآبائه ويطيل بشجاعتهم يوم العقر ، ليزيد في إغاظة الطرماع ، ولا يدع الفرزدق مبالغاته :

ولو أن عصفورا يمد جناحه على طيبىء في دارها لاستظلت ولا تشبيهاته المقبحة لأعدائه « شوت منهم وجوها كأنها وجوه خنازير ، على النار ملت »^(٢) والعجب أن الفرزدق لم يفخر على طيبىء فخره على قيس ، وقد كان مجال القول ذا سعة ، فلم يرد في مفاخرته ذكر لخنذف والخلافة والرسول إلا مرتين^(٣) • وإن التألُق الذي كان يبدو في أهاجيه ومفاخره قد خبا قليلا ، وهو يهاجي الطرماع ، لانستثني من ذلك الا قصيدته اليمية الجميلة :

إن الذي أعطى الرجال حظوظهم على الناس ، أعطى خنذفاً بالخزائم^(٤) ولاندرى أكان مصدر ذلك تهاونا منه بالطرماع ، أم فتورا في القول بعد أن تقدمت به السن ونالت من قريحته الأيام • ويبدو عجبا أن جريرا في هذه المعركة قد انحاز الى الطرماع الذي نال من تميم شر ماينال ، فوقف الى صفه ورد على الفرزدق قولته في طيبىء^(٥) •

(١) الديوان : ٩٨ - ٩٩ •

(٢) الديوان : ١٣٥ - ١٣٧ •

(٣) الديوان : ٦٢٦ ، ٦٧٥ ، ٨٢٣ ، ويبدو لي ان ماورد من الهجاء في

الديوان : ٦٢٥ ، ٦٧٤ ، قصيدة واحدة وزعها الرواة قسمين اثنين •

(٤) الديوان : ٨٢٣ •

(٥) ديوان جرير : ٥١٥ •

هذا مجمل القول في خصومات الفرزدق والشعراء ، عمودها امتزاج الهجاء والفخر ، وقد فرضت هذا الامتزاج طبيعة فن الهجاء الذي فرضته ملابسات البيئة ، فلم يكن الهجاء ليقف عند الشاعر المهجو بل كان لهبه يمتد الى قبيله وقومه يلفحهم بحره . وكان ذلك كذلك لأن المهجو ما زال مرتبطا بقبيلته . يعتد بها ، ويدافع عن مآثرها ، ويفاخر بها . ومن هنا كان الشاعر المهاجي يوسع القبيلة ذما ليزيد في اذلال المهجو ، وتحقيره والتقليل من شأنه . وكان لا بد ان يفاخر بقبيلته ، ويعلي من شأنها ، ويوازن بينها وبين قبيلة خصمه ، فطبع ذلك كله الهجاء بهذا الطابع . وكان الفرزدق في هجائه ومفاخره يحيي طرائق الجاهلية ، ويسير في مسالكها ، مغالبا في ذلك أشد الغلو . قيل لابن شبرمة : من أشعر الناس ؟ قال : الفرزدق . فقيل له : إنا أردنا الجاهليين ، فقال : وهل كان أجهل منه (١) .



ولكن الفرزدق لم يقصر مهاجاته على الشعراء وقبائلهم ، بل كان له نوع ثان من الهجاء عرض فيه للولاة والامراء والقواد واشراف الناس . فقد عرض بابني الزبير : مصعب وعبد الله ، تقربا الى بني مروان ، وهجا المهلب بن ابي صفرة ، وابنه يزيد وقومهما من الازد ، وهجا خالد بن عبد الله الأموي والي البصرة ، وأخويه أمية وعبد العزيز ، وكان ممن هجاهم الحجاج بن يوسف الثقفي بعد موته ، وقتيبة بن مسلم الباهلي الذي ثار بخراسان ، وعمر بن هبيرة الفزاري ، وخالد بن عبد الله القسري واليسا العراقيين . ومالك بن المنذر بن الجارود العبدي والي الشرطة في البصرة ، بله الاشراف وسادة الناس الذين لم يسلموا من لسانه . ودراسة هذا اللون الثاني من ألوان الهجاء تعين على استكمال صورة فن الهجاء ، وابرار ملامحه وقسماته .

(١) أخبار القضاة ٣ : ١٠٣ .

وأول ما تكشف عنه الدراسة أن الفرزدق نهج في هذا الهجاء طريقتين مختلفتين ، سار في أحدهما على خطا نهجه الاول • فهو يهجو ردا لاهانة نالته ، أو إساءة لحقت به • فيتسم هجاؤه بالتعرض للمهجو في نفسه ، وفي قبيله ، يثير مخازيهم ، وينبش دفائنهم ، ويفاخرهم بأبائه وقبيله • من ذلك ما هجا به المهلب بن ابي صفرة ، أيام ولاية بشر بن مروان ، وكان قد حجبه فلم يأذن له ، ولم يستجب لمطالبه ، فراح يتنقصه ، وينال منه ، ومن قومه ، ويفخر عليهم بغطاريف من قيس وخندف • كان يهجو الأزدي فينفيهم عن العرب ، وكيف يكونون عربا ، وشكولهم ، وزيمهم ، وعملهم تبعدهم وتنفيهم ، فلحاهم العريضة لحا نبط ، وتنطقهم على لحاهم تنطق المجوس ، وكلامهم غمغمة ، لا إبانة فيه ولا إفصاح • صناعتهم الملاحاة ، فهم يقودون السفين ، وينبئون بالرياح • وأنى لهم بالعروبة ، وليس فيهم شيء من طباعها وأعرافها ، فهم لا يحفظون أنسابهم ، ولا يختنون بناتهم ، ولم يحي آباؤهم في الجاهلية حياة العرب الجاهليين ، فلم يركبو الخيل لغارة أو نجدة ، ولم يعبدوا الأوثان عند المحصب ، ولا عبدوا يغوث ، فخالقوا دين حمير ونزار ، وما كان لازدية أن تشرب في علة ، ولا اتبها القناص بالجنى ، ولا أكلت ما يفوز به الايسار ، ولا عاشت في ظل الخيام ، ولا أوقدت نيران الليل لتدعو الضيفان ، ولا عرفت الرحلة والانتقال (١) • وان الناقد لا يملك نفسه دهشا وهو يستمع الى هجاء الفرزدق المهلب والازدي ، ولعلك لا تجد شاعراً تملكه حب العرب ، جاهليين وإسلاميين ، فعبر عما تملكه مثل الفرزدق ، فأنت تراه في شعره يشيد بفضائلهم وأخلاقهم وما تيبهم في الجاهلية والاسلام حتى لا يرى أحدا فوقهم • وليس هجاء المهلب إلا مرآة لما تمور به نفس الشاعر من إيثار الخلق البدوي ، وعرف الجاهلية ، والفتوة العربية ، حتى انه ليؤثر وثنية الجاهلية على ماسواها

(١) الديوان : ١٠ ، ٢٥٢ •

في أيامها • وليس لي بد من أن أشير الى أنك تحس في تغني الفرزدق بمآثر الجاهلية ومآتي اهلها فتوة واعتزازا ، ونشوة فرح تستأثر به ، فيمضي يعدد الصفات واحدة اثر واحدة ، وكأنه يعرض عليك أجمل ما عرف من مآت ، وخصال ، وهو ما يفرق بينه وبين تميم بن أبي بن مقبل الذي كان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها • ففي كلمات تميم حسرة ، وأسى ، ولهفة على مافات من مثل الجاهلية ، وشكاة (١) وليس كذلك الفرزدق الذي يرى في الاسلام تميما لمكارم الجاهلية ، وتتويجا •

أما طريقه الثاني فهو الهجاء السياسي والاجتماعي ، اندفع اليه الشاعر استجابة للملابسات السياسة ، وحوافز المجتمع والقبيلة ، فتراه ينطق تارة بلسان المنتصر الظافر ويدلي بحججه ودلائله ، وتراه ينطق تارة أخرى استجابة لمشاعر المجتمع ، وتلبية لدعوة القبيلة التي ملكت عليه نفسه واستحوذت على عواطفه • وقد يجتمع الحالان معا •

إنه ينطق بلسان المنتصر حين يعرض بابن الزبير ، وحين يهجو عبد الرحمن بن الأشعث ، وهو يستجيب لأحاسيس المجتمع وحوافز القبيلة حين ينال من خالد القسري ومالك بن المنذر العبدى ، أو حين يسخر من والي العراق خالد الأموي وأخويه أمية وعبد العزيز ، وهو يليهما معا حين يهجو الحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب •

وقد سلك الشاعر في هذا اللون من الهجاء نهجا يلائم مواقفه في المناصرة والانحياز ، فإذا عرض بابن الزبير اقتفى خطأ الأمويين ، فنعتته بالكذاب كما كان ينعته بنو أمية ، ورماه بالإلحاد كما كانوا يرمونه ، متأولين قول الله عز وجل : « ومن يرد فيه بإلحاد ، بظلم ، نذقه من عذاب أليم » (سورة الحج ، آية ٢٥) (٢) وهي معان مستمدة من صميم المجتمع

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٢٥ •

(٢) الديوان : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ •

الاسلامي ترسم صورة النزاع الذي نشب حول الخلافة وما كان يحتج به
بنو أمية من ثبوت حقهم في الخلافة، وما كانوا يرمون به أعداءهم من خروج الى
الباطل • وتترأى الصورة الاسلامية في هجاء الفرزدق أتم حين يعرض
لابن الأشعث وثورته ، فإذا الشاعر يتحدث عن الحق والباطل والضلال
والهدى ، ويتمجد بذكر أولياء الله من بني أمية ، الذين تخيرهم الله ،
واختار منهم لعباده وخلافته عبد الملك إماما ، فعمرت به المساجد وتجلى
الظلام • ثم يمدح واليه الحجاج الذي قام يدافع عن حق الله والخلافة
ليخمد فتنة الحوأك الثائر الذي تبعه مئتا ألف لا عقل فيهم ، وكانت معارك
أنزل الله فيها للحجاج نصره المؤزر ، أعانه على حقه وأمده بالملائكة ،
فقتل ناكثو العهد من الهمدانية السبئية ، والزبيرية الغادرة ، فكانوا على
دير الجماجم أعجاز نخل منقعر ، وعلى جانب الفيض بالبصرة الهدي
المنحر • اتصر عليهم جنود الشام الذين يتلون كتاب الله ، خالصة قلوبهم
لم تشرب نفاقا ، مستبصرين في دينهم ، أعزة ، غلاظا على من جار وظلم ،
وفر عبد الرحمن الذي انتهك محارم الاسلام ، واقترب معصية هي أكبر
من القتل ، وراح الفرزدق يوالي تحقيره وتبكيته ، فنبزه بألقاب شتى ،
فهو ابليس النفاق وشيطانه ، وهو سيخت الضلال (لقب من ألقاب
اليهود) ، وهو يهودي حوأك ، ينادي بالباطل ، ويتبعه أهل النفاق •
والقصيدة مثل من أجمل الأمثلة على هذا النمط الجديد من الهجاء ،
يستمد صاحبه فيه معانيه من منهل جديد هو منهل الدين • فقد وفق
الشاعر أن يصور المعاني الدينية مستمدا عناصرها من القرآن ، وضم
الى ذلك أنه استمد من المعجم القرآني كثيرا من الألفاظ التي اصطنعها
في قصيدته ليضفي عليها هذا الروح الديني ، وانك لتنمر بأبياته قارئاً
فتتوارد على خاطرك آيات القرآن التي يشير إليها ، وألفاظه وطرائقه ،
شاهدا على مقدرة الشاعر الفنية • لقد دمع الثائرين وندد بهم واحتج
للخلافة وأشاد بالامام وواليه وجنوده ، حتى إن الحجاج ليقفه الى جانبه

يوم النصر يشتم الثائرين ، ويقرعه على عظيم ما اقترفوه • ومطلع القصيدة
صورة جميلة صور بها الفرزدق آمال الناس التي عقدوها حين مضى
الجيش غازيا ، وما فوجئوا به من يأس وأسى لعودته عاصيا ثائرا :

لبئت هدايا القافلين أتيتم بها أهلكم ، يا شر جيشين عنصرا
رجعتم عليهم بالهوان ، فأصبحوا على ظهر عريان السلائق أدبرا
وقد كان شيم السيف بعد استلاله عليهم ، وناء الغيث فيهم فأمطرا
رددتم علينا الخيل ، والترك عندكم تحدى طعانا بالأسنة أحمر^(١)

وبداوة الخيال التي تمور بها أبيات القصيدة لا تنقص من جمالها ، إنها فن
الشاعر وطريقته التي يجسد بها معانيه ، بل انها شخصه ، وما كان لانسان
أن يفارق نفسه •

ومثل هذه القصيدة جمالا ونهجا ، ما قاله الفرزدق في هجاء الحجاج
بعد موته ، حين أظله عهد سليمان الرحيم ، الذي رفع المظالم ، وأطلق
الأسرى والمسجونين ، فسرى في البلاد روح العدل ، والاطمئنان ، وتنفس
الناس الصعداء ، بعد ليل هظلم طويل ، وانتدب الفرزدق ليكون لسان
أهل العراق ، المعبر عن مشاعرهم ، فأشار في مدائحه الى ما لقي أهل العراق
من مظالم الحجاج ، ولم أر من شعراء هذه الفترة من صور مظالم الحجاج
تصوير الفرزدق ، ذكر قسوته وبطشه وكيف ساس الناس بالشدة والعنف ،
لا يستمع الى نصيح ولا يؤول الى تقوى ، ولا يرعوي عن جور • ويبين
ما لقي منه أهل العراق من تنكيل وتقتيل وسجن وتجمير ، وقد أتى بها
صورا حية ، موحية ، تنطق بالحق ، والصدق • وقد مارت المعاني الدينية
في أبياته ، واستمد من قصص القرآن ما يعينه في التصوير والتشبيه ،
فإذا الحجاج في عتوه وطغيانه كصاحب الفيل عظيم المشركين أو كابن نوح

(١) ديوان الفرزدق : ٢٩٤ ، وانظر ٤٩٧ ، ٤٦٨

الذي ارتقى في الجبل ، فلم يعصهما من الله عاصم (١) .

وكان الفرزدق ، مهتديا بإحساس الفنان يصور في أهاجيه ما كان يضرب في المجتمع ، وما يشيع فيه من أقاويل ، ومناح ، يوحى بها السخط على بني أمية ، والتذمر من ولائهم مما لا تجده في شعر شاعر آخر . انه ألصق الشعراء بالبيئة ونقل ما فيها ، وكان بارعا في التأني لتصوير هذه المشاعر . فحين ثار يزيد بن المهلب ، كان الأزد ينادون أنه القحطاني الذي ينقض مدينة دمشق حجرا حجرا ، ليحل العدل محل الظلم ، فلما هجا الفرزدق ابن المهلب لم ينس أن يصور ما رافق ثورته من دعاوى وأراجيف ليسخر منه :

تخبرك الكهان أنك ناقض دمشق، التي كانت اذا الحرب حرت
صخور الشظان من فرع ذي الشري فاتمت فطالت على رغم العدا فاشمخرت (٢)

ولما نادى الأزد أن يزيد بن المهلب حي لم يست ، وأنه سيعود ليملا الأرض عدلا عاد الفرزدق ليسخر منهم سخرية مريرة يبطنها التشفي القاتل :

لقد بينت بنت الملاعة من نعي لأهل عمان جيفة ابن المهلب (٣)

والحق أن شعراء المعارضة لبني أمية ، وشعراء آل محمد (ص) خاصة من أمثال الكميت وسديف ، قد صوروا مشاعر البغض لبني أمية التي كانت تمور في صدور الناس بل لعلهم بالغوا في تصويرهم ، استجابة للعقيدة التي تملأ جوانحهم ، ولكني لم أر شاعرا وقف الى صف بني أمية ، يذود عنهم ويهجو أعداءهم ، هيبء له أن يضمن أشعاره مشاعر الثائرين والحاقدين على هذا النحو الذي قصد اليه الفرزدق .

ولا أزعم أن هجاء الفرزدق الذي نال به الثائرين وناصر بني أمية قد

(١) ديوان الفرزدق : ٦١٨ ، ٨٥٣

(٢) ديوان الفرزدق : ١٣٣

(٣) ديوان الفرزدق : ٩٦

بريء من فحاحات الجاهلية ، لأن ذلك يغير طبيعة الأشياء ، وسنة الحياة .
وما كان الفرزدق ليستطيع ذلك ، وهو وريث تراث الجاهلية . فقد
شهّر الشاعر بسهجوئه ، وتنقصهم وعابهم وذكر مخازيهم ، وتجلّى ذلك في
هجاء يزيد بن المهلب خاصة إذ كان لتسميم شأن في الظفر عليه ، وقد قدر
لهلال بن أحوز المازني التسمي أن يجتثهم بقنداويل فالتقى في نفس
الفرزدق نازعتان ، ففخر وأطال الفخر بتسميم ، وما فعله أبطالها من أمثال
هلال وهريم ، وضم الى فخره بتسميم فخره بقيس وخندف ، وتعالى وتشمخ:
إذا غضبت يوما عرانيين خندف
حسبت بأن الأرض يرعد منها
لنا البحر والبر اللذان تجاورا
لقد علم الأحياء في كل موطن
واخوتهم قيس ، عليها حديدها
وصم الجبال الحمر منها وسودها
ومن فيهما من ساكن لا يؤودها
بأن تسيما ليس يعجز عودها (١)

بل اندفع في غناء جاهلي مسعن في جاهليته ، كأننا نبت في جنبات الجزيرة
حين كان السيف هو الحكم الفرد :

وذات حليل انكحتنا رماحنا
وكانت أثافي قدرنا رأس بعلاها
وعميه في أيّد سقطن وأسوق (٢)

وهجا يزيد بن المهلب وعيره الملاحه وقود السفن :

للسفن أهون بأسا أن تقودها
في الماء مطلية الأمواح بالقير
وهزىء بالأزد ، وما عرفوا به من جبن ، ولا غرو ، فإن رماحهم المرادي
يقودون بها السفن ، على حين تنفّس الرياح لحاهم الكثة :

قوم رماحهم المردي حيث غدوا
إذا تنفّس في الرياح العثانين (٣)

(١) ديوان الفرزدق : ١٨٨ ، ٥٠٧ ، ٥٧٥ ، وقد قيلت القصيدة الاولى
(ص ١٨٨) أيام هشام ، اذ ورد فيها ذكر عباد الجحافي الذي ثار باليمن
سنة ١٠٧ هـ (الطبري ٥ : ٣٨٧) .
(٢) الديوان : ٥٧٦ - ٥٧٧
(٣) الديوان : ٢٦٧ ، ٨٨٠

إن هذا اللون من الهجاء السياسي والاجتماعي الذي نهجه الفرزدق يمثل القيم الجديدة التي ثبتها الاسلام ، والتي غيرت في حياة الناس وعقائدهم وتفكيرهم ، وقد نعى قوم على الفرزدق تقلبه ، وتغير مواقفه ، يهجو في يومه من مدحه في أمسه ، وقد يمدح من هجاه ، ورأوا أن جريرا أكرم منه نفسا، لأنه لم يمدح من هجاه ، ولم يهجو من مدحه^(١) . ويبدو لي أن الأمر لا يصح عرضه على هذا النحو ، وأن الفرزدق قد ظلم بذلك ظلما شديدا ، فهناك مواقف يضطر المرء فيها الى القول ، فجرير نفسه اضطر أن يقول في التعريض بابن الزبير ، وهجاء ابن المهلب هجاء مرا^(٢) . والفرزدق في قوله أعذر ، لأنه وقف منذ البدء الى جنب تميم في ثورة ابن المهلب يناهضه ، ويندد به فكان بديها أن ينال منه ، وقد ظفرت جيوش الخلافة ، وأتيح لتميم أن تجهز على آل المهلب اجهازا كاد يحققهم . أما جرير فلم يقل شيئا في الثورة ، وظل بمنجى ينتظر حتى اطفئت نار الفتنة ، وكتب النصر للخلافة ، فراح ينهال على آل المهلب بقوارص الهجاء .

ولعل فيما نعرفه من نشأة الشعارين ومنزلة اسرتيهما ، ومحل كل منهما في قومه ثم ما فطرا عليه من طباع وخلق ، ما يساعد على تفسير اختلاف مواقفهما . عاش جرير أقل مشاركة في الحياة العامة ، وكان يفرق من السلطان فرقا شديدا^(٣) ، لأنه لا يأوي الى سند أو نصير ، فغلب عليه مهاجاة الشعراء ومهاداتهم ، حتى قال في ذلك ما لم يقل أحد ، ونزر قوله في الأحداث السياسية وقل . ويروون أنه أراد أن يخرج عن هذا النطاق مرة ، فانضم الى الحجاج وقتيبة في تشجيع الوليد على البيعة لابنه عبد العزيز وقال في ذلك ، فلما قام سليمان خافه خوفا شديدا ،

(١) النقائض : ١٠٤٩ ، الاغاني ٢١ : ٤٢٢

(٢) ديوان جرير : ٢١٩،٩٩ ، ٣٨٥،٢٥٦ ، طبقات فحول الشعراء: ٣٥٧

(٣) النقائض : ٣٢

وتقرب اليه على وجل^(١) وأخذ على نفسه ألا يعود الى مثل هذه المآزق التي لا يجني منها الا المتاعب .

ولم يكن الفرزدق من ذلك في شيء ، كان سليل المجد ، وابن أسياد مجاشع ، يحل من قومه في ذؤابنتهم ويأوي منهم الى ركن شديد ، وبأس قوي . وكان يحس أنه حامي حقيقتهم ، وراحلهم عند الملوك وفي المواسم . حملته مجاشع أمورها الكبار فأطاق الحمل ونهض به . فدفعه ذلك أن يشارك في الحياة العامة ، وأن يتعرض لكل ما فيها من اضطراب وتقلب . وكان الفرزدق الى ذلك ، شديد الانفعال ، سريع الغضب ، لا يتأني ولا يتلبث ، ومما ذكروه من صفاته أن رجلا دخل الى مجلس فيه الفرزدق فقال : وردت اليوم المربد قصيدة لجرير تناشدها الناس فانتقع لون الفرزدق . وقال يونس بن حبيب : كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا انشد لجرير ، وكان جرير أصبرهما^(٢) . وكان لهذه الجبلة التي فطر عليها أثر في سرعة رد الالهانة ، وقمع الخصم ، لا يفكر في العواقب ، ولا يتثبت قبل أن يقدم ، ولا يملك الارادة القوية التي تحكم عمله ، وتحول بينه وبين نزواته . ولم يكن الفرزدق يتهيب السلطان تهيب جرير ، وان كان يفرقه ، ويخوف به ، ويشدد حذره ان طلبه فيتوارى ، أو يفر خشية أن يقع في يده ، كان يدل بمجده واسرته وشرفه فتمنحه الجرأة ، وكان يزيد من جرأته وتهوره ما عرف به من تمرد وجموح بلغ من شدتهما أن دفعاه ليقول في معاوية ما قال . فكان من ذلك كله أن عرض الميدان الذي يجول فيه ويضطرب . ولم يكن بد للفرزدق من أن يهجو ويمدح ما دام سريع الغضب ، سريع الرضا . وقد تبين فيه أبو عمرو بن العلاء هذا التقلب وكان هجاه ثم مدحه فقال له مؤنبا :

(١) ديوان جرير : ٨ ، ٣٥٧ ، النقائض : ٣٥١ - ٣٥٢ ، أنساب الاشراف ٧ : ٣٣٨ ، معجم الشعراء : ٣٣٨
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٣١٧ - ٣١٨

هجوت زبان ، ثم جئت معتذرا من هجو زبان، لم تهجو ولم تدع^(١) وقال له ابن عياش ، وكان الفرزدق قد هجا الحجاج بعد أن رثاه أيام الوليد : « ما أدري بأي قوليك تأخذ ، أمدحك في الحجاج حياته ، أم هجوك له بعد مساته؟ قال: إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه ، فإذا تخلى عنه تخلينا عنه »^(٢) . ولئن صح نقد الناقد في جملته ، على ما فيه من حدة، إنه لا يؤدي بنا أن نرى في الفرزدق نهازا للفرص ، متقلبا بغية المنفعة ، لأن الناقد قد ألغى ملابسات الأحداث ، وعراها مفردة منفصلة عما يحيط بها، ولو تمهل قليلا لرأى في مواقف شتى وقفها الفرزدق ما يقطع بأن الشاعر كان يحرص على أن يكون لسان قومه ، ووافدهم ، والذائد عنهم ، يتحمل عن ضعيفهم ، ويقري فقيرهم . وكان يرى في تقربه من السلطان ما يعينه على الجهر بمطالب قومه ، والدفاع عنهم . وكان يجهد أن يسمع الخليفة صوت الشاكين ، والمحرومين ، وأن يصور حال الناس وما هم فيه من ظلم وبؤس ، وما يأملونه من عدل في ظل خليفتهم وامامهم . وكان يدفعه هذا الاحساس القوي بما يقوم به في قومه أن يقف مواقف اخرى تعرضه لغضب السلطان ، والسجن والتشريد ، ليكون الى جانب قبيلته ، لا يتخلى عنها . وفي حياته أمثلة عدة آخرها موقفه من خالد القسري الذي اضطهد مضر ، وظلمها ، فانبرى له يذود عن قومه ، ويبين مكائنتهم ، وقد أدهشت مواقفه هذه عمر بن هبيرة الفزاري ، الذي مدحه الفرزدق حين فر من سجن خالد القسري ، وكان هجاء في إمارته ، فقال عمر : « ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجاني أميرا ، ومدحني أسيرا »^(٣) .

(١) معجم الادباء ٤ : ٢١٦

(٢) العقد الفريد ٥ : ٥٧ ، الاغاني ٢١ : ٤٢٢ ، أنساب الاشراف ١١ :

٤٥ ، ٨٥ ، ١٢ : ٣٧٠ ، وسبقت الكلمة (ص : ١٧٥) .

(٣) الكامل للمبرد : ٤٨٢ ، عيون الاخبار ١ : ٢٢٦ ، طبقات ابن سلام :

٢٩٢ ، الاغاني ٢١ : ٣٣٨ ، وسبقت كلمة عمر بن هبيرة (ص : ١٩٣) .

ولعلنا بهذا بينا الحوافز التي حفزت الفرزدق في أهاجيه ، وأوضحنا ملامح الصورة ، صورة هذا الفن الذي حظي من الشاعر بعناية لا يفوقها إلا عنايته بفن الفخر الذي مزج الهجاء في قصائد الشاعر ، وكان له منها نصيب موفور •

(٤)

الفخر :

ولكن الفرزدق لم يكن الشاعر الذي يكفيه هذه المفاخر يزجيها في أهاجيه ، كان الفخر قد ملك عليه نفسه ، وبلغ منه الزهو والخيلاء كل مبلغ ، فقد حل بيته من سماء مجاشع بمنزلة قفلات يد المتناول^(١) • وأي عجب أعجب من قصيدته التي فخر فيها على معاوية ، ولم تتم له ثلاثون سنة • إنها تمثل خيلاء الشاعر ، وعجبه بنفسه ، واعتداده بآبائه :

ألست أعز الناس قوماً وأسرة وأمنعهم جاراً إذا ضيم جانبه
وما ولدت بعد النبي وأهله كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وبيتي الى جنب الثريا فناؤه ومن دونه البدر المضيء كواكبه^(٢)

وليس أعجب من فخر الشاعر ، وجرأته ، إلا حلم الخليفة ، وهو حلم لم يرضه زياد ، ولم يقدره الخليفة المنصور العباسي بعد ، حق قدره ، فكان إذا ذكره وصم معاوية بالضعف والجبن^(٣) •

وبديه أن يكثر فخر الشاعر ، وألا يدع فرصة لا يتغنى فيها بمآثر قومه ومآتيهم ، ولا يتعالى بذكر فعالة وفعال أسرته • كان يقصر قصائد له على الفخر ، ولكنه كان في الأكثر يزجيها في أثناء قصائده الأخرى ،

(١) ديوان الفرزدق : ٦٦٧

(٢) الديوان : ٥٧

(٣) أنساب الأشراف ٤ : ٧٣٢

مادحا وراثيا ومعتذرا وعاتبا ، بله ما قدمناه من مفاخره في قصائد الهجاء •
وتشبه صورة المفاخر في ملامحها الكبرى : المعاني ، والخيال ، والاسلوب ،
ما مر بنا من صورة الفخر في أهاجيه ، وقد اتسع نطاق مفاخره وامتد ،
استجابة لما أحاط به من أحداث • بدأ يفخر بمجاشع ، ودارم ، وانتهى
الى الفخار بمضر كلها : خندف وقيس •

وكان الفرزدق بارعا في عرض هذه المفاخر ، تجده في أماديحه
واعتذارياته يفتن في عرضها • فهو ، حين فر الى الحجاز ، متخوفا من
زياد ، ومصورا ما ناله من مخافته :

فبتُّ كأنني مشعر خيريةً سرت في عظامي ، أو دمء الأراقم

لم ينس أن يفخر بقوته على احتمال المشاق ، « وما جرب الأقوام مني أناته »
ويذكر رهبة معدّ إياه ، وقهره الخصوم بشعره الثقيل على الأقران (١) • فإذا
أقبل بعد ذلك يمدح عبد الرحمن بن أم الحكم والي الكوفة (سنة ٥٨هـ) ،
وكان الفرزدق ما يزال في عنفوان الكبر ، والتعالي ، راح يمن على ممدوحه
من طرف خفي :

وما ساقها من حاجة أجحفت بها اليك ، ولا من قلة في مجاشع (٢)

وفي مديح الحجاج ، الأمير المهيب ، يحتال في مطلع قصيدته ، فيحاور
النوار ، ليشهدها على مجده وحسبه ، ليفخر بتفوقه على خصومه ،
وسبقه الانداد ، والاقران :

هم رفعوا يدي فلم تنلني مفاضلة ييدان ولا سبابا
ضبرت من المثين وجربتني معدأُ حرز القحم الرغابا (٣)

(١) الديوان : ٧٧١ - ٧٧٢

(٢) الديوان : ٤٩١

(٣) الديوان : ٨٩

وكذلك كان شأنه في مديح عمر بن عبد العزيز وهو بمكة • بدأ متغزلاً
بأسماء ليفخر :

ومجد أذود الناس أن يلحقوا به وما أحد أو يبلغ الشمس نائله^(١)

وتجلى فخر الفرزدق في مدح سليمان على نحو جديد، كان يحب سليمان،
ويدل عليه ، فتسنى له أن يجد مجالاً للفخر أرحب • مدح سليمان ثم ختم
مديحه بالفخر ، فذكر كرمه وكرم قومه ، وأشاد بشجاعتهم ، بأبيات
كثيرة بلغت اثنين وعشرين بيتاً ، وأبياته لون من الفخر جديد ، صور
العجوز الفقيرة قد تعلق بها أولادها الضعاف تسأل عن بني دارم في هذا
الجذب الذي حل بالأرض ، فتجد الغوث ، والقرى ، وأسلمته الصورة
الى التحديث بكرم قومه ، وشجاعتهم ، وسيادتهم ، فإذا مقطع الفخر
صور ثلاث ، تُسلم واحدة الى الثانية ، صورة العجوز البائسة تدلف الى
بني دارم ، وصورة النوق لقرى الضيفان ، في الشتاء ، حين تسك السماء ،
وتهب الشمال باردة ، وصورة قومه بما فيهم من سيادة وبسالة ونبل :
إنها فطرة المصور في الفرزدق هيأت له أن يختار هذا النمط من التعبير
يدل به على ما يعتلج في نفسه من معان ، فإذا أنت أمام ألواح جميلة ، جهد
الشاعر المصور أن يوفيهما حظها من الاتقان ، وأن يثبت من الدقائق ما يحيي
الصورة ليتمثلها السامع حية تسعى بين يديه • وقد هيا له الثراء اللفظي
ما مكنه من جلاء الصورة واستكمالها على هذا النحو المعبر الجميل •
إن اللفظة للشاعر كدقيق اللون في لوح الرسام المصور • وبعد ، فإن المقطع
نمط من أنماط الفخر الجميلة ، فيما توفر له من براعة في التصوير ، وجزالة
في الاسلوب ، توأكب معاني المباهاة والمفاخرة ، التي أتى بها ، من نحر
النوق ، وقرى الضيفان ، والاستعلاء على شدة القحط ، وكلب الزمان ،
واجابة الصارخة المستغيثة ، وحماتها بالرماح • وهي معان تنبض بها

عاطفة الشاعر ، فتحس بدم الحياة الحار يتدفق في عروقها • إنها قطعة من نفس الشاعر ، فاض بها قلبه ، حين مضى على سجيته^(١) • ولا أجد شيئا لهذا المقطع في معانيه ، وتصويره ، ومنحاه وجماله إلا صورته التي أبدعها في ملحمته (النقيضة الفائية) ، ووصف فيها شرف قومه ، وكرمهم ، وشجاعتهم ، فبلغ من ذلك غاية ، ليس وراءها غاية لمريد^(٢) • والكرم الذي تمدح به الفرزدق صفة من صفاته الاصلية في نفسه ، ورثها عن أبيه واسرته ، وكان أبوه يحضه عليها وينميها فيه • فكان يعطي بسخاء، وينفق عن سعة • وقد روى الرواة طائفة كبيرة من أخبار كرمه • ففي أيام شبابه وحياة أبيه أنهب ماله بالمربد ، فأثار غضب زياد ، كما مر بنا في أخبار حياته • وروى ابن شبرمة قال : أتانا الفرزدق بالكوفة ، فأهدينا اليه جزورا فقال : يا لبطة ، اجعل عقلها السيف ، ولا تكن مثل ابن المراغة ، يعني جريرا^(٣) • وقال أحد بني مروان: ما رأيت أسخى وأفجر من الفرزدق، ولا أبخل وأعف من جرير^(٤) • بله الأخبار الكثيرة التي تتصل بمن عاذ بقبر أبيه فقام معه ، وقضى حاجته • فلا عجب أن كثر فخره بالكرم ، وألحت عليه الفكرة فراح يتحدث عن كرمه في أماديح الخلفاء والأمراء ، مفتنا في صورته وحديثه • وكانت إحدى هذه الصور الجميلة ما اختتم به إحدى اعتذارياته الى هشام ، من نعت النار التي يوقدها ليلا ، ليتهدي اليه بها السارون، وطالبو القرى ، فيقتل عنهم الجوع بنحره النوق^(٥) • وظل الفرزدق

(١) ديوان الفرزدق : ٦١٨ ، والأبيات فيه مضطربة الترتيب، ولكنها وردت صحيحة التتابع في مخطوطة دمشق : ٤٦ ، ومخطوطة اكسفورد : ٤٤ ، ومجموع خمسة دواوين : ١٤٢ ، وأبيات الفخر في الديوان هي : ٩ - ١٤ ، ٢٩ - ٤٤ ، وتعدادها الصحيح : ٤١ - ٦٢

(٢) الديوان : ٥٥٨ - ٥٦٧

(٣) أخبار القضاة ٣ : ٥١ ، ١٠٣

(٤) أنساب الأشراف ١١ : ٢٦٨

(٥) الديوان : ١٦٦ - ١٦٧

لا يخلي مدائحه الخلفاء والأمراء والولادة من الفخر بنفسه ، والاشادة بقومه • كان يحس احساسا عميقا أنه يفوق الناس ، وأن لا أحد فوقه إلا الخليفة وقومه من قريش ، فهو إذا أقبل الى الخليفة يزيد مادحا ، ذكر أنه قدم بكتاب الخليفة ، لا كما يقدم المتمنحون ، السائلون • ثم شمخ وتباهى ، معبرا عما يعتلج في نفسه :

إني أتاني كتاب كنت تابعه إليّ منك ، ولم أقبل مع العير
ما حملت ناقة من سوقة رجلا مثلي إذا الريح لفتني مع الكور
أكرم قوما وأوفى عند مضلعة لمثقل من دماء القوم مبهور
إلا قريشا فإن الله فضلها مع النبوة بالاسلام والخير^(١)

إنه سليل دارم ، ودارم كفيء قريش • وذكروا أنه دخل على يزيد بن عبد الملك وعنده بنية له يشمها ، فقال الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب ، ولما رادته جرير أجاب الفرزدق أن لا كفاء له غير صاحب السرير ، يزيد بن عبد الملك^(٢) وكان الفرزدق يضم في مدائحه ، والأخيرة منها خاصة ، الى فخره بتسيم فخره بخندف والخلافة والنبوة :

والناس يعلم أننا أربابهم يوم التقى حجاجهم بالمشعر^(٣)

أما قصائد الفخر التي أفردها الفرزدق خالصة لهذا الفن فقد تناثرت في أطراف ديوانه ، تغنى فيها الشاعر ما يضطرب في نفسه من مشاعر الزهو ، وأحاسيس الخيلاء • فقد ظل وفيما لفنه حياته كلها ، لا يمل ولا يسأم • لقد كان من أول شعر قاله :

(١) الديوان : ٢٦٥ - ٢٦٦ ، الاغاني ٢١ : ٣٧٢ ، شرح نهج البلاغة

٤٨ : ٤

(٢) الاغاني ٢١ : ٣١٠ - ٣١١

(٣) الديوان : ٤١٩ - ٤٢٠

أبيت أسوم النفس كل عظيمة إذا وطؤت بالكثرين المضاجع^(١)
ولما أغمض عينيه اغماضة الموت كان يردد :

أروني من يقوم لكم مقامي إذا ما الأمر جل عن الخطاب
الى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم عليّ من التراب^(٢)
فلا عجب أن نرى الفخر فنه الأول ، الذي برز فيه وعلا ، حتى لا يدانيه
فيه شاعر في عصره . كان يفخر بمجاشع ودارم وتميم ، وكان يفخر ببني
ضبة أخواله ، وأخذ يفخر بعد ، بخندف والخلفاء والنبوة ، وانتهى الى
الفخر بمضر جمعاء : قيس وخندف . وكان يفخر بنفسه : بشرفه ، وكرمه ،
وشعره ، وكان يفخر بأبائه واسرته . وفخره ببني ضبة نموذج لهذا الفخر
الذي يفرط فيه الشاعر حتى يغدو فخره غناء جاهليا يحيي تقاليد الجاهلية
وأعرافها في الحياة . فقد وصف الخيل التي تفضل على العيال ، والتي
تمضي بأبطالها الى الغارات . ومضى يعدد أيام بني ضبة في الجاهلية
متدفقا مندفعا ، لا يترفق ، ولا يتلبث ، ويذكر السبايا يقارع عليهن
بالقداح . انه ضجيج الفخر بنفسه لا يربّثه ولا يرفق به . فإذا أحس أنه
قد تفض ما في قلبه بدأ يصف شجاعة بني ضبة ومنعتهم ، وقتلهم الرؤساء ،
واباحتهم القبائل ، يغتصبون كرائم السبايا :

وزائرة آباءها بعد ما التقت جوانحها ، ما كان سيق لها مهر
إذا ما ابنها لاقى أخاها تعاورا عيوننا من البغضاء أبصارها خزر
ويمنعها من أن يقال سبية بنون لها من غير اسرتها زهر
وغالية في قومها كان مهرها لضبة طعن دون عورتها شزر^(٣)
لقد أغرقك الشاعر في لجج الجاهلية ، وهو يتغنى لك هذا الغناء الحماسي

(١) الديوان : ٥١٣ ، طبقات ابن سلام : ٢٧٣ - ٢٧٤

(٢) الاغانى ٢١ : ٤٠٩ ، ٤١٣ ، الشعر والشعراء : ٢٩٤ ، انساب

الاشراف ١١ : ٥٤ - ٥٥ ، حماسة البحري : ٢١٢

(٣) ديوان الفرزدق : ٣١٨ - ٣١٩

الذي يحيي لك حياة الملاحم والنهاب والسبايا ، وعزة الجاهلية • ومثل هذا النمط من القول يفسر لنا قول ابن شبرمة وقد سئل : من أشعر الناس ؟ قال : الفرزدق ، فقيل له : إنا أردنا الجاهليين ، فقال : وهل كان أجهل منه (١) •

ومن أجمل قصائد الفرزدق التي فخر فيها بنفسه ما قاله مشيدا بسخائه وبذله ، استجابة لنداء الكرم • وقد افتن في معانيه ، وعرضها معارض شتى • ففي قصيدة من قصائد أيام الفتوة والشبيبة وصف ضيفا ضل طريقه في ليلة مظلمة باردة « وقد قفعت نكباء من كان ساريا » فحملت الريح صوته الى الفرزدق الذي أهاب بعديه أن يسعرا النار ليضيء للضال طريقه اليه • وقام الى البرك الهجود فمكن سيفه من أسمنها ، ليقرى ضيفه « حليبا وشحما من ذرا الشول واريا » • والقصيدة ، بنائها وأسلوبها وصورها ، مثل لأجمل قصائد الشاعر في مفاخره • وهي الى ذلك تمثل فتوة شعره وشبابه حين كان يتفتح على الحياة ، تملؤه الآمال العريضة ، وينبض قلبه بدفء الشباب ، ويحس تبعات السيادة • وتتجلى فيها عبقريته المصورة وقدرته على الحكاية والقص ، وحبه المبالغة في النعت ، وتمكنه من ناصية اللغة تمكنا فتح له مكنون أسرارها : لفظا ومجازا وصورا ، ولعلك تلمح سره المعجز وهو يصف سيره في ليلة مظلمة :

وسيري إذا ما الطرمساء تخطخت على الركب حتى يحسبوا القف واديا (٢)
فالطرمساء تخطخت ، بلفظها وتركيب حروفها ، تدل على ثقل الليل، وشدة ظلمته ، وتعثر الركبان فيه • والتشبيه في الشطر الثاني أكد بمعناه ما دل عليه الشطر الأول تأكيدا قويا ، حين لا يميز المرء لشدة الظلمة التل من الوادي ، وإن صوت الفرزدق ، وهو يتحدث عن مبادرته الى الضيف

(١) أخبار القضاة ٣ : ١٠٣ ، وسبقت الكلمة ، ص : ٣٤٦

(٢) ديوان الفرزدق : ٨٩٠ - ٨٩٣

الضال ، صوت انسان مجيب الى النفس ، لا تحس فيه فحيح الادعاء والكبر ، ولكن أريحية البذل والعطاء • وما أدري ، لم تمثلت ، وأنا أقرأ هذا الوصف ، حاتما الطائي وهو يتغنى قصيدته المشهورة :

وداعٍ دعا بعد الهدوء كأنما يقاتل أهوال السرى وتقاتله (١)

ومن أفانين فخر الفرزدق بسخائه أن يسلك طريق الحكاية والقص ، بخيال جميل مبتكر ، وأسلوب هادىء سهل ، تغريك سهولته ، انه يصف قوما جياعا لقيهم يصطلون •• وتبلغ الحكاية ذروتها حين أقبل المصطلون ذوو اللحي :

وقالوا ألا هل من فتى مثل غالب وإياي بالمعروف قائلهم عنى ويلبي الفرزدق النداء فينحر ناقته ، وتنتهي الحكاية :

فبات لأصحابي وأرباب منزلي وأضيفهم رسلٌ ودفء ومشتوى (٢)

وهو بيت يمور بالحنان الرحيم : « أصحابي ، وأرباب منزلي » ، وبالسخاء الأصيل « رسل ، ودفء ، ومشتوى » • لقد كشف الشاعر في بيته الأخير الذي ينقطع عنده الصوت ، كل ما رمى الى تصويره من معان في قصيدته • ولون ثالث سلكه الشاعر في التحديث بسخائه ، هو ما قصه من استضافة الذئب واطعامه • وإنه لاحساس إنساني رفيع ، أن يشاطر الشاعر ذئبه مطعمه :

فقاسمته نصفين بيني وبينه بقية زادي والركائب نعس ويدل على سجية الشاعر الخيرة التي تأبى عليه أن يعامله بغير ما يعامل به أعز رفاقه في السفر • بل انه ، وقد أطعمه ، عبر عن شعور الالفة بينه وبينه وعده رفيقه في سفره :

(١) ديوان حاتم : ٥١ - ٥٢ ، شرح الحماسة للمرزوقي ٤ : ١٦٩٦ -

١٧٠١ ، شرح العيون : ٥٧ - ٦٠

(٢) ديوان الفرزدق : ٩ - ١٠

وكل رفيقي كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوه هما اخوان
وتمنى أن يبالغ في اكرامه ، وأن يقدم له أكثر مما قدم :

ولو أنه إذ جاءنا كان دانيا لألبسته لو أنه كان يلبس^(١)

وإننا لا نقع كثيرا على أمثال هذا الشعر الجميل بنفحته الانسانية ، حين
تتحكم السجية بصاحبها فتدفعه ألا يرضن على الذئب الغادر • وإذا هو
صاحب في الرحلة ، يؤانس صاحبه •

تلك هي خطوط الصورة التي نحدد بها ملامح فن الفخر في شعر
الفرزدق ، وتبين بها قسماته • ولكنها لا تحمل كل تلاوين الصورة ،
وخطوطها الدقيقة • فقد وهب الشاعر نفسه لهذا الفن ، لم يدعه بحال ،
فأينما وجهت بصرك في ديوانه طالعنك مفاخره ، مفردة مستقلة ، أو تراجم
فنون شعره الأخرى • ويخيل الي أن الفرزدق في شدة الاعتداد بنفسه ،
وشموخه ، والخيلاء بقومه ، فذ بين الشعراء الاسلاميين ، بلغ من فرط
ما يحس به من اعتزاز أنه حين أقبل في أخريات أيامه ، وقد سكن ما بينه
وبين قيس ، يمدح المهاجر بن عبد الله الكلابي والي اليمامة ، لم يعتذر اليه
من هجاء قيس ، ولكنه تعالى ممثنا أنه رفع سنانه عن هوازن بعد أن
دمغتها نواقره، وفخر عليهم بخندف والخلافة والنبوة^(٢) • وأقبل مرة يمدح
مسمع بن المنذر بن الجارود فلم ترض له كبرياؤه أن يراه أعلى من قومه
دارم أكفاء قريش :

لها سورة كان المعلى بنى لها مكارم ما كانت يدان تنالها

من الناس إلا من قريش ودارم إذا سبق الأيدي القصار طوالها^(٣)

وإذا كان شاعر شارك الفرزدق خيلاءه وكبرياءه وشدة زهوه فلن يكون إلا
أبا الطيب المتنبي ، على بعد ما بينهما في فن الفخار ، مما أوجه اختلاف

(١) ديوان الفرزدق : ٤٨٥ ، ٨٧٠

(٢) ديوان الفرزدق : ٤٠٠

(٣) ديوان الفرزدق : ٦٩٠ - ٦٩١

الزمن والبيئة ، والنشأة والاسرة • وعرف الشعراء الذين زاملوا الفرزدق طبعه في المفاخرة وانه لا يكاد يصبر عنه ، فلما اجتمع جرير والفرزدق بباب الحجاج ، قدم جرير الفرزدق ، وعلل ذلك أن الفرزدق « نزر القول ولم ينشب أن ينفد ما عنده وما قال فيه فيفاخره ويرفع نفسه عليه » • وكان ذلك ، فما دخل جرير ، حتى سمع الفرزدق ينشد الحجاج :

أين الذين بهم تسامي دارما أم من الى سلفي طهية تجعل^(١)
وسبق أن ذكرت فخر الفرزدق بين يدي سليمان ، حتى حرمه جائزته^(٢) •
ويبدو أن هذا الاعتداد بلغ بآثاره زي الفرزدق ، فقد ذكر الرواة أن عمامة الفرزدق كانت عظيمة الجرم ، كادت لحجمها وسعة أطرافها ، تضارع المنسف^(٣) ، وما كان ذلك كذلك الا لما كان يحسه الفرزدق من قصر جسمه ، فكان يستعين بضخامة العمامة لتستر هذا القصر ، وتجعله في المنظر مهيبا ، جديرا بما يقول من مفاخر •

(١) الاغاني ٤ : ٢٥٦ - ٢٥٧ ، الديوان : ٧١٥

(٢) طبقات ابن سلام : ٥٤٧ - ٥٤٨

(٣) الاغاني ٤ : ٢٥٧ ، وسبقت الاشارة الى ذلك في الصفحة : ١٧٧

الفصل الثالث

أغراض شعره الأخرى

(١)

الغزل :

نشأ الفرزدق نشأة السادة ، وكان له من بيته ومجده ما ينأى به عن الكد في طلب الرزق • فعاش في باديته عيشة القتيان من أبناء السراة الأشراف ، يهيبه نفسه في نوادي القوم وحلقهم لتبوؤ مكانة آبائه في الزعامة ، وليقوم في قومه مقامهم • وكان في طبع الفرزدق ميل الى اللهو والمتعة ، تستهويه مغازلة النساء ومفاكتهن ، وأتاح له الفراغ والجاه أن يقضي شيئا من آرابه ، وكانت قصص امرىء القيس ، وأحاديثه وأشعاره من أول ما وعاه • واعجب الفرزدق الفتى المتفتح الى الحياة بهذا الامير الجاهلي حتى غدا من أروى الناس لأخباره وأشعاره^(١) • ويبدو أنه أثر فيه تأثيرا بعيدا ، ولقي من نفسه استجابة ، فقد كان الفرزدق مع طلب المتعة واثار اللذة يجب أن يحدث بذلك ، ويعلنه ، فعل امرىء القيس • كان يؤثر الفضيحة ، ويسعى اليها ، ثم كان يتغنى بها ، غير آبه للفروق الكبيرة التي فرقت بين عصره ، وعصر قدوته امرىء القيس •

وظل الفرزدق طوال حياته ، أسير طبعه ، يحب اللهو ، والسماع والشراب ، ويعد المرأة خير لذاته ، يتتبعها ولا يكف عنها ، ويتغنى بما كان بينه وبينها^(٢) • نزل بالاحوص في المدينة ، فقال له : ما تحب أن يكون

(١) الاغاني ٢١ : ٣٦٤ ، الشعر والشعراء : ٤٨ - ٥٠ ، خزنة الادب

٢ : ٦٨ ، جمهرة اشعار العرب : ٣٩ ، ديوان امرىء القيس : ١٠

(٢) انساب الأشراف ١١ : ٤٢ - ٤٣ ، الاغاني ٢١ : ٣٨٥ ، ٣٨٧

قراك؟ قال : شواء رشرش ، ونبيد سعبر ، وغناء حسن^(١) . وقدم اليه فتى عسا صب فيه رطلا من خمر، ثم حلب عليه وناوله إياه ، فلما رد العس شكر للفتى صنيعه^(٢) . ومر بيحيى بن الحضين بن المنذر الرقاشي فقال له : يا أبا فراس ، هل لك في جدي سمين ، ونبيد زيب جيد ؟ فقال الفرزدق : وهل يأبى هذا الا ابن المراغة ، يعني جريرا^(٣) . وقال ابن شبرمة : وقف علينا الفرزدق فقلنا له : أي الشراب أعجب اليك ؟ قال : أقربه الى الثمانين^(٤) . وقد عرف الناس طبعه ، فقال بعض آل مروان ، وقد نزل عليه الفرزدق وجرير : ما رأيت أسخى وأفجر من الفرزدق ، ولا أبخل وأعف من جرير^(٥) . بل إن الفرزدق يصرح بذلك تصریحا ، لا غمغمة فيه ولا التواء :

أما الزناء فإني لست تاركه والمال بيني وبين المرء نصفان^(٦)

وكانت قصيدة الفرزدق في ظمياء^(٧) من أوائل ما قاله في هذا الفن . فقد شهر بها ، ووصف ، ولم ينس أن يذكر شدة تعلقها به :

خلوت بها في الحرمل السهل نتتجي وأعيب ساعات النجي طروقها
ولم يسرف في الوصف ، ولم يطل ، فقد كان غرض قصيدته الهجاء . ويبدو في القصيدة ، جفاء الشاعر ، وغلاظة حسه ، ممتزجين بزهو بنفسه ، وتعالیه ، فسلك هذه الطريقة يهاجم بها أعداءه ، واتخذ من ظمياء التي

(١) النقائض : ١٠٤٨ ، الاغاني : ١٢ : ٨ ، ٣٨٩ : ٢١ ، اللسان (سعبر)
وسبقت الكلمة ، ص : ٢٦٢

(٢) الاغاني ٢١ : ٣٨٥ ، انساب الأشراف ١١ : ٤٥

(٣) عيون الأخبار ٣ : ١٩٨ ، الشعر والشعراء : ٢٩٣ - ٢٩٤ ، العقد

الفرید ٦ : ٢٩٥

(٤) أخبار القضاة ٣ : ١٠٣ ، العقد الفرید ٦ : ٣٣٥

(٥) انساب الأشراف ١١ : ٢٦٨ ، وسبقت الكلمة ، ص : ٣٥٩

(٦) الديوان : ٨٧٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٩٠

(٧) الديوان : ٥٧١ - ٥٧٣

يحبها وسيلة للتشفي منها حين أعرضت عنه ، وسيبلا للانتقام من أهلها • ولما مضى الشاعر الى المدينة ، وعاش في بيتها اللينة ، الحضرية ، المترفة ، يتردد على بيوت القيان ، يستمع الغناء ، وتعرف الى المرأة الحضرية التي أخذت بضروب الأدب ، وأتقنت فن الحديث ، ومطارحة الشعراء ، تقدم الفرزدق في فنه ، فإذا هو يحسن وصف هذه المرأة المترفة التي أعجبه دلها ، ونعمتها وحسن تغنيها ، مما لم يكن له به عهد^(١) • ولم يكن بد من أن يعود الى فنه الوليد فينميها ، ويسهر على تجويده ، فكانت ثمرته تلك الرؤية المطولة^(٢) ، اختار فيها لوجه امرأة متزوجة لشيخ من أشرف أهل المدينة ، ليدل على مقدرته في اغراء المرأة وشدة تصيبه لها • ثم أخذ يصف صعوده اليها بالحبال ، وتخوفه أن يكشف أمره ، وكان صادقا كل الصادق في ذكر مخاوفه :

فلم أر منزولاً به بعد هجعةٍ الذِّقْرِىَّ لولا الذي أنا حاذره
أحاذر بوابين قد وكلا بنا واسمر من ساج تصر مسامره
فقلت لها كيف النزول فإنني أرى الليل قد ولى وصوت طائرهِ
فقلت اقاليد الرتاجين عنده وطهمان بالأبواب ، كيف تساوره
أبالسيف ، أم كيف التسني لموثق عليه رقيب دائب الليل ساهره
فقلت ابتغي من غير ذلك محالة وللأمر هيئات تصاب مصادره
فلم يتباه تباهي امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، وأنتى له ذلك وهو فرد غريب ، فار من وجه سلطانه ، لاعز من سلطان ، ولاجاه من عشيرة ، وقد بلغ من مخافته ، واضطرابه ، أن أثار سخرية المرأة به ، فإذا هي تعرض له بالسيف يتصدى به لاعدائه ، وهي لم تقل مقاتتها صادقة ، فالمرأة أحرص على الستر ، ولكنه الخوف البادي وضع على لسانها ما وضع ، لترى مايفعل هذا الفاتك القروقة ، فإذا هو يبتغي وجه الحيلة

(١) الديوان : ١٨٠ ، ٨٢٦

(٢) الديوان : ٢٥٥ - ٢٦٢

لنزوله ، ويهتدي إليه ، أن يهبط كما صعد ، واستعانت المرأة بضرتها ، وهو يوصيهما بما تفعلان ، فيلحف في التوصية ، لئلا يعرف أمره ، أو يكشف ستره :

فقلت اقعدا إن القيام مزلة وشدا معا بالجبل إني مخاطره
إذا قلت قد نلت البلاط تذبذبت حبالى في نيق مخوف مخاصره
فقلت: ارفعا الأسباب، لا يشعروا بنا ووليت في اعجاز ليل أبادره
لقد رقي الشاعر بفنه الى الذروة ، وكان صادقا في تصوير لذته ، ومخاوفه
وأعانه في تصويره تجويده فن الحكاية والقص ، وقدرته أن يصف وأن
يحاور ، ولكن حب الشاعر لنفسه ، وإيثاره إياها ، كاد يجعل حديثه
مقصورا على ما أتى به ، ولم يضع على لسان المرأة ما يصف عواطفها ،
وشغفها به ، وهو تقصير عجيب ، لا تقع عليه فيما قاله امرؤ القيس ، وعمر
ابن أبي ربيعة • إن الفرزدق القصير القامة ، الجهم الوجه ، ما زال بعيدا
أن يتقن لغة النساء ، وأن يتحدث بلسانهن ، أو يروي محاوراتهن إياه •

وتعددت صور الشاعر في هذا الفن ، يريد أن يباري به شعراءه ،
وفي قصيدة فخر فيها على نفر من بني مازن حثتوا إبله حين ورد بها سفار
استفتح قصيدته بذكر سرب من النساء ختلها كما يختل الأطباء :
وسود الذرى بيض الوجوه كأنها دمی هکر، ينضحن مسكا وعنبرا^(١)
إن خيال امرئ القيس لا يكاد يفارقه ، وإنك لتحس بأن صوت الشاعر
الجاهلي يطالعك بقوله القديم :
هما نعجتان من نعاج تباله لدى جؤذرين، أو كبعض دمی هکر^(٢)

(١) الديوان : ٣٥٣ - ٣٥٥ ، وسفار (بوزن قطام) : منهل قبل ذي
قار ، بين البصرة والمدينة ، وهكر (بفتح أوله وكسر ثانية) : موضع على نحو
أربعين ميلا من المدينة ، وحصن باليمن من أعمال ذمار (معجم البلدان -
سفار ، هكر) .

(٢) ديوان امرئ القيس : ١١٠

ويمضي الفرزدق يبين مسيرة النساء يخرجن للقاءه، خائفات أن يعرف مكانهن:
وقلن لها يا هند لا تبعدي بنا فإثنا نخاف الليل أن يتقنرا
علينا، ونخشى الناس أن يشعروا بنا فيصبح ما نخشى علينا مشنرا
إنه قد بدأ يتعرف الى نفس المرأة ، ويصف مشاعرها وخوفها ، وتردها
في الشيء ترغبه ، وهو بارع في وصف العودة ، وما احتالت به النساء ،
يخفين الأثر ، ويضلن المتقفر :

تعلن أطراف الرياط وواءلت مخافة سهل الأرض أن يتقرا
ألس ترى ان الشاعر يقتفي آثار سلفه الجاهلي في قصته :

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل (١)
ولكنه اقتفاء الشاعر الصنع ، ذي الموهبة ، يخط لنفسه طريقه ، إنه يعبر
عن نفسه الجائعة الى المرأة ، الظمأى الى حديثها ، ومجلسها « ولا مجلسا
أحلى حديثا وأنصرا » • انها تعيش في خياله وحسه • ولئن لم تتح له
متعة قدوته الجاهلي ، لقيود الدين ، وتغير العصر ، وقبح الخلقة ، إنه
أشد تعلقا ، وأبلغ رغبة ، يجعل من فنه وسيلة ارتواء ، وواقع حلم •
فالشاعر قادر بفنه ان يخلق الحياة ، ويعيد صورتها على هواه • ومن هنا
نراه لا يكتفي بأشعاره ، بل هو يضيف اليها براعة في صوغ الاحاديث
يحوكها حول صلته بالمرأة ، وما يقوم بينه وبينها (٢) إنك لتحس أن
الشاعر يجد لذته الخبيثة ، ومتعته ، أن يخدع الرجال ، ويغري زوجاتهم ،
وهو يفتن في طريق الخداع ، لا يدع طريقا لا يسلكه ، إنه يتزيا مرة زي
شيخ من الزهاد ، ملك عليه النسك أمره :

قرأت عليه سورة الكهف واقفا ليأخذ فيه الحلم ، والجهل شامله
وأطرقت اطراق الشجاع ، وشمرت عن الساق تشميرا رقيقا ذلاذله

(١) ديوان امرئ القيس : ١٤

(٢) أنساب الأشراف ١١ : ٤٢ ، ولعل القصة بينه وبين النسوة التي

قدم بها بين يدي حديث دارة جلجل ، من صنعه .

حتى إذا أرضى الشيخ، وأقنعه بتقواه وورعه، نصب شباكه، وأرسل حبائله: فبت لها في مرصد كنت أدري به الوحش، لا تخشى عليّ غوائله (١) وهو يتزياً مرة أخرى زي طبيب، فيتظاهر بمداواة عيني زوجها لتكون قريبة إليه، في ذلك المقطع الجميل الرائع، الذي بلغ واحداً وثلاثين بيتاً (٢)، كانت مطلع ملحمته الفائية، المعدودة إحدى ذراً شعره، وهي مما قاله في عهد سليمان، وكان قد دلف إلى الثمانين •

ذكر في البدء حدراء الشيبانية، التي أحبها، وما يحوطها من ترف ونعمة، هما في الحق يمثلان ما يجب الفرزدق أن تكون عليه المرأة • وضم إليها صورة النساء الجميلات الغفيفات، يحسن الحديث « كأنه جنى النحل، أو أبكار كرم يقطف » •

يحدثن بعد اليأس من غير ريبة أحاديث تشفي المدنفين وتشغف والفرزدق شغوف بالحديث، يهوى سماعه، ويحسن سرده، فهو قادر على تذوق أطايبه، وما أكثر ما أطرى أحاديث النساء في أشعاره، وما أكثر ما أطرين حديثه، وشغفن به • ولما بلغ من وصفهن ما أراد، عطف يذكر تلك المولعة به تدعوه، وهي مجبوسة في قصرها المشرف، دونه دروب وأبواب وحرس مسلحون وكلاب ضارية تمزق من مر بها • انها المبالغة التي ترضي خيال الشاعر، وتمثل صورة المرأة التي تختاره لتؤثره بحبها وقلبها، فإن حاك في صدرك أن تسأل: وكيف بادلته الحب، وأنتى له بها، أجابك الشاعر هذه الاجابة الحاضرة، الساذجة:

يلغنا عنها بغير كلامها الينا من القصر البنان المطرف
انها عقدة القصة، التي هيأ لها الشاعر، والتي تبعث في سامعه التطلع لمعرفة المصير، وها هو ذا يسير بك بعد في طريق الحل، يدعورب السماوات ليشغل بعلمها بزمانة، ويستجاب دعاؤه، فيصاب الرجل في

(١) الديوان : ٦٥١ - ٦٥٢

(٢) الديوان : ٥٥١ - ٥٥٦

عينيه ، ولك أن تتأمل هذا الخيال الساذج ، ويأتي الشاعر في زي طيب
يداويه عامين « وهي قريية ، أراها ، وتدنو لي مرارا فأرشف » ويتدفق
به القول الى التشبيه الذي أطال النقاد في عيه :

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نرد على منهل الا نشل ونقذف
كلانا به عر يخاف قرافه على الناس ، مطلي المساعر اخشف

ويخفف من وقع التشبيه ، على قبحه ، أن ترى الايات اللاحقة تدل على
أنه لا يبغي من ورائه الا الوحدة والافراد ، فقدتالت أمان انسانية ، لاصلة
لها بالتشبيه الاول ، حتى كأنه لا يعنيه :

بأرض خلاء وحدنا ، وثيابنا من الريط والديباج درع وملحف
ولا زاد الا فضلتيان : سلافة وأبيض من ماء الغمامة ، قرقف
وأشلاء لحم من جباري يصيدها اذا نحن شئنا صاحب متألف (١)

انها أماني العيش التي يريدها ، يتفتى فيها تفتي الفتيان ، وهو على رأس
ثمانين • وإن المرء ليدهش لهذه المقدرة التي يملكها الشاعر فتطوع له
اللغة القوية الجزلة ، فاذا هو يقص بها ويحكى ، ويصف متنقلا من فن
الى فن ، لاتنهر قواه ، ولا يضعف قوله ، واذا كانت القصة التي حكاها
ساذجة ، يبدو العمل فيها ، فحسبها أن تدل على ما في نفس الشاعر من حب
للمغامرة ، وميل الى اللذة ، لم يستطع في حمى الدين أن يرويها ، فأخذ
يصوغ الحانه ، يتغنى فيها أمنياته ، ويحكى ما يرغب أن يصنعه • وكان
جرير ينتهز أمثال هذه الأوصاف ليندد به ويفضحه (٢) •

ويبدو عجباً عجباً أن الشاعر اتخذ من هذا الفن مقدمات يستهل بها
مدائح الى الخلفاء ، وكان يحتال لما يقول افانين الحيل • مدح الوليد
ابن عبد الملك فاستفتح بذكر منام عرض له بسلمى :
فباتت لي واحسبها حلالا وبت لها كمحتضن الخصور

(١) العمدة ٢ : ١٢٠ - ١٢١

(٢) ديوان جرير : ٤٣٦

فإذا تم له ما أراد من التصوير والوصف ، بين أن لا أثم عليه مما قص ،
ووصف ، لانه يذكر حلما مر به ، أيقظه منه نداء المؤذن :

فلما للصلاة دعا المنادي نهضت ، وكنت منها في غرور^(١)

ولما أقبل يمدح يزيد بن عبد الملك ، كان قد تقدم به العمر ، وأربنى على
الثمانين ، فعدا في السن التي يضعف فيها المرء ، وتنحل قواه ، فيلطف نسيه
ويعذب ، وتعف صورته ، فتغدو ذكريات لأيام الشباب ، حلوة ، ولكن
الفرزدق يمضي في طريقه اللاحب ، لا يريد أن يبعد عنه ، ويجعل مطلع
مدحته احدى مغامراته التي أعد لها عدته ، فهو يقص قصة رسوله وقاع
الذي ذهب برسالته فاذا هو رسول ماهر رفيق بحاجته ، حسن التأتي
لها :

يزيد على ما كنت أوصيته به وإن ناكرته لان ثمت انكرا^(٢)
ويمضي الفرزدق في وصف ما كان بينه وبين المرأة ، مصرحا لا يجمع
في الصفة ، ولا يوارى . انه منهوم بالنساء ، لا يشبع منهن ، ولا يروى :
فلو أن احداهن مرت بجثوتي فنادت ، لحركت القلب المعورا
ولو أنها تدعو صداي أجابها صداي لعهد بعدها ما تغيرا
ولعلك تذكر أن مثل هذا المعنى رده الشعراء ، واقربهم الى الذاكرة
توبة بن الحمير العقبلي العامري الذي كان يتعشق ليلي الأخيلية العامرية ،
وينسب بها ، وكان مما قاله :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت علي ، ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقا اليها صدى من جانب القبر صائح^(٣)
ولكن إطار القصيدة يجعل البون شاسعا بين ماأراده توبة ، ومارمى اليه

(١) ديوان الفرزدق : ٣٤٩

(٢) الديوان : ٤٢٧ - ٤٣٢ ، وانظر ما سبق (ص : ١٨٢) .

(٣) الاغاني ١١ : ٢٤٤

الفرزدق ، في الدلالة النفسية • ثم يبدأ الفرزدق الحوار ، يدافع به عن لهوه واصراره عليه ، لا ينهاه عن طلبه شبيهه ، وكبر سنه ، ويمر في المحاوراة ليضع على لسان المرأة الوالهة كلمات تمثل الاشفاق ، والتردد ، والتعلل ، وكأنها ترجوه أن يرفق بها ، بعد أن وقعت في حباله ، بسحر حديثه الساحر :

فلو قلت لاروى على شعفاتها كما قلت لي همّت ضحى أن تحذرا
 فإذا أتمم مقالة المرأة تعتذر لنفسها من سقطتها ، عاد يعتذر لنفسه أن جهل
 على هذه السن العالية، اعتذارا يستمده من أخبار زهاد الصحابة ، وأنبياء الله:
 فلو أن ذرا أو أباه رأى التي رأيت ابت عيناه أن تتأخرا
 إذن لرأى مثل التي ظل راينا الى فرعها داود حتى تحذرا
 اليها من الحراب، وهو على الذي يفصل فيه كل شيء مسطرا

لقد وفر الشاعر لقصيدته عناصر جمالها ، فأحسن الحكاية ، وتصوير الاشخاص ، بأن ينتقي التعبير الزاخر بالمعاني ، الموحى بالصفة « يزيد على ما كنت أوصيته به » أو أن يترك الشخصوص تتكلم بما ينبىء عن ضمائرهما ، وما يعتمل في أنفسهما ، مثل ماوضع على لسان المرأة ، فدل على ازدياد معرفته بها ، وألفه لها ، وانه قد اختلف اختلافا بعيدا عما كان عليه في باديته ، أو يوم أقبل الى المدينة ، عمقت تجربته ، وقويت ملاحظته ، وازداد تمكنه من فنه ، وقل زهوه ، فصار يظهر لها ما به من هيام ، ما كان يتحدث به كثيرا من قبل • وكانت لغته سهلة ، بينة ، على جزالتها ، وهو ينبىء بمقدرة الشاعر أن يعالج مثل هذا الفن الجميل ، فلا تعجزه السهولة ، على ما عرف به من قوة في التعبير ، وجزالة •

وكانت خاتمة مطافه في هذا الفن ، ما قدم به بين يدي مدحة هشام ابن عبد الملك^(١) ، وقد احتفل لذلك وتهياً ، وأطال في الدقائق لا تقوته

(١) الديوان : ٨٣٥ - ٨٣٧ ، النقائض : ١٠٠٤ - ١٠٠٨

واحدة • لم ينس رسوله الذي اختاره أسود لا يلتفت إليه ، من المتلقّطي
 قرد القمام ، ولم يرض بواحدة تبادله الحب ، بل اختارهن ستا ، سود
 الشعور ، عذاب الثغور ، بيضا كالدمى ، يمشين خوائف ، فنال منهن
 بغيته ، وقد دفعه حس الشيخوخة أن يؤثرهن صغيرات السن ابكارا
 يصرعهن بنفسه ، وكان تعبيره فاحشا ، فاضحا ، أيكون هذا صدى
 اخفاقه وعجزه حين أقبل الى طيبة ، فصدت عنه ونأته ؟ لا أستطيع أن اقطع
 بذلك القطع الأكيد • ان التوفز الجنسي يبدو في شعر الفرزدق وكأنه
 أبرز ما يعنيه • انه لا يكف عن ذكره وتمنيه^(١) • مهما يكن من شيء ،
 فالشاعر كان يريد أن يبذ امرأ القيس ، وان يتفوق عليه • انه لم يستطع
 أن يخفي ما يحيك في صدره ، فأفضى به صريحا لا مواربة فيه ولا التواء :
 فلو أن امرأ القيس بن حجر ودارته معي لرأى غرامي
 له منهن ، إذ بيكين ألاءً بيتن بليلة هي نصف عام
 ألا ترى أنه يباري امرأ القيس ، ويريه أنه أوفر منه حظا لدى النساء ،
 ألم يكن امرؤ القيس الفتى العاشق المعشوق ، ربيب الملك والسلطان ،
 يسبي النساء بسلطانه وحسنه ، « وكان جميلا وسيما » ثم لا يلبث أن
 يضقن به وينادينه في جوف الليلة الظلماء : أصبحت • فما هو ذا الفرزدق
 القصير القامة ، الجهم الوجه ، يستهوي النساء ، فيتمنين ان تطول ليلتهن
 حتى تكون نصف عام • انه يدل عليه برجولته وفحولته • ويمضي يصف
 هيام النساء به ، وشغفهن حتى يبلغ من ذلك غايته ويروي ظمأه :

وهنّ الي مثل مُحَلّاتٍ يرين الماء في لهبان حامي
 وتصفعه الحقيقة المرة ، انه شيخ طاعن في السن ، يحوم على التسعين ،
 فعاد القهقري ، يصور سخرية الغايات من شيخ هم فان ، ولكنه يتشدد
 أمامهن ليذكر ما كان له من مغامرات أيام شبابه :

(١) الديوان : ١٠٥ ، ٣٠٨ ، ٨٧٤ ، الاغاني ٢١ : ٣٤٢ ، النقائض :

١٠٤٣ ، أنساب الأشراف ١١ : ٧٢

فان يضحكن او يسخرن مني فاني كنت مرقاص الخدام
ولعل الفرزدق يبدو في هذا الفن فذا فريدا في عصره . قال ابن سلام :
« من الشعراء من كان يتعهر في جاهليته ، ولا يبقني على نفسه ،
ولا يستتر ، منهم امرؤ القيس ، ومنهم الاعشى ، وكان الفرزدق أقول اهل
الاسلام في هذا الفن » (١) . حتى غدا مثلاً يضرب . قال المعري :
ولم أكن ورسولي حين أرسله مثل الفرزدق في ارسال وقاع (٢)
وإني أحس أن دراسة هذا الفن دراسة نفسية متأية متنبعة ، تستطيع
أن تكشف اشياء كثيرة من خبيثة نفسه ، وتجعلنا ابصر بها ، واقوى على
فهمها .

وعانى الفرزدق الغزل الذي درج الشعراء أن يستفتحوا به
قصائدهم ، ولكنه لم يكثر منه اكثرهم . كان لا يستجيب له طبعه ، فكان
يضيق به ، ويؤثر أن يمضي الى غرضه ، دون ان يقف عنده ، إن النسيب
يتطلب رقة الالفاظ وعذوبتها ، وحسن التشكي والصبابة ، وبث الاشواق ،
مما يجده المحب . ولم يكن في طباع الفرزدق ، وجفاء خلقه ، ومتانة
شعره ، ما يتيح له أن يقول فيه ، فيحسن القول . فكان اذا استفتح به
ير عجلا ، لا يتشكى صباية ، ولا يث وجدا . فكثرت أن تكون
مطالعه الغزلية بيتا (٣) ، أو بيتين (٤) ، أو ثلاثة (٥) ، أو
أربعة (٦) . وقد تجاوزها حين يمتد به القول حتى تبلغ سبعة أبيات (٧) كأن

(١) طبقات ابن سلام : ٣٤ - ٣٨ ، الموشح : ١١٣ - ١١٤ ، اللسان
والتاج : (نعا) .

(٢) شروح سقط الزند : ٧٦٠ .

(٣) الديوان : ٢٧٣ ، ٣٤٧ ، ٤٢٣ ، ٦٧٤ ، ٨٢٢

(٤) الديوان : ٣ ، ٧ ، ٥٢ ، ٧٤ ، ٢٦٢

(٥) الديوان : ٥٣ ، ١٦٨ ، ٤٠٤ ، ٤١٧ ، ٦٢٨ ، ٦٥٤ ، ٦٦٦ ،

٧٦٩ ، ٦٨٥

(٦) الديوان : ٢١٩ ، ٢٨٦ ، ٦٦٠ ، ٧٥٤

(٧) الديوان : ٢٣ : ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٢ ، ٤٨٩ ، ٦٧٨ ، ٨٠٨ ،

٨٣١ ، ٨٥١ ، ٨٩٠

يتحدث عن الاطلاع ، حيث تسعفه مقدرته على الوصف والتصوير ، او يذكر شييه ، وما ناله من تعبير العذارى ، ويتحسر على أيام الشباب ، ويصف ما هاج به من أشواق • وكانت لهجته تعذب قليلا ، وهو يبكي شبابه ، تلذعه لوعة ذكراه • كان صادق الالم ، يحس فقد شبابه احساسا موجعا ويبرع في تصويره :

فلم أر كالشباب متاع دنيا ولم أر مثل كسوته ثيابا^(١)
ولكن الفرزدق قد اطال القول في طائفة من القصائد ، استجابة لفورة عاطفية استبدت به ، او نازعة فنية دعته ، كأن يتشوق الى ظمياء التي احبها ، أو نوار التي اضطر الى فراقها راحلا وافدا ، او طريدا هاربا ، أو أمثالهما ممن عرف وأحب^(٢) وكان الفرزدق يؤثر التصريح بأسمائهن لا يميل الى الكناية الا قليلا ، فتراعت في نسيه الى جانب ظمياء ، والنوار أسماء أزواجه : حدراء الشيبانية ، وطيبة المجاشعية ، ورهيمة النمرية ، وسويدة، ومفداة، ووقعة أم مكية، وأسماء أم الهيثم الناجية، وجبيرة النهشلية، والملاءة الحرشية العامرية أجمل بنات عصرها ، وابنتها عاتكة ، وضبرم البرجمية ، وزينب الأسدية ، وكلهن معروفات ، مشهورات في عصرهن ، وقد يكنى عنهن بسكينة ، وأسماء ، وفاطمة ، وسلمى ، وهند ، وليلى ، وتماضر ، ومهدد ، والجنوب ، ومية ، وسعدى ، وعلية ، وامية ، وأم أعين • واطول ما احتفل له من نسيه ، يقدمه بين يدي قصائده ، ست قصائد : ثلاث منها كن مقدمات في نقائضه • فقد نسب بجبيرة النهشلية في مقدمة نقيضته : ذات الاكارع ، التي هجا بها آل جعفر ، نسيبا بدويا جميلا^(٣) ، وقف على منازلها التي عفتها الريح ، وتذكر أيام عمرانها وأهلها ، ومضى ينعت جمال حبيته : اناة كرائم الرمل ، تنام الضحى لترفها ، قد طال شعرها ، فاذا ارتدته كاد يعطفها كثرة وكثافة • ثم وصف

(١) الديوان : ٨٩

(٢) الديوان : ٢٢٥ ، ٣٠٢ ، ٧٤٥ ، ٨٩٥

(٣) النقائض : ٥١٢ - ٥٢٠

ما يلقاه من فراقها ، بكى حتى خاف على بصره من تذراف الدمع ، فعينه تتفجر كل عشية • واسترجع يوم الفراق ، وهو يكر البصر يتتبع طريق رحيلها ، حتى ينقلب البصر حسيرا ، تحجبه « هذا ليل بطن الراحين وقورها » • فلا يرى بدا من ان يعود الى نفسه يسائلها ، أين تمضي الحبيبة ، وأي الاماكن تختار ؟ • اتقصد شاجنا ، أم تحل بفلج ؟ وكأنه يتلذذ بذكر هذه المواضع التي احبها لحب من تحل بها • إنها لون خاص من الجمال ملك على الشاعر قلبه ، وعزته على نفسه ، فاذا هو يشبهها بكرة يتيمة ثمينة ، اندفع اليها غواص ، ومضى يصف الدرّة والغواص على نحو ما يأتي في بحث الوصف • وقد أحيا بهذا اللون من التشبيه النمط الجاهلي الذي كان عبده النابغة وأمثاله ، فبدا جميلا ، زاد من روعته هذا الاطار البدوي الذي أضفاه الشاعر على نسيه • ولاءم الجو البدوي الذي أشاعه الشاعر الأسلوب الجزل القوي ، فكان قريبا الى النفس ، لا غربة فيه • وهذا من روائع الفرزدق ، وحسن تصرفه •

ونقيضته الثانية التي اطال النسيب في مقدمتها هي ملحمتة الفائية الشهيرة^(١) ، وكان يتغنّى بحدراء الشيبانية التي خطبها ، ورأى في اتمائها الى بيت ذي الجدين ما يكافىء شرفه ونسبه ، فراح يصف محاسنها ، تنتبه من نومة الضحا ، فتجلو عذاب الثنايا ، وعليها درع خز ومطرف • ويمضي الى وصف النساء يحركن القلوب بجمالهن ، كأنهن مها تذهب وتجيء يزينهن الحياء ، وبراعة الحديث ، والعفة ، وينعمن بالنعمة ، فيرقدن بالضحي ، ويرتدين الفرند الخسرواني فعل المترفات • وينتقل بعد ، ليصف قصته مع صاحبة القصر ، وقد سبق حديثها • (ص ٣٧١ - ٣٧٢) •

وبدأ النقيضة الثالثة^(٢) بنعت الأطلال ، وذكر الجيلات اللائي

(١) النقاوض : ٥٤٨ - ٥٥٥

(٢) النقاوض : ٨٦٦ - ٨٧٠

حللن بها كأنهن صوار • وراح يصف عفتهن وادبهن حديثا جميلا ، تأنس به النفس :

يأنس عند بعولهن اذا التقوا وإذا هم برزوا فهن خفار
شمس إذا بلغ الحديث حياه وأوانس بكريمة أغرار
وكلامهن ، كأنما مرفوعه بحديثهن ، إذا التقين ، سرار

إنها صورة المرأة العربية التي تغتنى بها شعراء النسيب والبادية • وأثارته الأشجان فأخذ يتخيلهن راحلات ، يتبعهن بصره ، ويتلمس أحداجهن يرفعها الآل في الظهيرة كأنها النخل ، وطال حنينه ، وهاجت به صابته ، فإذا نوار امرأته تعبت عليه هذا الجزع ، وتناله بلسانها :

وتقول : كيف يميل مثلك للصبا وعليك من سمة الحليم عذار

والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانيه نهار

وقد وقف النقاد طويلا عند بيته الاخير ، لجمال تشبيهه وحسن تأتية فقالوا : هذا أوضح معنى ، وأعذب لفظ ، وأقرب مأخذ (١) ، ويضم الى ذلك ، الجمال الذي يمور به بيتاه ، في تصويرهما الحزن والأسى اللذين عبر عنهما الشاعر ، وهو فقدان شبابه •

وللفرزدق قصيدة كادت تكون خالصة للغزل ، لولا ماختمها به من أبيات في الفخر (٢) ، كان يريد أن يتزيا فيها زي الفرسان المحبين ، الذين يتغنون حبهم ، وفروسياتهم ، فحالفه سوء الطالع ، منذ بدأ فقال :

يا أخت ناجية بن سامة إنني أخشى عليك بني إن طلبوا دمي

فخرج الى أجنفى القول وأقبحه ، وعيب عليه وقالوا : ماللمتغزل وذكر الاولاد ، والاحتجاج وطلب الثارات (٣) • والعجب أن الفرزدق أعاد

(١) الكامل للمبرد : ١٨

(٢) الديوان : ٧٧٨ - ٧٨٠

(٣) العقد الفريد ٥ : ٣٤٥ ، الموشح : ١٠٤ ، ١١٥ ، اعجاز القرآن

للباقلاني : ١٧٦

معنى الثأر في عدة مواضع من نسيبه ، دون أن يلفظ من محتواه الدموي .
وقد مضى الفرزدق في قصيده ، متكلف القول ، يحاول أن يتفقه ويتعالم
فكثر الالتواء في أسلوبه ، والتصنع في معانيه :

فإذا حلفت هناك إنك من دمي لبريئة فتحللي لا تأثمي
وتروقه المعاني الفقهية فيمضي فيها لا يحس ما في شعره من ثقل ، وتكلف
واصطناع ، وبعد عن روح الفن ، فإذا هو يطالعك بكلام مغسول ، لا رواء
له ، ولا بهجة ، كأنه من شعر الفقهاء المنقطعين الى الحجاج والمناظرة :
فلئن سفكت دما بغير جريرة لتخلدن مع العذاب الألام
ولئن حملت دمي عليك لتحملين^١ ثقلا يكون عليك مثل يللم^(١)
وتطيف بالشاعر أخلاق الفروسية ، وتساوره أحلامها وأخيلتها ليدل بها
على وفائه في الحب ، وتعرضه للمخاطر في سبيله ، لا يحجزه عنه حاجز مهما
عظم ، فلا يجد غير هذه الصورة الساذجة :

لو كنت في كبد السماء لحاولت كفاي مطلعاً اليك بسلم
وأدى التكلف البين في المعاني ، واصطناع الحجج الى التواء الأسلوب
وتعقده ، فالألفاظ قلقة ، لا تستقر في مواضعها « إن أنت زفرة عاشق لم
ترحمي » :

فالموت ارواح من حياة هكذا إن أنت منك بنائل لم تنعمي
فنبو الكلمة « هكذا » بين . واضطراب الالفاظ عن مواضعها في الشطر
الثاني واضح ظاهر . والقصيدة بمجموعها مثل لثقل روح الشاعر ، وجفاء
طبعه ، وغلظ حسه ، ولعلها أسوأ ما أتى به في باب الغزل .
وفي نسيبه الذي افتتح به مدحة هشام^(٢) ، تبدو محاولة الشاعر

(١) يللم (بفتح أوله وثانيه) : جبل على ليلتين من مكة ، من جبال
تهامة ، وأهله كنانة ، تنحدر أوديته الى البحر ، وهو في طريق اليمن الى
مكة (معجم ما استعجم) .

(٢) الديوان : ٧٨٢ - ٧٨٤

أن يستوحى امرأ القيس ، فيختار لمن ينسب بها اسم فاطمة ، التي اختارها
امرؤ القيس لمعلقته ، ويسلس له القول قياده ، ولا يلبث ان يعود الشاعر
الى تكلفه وثقله ، حين يفاوض حبيته مفاوضة بائع يغري بالربح ، وكأنه
أثر لغرور الشاعر وذهابه بنفسه :

فلو بعثني نفسي التي قد تركتها تساقط تترى ، لافتداها سوامها
لأعطيت منها ما احتكمت ومثله ولو كان ملء الأرض يحدى احتكامها
ويمضي في شعر متكلف يشوبه الغموض والتعقيد ليقول :

لقد ضَرَبَتْ لو أنه كان مبقيا حياة على أشلاء قلبي سهامها
قد اقتسمت عيناك يوم لقيتنا حشاشة نفسٍ ما يحلّ اقتسامها

فيطالعك امرؤ القيس بوجهه حين يقول في معلقته :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل (١)

على فرق ما بين الأسلوبين ، ولا يلبث الفرزدق ، وهو ماض في نسيه العف ،
أن يفجأ قارئه باندفاعه الحس الغريزي ، لا يستطيع كته :

ألا ليتنا نمنا ثمانين حجة تام معي عريانة وأنامها
ضجيعين مستورين والأرض تحتنا يكون طعامي شمها والتزامها
ولكنه يعود الى تشبيب ، أقرب الى التكلف ، لا يكاد يرق ويعذب إلا
في مثل قوله :

فهل أنت إلا نخلة غير أنني أراها لغيري ظلثها وصرامها
وافتح الفرزدق مدحة يزيد بن عبد الملك بنعت الطيف (٢) ، فعذب نسيه
ورق ، فقد عمد الشاعر الى وصف أصحابه في الصحراء ، وكيف تخطى
خيال هند المسافات الشاسعة ، يخوض الصحارى يحمل اليه غضا عاج ،
وريح الخزامى ، ومرء به القول الى ذكر الشيخوخة ، وما بدلت من حاله :
وأصبح رأسي بعد جعدٍ كأنه عناقيد كرم ، لا يريد الفواليا

(١) ديوان امرئ القيس : ١٣

(٢) الديوان : ٨٨٨

كأنني به استبدلت بيضة دارع ترى بحفا في جانبه العنصيا
وقد كان أحيانا إذا ما رأيتَه يروع كما راع الغناء العذاريا
وفي التشبيه الأخير جمال أتى من قدرة الشاعر أن يربط بين المنظور
والمسموع ، مستوحيا الأثر النفسي ، في تشبيهه ، لا مجرد المحاكاة
والمشابهة .

ويحتل الطيف ، مكانة في نسيب الفرزدق ، فقد أفرد له طائفة من
مقدمات قصائده ، وكان يطيل فيه أحيانا ، ويمتد به النفس ، لأنه يعمد
فيه الى الوصف والتصوير ، فينجو من الضيق الذي يلزمه به ذكر لواعج
النفس ، وعواطف القلب ، ويتيح له ذلك أن يبدو أكثر توفيقا ونجاحا (١)
وقد يرق لفظه ويعذب جرسه ، فيحلو غناؤه ، ونجواه ، فعله في مقدمة
مدحة المهاجر بن عبد الله الكلابي (٢) .

وللفرزدق مقطعات في الغزل كان يستروح بذكرها ، وهي على قصرها ،
أصدق تصويرا ، وأرق أسلوبا ، لأن الشاعر لا يتكلف لها ، ولا يضيق
بها ، فمرة يصف تكره العذارى مجلسه ، وقد شاب رأسه وكبرت سنه ،
ومرة يصف حبه سكينه ، وقد يذكر طروق النوار معرسه في الصحراء
البعيدة :

فجاءت كأن الريح حيث تنفست بأرحلنا نوارها وحديقها (٣)

وتعددت أوصاف الطيف في مقطعاته ، ولعلها من أجمل مقطعاته .

وبعد ، فإن الفرزدق لم يكن في طبعه ، ولا في أسلوبه ما يقوى به
أن يجلّي في هذا المضمار ، فقصر عن جرير أشواطا ، ولما قال الفرزدق

(١) الديوان : ٣٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٦٦ ، ٣٩٧ ، ٤٣٩ ، ٥٣٢

(٢) الديوان : ٣٩٧

(٣) الديوان : ١٦٢ ، ٥٨٩

لامرأته نوار : « كيف رأيتني وجريرا » ؟ قالت : « رأيتك ظلمته أولا ،
ثم شغرت برجلك آخرا • ورأيتنه شاركك في مرّ الشعر ، وغلبك في
حلوه » (١) •

(٢)

الوصف :

قامت شهرة الفرزدق عند النقاد الأقدمين على أنه شاعر الفخر الأول
في العصر الاسلامي ، وعلى أنه جلس في فن الهجاء ، فلم يجاره في ميدانه
غير جرير • وكان الفرزدق يحس نحوا من هذا ، فقد أنشده ذو الرمة
قصيدة من رائع شعره ، ولما أظهر الفرزدق رضاه عما أتى به شاعر
الفلوات قال له ذو الرمة : فما لي لا أعد في الفحول من الشعراء ؟ قال :
يمنعك من ذلك ويتقاعد بك ذكرك الأبعاد ، وبكاؤك الديار (٢) • ولكن
الدراسة الناقدة المتأنية تبرز من الفرزدق شاعرا من أولئك الشعراء
الوصافين المصورين الذين تفتحت حواسهم على الدنيا الواسعة من حولهم ،
وتوتقت بالطبيعة صلاتهم ، لم يستغرقهم تأمل أنفسهم ، أو التغني بلواعج
عواطفهم ، بل كانوا يرسلون الطرف يرتاد في جنبات الحياة ، وقد أرهفوا
حواسهم ، فزالت بينهم وبين الطبيعة الحواجز ، فإذا هي تحدثهم أحاديث
عذبا يسمعونها ، وتكشف لهم عن ثرائها الثر المتدفق ، فيرون ما لا يرى
غيرهم ، ويفطنون الى ما خفي على سواهم من مباحجها ، وحياة الأحياء
فيها ، فإذا شعرهم ألواح فنية ، رائعة ، قد انتزعوها من الحياة المتكررة
الرتيبة ، لتخلد على مر الزمن تزيد من ثراء الإنسان ، ترهف حواسه : إذ
تفتح عينيه على أشياء ما كان له أن يراها ، وتسمعه من الطبيعة أحاديث

(١) فحولة الشعر : ٣٩ ، الموشح : ١٠٦ ، أنساب الاشراف ١١ : ٤٦ ،
وقد سبقت قولة النوار ، (ص : ١٥٢ ، ٣٢٣) .
(٢) الاغاني ١٧ : ٣١٨ ، الموشح : ١٧٢ - ١٧٣ ، ديوان الفرزدق : ١٤٧

ما كان لاذنه أن تسمعها ، وتغني قلبه بفيض يقوى به أن ينطلق من إيسار
نطاقه المحدود ، ليحتضن الحياة بألوانها كلها ، حيث تسقط الأستار ،
وتلغى الحواجز ، فلا يحس الانسان بعد ، أنه نوع متميز غريب عما حوله ،
وحيد متفرد لا شبيه له ، بل يحسّ ما بينه وبين الأحياء الأخرى من آصرة
قربى وصلة مودة •

لم يرتب شعر الفرزدق ترتيبا تاريخيا يسعف الناقد الدارس أن يتبين
تطور هذا الفن الواصف ، وما أصابه على المدى الطويل من تبدل ، كان
لا بد منه ، حين ألت بحياة الشاعر أحداث دفعته أن ينزلق في ميدان الهجاء ،
ويتوفر عليه ليحقق لنفسه الغلبة ، فكان أن نأى قليلا عن تنمية فنه في
التصوير ، وان يمضي به الى غاياته البعيدة التي كان مقدرها له أن يبلغها ،
ومن هنا كانت الحاجة الماسة الى الترتيب التاريخي الذي يسكن وحده
الناقد من الوصول الى أحكام قاطعة في هذا الميدان • وقد حاولت جهدي
أن استهدي بما انتهت اليه من تأريخ قسم من قصائد الشاعر ، وإن كنت
أحس أن ما انتهت اليه قل من كثير ، لا يشفي الباحث المتعمق •

وصف الفرزدق في أشعاره الصحراء وسرابها وطرقها وماءها وجبالها ،
والشتاء ببرده وصقيعه وريحه ، والربيع ورياضه ، والهاجرة وتلطيها ،
والليل المظلم ، والجذب والمجاعة ، والنار توقد للضيفان ، والقدرور ،
والنيل والفرات والبحر الزاخر تتلاطم أمواجه ، والدررة الثمينة وغواصها
المخاطر ، والسفينة ، والسجن ، والقيد ، والشيخوخة ، ووصف الابل
والخيل والصيد ، والركب المتعب الناعس ، والجيش والحرب ، والظبية ،
وحمار الوحش ، والمها ، والأسد ، والذئب ، والنسر ، والبازي ، والقطا ،
والحية ، والمرأة ، وهي ، كما ترى ، موصوفات استسدها الشاعر من مشاهد
الحياة التي تحيط به ، في باديته ، وبراها في حله وترحاله ، وما عاناه
وخره في حياته الطويلة ، ورحلاته الكثيرة •

ولم يفرد الفرزدق قصائد خالصة للوصف ، بل كان وصفه مندرجا في تضاعيف قصائده ، شأنه شأن كبار الشعراء المصورين ، من أمثال النابغة الذبياني في الجاهلية ، وذو الرمة في الاسلام ، الذين درجوا على أن يكون الوصف جزءا في بنية القصيدة يسلم الى غاية ، ويؤدي غرضا من أغراض الشاعر في قصيدته ، متبعين تقاليد الفن التي رسخت قواعدها ، وتحدد بها بنية القصيدة ، وأجزاؤها ، ووحدتها (١) .

ومن أوائل أوصاف الفرزدق ميميته التي قالها أيام فتوته وشبابه في هجاء مرة بن محكان الربيعي (٢) ، وهي تمثل شباب الشعر وفتوته حقا . ولم يحظ الهجاء الا بأبياتها القليلة الأخيرة وكان للوصف النصيب الأوفى . كان الشاعر يصف ناقته التي تحمله الى ديار محبوبته ، فشبهها بحمار وحشي يسوق أمثنه ، ومضى يصف الحمار وعاتته ، متتبعا أحوالها تتبع المراقب : يذكر رعيها العشب أيام الربيع ، في أودية الصمان ، « حول الخدادة » ، حتى إذا جاء الصيف بحره اللافح ، وذوى العشب ، اضطر الحمار الى الورد ، وأخذ يصف حيرة الحمار وتردده وهو يحاول أن يختار أسلم الموارد :

أضارجا أم مياه السيف يقربها كضارب بقداح القسم مأموم

وقر قراره ، فمضى يقودها ، ينفي عنها الجحاش والمقاحيم ، حتى بلغ بها الماء في مئسي ثالثة ، متوجسا أن يكون في انتظاره صائد ، حتى إذا اطمانت جميعا أن لا أنيس بها ، توردت الماء ، وهي متيقظة أشد يقظة ، لا تثق بعيونها ، بل تضم الى ذلك ما تنبئها به أنوفها في الليل البهيم . ولكن الصائد كان لها بالمرصاد ، فانتحى لها بسهم من سهامه ، أخطأها

(١) الشعر والشعراء : ١٤ - ١٦

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٤٥ - ٧٤٨

ولم يكد ، فولت مسرعة في سواد الليل تروم النجاة ، وآب رامى بني
الحرماز ملتهفا •

واستغرقت صفة الحمار وأتته ثلاثين بيتا ، تتبع فيها الشاعر الحمار
وأتته ، يتنقل بتنقلها ، ويقتفي خطاها ، حريصا على ألا تفوت صورته شية
موحية ، ولا يند منها لون خافت ، مما له شأن في اتمام الصورة وبراها •
والفرزدق ، وهو الشاعر المتمكن من فنه ، قوي على إشرارك سامعه في
المنظر ، وكأنه أحد شهوده • إنه لا يصور قصة حمر وصائد ، ولكنه يحدد
لك المواضع ، والطريق ، والمورد ، والصائد حتى تقول : ها هو ذا منظرأ
رأيته ، ووردت ماءه ، وعرفت أهله ، فالصائد المختفي المتربص هو بحير
الحرمازي الذي عرفه أهل ناحيته ، ألفا للصيد ، يقوت منه عياله الجياع •
ومورد الماء هو عين القصيبة المعروفة ، وقد أتها الحمر من الخدادة في
الصمان ، بعد أن سارت اليها ثلاث ليال • إن هذه التفاصيل يأتي بها
الفرزدق الصنع ، تدل على موهبة الشاعر الأصيل • فهو يرمي من وراء
تفاصيله أن ينقل اليك صورة حية ملأت قلبه ونفسه ، فلم تعد وصفا لحمر
وقانص ، ولكنها صورة هذه الحمر التي عرفها ، ورقبها ، وتنبعها ، وعني
بايراد كل ما يتصل بها عناية الرسام بمنظره ، ليوحى اليك أنه يذكر حدثا
فريدا تنبض به الحياة ، كان من شهوده • ويبدو في تصويره النزعة الانسانية ،
إنه لا يقف في تصويره عند دقة المنظور تؤديه اليه عينه وسمعه وسائر
حواسه ، ولكنه يتجاوز ذلك الى اضاء المشاعر الانسانية على موصوفه •
فهو يصور حيرة الحمار وتردده ثم عزمه على السير ، ولا يجد له تشبيها
خيرا من ضارب بقداح القسم مأموم • ومثل هذه المشاعر ، من الحماية
والرحمة والخوف والتردد ، يضيفها الشاعر على حيوان البر ، تقربه الينا ،
وتبعث بيننا وبينه ، لونا من التعاطف يقلل من المسافة الفاصلة بين
الانسان وبينه •

لا تكثر في شعر الفرزدق نماذج هذا اللون الرائع الجميل ، يصف به الشاعر نوافر الوحش وأوابده ، وكأننا حيل بين الشاعر وبين تنمية فنه، باحتدام معركة الهجاء التي خاض غمارها • ولكن النزعة الأصيلة أبت إلا أن تطلّ برأسها أنا بعد آن ، تحتال لنفسها في الظهور • ويوم أقبل يمدح الجراح الحكمي والي البصرة من قبل الحجاج ، شبه ناقته ببقرة الوحش ، التي تركت وليدها بمأمن ، لتسعى على قوتها وقوته ، وصوّر ما تحسه من اشفاق حين تتركه « وحيث تنأى بشق النفس ترهب أن يضارا » ، وصور حنان الأمومة وانه لا يقل في الحيوان عنه في بني الانسان :

إذا جمعت له لبنا أنته بضهل وتينها تخشى الغرارا

ثم حلّت به الفاجعة من سهم قانص فقير ، يسعى على قوت عياله ، سنّة الحياة القاسية التي لا ترحم، وعادت أمه لتلقى (دما ومسكا حديث العهد)^(١) • ويوجز أحيانا ايجازا شديدا ، كفعله يوم وصف ناقه له حمل عليها رجلين ، فشبها بحمار وحشي « ميفاء على القثور سهوق » يطرد أمّته في أرض صلبة ، فتقدح حوافرها النار ، وهو حمار أملس الجلد ، كأنه أديم عكاظي لملاسته^(٢) ، ويعود الفرزدق ادراجه الى غرضه الأول ، مكتفيا ببيته •

ولئن قل حظ نوافر الوحش في أوصاف الفرزدق ، لقد كثرت صور الابل والخيل والصحراء وما يتصل بها من صور واجهته في رحلاته التي تحمل مشاقها ، وواكبها صور أخرى تصف البحر والفرات ، والجيوش بفرسانها والحرب ، والاسد والحية ، تطلبتنا معانيه في المدائح، أو في المغالبة والهجاء • ومن أول نماذجه قصيدة قالها في مطلع شبابه ، ليصف بها الابل ، وجعلها خالصة لها^(٣) • وهي تمثل خير تمثيل بداوة الشاعر في اعتزازه بالابل ، وشموخه على أهل الشاء الأذلاء :

(١) الديوان : ٢٢٨ - ٢٣٠

(٢) الديوان : ٥٨٤

(٣) الديوان : ١٣٤ - ١٣٥

إذا اغبر أهل الشاء أشرق أهلها وكان لها فضل من الأدوات
وفي تعداده مواضع المراعي بالبادية تعداد الخبير ، المتقسي ، حتى يدل بأن
كرام ابله التي أعدها لقرى الضيفان أيام الصقيع ، والجذب ، ليست من
ابل ضبة ، ولكنها ابل الكرام من دارم :

وقد كان صحراوا فليج لها حمى إذا نوّر الجرجار بالكدرات
ولما فرّ الفرزدق الى المدينة هاربا من زياد ، وصف الناقة التي حملته في
قصيدتين قالهما^(١) فعني بوصف ضخامتها :

تنفس من بهو من الجوف واسع إذا مدّ حيزوما شراسيفها الضفرا
وطول عنقها، وفقار ظهرها، وسرعتها « كأنها ظليم تبارى جنح ليل نعائمه » وكانت
الناقة قريية الى نفسه ، فعدا يترصد الفرص المناسبة ليرضي هذا الميل في
نفسه ، فتناثرت أوصافها في أشعاره ، وفي المدائح خاصة • وبرع الفرزدق
في وصف الابل المعيبة التي أجهدتها السير ، فأكل الرحل سنامها ، وقطعت
خشونة الطريق أخفافها ، ونعال الجلد التي تحميها ، حتى تخضبت بالدماء ،
فراحت لا تدري « اما نقتب أشكي اليها أم الدبر » •

تقاتل لما حُلَّ عنها رحالها بأفواها الغربان من كل جانب
حتى بلغ بها الكلال أن لو عدا الليث عليها لما ذعرت ، فإذا زحفت ناقة
وسقطت في الفلاة تركوها الى الذئب والنسور :

تركنا عليها الذئب يلطم عينه نهارا بزوراء الفلاة نسورها
وهو تصوير فيه صدق جميل ، معجب ، يمثل سنة الحياة في الصحراء
حيث لا تراحم ولا هدة ، وإنما هي المغالبة والتراحم ليفوز الأقوى^(٢) •
ولعل من أجمل ما قاله في تصوير الابل التي أعيأها السير ، وقتل نشاطها

(١) الديوان : ٢٢٧ ، ٧٦٣

(٢) الديوان : ١٨ ، ٧١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٢٢١ ، ٣٠٤ ، ٣٤٤ ، ٤٢٠ ،

٥٤٣ ، ٦٥٤ ، ٧٠٤

الاجهاد ، مقطعا في ملحمة الفائية ، التي عدت احدى نقائضه الروائع ،
وهي مما قاله في أيام سليمان :

ومائرة الأعضاء ، صهَّب ، كأنما
بدأنا بها من سيف رمل كهيلة
فما برحت حتى تقارب خطوها
وحتى قتلنا الجهل عنها وغودرت
وحتى مشى الحادي البطيء يسوقها
وحتى بعثناها وما في يد لها
إذا ما نزلنا قاتلت عن ظهورها
إذا ما أريناها الأزمة أقبلت

عليها من الأين الجساد المدوَّف*
وفيهما نشاط من مراح وعجرف
وبادت ذراها والمناسم رعَّف
، إذا ما انيخت ، والمدامع ذرَّف
لها بخصّ " دامٍ ودأي " مجلف
، إذا حل عنها ، رمة " وهي رسف
حراجيج أمثال الاهلة شسفا
إلينا بحرات الوجوه تصدَّف (١)

فالشاعر يوالي الصفات ، التي توضح معناه ، وتؤكدده ، وهو يباليغ في
ذلك ، فيأتيك بحتى الغائية في مطلع كل معنى ، لقد تقارب خطوها ، وبادت
أسنمتها ، وتقطعت أخفافها ، وفقدت نشاطها ، ودمعت عينها تشكو
شكوى الانسان ، ثم يتوج ذلك بصورة رائعة ، لا حد لروعتها ، « ما في
يد لها رمة ، وهي رسف » • وليس جمالها لما تحمله من معنى الكلال
فحسب ، بل لهذه المقدرة الفائقة التي اهتدى اليها شاعر فنان ، في مثل
هذا الطباق ، يبدو في مظهره مستحيلا استحالة اجتماع الأضداد ، ولكن
الشاعر ، بموهبته ومهارته ، جمع الضدين ، فدل على معناه أبلغ دلالة • وقد
أغرى بجماله جريرا ، فأغار عليه حين مدح الخليفة هشام بن عبد الملك :
إذا بلغوا المنازل لم تقيّد وفي طول الكلال لها قيود (٢)

(١) الديوان: ٥٥٧، النقائض: ٥٥٧، وكهيلة (بلفظ تصغير كهلة): موضع في
بلاد تميم (معجم البلدان) .
(٢) ديوان جرير : ١٤٨

وقد راعت أبيات الفرزدق في وصف ناقته ، السيد المرتضى ، فاختارها
مثلا لجيد ما قيل في وصف الابل ، ورأى أبو هلال العسكري أن تشبيه
الفرزدق النوق بالأهلة ، من أجود ما قيل في ضمير الابل (١) . ولكن للناقاة
الأصيلة النشيطة جانبا في شعر الفرزدق آخر ، وإن كان لا يوازي سابقه ،
إنه قادر على أن يصور مراحلها ، بصور مختلفات :

وتظل تحسب ظلها شيطانية وتخال نافرة وإن لم تنفر
لا تستطيع عصا الغلام وإن سعى مساً لساقٍ وظيفها المصعقر (٢)

ويرق صوت الفرزدق ويعذب ، حين يحدث ناقته ، ويمنيها الأمازي إن بلغت
به الممدوح ، وحين تملؤه الشفقة وهو يراها تحتمل ألمها بصبر :

تأوه من طول الكلال وتشتكي تأوه مفجوع بشكل على ثكل
إنها النفحة الانسانية ، لا يخليك الشاعر منها ، فينقل اليك أحاسيس الناقاة ،
وشكواها ، انه يفهم عنها ، ويعرف ما تعاني ، فيلطف بها ، ويؤانسها (٣) .

وكان يواكب حديث الابل وصف الصحراء الواسعة ، الفسيحة ،
تموت الرياح فيها ، و « يغضُّ البصير طرفه من فضاءها » ، يحار فيها
الأدلاء :

فما يهتدي بالعين من ناظر بها ولكنما تهدي العيون قلوبها
إنها تغتال المطي بقسوتها ، وحرها ، تتلظى فيها الهاجرة ، فيتراءى في جوانبها
السراب ، تغتسل فيه الحجارة . أدنى مائها الخمس ، إذا ورده الركب ورد
ماء ، الدمن فوق جمامه ، « كأن الغسل خيض صيبه » لركوده ، وقدمه (٤) .

(١) أمالي المرتضى : ١ : ٥٨٢ ، ديوان المعاني ٢ : ١١٩

(٢) ديوان الفرزدق : ٤١٧ - ٤١٨

(٣) ديوان الفرزدق : ٦٥٤ ، ٧٠٤ ، ٨٣٨ ، الموشح : ٦٨ ، ١٧٤ ،

الاغاني ٩ : ١٦٨ - ١٦٩ ، خزانة الادب ١ : ٤٥٢ - ٤٥٤

(٤) الديوان : ٣ ، ٧٤ ، ٩٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٦٠٦ ، ٧٠٠ ، ٧٠٣ ،

٨٠٨ ، ٨٥٢

وإذا كان البصر حاسة التصوير الاولى عند الفرزدق ، وهو كذلك لدى كثرة الشعراء الوصافين ، فإن موهبته قد دفعته ليشرك حواسه الاخرى التي تساعد في تمثيل الموصوف ، وصدق تصويره • فلم يكتف الفرزدق بوصف الماء الراكد القديم بالصفرة الشديدة ، « كأن الغسل خيض صبيه » ، بل أضاف الى ذلك حاسة الذوق ، فإذا هو يقول : « والطعم يعبس شاربه » ، وهذا العبوس ينبىء بما صار اليه طعم الماء الراكد ، من مرارة تعافها النفس • أما الحوض الذي يحيط بالماء فقد بلغ من جفافه أن « نش بذي الدلو المحيل جوانبه » ، إنه الصوت الذي تسمعه الأذن للتراب الجاف ، الظامىء الى الماء ، حين تصيبه قطرات منه ، بل إن الفعل نش ، يكاد يحمل بجرس حروفه هذا الصوت الى الأذن السميعة ، ويبلغ الشاعر بالصورة كمالها ، وهو يصور هيئة الابل الظمأى ، ترد هذا الماء القليل :

ثنت ركب الأيدي ، كأن رشيها ترشف مطور وقيعا يناهبه^(١)
وهكذا كان لكل من حواس الفرزدق نصيب في أوصافه ، بالقدر الذي يسعفه في أداء مهمته ، واحياء صورة موصوفه •

وتغدق الصحراء الشحيحة على الفرزدق ، صورا غاية في الروعة والألق ، لعل من أجملها ما صور به القطا يسعى وراء الماء في الحرّ اللاهب ، يريد أن يروي ظمأه ، وظمأ فراخه ، التي تتقلب على أحر من الجمر ، وقد كاد الظمأ يقتلها ، وإذا أنت أمام هذه الصورة الرحيمة تمثل لك القطا تمج ما في حواصلها لتسقي الفراخ العطشى :

ويدعو القطا فيها القطا فيجيبه توائهم أطفال من السبب المحل
دوارج أخلفن الشكير كأنما جرى في مآقيها مراود من كحل
يسقين بالموما زغباً نواهضا بقايا نطاف في حواصلها تغلي

(١) الديوان : ٩٣

تمج أداوى في أداوى بها استقت كما استفرغ الساقى من السجل بالسجل (١)

فإذا ما انتهى حديث الصحراء بدأ حديث الركب الذي أتعبه السير والإسآد، ولم يقو على مغالبة النعاس فإذا هم يميل الكرى برءوسهم « كأنما شربوا عتيق سنين فوق الأرحل » ، ويبرز الفرزدق قوي العزم ، شديد المنة ، « لا ينقض الليل عزمه » ينه أصحابه ، ويشحذ همهم ، ويتغنى لهم ، ليدفع ما بهم من نعاس ، فيبين عما في نفسه من تصميم وهمة تمنع عليه أن يضعف أمام رجائهم :

إذا صحبتي مال الكرى برءوسهم جعلتُ السرى مني لأعينهم كحلا
إذا سألوني ما يداوي عيونهم بوقعة باز لا تحل لهم رحلا
رفعتُ لهم باسم النوار ليدفعوا نعاسا وديجوجا أسافله جثلا (٢)

وعدَّ ابن رشيقي ، الفرزدق ، ممن يجيد صفات الخيل والقسي ، والنبيل ، وقرنه بالحطيئة (٣) .

واستغل الفرزدق فن الوصف للتحديث بجوده وسخائه ، وأنه يعطي المعتفين ، ويقري الضيفان ، ويجبر خلة الأرامل ، ومن أوائل قصائده يأتيته التي قالها مفاخرا (٤) ولكن حظ الوصف منها كان الحظ الأوفى . فقد بدأها بوصف سيره في الليلة الظلماء ، وانتقل الى وصف جيش الأعداء ، وختم قصيدته بوصف ضيف جائع ، ضل طريقه ، وتلعبت به البيد ، فاستنبح ، وفي دعائه يأس شبه الجنون ، فاستجاب الفرزدق لندائه :

(١) الديوان : ٧٠٣ ، وانظر ص : ٨٠٨ - ٨٠٩

(٢) الديوان : ٨٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٨١٠

(٣) العمدة ٢ : ٢٨٠

(٤) ديوان الفرزدق : ٨٩٠ - ٨٩٣

وقلت لعبديّ اسعراها فإنّه كفى بسناها لابن انسك داعيا
واهتدى الضيف ، وقام الفرزدق يقضي حقه ، فاختر له خير ابله :
فمكنت سيني من ذوات رماحها غشاشاً ، ولم أحفل بكاء رعائيا
وتبدو في هذا القسم مقدرة الفرزدق على القص والحكاية ، وهي مقدرة
أصيلة تجلت فيه منذ شبابه ، ونماها على الزمن . فكانت خير مسعف له
في الوصف والتصوير ، ومضى الفرزدق في وصفه ، فأطال بوصف القدر
إطالة لا يقوى عليها غير شاعر موهوب ، فقد أطاعته أطراف الكلام ، فهو
يختار منه ما يرضيه . وتلمح الى ذلك المبالغة في الوصف ، وهي مبالغة
فطر عليها الشاعر سجية من سجايه ، لازمته حياته كلها . ولكنّ لإطالة
الشاعر ومبالغته غاية يرمي اليها هي تأكيد ما عرف به من سخاء وبذل ،
وأنه يسرع الى قرى الضيف ليقدم اليه أثمن ما يملك . فقدرة سوداء
لكثرة ايقاد النار تحتها ، وهي واسعة لتستوعب ما يلقي فيها ، وأثافيها
صخور ضخام ، لتقوى على حملها ، ثقل ما فيها . وهكذا يمضي الشاعر
يعدد صفاتها ، لتبرز كل صفة معنى يستتر فيها :

وقمنا الى دهماء ، ضامنة القرى
جهول كجوف الفيل لم يثر مثلها
أنخنا اليها من حضيض عنيزة
فلما حططناها عليهن أرزمت
ركود كأن الغلي فيها مغيرة
إذا استحمشوها بالوقود تغيظت
كأن نهيم الغلي في حجراتها
لها هزم وسط البيوت كأنه
ذليلة أطراف العظام رقيقة
واستهواه وصف القدر ، فأكثر من ترداده ، يضم اليه ذكر النار تهدي

السايرين ، لا يمل ذلك ، ولا يسأله • ويبدو رقي فن الشاعر في أوصافه
التالية المتأخرة • فقد كانت أغنى صوراً ، ومعاني ، وأقل مبالغة
واسرافاً^(١) ، وان ظل الفرزدق الشاعر المبالغ ، المسرف • وقد يسوق صفة
القدر ليدل على كرم ممدوحه ، وكثرة عفاته^(٢) •

وحديث السخاء والبذل في حياة الفرزدق ، وفي شعره ، حديث
طويل • كان يفخر فيه بنفسه وبآبائه ، وبقومه • فكثرت مسالك الشاعر
إليه • وكان من هذه المسالك أن يمهّد بذكر الجذب والشتاء والبرد حين
ينفذ الزاد ، ويخل الناس ، ليكون سخاؤه :

على ساعة لو أن في القوم حاتماً على جوده ضنت به نفس حاتم^(٣)
فتناثرت في قصاده ، ومقطعاته أوصاف الشتاء بيرده ، وريحه ، وصقيعه ،
وجذب الأرض ، وأعوام القحط ، من ذلك أبياته المشهورة التي فخر فيها
بأبيه أمام سليمان بن عبد الملك :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لهاترة من جذبها بالعصائب
يعضون أطراف العصي كأنها تخزم بالأطراف شوك العقارب
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم على شعب الاكوار من كل جانب^(٤)
والأبيات مثل لئن الشاعر ، وقدرته في انتقاء اللفظة المعبرة ، والمجاز
المصور : في البيت الأول صورة للريح الشديدة ، لا يذوى جمالها ، حين
أراد الشاعر أن يصور فعل الريح بأثواب الركب وعمائمهم ، فلم يجد خيراً
من تشخيص الريح امرأةً ثائرة يطلب ترة ، فهو يجذب خصمه بثوبه ،
ولا يني يشده إليه شداً عنيفاً ، ينقض عمامته ، واحتال بحرف التشبيه
والشك والتقريب ، « كأن » ليمهد لقبول تشخيصه • وجمال الصورة
وألقها لا ينسياننا صلتها بنفس الفرزدق القوي المغالب ، ابن البادية ،

(١) الديوان : ١٦٦ - ١٦٧ ، ٥٦٠ - ٥٦١ ، ٨٠٣

(٢) الديوان : ٢٧٨ ، ٤٢٥ ، ٥٦١

(٣) الديوان : ٨٤٢

(٤) الديوان : ٣٠

المطالبة بالثأر ، فأثرها على ما سواها من الصور ، وראها أوفى في التعبير عن مراده • وفي البيت الثاني صورة تمثل الرجال ، وقد برد عليهم الليل ، فهم يعضون أطراف العصي لفرط ما نالتهم به الرّيح من أذى ، حين تلسعهم ، فكأنها شوك العقارب ، يخز أطرافهم ، لقسوتها وشدتها • وقد قويت صيغة المضارعة في (يعضون ، تخزم) على تخييل المنظر ماثلاً في الحاضر ، فزادت من مشاركة سامعه حين يغدو الموصوف حيا ماثلاً أمام ناظريه • وترددت صورة الجذب والشتاء في كثير من مفاخر الفرزدق ، يتحدث عن قتام المحل ، وكلوح الآفاق لقلّة المطر ، وتقشر جلد الأرض من الجذب ، وقلة الأنداء ، وهبوب الريح حمراء عاتية تكشف كسور البيوت ، ولجوء الأبل الى الحظائر تزف مسرعة ، خوف البرد والزمهرير ، فتهتك الأطناب ، وذهاب الألبان وانقطاعها • ومن جميل أشعاره في هذا التصوير ، أبياته في الملحمة الفائية ، وأبيات أخرى له رائية :

من الدهر لا يمشي بمخ بعيرها	ونحن ربيع الناس في كل لزبة
عليها قتام المحل ، باد بسورها	إذا أضحت الآفاق من كل جانب
جلاد لقاح المحلين وخورها	وشب وقود الشعيرين وحاردت
سريعاً، وراحت وهي حذب ظهورها	وراح قريع الشول محدودب القرا
كما حث ركضا بالسرايا مغيرها	يبادرها كن الكنيف أمامها
إذا الشول أعيأ الحاليين درورها ^(١)	هنالك تقري المعتفين قدورنا

وقد تلاقى طبع الفرزدق العنيف ، وأسلوبه الجزل ، على تفوقه في هذا اللون من التصوير ، فتحققت له من ذلك ألواح رائعة ، والفرزدق لم يقصر حديث الجذب وامسك السماء على مفاخره ، بل كان لأماذيجه نصيب منها • كان رسول البادية الى الخلفاء والولاة يحمل اليهم صورة ما يعاينه الناس

(١) الديوان : ٢٧٧ ، وانظر ، د : ١٦٩ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٥٨ - ٥٥٩

في السنين الشداد ، ولعل من أجمل ما قاله في ذلك أبياته الى الوليد بن عبد الملك التي وصف فيها أولئك الضائعين في القفر ، تتابعت عليهم الجدوب ، ينادون من البعد البعيد أمير المؤمنين ليغيثهم ، وقد جرؤت الذئاب عليهم :
بحيث رأيت الذئب كل عشية يروح على مهزولكم ويباركه (١)

وقد يأتي به يدل على سخاء ومدوحه ، وكرم نجاره أيام الشدة والبؤس (٢) .
وفطرة التصوير التي فطر الشاعر عليها ، هي التي حبيت اليه الشماخ بن ضرار ، وجعلته يفضله ، ويرفع من شأنه ، ويقدمه غاية التقديم ، حتى إنه ليترنم بيت له في مرض موته . فقد كان الشماخ أوصف الناس للحمر الوحشية والقيسي (٣) .

ويبدو نمطا فريدا في شعر الفرزدق وصفه الدرة والغواص ، فقد استفتح الفرزدق نقيضته ذات الأكارع في هجاء بني جعفر بن كلاب ، متغزلا بجبيرة النهشلية ، وذكر محاسنها ، وأسلمه الحديث الى تشبيهها بالدرة ، ففتح له باب القول ، يصف الدرة ، وما لقي غواصها في سبيلها ، فقد رمى بنفسه في لجة بحر مهيبية ، تهول من رآها ، أملا في الفوز بها ، وكان قلبه يضطرب خوفا أن تناله الحية الخرساء الموكلة بحفظ الدر ، كما نالت من قبله ، وقد عجز المنذرون أن يصدوه ، كان مصمما أن يدرك الغنى أو يلاقي الموت ، ولما رأى الدرة اليتيمة زاد تصميمه وأيقن أنه الموت أو دنيا ينادي بشيرها . وأهوى لينتزع الدرة التي يحميها نابا الأفعى ، فلم ينج من عضه ، سمها ذعاف ، وسريع سورتها ، لا يجدي فيه ترياق ، فقضى بين يدي أساتته ، ولما أُخبرت أمه بموته ورأت الدرة التي ظفر بها ، هان وجدها ، لما أملت من الغنى :

(١) الديوان : ٣١٠

(٢) الديوان : ٦٨٧

(٣) العمدة ٢ : ٢٨٠ ، الحيوان ٥ : ٧٩ - ٨٠ ، الاغاني ٢١ : ٤٠٨

بأجرامه والنفس يخشى ضميرها
 إليه من الغواص منها نذيرها
 لنفسي ، والآجال جاء دهورها
 على الموت نفس لا ينام فقيرها
 هي الموت أو دنيا ينادي بشيرها
 بعضه أنياب سريع سؤورها
 ومن فوقه خضراء طام بحورها
 من النفس ألواناً عبيطاً نحيرها . . .
 رجاة الغنى لما أضاء منيرها
 لها سيمة إلا قليلاً كثيرها (١)

كدرة غواص رمى في مهيبة
 موكلة بالدر خرساء قد بكى
 فقال ألاقى الموت أو أدرك الغنى
 ولما رأى ما دونها خاطرت به
 فأهوى ، ونابها حوالي يتيمة
 فألقت بكفيه المنية إذ دنا
 فحرك أعلى حبله بحشاشة
 فما جاء حتى مج والماء دونه
 فلما أروها أمه هان وجدها
 وظلت تغالها التجار ولا ترى

وإنه لوصف تخلله القص والحكاية ، وهو فن من فنون الفرزدق التي
 تفوق فيها ، وأحسن اصطناعها في الوصف والغزل والهجاء ، فكان فيها
 عنصراً هاماً هياً للشاعر أن يتفوق ، ويفتن فيما عرض له . ووصف الدرّة
 والغواص في الشعر العربي قديم ، ولكنه نزر قليل ، لعل من أجمله أبيات
 المسيب بن علس الجاهلي ، الذي عني بوصف الغواص ، فأثنى بالمعجب
 الرائع (٢) .

وللفرزدق وصف في السفينة ، وقد ركبها أواخر عمره ، قاصداً أسد
 ابن عبد الله القسري فمضت به من الأبلّة الى كوفة الزابي . وقد مال
 الفرزدق في وصفها الى لون من الرمز ، والنعت ليدل على موصوفه :

وراحلة قد عودوني ركوبها
 قوائمها أيدي الرجال إذا اتحت
 وما كنت ركاباً لها حين ترحل
 وتحمل من فيها قعوداً وتحمل

(١) النقائص : ٥١٧ - ٥٢٠ ، د : ٤٥٥ - ٤٥٦

(٢) الصبح المنير : ٣٥٢

إذا ما تلتقتها الأواذي شقها
إذا رفعوا فيها الشراع كأنها
لها جؤجؤ لا يستريح وكلكل
قلوص نعام أو ظليم شمردل^(١)

وهذه الطريقة في الوصف الرامز مألوفة في الشعر القديم ، قال فيه شعراء العصر الجاهلي وأكثر منه في عصر الاسلاميين ذو الرمة . ويبدو أن الفرزدق قد مال اليه لقلته وصف السفن في الشعر ، فرأى في هذه الطريقة طرافة وجدة تلائم جدة الغرض وطرافته ، وغاير نهج جرير الذي أتيح له أن يصف اسطول الحجاج من السفين الجوافل ، فسلك الطريق المباشر ، وأبدع في وصفه^(٢) . وقد فتح الفرزدق الطريق لاحقاً لهذا اللون الرامز في وصف السفن ، لمن جاء بعده من الشعراء ، وعلى رأسهم أبو المحدثين : بشار بن برد^(٣) . وفي شعر الفرزدق أوصاف قليلة اتبع فيها هذه الطريقة الرامزة . كأن يصف فرسا فيقارب بينها وبين الدلو :

ووفراء لم تخرز بسير وكعبة
غدوت بها طيا يدي في رشائها
وقريب من ذلك وصف القدر بأوصاف تقربها الى الناقة ، وإن لم تكنها :
بعثت له دهماء ليست بناقاة
تدر اذا ما هب نحسا عقيمها^(٤)
ووصف الجامعة في اليد (الغل) :

بعذراء ، لم تنكح حليلا ، ومن تلج ذراعيه ، تخذل ساعديه أنامله^(٥)

(١) ديوان الفرزدق : ٦٢٦ - ٦٢٧ ، ٨٧٥ ، محاضرات الادباء ٢ : ٣٣٢

(٢) ديوان جرير : ٤٤١ - ٤٤٢

(٣) ديوان بشار ١ : ١٤٧ - ١٤٩ ، ٢ ، ٢٨٣ - ٢٨٦ ، ٣ ، ٢٨٠ - ٢٨١

طبقات ابن المعتز : ٨٣

(٤) ديوان الفرزدق : ٤ ، ٨٠٣ ، المعاني الكبير : ٧٤

(٥) ديوان الفرزدق : ٦٣٦ ، المعاني الكبير : ٨٧٦

(٣)

المدح :

نشأ الفرزدق سيدا من سادات تميم^(١) ، ينتمي الى بيت من أشرف بيوتها وأمجدها ، وكانت أشعاره الأولى مفاخرة ومهاجاة • ولم يكن في حياته الأولى من الدواعي ما يدفعه أن يطرق فن المديح • كان مزهوا بنفسه ، متعاليا بالرؤوس الأعظم من أهل بيته ، لا يرى كفتا لهم غير بيتي النبوة والخلافة من قريش : عبد شمس وهاشم^(٢) ولا يستنكف أن يفاخر معاوية أمير المؤمنين :

أنا ابن الذي أحيا الوئيد ، وضامن على الدهر، إذ عزت لدهر مكاسبه^(٣)
وبينما كان جاريا على سننه ، مندفعاً في غوايته ، فجأه تهديد زياد ، فأيقظه من غفلته ، وفتح عينيه على جديد من أمره ، وإذا هو طريد لا يأمن ، يبغي الحماية فلا يجدها ، وهيبء له أن يفر الى المدينة ، يلوذ بعطف واليها سعيد بن العاص فيجد في جواره الأمن الذي فقد ، فما لبث أن شكر له صنيعه بمدائح ساقها فيه :

ترى الشم الججاجح من قريش إذا ما الأمر في الحدثان عالا
قياماً ينظرون الى سعيد كأنهم يرون به هلالاً^(٤)

ولم ينس من آواه في طريقه ، وحماء حتى بلغ به مأمنه ، من أمثال عيسى ابن خزيمة السلمي ، وقبيلة بكر بن وائل^(٥) • فكانت هذه الأماديح أول

(١) النقائض : ١٠٥١

(٢) ديوان الفرزدق : ٧٩٥ ، ٨٠٢ ، ٨٥٦ ، ٨٥٩ ، ٨٦٢

(٣) النقائض : ٦٠٩

(٤) ديوان الفرزدق : ٦١٨ ، ٧٧٢ ، طبقات ابن سلام : ٣١٤

(٥) ديوان الفرزدق : ١٩٧ ، ٦٥٠ ، ٧٦٣ ، طبقات ابن سلام :

٢٥١ - ٢٥٥ ، النقائض : ٦٠٩ - ٦١٤

ما قاله في هذا الفن • وقوام مدائحه الشكر للمنعين ، والاشادة بصنائعهم ، فعل الرجال الأوفياء لا يجحدون معروفًا ، ولا يكفرون ما قدم اليهم من خير • وقدر لهذه الحادثة أن تنتزع الفرزدق من إيسار القبيلة والبادية ، لتصله بحياة الأمصار ، يتقرب اليه أشرافها وسراتها ، يأملون أن يظفروا بكلمة منه طيبة ، فقد كانت الحياة العربية منذ أواخر الجاهلية قد ألفت أن تشهد الأشراف السادة ، والملوك يستقبلون كبار الشعراء ، يغدقون عليهم العطاء ، ويوالونهم بالهبات ، طمعا في حل الشاء التي يجيد الشعراء حوكها ، يخلدون بها العمل الطيب ، ويضمنون لصاحبه حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر ، فتردد النابغة الذبياني على ملوك الحيرة ، وغسان ، يقول فيهم أجمل مدائحه ، وعرف زهير بن أبي سلمى الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، فخلدهما بأشعاره ، وطاف الأعشى على أشرف العرب يمدح من أحسن اليه ، وقد عني هؤلاء الشعراء الفحول بأماديحهم ، احتفلوا لها أيّما احتفال ، وقاموا عليها بالتنقيح والثقاف ، ووفوها حقها من التجويد والتنميق ، لتكون جديرة بمآثر المدوحين ، ومحامدهم ، أهلا لتخليد فضائلهم ، ورواية مساعيهم • فنالت حظها من جمال الفن ، وابداع الصنعة ، واستحقت أن تخلد وتتناقلها الأجيال ، صورة من الشعر الرفيع الجيد ، ترسم أجمل ما في الانسان : فضائله وكريم خلقه ، وجميل سجاياه •

فلما كان عصر بني أمية ، وأقام معاوية بن أبي سفيان نظام الدولة ، وثبت دعائمه ، تركزت في أيدي الخلفاء والولاة والأمراء سلطة قوية ، وكثر عديد الأشراف والبيوتات ، وزاد الثراء وتدفق المال • فشهد العصر الأموي نهوض شعر المدح ، يقبل به الشعراء الى الخلفاء والأمراء والأشراف • وكان ولاة الأمر يرون فيهم ألسنة قوالة ، تدافع عن سياستهم ، وتشيع فضائلهم ، وتعطف عليهم ود الناس ، فزادوا في اكرامهم ، وبالغوا في الاحتفاء بهم والاعداق عليهم :

أعطوا هنيذة يحدوها ثمانية ما في عطائهم من^(١) ولا سرف^(٢)

فلا عجب أن نرى كثرة الشعراء قد استجابت لهذا الفن ، وقالت فيه ، على تفاوت بينهم في الاستجابة • فإن تأبى على ذلك متأب ، فلعقيدة آمن بها تمنعه أن يؤيد خلافة لا يرضاها ، أو لتعال واستغناء ينأيان به أن يقف بأبواب الملوك مادحا • ولكن الشعراء المادحين ، الى ذلك ، ظلوا على ولائهم لقبائلهم وبيئتهم الأولى ، يحامون عنها ، ويدفعون شر أعدائها ، ويثون بين أيدي الخلفاء شكواها • ومن هنا فإن مدائح هذا العصر كانت من العوامل التي شاركت في ارتباط الناس بالخلافة : غرست في النفوس الى جانب الولاء للقبيلة ، موالاة النظام القائم ، وقوت الاحساس بوحدة الدولة ، وسلطان الخلافة ، ودعت الى الالتفاف حولها ، وصونها من المنتفضين الثائرين •

ولم يكن بد للفرزدق أن يسلك سبيل عصره ، بعد أن أحاطه الكبراء والأشراف بعطاياهم ، وطوقوه بجميل صنائعهم ، فأقبل على حذر ، يمدح من يراه في شرفه وعمله أهلاً لمدحه • وتجلّى في أماديحه الاولى تفحات الفتوة ، وتعالى المزهو ، فهو لا يقبل بمدحه إلا على الكريم ، الجدير بالثناء ، يختاره على عينه ، ويراه قدوة عصره :

وما ساقها من حاجة أججفت بها اليك ، ولا من قلة في مجاشع
ولكنها اختارت بلادك رغبة على ما سواها من ثنايا المطالع^(٢)

وجاء عصر عبد الملك بن مروان ، وبرز الأخطل ينشر فضائل بني أمية ، ويدافع عن حقهم ، حتى عد شاعر أمير المؤمنين • وتقرب جرير الى الحجاج

(١) ديوان جرير : ٣٨٩
(٢) ديوان الفرزدق : ٤٩١

والي العراقيين ، ودافع عن سلطانه ، وأمطره بسيل مدائحه ، فأوفده الى الشام ليمدح عبد الملك ، ويدافع عن حق الأمويين ، ويندّد بأعدائهم :

دعوتَ الملحدين أبا خبيب جماعاً ، هل شفيت من الجماح (١)

وتقدم الفرزدق يتقرب بأماذيجه الى الحجاج ، والى ابن عمه الحكم بن أيوب والى البصرة (٢) . وتتجلى في أماذيجه صورة الحجاج المهيب الذي أخذ الفتن ونشر الأمن ، وقضى على الفساد والرشا ، فأحيا العراق بعد أن ثلّت دعائمه ، وحكم بكتاب الله لا يجيد عنه ، فاطمأنت نفوس الناس الى العدل ينشر عليهم ظلاله ، ونعموا به . وأخاف دعاة الشر ، وشياطين البلاد ، وفروا هارين . وكان الفرزدق يضم اليها صورة الحجاج المخلص لبني أمية ، المندفع في تأييدهم ، الشجاع يوم الملحمة ، « لا يرهب الموت إن النفس بأسلة » . ويضمّن الفرزدق أماديح الحجاج وأماديح الحكم ابن عمه الاشادة بحق الأمويين في الخلافة ، والتنديد بباطل أعدائهم :

فأصبح الله ولّى الأمر خيرهم بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
تراث عثمان كانوا الأولياء له سربال ملك عليهم غير مسلوب (٣)

وتنبىء هذه الأماديح أن الفرزدق قد راعته صورة الحجاج العنيف ، القاسي ، الشجاع ، العنيف اليد ، السخي ، الظافر بأعدائه ، الذي أخضع العراق مهد الثورات ، ومنبت الفتن ، وملأت هذه الصورة نفسه ، فتجلت شعرا قويا يصور هيئة الحاكم ، وقوته :

إذا أوعد الحجاج* أو هم* أسقطت* مخافتة ما في بطون الحوامل (٤)

(١) ديوان جرير : ٩٩

(٢) ديوان الفرزدق : ٢٣ ، ٨٩ ، ١٣٧ ، ٢٩٤ ، ٣١٣ ، ٤٣٥ ، ٥١٥

٥٩٣ ، ٦٨٤ ، ٦٩٤

(٣) ديوان الفرزدق : ٢٧

(٤) ديوان الفرزدق : ٦٩٤

ومن العجب العاجب ما يبدو في أماديح الحجاج وأماديح الحكم ابن عمه ، من فَرَقَ الفرزدق ورعبه ، كأنه جارم يخشى القتل ، فهو لا يفتأ يصور مخافته ، يبدىء فيها ويعيد ، وكأن البلاء قد أخذ منه بالمخفق ، فهو على شفا الموت « تخافُ بناتي أن تصيب به ثكلاً »^(١) ، ويتفرق الصدق في تصوير الفرزدق مخاوفه ، يعرضها معارض شتى ، ليؤكد طاعته ، وقدرة الحجاج عليه ، وانه لا منجى منه الا اليه :

وقد خفتُ حتى لو أرى الموت مقبلاً
 لكان من الحجاج أهونَ روعةً
 أدبٌ ودوني سيرٌ شهرٌ كأنني
 ذكرتُ الذي بيني وبينك بعدما
 فأيقنتُ أني إن نأيتك لم يرد
 وأن لو ركبتُ الريح ثم طلبتني
 فلم أر شيئاً غيرَ اقبالِ ناقتي
 وما خاف شيءٌ لم يمت من مخافة
 أخاف من الحجاج سَوْرَةَ مخدرٍ

ليأخذني، والموتُ يُكره زائرهُ
 إذا هو أغضى ، وهو سام نواظره
 أراك ، وليل "مستحير عساكره
 رمى بي من نجدٍ تهامة غائرهُ
 بي النأيُ إلا كل شيء أحاذره
 لكنتُ كشيء أدركته مقادره
 اليك ، وأمري قد تعيت مصادره
 كما قد أسرت في فؤادي ضمائرهُ
 ضوارب بالأعناق منه خوادره^(٢)

وكان الوليد بن عبد الملك أول خليفة أموي أرسل فيه الفرزدق مدائح^(٣) :
 فنصحي لكم قاد الهوى من بلاده الى منبت الزيتون من منبت النخل^(٤)
 كان يرى فيه خير الناس أمانة ، وأولاه بالحق ، تصعد جدُّ به الى الخلافة ،
 فأصبح الثقلان يتقربان اليه ، وأطرى نسب آبائه بني أبي العاص « الذين
 هم غيث البلاد » ، ونسب آباء أمه من عبس :

(١) الديوان : ٦٨٦ :

(٢) الديوان : ٣١٣ - ٣١٤ :

(٣) الديوان : ٨٧ ، ٣٠٩ ، ٣٤٩ ، ٦٨٣ ، ٧٠٢ ، ٧٦٧ :

(٤) الديوان : ٧٠٦ :

ولكن أبوها من راحة ترتقي
زهير ومروان الحجاز كلاهما
بأيامه قيس على من تفاخره
أبوها ، لها أيامه وماآثره (١)
وتبدو في مدائحه بذور الدفاع عن حق الأمويين في الخلافة ، ودحض أقوال
خصومهم :

خلافة لم تكن غصبا مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم (٢)

وكانت إحدى مدائحه اشادة بهدم بيعة دمشق ، وجعلها مسجدا ، وهو
يحتج للوليد ، ويصوب فعله ، حين أقدم على ما لم يقدم عليه آباؤه ،
وهو يستمد من القرآن دليله . وكان الفرزدق ، وقد أتيح له أن يستوفي
من المعارف حضا موفورا ، رقي رتبة في كلمته على ما أتى به أمثال جرير ،
ونابغة بني شيبان (٣) في تحسين عمل الوليد :

فرقت بين النصارى في كنائسهم
وهم معا في مصلاهم ، وأوجههم
والعابدين مع الأسحار والعتم
شتى ، إذا سجدوا لله والصنم
أهل الصليب مع القراء لم تنم
إذ يحكمان لهم في الحرث والغنم
أولادها واجتاز الصوف بالجلم
داود والملك المهدي إذ حكما
فهمك الله تحويلا لبيعتهم (٤)
عن مسجد فيه يتلى أطيب الكلم (٤)

وكان الفرزدق لا ينسى ، وهو يمدح الوليد ، أن يدل بشرفه ، ويفخر
بكرام آباءه ، وقد يضم الى ذلك اعتزازه بشعره ، « نماني كل أصيد
دارمي » :

(١) الديوان : ٣١٣

(٢) الديوان : ٧٦٨

(٣) ديوان جرير : ٤٩١ ، ديوان نابغة بني شيبان : ٥٢

(٤) ديوان الفرزدق : ٧٦٨ ، البداية والنهاية ٩ : ١٤٧

أغثني بكنهي في نزار ومقبلي فإني كريم المشرقين وشاعره (١)

وكان يعدُّ نفسه رسول البادية إليه ، يصف بؤسها من الجذب الذي نزل بها ، أو ينقل شكواها من مظالم العمال وقسوتهم ، وكأنه يطالبه بمعونة البائسين ، ورفع الظلم والحييف عن الرعية المظلومين (٢) . وقد يعرّض بالعطاء ، ويستمنح الخليفة :

عست فروغ دلّائي أن يصادفها بعض الفوائض من أنهارك العظم (٣)

وبلغ الفرزدق بن المدح ذروته في عهد سليمان . فقد أقبل إليه يستخفه الفرح ، وتملؤه نشوة النصر ، وخفق قلبه بحب الخليفة الذي رفع المظالم ، وآمن الناس ، فبعثت العاطفة المشبوبة الصادقة ، نضارة الشباب وقوة الفتوة في أشعاره . فكانت قصائده (٤) تبشيرا باقبال المهدي سليمان يملاً الأرض عدلاً وانصافاً ، ويحقق آمال الناس الذين طال انتظارهم إياه ، يتشوفون إليه صباح مساء ، ليزيح المغارم ، ويمحو السيئات والمظالم . وضم الفرزدق الى ذلك ، الحجاج بحق بني أمية ، والمجادلة عنهم ، وأنهم تولوا الخلافة تراثاً غير مغتصب بظلم ، فكانوا خيار الناس ، والأحق بمشورة عثمان . وأكثر من تردداد هذه المعاني في قصائده حتى لبدو بحق أنه شاعر بني أمية ، دافع عن حقهم ، ورمى خصومهم ، ولعلك لا تجد شاعراً دافع عن بني أمية فأحسن في دفاعه ، كالفرزدق الذي كان يتحرى حجج الخصوم ، ويجهد أن يكون حجاجه رداً عليهم ، يفتحهم ، ويبيكتهم . ورائيته المطولة الشهيرة :

(١) الديوان : ٣١١ ، ٣٥٠

(٢) الديوان : ٣١١ ، ٣٥٢ ، ٦٨٣

(٣) الديوان : ٧٦٨

(٤) الديوان : ١٧ ، ٢٤٠ ، ٣٢٤ ، ٣٦١ ، ٤١٥ ، ٦١٨ ، ٦٣٥ ، ٦٥٤ ، ٨٢٢ ، ٨٥١

طرقت نواراً ، ودون مطرقها جذبُ البرى لنواحل صعر^(١)

أجمل مثل لمدائحه في سليمان ، طريقة ، ومعاني ، وأسلوباً • استفتحتها
بذكر النوار التي طرقته في رحلته ، وانتقل الى صفة الإبل التي ترقل به في
الصحراء الواسعة ، لتبلغه سليمان الذي أمن الناس في عهده ، ومضى نشيطاً ،
فرحاً بـ صور الآمال التي خامرت قلوب الناس ، ليفرج بعدله كربهم ، فقد
نابتهم مظالم لا قبل لهم بحملها كان ينزلها بهم ولاتهم الظالمون :

ويجمرون بغير أعطيةٍ في البر من بعثوا وفي البحر
ويكلكون أباغرا ذهبت جيفا بلين تقادم العصر
حتى غبطنا كل مُحتمَل يمشي بأعظمه الى القبر
وتمنت الأحياء أنهم تحت التراب وجيء بالحر

ويقفي بالخير الذي نالهم بسجى المهدي • فهم يخلصون له الطاعة ،
ويمحضونه الحب والشكر • إنه الذي نعتته التوراة والزبر ، وأخبرت به
القسس والأخبار ، لتكون خلافته براء القروح ، ومفتاح الخير ، وسبيل
النجاة ، ويحسن الفرزدق الموازنة بين ما كان يتهددهم ، وما صاروا اليه
بعد أن ازيحت مظالمهم :

كنا كزرعٍ مات كان له ساقٍ له حدبٌ من النهر
عدلوه عنه في مغولة للماء بعد جناحه الخضر
أحييته بعباب مثلم وعلاه منك مغرّق الدبر

إنه تشبيه خصب لا ينفد جماله في تمثيل ما يخلفه الظلم من قتل الحياة
الانسانية ، وجفاف منابعها ، وما يدفع اليه العدل من تفتح النفوس ، تمنح
الخير والنعمة • وفتح له باب القول ليمضي في ذكر أيادي سليمان ، وفي حثه

(١) الديوان : ٣٢٤

أن يمشي على سنن الخلائف من قريش الذين تتابعوا بعد النبي ، فتبعوا سنته ، واقتفوا خطاه ، ففازوا برضوان الله في جنته • وكأنما يرد بذلك على الناقلين الحاقدين الذين كانوا ينددون بظلم بني أمية ، وينعون عليهم كثيرا من أعمالهم :

ولقد خصمتُ بها مخاصمكم وشفيت أنفسكم من الخبر

وإن القارئ ليحس فرحة الشاعر تظفر إليه في كل بيت ، وتطالعه في كل صورة • إنها الفرحة الطاغية التي تشعر الفرزدق أنه لم يؤد إمامه حقه ، ولم يوفه ما يستأهل ، إذ لم يفض بكل ما له من مزايا، وإذا هو يركم النعوت متتابعة متلاحقة تنفس عما بنفسه :

أصبحتَ أعلى الناس منزلة وأحقهم بكارم الفخر
وولي أمرهم ، وأعدلهم ونهارهم وضياء من يسري
يا ليت أنفسنا تقاسمها أعمارنا لك وافي الشطر

إنها أمنية من لم يستطع أن يفرغ كل ما في نفسه ، فلجأ إليها أمنية زاخرة جياشة بالعاطفة على سذاجتها وبساطتها ، وطقولتها • وما أكثر الصدق في أمانى الطفولة • طالت أبيات المدحة فبلغت تسعة وتسعين بيتا ، وهي بحق عروس مدائح ، تدافعت أبياتها ، سهلة ، رهوا ، متدفقة المعاني ، تدفق عاطفة الشاعر ، حلوة الألفاظ، فصيحة الأسلوب ، لم يعتوره تعقد ، ولا التواء ، بل مضى سمحا ، بديعة الصور ، تحس فيها بعواطف الشاعر قريبة منك ، فتأنس إليه ، وتجبه • لقد استطاع الشاعر الذي خنق الثمانين أن يهب لشعره شبابا وفتوة ، أثرا من آثار الفرحة العارمة التي تملكته • وقد دفعته هذه الفرحة أن يأتي أمورا ما كان يأتيها • إن في ديوانه قصيدة يذكر فيها الشاعر ما ركب من مكاره ليلقى سليمان « خير أهل الأرض فرعا وعنصرا » ،

إنه رحل من أجله الى الشام البغيض ، مشوى الموت ، وهو ما لم يفعله من
أجل خليفة من قبل :

فحبثك أغشاني بلاداً بغيضة إليّ ، وروميا بعمّان أقشرا^(١)

ويبدو أن الفرزدق قد اضطرب عليه أمره بعد سليمان ، واشتدت
حاجته ، فكثرت مدائحه ، مدح يزيد بن عبد الملك وابنه ، ومسلمة بن
عبد الملك ، والعباس بن الوليد ، قائدي جيشه الى ابن المهلب ، وعمر بن
هبيرة واليه على العراق ، وعبد الرحمن بن سليم الكلبي أحد القواد في جيش
مسلمة ، ومدح قواد بني تميم الذين شاركوا في اخماد الفتنة : هلال بن
أحوز ، وهريم بن طحمة ، والمسور بن عمر بن عباد . وتوالت في عهد هشام
مدائحه اليه ، ومدح الولاة والأشراف فأكثر من مدحهم .

وظلت الجزالة والقوة طابع مدائحه ، ولكن تنوع المعاني ، والافتنان في
الصور أخذوا يقلان شيئاً فشيئاً ، على مر الليالي . فكان العبقرية الشعرية
التي تألفت زمناً طويلاً أصابها بعض الخمود ، فقلّ الألق في شعره ، ليحل
محله اغراق في المبالغة ، يسبغه على ممدوحه . ولعل مدائحه في يزيد بن
عبد الملك وأخيه هشام ، وابنه الوليد بن يزيد خير مدائحه لهذه الفترة .
إن احساسه بشرف الممدوحين ، ورفيع مكاتتهم ، كان يزيد في حفزه على
التجويد ، ومن هنا ندرك معنى ما حاور به بلالاً حين أتاه ينشده :

وإن أبا موسى خليل محمد وكفيه يمني للهدى وشمالها

فقال له بلال : هلكت وخرفت وذهب شعرك ، أين هذا من شعرك في سعيد
ابن العاص وفي العباس بن الوليد ، وسمى قوماً . فقال : اثنتي بحسب مثل

(١) ديوان الفرزدق : ٢٤٢

أحسابهم حتى أقول فيك كقولي فيهم (١) •

كان الفرزدق يشيد بنسب يزيد وابنه وأخيه هشام ، من جهة الآباء والأمهات ، يبدى فيه ويعيد • ولكنه لا يلبث أن يعود ليضفي على ممدوحه صفات التقى ، والورع ، والعدل ، التي يدعو الدين إليها ، وتتطلبها الرعية في إمامها ، ويبالغ في ذلك مبالغات تصل بممدوحه الى مصاف الأنبياء أو تكاد ، كأن يقول في يزيد :

لو لم يبشر به عيسى وبينه كنت النبي الذي يدعو الى النور (٢)
ويقول في هشام :

ولو ارسل الروح الأمين الى امرىء إذا لأتت كفي هشام رسالة
سوى الأنبياء المصطفين الأكارم من الله فيها منزلات العواصم (٣)
ويبالغ في الاحتجاج لبني أمية ، والدفاع عن حقهم في الخلافة ، وما أيدوا به من نصر الله في مواجهة الظالمين :

أبى الله إلا نصركم بجنوده وليس بمغلوب من الله صاحبه °

وكأنه يرد بذلك على المهمة التي كانت تتردد بين الناس تنكر على بني أمية حقهم • وكان يهجو الثأرين ، ويزيد بن المهلب خاصة ، فيبالغ في هجائهم ، ويتخذ منه تكأة للافاضة في بيان حق الأمويين ، وما فضلوا به ، والرد على الثأرين ، ودحض حججهم ومزاعمهم (٤) • وكان الفرزدق ، الى ذلك ، لا ينسى أن يبلغ الخلفاء ما منوا به من الجذب والقحط ، ويعرض بالعطاء •

(١) الاغاني : ٢١ : ٣٨٧ ، أنساب الاشراف (خ) ١١ : ٦٠ ، (ط) ٢/٤ : ١٣٤ ، ديوان الفرزدق : ٦٦٢ ، وسبقت الكلمة (ص : ٢٠٢) .

(٢) ديوان الفرزدق : ٢٦٤ ، وانظر : ٦٨٢ ، ٨٢٩

(٣) ديوان الفرزدق : ٨٤٦

(٤) ديوان الفرزدق : ١٠١ ، وانظر : ٢٦٥ ، ٦٧ ، ٤٣٤ ، ٨٢٩ ، ٨٤٥ ، ٨٨٨

فدونك دلوي انها حين تستقي بفرغ شديد للدلاء اقتحامها^(١)

وكان يوطيء لطلب العطاء بذكر ما يقوم به من قري الضيفان ، واطعام الأرامل في الشتاء والجدب :

اخو شتوات يرفع النار للقري إذا كعم الكلب اللئيم وأخمد^(٢)

بل ما كان يتوانى عن التحديث بكرمه ، والاشادة بناره الموقدة ، وقدره المنصوبة للطارقين والعافين^(٣) ، ويضم الى ذلك الفخر والاعتزاز^(٤) . ومما يدل على ضيق عطنه في أماديح الخلفاء الأخيرة ، كثرة الاتكاء على كلمات بعينها ، يستعينها ليبدأ معنى جديدا ، ككلمة : رأيت بني مروان ، يكررها في قصيدة ثلاث مرات^(٥) . وكتكراره معاني بعينها لا يعدوها كالخاتم والعودين^(٦) . وغدت أماديحه الأخيرة في بلال بن أبي بردة ، وأبان بن الوليد وأمثالهما ، فقيرة المعاني ، ضيقة الساحة ، يلح فيها على طلب العطاء ، ويبالغ في التحديث بكرم ممدوحيه ، ملحفا في مطالبه :

حلفت لئن ضمت إلي أهلي بمالك ، لا يزال الدهر شعري
يُجِدُّ لكم بني زيد ثنائي ثناء حامدا مع كل سقر^(٧)

ولا يخفي ما به من حاجة ، تذكرك بأصداء لطريقة جرير في استمناح ممدوحيه :

تسألني ما بال جنبك جافيا أهم جفا أم جنن عينك أرمدا

(١) ديوان الفرزدق : ٧٨٥ ، وانظر : ٦٤ ، ٦٧ ، ١٦٩ ، ٦٨٢

(٢) ديوان الفرزدق : ١٦٩

(٣) الديوان : ١٦٦ ، ٨٠٩ ، ٨١٠

(٤) الديوان : ٢٦٥ ، ٤٣٢

(٥) الديوان : ٦٣

(٦) الديوان : ٦٣

(٧) الديوان : ٤٢٣

فقلت لها ، لا ، بل عيال أراهم وما لهم ما فيه للغيث مقعد (١)

وقد مهدت أمثال هذه الأماديج لأبي عبيدة أن يقول : « وكان الفرزدق حريصا ، شرها ، جشعا » (٢) ، ولا أريد أن أتفي أن تكون هذه طباعا أصيلة فيه ، ولكنني أريد أن أؤكد أن صورة أماديجه الأخيرة تعبر عن هذه الطباع فيه ، بعد أن كانت تختفي قبل ذلك ، يخفيها الاعتزاز ، والتكرم ، وتفحات الفتوة التي كانت تمور بها قصائده ، ويتعالى فيها تعاليا يبلغ حد التمرد ، الذي كان سجية نشأ عليها الشاعر ، ورافقته طول حياته • ومع هذا كله فإن أطياف مجده وذكرياته كانت ما تزال تلح عليه ، فلا ينسى أن يتحدث بكرمه ، وعقره الإبل ، يستقبل بها ضيفانه ومعتفيه :

أرى إبلي مما تحسن خيارها إذا عقلت أقرانها بالسوالف
بها يحقن التامور إن كان واجبا ويرقأ تو كاف العيون الذوارف (٣)

وقد أكثر في أماديجه الأخيرة ، التعقيد ، الذي لا يدفع اليه عمق الفكرة ، بل غموضها وارتباكها في ذهن الشاعر ، من مثل قوله :

وكنتم لهذا الناس حين أتاهم رسول هدى الآيات ذلت رقابها
لكم ، إنها في الجاهلية دوخت لكم من ذراها كل قرم صعابها (٤)

(١) الديوان : ١٧٥

(٢) النقائض : ١٠٤٩ ، وانظر أنساب الاشراف ١١ : ٥٢

(٣) الديوان : ٥٤٨ ، والتامور : النفس ، ودم القلب ، وعمّ بعضهم به

كل دم (اللسان) .

(٤) الديوان : ٦٢

الرثاء :

ورثاء الفرزدق يتجلى فيه ملامح من صفات الشاعر وأخلاقه تكمل الصورة في نفس قارئه ، وهو في تعبيره الفني ، يملك من الخصائص ما يحفز الناقد أن يستجليه درسا ليتم الإطار ، الذي يضم مذهب الشاعر ، وطريقه في الأداء .

وأول مرثي الفرزدق كان في أبيه غالب (المتوفى في إمارة زياد) الذي ملك عليه نفسه فرأى فيه جماع المكارم ، فكان مثله الذي يرنو إليه ، ويحاول جاهدا أن يتشبه به . وكان يدعي أنه وريثه محامداً وأخلاقاً ، وسخاء :

ورثتُ أبي أخلاقه ، عاجلَ القرى وضربَ المتالي : كومئها وشبوئها

« وأورثني ضرب العراقيب غالب »^(١) . وكان الفرزدق يوم وفاة أبيه قد دلف الى الثلاثين ، واستوى له القول ، فلما أخذ في رثائه مثلت أمام ناظره صورة يوم صوَّار ، وهو يرى الجزر : « عقيراً تكوس ، وأخرى بقيرا »^(٢) وما عرف به أبوه من تخرق يديه في العطاء ، فأرسل رثاءه في مقطوعة من ثلاثة أبيات ، نداء الى المعتفين ، الذين يسألون عن غالب يطلبون رفته ، لينهي

(١) الديوان : ٣١ ، ٦٦ ، كتاب سيبويه ١ : ٢٢٥ ، وناقاة مثلية : يتلوها ولدها ، ونوق مثليات ومثال (أساس البلاغة) .
(٢) الديوان : ٣٨٢

اليهم ان قد قضى غالب ، وحال القبر دونه ، ويتملكه الحزن فيصفا ما ضمته الأركان : « فتى ، فائض الكفين ، محض الضرائب » ، ويسور بيته الثالث بأسى وحسرة ان فقد من يقري في ليالي الشتاء الباردة ، والساعي في نوائب قومه يسدها^(١) . ويعقب بمقطوعة ثانية ينعى فيها أباه لمن يرجو القرى ، وما أبوه ؟ كان المفضل لا تبطىء عطاياه ، ولا يشقى به ضيفه . ثم يدرك الفرزدق حكم القدر ، وعجز الانسان أمام الموت فيقولها حكمة يمازجها الأسى والحزن :

ألا إن هذا الموت أضحي مسلطاً وكل امرىء لا بد ترمى مقاتله^(٢)
وفي اسم الإشارة ما يوحي بقرب الوفاة . وفي البيت إحساس استغرق الشاعر أمام الرزء الذي ناله بأبيه ، وكأنه ما كان يتوقع له مثل هذا المصير . فإذا حكمته همس تنبىء بالعجز والاستسلام أمام الموت المسلط ، لا ينجو من مقاتله أحد .

ويبدو أنه ، وقد هدأت نفسه بعض الهدوء ، واسترد أنفاسه ، نظم قصيدته ينعى أباه ابن ليلى للسماح وللندى ، فيحيي صورة الركبان في الليالي الباردة ، ينيخون ببابه لا يجاوزونه ، ثم يذكر خمود نار القرى بعد غالب ، الذي وسد الثرى بشرقي "المقر" من كاظمة ، فلييكه المعتفون لحاجتهم ، ولييكه كل عائل ، وما يلبث أن يتبين الفجعة التي حلت ، فيرسلها أمنية أن لو مات الموت ، وعاش ابن ليلى للندى والأرامل ، ويحسن الفرزدق تصوير الركبان في الليلة القرة ، وهو الذي عودنا التفوق في التصوير ، « وأيدي شمال باردات الأنامل » ، « يعضون أطراف العصي » . وبدا بدوا واضحا طريق الفرزدق في رثاء أبيه ، انه يستعظم النازلة ، فلا يقصر رزأها عليه ، وعلى اسرته ، بل يرى أن كل محتاج يشاركه بكاءه ، ومصيبته :

(١) الديوان : ٤٢

(٢) الديوان : ٦٧٤

وما نحن نبكي غالباً ليس غيرنا ولكن سيبيكي غالباً كل عائل (١)

وفي الديوان مقطوعتان أخريان في رثاء أبيه ، يبدو أنه قالهما بعد أن تراخى الأمد ، ففترت العاطفة ، وبقيت في النفس ذكرى الرجل الكبير . يتحدث في أولاهما عن كرم أبيه أيام المحل والجذب ، وأنه كان لا يشغله إلا المكارم ، فإذا أصدرته مكارم ، ساور أخرى ، لا يجنح ولا يميل عما ألف ، ويحسن الفرزدق تصوير الرجل المقرور « إذا لبس الغادي يديه من البرد » (٢) ويدعو إلى البكاء في المقطوعة الثانية ، كل سارٍ لنائل ، وكل مستجير ، ليختمها بامتداح نفسه ، وأنه يسير على هدي أبيه :

وما طرق السؤال مثل ابن غالب لأمرين جلاءً من عقاب ونائل (٣)

وللفرزدق مرات في فرسان قبيلته وشجعانها ، فقد كان شديد الاعتزاز بمجاشع قوي الارتباط بها ، تهزه فرحاً وتملؤه زهواً انتصاراتها ، ويغمه ، ويحزنه ، ويثقل قلبه ، أن تلم بها رزية ، أو تعرفها مصيبة . ففي أيام ابن الزبير قتل في سجستان عبد الله بن ناشرة ، وفوارس من مجاشع ، فحز المصاب في نفس الفرزدق ، فإذا هو يصور الفجيعة التي حلت بعشيرته ، فتحس رنة الحزن الصادقة في بكائه :

وقفت فأبكتني بدار عشيرتي على رزئهن الباقيات الحواسر

فإذا كفت عيناه جاري دموعه تحرقت نار جاحمة في فؤاده ، ويتمثل صورة أولئك الفرسان الذين يندبهم :

كأنهم تحت الخوافق إذ مشوا إلى الموت ، أسد الغابتين الهواصر

(١) الديوان ٦١١ - ٦١٢
(٢) الديوان : ١٦٣ ، ٢١٠
(٣) الديوان : ٦٧٦

فيشير أساك وجزك أن يلقي أولئك الفتيان حتوفهم • ويعود الشاعر وقد
عاودته قوة الرجولة ، وعزة القبيلة ، فيحتمل المصائب احتمال الأبطال :

أصبنا بما لو أن سلمى أصابها لهُدَّتْ، ولكن تحمل الرزءَ دارم^(١)

وكانت فتنة ابن الأشعث (٨٣ هـ) وقتل من قومه ما قتل ، ثم كانت أيام
الطاعون (٨٦ هـ) فتعالت حسرات الفرزدق ، وتصاعدت زفرات حرى لحزين
شجوه غير راجع :

بكيته على القوم الذين هوت بهم دعائم مجد كان ضخم الدسائع

ويغدو حنين بعيره بكاء يهيج عبرته ، ويلتفت الى نوار زوجه يدلها على عظم
ما نابه ، لتشاركه الفجيعة ، وتدرك الألم الذي يعتصر قلبه ، واللوعة التي
تمكنت من حناياه :

فإن أبك قومي يا نوار فإني أرى مسجديهم ، منهم ، كالبلاقع
خلاءين بعد الجهل والحلم فيهما وبعد عبابي الندى المتدافع

فهل عجب أن يطول ليله ، ويضيق صدره ، وهو يعاني ما يعاني من هموم ،
وكلما تشوف الى الصبح ، يبغي الفرج مما به ، تردد مسود بهيم الأكارع ، لا فرجة
فيه • ويتمثل فتيان قومه طوالاً ، كأنهم الردينيات ، ويتفجع لمصارعهم
بالخرية ، من فتى كريم ، وسيف قاطع ، وجفنة كان اليتامى عيالها ، وسابغة ،
ومهرة أودى عنانها • ولكنه الفرزدق تملؤه الفحولة والرجولة ، لا يلبث أن
يستمسك ، ويسترد صبره ويتمالك • إنه يعارك الخصوم والحياة ، فلا
استسلام ، ولا استكانة :

(١) الديوان : ٢٦٧ ، ٨١٧ ، وسلمى : أحد جبلي طيء ، وهما أجا وسلمى (معجم البلدان) .

على أن فينا من بقايا كهولنا أساة الثأى والمنفطات الصوارع^(١)

وقد بلغ من حزنه ، وشدة وجدده على فقد من فقد ، أنه حين أقبل يمدح الوليد بن عبد الملك على تقيئة ذلك لم يقو أن يخفت صوت أحزانه ، فتعنى أساه ، وما نزل به ، وأخذ يتعزى بلون من الحكمة ، وما من عزاء :

وأين اخلائي الذين عهدتهم وكلهم قد كان في غبطة مثلي
دعتهم مقادير فأصبحت بعدهم بقية دهر ، ليس يسبق بالدحل^(٢)

وانتقلت بادية مجاشع الى الشام بعدما حل بها ، فإذا الفرزدق واله :

ألا ليت شعري ما أرادت مجاشع الى الشام ، أم ماذا يقول أميرها

فيذكر مجد قومه ، وعزهم ، وكثرة عديدهم ، ويتحدى شماتة الشامتين ، ويعاوده الحرص ، أن يعود قومه الى أرضهم وديارهم ، فيهمس اليهم مناديا ومغريا ، بصوت فيه حنان ورقة ، وفيه عدوبة وحب :

هلم الى بئر لكم قد حفرتها يزيد على غرف الدلاء غدورها
ألم يثفرغ في كلمته : قد حفرتها ، كل ما استطاع أن يفرغ من ضروب
التعلق ، والمودة ، والدعوة والإغراء^(٣) :

كان تعلق الفرزدق بقومه وثيق العرى ، فهو يباليخ في الاعتداد بهم ، والاتتصار لهم ، ولما بكى أبطالهم الذين اعتدهم مثلاً يتشوف اليها ، كانت مرآيته تعكس هذا الاحساس الذي تمكن منه تمكنا لا نجده لشاعر آخر : مات وكيع بن أبي سود (نحو سنة ١٠٠ هـ) فجاء الفرزدق وعليه قميص أسود ، مشقوق ، فأخذ قائمة السرير ، ثم نهض به ، يندبه بشعر ، ويؤبئنه ، فراح يشيد بشجاعته ، ويعجب للدهر يصيبهم بمرزئة تبيض منها المسائح ،

(١) الديوان : ٤٩١ - ٤٩٢

(٢) الديوان : ٧٠٣

(٣) الديوان : ٢٩٣ ، أنساب الأشراف ١١ : ١١١

تذكره بالمصائب التي توالى على تميم ، فنالت أشرافها وفرسانها ، فكم هدت الأيام من جبل ، وسابغة ، وأبيض مصقول . ولكنه الفرزدق لا يتهاوى جزعا إلا لينهض صبورا :

وإننا على أمثاله من جبالنا لأبقى معد للنوائب والدهر

وكان الفرزدق شديد الإعجاب ببطولة وكيع وشجاعته ، لا يزال يذكر له مواقفه ، فقال في رثائه عدة مقطعات ، عمودها الاشادة باقدامه في الحرب ، والعجز أمام دهر يرمي بداهية أشد من القتل ، ودعوة تميم الى الصبر ، فالموت منهل يصير اليه صابر وجزوع^(١) ، وكأنه كان يستريح الى هذه المقطعات يبكي فيها البطولة الآفلة ، ويتعزى ، وما من عزاء • بل لعله وقد جاوز الثمانين يوم وفاة وكيع كان يتوقع دنو أجله ، وقرب منيته ، فيحس قومه من خسارته بمثل ما أحسوا به لوفاة أبطالهم • ألم يعلن ذلك في قوله :

ألا ليت شعري ما تقول مجاشع إذا قال راعي النيب: مات الفرزدق^{*}
ألم أك أكفيها وأحمي ذمارها وأبلغ أقصى ما به متعلق^(٢)

وفي قوله :

إذا مات فابكيني بما أنا أهله فكل جميل قلت في يصدق^{*}
وكم قائل مات الفرزدق والندی وقائلة مات الندى والفرزدق^(٣)

كان يحس أنه شيء له خطره في حياة تميم ، وكان يتساءل ملحا عما يصير اليه قومه إذا وافته منيته ، وهو سؤال يحمل في طياته ما كان يراه لنفسه في الدفاع عن تميم ، وتشبيد مجدها :

(١) الديوان : ١٤٦ ، ٢٤٦ ، ٣٨٩ ، ٤٣٨ ، ٥٠٩ ، ٦٣٢ ، ٧٧٨

(٢) الديوان : ٥٨٩

(٣) سرح العيون : ٢٣٩

يا ليت شعري إن عظامي أصبحت
هل تجعلن بنو تميم منهم
في الأرض رهن خفيرة وصخور
رجلاً يقوم لهم بمثل ثغوري^(١)

ولعل أجمل مراثي الفرزدق ما قاله في أبنائه • كان الفرزدق يمني النفس
بأبناء يطينون به ، يعتز بهم ويفاخر ، كأنهم ، حواليه ، الأسود الحوارد •
يرثون مجد آبائهم الباذخ ، ليغدوا قادة مجاشع ، وسادتها • ولكن المقادير
لم تتح له ما كان يؤمل • فعدت المنية على ابنين له من نوار زوجه ، فاستلبتهما
منه ، فتملكه أسى للفجيعة النازلة عميق ، يأبى عليه السلو • أحقا أن ابنيه
ارتحلا وخلفاه ، ولكن ما أشق ما تبدلاه من دنياهما الجميلة الناضرة ،
الآنسة ، تبدلا منها هوة مخيفة يهابها الناس :

ومحفورةٍ لا ماء فيها مهية
أناخ إليها ابناي ضيفي مقامة
يُغَطِّي بأعواد المنية بابها
إلى عصابة ما تستعار ثيابها

ولئن غيب القبر ابنيه ، لقد ضم نفسه أيضا ، فإن بقي مستمسكا بدماء
من الحياة فالى أجل • وإنها صورة للقبر تفرع بصدقها ، يتسلل لها الخوف
إلى القلوب ، يزيد لها رهبة ومهابة باب "مرعب" : إنه أعواد المنية تغطي هوة
القبر حاجزا بين الموتى والأحياء • ألا ترى أن الفرزدق ذو مقدرة فذة في
اختيار اللفظ المشير ، الموحى ، يزخر بالصور والأخيلة ، وأي إيجاء أشد من
أعواد المنية تستعار للحجارة التي تغلق بها القبور • وهكذا توارت آمال
الشاعر في ابنيه أشد ما كانت نضارة ، فعادت حشرات يجترها ، فإذا هو
يستعرض صور مامننّى به النفس ، من أن يكونوا درعه في الملمات ، فرسانا في
قومهم ، أجوادا ، أسخياء ، وتستشيرهم ذكراهم ، فيبلغ ذروة العاطفة ، وذروة
التعبير الشعري ، وهو يعلنك ما يحسه من اضطراب وجزع حين يسمع
أسماءهم :

(١) النقائض : ٩١٠

إذا ذكرت أسماؤهم أو دعوا بها تكاد حيازيمي تفرسى صلابتها

ويمضي في عرض الصور التي تنبىء عن الصلة التي كانت ، والأمني التي انهارت ، ليدل على فداحة النازلة • كان بهم كالليث في خيس غابة • وكان في حرصه عليهم وما انتهى إليه أمرهم كمن تجزعت رماحه بعد تقويسها ، وسنّ حرابها • ولكن الفرزدق في جزعه لم يتهاو ، ولم يتهاك ، بل يستعيد نفسه ، ويملك شيئاً من أمره ، فما يكاد يخاطب نواره يودعان قبورا يعز عليهما اجتنابها ، حتى يقف يعارك الحياة والخصوم ، ويتعالى على المصائب التي لو نالت سلمى لارفضت هضابها ، ولكنه البطل لا يتضعض جانبه ، يخضع الأعداء ، ويذل الرقاب ، ويهزأ بشماتة الشامتين • وهذا جانب من جوانب حياة الفرزدق يلح في تأكيده ، لا يسأل أن يبدىء فيه ويعيد • وهو يلون رثاءه تلويها فريدا قل أن نعر على مثل له في المراتي ، إنه يتخوف أن يظن جزعه تهاككا وانهارا ، فينتصب بعد الأسي ، بطلاً ، شامخ الرأس ، مستعدا للنضال والملاقات ، قد أبقت منه المصيبة صخرة صلدة يرادي بها الباغي ، وقناة صلبة صما كعابها • رمى الحرب حتى تركها كسير الجناح ، وأقعت منه على الأذنان كل قبيلة ، ذليلة الرقاب (١) •

وتعالت هممة لما نال الفرزدق ، فيها شماتة وتشف ، وتبلغه قوارص الكلم فإذا هو عنيف بهم لا يرحمهم :

بفي الشامتين الصخر* إن كان مسني رزية* شبلي مخدر في الضراغم

ثم يخفت صوته قليلاً ، وتسكن نفسه ليمضي في لون حزين ، هادىء الحزن ، فيذكر أن الموت غاية كل حي ، ولو عاش أياما طوالا • وكأنه يعزي زوجه النوار التي اشتد حزنها وكادت تشق من الوجد حيازيم نفسها • ولئن ذكر في صدق

(١) الديوان : ٥٠٩ ، ٨٨٥

حزنه على ابنه ، انه يتجلد ويتصبر ، ويمضي مسرعا ليعزي النوار ، فيعدد
 أعظم الرجال الذين رزى أقوامهم بهم ، وهو بذلك يكشف عن رغباته
 الدفينة في رؤية بنيه سادة أشرافا يقايسون هؤلاء عظمة ومجدا • ويختتم
 قصيده بالعزاء الأبدي : « فلن يرجع الموتى حنين المآتم » وهو عزاء يرضي
 النفس الحزينة التي تريد أن تحتل ألمها في صبر • ولأمر ما ذكروا أن
 الحجاج حين نزلت به مصيبته بابنه وأخيه في جمعة واحدة كان يتمثل بشعر
 الفرزدق :

وما ابنك إلا من بني الناس فاصبري فلن يرجع الموتى حنين المآتم^(١)

ولكن المنايا ما تزال تغدو على بيت الفرزدق وتروح ، فتعدو على اثنين
 آخرين من بنيه • وتزداد شماتة عدوة به ، متشفية ، مستزيدة ، يبور الحقد
 في قلبها ، أورثها إياه أب حاقدا كان لا يخفي بغضه وشماتته • ويبلغنا
 صوت الفرزدق يرد على الشامتة ، ولكنه صوت أقرب الى الخفوت ، لا شدة
 فيه ولا هدير • لقد عنف به الموت ، فهدأ من عنفوانه ، وواري شرسته ،
 فإذا هو مطأطئ الرأس ، يعترف للشامتة التي لم ترعها مصيبته ، ولم تشف
 أحقادها ، فتمنت أن تنزل به المنية ، أن ما يخشاه من الفرع الأكبر الى يوم
 القيامة والنشور ، أجل مرزئة عليه ، ويعجب للعدوة الشامتة ، لا يسكت
 صوت بغضائها ما نابه من مقطعات المصائب ، ولا يرضيها إلا أن تنزل به
 المنية :

أما ترضى عديّة دون موتي بما في القلب من حزن الصدور
 بأربعةٍ رزعتهم وكانوا أحب الميتين الى ضميري

ويمضي في لحن حزين هادىء ، ينبىء بعظم الفاجعة التي أصابته ، ويتجلد

(١) الديوان : ٧٦٤ ، التعازي : و - ظ ٨٦

أمام النازلات ويتصبر بذكر وفاة أبيه وجده ، ويلوذ بالحكمة الخالدة ،
لا ينفك يرددّها لتبعث في النفس العزاء ، وما من عزاء :

ولو كان البكاء يرد شيئاً على الباكي بكيت على صقوري

ويحز في نفسه ما تلقاه النوار من حزن يثيره ويهيج آحزانه ، فإذا ليله بأثقاله
وهوموه :

كليل مهلهل ليلى إذا ما تمنى الطولَ ذو الليل القصيرِ

ويفيض في وصف طول ليلته وما يعاينه فيها ، ليلة لا نوم فيها ، ولا ضوء
لصاحبها منير^(١) .

ويبدو الشاعر في مرثيته ، وقد ملأه الإحساس بدنو الأجل ، فهو
يتخوف المنايا ، ويترقبها ترقب العاجز لا حيلة له ، « وهن وراء مرتقب
الجدور » ولم يجده نفعاً في ستره أن يتذكر الخوف الأكبر يوم القيامة ،
ليستر به خوف الموت ، فقد استبد به استبداداً بدا لنا في هذا الجرس
الهاديء لا تعلق نبراته ، وفي هذا الاستسلام العاجز القانع أمام الموت يشيع
في المرثية ، فيحول بينه وبين العنفوان وحب المناضلة ، اللذين طالما
تعنى بهما .

واختار الفرزدق لمرثيته بحر قصيدة مهلهل الجاهلية التي رثى بها أخاه
كليبا وأطال في وصف همومه وليله الطويل « أليلتنا بذى حسم أنيرى »^(٢)
ليزيد في التأثير ، حين يوقع على لحن حزين ، قد ألقه السمع وسكنت له
النفوس .

وهكذا اتسمت مرثي الفرزدق لأولاده بسمات وثيقة الصلة بنفسه ،

(١) الديوان : ٢٧٠ .

(٢) أمالي القاضي ٢ : ١٢٩ ، الأصمعيات : ١٧٣ - ١٧٥ ، معجم البلدان

٤ : ١٩٨ ، وتتمة مراجع القصيدة في سمط اللآلئ ٢ : ٧٥٤

وبنظرته الى الحياة ، كان حلمه الأكبر أن يتقلب في حشد من الأبناء حاشد وكان يعز عليه أن يتلفت حوله فلا يرى ورتاء المجد : مجد مجاشع الذي انتهى اليه ، وكان هذا الاحساس يؤرقه ويؤلمه . وكان امرأته طيبة أدركت منه هذا الضعف حين قالت له : ليس لك ولد ، فأجابها تلك الاجابة المؤثرة التي لا تكتفي بالرد ، ولكنها تفصح عن رغبته الدفينة العارمة :

تقول اراه واحدا طاح أهله يؤلمه في الوارثين الأبعاد
فإني عسى أن تبصريني كأنما بني حوالي ، الأُسود الحوارد
فإن تميما قبل أن يلد الحصا أقام زمانا وهو في الناس واحد^(١)

كان يرى فيهم العون والنصير ، يشدون عضده ، وينتصرون له ، ويحمونه ، ويقومون عليه في شيخوخته ، ويدرعون عنه المتطاولين . وبهذا الاحساس نراه حين يتحدث عن زوجه سويذة يأبى أن يطلقها حبا لأبنائها .

ولولا أئينوها الذين أحبهم لقد أنكرت مني عنود الجنائب
ولكنهم ريحان قلبي ورحمة من الله أعطاهامليك العواقب
يقودون بي أن أعمرتني منية وينهون عني كل أهوج شاغب^(٢)

ولما شكوا اليه ابنته مكية ، وكانت لأمة زنجية ، أنكر عليهم ، وأكد لهم أن لها أعمام صدق ، واخوة ، وأبا يتنمر دونها . وراح يفاخر بما تعهدها به في التربية والنشأة ، وما أخذها به من حسن الأدب ، حتى غدت ، حين شبت ، جديرة بأبيها أدبا وعفافا :

ريبة دايات ثلاث ربيها يلقمنها من كل سخن ومبرد
إذا اتبته أطعمتها وسقيناها وإن أخذتها نعسة لم تسهد
وشبت فلا الأتراب ترجو لقاءها ولا يبتها من سامر الحي موعد^(٣)

(١) الديوان : ١٧٢ ، وفي معاهد التنصيص ١ : ٣٠٤ - ٣٠٥ ، أن الإبيات قيلت في النوار .

(٢) الديوان : ٢٨

(٣) الديوان : ١٨٢ ، ٨٨٠ - ٨٨١

وكان الفرزدق يتحرق شوقاً أن يرى حلمه يتحقق ، أن يرى حوله أبناءه أبطالاً ، أقوياء ، يملؤه الاعتزاز بهم ، يطوفون حوله ، فإذا هو :

هزبر ، إذا أشباله سرن حوله تشظت سباع الأرض من ذي النحائم (١)

ومن هنا كان رزؤه بينيه ، ورثة مجد دارم ، وحفظة شرفها ، مأساة تملأ عليه نفسه ، فلا يكاد يولي سواها اهتمامه • يبدو ذلك أجلى بدو حين ماتت جاريتها بجمع (٢) فلم يتأب أن يذكر أنه رزىء غمد سلاح ، لم يملكه الحزن عليه ، ولكن ما أهمه ما حواه الغمد :

وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو ان المنايا أنسأته لياليا (٣)

إن أطيايف البطولة تطالعه ، فيأسى لولده الذي مات في بطن أمه ، لأنه يخيل إليه أن يكون ذا حفيظة ، يرث عن أبيه الكريم ، النبيل ، عراقة بيته وآبائه ومجدهم وشرفهم ، ومساعيهم • وشاء القدر أن يلاحق الموت أبناءه حتى آخر حياته • ففقد ابناً له صغيراً قبل أن يدركه الأجل بأيام ، فقال فيه وكأنه يتنبأ بمصيره :

وما نحن إلا مثلهم ، غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدموا (٤)

ومات أخوه الأكبر الأخطل • ومات ابن أخيه محمد بن الأخطل ، فارتد في رثائهما الى نهجه الأول في رثاء أبيه غالب • فأخوه ما من أخ كان مثله ، لقرى الضيف ونصرة الجار • وتحس الحب العميق بين الأخوين حين تسمع الفرزدق يناديه : ابن أمي ، أخي ، بل وتحس اللحمة بين

(١) الديوان : ٧٦٤

(٢) جاء في لسان العرب : وماتت المرأة بجمع وجمع [بضم الجيم وبكسرهما] : أي ماتت وولدها في بطنها •

(٣) الديوان : ٨٩٤ ، النقائض : ١٠٤٣ ، الأغاني ٢١ : ٣٤٢ ، أنساب

الأشراف ١١ : ٧٢ - ٧٣

(٤) الديوان : ٨١٨ ، الأغاني ٢١ : ٤١٠

الاسرة ، والحنان يربط بين قلوبها ، والإجلال لغالب الأب الكريم ،
 وشدة التعلق به ، والتشوف إليه ، حين يبدأ احدى مرثيتي أخيه بذكر
 غالب وبكائه ، وكأنه يحس أن مصيبته بأبيه لا تعدلها مصيبة ، فما كان
 له أن ينساه • وأي جزع جزعه ، إنه لا يرى البدر أو الشمس إلا ذكراه
 بغالب^(١) .

وهو يرسم لابن أخيه محمد ، وقد مات في أريحا في عسكر سليمان
 ابن عبد الملك ، وكان الفرزدق يدلّف الى الثمانين ، صورة السيد الكريم ،
 والوريث لمجد آبائه ، ويصف جوده بصورة من صورهِ الرائعة التي برع
 فيها ، فيذكر القدر ، والنار ، وتوافد اليتامى على آثار أرامل سود ،
 كأنها رئال دعاها للسميت نعامها وأي عجب أن يرسم الفرزدق لابن أخيه محمد
 هذه الصورة ، وهو يرى فيه بقية أبيه غالب :

وكنا نرى من غالب في محمد خلائقَ يعلو الفاعلين جسامها
 تکرشمه عما يُعَيَّر ، والقري إذا السنة الحمراء جلتح عامها

فإذا استوفى لابن أخيه صورة البطولة ، عاد يذكر أحزانه ، وهو حزن
 عميق ، يحاول فيه الشاعر أن يتعزى ، ويهون وجده ، فالموت حتم في رقاب
 العباد ، ثم تغلبه أحزانه ويأسف لخيانة الأيام ، ويغالب الأسي فلا يقوى
 على مغالبتة ويطول نحيبه وهو يقف أمام القبر :

شامية غبراء ، لا غولَ غيرُها اليها من الدنيا الغرور انصرامها

ويدرك أنه الفراق ، لا لقاء بعده ، فقد وراه الثرى :

نناديه نرجو أن يجيب وقد أتى من الأرض أنضاد عليه سلامها^(٢)

(١) الديوان : ٩٩ ، ٣٤٥

(٢) الديوان : ٧٥١ - ٧٥٤

وللفرزديق لون آخر من المراثي ، هو رثاؤه الأشراف والولادة ، وقد اتسم بسمات تجعله جديرا أن يفرد عن سابقه • رثى مالك بن مسمع سيد بكر بن وائل بمقطوعة من ثلاثة أبيات ، أشاد فيها بقوته ، وجوده^(١) • وله في هذه المراثية التعبير البكر « معطس العز » الذي أوحى الى بشار بتعبير ، أنا أنف الكرم ، الذي عد من مبتكراته^(٢) • ورثى سلم بن زياد ، وكان سخيا جوادا ، وهب للفرزديق مهر النوار ، فرثى فيه غيث كل يتيمة ، وأرملة ، والمعتمدين الأفقر^(٣) • ورثى بشر بن مروان ، وكان يوده ، فاحتفل لرثائه ، وعقر فرسه على قبره ، فدعا عينيه أن تسعداه ، وتحدث عن فجيعة بأبيض ، ميمون النقية ، ثم بالغ في بيان فجيعة حين ذكر أن النجوم كادت تقع لفقده ، والأرض تهد جبالها ، ولم ينس ، وهو يتحدث عن نسبه القرشي ، أن يعمز كليبيا قبيلة جرير ، أثرا من آثار تلك المعركة الحامية الوطيس • ثم انتهى الى خطاب فرسه ، وتصميمه على عقره :

حلفت له لا يتبع الخيل بعدها صحیح الشوی حتى يكوس من العقر^(٤)
ورثى محمد بن موسى بن طلحة ، وكان شبيب الخارجي قتله بالأهواز ، قال فيه قصيدتين ، ويبدو أنه أعجب ببطولته ، فقد كانت البطولة تستأثر به ، فألح على عينيه أن تبكيه بالدم ، إذا نقد الدمع ، فقد بكته كل عين ، وأشاد بنسبه بين صديق النبي وطلحة ، ثم تحدث عن الموقعة ، حين فرت الكتائب حوله ، وتأبى أن يفر ، فالفرار خزاية ، ولم يلد بخيله العناجيج من آل الصريح لينجو عليها ، بل كر بسيف أبي بكر وطلحة ، كمخضوب الذراعين ضيغم ، حتى لقي وجه ربه ، فجمع القبر ابن موسى والمكارم والندی ، وغدا الناس بعده كقناة حرب غير ذات سنان^(٥) • ورثى عمر بن

(١) الديوان : ٢٦٨

(٢) ثمار القلوب : ٢٦٣

(٣) الديوان : ٣٣٧

(٤) الديوان : ٤٩٤

(٥) الديوان : ٨٠٧ ، ٨٦٦

عبيد الله بن معمر التيمي ، فذكر شجاعته وأيامه في فارس وفي هجر ، وأحيا ذكر أبيه الشهيد في اصطخر ، وبين ان النوائح ، اذا عددن فعالا لعمر أو حسبا ، أو يوم هيجاء ، لا يعدون ما كان فيه من صفات^(١) . ورثي عبد العزيز بن مروان رثاء ألحقه بما مدح به ابنه عمر أمير المدينة ، وكأنه يتقرب الى الابن برثاء أبيه ، فصور مالحق بالناس اذ خلّى عبد العزيز مكانه ، فهم يقبلون ترابا فوق أعظمه ، ويطوفون به كما طاف أيتام بأم حفية^(٢) . ومات أخو الحجاج وابنه في جمعة واحدة (سنة ٩١ هـ) ، وحزن الحجاج عليهما ، واشتد جزعه وطلب شعرا يسلى به ، فرثاهما الفرزدق بيتين فاستزاده ، فاتبعهما بيتين ، فاستزاده ، فقال في رثائهما قصيدة طويلة : ذكر المصيبة الموجهة ، وما كانا عليه ، كانا جناحي الحجاج ، وكانا سيفا وسنانا ، وعقّب بصر الحجاج ، وصور يوم النعي ووقعه في نفوس الناس ، والرزة الذي حل ، « فلا رزة الا الدين أعظم منهما » وأعاد القول في صفاتهما ، وحث عينيه على البكاء :

وما لكما لا تبكيان وقد بكى من الحزن الهضب الذي قد تقلعا

وأقام الماتم تنعى خير شبان الرجال ، وخير شبيهم ، وختسم رثاءه بالاشادة بشجاعة الحجاج^(٣) . فلما مات الحجاج (سنة ٩٥ هـ) ، وكان الفرزدق يخافه أشد الخوف ويعجب بقوته التي أخضعت المخالفين ، فخيم الامن ، واطمأن الضعاف ، رثاه فدعا الى البكاء على الحجاج ، وبين منزلته في ضبط الأمور ، وحماية الثغور ، وذكر على لسان امرأة ما ينسب عن أمن الارض بالحجاج ، وضبطه اياها . ويبدو في المرثية ما كان يحسه الفرزدق من قوة الحجاج ، وحزمه ، وشدة ضبطه^(٤) .

(١) الديوان : ٢٩٠

(٢) الديوان : ٢٢٥ ، ٦٣٠

(٣) الديوان : ١٩٠ ، ٤٩٤ ، الكامل للمبرد : ٢٩٢

(٤) الديوان : ٣٦٥ ، ٥٢٩

وللفرزديق مرات قصيرة في سليمان وابني مسمع ، وهلال بن أحوز ،
وعمر بن يزيد الأسدي^(١) . وله مرات في مجهولين^(٢) تنبىء عن صلة
الشاعر بهم ، ومالهم من رفيع المكانة .

ومراثي الفرزدق في الأشراف والسادة ، قريبة المتناول ، لا تعلقو علو مراثيه
في ذوي قرابته ، ولا تصور اللوعة الحرى ، ولا الحزن يعتلج به قلب
الشاعر ، بقدر ماتصور اعتراف الشاعر بمكاتتهم في قومهم ، وما كانوا عليه
من محامد ، ومكارم ، ويكاد يصدق عليها ان الرثاء مديح ، ولكن بصيغة
الماضي .

وآخر مراثي الشاعر مرثيتان في الجراح بن عبد الله الحكمي ، البطل
الذي وقف يذود عن الثغور في أذربيجان ، فرزق الشهادة سنة ١١٢ هـ ،
فكان في صبره وبلائه ، وثباته ، واستشهاده ، وما نزل بالبلاد من كوارث
الخزر ، الذين عاثوا في الارض فسادا بعده ، مارفع من شأنه ، وأبان عن
منزلته في حماية الثغور ، ودل على بطولته في الدفاع حتى الاستشهاد ،
فدفع ذلك الفرزدق الذي عرفه أيام ولايته البصرة عادلا ، حسن السيرة ،
أن يبيكه ، ويشيد بشجاعته وكرمه وحماية جيرته ، وصبره حتى مشيت به
الى رحمة الله السيوف الصوارم ، فأصبح رفيق نبي الله في الجنة^(٣) .

وقد عيب على الفرزدق انه لم يرث النوار امرأته يوم وفاتها ، وان
الأنواح نذبنها بشعر جرير في الرثاء^(٤) . وردوا ذلك الى غلظة حسه ،
وجسو طبعه ، وجفاء خلقه . ولا دليل لهم في ذلك ، إذ لم يكن في إنف

(١) الديوان : ١٥٥ ، ٦٣٢ ، ٧٦٢ ، ٧٩٠ ، ٨٢٥

(٢) الديوان : ١٠٢ ، ١٦٠ ، ٣٤٦ ، ٨٨٠

(٣) الديوان : ٧٨٩ ، ٨٠٦

(٤) الموشح : ١١٦ ، إعجاز القرآن للباقلاني : ١٧٦

العرب وعاداتهم رثاء نساءهم الا من ندر منهم • ومضى الفرزدق على ما ألف من عادِ قومه ، وهو المعتز بها ، المستمسك بآدابها ، واخلاقها • وأي حافز يحفزه ليخرق العرف ، وقد لقي من النوار مالقي حتى اضطر أن يطلقها ، أشد ما يكون حبا لها ، لنفورها منه وكرهها له ، ويستشهد العائبون تأييدا لرأيهم في جفاء الفرزدق وغلظته بأبياته في رثاء حدراء الشيبانية^(١) وكان قد قدم الفرزدق لينقلها ، فخبّر انها ماتت ، فعجب لما ناله ، وذكر حاله وتمنى لو كشف له القدر ، ومضى به القول الى حدراء :

يقولون زر حدراء ، والترب دونها	وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست ، وان عزت عليّ ، بزائر	ترابا على مرموسة قد تضععا
وأهون مفقود اذا الموت ناله	على المرء من أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزير بكيت ولم تكن	على امرأة عيني إخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز	رزية مرتجج الروادف افرعا
وما مات عند ابن المراغة مثلها	ولا تبعته ظاعنا حيث دعدعا

وهي أبيات تؤكد ، للوهلة الاولى ، ما ذهبوا اليه ، ولكن الدراسة المتأنية لا تلبث أن تبين أن المدعين قد أسرفوا في دعواهم • فالرواة مجمعون ان الشاعر قد خطب حدراء اغاظة للنوار ، وتشفيا منها ، ولم يتح له القدر أن ييني بها ، فلم تتصل جباله بجبالها ليسكن اليها ، وتنمو بينهما المودة والرحمة ، ويخبر منها ما يزيد تعلقا بها وحرصا عليها • وهو في كلمته لا يفرغ لحدراء وحدها يرثيها ، كان يشغله عنها زوجه النوار وخصمه جرير ، وكان يستشف ما سوف يلقاه منهما ، من تشف وشماتة وسخرية ، وما كان أكثر ما قاله في اغاظة النوار وفي الهزء بجرير حتى كانت حدراء محجورا

(١) ديوان الفرزدق : ٥٢٢ - ٥٢٤

لنقائض وقصائد تهادها الشاعران ، وشارك فيها أضم باهلة^(١) . فلا بد وقد نزلت به الداهية ، من أن يصبر ، فيذكر الجميلتين في بيته ، تكونان للعينين والقلب مقنعا ، ويأبى أن يزور قبر حدراء ، وان عزت عليه ، فقد نت الجبل ، ولا جدوى من زيارة تراب على مرموسة . بل ان الفرزدق يرد في مثل هذا على خصمه جرير ، ييكنه ، ويسخر من عجزه حين تهاوى امام قبر خالدة^(٢) ، فهو لا يصنع صنيعه ، إنها المغالبة الفنية قد استأثرت به فهو لا يود أن يفلتها ، ولذا فقد مضى يذكر أن المرأة أهون مفقود ، وأهون رزء لامرئ كريمة قوي ، غير عاجز ، والفرزدق في هذا لا ينال من المرأة ، ولكنه يضعها موضعها في مجتمع عماده الشرف والمجد والقوة ، يؤبن السادة الأشراف ، ويرثي الأبطال والشهداء . وكان لا بد للفرزدق أن يعقب بأن حدراء التي فقدتها فصبر ، شريفة لا يحلم جرير أن يكون عنده مثلها ، وفتح له ذلك مجال القول ، فختم كلمته بالتشنيع على جرير .

إن بيان الملابس التي أحاطت بكلمة الفرزدق ، وإن بيان النوازع التي صدر عنها ، قد دلت أن من الظلم وصف الفرزدق بجسو الطبع ، وجفاء الخلق ، واحتقار المرأة ، إنما هو يستجيب لدواعي البيئة ولحوافز الفن في هذا الخصام الذي امتد بينه وبين جرير .

وبعد ، فإننا لا نملك إلا أن نعد الفرزدق متخلفا في هذا الفن . ولكنه ليس التخلف الذي يبدو فيه بدعا ، ذلك بأن الفحول الثلاثة في العصر الاموي : الأخطل والفرزدق وجريرا ، لم يبرزوا في هذا الفن ، على تفاوت

(١) طبقات فحول الشعراء : ٣٣٣ - ٣٣٧ ، الأغاني ٨ : ٨٥ - ٨٧ ، ٩ : ٣٢٦ - ٣٣٠ ، ٢١ : ٣٣٩ - ٣٤١ ، النقائض : ٨١٩

(٢) ديوان جرير : ١٩٩ ، وهو يشير فيها الى حدراء وتخوفها أن يكون الفرزدق قرينها .

فيما بينهم ، كان الاخطل أكثرهم تخلفا ، وكان جرير سابقهم • والفرزدق
بين بين •



وللفرزدق معان كثيرة طرقها لاتدخل في درب من دروب الشعر التي
صنفها النقاد لأن الشعر حديث النفس ، ومجلى الفكر ، وما أكثر المعاني
التي تخطر للانسان ، وما أشد تنوعها • والفرزدق أكثر الفحول الثلاثة
حديثا عن نفسه ، وتصويرا لعواطفه ، غاضبا ، وفرحا ، وناجحا ، ومخفقا
فهو يصرح حيث يجمع سواه، ويفصح حيث يؤثر الآخرون الكناية والرمز،
فوضع بين يدي الناقد ثروة تمده ، ليتغلغل الى نفسه ويكتشف أغوارها
العميقة ، ويتبين موهبة الشاعر الفنية ، التي هيأت له أن يتحدث أحاديث
شتى ، في موضوعات متباينة ، فلايضيق بها شعره ، ولاتضعف عنها طاقته •



الفصل الرابع الظواهر اللغوية والنحوية (١)

ثقافة الفرزدق :

نشأ الفرزدق في اسرة توارثت المجد ، وعرف رجالها بالحنكة ، واصابة الرأي ، وجودة الحكم ، وسعة المعرفة بأخبار العرب وأيامها وماثرها ، وسير أعلامها المشهورين ، وعني جده وأبوه بالقيام عليه ، فروياه الاشعار ، وقصا عليه الأخبار^(١) ، وأطاف به من أسرته من كان يقول الشعر ، فقدروت كتب الأدب أبياتا لجده صعصعة ، ولعمه همام ابن صعصعة ، أو لابن عمه إهاب بن همام^(٢) . وكان خاله العلاء بن قرظة الضبي شاعرا ذا شأن ، بلغ من أثره في نفس الفتى الناشئ ما جعله يشهد انه ورث الشعر عنه^(٣) . ورافق الفرزدق نهضة الشعر في تميم ، كانت باديتها تضج بالشعراء ، وكثر شعر تميم وغزر ، ولم يكن لقبيلة في العصر الاسلامي مثل حظ تميم في الشعر^(٤) .

كان لهذه النشأة أثرها في نفس الفرزدق ، أتاحت له أن يروي الشعر فيكثر من روايته ، ومكنته أن يصيب من حظوظ المعرفة ماهياً له أن يلسم

(١) الشعر والشعراء : ٧٠ - ٧٣ ، شرح نهج البلاغة ٤ : ٤٧٨

(٢) حماسة البحترى : ١٧٦ ، الأغاني ٢١ : ٣٠٦ ، أنساب الأشراف

١١ : ٣٨

(٣) أنساب الأشراف ١٠ : ٥١٦ ، الشعر والشعراء : ٢٩٦ - ٢٩٧ ،

الأغاني ٢١ : ٤٢٠

(٤) الأغاني ٢١ : ٣٠٩ ، معجم الأدباء ٧ : ٢٥٨

بأخبار الماضين ، وسيرهم وعاداتهم ، أحسن ما يكون الامام ، ليكون له ذلك كله منهلاً ، لا ينضب معينه ، واعانه على أن يظفر بما ظفر ، حافظه ، واعية يسهل له أن يذكر ما سمع فلا ينساه ، كان يذكر ما حدثه به جده وهو غلام . ولما أنشده الراعي النميري أربع قصائد قال له الفرزدق : أعيدها عليك ؟ لقد أتى علي زمان ، ولو سمعت بيت شعر وأنا أهوي في بئر ما ذهب عني^(١) . وانها لموهبة تقرنه بأكابر الحفاظ من الشعراء من أمثال المتنبي ، وأبي العلاء . وقد رقد هذه الموهبة وأسعفها ذكاء متوقد ، جعله حاضر البديهة ، سريع الجواب ، « معناً مفناً » ، فطنا ، يقول في كل شيء . وقد رووا له أعاجيب من اجاباته المسكته ، يقطع بها مخاطبه ، فما ينبس بحرف^(٢) وكان يشتد عجبه ان أعرب عليه أحد بجواب يعييه ، وقد يروح برويه ويتحدث به^(٣) .

وقدم الفتى البصرة يقيم فيها ، وقدر له أن يتنقل في الامصار العربية : الكوفة والمدينة ، ومكة ، وأجناد الشام . وكانت الأمصار العربية في القرن الاول مراكز لتفتح العقل العربي الذي حاول أن يستوعب كل معرفة ، فكانت حلق العلم ، ومجالس الجدل والمناظرة في كل جامع وناد . والناس بين مفيد ومستفيد ، وسائل ومجيب ، وعالم يقرئ ، وطلاب علم يقرؤون عليه ، مطيعين به . وكان العرب في أوج حماستهم واندفاعهم ، بذلوا من نفوسهم كفاء ما يتطلبه العلم . وان المرء ليدهش لتلك الأخبار التي ينقلها الرواة ، تحمل في طياتها ولوع الناس بالعلم وانقطاعهم اليه ، وصرفهم همهم لتحصيله . وكان الشعراء يشركون الناس في هذه الحماسة ، على

(١) الشعر والشعراء : ٧٠ - ٧٣ ، الاغانى ٢١ : ٣٨٤

(٢) الشعر والشعراء : ٢٩٢ - ٢٩٤ ، عيون الأخبار ١ : ٣١٦ ،

٤ : ١١٠ ، البيان والتبيين ٢ : ٣١٢ ، أنساب الأشراف ١١ : ٤٥ - ٤٦ ،

٤٩ - ٥١ ، ٣٣٢ ، الاغانى : ٢١ : ٣١٠ ، ٣٢٠ - ٣٢١ ، ٣٤٨ ، ٣٧٩ - ٣٨٣ ،

٣٩٨ ، ٣٩٩

(٣) أنساب الأشراف ١١ : ٤٦ - ٤٨ ، الاغانى ٢١ : ٣٤٨ ، ٣٨١

تفاوت حظوظهم في المعرفة تفاوت بيئاتهم ، حتى سمعنا عدي بن الرقاع
العامل ي يقول :

وعلمت حتى ماأسائل واحدا عن علم واحدة لكي ازدادها (١)

وكان الفرزدق مفطورا على حب المعرفة ، يسعى وراء العلم ، ويجهد
أن يروي ظمأه فيلقى العلماء والشعراء ، ويقصد الى الحلق ، فيسمع
ويحفظ . سمع كلمة علي بن أبي طالب لأبيه ، فقيده نفسه ليتعلم القرآن .
ولقي جبيهاء الأشجعي ، وهو لايعرفه ، يظنه رجلا من أفناء أشجع ، فاذا
هو يطلب اليه أن ينشده قصائد من شعر جبيهاء ليحفظها . وكان يروي
للحطيئة كثيرا (٢) . ولقي أبا البلاد الكوفي الراوية القديم (٣) واستشهد
بدغفل النسابة وصحيفته ليدل على فضل أخواله من ضبة (٤) . وذكروا أنه
كان كثير التردد على حلقة الحسن البصري ، عالم البصرة ، وزاهدا ،
وفقيها ، فتوثقت صلته بالثقافة الاسلامية ، ومعرفة القرآن ، مما بدا
شيء منه في شعره ، وفي أحاديثه ، حتى قال له سليمان بن عبد الملك :
انك مع شعرك لفيقه (٥) . ولئن تعددت مناحي الشاعر ، واتسعت معارفه ،
لقد ظل الحفيظ الأمين على تراث الجاهلية كأنما جمعت له أخبارها ومعارفها
وعلمومها ، فهو يتقن منها أشياء كثيرة ، وظل يقتفي خطا الجاهليين في بعض
علومهم ، فشهر بالفراسة حتى مايكاد يخطيء في فراسته ، وقلدهم في طرق

(١) الاغاني ٩ : ٣١٧ ، نهاية الارب ٤ : ٢٤٧

(٢) الاغاني ١٨ : ٣٩ - ٤٠ ، ٢١ : ٣٠٨ ، ٤١٩ ، العمدة ١ : ١٧٢

(٣) أنساب الأشراف ١٢ : ١٧٨

(٤) النقائض : ١٨٩

(٥) العقد الفريد ٥ : ٣٨٣ ، طبقات ابن سلام : ٢٨٣ - ٢٨٥ ،

أنساب الأشراف ١١ : ٨٨ - ٨٩ ، أمالي المرتضى ٢ : ٢٨٥

العيافة والزجر^(١) . مما يدل على وثيق ارتباطه بهذا التراث الجاهلي ،
وحرصه أن يلم باطرافه كلها .

وكان أن اتسعت رواية الفرزدق اتساعا أدهش الناس وعجبهم ، جمع
ما تفرق فيهم وعرف ما لم يعرفوا ، وحفظ ماضيهم وجاهلوا فقالوا فيه :
راوية الناس وشاعرهم ، وصاحب أخبارهم . وقالوا : لولا شعر الفرزدق
لذهب نصف أخبار الناس^(٢) . ومما رووه أن حمادا الراوية ، وهو ماهو ،
اتساع حفظ ، وسماع ، أتاها ليرويه شعره فذكر له الفرزدق شاعرين من
شيبان ، لم يعرفهما حماد ، فقال له الفرزدق : أنت لاتروي أشعار قومك .
أفتريد أن تكتب شعري^(٣) ؟ . ولما فخر أبو النجم العجلي بأشراف قومه
بين يدي سليمان بن عبد الملك ، أسرع الفرزدق الى تصديق مفاخره لعلمه
بأنبيائها^(٤) . وحدث محمد بن السائب الكلبي الراوية الكوفي الفرزدق
عن الأصبح بن نباتة المجاشعي ، وكان صحب علي بن أبي طالب ، وحدث
عنه ، فقال الفرزدق : ابن الشام ، ابن الشام ، فقال الكلبي : نعم . قال :
كان عالما^(٥) . وعد المهلب بن أبي صفرة شجعان العرب ، فذكره الفرزدق
من نسي منهم^(٦) . وذكر أبو عمرو بن العلاء راوية البصرة الأكبر ، أنه
أنشد بيت جابر بن حني التغلبي :

نعاطي الملوك القسط ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرم
فأخطأ في روايته ، فأرشده الفرزدق الى صوابه^(٧) . بل ذكروا أنه أرشد
ذا الرمة أيضا^(٨) .

(١) أنساب الأشراف ١١ : ٤١٦ ، النقائض : ٨٢١

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٢١

(٣) أنساب الأشراف ١١ : ٧٨

(٤) الاغانى ١٠ : ١٥٣ ، معاهد التنصيص ١ : ٢٤ - ٢٥

(٥) أنساب الأشراف ١١ : ١٠٩ ، تهذيب التهذيب ١ : ٣٦٢

(٦) تاريخ الاسلام ٣ : ٢٨٧

(٧) المفضليات : ٢١١ ، طبقات النحويين واللغويين : ٣٢

(٨) البديع في نقد الشعر : ١٧٦

ولم يكن بد للفرزدق ، وقد وعى الجهم الكثير من شعر العرب وأخبارها ، ومعارفها فاتسعت ثقافته ، وغزرت روايته ، من أن يحس تفوقه على شعراء العصر ، فادعى انه وريث الشعراء الفحول الماضين ، الذين وهبوا له قصائدهم ، واأتمنوه على فنهم ، ولذ له أن يعدد أسماء طائفة منهم ، توثقت صلته بهم ، وكثرت روايته لهم ، فقال :

وهب القصائد لي النوابع إذ مضوا
والفحل علقمة الذي كانت له
وأخو بني قيس ، وهن قتلنه
والاعشيان كلاهما ، ومرقش
وأخو بني أسد عبّيد إذ مضى
وابنا أبي سلمى زهير^١ وابنه
والجعفري^٢ وكان بشر قبله
ولقد ورثت لآل أوس منطقا
والحارثي^٣ أخو الحماس ورثته
يصدعن ضاحية الصفا عن متنها
دفعوا السي^٤ كتابهن وصية

وأبو يزيد وذو القروح وجروك^٥
حلل الملوك ، كلامه لا ينحل
ومهلل الشعراء ، ذاك الاول
وأخو قضاة ، قوله يتمثل
وأبو دؤاد قوله يتمثل
وابن^٦ الصريعة حين جد المقول
لي من قصائده الكتاب المجل
كالمسم خالط جانبيه الحنظل
صدعاً كما صدع الصفاة المعول
ولهن من جبلي عماية أثقل
فورثتهن كأنهن الجندل^(١)

وانه نص يؤكد ما عرفناه من سعة محفوظ الشاعر ، واكبابه على الشعر القديم يرى في روايته ، وتعرف طرق أصحابه الفنية ، ما يزيد في خصب نفسه وغناها ، ويشحذ موهبته الشعرية ، وينمي أصالته ، ذلك بأن خير الشعراء هم الشعراء الرواة ، الذين ثقفوا روائع الآثار وتمثلوها ، وتبينوا منازع أصحابها في القول فشقوا بعد ذلك طريقهم ، على هدى وبصيرة ، وأبدعوا الجديد ، وهم أعرف الناس بالقديم ، وأوعاهم للحوافز التي تملي عليهم ما يأتون به من جديد .

(١) النقائض : ٢٠٠ - ٢٠١

هيات للفرزدق المعرفة بأدق أسرار العريية ، وتمكنه من أساليبها
و ثراؤه اللفظي لاينضب معينه ، أن يقوى على فنون من التعبير ،
وضروب من نظم الكلام وتأليفه ، بهرت اللغويين والنحاة ، وأصحاب
المعاني ، والبلاغيين ، وجذبتهم اليه • فطارت له شهرة واسعة في مجالسهم
وحظيت أشعاره بعنايتهم في حلقهم ، وأفردوا لها الصحائف الطوال في
كتبهم ، يستمدون منها الشواهد والحجج ، ويجدون فيها الدليل المسعف •
حتى أصبح الفرزدق لا يذكر دون أن يستحضر الذهن صورته اللغوية
النحوية التي أقامها له اللغويون والنحاة ، وأفاضوا في ابرازها وتجليتها •



(٢)

الجانب اللغوي :

أول ما يبدو لقارىء ديوان الفرزدق سعة معجمه ، وثرأؤه ، ومقدرة الشاعر أن يجول في ميادين شتى ، لا يعجزه ما طبع عليه من جزالة الكلم ، وشدة أسره . لقد قوي على معجم العربية ، فترات في أشعاره الالفاظ والصيغ التي قل استعمالها ، فبعثها الفرزدق من مرقدتها لتتألق في شعره . كان يجد في احيائها إحياء المعنى في نفسه ، لا يؤديه سواها ، ولعله كان يرى في ثقل صياغة بعضها ، أو ضخامة أصواتها ، وخشونة جرسها ، معينا لما يريد أن يوحى به من معان ، أو ما فيئته من ظلال . وكان يجرؤ على الاشتقاق ، والتضمين ، ومغايرة المؤلف ليؤدي معناه ، ويضم الى ذلك جرأة في اصطناع المجاز يتجاوز به المتعارف الذي درج عليه القول ، وتناقضه الالسنه . فحفز هذا كله اللغويين أن يسارعوا الى شعره يستمدون منه الدليل والشاهد . وأكثروا من الأخذ عنه حتى بدا في كتبهم مجليا على ما سواه من الشعراء ، اذا استثنينا الرجاز ، من أمثال العجاج ورؤبة ، الذين كان رجزهم معرضا للغريب والنادر . وان العودة الى الشواهد التي أتوا بها ، وتداولوها في كتبهم ومعاجمهم تؤكد ما بيناه من سر ولوعهم بشعره وايتارهم اياه . إنهم كانوا يقعون فيه على النادر الغريب من صيغ الالفاظ والتركيب والمشتقات ، أو البديع العجيب من مجاز القول وكناياته ، مما لم يألفوه . وأسرع فأؤكد ان هذا الحكم لا يشمل كل ما استشهد به اللغويون من شعر الفرزدق ، فان جانبا كبيرا من شواهد ، لا يفترق عما يورده اللغويون من شواهد الشعراء الآخرين يأتون بها تثبيتا ، وتدليلا على ما جمعوه من مفردات اللغة ، ومعاني ألفاظها ، كالأستشهاد به على

صحة ان الصراري مفرد ، وان الحوائج جمع حاجة^(١) ولا بد من تنحية هذا القسم ليصدق الحكم ، وتستين القضية •

فمن الالفاظ والصيغ الغريبة التي ضمت الى الغرابة ضخامة في الجرس في الأعم الأغلب ، قوله : وكانوا مطرخمّي الطراخم ، الطرمساء تطخطخت ، والمستصعبات الشداقم ، لما اتمارت جذورها ، فهذي حديا الناس ، قرعت ظناببي على الصبر ، غضون العنبري الجراضم ، بذخ كل فحل ، الطويل العشيق ، والوابل المتبعق ، فادرکهن منبعق ثعاب ، ضغا ضغوة في البحر لما تعظمت ، وكنت الى القدموس منها القماقم ، ذراها لك القدموس منها العراعر ، فغرقت حين وقعت في القماقم ، لجب العشيّ ضبارك الاركان ، وعز لم يزل مقعنسسا ، نکال لعريان العذاب عصبص :

وكل فضفاضة كالثلج محكمة ماترثعن لدس النبل بالقطب

اللهاميم الرغاب ، وقال لكل ظروف ، لدارت عينه واسمدرت ، لم يغن ماخذقت حولك نقرة ، فطالت على رغم العدى فاشمخرت ، ودونه شماریخ ، ولم تستطيعي القلقلان العشنزر ، تباشرن واعصوبن ، قرم يبارى شماطيظ الرياح ، ضغاييس الحمى ، حتى نميل بعارض مشعنجر^(٢) • وأنت تقع على أمثال لها كثيرات في ديوان الشاعر تدل على ايثاره الضخم من الالفاظ ليلائهم معانيه ، ومفاخره ، لايعبأ بغرابته وبعده • بل يحس قارئ ديوانه أن الشاعر قد ألف هذه الألفاظ إفا أزال غربتها وأدناها إلى قلبه • وبلغ به الأمر أن كان لايتأبى أن يستعير من كلام سابقيه

(١) لسان العرب (حوج) ، (صرر) ، خزانة الأدب ١ : ٨٠ - ٨١

(٢) ديوان الفرزدق : ٣١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٣ ،

١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٧٣ ، ٣٥٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ،

٤٧٠ ، ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٧٤١ ، ٧٧٢ ،

٨٤١ ، ٨٥٣ ، ٨٦١ ، ٨٨٢ ، ٨٩٠ ، النقائض : ٢٠٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٣

من الشعراء ما أعربوا فيه فيضمنه شعره ، كاستعارته قول عمرو بن أحمر الباهلي :

وإن قال عاو من معد قصيدة بها جرب عدت علي بزوبرا

في كلمة اعتذر بها لبني فقيم ، وأخرى اعتذر بها لخالد القسري . ولم يسمع بزوبر الا في شعر عمرو بن أحمر ، الشاعر المغرب ، فأخذها منه الفرزدق وضمنها شعره^(١) ومن شواهد النادر الغريب التي أتى بها اللغويون في كتبهم ومعاجمهم ، وهي شواهد شاركهم في بعضها النحاة ، قوله : بس المدافع عنكم علودها ، لغرابة الوصف به ، وقوله :

قعيدكما الله الذي أتما له ألم تسمعا بالبيضتين المناديا ؟

ليبان طريق استعمال هذا القسم ، وقوله : لما اتمأدت جذورها ، لغرابة الصيغة وشدوذ اشتقاقها ، وقريب منه مقاله المؤرج في قول الفرزدق :

بجنبي حلال يدفع الضيم منهم خوادر ، في الاخياس ما بينها سبر

قال ، معناه : ما بينها عداوة . وهذا غريب . وقوله : أتلفنا المنايا واتفوا ، لكثرة الاحتمالات في معناها . وقوله : حواسات الشتاء خبعتات ، لحيرة اللغويين في معناها . وقوله : يا أيها الجالس وسط الحلقة ، لتحريك اللام في حلقة القوم ، وقوله : رقدن عليهن الحجال المسجف ، لتذكير الوصف ، ومثله : مواثيق الجري المكررا ، وقوله : أخزالك حيث تقبل الاحجار ، بأحفار فلج أو بسيف الكواظم ، لجرأته على استعمال الجمع بدل المفرد ، وقوله : قد مات في اسلاتنا ، لجمعه الاسل وهو جمع . وقوله :

(١) الديوان : ٢٥٥ ، ٣٦٦ ، لسان العرب (زبر) (حق) ، شرح

شواهد المغني ١ : ٣٩٦ - ٣٩٩

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتا ، دعائمه أعز وأطول
ومثله : وقد علموا أنني أطب وأعرف ، لاتيانه باسم التفضيل دون ذكر
المفضل عليه المقرون بمن^(١) . وألحق اللغويون بهذه الشواهد ما غمض
معناه من مثل قوله :

خرجن حريرات وابدین مجلدا ودارت عليهن المقرمة الصفر^(٢)
وهو لون من الشعر احتقل له اللغويون ، وجعلوه قسما برأسه ، وأفردوا
له كتبا عرفت بكتب المعاني ، وكان للفرزدق فيها الحظ الأوفى^(٣) .
وعنى اللغويون ببيان مقدرة الفرزدق على التضمين ، ووضع حرف
من حروف التعديّة بدل آخر . من مثل قوله :

وإذا اخندف بالمنازل من منى طار القبائل ثم كل مطير
يريد في المنازل ، فجاء بالباء وإنما يريد في^(٤) . وكذلك قوله :
تُشلي كلابك ، والأذنان شائلة على قروم عظام الهام والقصر

فقد ضمن الإشلاء معنى الإغراء فعدها بعلى^(٥) . واستشهدوا بقوله :

قد قتل الله زيادا عني

فعدى قتل بعن ، لأن فيه معنى صرف ، فكأنه قال : قد صرف الله زيادا عني^(٦) .
ومن شواهد اللغويين التي أتوا بها للتدليل على جرأة الفرزدق في

(١) لسان العرب : (علد) ، (قعد) ، (مدد) ،
(سبر) ، (تلف) ، (حوس) ، (حيس) ، (خبعثن) ،
(حلق) ، (رجع) ، (سجع) ، (حجل) ، (حجر) ،
(حفر) ، (كظم) ، (اسل) ، (عزز) ، (كبر) ، ديوان الفرزدق :
٤٢٩ ، ٣١٧ ، النقائض : ١٦٨ ، ١٨٢ ، ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، الخصائص ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢

(٢) اللسان (حرر) ، الديوان : ٣١٧

(٣) أبرز هذه الكتب كتاب : المعاني الكبير ، لابن قتيبة .

(٤) النقائض : ٩١٣

(٥) اللسان (شلا) ، الديوان : ٣٧٠

(٦) اللسان (قتل) ، الخصائص ٢ : ٣١٠ ، ٤٣٥ ، الأشباه والنظائر

اللسيوطي ١ : ١١١ ، ٢٠٩

اصطناع المجاز ، وهي شواهد شاركهم فيها البلاغيون وعلماء المعاني ،
قوله :

وقوفا لدى الأبواب ، طلاب حاجة عوان من الحاجات ، أو حاجة بكر

ومثله : ابكار كرم يقطف ، لافتنان الفرزدق في معنى بكر ، وقوله : جرى
حذب البهيمي ، لما تناثر منه فركب بعضه بعضا ، وقوله : « فمكنت سيفي من
ذوات رماحها » كناية عن النوق السمان، وقوله : « ينش بذى الدلو المحيل » ،
كناية عن الماء المتغير ، وقوله : « لا يستلحيان قراري » ، بمعنى الاستيقاف
والانتظار ، وقوله :

عشية سال المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف الصوارم
وإنما هو مربد واحد فثناه مجازا ، ثم أكده وإن كان مجازا ، وقوله :
قتلت قتيلا لم ير الناس مثله اقلبه ذا تومتين مسورا
فسماه قتيلا ، وإنما قتل حيا يصير بعد قتله قتيلا . وقوله :

فقام يجر من عجل الينا أسابيّ النعاس مع الإزار
والأسابيّ : طرائق الدماء ، فافتن فيها الفرزدق^(١) ويمضي اللغويون في
اقتناص مثل هذه الشواهد ، ولكننا لن نفيض في ذكرها ، لأن مكانها في بحث
الخصائص الفنية ، وبيان طريق الشاعر في التصوير، والمجاز . كل ما يعنيني
هنا أن أؤكد أن اللغويين لم يرعهم الفرزدق بالغريب من اللفظ فحسب ،
بل راعهم بالبديع النادر من المجاز .

والفرزدق تسيبي ، وتميم من أفصح قبائل العرب ، غني اللغويون بها،

(١) لسان العرب : (بكر) ، (حذب) ، (رمح) ، (بلد) ،
(لها) ، (ربد) ، (عفر) ، (سبي) ، الخصائص ٢ : ٤٥٣ ، ٣ : ١٧٧ ،
الديوان : ٤٣٧

وأكثرها من الأخذ عن أعرابها • وكانت لغة تسميم تغاير من بعض الوجوه لغة قريش ، مما نص عليه اللغويون في كتبهم ، وهي مغايرة يتصل بعضها باللغة ، وبعضها بالنحو والصرف • وإذا رحنا تنقضي ما ورد في شعر الفرزدق من لغات تسميم ، التي نص عليها العلماء ، لم نلق شيئا ذا بال • والسبب الأول في ذلك أن الشعراء كانوا يؤثرون لغة قريش التي ارتضتها العرب لغة أديسة منذ الجاهلية ، ولم يحسوا ضيقا في ذلك ولا حرجا ، لتقارب الفروق بين لهجات العرب ، ولغات قبائلهم ، فأثروا أن ينظموا بها أشعارهم • ويدل على ضالة الفروق بين لغات القبائل أن أشعار العرب الجاهلين على اختلافهم منظومة بلغة قريش^(١) ، وأن القرآن الكريم الذي نزل بلسانها قد فهمه العرب جميعا ، وسمى الله لسانها اللسان العربي فقال : « بلسان عربي مبين » (سورة الشعراء ، آية ١٩٥) فلم يكن بد من أن تقل في شعر الفرزدق لغات قبيلته التي تنفرد بها ، أثرا من آثار هذا التقليد الأدبي الذي بدأه شعراء الجاهلية ، وأيده الاسلام وقواه • وإن الفرزدق نفسه ليفخر بأنه وريث الشعراء الجاهلين الذين وهبوا له قصائدهم ، وفيهم الكندي اليمني ، والقيسي النجدي ، والتيمي ، والبكري ، والتغليبي ، والقضاعي ، والأسدي ، والإيادي ، والأنصاري ، والحارثي اليمني^(٢) • وكان يفخر بأن قصائده يحملها رواة من تنوخ وغافق وهما قبيلتان من أعرق قبائل اليمن^(٣) زد على ذلك أن الفرزدق ، قد أخذ نفسه بحفظ القرآن أخذا شديدا حتى إنه قيد نفسه ، لا يفكها حتى يستوفي القرآن حفظا واتقاناً • وإذن فلا عجب أن تقل في شعر الفرزدق الألفاظ التي اختصت بها قبيلته مما أورده اللغويون في كتبهم • ومن هذا القليل في شعر الفرزدق استعماله كلمة زوجة وقريش التي نزل القرآن بلسانها تقول : زوج • قال الفرزدق :

(١) العصر الجاهلي : ١٣١ - ١٣٧

(٢) الديوان : ٧٢٠ - ٧٢١

(٣) الديوان : ٥٩٥

وان الذي يسعى يخبب زوجتي كساع الى أسد الشرى يستبيلها
وقال :

ولتكفينك فقد زوجتك التي هلكت موقعة الظهور قصار^(١)

وكذلك قوله جدف يعني القبر • قال :

وما علم الأقوام مثل أسيرنا أسيرا ، ولا أجدافنا بالكواظم
وقال :

أبكى الإله على نبیثة من بكى جدفا ينوح على صداه حمار

وقريش تقول : جدث^(٢) ، وكانت تميم تشدد الهديّ ، وأهل الحجاز
يخففونه يجعلونه كالرمي • وقد أتى به الفرزدق على لغة قومه • قال :

حلفت برب الراقصات الى منى خفافا ، وأعناق الهديّ المقلد^(٣)

ومن لغة بعض بني تميم قولهم ، لعن ، بمعنى لعل ، وبها جاء قول الفرزدق
في مطلع مدحة هشام بن عبد الملك :

ألستم عائجين بنا لغنا نرى العرصات أو أثر الخيام^(٤)

ومن لغة تميم قصر اسم الاشارة الجمع: ألى ، وهو ممدود عند الحجازيين ،
أولاء ، وقد جاء به الفرزدق على لغة قومه ، فقال :

ألاك وعير امك لو تراهم بعينك ما استطعت لهم خطابا

(١) لسان العرب : (زوج) ، النقائض : ٨٧٤

(٢) النقائض : ٣٧٩ ، ٨٧٣

(٣) الزهر ٢ : ٢٧٧ ، الديوان : ١٦١ ، ١٦٥

(٤) لسان العرب : (أن) ، (لعن) •

وقال :

دعائمها ألاك ، وهم بنوها فن مثل الدعائم والبناة^(١)
ويبدو في شعر الفرزدق أثر من آثار بيئة البصرة، فقد درج البصريون
أن يلحقوا بأسماء مواضع لهم وقرى ألفا ونونا بدل ياء النسبة ، أثرا من
آثار الفارسية في هذا المصر ، الذي اقيم في أقصى بلاد العرب ، وأدنى بلاد
فارس ، فقالوا : مهلبان ، وخيرتان ، وجبيران ، وطلقان ، وقد نهج الفرزدق
نهجهم في قوله :

عليهن راحولات كل قطيفة من الخز أو من قيصران علامها
وقيصران : ضرب من الثياب الموشية ، منسوبة الى بلاد قيصر^(٢) .



(١) الديوان : ١١٦ ، ١٣٠ ، أوضح المسالك ١ : ٩٥ ، شرح الاشموني

٦٣ : ١

(٢) فتوح البلدان : ٣٥٤ ، معجم البلدان : (البصرة ، عبّادان) ، لسان

العرب (رحل) .

الجانب النحوي : التعقيد ومخالفة الاعراب :

اطبق النحاة والبلاغيون والنقاد على نعت الفرزدق بالتعقيد ومداخلة الكلام ، ذلك بأن هذا الشاعر الفذ كان يلتوي عليه القول، أحيانا ، فيخالف نظام الجملة ، ويفلت منه النسق المألوف في ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني ، فيقع له من التقديم والتأخير في مواضع الكلم ما يفسد المعنى ، ويذهب رواء الصورة . وفي الحق أن الشعراء الأقدمين من أسلاف الفرزدق قد جرؤوا على تجاوز النهج المألوف في ترتيب الكلام ، وأباحوا لأنفسهم أن يغيروا في نظم الكلم وترتيبه ، ما وضع المعنى وتبين المراد فلم يعتور مقصد الشاعر لبس ، أو يظلمه غموض .

ولكن الغريب في أمر الفرزدق أنه أكثر من التقديم والفصل بين الكلم اكثارا لا نجده لشاعر آخر ، حتى غدا ظاهرة لفتت إليه الأظار ، وتعقبها أقلام النحاة والنقاد . كان يهجم على المعنى فإذا استقام له لم يبال بصيغة ألفاظه ، اقتدارا منه على الشعر ، واعتدادا بنفسه . فقد كان يحمل في حناياه من الزهو والطرسة والتعالي ، ما نأى به أن يعود لقوله ، فيرتب ألفاظه ، ويقرب بعيدة ، ويقيم منأده . فكأن هذا التردد في نظم الجملة صدى لتمرر في نفس الشاعر ، وجموح في طبعه ، واحساسه أنه وريث الجاهلية في فضائلها وخلقتها ، وفي لسانها وبيانها ، فهو يتعالى أن يعود لما قال ، فيهدب حواشيه ، ولما بلغه أن الناس ينتقدون عليه بعض قوله ، لم يزد على أن قال: فما بال هذا الذي يجز خصييه في المسجد — يعني ابن أبي اسحاق —

لا يجعل له بحيلته وجها^(١)؟ • وهكذا بدا الفرزدق عنيف التمرد ، زاد من عنفه أنه لم يبلغ في قبيلته مبلغ آبائه ، ولم يتح له أن يفعل فعالهم ، فقد بدل الاسلام أحوال الناس ، وغير من مواضعهم ، ولم يعد لاسرته من الشأن ما كان لها في الجاهلية ، فأورثه ذلك تشبهاً بمجده ، وحرصاً على ما أثره ، يخشى أن تفلت من بين يديه ، وتمرد على واقعه فلم يخضع له ، وظل يرى أن ظلال المجد ما زالت تحفه ، فإذا صدمه الواقع ، فإذا هو فار خائف مرة ، وسجين متشفع تارة اخرى ، انعكس ذلك تمرداً في النفس ، وجموحاً في الطبع يتراءيان في هذا الالتواء والعسر اللذين يصوغ بهما جملة ، ويرتب كلمها • وكان من أصداء هذا التمرد النفسي تأبّي الفرزدق أن يصرّح في مطالع قصائده ، ليدل على تفرده ، وانه لا يسير على الطريقة التي ارتضاها الشعراء ، واتبعوها • ولقد عجب النقاد القدماء لهذا الشاعر المجيد صاحب الروائع التي تبهر ، أسلوباً ، وصوراً ، وصدق عاطفة ، وإبداع معان ، يقع منه هذا السقط من القول ، واستبعدوا أن يجتمع مثل هذا القول المعقد في صدر رجل واحد مع تلك الأقوال الجوامع ، بوضوح معناها ، وقرب مأخذها ، وفصاحة لفظها^(٢) ولا تفسير لهذا الا ما قدمناه من تفسيرة الفرزدق ، وما فيها من تمرد ، مصدره هذه العطرسة يحسبها سليل أشرف بيت في مجاشع ، ويزيده تشبهاً ومغالاة تلك العقد التي خلفها في نفسه قصره ، وبشاعة وجهه ، وبعده عن أن يحتل المكانة التي كان يطمح اليها في قومه ، فإذا هو متمرد ، جامح ، تلتوي عليه نفسه التواء أسلوبه المعقد ، الذي صور أغوار نفس الشاعر ، وفضح العواطف الغافية فيها ، ولعل أبا حاتم السجستاني قد لمح الى شيء من ذلك ، عندما تأبّي أن يستشهد بشعر الفرزدق على كتاب الله لما فيه من التعجرف^(٣) •

(١) الموشح : ١٠٠ ، طبقات ابن سلام : ١٥ ، خزانة الادب : ١ : ١١٦

(٢) الكامل للمبرد : ١٨

(٣) خزانة الادب : ٢ : ٣٤٨

ولكن مداخلة الكلم ، ومغايرة النسق والمألوف في شعر الفرزدق درجات ، بعضها فوق بعض • ومن الظلم أن نصمه كله بكلمة التعقيد التي تحمل في طياتها معنى الركافة ، والتكلف ، والضعف ، وعجز الشاعر عن الإبانة • وإن دراسة هذا اللون من شعر الفرزدق تدفعنا أن ننتع بالتعقيد قسما مما تداخل من كلمه ، لنجعل الباقي قسما برأسه ، لا نقوى أن نضمه الى سابقه ، لوضوح معناه ، وجمال لفظه ، وقرب مأخذه ، وإن تورد على مقاييس النحاة وطرقهم في بناء الكلام • إنه لون محبب على ما فيه ، لا يطيقه إلا شاعر كبير ، يجرؤ على اللغة ، لأنه أقوى على معرفة أسرارها • ومن أمثلة هذا اللون المحبب ، يأتي به شاعر ماهر صنع ، قوله :

فلما تصفحت الركاب اتقت بها اريد بقيات العرائك في الذرى^(١)
فقدم اتقت بها ، وحقها أن تكون آخر الكلام ، ولكنه التقديم الجميل يسرع اليك به الشاعر ، قبل أن يورد فضلة الجملة الاولى ، اسرعه الى عقر ناقته ، ومثله :

رأوني فنادوني أسوق مطيتي بأصوات هلاك سغاب حرائره^(٢)
وترتيب الكلام : رأوني أسوق مطيتي ، فنادوني بأصوات هلاك • ومثلها في سهولة الفصل قوله :

تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان^(٣)
ففصل بالنداء بين الموصول وصلته ، وقوله : وما قايست حياً حنيفة سوقة^(٤) ، فوقع الفاعل فاصلاً بين المفعول وصفته ، وقوله : كما اختطف البازي الخشاش المقارع^(٥) ففصل بالمفعول بين الفاعل وصفته • ويعد

(١) الديوان : ١٠

(٢) الديوان : ٣١٠

(٣) الأغاني ٣٣٢:٢١ ، خزنة الادب ١ : ٤٦١ - ٤٦٢ الهامش ، كتاب

الصناعتين : ١٦٢

(٤) الديوان : ٧٩

(٥) الديوان : ٥١٩

هذا اللون من أسهل أنواع التقديم والتأخير والفصل ، تأخذه الاذن لا تبالي به ، فمعناه بيّن واضح لا شبهة فيه ولا اختلاط . وأعلى منه قليلا في الفصل والمداخلة مثل قوله :

وسارٍ قتلت الجوع عنه بضربة أتانا طروقا بالحسام المهند^(١)
وأصل الكلام : وسار أتانا طروقا ، قتلت الجوع عنه . وكان سر الاختلال استجابة نفسية يريد بها الشاعر أن يدل على اسرعه بقرى الضيف . وقريب من هذا كل فصل طال بين المتضايفين أو المتعاطفين ، أو المتبوع وتابعه ، أو الفعل ومتعلقه ، كقوله :

دعوت أمين الله في الأرض دعوة ليفرج عن ساقبي ، خير الخلائف^(٢)
أراد : دعوت أمين الله في الأرض ، خير الخلائف . وقوله : يمين أصدق من يمينك مقسم^(٣) . يريد : يمين مقسم أصدق من يمينك . وقال في ملحمته :

ولا زاد إلاّ فضلتان : سلافة وأبيض من ماء الغمامة قرقف^٤
والأصل سلافة قرقف ، فأخر الصفة ، ومثل هذا التأخير قد أوهم الليث صاحب كتاب العين ، وشبه عليه^(٤) . وقال يمدح الوليد بن يزيد :
لا تطلبي بي غيره ممن مشى إن أنت ناق لقيته ، بالقرقر^(٥)
والأصل : ممن مشى بالقرقر ، ومن أقواله :

(١) الديوان : ١٦٧

(٢) الديوان : ٥٣٤

(٣) الديوان : ٧٧٩

(٤) النقائض : ٥٥٥ ، لسان العرب والتاج : (قرقف) .

(٥) الديوان : ٤١٨

أخلص دعاءك تنج مما تنقي لله ، يوم لقائه بسلام (١)

والأصل : أخلص دعاءك لله ، ويقول : ستنبو مرامي عنهما من رماهما (٢) ،
والأصل : ستنبو عنهما مرامي من رماهما ، ومثله في الفصل بين المتضايين :
له مستقى عند ابن مروان غارف (٣) ، والأصل : له مستقى غارف . ويكثر
في شعر الفرزدق مثل هذا الاختلال في نظم الكلام ، لا يرتب الشاعر ألفاظه
على ما تقتضيه اللغة وقواعد النحو . ولكن المعنى بيّن في جملته ، لم تدخله
ظلمة ، ولا خالطه لبس عمى قصده . فكأن الشاعر بصياغته هذه يحمل
الينا تمرده ، والتواء نفسه ، وتعاليه أن يعود لما قال ، إنه يحس في نفسه
اقتداره أن يسلك هذا المهيع الصعب الذي تجيزه العربية في حدود ضيقة ،
فقوي عليه وجرؤ ، إنه لا يدعو إليه عجز ولا ضعف ، ولكن الجرأة
والتمرد النفسي ، والتباهي بالاستعلاء على الشعر ، والتسكن منه .

ولكن هذا التمرد على نظم الكلام ، ونسق الجملة ، لا يلبث أن يسلم
الفرزدق الى لون من التعقيد ، حيث يغمض المعنى ، وتضطرب الألفاظ في
مواقعها ، فإذا أنت حائر لا تكاد تملك القطع برأي فيما قصد اليه الشاعر ،
وقد وقع بعض هذا التعقيد أثرا من ازدحام المعاني ، وتراكبها ، فضاقت بها
نظام الشعر ، ولم يقو القارئ أن يرد نظام الجمل الى ما يقتضيه قانون
النحو ، فعسر عليه معرفة مراد الشاعر ، وبدا كمن يضرب في تيه ، مثال ذلك
قوله في سليمان بن عبد الملك يصف عفوه عن نكث بعهدده :

بأعناقهم أعمالهم لو تثيرها
غلت قدرهم إذ ذاب عنها صيورها

وقوم أحاطت لو تريد دماءهم
عليهم ، رأوا ما ينتقون من الذي

(١) الديوان : ٨٣٠

(٢) الديوان : ٨٤٨

(٣) الديوان : ٥٣٥

تجاوزت عنهم فضل حلم كما عفا
ابوك جنودا بعد ما مر مصعب
بمسكن، والهندي تعلق ذكرها
تقلد عنه وهو يدعو كثيرها (١)

فقد التقى في الأبيات مداخلة الكلام وتراكبه ، وتعسر فهم الصورة المجازية « غلت قدرهم إذ ذاب عنها صيورها » مما يوقع السامع في الحيرة ويعجزه أن يفهم المراد . ولكن الأمر الأعم الأغلب أن يكون التعقيد في شعر الفرزدق لا أثرا من آثار ازدحام المعاني وتدافعها في صدر الشاعر ، ولكنه أثر من نهج الشاعر الذي تبعه في مداخلة الكلام ، وإهمال ترتيبه ، يقدم ما حقه التأخير ، ولا يبالي باختلاف مراجع الضمائر ، واختلال المتعلقات ، التي كان يفرض في الإتيان بها ، يريد تحديد معانيه ، فيقع في نظمه الاضطراب ، ويقتصر اللفظ عن تأدية معناه . كقوله :

لنا حومٌ بحري خندفٍ قد حمت به له من أظلمته السماءُ اضطرابٌها (٢)
وقوله يخاطب يزيد بن عبد الملك :

وكنت أرى ان قد سمعت ولو نأت على اثري إذ يجمرون ، ندائيا (٣)
يريد : وكنت أرى أن قد سمعت ندائي ، ولو نأت نفسي ، إذ يجمرون على
اثري . وكذلك قوله يمدح ابان بن الوليد البجلي :

وكنتم لهذا الناس حين أتاهم رسولٌ هدى الآياتِ ذلت رقابها
لكم ، إنها في الجاهلية دوخت لكم من ذراها كل قرم صعابها (٤)
وقوله :

(١) الديوان : ٣٠٧ - ٣٠٨

(٢) الديوان : ٦٨

(٣) الديوان : ٨٨٩ ، وأجمر الرجلُ والبعيرُ : أسرع وعدا (اللسان) .

(٤) الديوان : ٦٢

وقد خبطت ، رحلي عليها ، مطيتي اليك ، ولم تعلق قلوصي بصاحب (١)
فقد قدم الجملة الحالية (رحلي عليها) ، فأشاع الاضطراب في المعنى ،
وقال :

أنت ابن أمّ امرئٍ تَنَمِّي إذا نَسِبْتَ ° حيث اتست بأبيها بنت حَسَنًا

أراد : ابن امرأة أبوها حسان بن سكين الفزاري ، فعقد (٢) . وهذا اللون
من التعقيد قد كثر في أشعاره الأخيرة حين كبر وأسن . وكان منزلقه الى
ألوان من التعقيد هي التي احتفى بها النحاة وتلقوها بالقبول ، وأطالوا
عنان القول فيها . إذ فتح لهم باب التأويل ، والوجوه الكثيرة ، فراحوا
يتمحلون له ، ويتباهون بعملهم في ايضاح مراده . ومن هنا قال النقاد
حين ذكروا تعقيده : « وكان يداخل الكلام ، وكان ذلك يعجب أصحاب
النحو » (٣) ذلك بأن مثل هذا التعقيد في تأليف الكلام كان يتيح للنحاة
رياضة ذهنية كانوا يتوقون اليها ، وهم يعيدون الى الكلام نظمه الصحيح ،
ونسقه المتبع . وغصت كتبهم بأمثلة من تعقيده (وهي أمثلة قد أشارت
اليها كتب النقد والبلاغة مهجنة ومقبحة ، لأنها أطفأت ألق الشعر ، وأحالته
الى ألغازٍ جوفٍ ، ومعان مغسولة) ، كقوله يمدح ابراهيم بن هشام
المخزومي ، وأراد أن يذكر خؤولته الخليفة ، ورحمه الماسة به ، ويمدحه
بذلك ، فقال :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

وهو من أقبح الضرورة ، وأهجن الألفاظ ، وأبعد المعاني ، أحال اللفظ حتى

(١) الديوان : ٧٠

(٢) الديوان : ٨٧٨

(٣) الأغاني ٢١ : ٣٣١

عمى المعنى ، فإن حصلته بعد التعب لم تحظ بطائل (١) وقال :

هيهات قد سفهت أمية رأيها فاستجهلت حلماتها سفهاؤها
حرب تردد بينها بتشاجر قد كفرت آباؤها أبناءها (٢)

وقال :

الى ملكٍ ما أمه من محارب أبوها ، ولا كانت كليب تصاهره (٣)

وقال :

هو السيف الذي نصر ابن أروى به مروان عثمان المصابا (٤)

وقال :

فلولا أن أمك كان عمي أبها كنت أحرص بالشييد (٥)

وأمثال ذلك من شعر تغير فيه نظم الكلام عن وجهه ، حتى غدا لقارئه أقرب الى الألفاظ ، على تفاوت فيما بين الأشعار من اغراق في التعقيد ، أو اقلال . وهذا اللون من الشعر المعقد قد عني به الى جانب النحاة ، أصحاب المعاني ، والبلاغيون ، والنقاد . وكانوا يعنون بأبيات المعاني ما أشكل

(١) الكامل للمبرد : ١٨ ، الموشح : ٩٦ - ٩٧ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٢١ ، كتاب سيبويه ١ : ١٤ ، معاهد التنصيص ١ : ٤٣ ، اللسان (ملك) ، أسرار البلاغة : ٢٠ ، شرح الأبيات المشكلة الاعراب : ٣٠ - ٣٢ ، الأغاني ٢١ : ٣٣١ ، الخصائص ١ : ١٤٦ ، ٢ : ٣٩٣ ، كتاب الصناعتين : ١٦٢ ، الجامع الكبير : ١١٢ - ١١٣

(٢) الأغاني ٢١ : ٣٣٢ ، مجالس ثعلب ١ : ٥٧ ، شرح الأبيات المشكلة الاعراب : ٢٣ - ٢٥ ، اللسان (كفر) .

(٣) الخصائص ٢ : ٣٩٤ ، الأغاني ٢١ : ٣٣٣ ، شواهد العيني على هامش خزانة الادب ١ : ٥٥٥ - ٥٥٦ ، كتاب الصناعتين : ١٦٢

(٤) الأغاني ٢١ : ٣٣٢ ، كتاب الصناعتين : ١٦٢ ، ديوان الفرزدق : ٩٠

(٥) الموشح : ١١٨

ظاهره وكان باطنه مخالفا لظاهره^(١) حتى إن الأخفش المجاشعي اختار من أبيات الفرزدق المعقدة ليضمنها كتابه المؤلف في المعايمة^(٢) ومما يذكر أن نحاة خراسان وأدباءها تهادوا فيما بينهم شرح بيته ، الشهير بتعقيده : فليست خراسان التي كان خالد بها أسد ، إذ كان سيفاً أميرها^(٣)



ولكن النحاة لم يقصروا اهتمامهم على جانب التعقيد في شعر الفرزدق بل توفروا على جانب آخر من شعره ، حظي منهم بعناية أشد ، ودراسة أطول ، فقد استمدوا من شعره شواهد كثيرة أيدوا بها ما أصّلوه من قواعد ، وفسح لهم في مجال الأخذ أن الفرزدق المحيط بأسرار العربية ، الخبير بطرائق شتى في التعبير ، قد ضمن أشعاره فنونا من القول ، قل استعمالها ونزر ، وبدت للنحاة غريبة نادرة ، فانعكس ذلك كله في شواهدهم التي تدرجت من العام المتعارف المألوف ، الى الطريف النادر لا يقوى عليه إلا القلة من الفصحاء الأبياء ، وغصت كتبهم بأشعار الفرزدق ، وأكثروا منها اكتاراً لا نجده لشاعر آخر ، إذ وجدوا فيها مَعِيناً يُمَدُّهم في دراساتهم وجدلهم وتخريجاتهم • ويكفيني نبد مما أتوا به ، ينير الطريق الذي سلكوه ، ويدل على الحفاوة التي تلقوا بها أشعاره • فمن أمثلتهم قوله .

وإني من قوم بهم يتقى العدا ورأب الثأى والجانب المتخوف

واستدلوا به على جواز حذف حرف الجر لدلالة ما قبله عليه ، وإن كانت حالهما مختلفتين^(٤) ومثلوا بقوله :

-
- (١) شرح شواهد المفني ١ : ٩٠١
 (٢) شرح شواهد المفني ١ : ٦٢٢ ، ٢ : ٨٢٨
 (٣) معجم الادباء ٥ : ١٨٢ ، الجامع الكبير : ١١٢ - ١١٣
 (٤) الخصائص ١ : ٢٨٦ ، اللسان (رأب) .

ومنا الذي اختير الرجال سماحة وجودا إذا هب الرياح الزعازع
على جواز اسقاط حرف الجر^(١) ، وارتفعوا قليلا ليأتوا بأمثلة أندر ،
كقوله :

على حلفة لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجا من في زور كلام
فوضع الصفة موضع المصدر ، لأنه حملة على عاهدت في البيت قبله^(٢) .
وقال :

فلو كنت ضييا عرفت قرابتي ولكن زنجي غليظ مشافره
برفع زنجي ونصبه ، وتخريج كل منهما^(٣) . وقال :

لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها إذن للام ذوو أحسابها عمرا
فزاد : لا ، في الكلام وأعملها عمل : لا ، النافية للجنس^(٤) ، وذكر النحويون أمثلة
له عدة جاءت بها كان زائدة ، ملغاة كقوله : وجيران لنا كانوا كرام ،
لهم هناك بسعي كان مشكور ، في الجاهلية كان والاسلام^(٥) . وفي
الحق أنهم ظفروا بنوع ثر في شعر الفرزدق ، فأكثرنا من وروده ليصدرنا
بنماذج وشواهد من صيغ العربية النادرة . ولو مضى النحاة شوطا أبعد ،
لاستخرجوا لآلئ أخرى بالغة الندرة ، لا يقوى عليها إلا كبار الفحول ،
من ذلك زيادة الباء في الفاعل في مثل قوله :

-
- (١) كتاب سيبويه ١ : ١٨ ، خزانة الادب ٣ : ٦٧٢ - ٦٧٣ ، اللسان
(خير) ، أمالي ابن الشجري ١ : ١٨٦ ، ٣٦٤
(٢) كتاب سيبويه ١ : ١٧٣ ، شرح الأبيات المشككة الاعراب : ٢٤٣ ،
اللسان (خرج) .
(٣) كتاب سيبويه ١ : ٢٨٢ ، خزانة الأدب ٤ : ٣٥٩ ، ٣٧٨ ، شرح
الأبيات المشككة الاعراب : ١٣٦ ، ٢٥١ ، اللسان (شفر) .
(٤) خزانة الأدب ٢ : ٨٧ - ٨٨ ، ٣٢٢ - ٣٢٤ ، اللسان (غطف) ،
الخصائص ٢ : ٣٦ ، شرح شواهد المغني ٢ : ١٩١ ، ديوان الفرزدق : ٢٨٣
(٥) كتاب سيبويه ١ : ٢٨٩ ، خزانة الادب ٢ : ٤٢ - ٤٧ ، ٣٦-٣٥ ،
٣٧ - ٤٠ ، اللسان (كون) ، ديوان الفرزدق : ٢٦٥ ، ٨٣٥ ، ٨٥٠

إِذْنٌ لِأَتَى الدواهر من قريب بخزي غير مصروف العقاب (١)
والاستغناء عن الفاعل إذا فهم من الكلام ، كقوله :

وضارية ما مرّ إلا اقتسمنه عليهن خواض الى الظنء مخشف (٢)
وكغرابة الصيغة في قوله :

وانا لما نضرب الكبش ضربة على رأسه ، والحرب قد لاح نارها (٣)
وكحذف الفعل وبقاء الفاعل ان اجيب به استفهام مقدر كقوله :

فما شيم من سيف بقائم نصله يد من لجيم أو يفل ويكسرا
وهو يذكر بيت النحويين المشهور : لبيك يزيد ، ضارع لخصومة (٤) . وفي
الحق أن شعر الفرزدق مثل لاتساع العربية وتعدد وجوها من جهة ، ومثل
لكثرة خروج الشاعر عن القياس المطرد ، والنمط المتبع . وكأنما كان
الشاعر يجد متنفسه في هذا التمرد على قياس اللغة ، وطريقها المطروق .
ولكن النحاة الذين أخذوا عن الشاعر فأكثروا لم يمشوا الى منتهى الطريق .
لقد صرفهم عن متابعة الطريق ألق نماذج من كلام الشاعر ، خرجت على
قوانين النحاة ، وخالفت ما أصّلوا من قواعد ، وأعيامهم أن يفصلوا فيها
فصلا قاطعا : أنكرها عليه بعض منهم ، ورأوا فيها غلطا ردوه ، وتصدى
لها آخرون يعربونها ويبينون الوجوه المختلفة التي يمكن أن تخرج عليها ،
فملئوا بها صحائف كثيرة . من ذلك قوله :

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلّف
فرفع آخر البيت ضرورة ، وأتعب أهل الاعراب في طلب العلة ، فقالوا
وأكثروا ، ولم يأتوا فيه بشيء يرضي . ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر ،

(١) النقائص : ٨٠٤ ، اللسان والتاج (دهر) .

(٢) الديوان : ٥٥٣

(٣) خزانة الادب ٤ : ٢٨٣

(٤) الديوان : ٢٧٩ ، خزانة الادب ١ : ١٤٧ ، أوضح المسالك ١ : ٣٤٢٠

أنَّ كلَّ ما أتوا به من العلل ، احتيال وتمويه ، وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتته وقال : عليٌّ أن أقول ، وعليكم أن تحتجوا • وهذا كثير في شعره على جودته^(١) • ومثله :

وهنَّ على خدي شتير بن خالد أثرن عجاجا من سنايبكها كدرٌ

قال أبو علي الحرمازي : « هذا على كلامين • قال : أثرن عجاجا ، وقال : من سنايبكها عجاج كدر ، وهو مثل قوله : مسحنا أو مجلف • أي ومجلف ودعه »^(٢) • وقريب منه قوله :

غداة أحلت لابن أصرم طعنةً حصينٍ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ

قال سعدان : « هذا على كلامين • أي والخمر حلت له » ، وهو التقدير الذي ارتضاه ابن هشام في أوضح المسالك • ورواه أبو عبيدة بنصب طعنة ، وقال : « هذا مقلوب ، الفعل للطعنة ، ولكنه احتاج الى القافية فجعل الطعنة في مكان المفعول به ، وجعل المفعول به فاعلاً »^(٣) • والقلب في شعر الفرزدق كثير • وأقرب أمثلته قوله في قصيدة مرفوعة الروي : أنا المطعمُ المقرورُ في ليلة الصبِّا وأجهلٌ من يخشى الجهولَ بوائقه^(٤) ومن شعره الذي أتعب أهل الاعراب قوله :

على حالة لو أن في القوم حاتما على جوده ما جاد بالمال حاتمِ

فخفض حاتما على البدل من الهاء في جوده حتى رأى قوم من العلماء أن

(١) النقااض : ٥٥٦ ، الشعر والشعراء : ٢٥ ، الخصائص : ٩٩ : ١ ، شرح
الابيات المشككة الاعراب : ٢٠٦ ، الاغاني : ٢١ : ٣٣٣ ، اللسان (سحت) ، (ودع) ،
(جلف) ، خزانة الادب ٢ : ٣٤٧ - ٣٥١
(٢) ديوان الفرزدق : ٣١٦ ت ٣
(٣) ديوان الفرزدق : ٣١٧ ت ١ ، أوضح المسالك ١ : ٣٤٤ - ٣٤٥ ،
إنباه الرواة ٢ : ٢٦٥ ، شواهد العيني على هامش خزانة الادب ٢ : ٤٥٦ ،
شرح شواهد المغني ١ : ٥٣٦
(٤) ديوان الفرزدق : ٥٩١ ت ٥

الإقواء في هذا الموضع خير من سلامة الأعراب مع الكلفة^(١) وكذلك قوله :

فأصبحوا قد أدام الله نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

فقد حار النحويون في تعليل نصب مثلهم ، وذهبوا مذاهب شتى تمثل ما كانوا يلقون من عنت في تفسير شذوذ الشاعر، وخروجه على القاعدة^(٢) وقال :

هما تفتا في في من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام

فجمع بين العوض والمعوض عنه في فمويهما ، وأتعب أهل الأعراب في التعليل^(٣) . وقال :

لا يذوق اليوم كأسا أو يفدي بالابن

فخالف المؤلف في تشية أب^(٤) . وقال : « صلاة ورس وسطها قد تفلقا » ، رفعت مجلنا ؟ قال : على ما يسوؤك ، وينوؤك . وأكثر ابن أبي اسحاق الحضرمي ، وعنسة الفيل بالشاعر ، يعيان عليه أمثال هذه الشواذ ، سمع ابن أبي اسحاق قوله : « إلا مسحنا أو مجلف » فقال له : على أي شيء رفعت مجلنا ؟ قال : على ما يسوؤك ، وينوؤك . وأكثر ابن أبي اسحاق على الفرزدق يكلمه في شعره ويرد عليه فقال الفرزدق في هجائه :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فلحنه ابن أبي اسحاق أيضا في قوله : مولى مواليا^(٦) وأراد النحاة المتأخرون

(١) اللسان : (حتم) ، الكامل للمبرد : ١٣٤ ، العمدة ١ : ٢٣٠ - ٢٣١ ،

الديوان : ٨٤٢

(٢) كتاب سيبويه ١ : ٢٩ ، خزنة الادب ٢ : ١٣٠ - ١٣٣ ، الديوان : ٢٢٣

(٣) اللسان (فم) ، (فوه) ، كتاب سيبويه ٢ : ٨٣ ، ٢٠٢ ، خزنة الادب

٢ : ٢٦٩ ، ٣ : ٣٤٦ ، الديوان : ٧٧١

(٤) أمالي ابن الشجري ١ : ٣٠ - ٣١ ، اللسان (أبي) .

(٥) خزنة الادب ١ : ٤٧٨ ، اللسان (وسط) ، (جلم) ، الديوان : ٥٩٦

(٦) الموشح : ١٠١ - ١٠٢ ، نزهة الالباء : ٢٣ - ٢٥ ، وانظر مجالس

ثعلب ١ : ٤٠

أن يعللوا ما أقدم عليه الفرزدق في شعره ، فذهبوا في ذلك مذاهب • قال ابن جني : « وقد كان الفرزدق يلغز بالأبيات ، ويأمر بالقائها على ابن أبي اسحاق »^(١) • وقال البغدادي : « والفرزدق مشغوف في شعره بالأعراب المشكل ، المحوج الى التقديرات العسرة ، بالتقديم والتأخير ، المخل بالمعاني »^(٢) • ورأى غيرهما أن هذه الأبيات مما قاله حين كبر ، وضعف ، فخذلته قريحته ، ولم تواته طاقة الشعر ليحسن التعبير عن معانيه^(٣) • ولعل في هذه التفسيرات جميعا جانبا من الحق ، ويتمه أن تتبين فيها صدى ما في نفس الشاعر من تمرد على واقعه ، التوت به نفسه ، وتعقدت ، فكان ما نراه في شعره من التواء وعسر ، يشق بهما على قارئه •

وكان آخر ما عيب على الفرزدق الإقواء في قوافيه • وهو عيب وقع فيه كبار الشعراء ، فقد عرف عن النابغة الذبياني أنه كان يقوي في شعره^(٤) • وكثر الإقواء في شعر الأعراب وفيمن دون الفحول الشعراء^(٥) • وبدت هذه الظاهرة جلية في شعر الفرزدق ، كقوله :

وأخطأ الباب إذ نيراننا تقد
كلاهما خارج الأعفاج والكبد

لو أن أشيم لم يسبق أسنتنا
إذن لوافق مسعودا وصاحبه
وكقوله في ابنته مكية :

وإن لم يلدها من زرارة معبد
يلقمنها من كل سخن ومبرد^(٦)

ما ضرها إن لم يلدها ابن عاصم
ريبة ديات ثلاث رينها

-
- (١) الخصائص ١ : ٣٦٦
(٢) خزانة الادب ٢ : ٣٤٧ الجامع الكبير : ١١٤
(٣) الاعلم الشنتمري بهامش كتاب سيبويه ٢ : ٨٣
(٤) الشعر والشعراء : ٢٩ ، الموشح : ٣٨ - ٤٠ ، ٤٤
(٥) الموشح : ١٣٢ ، نقد الشعر (ط . الخانجي بمصر ، ١٩٤٨) : ١٨٢
(٦) ديوان الفرزدق : ١٨٢ ، ١٩٣

وقد اختلفت مواقف النقاد والشرح من هذه الظاهرة في شعر الفرزدق ،
أنكرها ابن أبي اسحاق انكاراً شديداً ، حين سمع قوله :

مستقبلين شمال الشام تضر بنا بحاصب كنديف القطن منشور
على عمائمنا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجي مخشها رير

وقال له : أسأت ، إنما هو رير ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع ،
ولا مجال لتقدير المعنى : على زواحف رير مخشها ، فلما ألحوا على
الفرزدق قال : على زواحف تزجها محاسير^(١) . وكذلك فعل أبو الفرج
الاصبغاني فقد عاب على الفرزدق اقواءه في مديح مالك بن المنذر بن
الجارود حيث قال في قصيدة مجرورة الروي :

ولقد دنت لك بالتخلب اذ دنت منها بلا بخل ولا مبذول
وكأن طعم رضاب فيها إذا بدت برد بفرع بشامة مصقول . .
ان ابن جباري ربيعة مالكا لله سيف صنعة مسلول
ما زال من آل المعلى قبله سيف لكل خليفة ورسول^(٢)

أما الرواة المفسرون فكانوا أقل انكاراً ، فقد علق أحدهم على البيت الثاني
من القطعة السالفة بقوله : أكفاً الشاعر . والقصيدة مجرورة القوافي ،
وهذا لهم كثير^(٣) . ويعني بالاكفاء ، ما اصطاح عليه العروضيون أنه
الاقواء ، وهو اختلاف الروي رفعا وجرا . وكذلك كان موقف أبي علي
الحرمازي ، وإن اختلف تعليقه فقد مر بقصيدة أقوى فيها الفرزدق فعلق
عليها بقوله : « لا يتبع الاعراب مثل هذا ، فإنهم إذا قالوا مثل هذا كفوا ،

(١) الموشح : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، خزانة الادب ١ : ١١٥ - ١١٦ ،

الديوان : ٢٦٢ - ٢٦٣

(٢) الاغاني ٢١ : ٣٣٣ ، الديوان : ٦٧٨ - ٦٨١

(٣) نسخة المتحف : ٩٠

ووقفوا عليه^(١) . ويعضد اتجاه الحرمازي ما قاله ابن حبيب ، « إذا قال أحدهم الشعر بالركبانية أكفأ . والركبانية : أن يتغنى به ويقطع كما يقطع العروض »^(٢) وهذا الوجه من أوجه الانشاد ذكره سيبويه في الباب الذي عقده لبيان وجوه القوافي في الانشاد^(٣) وأكدته من بعده الزمخشري وجعله مذهبا لبعض العرب^(٤) . وإذا ثبتت هذه الطريقة من طرق الانشاد ، تبين لنا عذر الفرزدق فيما وقع فيه من اقواء .

كان تعقيد الفرزدق وشذوذه النحوي مثار جدل بين الرواة والأدباء ، فمن مدافع عنه ، رافع لشأنه ، ومن مهجّن لشعره ، وحفظت لنا كتب الأدب كثيرا من هذه المجالس الجدلية . ومن أطرف ما روي في هذا الصدد ما ذكره أبو عبيدة من أن عامرا ومسمعا ابني عبد الملك بن مسمع ، وكانا من أشرف بكر بن وائل ورواتها ونسايها ، تذاكرا الفرزدق وجريرا ، وكان عامر بن عبد الملك يقدم جريرا ويفضله ، وكان مسمع بن عبد الملك ، ولقبه كردين ، يقدم الفرزدق ويحتج له ، فتباحثا في أمرهما ، فأخذ عامر يقدم جريرا ، ويحتج على الفرزدق بما عقّد من شعره . . فقال أخوه كردين : أنت يا أخي لا تعقل ، سَقَطُ الفرزدق شيءٌ " تمتحن الرجال فيه عقولها حتى يستخرجوه ، وسقط جرير عي"^(٥) . وما ظن أن المناظرة في هذه الحدود تفضي الى غاية . وقد بينت ما تفوق فيه الفرزدق ، وما قصر . وسيرد في الفصل التالي ، بيان خصائص الشاعر ، ومنزلته بين الفحول الثلاثة .

ولا بد لي قبل أن أختم الحديث عن الظواهر النحوية في شعر الفرزدق من أن أبين أن هذا الشاعر التميمي لم يعن بمنهج تميم في النحو .

(١) ديوان الفرزدق : ١٦٧ ، ت ٤

(٢) النقائض : ٥٦

(٣) كتاب سيبويه ٢ : ٢٩٨

(٤) شرح شواهد المغني ١ : ٣٥٢ - ٣٥٣

(٥) الموشح : ١١٨ .

ولم يلتزمه في قوله ، وكل ما ورد له على هذا المذهب التميمي اهماله ما
النافية ، في مثل قوله :

بني الخَطَفَى ، لا تحملني عليكم فما أحد مني على القرن أثقل

قال ابن حبيب: لغة تميم مع الجحد الرفع، إذا طرحوا الباء في الجحد^(١).
وروى الرواة بيته الثاني في الملحمة :

ولج بك الهجران حتى كأنما ترى الموت في البيت الذي كنت تئلف
وقالوا : تئلف ، لغة تميم (٢) .

(١) ديوان الفرزدق : ٦١٤ ، ت ٥ .
(٢) النقاظ : ٥٤٨ ، كتاب سيبويه ٢ : ٢٥٦-٢٥٧ ، المزهر ١ : ٢١١ ،
اللسان (وقى) .

الفصل الخامس

المختصر الفني

« فإني كريم المشرقين وشاعره »

قال الفرزدق الشعر زهاء ثمانين عاما ، لم تحب قريحته ، ولم يتوقف •
وديوانه الباقي لا يوازيه غزارة شعر ، ديوان شاعر من الجاهليين ،
والاسلاميين • وكان الفرزدق شديد الاعتداد بنفسه ، يحس تفوقه
احساسا عميقا ، فكان يتعالى على الشعراء ويعد نفسه شاعر العرب ، جمع
في نفسه شرف العرب وفنهم : « فإني كريم المشرقين وشاعره » (١) • وقد
بينت في الفصل السابق ما طويت عليه حناياه من ثقافة واسعة اتاحت له
حظا من المعارف ، قل من يشاركه فيه من الشعراء • فزاده ذلك اعتزازا
بنفسه ، وتفاخرا بشعره ، ودفعه الزهو والاعتداد أن يكثر من المباهاة ،
بشعره الفرد لا يشتهه بغيره ، وأن يبالي في التغمي بحسن قصائده • كان
إذا مدح فمدائح الحملات الحمد تلتقي على حضرموت ، وتبلغ من كان
بالغور ، أو مروى خراسان ، وهي في صدقها تخصم المخاصم ، وفي فنها
غراء ظاهرة على الأشعار ، تعلق فتعجز الشعراء أن يقولوا جوابها ، ويقصر
كل قائل عن تحبيرها ، فهي وحدها المدح لا يوازيه مدح ، والشعر الأشعر

(١) ديوان الفرزدق : ٣١١ ، الاغاني ٩ : ٣٣٧ ، ٢١ : ٣٥٠ ، ٣٩٥ ،

النقائض : ٥٤٦ .

إذا أنشد الراوي به هدر ، يطول ارتجالها بافواه الرواة ، وتشرق الأحساب
عند سماعها ، فلا غرو أن تكون :

كأنها الذهبُ العقيانُ جبَّرها لسان أشعر خلق الله شيطاناً^(١) ،
وكان إذا هجا وفخر فقصائده لا تنسى ، ولا يخبو شهابها ، شرَّد لا ترد ،
وعوائير سائرات ، وغر مشهرات ، تبلغ الشرق والغرب ، يذود بها عن
ذمار مجاشع ، فتسفع الوجوه ، وتجدهع الأنوف ، وتترك في القسمات
آثارا فيها عظة ومزدجر ، يستخذي لها كل شاعر ، إنها لو رامت صفا
الحزن تصدعت صلابه^(٢) .

ومضى الفرزدق على غلوائه يجري ، فرأى أنه وريث الشعراء الماضين ،
والحفيظ على تراثهم الفني ، خصوه بذلك ، ودفعوا إليه كتابهم وصية .
ثم لم يكتف بذلك ، ودفعه الزهو ، وخيلاء الشعر أن يتعالى على الأقدمين
ويدعي التفوق عليهم ، فتنخل لمدوحه :

قصائد لم يقدر زهير ولا ابنه عليها ، ولا من حولوه المخبلا
ولم يستطع نسج امرىء القيس مثلها واعيت مراقبها لييدا وجرولا
ونابغي قيس بن عيلان ، والذي أراه المنايا بعض ما كان قولا^(٣)

فما الخصائص الفنية التي اتصف بها شعر الفرزدق فجعلته فردا لا
يشتهه بغيره ، ودفعت بصاحبه الى هذا الاعتزاز ؟ وما السمات التي تجلت
فيه ، فجعلت الشعراء تقر له ، وتهابه ، ويشهد له أمثال الأخطل والراعي
بأنه شاعر العرب^(٤) .

(١) الديوان : ١٥٦ - ١٥٧ ، ١٩٩ ، ٣٣٠ ، ٣٧٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٦ ،
٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٨٧٥ .

(٢) الديوان : ٦ ، ٣٤ - ٣٥ ، ٦٠ - ٦١ ، ١٢٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٥٠١ ،
٦١٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ .

(٣) الديوان : ٧٠١ ، ٧٢٠ - ٧٢١ ، النقائض : ٢٠٠ - ٢٠٢ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ١٣٠ ، ٢٠٨ ، الاغانى ٩ : ٣٣٧ ، ٢٣ : ٣٥٠ .

(١)

الخصائص المعنوية :

أول ما يروع في شعر الفرزدق خصب معانيه ، وغزارتها ، وتنوعها ، تحس وأنت تقرؤه ، كأن المعاني معرضة له ، مطروحة أمامه ، ينتقي منها ما يروقه ، ويصرفها كيف يشاء ، فعدا شعره تعبيرا لاغراض شتى ، ونوازع مختلفة • لم يستأثر به لون واحد ، ولم يفقره ترداد لمعان مكرورة ، لا تجدد فيها •

عمق المعاني ، وتدققها ، وقدرة الشاعر على الافتتان فيها والتجديد ، تدل فيما تدل ، على سمتين من سمات الشاعر : عمق فكره ، وتوقد نفسه • فعمق الفكر يبسط أمامه رقعة أوسع ، ينفذ فيها الى ما لا ينفذ فيه غيره ، ويلمح الخفي من الصلات تقوم بين الاشياء ، فيتهدأ له الخصب ، البديع من المعاني ، وتوقد النفس يرفده في المقامات والمناقضة ، حيث يكون للذكاء الكلمة الاولى ، وللبديهة والارتجال الموقف الفاصل •

أتاحت هذه الموهبة التي برز فيها الفرزدق أن يتفوق في هذا الجانب على جرير ، تفوقا ظاهرا ، أدرك القدماء بعضه حين وازنوا بينهما في النقائض ، فرأوا ان جريرا لم يقم فيها للفرزدق ، قال له في ثلاثة أنواع ، أو أربعة • وللفرزدق فيه مائة نوع • وكان الشاعران مروان بن أبي حفصة ،

والبحتري ممن نبها الى ذلك ، ودلا عليه^(١) . ولئن كان للمبالغة أثرها في قول القدماء^(٢) ، ان أصل المسألة صحيح ، فغزارة المعاني وتنوعها ، وحسن الاختراع ، والبراعة في الافتنان تفجأ قارىء ديوانه ، ومن نقل الطرف في ديواني الشعارين ازداد يقينا من صدق الحكم ودقته ، ولن أفيض في ضرب الأمثال ، أدل بها على تفوق الفرزدق في هذا المضمار ، ويكفيني مثل واحد من أمثلة افتنانه في المعنى الواحد ، لاني تنوع المعاني ، يؤكد ما ذهب اليه الأقدمون ، ويكون شاهدا لما وراءه . قالوا: توافق جرير والفرزدق في المربد ومقبرة بنى حصن يتناقضان ايام ولاية الحارث المخزومي على البصرة ، من قبل عبد الله بن الزبير ، فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج ، والخز ، وجاء جرير ، وقد لبس درعا وسلاحا تاما ، فاعتنم جرير الفرصة ليشنع بالفرزدق فقال :

لبست^١ سلاحي ، والفرزدق لعبة^٢ عليه وشاحا كرج وجلاجله^٣

فبلغ الفرزدق ، فرد عليه قوله هازئا ساخرا :

وقد تلبس الجبلى السلاح ، وبطنها اذا انتطقت ، عبء^٤ عليها تعادله فأحيا بذلك قصة أبي سواج التي يعير بها بنو يربوع ، وأبدأ جرير القول في هذه الواقعة وأعاد ، وأمثلة ماقاله :

مابال أمك اذ تسربل^٥ درعها ومن الحديد مفاضة سربالي

وفيه براعة شعرية ، وهزء واستخفاف ، ولكنه تلوين الشاعر لفكرة واحدة ، وليس كذلك الفرزدق الذي أجاب عنه بقوله :

(١) الموشح : ١٢١ - ١٢٤ ، أخبار البحتري : ١٧٤ .

(٢) المثل السائر ٢ : ٣٩٩ - ٤٠٢ ، التطور والتجديد في الشعر الاموي :

٢١٨ - ٢٢٠ .

حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسابغاتِ الى الوغى تتسربلُ

فنقل الفكرة ، ووسع من آفاقها ، وأصغر من شأن جرير ، وبين جهله في معرفة المواقف ، وما يليق بها^(١) . وان قارىء النقااض يحس أوضح الاحساس ان جريرا كان أكثر اتكاء على معاني خصمه حين ينقض عليه ، ويدفع قوله . وقد هياً هذا للفرزدق أن يتهمه باتتحال شعره ، وسرقة معانيه ، كأن يقول له :

ان استراقك يا جرير قصادي مثل ادعاء سوى أيبك تنقلُ
ويقول :

لن تدركوا كرمي بلؤم أيبكم وأوابدي بتنحلل الأشعار^(٢)

هذا الغنى في المعاني يتصل به قدرة الفرزدق على الافاضة في معناه . انه يتناول المعنى من جوانب عدة ، حتى يستوفيه . وأعود الى المثل السابق الذي تهاجى به جرير والفرزدق ، فأجد جريرا قد تناوله وضم اليه معاني ترفده في ثلاثة أبيات ، على حين عرض له الفرزدق بثمانية أبيات ، استوفى فيها الفكرة ، وقلب جوانبها^(٣) . وقد تنبه المبرد الى تغلغل الفرزدق في معناه ، وتنبه أجزاءه ، حين فضله على جرير ، وقال في تفضيله : الفرزدق يجيء بالبيت وأخيه ، وجرير يأتي بالبيت وابن عمه^(٤) . فدل على اتساق قصيدة الفرزدق وانسجام ابياتها ، اثرا من مهارة الشاعر التي مكنته ان يهيم نفس قارئه لتتبعه ، دون أن يضايقه بفجوات ، عليه ان يشبها . وقال قدامة : « ومن الشعراء أيضا من يغرق في المديح بفضيلة واحدة ، أو

(١) النقااض : ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٣٢٠ ، ٦٢٣ - ٦٢٤ ، ٦٥٠ ، طبقات ابن سلام : ٣٤٦ ، ٣٦٨ ، الاغانى ٨ : ٧٦-٧٧ .
(٢) النقااض : ٢٠٢ ، ٣٢٥ .
(٣) ديوان جرير : ٤٨٢ ، ديوان الفرزدق : ٧٤٠ .
(٤) الموشح : ١٢١ .

اثنتين ، فيأتي على آخر ما في كل واحدة منهما ، أو أكثره » ولما أراد أن
يمثل لرأيه اختار أبيات الفرزدق في سالم الغداني ، مثلا لاغراق الشاعر
وتفنه في وصف الجرأة والاقدام (١) .

وحب الفرزدق أن يستوفي فكرته ، ويبسط مضمونها ، يتصل به
تدقيق الشاعر في معانيه ، وأوصافه • وهو تدقيق يطالع قارئه بوجوه شتى
أقلها وأقربها متناولا تدقيقه حين يذكر المواضع ، فهو يحاول تحديدها •
كقوله :

إذا تروح عنها البرد حل بها حيث التقى بأعالي الأسهب العكر
بحيث مات هجير الحمض واختلطت لصاف حول صدى حسان والخفر (٢)

ويأتي بعده تلك القيود التي كان يقيد بها معانيه ، ليجعلها أقرب الى الحق ،
وأدنى الى الصدق • كقوله في فضل أسد القسري عليه :

لافضل ، الا فضل أم عسى ابنها كفضل أبي الاشبال عند الفرزدق

فلاستثناء قيد ، دل على تدقيق الفرزدق ، وانه لا يطلق الشاء اطلاقا •
ومثله في مديح يزيد بن عبد الملك :

فلا أم ، الا أم عيسى ، علمتها كأملك خيرا أمهات وأمجددا
وله أشباه ، كقوله في مدح هشام بن عبد الملك :

هشام ابن خير الناس ، الامحمدا وأصحابه ، إني لكم لم أقارف ••
وكقوله في رثاء الحجاج :

وماذرفت عينان بعد محمد على مثله ، الا قوس الخلائف ••

(١) نقد الشعر : ٣٨ .

(٢) ديوان الفرزدق : ٢٢١ .

له أشرفت أرض العراق لنوره واومن ، الا ذنبه ، كل خائف (١)

ومثل هذا كثير في شعره ، ويبدو لنا في الأمثلة المسوقة اثر من آثار فقهه ، وتردده على حلق الفقهاء في المساجد ، وأخذه عنهم •

ومن وجوه تدقيقه حرصه على أن يتم الصفة ، ويكمل الصورة ، لئلا يوهم اذا اخل بشيء منها ، وهو ماسماه القدماء الاغراق في المعاني • ومما مثلوا له به من قول الفرزدق :

لقد خفت حتى لو أرى الموت مقبلاً ليأخذني ، والموت يكره زائره
لكان من الحجاج أهون روعة إذا هو أغضى ، وهو سام نواظره
ويبنوا ما لقوله ، إذا هو أغضى ، من مبالغة في الوصف (أي دقة وتحديد) ، إذ وصفه عند اغضائه ، بالموت • فما ظنك به ناظراً متأملاً يقظاً • ثم نزهه عن الاغضاء فقال : وهو سام نواظره (٢) • وهذا الوجه فيما يبدو نقيض ما سلف ، ولكنه وإياه ينبعان من منبع واحد • هو تدقيق الفرزدق في تحديد جوانب معناه ، حتى لا يوهم قارئه •

وفي سبيل هذا التدقيق في المعاني ، وفي سبيل استيفائها ، كثر عند الفرزدق ارتباط الأبيات ، وهو ما يسميه العروضيون : التضمين ، وقد جعلوه عيباً من عيوب الشعر ، وحذا حذوهم شعراء العصر العباسي • ولكن التضمين لم يكن كذلك في عصر الجاهلية والاسلام ، حين كان الشعراء يقفون بالمعنى حين يبلغ غايته ، فتردد في أشعارهم ، تجده في المفضليات والأصمعيات ، وفي شعر الاسلاميين ، وشعر العرجي خاصة • وأكثر منه الفرزدق اكثرًا يدهش من استقر في ذهنه مقياس العروضيين العباسي • فيقع التضمين في شعره بين المبتدأ والخبر ، كقوله : لو أن ميتا ••• دعته

(١) ديوان الفرزدق : ١٧٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٩٢ •

(٢) عيار الشعر : ٤٨ ، ديوان الفرزدق : ٣١٣ •

لألقى — كأن نعالهن ••• تساقط ريش — كأن خصاهم ••• خصى ثيوس —
 هما كانا •• بيتين — كأن أفواه فيش الحمر ••• أفواه عجز بني ذكوان —
 يكاد زئيرها ، تصدع منه الأرض — لم تزل •••• تنادي — وما كنت ••••
 لأقرب — أينا للعظائم ، أحق — (١) •

ويقع التضمين بين الفعل والفاعل كقوله : حشها ••• أخو شتوات —
 شقت عصا الاسلام ••• قلوبٌ منافقين — لتفقّر، سواج — لا ينالها ••
 إلا من تصعد مجده — سيبلغهن ••• أسيد — (٢) •

ويقع التضمين بين الفعل أو ما في معناه وبين المفعول ، كقوله :
 رأيتك ••• تهون عليك نفسك •• — سأرمي ••• كلييا — ورأي خليع •••
 تحريها إليه — أمر لكم ••• ، حبلا — لم أقارف ، من الغش شيئا — ان
 الله ••• جاعله ، على الناس أمنا (٣) •

ويقع التضمين بين الفعل أو ما في معناه وبين متعلقه ، كقوله :
 وجاشت أنفس من ثوائها ، الينا — اناب ، الى الاسلام — ذلت رقابها ،
 لكم — فاض ذنوبها ، على الارض — أجود ، من النيل — اضمرت الحذار ،
 عليه — ستعلم ما تغني رواقيد •• عن الابل — تحدر ، اليها — بأي صنيع ،
 يقضين الله — يلتفتن ••• ، بعيط — وجائف ، علي — نرتقي ، اليهم —
 عادت فواضله ، علينا — فأديت الذي أنت حامله ، الى الله — غير سائم ،
 من الحمد — (٤) •

وقد أطلت في أمثلة التضمين ، لأوضح هذا الجانب في شعر الفرزدق

(١) الديوان : ١١٤ ، ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٤٥ ، ٥٠٥ ،
 ٦١٨ — ٦١٩ ، ٧٩٦ •

(٢) الديوان : ١٦٩ ، ٢٣٢ ، ٣٦٦ ، ٦٦٣ ، ٨٣٥ •

(٣) الديوان : ٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٢٩ ، ٣٣٣ ، ٥٣٥ ، ٦٣٨ •

(٤) الديوان : ٤ — ٥ ، ٢٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٧٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٥ ، ٤٣٠ ،
 ٤٩٣ ، ٥٢١ ، ٥٣٧ ، ٥٧٦ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٨٢٨ •

الذي يؤثر تمام المعنى ، ويرى أن قطع القافية لا يقطعه • وكأن الشاعر يحس في نفسه نغما آخر يداخل نغم التفاعيل ، ينتهي إليه المعنى ، ويقف عنده ، وان تعجب فعجب أن يقول سعدان بن المبارك أحد رواة الديوان وشراحه ، عندما روى قول الفرزدق :

ولما دعوت ابن المراغة للتي رهنت لها ابني : أيّنا للعظائم
 احق ابا وابنا وقوما اذا جرى الى المجد ، بالمستأثرات الجسائم

: « لم أسمع له بيتا مضمنا غير هذا » (١) •

وكان من مظاهر تعمق الفرزدق معانيه ، يختار لها صورا ، تبدو صلاتها بها خفية لنا ، متعددة الوجوه ، أن كثر اختلاف الشراح والمفسرين في فهم طائفة من أشعاره ، وتوضيح مقاصده بها ، يذهبون في ذلك مذاهب شتى • وقصيدته الرائية في مدح أخواله بني ضبة مثل لتعمق الشاعر حتى يغمض معناه ، فقد حار الشراح في فهم مطلع القصيدة :

رعت ناقتي من أم أعين رعيةً يثُكَل بها وضعا الى الحَقَب الضَّفَرُ
 فقال ابن حبيب : نظرت الى أم أعين نظرة كلفتني الرحلة اليها • • وقال سعدان : أم أعين : خبراء رملة ، تنبت السدر • • وقال أبو عبيدة : رعت ناقتي ، أي نظرت ، اللفظ للناقة والمعنى له • • • ولم يكن اختلافهم أقل في معنى الشطر الثاني ، فجعله بعضهم دليل التأهب للرحلة ، وجعله آخرون دليل التعب والهزال بعد أن أنضأها السير • • • وتمضي مع الشاعر في قصيدته ليصف لك وقوفه بدار أم أعين ، فيقول :

وقوفا بها صحبي عليّ كأنني بها سلم في كف صاحبه ثأر
 فيرى بعض الشراح أنه يصف طول مقامه بالدار ، لا يشتهي أن ينصرف عنها كأنه محبوس بثأر ، ويرى آخرون أنه يصف حزنه واستسلامه كذلك

(١) الديوان : ٧٩٦ •

الذي قد أسلم للقود^(١) . وقد وجد النحاة وأصحاب المعاني أمثلة أخرى في القصيدة فتعاوروها في كتبهم^(٢) وقال الفرزدق ، يتغزل ، في مطلع مدحة لهشام بن عبد الملك :

لأدنو من أرض لأرضك ان دنت بها ييدها موصولة وإكامها
فرأى سعدان ان معناه : لادنو من أرض أنا بها ، الى أرضك ان دنت ،
وقال أبو عبيدة : لأدنو من أرض بها موصولة بيدها وإكامها لأرضك ان
دنت ، كأنه كان بعيدا فدنا منها^(٣) ، ووصف الفرزدق ليله الطويل في مرثية
بنيه فقال :

كليل مهلهل ليلى إذا ما تمنى الطول ذو الليل القصير
يمانية كأن شاميات رجعن بجانبيه عن الغور

فرأى ابن حبيب ان الشاميات أمراس كتان شد بها الليل ، فهو لا يزول ،
وان الشاعر تبع امرأ القيس في بيته الشهير ، ورأى الحرمازي ان النجوم
اليمانية مقيمة ، فكان النجوم الشامية تجذبها فلا تغور^(٤) . واختلف
الشراح في طائفة من أبيات القصيدة التي مدح بها يزيد بن عبد الملك ،
يذهب كل الى معنى يراه أقرب الى مراد الشاعر ، ولم يتردد بعضهم أن
يصرح أن المعنى غم عليه ، فلم يفهم مقصد الشاعر . فقد قال الفرزدق :

سقتني بمنهل السحاب وأقبلت بعيني غزال نام أو كان أوجرا

فقال أبو علي الحرمازي : هذا من غامض قوله . ولما قال الفرزدق :

الى حيث تلقاني تميم إذا بدت وزدت على قوم عداة لتنصرا

-
- (١) الديوان : ٣١٤ ت ١ ، ٣١٥ ت ٢ ، الاقتضاب : ٣٦٠ .
(٢) المعاني الكبير : ١١٧٢ ، اللسان (حرر) ، (سبر) .
(٣) الديوان : ٧٨٣ .
(٤) الديوان : ٢٧٢ ت ٥ .

قال ابن حبيب : لا أدري أي شيء أراد^(١) . ومن غامض معاني الفرزدق قوله يتغزل في مطلع مدحة لبلال بن أبي بردة :

ولا يَلْبِثُ اللَّيْلَ الموكَّلَ دونها عليه بتكرار الليالي زوالها

قال ابن حبيب : زالت فذهبت ، فزوالها يهدي اليّ خيالها كل ليلة . وزوالها لا يجبس الليل عني . فلا يلبث زوالها أن يعيد خيالها . . وقال الحرمازي : يقول ليت حظي منها الا يلبث الليل الموكل على زوالها بالتكرار . أي يكر زوالها على الليل ، يجعل الليلة ليالي^(٢) . وتزاحم المعاني وغموضها ، وتراكب ألفاظها ، وسمت جزءا من أشعاره بسمة التعقيد ، على ما مضى بيانه .

وكان لسعة معارف الشاعر ووفرتها ، وتنوعها ، أثر أسعف الفرزدق أن تغزر معانيه ، وأن يفتن فيها وينوع . وتجلى ذلك في صور شتى : ظهر في أشعاره الأمثال والحكم ، يستمدهما من معارفه ، أو يكونان صدى تجاربه ، وما عاناه في هذه الحياة . فتلألأت في شعره أمثال جميلة ، كان يجعلها متكأ يدعم فكرته ، ويستريح لها قارئه . ومن أمثلته الرائعة :

فإني وسعدا كالحوار وأمه إذا وطئته لم يضره اعتمادها^(٣)
وقوله :

فإن امرأ يغتابني لم أطأ له حريبا ، ولا تنهاه عني أقاربُه
كمحتطب يوما أساودَ هضبةً أتاه بها في ظلمة الليل حاطبه^(٤)

وقوله المضروب مثلاً لمن يصنع شيئاً لا ينجى من مثله :

(١) الديوان : ٤٢٨ ت ٣ ، ٤٣٢ ت ٢ .

(٢) الديوان : ٦٦١ ت ١ .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٣٥٠ ، مجمع الامثال ٢ : ١١٣ ، التمثيل والحاضرة : ٣٣٤ .

(٤) الديوان : ٥١ ، فصل المقال : ٢٤ - ٢٥ .

إن الدين على ابن عصفان بغوا لم يحقنوها في السقاء الأوفر^(١)

وحظلت كتب الأمثال بذكر نماذج من أمثاله في الشعر ، تناقلتها وروتها^(٢) . بل بلغ من قدرة الفرزدق في هذا الميدان أن حفظت له كتب الأمثال ، أمثلة ثرية سارت وتناقلتها الألسنة ، كقوله : إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتنذبح ، وقوله : رأس برأس وزيادة خمسمائة ، وقوله : هذه بتلك والبادي أظلم^(٣) . وهي أدلة على قدرة الشاعر على التركيز ، والايجاز ، والتعبير باللمحة الدالة ، وعلى ما تسعفه به البديهة المطاوعة فيتلقى محدثه بكلمة هي فصل القول . ومثل هذه المواهب تفسح الطريق للحكمة التي يحسن صوغها موجزة عامة ، توحى بتجربة انسانية صادقة . . وقد تناثرت طائفة من حكم الفرزدق في قصائده^(٤) . وله قصيدة تكاد تكون خالصة للحكمة^(٥) ، يستمدّها من تجاربه ، فيوجز أحاسيسه حين فارق الشباب ، واستقبل المشيب ، ويلخص معاناته التي عاناها في الصلة التي تربط الانسان بأبناء عمه وعشيرته ، وهي معاناة استمدّها من حياة القبيلة ، وقد عاد اليها وأكدّها بأكثر من حكمة^(٦) . ويختم قصيده ببيان ما للتجربة الذاتية من أثر في المرء :

فما المرء منقوعا بتجريب واعظ إذا لم تعظه نفسه وتجاربه

(١) الديوان : ٤١٩

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٦ ، ١٣٣ ، ١٩١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٨٠ ، ٣٣٣ ، ٢ : ٧٤ ، ٨٦ ، ١١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، فصل المقال : ٦٢ - ٦٣ ، ٩١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٨ ، ٣٠٣ ، ٣٥٩ - ٣٦٠ ، ٣٦٨ - ٣٦٩ ، نهاية الارب ٣ : ١١ ، ٣٦ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٥

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٤٠ ، ١٩٥ ، ٢ : ٢٤٠ ، نهاية الارب ٣ : ١١

(٤) الديوان : ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٧٧ ، ٢٢٠ ، ٣١٥ ، ٤٦٧ ، ٥٧٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٧٠٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٧ ، ٧٦٤ ، ٧٦٧

(٥) الديوان : ٥١ - ٥٢

(٦) الديوان : ٧٥٧ - ٧٥٨

وله أشباه هذه الحكم تأتيه بها تجاربه ، فحكمة تدعو الى العمل والكد في الحياة :

ولا خير في همّ إذا لم يكن له زماغ وحبل للصريمة محصد^(١)

وحكمة تدعو الى الصبر ، ومغالبة الهموم حتى يظفر بها •

أصدر هومك لا يقتلك واردها فكل واردة يوما لها صدر^(٢)
وحكمة تصف اختلاف طبائع الناس اختلافا يبلغ حد التضاد على تقارب
أسمائهم وأشكالهم :

فقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى كثيرا ، ولكن لا تلاقى الخلائق^(٣)
وحكمة تصف الدهر وتقلبه في حالي بؤسه ونعيمه :

له يوم سوء ليس يخطيء حظه ويوم تلاقى شمسُه بنعيم^(٤)

وقد أوحى له الموت بطائفة من حكمه المتناثرة • وهي تدل على تفكير الشاعر
في مصير الانسان ، ورهبته من مقابلة اللغز المحير الذي لا مفر منه ،
فيقول :

أرى كل حي ميتا فمودعا وإن عاش دهرًا لم تنبه النوائب^(٥)

ويعيد القول في ذكرى اخلائه الذين مضوا قبله :

وأيقنت اني لا محالة ميت فمتبع آثار من قد خلا قبلي^(٦)

(١) الديوان : ١٧٦

(٢) الديوان : ٢٢٠

(٣) الديوان : ٥٧٨

(٤) الديوان : ٨٣١

(٥) الديوان : ١٠٧

(٦) الديوان : ٧٠٢

أو في ذكر ابنه اللذين فقدهما :

أرى كل حي لا يزال طليعة عليه المنيا من فروج المخارم (١)

كان يحار في استكناه سر الموت ، يأتي الانسان أنضر ما يكون آمالاً ،
وأحلاماً ، فينتزعه انتزاع مقتدر ، ويمضي به التفكير الى يوم البعث ،
وما يلقي الانسان فيه :

عجبت من الآمال والموت دونها وماذا يرى المبعوث حين يقوم (٢)

وكان للقرآن والدين ومجالس الفقهاء والوعاظ ، أثر في حكمته بارز ،
فهو يوصي المرء بحسن العمل ، والتزود للآخرة ، قبل أن يدهمه الموت :

تزود ، فما نفس بعاملة لها إذا ما أتاها بالمنيا حديدها
فيوشك نفس أن تكون حياتها وإن مسها موت ، طويلاً خلودها
وسوف ترى النفس الذي اكتدحت له إذا النفس لم تنطق ومات وريدها (٣)

وهو يعلنك بقدرة الله الشاملة ، وعجز الانسان الضعيف تجاهها ، وحيرته
أمام الغيب ، وما ينتظر الانسان يوم البعث والحساب :

ألا كل شيء في يد الله بالغ له أجلاً ، عن يومه لا يحول
وإن الذي يغتر بالله ضائع ولكن سينجي الله من يتوكل
تبين ما يخفى على الناس غيبه ليل ، وأيام على الناس دول
يبين لك الشيء الذي أنت جاهل بذلك ، علام به حين تسأل
ألا كل نفس سوف يأتي وراءها الى يوم يلقاك الكتاب المؤجل (٤)

ويرضى بالقدر ويستسلم لحكمه وقضائه :

(١) الديوان : ٧٦٤

(٢) الديوان : ٨١٥

(٣) الديوان : ١٧٧

(٤) الديوان : ٦٢٧ - ٦٢٨

وليس بمحبوس عن النفس مرسل إليها ، اذا نفس أتاها حمامها^(١)

وليس هذا إلا أقل الآثار التي خلفتها الحياة الدينية في شعر الفرزدق ، فإن هذا الشاعر الذي ورث تراث الجاهلية ، وأخلاقها ، قد مزجت نفسه ثقافة دينية تقوم على القرآن وعلومه ، نماها في نفسه اقامته بالبصرة ، وطوافه في الأمصار الأخرى ، حيث تعقد الحلق ، وتلقى المواعظ ، وتقام المناظرات ، ويدرس الفقه ، وأحكام الدين ، وقد تناثرت آثار هذه الثقافة في أشعاره ، تطالعك ألوانا شتى ، فأنت تقع على معان ، وصور ، ومشاعر اسلامية ، دينية ، حضرية ، هي نبات هذه الحياة الدينية التي عاشها العرب بعد الاسلام . فمن معانيه الدينية حديثه عن اليمين اللغو ، وتخليد القاتل في النار ، وأن الفتنة أكبر من القتل^(٢) . وقد استقى صوراً قرآنية حاكها في شعره كنسج العنكبوت ، وضلال السامري ، وبعث الناس يثورون أفواجا^(٣) وأشار الى قصص القرآن كقصّة يونس ، وبقرة موسى ، وناقّة صالح ، وغرق فرعون ، وخروج آدم من الجنة^(٤) وكثر في شعره القسم بالهدي ، وبالكعبة ، وبخليل الرحمن ، وقد أسعفته هذه الثقافة الدينية ، أن يضفي على الخلفاء والأمراء والولاة صفات دينية ، تحببهم الى الرعية ، وترضيها عنهم . وبرع الفرزدق الى ذلك بالدفاع عن بني أمية ، وحققهم بالخلافة دفاعاً لا يوازيه فيه شاعر آخر . وكان ذلك نتيجة ما عرف به الشاعر من احاطة وسعة ، ومن تعمقه معانيه تعمقاً لا يجاريه فيه شاعر آخر في عصره . لقد استطاع الشاعر أن يحيل ثقافته الدينية الى ألوان شعرية حلّى بها قصيده ، وحالفه التوفيق في كثير منها ، تلاًّلاً جمالها ، فأغنى بها الشعر ، وأجرى في عروقه نسغاً جديداً ، أضف الى ذلك كله أثراً

(١) الديوان : ٧٥٣

(٢) الديوان : ٣٠٠ ، ٧٦٠ ، ٨٥١

(٣) الديوان : ٢٦٤ ، ٤٥١ ، ٧١٥

(٤) الديوان : ٢٨٤ ، ٣٢٧ ، ٦٩٧ ، ٧٧٠ ، ٧٧١

غير مباشر خلفه فيه الحجاج والمناظرة ، والذي تجلى أكثر ما تجلى في نقائضه . وكان لهذه الثقافة الدينية أثرها في ارهاق عاطفة الشاعر الدينية ، وتيقظها حيناً بعد حين ، إذا حزبه أمر ، أو نالته مصيبة ، أو وعظته واقعة ، فيها عبرة وتذكرة . فكانت تنطلق شعرا حارا صادقا ، يصور به موقف الحشر والقيامة ، وما يلقاه الظالمون :

إذا شربوا فيها الصيد رأيتهم يدوبون من حرّ الصديد تمزقا^(١)
أو يعلن فيه توبته ، وينحي باللائمة على أبي الآثام والمعاصي ابليس^(٢) .
أو ينسجها محاورة يصور فيها ما وعظه به الواغظون ، وما يأمله من عفو الله ورحمته^(٣) .

ولكن الفرزدق ، الى ذلك ، ظل الأمين الحفيظ على تراث الجاهلية ، وأخلاقها وفضائلها ، يمتح من معينها . وكان يجاهر بأعرايته وبدأوته ، لا يخفي ذلك ولا يستتره :

وإننا أهل بادية ولسنا بأهل دراهم حضروا القرارا^(٤)
وكان من ذلك أن كثر في مدائحه ومفاخره تغنيه بالمثل والفضائل العربية ، الجاهلية ، وكان هجاؤه معرضا لأوصاف الذم التي عابها الجاهليون .
فهو يفخر بنيل الثأر ، ويعير من رضي الدية كفاء دمه ، كقوله في بني عبس وقد أخذ بنو زيد بثأرهم منهم :

كلوا ما جمعتم من ديات فإنهم بنو محصنات لم تدنس ثيابها
وإن زييدا لا تزال رماحها صوادر ، أو مستورد الموت غابها^(٥)

(١) الديوان : ٥٧٨

(٢) الديوان : ٧٧١

(٣) الاستيعاب .

(٤) الديوان : ٢٣٠

(٥) الديوان : ١٠٣

ومثل ذلك تحضيضه بني نسير ليأخذوا بثأر جلد ، أحد قتلاهم :
أجيبوا صدى جلد ، إذا مادعاكم ، بجرد ، تسامي الملجمين فحولتها ••
فلا تقبلوا منهم أباعر تشتري بوكس ، ولا سودا تصيح فسولها (١)
وفخر بقومه من تميم ، فأشاد بشجاعتهم وكرمهم :

ويوما تميم : يوم حرب ونجدة ويوم مقامات تجرث برودها)
وهو يذكر بقول سلامة بن جندل السعدي التميمي الجاهلي :
يومان : يوم مقامات وأندية ويوم سير الى الأعداء تأويب (٢)

والحق أن كثيرا من فضائل الجاهلية ، وأضدادها ، انسانية ، عامة ،
لا يختص بها عصر دون عصر ، ولكن الفرزدق كان شديد التشبث بها ،
والدفاع عنها ، والمفاخرة • ولما هجا آل المهلب كان أشد ما هجاهم به
أنهم ليسوا عربا أفحاحا ، لأنهم لم يكونوا في جاهليتهم أوفياء لأعراف
الجاهلية ، من عبادة الأوثان ، وحج مكة ، وحياة التنقل والخيام (٤) • فدل
على أصالة البداوة في نفسه ، ولما فخر بتميم الذين أوقعوا بالمهالبة في
قنديل كان فخره وتشفيه ممعنين في الجاهلية والبداوة :

وذات حليل أنكحتنا رماحنا حلالا لمن ييني بهالم تطلق
وكانت أثافي قدرنا رأس بعلمها وعميه في أيدي سقطن واسوق (٥)
ولم يلبث أن ثر مآثر الجاهلية ، وفضائلها ، وأيامها ، في مدائحه ومفاخره ،
وتشفي من مهجويه ، بنشر مخازيهم ، وأخبارهم • فحوت النقائص بذلك

(١) الديوان : ٦٧٧ - ٦٧٨

(٢) الديوان : ١٨٨

(٣) ديوان سلامة بن جندل : ٨

(٤) الديوان : ١١ - ١٣

(٥) الديوان : ٥٧٦ - ٥٧٧

من أيام العرب وأخبارها وقصصها الشيء الكثير ، حتى أطبق عليها الرواة والأخباريون شرحا وتفصيلا ، ولم يخل ديوانه من مثل هذه الاشارات التاريخية ، والقصص والأخبار كذكر منافرة جرير البجلي وخالد الكلبي ، ومجاورة خالد القسري عبد القيس ، والاشادة بأيام مجاشع ، وانتصار الأقرع بن حابس على أهل نجران ، وانتصار بني أسد على حجر وكندة ، وتعيينه بني عبد الله بن غطفان بلقبهم محولة^(١) . كانت الأخبار تنثال عليه متتابعة ، متدفقة ، تواتيه بما يشاء ، كقوله في ذكر مآثر فزارة حين مدح ابن هبيرة :

لهم حاملها والفوارس منهم وفاتكها منهم ، وفيهم بحورها^(٢)

ولبيان غنى شعر الفرزدق بالأخبار ، قالوا : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس^(٣) وهم في ذلك يدلون على مقدرته ، وحسن تصرفه ان استطاع أن يفيد من معارفه ليحيلها شعرا حيا جميلا ، فيه كل فتنة الشعر وسحره . وقد أعانت الفرزدق مقدرته في قص الاخبار وسرد الحوادث أن يضمن أشعاره طائفة من قصص الجاهلية يحسن حكايتها ، ويرع في لفت النظر إليها ، كقصصة أخي تيماء ، وابن ديهث ، وهبنة ، وليل مهلهل^(٤) وقد يأتي الى الامثال الجاهلية فينظمها شعرا يزيد لها ألقا ، كقوله :

وأصبح كالشقراء تنحرا ان مضت وتضرب ساقها إذا ما تولت

وهو المثل القديم الذي قاله لقيط بن زرار : « أشقر ، ان تقدم تنحرا ،

(١) الديوان : ١٨٢-١٨٣، ٢٣٨-٢٤٠ ، ٢٧٥ - ٢٧٦ ، ٣٦٢ ، ٤٧٥

(٢) الديوان : ٤١٦

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٢١

(٤) الديوان : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧٢ ، ٥٢٧ ، ٥٩٧ ، ٨٠٤

أو تأخر تعقر»^(١) وقد تنبه القدماء الى آثار الرواية في ترقية الشعر فقالوا: وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر ، راوية ، يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، وإذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ، ضل ، واهتدى من حيث لا يعلم^(٢) .

ومقدرة الفرزدق في قص الأخبار ترتد الى الروح القصصي الذي تحلى به الشاعر ، فاصطنعه في أغراض شتى تجلت فيها مهارته وحسن تصرفه . كان يلجأ اليه في مفاخره ، ليروي قصة جياح أغاثهم ، وعقر لهم ناقته^(٣) ، أو ل يتمجد بما فعله جده صعصعة حين استغاثت به امرأة لينقذ وليدها من الواد :

فقال لها : نامي ، فإنني بدمتي . لبتك جبار من أيها القنور^(٤)

في أبيات بلغت غاية الجمال الفني . وكان يستعين بالقص يتم به ألواح الوصف والتصوير ، فقد غمس فيه ريشته وهو يصور واقعة دير الجماجم ، وكذلك حين صور الجذب الذي حل بالناس حتى اضطروا أن يدافعوا الذئاب عنهم^(٥) . وساعده القص في فنون من الغزل كان يروي فيها ماجرى بينه وبين النساء من أحاديث ومحاورات ، أو يصور العلاقة بينه وبينهن^(٦) وأينما وجهت بصره في شعره طالعتك ألوان من فن الحكاية والمحاورة ، كمخاطبة ابليس حين تاب وأتاب فؤاده^(٧) ، أو كمحاورته النوار حين

(١) الديوان : ١٣٢

(٢) العمدة ١ : ١٧١

(٣) الديوان : ٩ - ١٠

(٤) الديوان : ٤٧٧

(٥) للديوان : ٢٩٧ - ٢٩٩ ، ٣١٠ - ٣١١

(٦) الديوان : ٥٥٣ - ٥٥٤

(٧) الديوان : ٧٧٠ - ٧٧١

لامته على هجاء بني كليب^(١) . أو كتلك المحاورة بين بني كليب وابني
جعال^(٢) . أو تصويره حال أم جرير تبكي على ابنها خوف أن يقتله
الفرزدق^(٣) . وقد مرت طائفة من نماذج هذا الفن في الفصل الثالث ،
دلت على موهبة الشاعر ، واحسانه ، وأغنت عن ايراد أمثلة أخرى .

وكان من أثر غزارة معاني الشاعر ، وأصالتها ، وعمقها ، وغناها ،
أن غدا الفرزدق أحد الملمهين الذين استوحاهم المحدثون في أشعارهم :
وردوا مناهله ، وعبوا من عذابها ، فكانت مادة لهم ، وقد نبه الى شيء
مما أخذوه النقاد والبلاغيون^(٤) .

وأوتي الفرزدق براعة في السخرية ، ومهارة في عرض صور هازلة ،
تستثير الضحك ، وقد مضى في هذا المضمار شوطا بعيدا ، يدل على أصالة ،
وموهبة ، ولا غرو فقد نشأ الفرزدق شتاما ، مقذع اللسان ، نال الشعراء
بشواظ من نار هجائه . وكان متوقد الذكاء ، لمآح البصيرة ، يحسن تبين
الثغر الذي ينفذ منها الى خصمه فيقطعه ، وما أكثر ما روي له من أجوبة
مسكتة ، أوقعت مخاطبه في الحرج ، ودلت على ذكائه المسعف . فلما
سخر من خصومه — ولم يكن ليحجزه عن سخريته تحرج أو إشفاق —
سلمت له صور جميلة تفوق بها عليهم . وسخرية الفرزدق لا مرارة فيها ،
وإنما هي سخرية عابثة ، تمثل هذا العبث الذي كان له في نفس الفرزدق
بذور كانت تدل عليه حيناً بعد حين . ومن نماذجه في السخرية صورته

(١) الديوان : ٤٤٤

(٢) الديوان : ١١١

(٣) النقائض : ٢٨١

(٤) كتاب الصناعتين : ٢٠٧ — ٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ ، العمدة ١ :

١٧٢ — ١٧٣ ، أخبار أبي تمام : ٢٢٠ ، ديوان المعاني ٢ : ١٧٧ — ١٧٨ ،

الموازنة : ٥٣ — ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٧ — ٧٨ ، ٩٢ ، ١٣٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،

٣٠٣ — ٣٠٤ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٤٣٥ ، ٤٤٢

التي هزأ فيها بقوم جرير ، كليب بن يربوع • كانت المناقضة تدور بينه وبين جرير حول زواجه بحدراء ، فوصف الفرزدق كليباً وقد أخصبت أرضها ، وكثرت أغنامها ، وأنسلت حميرها ، فغرها ذلك والتفت حول جرير ، تزين له ، على لؤم بيته ، أن يخطب الى آل بسطام بن قيس ، أشرف بيوت ربيعة ، واستجاب لهم جرير ، فحزموا أمرهم ، ولبسوا أجمل ثيابهم ، وما هي الا برود غلاظ ، ومضوا يسوقون جحاشهم ، فلما كانوا ببعض الطريق :

<p>لقوا ابني جعال ، والجحاش كأنها فقالا لهم ، ما بالكم في برادكم فقالوا : سمعنا أن حدراء زوجت وفينا من المعزى تلاد ، كأنها بهن نكحنا غاليات نساءنا فقالا : ارجعوا انا نخاف عليكم</p>	<p>لهم تكن ، والقوم ميل العصائب أمن فزع ، أم حول ريان لاغب على مائة شم الذرى والغوارب ظفارية الجزع الذي في الترائب وكل دم منا عليهن واجب يدي كل سام من ربيعة شاغب (١)</p>
--	---

وفق الفرزدق في الهزاء والسخرية ، وادار المحاوراة بين كليب وابني جعال على خير ماتدار محاوراة ، فقد أحسن في اختيار ابني جعال ، وهما من غدانة بن يربوع ، عرفا بالنصح لكليب ، واردة الخير لهم ، اذ هما من أبناء عمومتهم • وانتقى لونا من الأحاديث ادارها ، تدل على ما فطرت عليه كليب من غثاثة وجهل ولؤم • فهي تنتقل من خطأ الى خطأ ، انهم فرحون بمعزاهم يظنونها تعدل الابل الكريمة ، ويبالغون في وصفها ، كأنها ظفارية الجزع الذي في الترائب ، ويذكرون انها كانت مهور نساءهم ، يقولون ذلك ولا يحسون بمهانة ، بل يرونها مكرمة يتبجحون بها ، ويضيفون انهم يأخذون المعزى ، وفاء لدمائهم ، وبذلك بلغ الفرزدق الغاية في اتقاء العبارات التي

وضعها على السنة قوم جرير ، لتصور لئومهم ، وتدل على خستهم ،
 وحقارتهم • انه العجب الساحر عودناه هذا الشاعر الذي اتقن المحاوره ،
 يضعها على السنة شخوصه ، ويدير الأحاديث لتؤدي غرضها ، وتكشف
 عن نفوس أصحابها • ونموذج آخر من السخرية عمد فيه الفرزدق الى
 ضرب من التصوير ، فشبه أبا جرير بجعل الرغام ، ومضى يصف هذا
 الجعل ، يذكر تردده دون حفرته ، وحيرته ، وسواد لونه ، وقذارته ،
 وحرصه على غذائه يحزره خشية الجعلان ، وما غذاؤه الا عذرة تننة ، فان
 كل وفرحت يدها ، فزل عنها ، اطاف به اخوه يعينه ، ويشد أزره ، يعرض
 كل ذلك بأسلوب تناسق نظمه ، وحسن صوغه ، قد استوى واطرد فلم
 تستكره فيه لفظه ، ولم تقلق بموضعها :

إذا جَعَلَ الرِّغَامُ أبو جرير	تردد دون حفرتَه فحاراً
من السود السراعف مايبالي	اليلا ما تَطْخُ أم نهاراً
له دُهْدِيَةٌ ، ان خاف شيئاً	من الجِعْلان ، أحرزها احتقاراً
وان تَقِدَّتْ يدها فزل عنها	أطاف به عطيةً فاستداراً ^(١)

ويصف طمع جرير ، وجشعه ، ورضاه بالقليل في صورة بالغة العجب ، فهو
 يعرض جريراً بأسواق اليمامة ، قد شد وسطه بإزاره ، اذا قال بيتا كايلاه
 بالطعام ، ما يبخر البيع والتجارة • ثم عقب على ذلك بصورة فاحشة مقذعة
 ولكنها بالغة التهكم ، شديدة السخرية ، يقل أمثالها^(٢) • وكان احدى
 الصور الساخرة التي افتن فيها الفرزدق تصويره ضيق جرير بأبيه ، فقد
 راح الفرزدق يصور ذلك شتى الصور ، ساخراً مفتحاً • فيصور جريراً
 مرة وقد حبس أباه في السوق يرجو أن يبادل به :

(١) الديوان : ٤٤٦ ، النقائض : ٢٦٠

(٢) الديوان : ٦٦٤ - ٦٦٥

فقالوا له ردة الحمار فانه أبوك ، لئيم رأسه وجحافلته (١)

ويصوره مرة أخرى وقد ضاق به ذرعا ، واعياه لؤمه ، فهو عازم ان يتخلص منه بالقتل • ويأتي الفرزدق ناصحا مشفقا يترفق به ، ويدله على طرق للخلاص أخرى ، أرحم :

لك الويل ، لا تقتل عطية ، إنه أبوك ، ولكن غيره فتبدل
وبادل به من قوم بضعة مثله أباشر ذي نعلين أو غير منعل
فان هم أبوا ان يقبلوه ولم تجد فراقا له إلا الذي رمت فافعل (٢)

لقد دار به دورة تامة ، يتنقل به ، يريه طريقا أخرى ، ثم يعود به الى البدء ، وكأنه قد عز عليه أن يجد طريقا أخرى • وهي لون من السخرية يصور حيرة الفرزدق ، واخفاقه أن يجد طريقا ينقذ به جريرا من لؤم أبيه • ومن الصور الساخرة التي ردها الفرزدق في شعره صلوات قبيلة كليب بالحمير ، وهي صلوات عرض لها ألوانا مختلفة ، ومما عرضه من الصور أن وصفهم يتراهنون رهانا لم يألفه الناس ، يتراهنون على الحمير حين يتراهن الناس على الجياد ، فما بلغ من حميرهم الغاية مسحوا وجهه ، كما يمسح وجه الفرس السابق :

يتراهنون على جياد حميرهم من غاية الغدوان والصلصال
وكانما مسحوا بوجه حمارهم ذي الرقمتين ، جبين ذي العُقَّال (٣)

ويملؤهم التفاخر بحمارهم ، وتشيرهم الخيلاء ، واذا هم يزينونه ويطينون به :

فما حاجب في بني دارم ولا اسرة الا قرع الامجد
ولا آل قيس بنو خالد ولا الصيد صيد بني مرثد

(١) الديوان : ٧٤٠

(٢) الديوان : ٧٤٤

(٣) الديوان : ٧٢٨

وردن بهم أحد الأثمد
بمغرتهم حاجبي مؤجد
يدهمج بالو كطب والمزود^(١)

إذا أترفوا كل خفاقة
بأخيل منهم اذا زينوا
حمار لهم من بنات الكداد

لقد كانت السخرية العابثة طبعاً أصيلاً فيه ، انه يعابث جريراً ، ويأتي بصور
تثير ضحك الجماهير والنظارة في ساحة المربد ••• وهاهو ذا ينصح لجرير ،
وقد ماتت زوجته خالدة الا يطيل البكاء عليها ، وأن يخطب واحدة أخرى
من اخواتها الأثن ، ولا بأس أن يختارها بكرًا ، ولكن عليه أن يصطحب أباه
يتشفع له عند أهل العروس • وما أمرها سخرية ، وما أصمى سهامها ، يلقيها
الفرزدق بلهجة كلها رصانة وجد ، وفي باطنها الهزء العابث :

أخوات أمك كلهن حريصة ألا يفوتك عندها الاصهار
فاخطب وقل لأبيك يشفع انه سيكون ، أو سيعينك المقدار
بكرًا عست بك ان تكون حظية ان المناكح ، خيرها الابكار^(٢)

وبلغ من تملك السخرية الفرزدق ان كان لا يتحرج ان ينال بها أصدقاءه اذا
لاحت له الفرصة • قالوا : أنشد الفرزدق قول الاخطل :

واني لقوام مقاوم لم يكن جرير ، ولا مولى جرير يقومها

فقال الفرزدق : أجل ، انه ليقوم مقاوم ما أقومها ، أنا ولا جرير • قيل : يا أبا
فراس ، وما هي ؟ • قال : يقوم عند القس يأخذ القربان^(٣) • ومر يقوم
ولهم جنازة فقال : ما هذا ؟ • قالوا : مات أبو الخنساء صاحب البغال ،
فقال :

لييك أبا الخنساء بغل" وبغلة ومخللة سوء قد أيد شعيرها

(١) الديوان : ٢٠٦

(٢) الديوان : ٤٧٠

(٣) أنساب الاشراف ١١ : ٦٠

ومجرفة" مطروحة ، ومحسنة ومقرعة صفراء بال سيور^(١)ها

ومر برجل يحرش الضباب فقال :

من للضباب المعيات وحرشها اذا حان يوم الاعور بن بحير^(٢)

واستضاف رجلا بخيلا ، قراه ضبابا فأخذ يهزأ به :

يتمر أولاد الخاض ابن ديسق^(٣) ويقري الضباب الضيف كقمار واجبه

وقال : تعلم ، انها صفرية مكان ، نمت فيها الدبا وخنابته^(٤)

وما أقسى السخرية ، يضعها على لسان البخيل ، وهو يفاخر بضبابه ، ويرى

أنه قد بالغ في اكرام ضيفه ، حين قدم له ضبابا صفرية . وسخر بابن ابي

حاضر الأسيدي^(٥) التميمي فقال له :

وأنت امرؤ من تميم البطاح ولست من الحي من عامر

جعل البطاح مثلا ، كما يقال : قريش البطاح ، وهو فخر قريش . فعل ذلك

هزاء به^(٦) . وهكذا تتراءى لك ألوان السخرية التي مارسها الشاعر ،

وهي سخرية عابثة ، لا تجهم فيها ولا مرارة ، كل غايتها أن تضحك سامعها ،

وقد واثت السخرية الفرزدق بتشاييه وصور تضحك . من ذلك ماسخر

به من رجل تتابع وعيده وكثر تهديده ، دون أن ييسط يدا ، أو يحرك

مهندا ، فقال له :

(١) الشعر والشعراء : ٢٩٢ ، أنساب الاشراف ١١ : ٧٨

(٢) الديوان : ٣٨٣

(٣) الديوان : ١٠٢ - ١٠٣

(٤) الديوان : ٣٧٤

يُهدى الوعيد ولا يحوط حريمه كالكلب ينبح من وراء السدار^(١)

ومن ذلك ما وصف به جريرا ، وقد أسن وتقدم به العمر ، فاذا هو حمار ولا كالحمير ، حمار له لحية :

رأيت ابن المراغة حين ذكّيت تحول غير لحيته حمارا^(٢)

ويأتي له تشايبه بذينة غايتها الافحاش المضحك^(٣) ، وهكذا قدر للفرزدق ان يقوى على هذا الفن الساخر الضاحك ، وان يتفوق فيه على جرير ، ولكن بمقدار • فقد أتيح لجرير أيضا أن يبادل الفرزدق سخرية بسخرية ، وان لم يقدر له أن يفتن فيها افتنان الفرزدق ، الذي أوتي مقدرة التصوير والقص والمحاورة •

(١) الديوان : ٣٩٤

(٢) النقائض : ٢٦٠ ، الديوان : ٤٤٦ ، ٤٧٣

(٣) الديوان : ٤٧٣ ، ٥٢٢

(٢)

الخصائص اللفظية :

ومما يردده النقاد فلايملون ترداده قولهم : الأسلوب هو الشخصية ، فإذا صدقت هذه القضية ، وهي صادقة ، فإنها أصدق ما تكون في شاعر كالفرزدق ، يدل نمطه في الشعر على شخصيته ، فلاتكاد تخطئه ، إنه ذو أسلوب جزل ، قوي ، شديد التلاحم ، غني الصور ، ثر الالفاظ ، وقيق الاتصال بنفسه المتعالية ، المزهوة ، وبالمعاني التي طرقها من المفاخر والمحامد . والجزالة في أسلوب الفرزدق ، وشدة التلاحم في نسجه ، شيئان غير التعقيد في تأليف العبارة ، وغير الغرابة والحوشية في اللفظ . وكان الفرزدق يتأنى في صناعة الشعر ، ويهيبىء لنفسه الجو الذي يبعثه على قول الشعر ، ويترصد الأوقات التي يلين له فيها عصيته ، ليستوي شعرا ، ففهم المعنى ، شديد الاسر ، قد جبك فأجيد جبكه ، قوي اللفظ ، تشتد قوته حيناً حتى تكون صلصلة .

وقد حدث الفرزدق عن نفسه حين تحداه الانصاري مبينا طريقته في استمطار سحب الشعر اذا صعب عليه ، متأتيا له حتى يعطيه الكلام قياده ، قال : أتيت منزلي ، فأقبلت أصعد ، وأصوب في كل فن من الشعر ، فكأنني مفهم لم أقل شعرا قط ، حتى اذا نادى المنادي بالفجر ، رحلت ناقتي ، ثم أخذت بزمامها فقدت بها حتى أتيت ذبابا - وهو جبل بالمدينة - ثم ناديت بأعلى صوتي : أجيئوا أخاكم ، أبا ليبنى ، فجاش صدري كما يجيش الرجل ،

فعلقت ناقتي، وتوسدت ذراعها، فما قمت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً^(١) .
ولما دخل الفرزدق يعزي الحجاج عن ابنه وأخيه ، أشده في رثائهما بيتين ،
فقال له الحجاج : حسبك ، فخرج الفرزدق وهو يقول : والله لقد قال لي
حسبك ، ولو طلب مزيدا عندي ، ما وجدته^(٢) وقال الفرزدق : أنا أشعر
الناس عند الناس ، ولربما كان قلع ضرس من أضراسي أهون عليّ من قول
بيت^(٣) . وروى رواية أن الفرزدق افحم بعد أن قال :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول
وانغلق عليه ما بعده^(٤) .

وليس في هذه الاخبار ما يدل على ضعف البديهة والارتجال عند الشاعر،
فقد كانت ملكته تسعفه في تلك المواقف ، فيقول ما يدفع قول خصمه ،
ويجلّي به عن نفسه ، منهمرا ، متدفقا ، لا يتوقف^(٥) . وانما تدل الاخبار
السالفة على أن الشعر لا يواتي الشاعر طبعا في كل وقت ، وتدل على تأني
الشاعر في قول الشعر ، ليعينه البطء على تخير المعاني ، والوقوف بابواب
القوافي ، وتأمل أعطاف الشعر ، حتى تتسق أبيات القصيدة ، فقد كان
الفرزدق يحب الفخامة والتأق في شعره حبه لهما في حياته ، ألم يكن يُعنى
بنظافته أبلغ عناية ، ويأخذ زينته ، ليبدو بزّي حسن ، معجب ، فهو
يلبس جميل الثياب ، ويضفر شعره غديرتين ، ويتعمم بعمامة كبيرة ، كان
يريد من ورائها أن يوحي بنبالته وفخامته في أعين الرائين ؟ وصفه واصف .

(١) النقائض : ٥٤٧ ، العمدة ١ : ١٨١ ، الاغاني ٩ : ٣٣٨ ، ٢١ : ٣٩٧ .

(٢) أنساب الاشراف ١١ : ٦٢

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٣٠ ، ٢٠٩ ، الشعر والشعراء : ١٩ ، العقد

الفريد ٥ : ٣٢٧ ، الاغاني ٢١ : ٣٩٠

(٤) الموشح : ١١١ - ١١٢ .

(٥) ديوان الفرزدق : ١٨٥ - ١٨٦ ، العمدة ١ : ١٦٤ - ١٦٥ .

وهو في حلةٍ أفوافٍ مخططة ، له غدیرتان^(١) ، ولما كانت المواقفة في المربد ، لبس الديباج والخز ، وقعد في قبة^(٢) . ودخل على الحجاج بن يوسف ، وعلى سليمان بن عبد الملك ، وعمامته على رأسه مثل المنسف^(٣) . وكان شعره أيام الشباب أسود جعدا ، كأنه عناقيد كرم سود ، ولما دب المشيب الى رأسه أخذ يخضب شعره :

خضبت بجيد الحناء رأسي ليعقب حمرة بعد البياض^(٤)

فلما أصابه الصلع طال أساه وأسفه على شعره الجعد الجميل . وذكر الجاحظ ان الفرزدق كان شديد التقدر للذبان ، والتقرز منها^(٥) . فكأن هذا التأق والعناية بيديهما الفرزدق في مظهره ، محاكاة لما كان يبذل من العناية ليخرج شعره فخما ، جزلا ، غني الصور ، متوثب الخيال .

ولكن تأني الفرزدق وعنايته بشعره شيء آخر غير التحكيك والمعاودة ، اللذين عرف بهما زهير وأمثاله ، من عبيد الشعر ، الذين أكثروا من التنقيح والثقاف ، حتى يخرج شعرهم مهذبا . إنه تأني الشاعر الذي أوتي موهبة التعبير عن تلك المعاني الخصبة ، المنوعة افنانا ، ليستقيم نظمه ، ويأتلف كلمه . ولم يكن لي بد من هذا التفريق بين الفرزدق وزهير خشية الايهام واللبس اللذين قد يوقع فيهما مارواه أبو عبيدة حين قال : كان أبو عمرو بن العلاء يشبه جريرا بالاعشى ، والفرزدق بزهير ، والاخلط بالنايفة^(٦) .

(١) النقااض : ٥٤٧

(٢) طبقات ابن سلام : ٣٤٦ .

(٣) الاغاني ١ : ٣٣٧ ، ٤ : ٢٥٧ .

(٤) ديوان الفرزدق : ٤٨٩ ، ٨٨٨ .

(٥) الحيوان ٣ : ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٦) الشعر والشعراء : ٦١ ، ٢٩٤ ، الاغاني ٨ : ٥ ، العمدة ١ : ٧٧ ،

وكان أبو عمرو يشبهه الاخلط بالنايفة لصحة شعره (الاغاني ٨ : ٢٨٦) ، وشبه شعر الفرزدق بشعر زهير لتأنيتهما واعتسارهما (شرح شواهد المغني : ٤) .

وعرض ابن قتيبة لشعر الفرزدق فجعله من المتكلف ، وان كان جيدا محكما ، لما نزل بصاحبه من طول التفكير ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة اليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه^(١) . وهكذا عمد ابن قتيبة الى ما وقع في شعر الفرزدق من تعقيد ، وخروج على قواعد الاعراب ليستدل به على تكلف الشاعر . وقد بينت في الفصل الرابع انقسام الصلة بين التعقيد والتكلف ، وأن ظاهرة التعقيد في شعر الفرزدق كانت صدى احساسه بغربته النفسية ، وليست أثرا من آثار طريقتة في صناعة الشعر .

وقد بينت قبل ، ان الفرزدق من أولئك الشعراء المصورين ، الذين تستأثر بهم الصورة ، فتدفعهم ان يقفوا عندها طويلا . ويغدو الشعر على أيديهم ، لا أداة التعبير عن المعاني فقط ، بل أداة التصوير لمشاهد الحياة ، ودلت على أن الفرزدق لم يكن في ذلك أقل شغفا من النابغة وذو الرمة ، وان قصائده الاولى ، وميميته ويأئيته خاصة^(٢) مثل لهذه الفطرة الاصلية فيه ، طيب . ومن هذا الباب في مهارة التصوير ، وجودة العرض ما صوره حين تقع ناقة في فلاة زوراء ، نائية الاطراف ، لاماء فيها :

تركنا عليها الذئب يلطم عينه نهرا بزوراء الفلاة نسورها^(٣)

فأي تصوير للنزاع من أجل الحياة ، يقوم بين الاحياء فيدفعهم الى المخاطرة يفوق هذا المشهد لمعركة الذئب والنسور تختصم على الناقة الحسيرة لترد عن نفوسها غائلة الجوع ، في فقر لا يرحم ساكنه ، انه النزاع الابدي يصوره الفرزدق هذه الصورة الجميلة الشاعرة ، حين انتزعه من برائن العدم والرتابة ليخلده لوحا فنيا ينبض بالحياة والحركة يمثلها هذا الفعل المضارع

(١) الشعر والشعراء : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) الديوان : ٧٤٥ ، ٨٩٠ .

(٣) الديوان : ٣٠٤ .

« يلطم » ، ولن أطيل في بيان مهارة الفرزدق في التصوير ، فقد أفردت له قسما برأسه سبق بيانه ، ولكنني أريد أن أصل الى الآثار التي خلفتها هذه الموهبة في بيانه وتعبيره •

وأول ذلك ان طبع الفرزدق المصور قد أعانه على أن يحسن انتزاع التشبيه ، ويأتي به حيا موجيا ، فاذا اراد أن يصور مابه من حب ، ومايلقاه من حرمان اتاك بالتشبيه الجميل :

فهل أنتِ الا نخلة ، غير أنني اراها ، لغيري ظلها وصرامتها^(١)
ويصور الامر العزيز الممتنع بقوله :

وان امراً يرجو تميما وعزها كباسط كف للنجوم يريدها^(٢)
وصور سطوة الحجاج ، وبسطة يده حتى لايفوته شيء :

وأن لو ركبته الريح ثم طلبتني لكنت كشيء أدركته مقادرمه^(٣)
وهو تشبيه دفع القدماء أن يوازنوا بينه وبين قول النابغة الذبياني في النعمان :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المتأى عنك واسع^(٤)

ويغضب الفرزدق على بني سعد بن مالك بن قيس بن ثعلبة ، وقد فتكوا باثنين من بني نهشل ، فاذا هو يقول :

إذن فأصابتكم من الله جزة كما جزّ أعلى سنبل كفش حاصد^(٥)

(١) الديوان : ٧٨٣ .

(٢) الديوان : ١٨٩ ، ٣٥٢ .

(٣) الديوان : ٣١٣ .

(٤) اعجاز القرآن : ١١٤ - ١١٥ .

(٥) ديوان الفرزدق : ١٧٩ .

وفيه تمثيل ما يعتمل في صدر الفرزدق من حقد ، وما يأمله من انتقام وثأر ، وكأنه يذكر بصورة الحجاج ، على ما بينهما في الغاية : إني لأرى رؤوسا قد أينعت ، وحن قفافها • ويصور ظلمة الليل تلف الركب فلا يتبينون طريقهم :

وسيري إذا ما الطرمساء تطخطخت على الركب ، حتى يحسبوا القف واديا^(١)

وهو تشبيهه يصور الظلام الدامس الذي لف الأرض ، فلم تعد العين قادرة على أن تميز الجبل من الوادي ، لتراكب الظلمات بعضها فوق بعض • وقد مهد الشاعر لهذه الصورة بشرطه الأول ، فقد استطاعت كلماته بمقاطعها الصوتية ، أن تصور ثقل هذا الليل البهيم ، تتكاثف ظلماته متتابعة ، فهي النفس لتخيل تشبيهه الجميل • وصور السيوف تلمع في ظلام المعركة ، فكأنها مصاييح تلعو مرة وتصوب^(٢) • ووصف الطريق تختلف ألوان تراه وتختلط فتبدو كالخطوط :

على ظهر عادي كأن متونه ظهور لأي تضحي قياقئه حمرا^(٣)

فقرن بين منظر الطريق ، ومنظر ظهور حمر الوحش ، وهو تشبيهه يذكر بقول طرفة : « على لاحب كأنه ظهر برجد » ، ولا ينسى أن يمثل تظاير الحجارة التي تقذفها ناقته المسرعة ، فإذا هو يقول :

كأن المطايا إذ عدلنا صدورها بعثنا بأيديها الحمام المطيرا^(٤)

وأراد الفرزدق أن يمثل الأمان الذي ظفر به بنو المهلب بجوار سليمان ، فجعلهم في رأس جبل ، مناعة :

(١) ديوان الفرزدق : ٨٩٠ .

(٢) ديوان الفرزدق : ٨٢ ، ٣٠٠ .

(٣) الديوان : ٢٢٧ .

(٤) الديوان : ٤٣٣ .

كأنهم عند ابن مروان أصبحوا على رأس غينا ، من ثبير وكبكب (١)
ومثل الابل وهي تخوض سراب الصحراء ، بسفن تلجج في المياه :

كأن الخلايا فوق كل ضريبة تخطمه في دوسر الماء نبيها (٢)
وهكذا تمضي تشاييه الفرزدق ، قوية الايحاء ، حسية الاصول في أكثرها ،
تخيل الى السامع الصور ماثلة للحسن ، وله تشاييه أخرى غايتها الاضحاك
والسخرية ، مرت في بحث هذا اللون من ألوان فنه • (ص ٤٨٧) •

وكان من أثر طبع الفرزدق الفني المصور أن غدا أكثر ادراكا لسر
اللفظة المصورة ، كان ينتقي اللفظة لتغدو في كلامه موحية تحمّل من المعنى
ما لا تطيقه جملة ، فكأنها بمفردها صورة تثير الخيال ، وتشغل الفكر •
فإذا صورّ النعمة الوافية فهي نعمة خضراء ، واليد الكريمة يد بيضاء تندى
بنانها ، واليد البخيلة قفل على المال ، والمرأة اللطيفة الكشح: غرثى الوشاح ،
والناقة : سفينة بر ، والمرأة عريان النجي^(٣) • ويمضي في هذا المضمار
ليأتينا بأنماط أشد طرافة ، وأعمق غورا • فثياب قيس تسبح من لؤم
أصحابها تسبيحا يسمع ، والظلم الذي سل بالعدوان على الناس سيفه
علم أن سليمان الخليفة قاتله ، وأماديج الفرزدق تشمر ، وترفع ذلاذل
ثيابها ، كما يتشمر الرجل المجد ، وتنفر في البلاد نفور الابل • وإذا اعتذر
الفرزدق فعذره مضيء البيان ، يهدي المترددين الحائرين ، والظفر طعام
يطعمه الظافر ، والفلاة الواسعة أرض سموت رياحها ، والمرأة الكليبية التي
عملت بيديها حتى تشققتا : أمة اليدين ، والعينان السليمتان : لم تطعما
قذى ، والخفيف العقل : رأس النعامة ، وفرسان الخيل في تميم : أعباء

(١) الديوان : ٢٠ .

(٢) الديوان : ٦٥ .

(٣) الديوان : ٦٧ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٤١٩ ، ٥٣٤ ، ٦١٣ ،

٦٨٥ ، ٦٩١ .

المنية ، ورجال كليب المحقرون : ركب الجداء ، وإذا مشى الفرزدق في
الهاجرة فقد لبس رداء الوديقة ، ويستريح الفرزدق الى الصورة فيبدع
فيها جديدا ، فهو يقول حين آمنه أسد القسري بعد خوف :

وإن أبا الأشبال ألبسني له عليّ رداء الأمن لم يتمزق

ومن خس وذنو خيبت له جبة من اللؤم ، ومن قاتل فقتل سليم العرض
كريما ، فقد قضى « نقي ثياب الذكر من دنس الخنا » . ومن لم يتق العار
فقد ظعن بعرض مخرق ، وأي عجب أعجب من هذا الحلب يصوره الفرزدق
بأخلافه وشأبيبه :

حلبنا بأخلاف السماء عليهم شأبيب موت تستهل وتزرم^(١)

وما هو إلا حس المصور يريد أن يجسم الصورة لتمثل أمام الناظرين .
تختال في برديها . وأنت تقع على أمثال لهذه الصور كثيرات في شعره ،
كقوله يصف جد عبد الملك بن مروان في طلب العدو :

لا يعلف الخيل مشدودا رحائلها في منزل بنهار غير تأويب^(٢)

فما أعجب هذا العلف يقدمه لخيله ، انه الجد والتشمير في طلب العدو .
ومثل هذا التصوير لا يقوى عليه غير شاعر بصير بفنون البيان . وقد فتح
به الفرزدق بابا للمحدثين ولجوا منه . ويضارع هذه الصور جمالا ، قوله :
فلو كنت ضييا صفحت ولو سرت على قدمي حياته وعقاربه^(٣)

وهي صورة من الصور الخصبة الفنية ، لأنها تفسح للخيال أن يتمثل ما يريد

(١) الديوان : ٦٩ ، ٩٣ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٤٤ ،

٣٨٢ ، ٣٩٨ ، ٤٢٨ ، ٤٧٣ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٦٣٨ ، ٧٧٧ ، ٨٢٣ ،

النقائض : ٢٨٣ ، ٥٦٦ .

(٢) الديوان : ٢٥ .

(٣) الديوان : ٥٠ .

من صنوف الأذى وهو يتابع الحيات والعقارب التي يتجسم فيها كل هذا الشر • وقال الفرزدق في هجاء أمير فقيمي ولي البصرة :

بكى المنبر الشرقي إذ قام فوقه أمير فقيمي قصير الدوارج^(١)

فدل على قماءة الأمير وذلته « قصير الدوارج » ، ويبيّن مبلغ خسته ، واشتمزاز الناس من لؤمه ببكاء المنبر حين يعلوه • وكان الفرزدق يؤثر تجسيم المعاني ، وتصويرها فالضعيف المظلوم ينصف بعد ظلم ، وينال حقه ، يتمثل في شعر الفرزدق انسانا جبر عظمه وكان كسيرا :

وكم من كريم يشتكى ضعف عظمه أقمت له ما يشتكى بالسقائف^(٢)

وكان يبعد في المجاز الذي يصطنعه ، فتشبيه الثلج يغطي الأرض والجبل ، بالملاء الأبيض ، أمر مألوف • ولكن الفرزدق يفتن في هذا الشيء المألوف فإذا هو يقول :

تطل بعينيها الى الجبل الذي عليه ملاء الثلج بيض البنائق^(٣)

وليس يسيرا أن تتخيل لملاء الثلج بنائق • وذكر البلاغيون من جيد صورته استعارته الجميلة :

ليغمز عزا قد عسا عظم رأسه قراسية كالفحل يصرف بازله^(٤)

وقد سمى علماء البلاغة كثيرا من هذه الصور التي أتينا بها ، باسم الاستعارة المكنية ، وهو اسم فيه غموض ، لا يفصح عما يستتر في هذه الصور من مهارة فنية ، ينبىء بها الذوق ، ويبينها النقد^(٥) •

(١) الديوان : ١٤٢ •

(٢) الديوان : ٥٤١ •

(٣) الديوان : ٥٧٩ ، لسان العرب (بنق) •

(٤) البديع : ١٢ ، نقد الشعر : ١٠٥

(٥) نقد الدكتور شوقي ضيف علماء البلاغة في تسميتهم هذا اللون من

التصوير : الاستعارة المكنية (الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٢٣٥-٢٣٦) •

وقد نبه النقاد وعلماء البلاغة لموهبة الفرزدق التي يتمتع بها في احساسه بمقدرة اللفظ المصور (كالتشبيه والاستعارة والكناية) على الایحاء ، والتعبير عن المعاني بأوجز كلام . قال قدامة : وما أجود ما قال الفرزدق في عبد الله بن عمير الليثي حين هرب من أبي فديك الخارجي ، وكان يتمنى لقاء الخوارج :

تمنيتهم ، حتى إذا ما لقيتهم تركت لهم عند الجلال السرادفا
وأعطيت ما تعطي الحليلة وكنت حبارى إذ رأيت البوارفا
ففي قوله : ما تعطي الحليلة بعلمها ، مع ايجازه ، عجائب . وكذلك في قوله :
حبارى^(١) . وأورد الصولي بيت الفرزدق :

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ، ولم أبعث عليه البواكيا
وقال : وليس كلام أحسن من قوله : وجفن سلاح قد رزئت ، وتشبيهه
هذا^(٢) وأعجب العسكري بتشبيه الفرزدق الابل بالأهلة ليدل على ضمها
واحددابها حين قال :

إذا ما أنيخت قاتلت عن ظهورها حراجيجُ أمثال الأهلة شسف^(٣)
وأكثر ابن أبي عون في كتابه التشبيهات من التنبيه على روائع الفرزدق التي
وقعت له في هذا الفن من فنون التصوير^(٤) .

وكان لا بد للفرزدق المرتبط بحياة البادية ، المتطلع اليها أبدا ، أن
تستمد كثرة من صورته كاثرة ، أصولها من الحياة البدوية ، وهي أصول

(١) نقد الشعر : ٤٨ ، ديوان الفرزدق : ٥٨٦
(٢) أخبار أبي تمام : ٢٢٠ ، ديوان الفرزدق : ٨٩٤
(٣) ديوان المعاني ٢ : ١١٩
(٤) التشبيهات : ١ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ١٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ،
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨١

حية ، وثيقة الصلة بحياة الناس ، مثيرة لخيالهم ، مرتبطة بتراثهم ، لها جمالها
 وآلقها ، فاستمد من الجبل والدلو ، صور الكرم : « رشاء له دلو يفيض
 ذنوبها » ، « فهب لي سجلا » ، « وجدنا لكم دلو شديدا رشاؤها » ،
 « تستقي الى دلوك العظمى عظام دلائها » ، « فدونك دلوي » ، وصورة
 الخيانة : « كما خان دلو القوم من متن الرشاء انجذامها » ، وصورة المبارزة
 والمفاخرة : « فسوف ترى : أي الذنوبين أثقل » •

إذا واضخوه المجد جاءت دلاؤه ملاء إذا سجل من المجد شولا
 وصورة الذلة والضعف :

صغرت دلاؤهم فما ملأوا بها حوزا ، ولا شهدوا عراك زحام
 ومثله :

فقبح شر حيننا قديما وأصغره إذا اغترفوا ذنابنا
 وصورة العرض المباح للألسنة لا يحميه حام : « وكانت كدلو لا يزال
 يعيرها »^(١) واستمد من الشجرة صورة المجد والشرف :

لكم أثلة منها خرجتم وظلها عليكم ، وفيكم نبتها في ثرائها
 ومثله :

إن لآل عدي أثلة فلقت صفاة ذبيان لا تدنو لها الشجر
 وصورة من فارقه الخير والنعمة واختلت حاله :

ألفيت قومك لم يترك لأثلتهم ظل ، وعنهما لحاء الساق يقتشر^(٢)
 وجعل فضل الكريم كفضل الغيث ينفع من أصاب ، ومن حل به الهوان ،

(١) ديوان الفرزدق : ٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ١٠١ ،
 ١١٧ ، ٤٥٩ ، ٦٢٤ ، ٧٠٢ ، ٧٥٤ ، النفاض : ٢٦٣
 (٢) ديوان الفرزدق : ٦ ، ٧٩ ، ٢٢٣ ، ٢٨١

وغدا في شر حال فكأنه على ظهر بعير عريان السلائق أدبر ، ومن أوى الى
 حرز منيع فقد أوى الى أشب العيصان ، والفرسان الأقوياء المحاربون
 كأنهم جمال طليت بالكحيل والقطران ، وإذا طرقه الخيال وحيا بالسلام
 عجلا ، فكأنه قاتل مطلوب ، لا يقبل المال ثائره ، وإذا مر بدار الأحبة فكأنه
 الأسير المسلم بثأر ، وقع في كف صاحبه • وإذا شفه الحب وأذابه الهم كانت
 بقيته شفا كجناح النسر مرط سائره • وإذا طال ليله خيل اليه أن نجومه
 الثابتة شول تشنى لأدهم في مباركها ، عقير • وقصائده الشرد كأنها سنا نار
 أوقدت لصلاتها ، ومنبر دمشق راحلة الإمام الأكبر ، والخليفة ينقض على
 أعدائه مثل عتيق الطير، والحرب حين تشتعل ناقة تفرّ عن نابها وتصرّ به ،
 وتسعّر نار الحرب كعدوى الإبل المعبدة الجرب ، والثائرون الخارجون
 على خليفة الله :

كانوا كسائلة حمقاء إذ حقنت سلاءها في اديم غير مربوب (١)

ولعل بقية من بقايا هذه الأعرابية تشبيهه الشهير :

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نرى على منهل إلا نشل ونقذف (٢)
 يقوله ليصور ما يتمناه من الوحدة والانفراد •

وكان من آثار هذه الجاهلية أن مضى الفرزدق على آثارهم في الانتقال
 من غرض الى غرض في القصيدة ، عن طريق الاضراب ، كقوله :

دع ذا فقد أظنبت في طلب الصبا وعلاك من بعد الشباب قتيير (٣)
 وهو انتقال رأى فيه الشعراء المحدثون جفاء وغلظة ، فاجتنبوه •

(١) ديوان الفرزدق : ٦ ، ١٤ ، ٢٥ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٨٦ ، ٩٢ ،
 ١٠٧ ، ١٣٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣١٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٨
 (٢) الديوان : ٥٥٥
 (٣) الديوان : ٣٦٧

وتجلى في أسلوب الفرزدق الجزل ، المتلاحم ، مقدرة الشاعر على
الايجاز ، وتضمنين المعنى الكثير في اللفظ القليل ، ولذلك قدر للفرزدق أن
يكون أكثر الثلاثة الفحول بيتا مقلدا • والبيت المقلد : المستغني بنفسه ،
المشهور ، الذي يضرب به المثل ، فمن ذلك قوله :

فيا عجبا حتى كليب تسبني كأن أباهها نهشل أو مجاشع
وقوله :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع^(١)
ومن هنا تحدث النقاد عن قدرته على الإيحاء الى الشيء ، فيغني عند ذوي
الألباب عن كشفه ، وجعلوا منه قوله :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل^(٢)
ويتصل بهذا مقدرة الشاعر على اختيار اللفظ الدال على المعنى ، حتى لا يقع
لفظ آخر موقعه ، على ما عرف من ترادف العربية وبسطة لسانها ، وبذلك
قدر للفرزدق أن يعبر عن حركات النفس ، بأوجز كلام ، وأدقه • كتصويره
مشاعر المريب حين يلقي الناس :

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم من الخوف ، لا تخفى عليهم سرائره
وكذلك تصويره جشع الانسان وحرصه ، يلقي في سبيلهما المخاطر ،
ويتعرض للحتوف :

ولما رأى ما دونها خاطرت به على الموت نفس لا يموت فقيرها^(٣)

فقوله : لا يموت فقيرها ، على ايجازه ، يحمل الى الذهن صور الجشع ،

(١) طبقات ابن سلام : ٣٠٥ ، الاغاني ٢١ : ٣٢٩

(٢) الموشح : ١٠٢ - ١٠٣ ، الكامل للمبرد : ١٨

(٣) الديوان : ٢٥٦ ، ٤٥٥

والحرص واندفاع الانسان لا يقف طمعه عند حد • ومثل هذا الايجاز الجميل يقوى عليه الفرزدق ، وأمثاله من الفحول ، دفع أحد النقاد المحدثين ليقول : العرب يرون الفن الأعلى في الإيجاز ، أي التركيز ، في حين أن الغرب يرى الفن الأغنى في الاطناب أي التحليل^(١) •

ويتجلى في شعر الفرزدق ما يميل اليه الشاعر من ايثار التهويل على سامعه ، والمبالغة ، ليلبغ ما يريد له معانيه من التفضيم • أراد أن يصف مخافته من مالك بن المنذر حين سجنه ، وانها أشد من مخافته أسدا مفترسا فراح يهول بصفة الأسد :

فلو أن ضيف البارقيّن ولعلع	مكانك مني نازلاً حين يضعم
كأن شهابي قابس تحت جبهة	له من صلاب الرعن بل هو أجهم
لكان فؤادي منه أيسر خشية	وأوثق مني للمنية مسلم
إذا كشرت أنيابه عن أسنة	له بين لحبي ملحم لا يثلم
له ابنان لا ينفك يمشي اليهما	بأوصال مغفور به يتقرّم
وأول ما ذاقا لدن فطمتهما	دم وبنان ، من صريع ، ومعصم
نقول لأوصال الرجال اليهما	ومالهما إلا من القوم مطعم
ولم تر محضوبين أجراً منهما	أبا ويدي أم له حين تظم ^(٢)

لقد ائتلفت ملكة التصوير والتهويل لتخرج اليك بهذه الصورة المهيبة ، المخيفة ، وهي صورة ملأت الفرزدق نفسه رعباً يوم لقي الأسد في طريقه الى المدينة فاراً من زياد ، فأكثر من صفته ، والتهويل به في أشعاره^(٣) • وتهدد رجلاً بالهجاء فشبّه نفسه بالحية العاصية ، لا تستجيب لحاو ، ولا يشفي سمها راق ، ومضى يبالغ في صفة الحية ، ويهول على سامعه ، ليلبغ ما يريد من تفضيم أمره ، وارهاب الرجل وتخوينه :

(١) أشعب لتوفيق الحكيم : ٧

(٢) الديوان : ٨٠٤ - ٨٠٥

(٣) الديوان : ٢٨٧ ، ٣٢١ ، ٣٧٠ ، ٣٨١

فلا يقذفك الحين في ناب حية عصى كل حواء ، به السم منقع
يفر رقاة القوم لا يقربونه خشاش حبال فاتك الليل أقرع
من الصم ، ان تعلقك منه شكيمة تمت ، اوتفق قد باد عقلك أجمع
ترى جسدا عيناك تنظر ساكنا ولست ، ولو ناداك لقمان ، تسمع^(١)

ولن تفوتك المبالغة في قوله : ولست ولو ناداك لقمان تسمع ، انها طبيعة
الشاعر المبنية على ايثار الغلو ، تنظر الى الأشياء ، لتعرضها ممتزجة
باحساسها ، مشحونة بمشاعرها . وقد مضى الشاعر على سننه في كل
ما عرض له من مثل هذه الأوصاف ، كصفة الخيل ، والجيش ، والبازي ،
مهولا ، مفرطا في الصفة . وقد سبق شيء من ذلك في بحث النقائص ،
وبحث الوصف . ولم يقصر الفرزدق مبالغته على هذه الأشياء التي بنيت
على الشدة والقوة ، بل كان في مفاخره يبالح ، فيشتد في مبالغته ، وقد
مرت من أمثلة ذلك نماذج عدة ، كان في اندفاعه كالسيل لا يوقفه شيء .
كأن يقول في تميم أبي القبيلة الشهيرة ، المنتمية اليه ، وهو يصف مولده :
فإن تميما لم تكن أمه ابتغت له صحة في مهده بالتمائم
كأن أكف القابلات لأمه رمين بعادي الأسود الضراغم
تأزر بين القابلات ولم يكن له توأم الادهاء لحازم^(٢)
وهو تصوير يذكرنا بأبطال الملاحم ، الذين رافقتهم الخوارق منذ ولادتهم ،
ومن قوله في الفخر بيني تميم :

وأجسم من عاد جسوم رجالهم وأكثر ان عدوا عديدا من الترب^(٣)
وذكر ابن قتيبة من تهويله ، وصفه الشجة التي أنزلها برأس خصمه^(٤) ،
وجعل ابن رشيق من غلو الفرزدق المفرط قوله :

(١) الديوان : ٥٠٥

(٢) الديوان : ٨٥٦

(٣) الديوان : ١٤

(٤) المعاني الكبير : ٩٨٣

ألم تسمعا يا ابني حكيم حينها الى السيف ، تستبكي إذا لم تعقر
فجعل الإبل إذا لم تعقر حنت الى السيف واستبكت لكثرة عاداتها^(١) . كان
غلو الفرزدق ومبالغته أداة تهويله . وكان الفرزدق كان يستريح الى هذه
المبالغة التي ترضي عنف نفسه، وشدة تعاليه . وقد تأتي مبالغته في التصغير
والتحقير لتقليل شأن مهجويه ، والحط من مكائهم :

إني وجدت بني كليب إنما خلقوا وأمك مذ ثلاث ليال
يرويهم الشمد الذي لو حله جردان ، ما نداهما بيلال^(٢)
وكقوله حين يصف بيت بني كليب الذي تأوي اليه :
الى مقعد كمييت الكلاب قصير جوانبته ، مبلد
يواري كليباً إذا استجمعت ويعجز عن مجلس المقعد^(٣)
وكقوله في هجاء طيء :

ولو أن عصفورا يمد جناحه على طيء في دارها لاستظلت^(٤)
وقد مكد للفرزدق أن يبلغ بفن التهويل مداه ، ذلك الثراء اللفظي
الواسع ، الذي كان يملكه الشاعر ، فهو يتغلغل في معناه ، ويغلو ، تنثال عليه
الألفاظ متتابعة ، متوالية ، ترفده في معناه ، وتسعفه أن يمضي حيث يقف
سواه ، فهو يتابع أوصافه في المعنى الذي يطرقة فيمضي فيه الى غايته ،
يقول في طيء :

قلوا ، وذلوا ، ولم يسلم أديهم ولم يكن للمعالي فيهم أرب^(٥)
فالمعنى يقف عند الفعلين الأولين ، ولكن ثراء الشاعر يدفعه أن يطنب في
الصفة . ويقول في الفخر بقومه ، وهجاء جرير :

(١) العمدة ٢ : ٩٧ ، النقائض : ٩٥٢

(٢) النقائض : ٢٧٩

(٣) الديوان : ٢٠٧

(٤) الديوان : ١٣٧

(٥) الديوان : ٩٧

فكيف ترى عطية حين يلقي عظاما هامهن ، قراسيات
 قروما من بني سفيان صيدا طوالات الشقاشق مصعبات^(١)

إنه يبائع في الألفاظ تتابع ثرة متدفقة : « عظاما هامهن ، قراسيات •••
 طوالات الشقاشق ، مصعبات » فتعين الفرزدق بضخامتها ، وجرسها على
 التهويل الذي أراده • ومن هنا كان الفرزدق كثير الادلال بلسانه ،
 وأنه يضعه مواضع لا يقوى سواه أن يضعها • ومن أجل هذا كان أقوى
 على القافية وأقدر • كان يركب القافية الصعبة فلا تعجزه ، فقد نظم ملحمنه
 الشهيرة على الفاء ، وهي حرف صعب عسير ، فبلغ بها الذروة • وقد
 لاحظ أحد النقاد أن الفرزدق ميال في قوافيه الى الضم ، وان جريرا أميل
 الى الكسر ، وعلل ذلك أن الضمة حركة تشعر بالابهة والفخامة ، والكسرة
 تشعر بالرفقة واللين ، وإن شعراء الفخامة يميلون الى الضم^(٢) • وإن
 صدق ظنه ، اني أضيف الى ذلك ان الضمة تدل على التمكن والاعتدال ،
 لأنها أساس ودعامة في بناء الجملة ، لا يتم معنى البيت دونها ، على حين
 ان الكسرة تكون في ألفاظ القيد ، يتم المعنى قبل أن يبلغها الشاعر •
 ولعلنا لا نعجب بعد أن نسمعهم يقولون : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث
 اللغة^(٣) • وقد قال بعض الحكماء في المفاضلة بين الفرزدق وجريير ، وتبيان
 الوجوه الفنية التي تفوق فيها الفرزدق : « الفرزدق أشعر ، لأنه أقواهما
 أسر كلام ، وأجراهما في أساليب الشعر ، وأقدرهما على تطويل ، وأحسنهما
 قطعاً » (القطع : القافية)^(٤) • وقد مثل النقاد بقصائد من شعر الفرزدق ،
 نماذج للأشعار المحكمة ، المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الرصف ،
 السلسلة الألفاظ ، التي قد خرجت خروج النثر ، سهولة وانتظاما ،

(١) الديوان : ١٢٧

(٢) المرشد ١ : ٤٧ ، ٧١

(٣) الاغانى ٢١ : ٤١٩

(٤) العمدة ١ : ١٦٢ ، وقد مرّ هذا القول (ص : ٣٢٩) .

فلا استكراه في قوافيها ، ولا تكلف في معانيها ، ورأوا أن قوافيه واقعة في مواضعها ، متمكنة في مواقعها^(١) . وقالوا في الموازنة بينه وبين جرير : أما من كان يميل الى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره ، فيقدم الفرزدق ، وأما من كان يميل الى أشعار المطبوعين والى الكلام السمج ، السهل ، الغزل ، فيقدم جريرا^(٢) . ولما وازن الشريف المرتضى بين أبيات للفرزدق ، وأبيات لليلى الأخيلية ، ولنصيب الشاعر ، خرج بأن أبيات الفرزدق أجزل ألفاظا ، وأشد أسرا^(٣) . وقد رأى قوم في سلوك الفرزدق طريقة واحدة يجري عليها في أسلوبه ، تقصيرا في شاعريته ، لأن المنزلة العالية أن يكون في قوة صانع الكلام أن يأتي مرة بالجزل ، وأخرى بالسهل ، فيلين إذا شاء ، ويشتد إذا أراد ، شأن جرير ، الذي يرق في غزله ، ويصلب ويشتد في أهاجيه ومفاخره . وليس كذلك الفرزدق لأنه يشتد أبدا^(٤) . ولكني أرى هذا المقياس لا يقنع الناقد ، الذي يريد أول ما يريد أن يصور الشاعر بصدق أحاسيسه ، وأن يحسن نقلها الى قارئه ، ليثير في نفسه من الانفعال شبيها بما أحسه ، مستعينا بفنه ومهارته ، في اختيار اللفظ ، والصورة ، والايقاع ، وتلاؤمها ، لتؤدي بمضمونها ما أراد لها . فمن كان أقدر على ذلك وأقوى ، كان أشعر ، وأعلى طبقة .

وكان من أثر البطء والتأني أن تناثرت في شعر الفرزدق ألوان من محسنات البديع ، دلت على مهارة الشاعر ، وحسن اصطناعه ألوانا تضيفي على شعره رواء وبهجة ، وتعين في احياء الصورة التي يريد أن يثيرها في خيال قارئه ، إنها أحد أساليب الشاعر التي تسعفه في خلق جو يبعث في

(١) عيار الشعر : ٤٨ - ٤٩ ، ٥٨ - ٦٠ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، الكامل للمبرد : ١٨

(٢) الاغاني ٢١ : ٤١٨

(٣) أمالي المرتضى ١ : ٥٨ ، ٦٢

(٤) كتاب الصناعتين : ٢٤ ، ٢٥ ، اعجاز القرآن : ١٧٦

قارئه أحاسيس تقارب ما أحس به في تجربته الشعرية التي أراد تصويرها ونقلها الى سامعه • وكان الطبايق أكثر ألوان البديع التي اصطنعها الفرزدق وتصرف بها ، وجد فيها متكأه ، ليدل به على التناقض والتضاد الذي كان يلوح لعينيه في المعاني التي يتناولها • إنه يستعين به حين يمدح سليمان بن عبد الملك ليقابل بين عدله وظلم الحجاج فيأتيك بأجمل أمثلة :

والى سليمان الذي سكنت
فلقد عززنا بعد ذلتنا
أحييت أنفسنا وقد هلكت
فئن نعشتهم لقد هلكوا
أروى الهضاب به من الذعر •••
بك ، بعد ما نأبى عن القسر ••
وجبرت منا واهي الكسر •••
واليسر يفرج لزبة العسر •••^(١)

لقد بدا الفرزدق ماهرا صنعا ، يحسن التأنى لفكرته ، حين يختار لها مثل هذه المطابقات الموحية ، تترقق سلسلة ، سائغة ، لا اجتلاب فيها ، ولا تكلف ، وكأن الشاعر لم يقصد اليها ، ولم يردها • ولعل مما يؤكد مهارة الشاعر طائفة من هذه المطابقات كبيرة ، لا تقف عند التضاد ، بل يطالعك فيها صور تلتف عليها • انها مطابقات فيها غنى وخصب ، تملأ نفسك ، وتثير خيالك ، وأنت تتابع صاحبها في مثل قوله :

أحييت أنفسنا وقد هلكت
وجبرت منا واهي الكسر
وقوله : « فذاك رجال أوقدوا ثم أحمدوا » ، وقوله : « يعالج مولى يستقيم
ويطلع »^(٢) ومن الطبايق الذي اصطنعه الفرزدق في المديح ، قوله في مالك
ابن المنذر :

أذل به الله الذي كان ظلما
وعز به المظلوم واشتد جانبه^(٣)

(١) الديوان : ٣٢٤ - ٣٣٣ ، واللزبة (بفتح اللام وسكون الزاي) :

الشدة .

(٢) الديوان : ٣٢٨ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ .

(٣) الديوان : ٧٧ .

وقوله : « ركبت له سهل الأموز وحزنها » ، « يحيي ميت الأرض مأوها » (١) .
 وكثر الطباق في أهاجيه ، يصور به حال مهجويه ، أو يوازن بينه وبينهم ،
 كقوله في صفة قوم جرير :

لن تدركوا كرمي بلؤم أيكم وأوابدي بتنحل الأشعار . . .
 قبح الإله بني كليب ، انهم لا يغدرون ولا يفون لجار
 يستيقظون الى نفاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار (٢)
 وكقوله في هجائهم :

هم شهوده غائبين بنصرهم ونصر اللئيم غائب وهو حاضر (٣)
 وانتشر الطباق في جميع أغراض شعره ، كقوله في الفخر :

وقدر فتأنا عليها بعد ما غلت وأخرى حششنا بالعوالي توتف (٤)
 وهو طباق يلتف على صورة (استعارة) • وقوله :
 كذلك كانت خيلنا مرة ترى سمانا وأحيانا تقاد فتعجف (٥)
 وقال في الحكمة :

ورب ابن عم حاضر الشر ، خيره مع النجم ، من حيث استقلت كواكبه
 فلا ما نأى من الشر نازح ولا ما دنا منه من الخير جالبه (٦)
 وله في الغزل : « ففيها شفاء النفس مني وداؤها » (٧) • وهكذا أمعن
 الفرزدق في اصطناع الطباق ، بل راح يفتن فيه ألوان الافتنان • وبلغ به
 الأمر أن حاول جمع صفتي التضاد لشيء واحد ، يبدو بادىء ذي بدء أنهما
 لا يلتقيان فيه ، كقوله :

(١) الديوان : ٧ ، ٥٩ ، ٣٤١

(٢) الديوان : ٤٤٨ - ٤٥٠

(٣) الديوان : ٣٩٢

(٤) النقائض : ٥٦٧

(٥) النقائض : ٥٦٦

(٦) الديوان : ٥٢

(٧) الديوان : ٧

ترى قطن أهل الأصاريم أنه غنيٌّ إذا ما كلمته فقيرها (١)
وكقوله في هجاء بني جعفر :

لعمري لقد لاقت من الشر جعفر بطخفة أياما طويلا قصيرها (٢)
وكان الجاحظ يكثر التعجب والاستحسان لقوله يفخر بكرمه :
وإني سفية النار للمبتغي القرى وإني حلیم الكلب للضيف يترك (٣)
وما هو إلا الطباق الجميل ، يتألق بصورتيه لتزيده غنى وخصبا ، واثارة
لخيال سامعه • ومن جميل طباقه ، قوله :

والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانيه نهار (٤)
وقد جملة تشخيص النهار ، فهو يصيح بالليل ، ينفره ويطرده ، يضم الى
ذلك الصورة المركبة التي قامت في كل شطر ليجمع بينهما التشبيه •
واصطنع الفرزدق الجناس ، ولكن جرى وراء أسهله وأقله كلفة ،
وهو الجناس الذي يعقده المرء بين اسم العلم ومشتق منه يجانسه • وهذا
اللون من ألوان الجناس كثير ، مألوف ، ورد في الشعر القديم ، وفي حديث
النبي ، وقد أكثر منه الفرزدق ، معجبا بهذا التلاقي الصوتي بين الاسم ومشتقه •
ومن أجمل ما روي له فيه قوله :

جفاف آجف الله عنه سحابه وأوسع من كل ساف وحاصب (٥)
وقوله : « إن كثيرا كثير فضل نائله » ، « شوامخ لبني شمش » ، « فمن
يك جار ابن المعلّى فقد علا » ، « أذاك ابن أعيان حين أعياه شيخه »

(١) الديوان : ٤٥٤

(٢) الديوان : ٤٦٢

(٣) سرح العيون : ٢٥٠

(٤) كتاب الصناعتين : ٢٥٤ ، ٣١٤ ، شروح سقط الزند : ٧٩٢ ،

العمدة ١ : ٢٣٧ ديوان المعاني ٢ : ٨٧ ، ١٦٣ ، اللسان (نهر) ، اعجاز
القرآن : ١٢٥

(٥) الديوان : ٢٩

« نهيت ابن عفرا أن يعفر أمه » ، « ان المراغة مرغت يربوعها » ، « الا سلت الله ابن سلتى » ، « قشرت بني قشير » •

ولقد نهيت مخرقا فتخرقت بمخرق شطن الدلاء شغور^(١)

ولكن الفرزدق لم يقتصر على هذا اللون من ألوان الجناس وحده ، فقد بدا في شعره الجناس المعتمد على التشابه اللفظي في الكلمات • ولم يكتر منه الشاعر ، لصعوبته ، وانه لا يواتي الشاعر ، دون تكلف وتعمد ، ومن هنا قل في شعره ، جريا وراء طبعه ، ومما روى له منه ، « وراحت تشل الشول » ، وقوله :

توتر لي قيس قياس حظائها وما أنا عما ساء قيسا بنائهم^(٢)

ويلوح في البيت ، الى جانب الجناس ، مقدرة الفرزدق على الإحساس بسر اللفظ المعبر • ففي كلمة حظائها من تحقير سهام قيس وتقليل شأنها ما يؤدي معنى الهزاء والسخرية اللذين أرادهما الفرزدق • وهل الحظاء - في اللغة - إلا أسهم صغار يلعب بها الصبيان ؟ • وفي كتب البلاغة طائفة من أشعاره هي أمثلة لما أتى به الفرزدق من هذين اللونين من ألوان البديع : الطباق (وسماه قدامة : التكافؤ) ، والجناس^(٣) • ثم ذكر البلاغيون للفرزدق من ألوان البديع لونا سموه صحة التفسير ، ومثلوا له بقوله :

لقد خنت قوما لو لجأت اليهم طريد دم ، أو حاملا ثقلا مغرم

(١) الديوان : ٤١ ، ٥٠ ، ٢٧٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٤٩٦ ، ٦١٠ ،

٨٠٤ ، ٨٧٧

(٢) الديوان : ٤٥٦ ، ٧٩٩

(٣) البديع : ٢٧ ، ٣٩ ، نقد الشعر : ٨٠ ، ٩٤ ، الموازنة : ١٨ ،

٢٢٧ ، كتاب الصناعتين : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، العمدة ١ : ٩٩ ، ٢ : ١٢ ، ١٦ ، نهاية الأرب ٧ : ١٠١

لألفت فيهم مطعما ومطاعنا وراءك شزرا ، بالوشيج المقوم^(١) ،
 وذكروا له ألوانا بديعية أخرى ، كرد الاعجاز على الصدور ، والاستشهاد ،
 والاحتجاج ، والاستطراد ، والحشو الحسن^(٢) . ولعل أكثر ألوانه في
 البديع عسرا ما سمي عند البلاغين بالمذهب الكلامي ، ومثلوا له بقوله :
 لكل امرئ نفسان : نفس كريمة واخرى يعاصيها الفتى أو يطيعها
 ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من احرارهن شفيعها^(٣) ،
 وهو لون نزر ، عزيز ، لم يكثر منه الشعراء . ولم يأت به المتقدمون ،
 وانما فتح باب الفزدق ، لما قدمت من مقدرة له تكاتفت فيها موهبة نافذة ،
 وعلم محيط .



(١) الديوان : ٧٤٩ - ٧٥٠ ، كتاب الصناعتين : ٣٤٥ - ٣٤٦ ،
 العمدة ٢ : ٣٣ ، نقد الشعر : ٧٣ - ٧٤ ، نهاية الارب ٧ : ١٢٩ ،
 (٢) كتاب الصناعتين : ٤١٧ ، العمدة ٢ : ٤ ، ٣٧ ، ٦٥ - ٦٦ ،
 البديع : ٤٩ ،
 (٣) الديوان : ٥١٤ ، البديع : ٥٣ - ٥٤ ، كتاب الصناعتين :
 ٤١ ، نهاية الارب ٧ : ١١٤ ، العمدة ٢ : ٧٥ .

الخاتمة

حاولت في الدراسة السالفة أن أتعرف الى صورة الفردوق ، وأن أتبين ملامح شعره ، فبدأت بدراسة البصرة التي ضمت الشاعر وروبعته ، فتنبعت حياتها السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والثقافية منذ اختطها العرب أيام عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين • وعينت بيان الجوانب التي تعين على فهم الشاعر ، فذكرت ما كان لرابطة القبيلة في مقام الجماعات التي أمت مصر ، وتوزعهم أخماسا ، مستهدين صلة النسب والقراة • وما شجر بينهم من خصومة وتنازع • وضممت إليها ما كان للاسلام من آثار في نشوء اللحمة بين القبائل ، والمعاونة على اطفاء نار العصية بعد أن تستعر • وكانت كثرة الباحثين تميل الى تأكيد الجانب الجاهلي ، متجاهلة النوازع الخيرة التي غرسها الاسلام في قلوب أتباعه، الذين عرفوا بتحسّمهم في دينهم، واكبابهم على قرآنهم ، ومضيت أعرض صورا لهذا النشاط الديني الذي قام في البصرة ، فتجلّيت سلوكا قوامه الدعوة الى الخير ، والتمسك بأداب الاسلام ، والزهد في نعيم الدنيا ، وعظة الغافلين الخاطئين ، يذكرونهم بما فات ، وينذرونهم ما يلقون في الآخرة • وتبدّيت معارف قامت على تفسير القرآن ، وفهم الحديث ، واستنباط الأحكام ، وتفتح عن مذاهب وفرق ، جهدت ، وجاهدت لتقييم العقيدة على أسس من الأصول راسخة • فذكرت بذلك طوائف الزهاد والقصاص ، والفقهاء ، والقراء ، وأصحاب العقائد ، وانهم كانوا نواة الحركة الثقافية والدينية التي لقيت أرضا طيبة ، فنبتت ، واستوت على سوقها ، لتؤتي أكلها الطيب • وبينت ما كان للدين في عقول الناس وسلوكهم من آثار امتدت حتى بلغت أولئك الشعراء البادين الذين تعلقوا بمثل الماضي وحياته ، فأثيت بشواهد في سلوكهم وشعرهم تدل على

ما قدمت • ولم أغفل الإشارة الى تسرب ألوان من بقايا الثقافات القديمة الى هذا النشاط الديني • وختمت الفصل الأول ببيان الحركة الأدبية التي قامت نشيطة في البصرة ، فذكرت معنى تفرد البصرة بإبداع النحو ، وتعهد غراسه ، ودللت على الصلة التي ربطت بين نشأته وبين علم القراءات في القرآن ، حتى إن جميع النحاة الذين عرفوا في القرن الأول كانوا من القراء الذين شهروا بالقراءة ، وهذه الصلة، على جلالها وخطرها ، أغفلها الباحثون في نشأة علم النحو • وأوضحت صورة النشاط الأدبي الذي قام في البصرة ، وفي مسجدها الجامع ومربدها خاصة ، فأشرت الى نبتة علوم الرواية ، والنسب ، والأخبار ، واللغة التي أدت الى تلك الحركة الواسعة التي قامت في القرن الثاني • ثم أومأت الى خصائص فنون الأدب الخالص التي شهدتها مصر في القرن الأول وهي الشعر والخطابة والكتابة •

وانتقلت الى وصف حياة الفرزدق ، موضوع الفصل الثاني ، فتحدثت عن قبيلته تميم التي شهرت بكثرة عديدها ، وسعة رقعتها ، وشجاعة فرسانها ، وتوالي غاراتها ، وأيامها ، حتى عدت قاعدة من قواعد العرب ، وبيت مآثر بني مجاشع ، قومه الأديين ، ومكاتبهم في تميم ، ورفعة شأنهم ، وان اسرة الفرزدق كانت ذؤابة مجاشع ، وبيت مجدها وشرفها ، فنشأ الفرزدق وهو يحس احساسا عميقا أنه سليل أمجد العرب وأفضلها ، ورث أكرم مآثرها ، وأرفع محامدها ، وهذا الاحساس كفيلا أن يفسر فطرة الفرزدق التي عاش بها حياته كلها ، من التعالي والزهو بمجده ، واكبار شأن اسرته اكبارا دفعه أن يجير من استجار بقبر أبيه ، وأن يبالغ في جوده ، مبالغة تدنيه من فضائل آبائه ، وتجلى هذا الاحساس مفاخر تغنى بها في شعره ، فكان ديوانه أغزر ديوان عرف لشاعر فخرا ومباهاة • ومضيت أنعقب الشاعر في يفاعته وشبابه ، متوقفا عند الأحداث التي تركت آثارها في نفسه ، وفي تطور شعره ، فجلوت أمره مع ظمياء المنقرية التي أحبها في ريعان شبابه ، وأجمل أيامه ، والتي

أهملها الباحثون • ووقفت عند حادثة زياد التي انتشرت الفرزدق السادر في غيه ، العابث لا يلوي على شيء ، لفتح عينيه على حقائق الواقع ، وتبعات الحياة الثقال • وبينت ما كان للمدينة ، والحجاز عامة ، من أثر في نفسه وشعره • فقد ألف المدينة ، وأحب حياتها وأهلها ، وظل وفيها لموداته فيها • وأفضت في إيضاح ما قام بينه وبين النوار منذ تزوجها حتى طلقها ، وإن كنت أزعج أني لم أبلغ من ذلك ما أردت • فما زالت الحادثة غنية بوجوه التفسير ، لم يستخرج كل ما فيها • ولا بد من العودة إليها بسلاح جديد من علم النفس ، يقوى على كشف غامضها ، وإظهار مطويها • وطالت بي الرحلة أتبع حياة الشاعر التي طالت ، واشتبكت أحداثها ، فذكرت ما كان بينه وبين جرير من مناقضة دامت ثمانية وأربعين عاما ، وتركت سماتها في حياته وفنه • وبينت إقبال الشاعر على فن المديح ، استجابة لنداء العصر ، وملابسات البيئة ، حتى قدم وافدا على سليمان بن عبد الملك ، فعدا أحد أسنة بني أمية القوالة ، وتوطدت صلاته بالخلفاء • ولما ذر الخلاف بين المضرية واليمينية في العراق وخراسان انحاز الفرزدق الى قومه ، فسجن أيام ولاية خالد بن عبد الله القسري على العراق ، وناله الأذى ، فراح يفتن في الاعتذار ، يزجيه الى مالك بن المنذر وخالد القسري وهشام بن عبد الملك يستعيبهم به حتى خلى سبيله • ولم يسترح الشاعر بعد اطلاقه ، ولم يلد بالراحة ، فقد اشتدت حاجته ، وكثرت مطالبه ، فإذا هو ، على كبر السن ، وتقدم الميلاد ، يسوق أماديجه في الولاية ، يؤمل منهم العطاء ، وكانت مدائح قل نبض العاطفة فيها • فبدا فيها التكلف ، وتكرار المعاني ، وروح الاستجداء ، ولم تحب قريحة الشاعر فضل يقول الشعر يمتنح به حتى أسكته الموت •

وافتحت الباب الثاني من الرسالة بفصل تناولت فيه طبقات الديوان ، وطبعة النقائص ، ونقدتها ، وبينت ما يعتمدها من نقص ، لا سبيل الى تلافيه إلا باعادة طبعتها على نهج علمي سليم ، وتوفرت على دراسة مخطوطات

الديوان ، فوصفتها وبينت قيمتها ، وطرق روايتها الكوفية ، والبصرية ، وتوثيق روايتها ، لما لذلك كله من شأن في الدراسة الأدبية ، التي تعنى بتوثيق النص قبل دراسته ونقده . ولعل قلة من الدارسين فطنوا الى مثل هذه الدراسة في رسائلهم ، وهي في ظني واجبة في كل ديوان لم يستوف حقه في نشر علمي دقيق ، وإن كانت تقتضي من صاحبها جهدا ووقتا طويلا ، لصعوبة ما يقدم عليه من مقابلة النسخ ، ومعرفة أحوال روايتها ، ليدل على مميزات كل منها على حدة .

ووقفت الفصل الثاني على درس غرضي الهجاء والفخر ، ذلك بأن الفرزدق جلس في هذين الغرضين ، قال فيهما فأكثر وأجاد، حتى عدّ خيرا أغراضه ، لما ركب في طبعه من التعالي والتفاخر ، والزراية بالخصم، والتحقير لأمره . وكانت النقائص ذروة تطوير هذين الغرضين ورقبهما . حشد لها جرير والفرزدق أدوات فنهما ، في مباراة طالت ، وجدّ كل واحد منهما في مغالبة صاحبه ، وجعل ذلك همه أمدا طويلا (ثمانية وأربعين عاما) يتطلع الى العلبة والتفوق ، ويخشى أن يُقضى لصاحبه أنه أشعر منه . فكان ذلك مدعاة أن أطيل القول فيها ، وأدل على خصائصها ، وأوزان بين شاعريها ، لتنتهي بي الموازنة الى ترجيح الفرزدق بمزايا توفرت له في غنى المعاني ، (المفاخر والمثالب) ، وغزارة الصور ، والمقدرة على الاضحاك ، والثراء اللفظي ، ومتانة الاسلوب ، وكلها مزايا تعين في مقام المفاخرة والمهاجاة ، ووقفت على النقائص بدراسة غرضي الفخر والهجاء في ديوان الشاعر ، وكان غرضين امتزجا في أكثر القصائد ، وقد صحبت الشاعر فيهما منذ بدأ خصومته مع الأشهب أيام شبابه ، ومضيت أتعقب خصوماته حتى لقي الطرماح أيام شيخوخته . وبينت من خلال ذلك ما اتصفت به أشعاره في هذين الغرضين .

وكان الفصل الثالث لأبرز أغراض الشاعر الاخرى: الغزل ، والوصف،

والمدح ، والرثاء ، فبينت ما تجلّى في غزل الفرزدق من استبهار بالفواحش
 كان صدى ما يعتل في نفسه ، حتى عد أقول أهل الاسلام في هذا الفن •
 وقد رفدته موهبته القصصية، فأطال في هذا اللون من الغزل وصفا وحوارا •
 ولكنه قصر حين أراد أن يقول نسيبا يتشكى فيه الصباية • فلم تلتن نفسه
 الجاسية لهذا الفن الرقيق ، ولم تعرف له أبيات في الغزل سائرة • ثم كشفت
 عن فطرة الفرزدق المصورة، وذكرت من النماذج ما دل على أصالته، وموهبته
 في فن الوصف والتصوير ، وهو فن كاد يطسه الهجاء ، ويخفي معالمه ،
 لولا أن تسللت ألوان منه الى قصائده ، تنبىء عن تفوق الشاعر وابداعه
 في هذا الفن ، ومارس الفرزدق فن المديح ، يتقرب به الى الولاة والخلفاء ،
 وحظي به عند سليمان بن عبد الملك ، وقام له مقام الأخطل لأبيه عبد الملك ،
 وعد نفسه شاعر الأمويين ، دافع عن حقهم بالخلافة ، وخصم معارضيهم ،
 وحبر المدائح في خلفائهم ، يعدد ما أوتوه من فضائل ومناقب ، أهلتهم أن
 يكونوا ساسة المسلمين ، وامناء الله • فكان الفرزدق بذلك أحد الشعراء
 الذين طوروا معاني قصيدة المديح ، حين أدخلوا فيها العناصر الدينية، فبدت
 صورة الامام الاسلامية تختال في أثواب غير التي ألّفها الناس من صور
 السادة الرؤساء في الجاهلية • إنها تمور بصفات التقى والورع ، وإيثار
 العدل ، والعناية بالرعية يتخللها اثبات حق الخلفاء في الامامة ، والحجاج
 عنهم ، ودفع باطل خصومهم • وجود الفرزدق في مديحه ، وإن لم يبلغ فيه
 ما بلغه في الفخر والهجاء • كان يحس أن قربه من الولاة والخلفاء يزيد في
 جاهه وعلو منزلته ، وينعش آماله، فكان هذا الاحساس يدفعه الى التجويد •
 وكانت مدائحه ، على ما فيها من مبالغة ، صادقة الملامح ، تصور خير
 ما عرف به المدوح • فصورة الحجاج التي تطل من مدحته تخالف صورة
 سليمان في مدحته ، ذلك بأن الشاعر القدير يأبى أن يجانب الحقيقة مجانبه
 تفسد روح الشعر • وبذلك حق للمؤرخ أن يعود الى المدائح ليرى
 الجوانب التي عني الشعراء باضاعتها من صور ممدوحيهم • وختمت الفصل

بفن الرثاء ، وهو فن لم تنفتح له نفس الشاعر • فلم يتح له التجويد فيه فكانت مراثيه في الأشراف كمالك بن مسمع ، وأخي الحجاج وابنه ، تعتمد على المبالغة ، يستر بها ضعف العاطفة ، وقد ارتفع قليلا عن ذلك في رثاء الحجاج • ولكن الفرزدق ، على جفائه ، بدا رقيقا ، صادق العاطفة ، شديد التفجع ، حزين اللهجة ، حين أصيب بأولاده ، وبابن أخيه ، وكان يؤمل منهم الخير ، ويرجوهم لنوائب الدهر •

وقد آثرت في دراسة فنون الشعر السالفة أن تكون دراسة تهدي بتاريخ نظم القصائد ، ما أمكنني ذلك ، لتكون أصدق في تبين خصائص الفن ، وتطوره على الزمن •

وعقدت الفصل الرابع لدرس الظاهرة اللغوية والنحوية في شعره ، وهي ظاهرة عرف بها الشاعر منذ القديم ، وأشار إليها السابقون ، فبينت ثراء الفرزدق اللفظي وسعة معجمه ، وما أتاح له ذلك من اتساع في اصطناع الألفاظ ، والصيغ ، وجرأة في الاشتقاق ، مهتديا بموهبته في تذوق اللفظ ، واحساسه بما يوحيه ائتلاف الأصوات ، وتلاقي الجروس في الكلمات من ايحاء الجو الذي يريده الشاعر مهاجيا ، أو مفاخرا ، أو واصفا ، فتراعت في شعره الألفاظ الغريبة ، النزرة ، التي أرضت الشاعر بجرسها أو ضخامة حروفها ، وراها أليق بمعانيه ، وأضاف الى ذلك أقداما على اصطناع المجاز ، يصور به مشاعره ، فيتجاوز به مألوفهم ، ويعبر به عن أحاسيس جديدة ، فكان هذا كله حافزا أي حافز أن يعنى به اللغويون ويقول فيه يونس بن حبيب : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة » • أما النحاة الذين استمدوا من شعر الفرزدق شواهد لما أصلوه من قواعد ، فقد لفتتهم في شعره ظواهر ضاعفت من عنايتهم ، إذ رأوا الشاعر يتنكب في طائفة من أشعاره ، نظم الجملة المألوف ، فيقدم ويؤخر ، حتى يتعقد الكلام ، ويحوج سامعه الى التقدير والتأويل • ورأوه مرة أخرى يشذ على قواعد

الاعراب ، ويخرج على ما تقتضيه صناعة النحو ، فشدتهم هذه النماذج الى شعره ، وأقبلوا على دراسته ، وتقليب الوجوه في تأويله ، إذ قدم اليهم ما يبغون من شواهد ، تظهر مهارتهم في تشقيق الفروض والتأويلات ، فكان الفرزدق بذلك أحب الشعراء اليهم ، أكثروا من شواذه ، وأطالوا في اعرابها ، والاحتجاج لها ، وبها •

وأفردت الفصل الأخير لبيان الخصائص الفنية ، فدلت على ما كان لارث الفرزدق الفني وموهبته الشعرية من آثار بدت في مقدرته على اختراع المعاني يأتي بها خصبة ، غنية ، يفتن فيها ، مما يسر له أن يفرق جريرا بسيل لا يقوى على صده • وكان يفيض في معناه ليحيط بجوانبه فكثرت بذلك التضمين في شعره ، وكان لتعمقه في المعاني أن كثر اختلاف الشراح والمفسرين في كثير من أبياته • وتلاؤلات في أشعاره : الأمثال والحكم ، والصور الدينية ، وأخبار القدماء ، أثرا من آثار معارفه الواسعة ، حتى قالوا : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » • وقد قوي الفرزدق أن يحيل ذلك كله شعرا جميلا ، خصبا ، استلهمه شعراء العصر العباسي ، وأكثروا من ورده ، وانتحيت الى جانب من فن الفرزدق تكاثفت عليه الظلمة حتى لا يبين ، فجلوت عنه وكشفته ، وهو موهبة الشاعر في السخرية ، جمع لها بين فني القص والتصوير ، فأصمى خصمه بسهام لا ترد • ثم بينت تفرد الفرزدق بأسلوب جزل قوي ، شديد الاسر ، غني الصور ، ثر الألفاظ ، ينبض بطباع الشاعر وينبىء عن ذات نفسه ، ويلائم معانيه الفخمة المهيبة • كان يختار اللفظة الموحية ، مستهديا بفطرته المصورة ، فأتيح له أن يفتح بابا عريضا من البيان (التشبيه والمجاز والكناية) يلج منه • وقد أدهش بجرأته النقاد • إنه يحس صلات تقوم بين الأشياء يعسر على غيره رؤيتها ، وتبينها • وقد أثر في تعبيره الایجاز ، فإذا هو ينتقي لمعناه اللفظ الذي لا يغني عنه مرادف • إنه موهبة الشاعر

في التمييز بين الكلم ، والاحساس بايحاء اللفظة ، جرسا وتلاؤما مع أخواتها في الصياغة ، حتى انه ليأتي أحيانا بالألفاظ الغريبة الوحشية ، يريد أن يستأنس بها معناه • وبدا في أسلوب الشاعر التهويل والمبالغة في الصفة ، صدى لنفسيته العالية المفرطة ، فبدت له أوصاف ائتلفت فيها فطرة المصور ، وطبع المهول ، يمدهما ثراء لفظي ، لا حد لغناه ، فكانت تلك الألواح ، يتراءى فيها صور الاسد والحية والبحر الزاخر والشجرة المميتة •

وختمت القول ببيان ألوانٍ من محسنات الشاعر التي تراءت

في شعره ••



ثبت بابرز ما كتب عن الفرزدق (١)

١ - الدراسات في كتب التاريخ الأدبي وأشباهاها

الكتاب	المؤلف	الجزء والصفحة	بلد الطبع وتاريخه
أدباء العرب	بطرس البستاني	١ : ٣٣٩ - ٣٧٠	بيروت
أعيان الشيعة	السيد محسن الأمين	٦٣ : ٥١ - ٧٧	ط ١ ، ١٩٦١
تاريخ الآداب العربية	نلينو	١٢٧ - ١٤٧	القاهرة ١٩٥٤
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان	١ : ٢٩٣ - ٢٩٦	القاهرة ١٩٥٧
تاريخ الأدب العربي (٢)	بروكلمان	١ : ٢٠٩ - ٢١٤	القاهرة
دائرة المعارف الإسلامية	شادي (كاتب المقالة)	٢ : ٦٤٠ - ٦٥	(النص الفرنسي)

٢ - الكتب المفردة

الفرزدق	حنانمر	الطرائف (حلقة: ٢)	بيروت ١٩٣٩
الفرزدق	فؤاد البستاني	الروائع (٣٨، ٣٧)	بيروت ١٩٤١
الفرزدق	ممدوح حقي	نوابغ الفكر العربي (١٢)	

٣ - المقالات في المجالات

الفرزدق	أحمد الاسكندري	الهلال (القاهرة)	ش : ٥٤ ، ٤ ، ١٩٣٤
الفرزدق	جرجي زيدان	الهلال (القاهرة)	ش : ١٢ ، ١٩٠١
الفرزدق	عمر فروخ	الأمالي (بيروت)	ش : ٦ ، ١٩٤٠
الفرزدق	فؤاد البستاني	المشرق (بيروت)	ص ١٣٣ - ١٧٥ ، ١٩٤٠
المثلث الأموي	فؤاد البستاني	المشرق (بيروت)	ص ٥١٥ - ٥٢٥ ، ١٩٣٣
مكانة الفرزدق	عبدالعزیز سيد الأهل	الاديب (بيروت)	ش : ١ ، ٢ ، ١٩٥٣

(١) لا يحوي هذا الثبت الكتب التي ذكرتها في المقدمة .

(٢) ترجمه الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، وهي التي أشير إليها .

مصادر البحث

أ - المخطوطات

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المصدر
١ أنساب الأشراف	البلاذري	١٢	دار الكتب المصرية ، رقم ٤٨٥٦ تاريخ
٢ التعازي	المبرد	١	الاسكوريال
٣ شرح شواهد المغني	البغدادي	٢	دار الكتب المصرية ، رقم ٢ نحو ، ش
٤ شرح القصائد السبع	أبو سعيد وأبو جابر	١	دار الكتب المصرية ، رقم ٣٩٠٠ أدب
٥ شرح القصيدة الدامغة	(نظمها الحسن الهمداني)	١	اليمن
٦ شرح المعلقات السبع	ابن الأنباري	١	دار الكتب المصرية ، رقم ١٥٣ ، أدب ، ش
٧ الشعور بالعور	الصفدي	١	دار الكتب المصرية
٨ فرحة الأديب	الغندجاني	١	دار الكتب المصرية
٩ منتهى الطلب	المبارك بن ميمون (أو محمد بن المبارك) البغدادي	٣	دار الكتب المصرية ، رقم ٥٣ أدب ، ش

ب - الكتب المطبوعة

الكتاب	المؤلف	عدد المطبعة (١) أو المترجم	بلد الطبع وتاريخه
١ آثار البلاد	القزويني	١	بيروت ١٩٦٠
١ مكرر آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع	ساطع الحصري	١	مصر ١٩٥١
٢ الإتقان	السيوطي	٢ (الموسوية)	القاهرة ١٢٧٨
٣ أحسن التقاسيم	المقدسي	١ (بريل)	ليدن ١٨٧٧
٤ الأحكام السلطانية	الماوردي	١ (البابي)	القاهرة ١٩٦٠
٥ أخبار أبي تمام	الصولي	١ (لجنة التأليف)	القاهرة ١٩٣٧
٦ أخبار البحري	الصولي	١ ح ، د. صالح الأشر	دمشق ١٩٥٨
٧ الأخبار الطوال	الدينوري	١ ح ، عامر والشيال	القاهرة ١٩٦٠
٨ أخبار القضاة	وكيع	٣ ط١ (الاستقامة)	القاهرة ١٩٤٧
٩ أخبار النحويين البصريين	السيرافي	١ ح ، كرنكو	بيروت ١٩٣٦
١٠ الأزمنة والأمكنة	المرزوقي	٢ (دائرة المعارف)	حيدرآباد ١٣٣٢
١١ أساس البلاغة	الزمخشري	٢ (دار الكتب)	القاهرة ١٩٢٢
١٢ الاستدراك	ابن الاثير	١ ح ، حفي شرف	القاهرة ١٩٥٨
١٣ الاستيعاب	ابن عبد البر	٢ (دائرة المعارف)	حيدرآباد ١٣٣٦
١٤ أسرار البلاغة	الجرجاني	١ ح ، ريتير	استانبول ١٩٥٤
١٥ الأشباه والنظائر	السيوطي	٤ (دائرة المعارف)	حيدرآباد ١٣١٦
١٦ الاشتقاق	ابن دريد	١ ح ، عبد السلام هارون	القاهرة ١٣٧٨
١٧ أشعب	توفيق الحكيم		
١٨ الإصابة	ابن حجر	٨ (السعادة)	القاهرة ١٣٢٣
١٩ إصلاح المنطق	ابن السكيت	١ ح ، شاکر وهارون	القاهرة ١٩٤٩
٢٠ الأصمعيات	الأصمعي	١ ح ، شاکر وهارون	القاهرة
٢١ الأضداد	ابن الانباري	١	الكويت ١٩٦٠
٢٢ إعجاز القرآن	الباقلاني	١ (دار المعارف)	القاهرة
٢٣ الأعلام النفيسة	ابن رسته	١ (بريل)	ليدن ١٨٩١

(١) جعلت المطبعة بين هلالين () ، وأشرت الى المحقق ب (ح) ، والى المترجم ب (ت) .

غدد المطبعة أو

الكتاب	المؤلف	الأجزاء المحقق أو المترجم بلد الطبع وتاريخه
٢٤	الاعلام	١٠ ط ٢
٢٥	أعيان الشيعة	محسن الأمين ٥٢ ط { (الانصاف) بيروت ١٩٦٠
٢٦	الأغاني	١٦ - ١ (دار الكتب) القاهرة ١٩٢٧-١٩٦١
٢٧	الاقتضاب	١٦-٢٣ ح ، فراج بيروت ١٩٥٩
٢٨	الأمالي	١ (الأدبية) بيروت ١٩٠١
٢٩	الأمالي	١ ط ١ (دائرة المعارف) حيدرآباد ١٩٤٨
٣٠	الأمالي (غرر الفوائد . .)	٢ ط ٢ (دار الكتب) القاهرة ١٩٢٦
٣١	الأمالي	٢ ح ، أبو الفضل ابراهيم القاهرة ١٩٥٤
٣٢	الإمتاع والمؤانسة	٢ (دائرة المعارف) حيدرآباد ١٣٤٩
٣٣	إنباه الرواة	٣ (لجنة التأليف) القاهرة ١٩٥٣
٣٤	أنساب الأشراف	٣ (دار الكتب) القاهرة ١٩٥٠
٣٥	أوضح المسالك	(الحادي عشر) غريفزولد ١٨٨٣
٣٦	البداية والنهاية	(الخامس) القدس ١٩٣٦
٣٧	البدیع	(الرابع - ق ٢) القدس ١٩٣٨
٣٨	البدیع فی نقد الشعر	(الأول) القاهرة
٣٩	بغية الوعاة	٣ ح ، محيي الدين القاهرة ١٩٥٦
٤٠	البلدان	١٤ (السعادة) القاهرة ١٩٥٣
٤١	البيان والتبيين	١ ح ، كراتشكوفسكي لندن ١٩٣٥
٤٢	تاج العروس	١ ح ، أحمد أحمد بدوي القاهرة
٤٣	تاريخ الأدب العربي	١ (السعادة) القاهرة ١٣٢٦
٤٤	تاريخ الإسلام	١ - طبع مع الأعلاق النفيسة -
٤٥	تاريخ الأمم والملوك	٤ ح ، عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٠
٤٦	تاريخ بغداد	١٠ (الخيرية) القاهرة ١٣٠٦
٤٧	تاريخ الدولة العربية	٣ ت ، د. عبد الحليم النجار القاهرة
٤٨	تاريخ النقائص في الشعر العربي	٤ (السعادة) القاهرة ١٣٦٧
		٨ (الاستقامة) القاهرة ١٩٣٩
		١٤ (السعادة) القاهرة ١٩٣١
		١ ت ، د. أبو ريذة القاهرة ١٩٥٨
		١ القاهرة ١٩٥٤

الكتاب	المؤلف	الأجزاء المحقق أو المترجم	عدد المطبعة أو	بلد الطبع وتاريخه
٤٩	التحفة البهية (سبع عشرة رسالة)	١	(الجوائب)	قسنطينية ١٣٠٢
٥٠	تذكرة الحفاظ	الذهبي	٤	(دائرة المعارف)
٥١	التشبيهات	ابن أبي عون	١	ح، عبد المعين خان
٥٢	التصحيح والتحريف العسكري		١	كمبريج ١٩٥٠ القاهرة
٥٣	التطور والتجديد في الشعر الأموي	د. شوقي ضيف	١	ط ٢ (دار المعارف)
	تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل القرآن			القاهرة ١٩٥٩
	تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن			
٥٤	التمثيل والمحاضرة	الثعالبي	١	القاهرة ١٩٦١
٥٥	تهذيب تاريخ دمشق	ابن عساكر	٧	دمشق ١٣٢٩
٥٦	تهذيب التهذيب	ابن حجر	١٢	(دائرة المعارف)
٥٧	ثمار القلوب	الثعالبي	١	(الظاهر)
٥٨	ثمرات الأوراق	ابن حجة	٢	ط ١ (الخيرية)
٥٩	جامع البيان	الطبري	٣٠	(بولاق)
٦٠	الجامع الكبير	ابن الأثير	١	ح ، مصطفى جواد
٦١	الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	٢٠	(دار الكتب)
٦٢	الجرح والتعديل	ابن أبي حاتم	٩	(دائرة المعارف)
٦٣	جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشي	١	(بولاق)
٦٤	جمهرة الأمثال	العسكري -		(طبع على هامش كتاب مجمع الأمثال)
٦٥	جمهرة أنساب العرب	ابن حزم	١	(دار المعارف)
٦٦	جمهرة اللغة	ابن دريد	٤	(دائرة المعارف)
٦٧	حلية الأولياء	أبو نعيم	١٠	(السعادة)
٦٨	الحماسة	البحثري	١	ح ، لويس شيخو
٦٩	الحيوان	الجاحظ	٧	ح، عبد السلام هارون
٧٠	الخراج في الدولة الإسلامية	ضياء الدين الريس	١	ط ١ (نهضة مصر)

الكتاب	المؤلف	عدد المطبعة أو	الأجزاء المحقق أو المترجم	بلد الطبع وتاريخه
٧١	البغدادي	٤	(بولاق)	القاهرة ١٢٩٩
٧٢	ابن جنبي	٣	(دار الكتب)	القاهرة ١٩٥٢
٧٣	المقريري (المواعظ . . .)	٤	(النيل)	القاهرة ١٣٢٤
٧٤	ماسينيون	١	ت ، المصعبي	صيدا ١٩٤٦
خمسة دواوين = ديوان الفرزدق				
٧٥	دائرة المعارف الإسلامية (النص الفرنسي)		الطبعة الأولى	
٧٦	ديوان أبي نواس	١	ح ، الغزالي	القاهرة ١٩٥٣
٧٧	ديوان الأخطل	٦	(الكاثوليكية)	بيروت ١٨٩١
٧٨	ديوان امرئ القيس	١	ح ، أبو الفضل ابراهيم	القاهرة ١٩٥٨
٧٩	ديوان جرير	١	ح ، الصاوي	القاهرة ١٣٥٣
٨٠	ديوان حاتم الطائي	١		ليبزغ ١٨٩٧
٨١	ديوان سلامة بن جندل	١	ح ، لويس شيخو	بيروت ١٩١٠
٨٢	ديوان الطرماح	١	ح ، كركنو	لندن ١٩٢٧
٨٣	ديوان الفرزدق (انظر في أوصاف نسخه المخطوطة والمطبوعة ما سلف في ص : ٢١٢ - ٢٣٨)			
٨٤	ديوان المعاني العسكري	٢	(القدسي)	القاهرة ١٣٥٢
٨٥	ديوان نابغة بني شيبان	١	(دار الكتب)	القاهرة ١٣٥١
٨٦	ذيل الأمالي القالي	٢	(دار الكتب)	القاهرة ١٩٢٦
٨٧	رسائل البلغاء - مجموعة اختارها محمد كرد علي	١	ط ٣ (لجنة التأليف)	القاهرة ١٩٤٦
٨٨	سرح العيون ابن نباتة	١	(محمد علي صبيح)	القاهرة
٨٩	سمط اللآلي البكري	٢	ح ، الميمني	القاهرة ١٩٣٦
٩٠	السيرة النبوية ابن هشام	٤	ح ، السقا ورفيقاه	القاهرة ١٩٣٦
٩١	شذرات الذهب ابن العماد	٨		القاهرة ١٣٥٠
٩٢	شرح الأبيات المشككة الفارقي	١	ح ، سعيد الأفغاني	دمشق ١٩٥٨
٩٣	شرح الحماسة المرزوقي	٤	ط ١ (لجنة التأليف)	القاهرة ١٩٥١
٩٤	شرح الحماسة التبريزي	٤	(بولاق)	القاهرة ١٢٩٦
٩٥	شرح الشافية البغدادي	٤	ح ، الزفزاف ورفيقاه	القاهرة
٩٦	شرح شواهد المغني السيوطي	١	(البهية)	القاهرة ١٣٢٢
٩٧	شرح المقامات الشريشي	٢	(بولاق)	القاهرة ١٢٨٤

الكتاب	المؤلف	الأجزاء المحقق أو المترجم	عدد المطبعة أو	بلد الطبع وتاريخه
٩٨	شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد	٤	القاهرة
٩٩	شروح سقط الزند	التبريزي و... .	٥	القاهرة ١٩٤٥
١٠٠	الشعر الفنائي... .	د. شوقي ضيف	٢	القاهرة ١٩٤٩ (الإعتماد)
١٠١	الشعر والشعراء	ابن قتيبة	١	ليدن ١٩٠٢ (بريل)
١٠٢	الصبح المنير في شعر أبي بصير	ح ، غير	١	١٩٢٧
١٠٣	صحيح البخاري	(الشعب)	٩	القاهرة ١٣٧٨
١٠٤	صحيح مسلم بشرح النووي	(المصرية)	١٨	القاهرة
١٠٥	صفة جزيرة العرب	الهمداني	١	القاهرة ١٩٥٣ ح ، ابن بليهد
١٠٦	صفة الصفوة	ابن الجوزي	٤	حيدرآباد ١٣٥٥
١٠٧	(كتاب) الصناعتين	العسكري	١	ح، البجاوي وأبو الفضل القاهرة ١٩٥٢
١٠٨	طبقات الشافعية	السبكي	٦	القاهرة (الحسينية)
١٠٩	طبقات فحول الشعراء	ابن سلام	١	ح، محمود محمد شاكر القاهرة ١٩٥٢
١٠٩	(مكرر) طبقات القراء	ابن الجوزي	٣	ح، برغستراسر/ القاهرة ١٩٣٢-١٩٣٣
١١٠	الطبقات الكبير	ابن سعد	٨	ليدن ١٢٢١ (بريل)
١١١	طبقات النحويين و... .	الزبيدي	١	ح، أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٤
١١٢	العثمانية	الجاحظ	١	ح، عبد السلام هارون القاهرة ١٩٥٥
١١٣	العصر الجاهلي	د. شوقي ضيف	١	القاهرة ١٩٦١ (دار المعارف)
١١٤	العقد الفريد	ابن عبد ربه	٧	ط١ (لجنة التأليف) القاهرة ١٩٤٠
١١٥	العمدة	ابن رشيقي	٢	ح ، محيي الدين القاهرة ١٩٣٤
١١٦	عنوان المجد	ابراهيم فصيح	١	بغداد
١١٧	عيار الشعر	ابن طباطبا	١	ح، الحاجري وزغلول القاهرة ١٩٥٦
١١٨	عيون الأخبار	ابن قتيبة	٤	القاهرة ١٩٢٥ (دار الكتب)
١١٩	غرر الخصائص	الوطواط	١	القاهرة ١٢٨٤ (بولاق)
١١٩	(مكرر) الفائق	الزمخشري	٣	ح، البجاوي وأبو الفضل القاهرة ١٩٤٥
١٢٠	الفاضل	المبرد	١	القاهرة ١٩٥٦ (دار الكتب)
١٢١	فتح الباري	ابن حجر	١١	القاهرة ١٩٥٩ (البابي)
١٢٢	فتوح البلدان	البلاذري	١	القاهرة ١٩٥٩ (السعادة)
١٢٣	فحولة الشعر	الأصمعي	١	
١٢٤	الفرزدق	خليل مردم	١	دمشق ١٩٣٩ (الترقي)
١٢٥	فصل المقال	البكري	١	ح ، عابدين وعباس الخرطوم ١٩٥٨

الكتاب	المؤلف	عدد المطبعة أو	الأجزاء المحقق أو المترجم بلد الطبع وتاريخه
١٢٦ الفن ومذاهبه في الشعر العربي	د. شوقي ضيف	١	ط ٤ (دار المعارف) القاهرة ١٩٦٠
١٢٧ الفن ومذاهبه في النثر العربي	د. شوقي ضيف	١	ط ١ (لجنة التأليف) القاهرة ١٩٤٦
١٢٨ الفهرست	ابن النديم	١	ح ، فلوجل ليبزيغ ١٨٧٢
١٢٩ الفهرست	الطوسي	١	ح ، محمد صادق النجف ١٣٥٦
١٣٠ الفهرست	ابن خير	١	سرقسطة ١٨٩٤
١٣١ في الادب الجاهلي	د. طه حسين	١	ط ٣ القاهرة ١٩٣٣
١٣٢ كاظمة	يعقوب غنيم	١	(السلفية) القاهرة ١٣٧٧
١٣٣ الكامل	المبرد	١	ح ، رايت ليبزيغ ١٨٦٤
١٣٤ الكامل في التاريخ	ابن الاثير	٩	القاهرة ١٣٤٨
١٣٥ الكتاب	سيبويه	٢	(بولاق) القاهرة ١٣١٦
١٣٦ كشف الظنون	حاجي خليفة	٢	استانبول ١٩٤١
١٣٧ الكشكول	العالمي	٢	القاهرة ١٩٦١

كنايات الجرجاني = المنتخب من كنايات الأدباء

١٣٨ لسان العرب	ابن منظور	٢٠	ط ١ (بولاق) القاهرة ١٣٠٠
١٣٩ لسان الميزان	ابن حجر	٦	حيدرآباد ١٣٢٩
١٤٠ لطائف المعارف	الثعالبي	١	ح ، الأبياري والصيرفي القاهرة
١٤١ المؤلف والمختلف	الأمدي	١	ح ، عبد الستار فراج القاهرة ١٩٦١
١٤٢ متنوعات	د. كامل حسين	٢	القاهرة
١٤٣ المثل السائر	ابن الاثير	٢	ح ، محيي الدين القاهرة
١٤٤ مجالس ثعلب	ثعلب	٢	ح ، عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٠
١٤٥ مجلة مجمع اللغة العربية			(تصدر في القاهرة)
١٤٦ مجلة المشرق			(تصدر في بيروت)
١٤٧ مجمع الامثال	الميداني	٢	القاهرة ١٣١٠
١٤٧ مكرر مجمع الامثال	الميداني	٢	مصر ١٣٥٢
١٤٨ مجموعة رسائل الجاحظ			
١٤٩ محاضرات الأدباء	الأصفهاني	٢	(المولىحي) القاهرة ١٢٨٧

الكتاب	المؤلف	الأجزاء المحقق أو المترجم	عدد المطبعة أو	بلد الطبع وتاريخه
١٥٠. الحبر	ابن حبيب	١	(دائرة المعارف)	حيدرآباد ١٣٦١
١٥١ مختصر البلدان	ابن الفقيه	١	(بريل)	ليدن ١٣٠٢
١٥٢ مذاهب التفسير الاسلامي	غولد تسيهر	١	ت، د. عبدالحليم النجار	القاهرة ١٣٧٤
١٥٣ مرآة الجنان	اليافعي	٤	(دائرة المعارف)	حيدرآباد ١٣٣٩
١٥٤ مراتب النحويين	أبو الطيب اللغوي	١	ح، أبو الفضل ابراهيم	القاهرة ١٣٧٥
١٥٥ المرشد	د. عبد الله الطيب	٢	(الحلبي)	القاهرة ١٣٧٤
١٥٦ مروج الذهب	المسعودي	٤	ح ، محيي الدين	القاهرة ١٣٥٧
١٥٧ المزهري	السيوطي	٢	ح، أبو الفضل ابراهيم	القاهرة ١٣٦٣
١٥٨ المسالك والممالك	ابن خرداذبة	١	(بريل)	ليدن ١٣٠٦
١٥٩ مسالك الممالك	الاصطخري	١	(بريل)	ليدن ١٩٢٧
١٦٠ المسند	أحمد بن حنبل	١٦	أحمد محمد شاكر	القاهرة ١٣٦٥
١٦١ المصاحف	ابن أبي داود	١	ح، آرثر جيفري	القاهرة ١٣٥٥
١٦٢ مصادر الشعر الجاهلي	د. ناصر الدين الاسد	١	(المعارف)	القاهرة ١٩٥٦
١٦٣ المعارف	ابن قتيبة	١	(دار الكتب)	القاهرة ١٩٦٠
١٦٤ المعاني الكبير	ابن قتيبة	٣	(دائرة المعارف)	حيدرآباد ١٣٦٨
١٦٥ معاهد التنصيص	العباسي	٤	ح، محيي الدين	القاهرة ١٣٦٧
١٦٦ معجم الأدباء	ياقوت	٧	ح ، مرغليوث	القاهرة ١٩٢٣
١٦٧ معجم البلدان	ياقوت	٨	(السعادة)	القاهرة ١٣٢٣
١٦٨ معجم الشعراء	المرزباني	١	ح، عبد الستار فراج	القاهرة ١٣٧٩
١٦٩ معجم ما استعجم	البكري	٤	ح ، مصطفى السقا	القاهرة ١٣٦٤
١٧٠ معجم المطبوعات	سركيس	٢		القاهرة ١٣٤٦
١٧١ المفردات السبع	الدائي	١	(الفاروقية)	القاهرة
١٧٢ المفضليات	المفضل الضبي	١	ح ، أحمد محمد شاكر	القاهرة ١٣٦١
١٧٣ مقاتل الطالبين	الأصبهاني	١	ح ، سيد صقر	القاهرة ١٣٦٨
١٧٤ المكثرة	الطيالسي	١	ح ، ابن تاويت	انقرة ١٩٥٦
١٧٥ المنتخب من كنايات الأدباء	الجرجاني	١	(السعادة)	القاهرة ١٣٢٦
١٧٦ المنتخب مما في خزائن الكتب بحلب		١	(المجمع الفرنسي)	القاهرة ١٩٤٦

الكتاب	المؤلف	الأجزاء المحقق أو المترجم	عدد المطبعة (١) أو	بلد الطبع وتاريخه
١٧٧ الموازنة	الأمدي	١ ح ، محيي الدين	١	القاهرة ١٩٥٤
١٧٨ الموشح	المرزباني	١ (السلفية)	١	القاهرة ١٣٤٣
١٧٩ ميزان الاعتدال	الذهبي	٣ (السعادة)	٣	القاهرة ١٣٢٥
١٨٠ النجوم الزاهرة	ابن تغري بردي	١٢ (دار الكتب)	١٢	القاه ١٩٢
١٨١ نزهة الألباء	ابن الأنباري	١	١	القاه ١٢٦٠
١٨٢ نسب قریش	مصعب	١ ح ، بروفنسال	١	القاه ١٩٣٥
١٨٣ نسب قریش	الزبير بن بكار	١ ح ، محمود محمد شاكر	١	القاهر ١٣٨١
١٨٤ النشر	ابن الجزري	٢ ح ، دهمان	٢	دمشق ١٣٤٥
١٨٥ نقائض جرير والفرزدق (انظر في أوصافها)		٤ مطبوعة ومخطوطة ، ما س . في ص .	٤	

(٢٥١ - ٢٥٥)

١٨٦ نقائض جرير والأخطل أبو تمام	١ (الكاثوليكية)	١	بيروت، ١٩٢٢	
١٨٧ نقائض جرير والفرزدق الزهيري	١ (دار المعرفة)	١	بغدا ١٩٥٤	
١٨٨ نقد الشعر	قدامة	١ ح ، بونيباكر	١	ليدن ١٩٥٦
١٨٩ النقط	الداني	١ ح ، اوتو برتزل	١	استانبول ١٩٣٢
١٩٠ نهاية الأرب	النويري	١٥ (دار الكتب)	١٥	القاهرة ١٩٢٣
١٩١ نوادر المخطوطات		٢ ح ، عبد السلام هارون	٢	القاهرة ١٩٥١
١٩٢ الوحشيات	أبو تمام	١ ح ، الميمني ومحمود شاكر	١	القاهرة ١٩٦٢
١٩٣ الوزراء والكتاب	الجهشياري	١ ح ، مصطفى السقا	١	القاهرة ١٩٣٨
١٩٤ وفيات الأعيان	ابن خلكان	٦ ح ، محيي الدين	٦	القاهرة ١٩٤٨

توضيح

درجت في الرسالة على أن أثبت في الحواشي مصادر الفقرة كلها ، لا أن أفرد كل خبر بمصدره على حدة .

الفهرس

مقدمة

١٣ - ٥

الباب الاول - بيئة الفردق وحياته

٩٨ - ١٧

الفصل الاول : البصرة في القرن الاول

- ١ - الحياة السياسية والاجتماعية ١٧ - ٥١
- ٢ - الحياة الدينية والفكرية ٥٢ - ٨٢
- ٣ - الحياة الادبية ٨٣ - ٩٨

٢٠٧ - ٩٩

الفصل الثاني : حياة الفردق

- ١ - قبيلته وأسرته ٩٩ - ١١٥
- ٢ - نشأته وشبابه ١١٦ - ١٢٨
- ٣ - فراره الى الحجاز ١٢٩ - ١٤٤
- ٤ - تزوجه النوار ١٤٥ - ١٥٨
- ٥ - صلاته بالولادة والخلفاء ١٥٩ - ١٨٦
- ٦ - أيام شيخوخته ١٨٧ - ٢٠٧

الباب الثاني - شعر الفردق

٢٧٥ - ٢١١

الفصل الاول : مصادر شعر الفردق

- ١ - الديوان ٢١٢ - ٢٣٨
- ٢ - توثيق الديوان ٢٣٩ - ٢٥٠
- ٣ - النقائض ٢٥١ - ٢٧٢
- ٤ - صوى في طريق الناقد ٢٧٣ - ٢٧٥

٣٦٥ - ٢٧٦

الفصل الثاني : الهجاء والفخر

« أ » النقاىض

- ١ - صورؤها وأغراضها ٢٨١ - ٣٠٠
٢ - خصائصها الفنية ٣٠١ - ٣٢٩

« ب » الهجاء والفخر

- ٣ - الهجاء ٣٣٠ - ٣٥٦
٤ - الفخر ٣٥٦ - ٣٦٥

الفصل الثالث : أغراض شعره الاخرى ٣٦٦ - ٤٣٠

- ١ - الغزل ٣٦٦ - ٣٨٣
٢ - الوصف ٣٨٣ - ٣٩٨
٣ - المدح ٣٩٩ - ٤١١
٤ - الرثاء ٤١٢ - ٤٣٠

الفصل الرابع : الظواهر اللغوية والنحوية ٤٣١ - ٤٦١

- ١ - ثقافة الفرزدق ٤٣١ - ٤٣٦
٢ - الجانب اللغوي ٤٣٧ - ٤٤٤
٣ - الجانب النحوي ٤٤٥ - ٤٦١

الفصل الخامس : الخصائص الفنية ٤٦٢ - ٥١٠

- ١ - الخصائص المعنوية ٤٦٤ - ٤٨٧
٢ - الخصائص اللفظية ٤٨٨ - ٥١٠

٥١١ - ٥١٨ الخاتمة

٥١٩ الثبت

٥٢٠ - ٥٢٨ المصادر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com